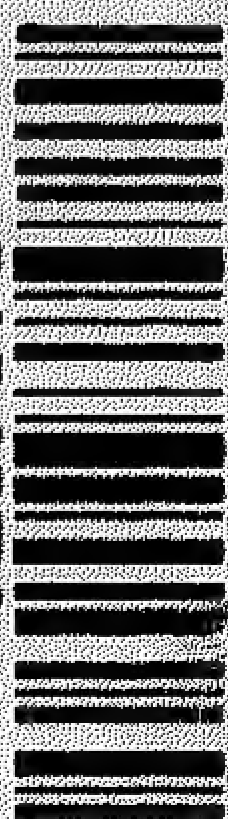




أعلام العرب



الحسن بن الهيثم

تأليف
أحمد سعيد الدمرداش

دار
الكاتب
العربي
للطباعة
والنشر

يوليو ١٩٦٩

أعلام العرب

٨٥

الحسن بن الهيثم

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
فرع مصر — ١٩٦٦

تمهيد

هلموا هلموا يا من بالتراث تؤمنون ، لقد انتفض الفكر الاسلامى كله فى القرن العاشر الميلادى بعد تيقظ طويل ، انتفض كعصفور بلله قبل الصباح ندى !! واقع الأمر انتفاضتان ، وحوله جوارح الطير من حضارات أخرى سابقة .

انتفاضة العقـــل ، وكانت للطبيعيات ركيزة ، فأمست للعلوم رياشا وزيا ، وانتفاضة القلب ، وكانت للالهيات دعامة ، فأصـــبحت للنفوس أثاثا وريا !!

وعرف المســـتعمر ثقل التراث ، فأراد لنا عزلة منه ، واستحوذ على الكثير منه فأراد له تشويها وبترا ، استحوذ عليه من دورنا ومساجدنا وأسواقنا ، فى غفلة منا ، وغدا الشرق الاسلامى كله شيخا تربا بعد أتراب ، وشاب فكره وتحجر بعد طول اعشاب ..

وتراث ابن الهيثم جم غزير ، طمسته الشعوبية والتعصب المذهبى حقبة من زمان ، وعرفه المستشرقون الأجانب فأولوه قدره ، وفى مرحلة اليقظة ثم الوعى أحسسنا مكانته فى تاريخ العلم ..

كانت أول محاولة للتعرف به ، تلك التى قام بها « على يوسف » المهندس والآل خبرة بالمحاكم ، والعضو بجمعية المهندسين بانجلترا ، فى رسالة قصيرة عنوانها « القول فى الضوء » لابن الهيثم ، وذلك منذ أربعين عاما ، رسالة صغيرة فى بضع صفحات لم تفتق رتق سمع !!

ثم أعقبتها رسالة أخرى للأستاذ « عبد الحميد حمدى » حين كان مدرسا أول بالمدارس الثانوية ، تقدم بهـــا لنيل جائزة أعلنت عنها وزارة المعـــارف عام ١٩٣٨ م ، فنالها وطبعت تحت عنوان « رسالة الحسن بن الهيثم فى الضوء » ، طبعتها جمعية المعلمين، وقد قرأتها فما وجدت فيها سوى ركية بكية ، وخلية خلية ..

ورتبت كلية الهندسة بجامعة القاهرة سلسلة من المحاضرات عام ١٩٣٩ م احياء لذكرى ابن الهيثم ، وتخليدا لاسمه ، وابتداها أستاذ ورئيس قسم الطبيعة فيها وقتذاك الأستاذ مصطفى نظيف ، فأفعم منـــــه سجلا ، ثم أتبع سجلا ..

وأعقب ذلك تأليفـــه المتن العميق « الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه البصرية » متن من جزئين ، تناول فيه دراسة ابن الهيثم دراسة أكاديمية ، أبهرت المستشرقين فى ثرائها ، دراسة لا يفهمها الا كل مستوعب لعلم الضوء ، وله دراية بالرياضيات العالية ، وظهر المتن عام ١٩٤٢ م ، ثم تبعته دراسات عن ابن الهيثم قامت بها الجمعية المصرية لتاريخ العلوم التى أتشرف بأمانة صندوقها ، وجمعت فى عـــددها الصـــادر

عام ١٩٥٨ م ، غير أن هذه الدراسات قد غفلت بعض نواحى ابن الهيثم ..

ولما كلفتنى دار الكاتب العربى بمهمة تأليف كتاب عن ابن الهيثم فى سلسلة أعلام العرب ، رأيت أن ألم الشعث لجميع النواحى الناقصة فى شيء من التبسيط ، لكى يقرؤه المثقفون فى يسر وسهولة ، اذ جعلت الصعوبة فيه متدرجة ، حتى يعرف الجميع كيف كان الفكر العربى منذ تسعمائة عام أو يزيد ، وكيف ساقط هذا الفكر درا ، حلى الطروسا ..

ايه يا تاريخ العلم ! جواب آفاق ترامت سفرتك !!

لقد جاءك ابن الهيثم بفكر جديد ، وعلم أصيل فى شتى نواحى المعرفة ، واستلهم علماء النهضة فى أوروبا منه الكثير ، وهم منكرون فضله ، فعساى أن أكون قد وفيت لابن الهيثم بعض قدره ، فى هذه العجالة القصيرة ، وتبا لها من عجالة ، اذ كان أولى لها أن تكون موسوعة ، تسدى دينا طال أمده لابن الهيثم ، دينا يدين به العالم الاسلامى كله .

والله الموفق .

أحمد سعيد الدمرداش

الأستاذ بكليتى الفنون التطبيقية والجميلة

شارع الهرم ــ ديسمبر سنة ١٩٦٨



معالم الطريق

انسان وافر النصيب من ثناء الناس ، ومن ثناء الذين لا يثنون على أحد الا بمقدار ، انسان كان يرى قرب العلم قربى ، ومغناه غنية ، ترفع عن المال والجاه فعاش عيشة ضنكا ..

قضى ردحا من الزمن فى الشام فى كنف أمير من أمرائها ، وأغدق عليه الأمير نعمه وعطاياه ، فرفض ابن الهيثم العطايا قائلا :

« يكفينى قوت يومى ، وتكفينى جارية وخادم ، فما زاد على قوت يومى ان أمسكته كنت خازنك ، وان أنفقته كنت قهرمانك ووكيلك ، واذا اشتغلت بهذين الأمرين ، فمن الذى يشتغل بأمرى وعلمى ؟ » .

وما قبل بعد ذلك الا نفقة أحتاج اليها . ولباسا وسطا .

حياة القفطى فى « اخبار العلماء بأخبار الحكماء » قائلا :

« الحسن بن الحسن بن الهيثم أبو على المهندس البصرى ، نزيل مصر ، صاحب التصانيف والتواليف المذكورة فى علم

الهندســـة ، كان عالما بهذا الشأن متقنا له ، متفننا فيه ، قيما بغوامضه ومعانيه ، مشاركا فى علوم الأوائل ، أخذ الناس عنــه واستفادوا منه » .

وحياه البيهقى فى « تاريخ حكماء الاسلام » .

« الحكيم بطليموس الثانى أبو على بن الهيثم ، كان تلو بطليموس فى العلوم الرياضية والمعقولات ، وتصانيفه أكثر من أن تحصى ، وله فى الأخلاق رسالة لطيفة ما سبقه بها أحد ، وقد صنف كتابا فى الحيل ، وبين فيه حيلة اجراء نيل مصر عند نقصانه فى المزارع » .

وحياه جورج سارتون وهو من أعاظم مؤرخى العلم . قال :

« وهو أعظم عالم فيزيقى مسلم ، وأحد كبار العلماء الذين بحثوا فى البصريات فى جميع العصور ، وقد كان فوق ذلك فلكيا ورياضـــيا وطبيبـــا ، وله شروح على مؤلفـــات أرسطوطاليس وجالينوس ، والترجمة اللاتينيـــة لكتابه المنـــاظر ــ وهو أهم مؤلفاته ــ كانت لها أثر عظيم على العلم فى الغرب ، خصوصا على « روجير بيكون » ، « كبلر » ، وفيهـــا يتجلى الرقى العظيم الذى وصلت اليه الطرق التجريبية » .

وذكره « جوزيف هل » فى مؤلفه عن الحضارة الاسلامية قائلا :

« ولقد اتجه ابن الهيثم بأبحاثه الى دراسة « الحجرة المظلمة » وربما كان « روجير بيكون » أول من تمكن من الانتفاع بها ، ويجب أن يعتزى لابن الهيثم فضل التفريق بين الظل وشبه الظل ، ولقد ترجمت بحوث ابن الهيثم فى البصريات الى اللغتين اللاتينيـــة والايطالية ، فأفادت « كبلر » كمرشـــد أمين له اعتمـــد عليها فى بحوثه ، ومن المحتمل أيضا أن يـــكون « ليوناردو دافنشى » قد علم بمؤلفات ابن الهيثم ، وأن يكون قد استخدمها » .

وقال عنه المستشرق « دى بور » فى كتابه تاريخ الفلسفة الاسلامية :

« وفى القاهرة فى أوائل القرن الحادى عشر ، نجد أحد الرياضيين والفيزيقيين من ذوى الاعتبار الكبير في جميع العصور الوسطى : هو ابن على محمد بن الحسن بن الهيثم ـ الهازن .

وكان قبل ذلك موظفا حكوميا فى البصرة مسقط رأسه ، وأنه كان شديد الثقة متفاليا فى تقدير القيمة العملية لمعرفته الرياضية.

حسب أنه يستطيع أن ينظم فيضان النيل ، فلما استدعاه الخليفة الحاكم لهذا السبب ، أيقن عقب وصوله مباشرة عقم مجهوداته ، وعند ذلك سقط اعتباره كموظف عمومى ، وتوارى عن الأعين حتى مات الخليفة عام ١٠٢١ م ، ومنذ ذلك التاريخ كرس نفسه للأدب والعلم حتى مات عام ١٠٣٨ م » .

وقال عنه « كاچورى » فى تاريخ الفيزيقا :

« وكان الهازن ـ أول طبيب وصف العين وصفا مسهبا ، وقد استمد معلوماته فى وصف العين من مؤلفات فى التشريح ، وكان هو وبعض معاصريه من علماء العرب ، وبعض العلماء المتأخرين منهم يعارضون رأى « أوقليدس » ، والأفلاطونيين القائل بأن الأبصار يحدث عن أشعة تخرج من العين ، وكانوا يؤيدون رأى ديموقريطس وارسطو القائل بأن السبب هو صدور أشعة من الجسم نفسه » .

وحياه المرحوم الدكتور على مصطفى مشرفة العميد السابق لكلية العلوم بجامعة القاهرة قائلا : « والمطلع على كتاب ابن الهيثم فى حل شكوك أوقليدس يلمس فيه دقة المؤلف فى التفكير وتعمقه فى البحث واستقلاله فى الحكم ، كما يتضح له صحة ادراك ابن الهيثم لمكان الهندسة الاوقليدية من العلوم الرياضية ، على

أنها دراسة منظمة للعلاقات والمقادير المكانية من ناحية كونها علاقات أو مقادير دون نظر الى ما يمكن أن تدل عليه من موجـــودات ، فابن الهيثم فى هذا الكتاب رياضي بحث بأدق ما يدل عليـــه هذا الوصف من معنى ، وأبلغ ما يصل اليه من حدود » .

وقال عنه مؤرخه الجليل الأستاذ مصطفى نظيف ــ أطال الله عمره :

« ابن الهيثم فى منحى تفكيره وفى طريقة بحثه ، رجل تتوافر فيه الصفات التى تتوافر فى رجالات العلم فى العصر الحديث ، فهو عالم بمعنى « سيانتست » بكل ما يؤديه هذا اللفظ من المعانى ، وهو فى ميدان علم الطبيعة ، ان لم يكن من طراز المحدثين فى الجيل الحاضر فانه من غير شك من طراز علماء الطبيعة فى القرن التاسع عشر .

وبحوثه المبتكرة فى علم الضوء تجعله فى مقدمة الأعلام الأفذاذ فى تاريخ هذا العلم ، ولكن له غير ما أضافه على صفحات هـــذا العلم من الصفحات المجيدة ، أثرا عاما عميقا ، جعل علم الضـــوء يتخذ صبغة جديدة ، وينشأ نشأة أخرى غير نشأته الأولى ، وهذا التأثير العام الذى أحدثه ابن الهيثم فى علم الضوء ، ويتغلغل الى الأساس ذاته الذى يقوم عليه هذا العـــلم جدير بالتقدير ، ولم ينل على ما نعلم ما هو أهله من العناية والاهتمام .

وأثر ابن الهيثم العام فى علم الضـــوء نظيره فى تاريخ العلم أثر « نيوتن » العام فى علم الميكانيكا ، فان قيل ان بعض بحوث ابن الهيثم قد سبقه اليها بعض المتقدمين ، اذ سبقه « أوقليدس » مثلا الى أحد شطرى قانون الانعكاس ، وسبقه « بطليموس » الى دراسة الانعطاف ، وسبقه آخرون الى بيان كيفية الاحراق فى المرايا المحرقة أو الكرات المحرقة وما الى ذلك ، فان « نيوتن » أيضا قد سبقه « جاليليو » الى قانون القصـــور الذاتى الذى تشـــيع

الآن نسبته الى « نيوتن » وسبقه « هيجنز » و « ستيفنوس » وغيرها الى كثير من الفكر الأساسية التى يقوم عليها علم الميكانيكا ، ولكن من غير شك قد كانت الأصول الأولية فى علم الميكانيكا قبل « نيوتن » مفككة مبعثرة ، يشوبها غموض كبير ، ولم تكن قد نضجت معانيها نضجا تاما ، فجاء « نيوتن » وأدرك حقائق الأمور ، وأضاف من عنده الى ما كان معروفا من قبل ما أضاف ، وربط كل ذلك بعضه ببعض حتى آلت صيرورتها على يديه الى وحدة شاملة ، هى الأساس الذى قام عليه علم الميكانيكا من بعده .

وبالمثل كانت المعلومات فى علم الضوء من قبل ابن الهيثم لا رابط يربطها ولا سلك ينظمها .. ولكنه أعاد البحث فى كل هذه الأمور من جديد ، ونظر فيها جميعا نظرا جديدا ، لم يسبقه اليه أحد من قبله ، واتجه فى هذا النظر وجهة جديدة لم يولها أحـد من المتقدمين ، وأصلح الأخطاء ، وأتم النقص ، وابتكر المستحدث من المباحث ، وأضاف الجديد من الكشوف ، وسبق فى غير قليل من ذلك الأجيال والعصور .

واستوفى البحث اجمالا وتفصيلا ، وسلك فى البحث سبيلا تتوافر فيها خصائص طرق البحث العلمى ، مع ما فى هذه الطرق من قصور ومع ما فيها من ميزات ، واستطاع أن يؤلف من كل ذلك وحدة مرتبطة الأجزاء ، على قدر ما كان يمكن أن ترتبط به أجزاؤها فى عصره ، ان وجدنا فيها نقصا أو عيبا ، فتلك سنة الله فى المباحث العلمية ، وهو فيها لم يبدع ولم يبتكر فحسب ، بل هو أيضا أقام بها الأسس التى انبنى عليها صرح علم الضوء من بعده » .

وأخيرا نختتم أقوال مؤرخى العلم بالكلمة التى قالها الأستاذ الدكتور محمد رضا مدور الحائز على الجائزة التقديرية للعلوم . فى محاضرته عن ذكرى ابن الهيثم حيث قال :

« والخلاصة أن ابن الهيثم يعتبر بحق من كبار علماء وقته ، ويستدل على ذلك من سعة أعماله فى الفلك وفى الرياضة ولا سيما

فى الطبيعة ، وان أردنا أن نقارن ابن الهيثم بعلماء عصرنا الحاضر فلن أكون مغاليا اذا اعتبرت الحسن بن الحسن بن الهيثم تضاهي في مرتبة العلامة « اينشتين » فى عصرنا هذا » .

هكذا يقول مؤرخو العلم الذين يزنون الأمور بمقدار ، وقلما يثنون بمقدار !! أما ابن الهيثم نفسه فقد اتخذ العـــلم شرعة ، والبحث فيه نجعة ، فلم يكن الا كذواق له شارب ، يتمثل دائمـــا ببيتين من الشعر لأبى القاسم بن الوزير أبى الحسن على بن عيسى الذى قالهما وأوصى بأن يكتبا على قبره :

رب ميت قد صـــار بالعلم حيا
ومبقى قد مات جهـــلا وغيـــا

فاقتنوا العـــلم كى تنالوا خلودا
لا تعدوا البقاء فى الجهـل شـــيا

ذلكم هو نبأ ابن الهيثم فلنمض اذن الى تأريخه :

* * *

هو الحسن أبو على بن الحسن بن الهيثم ، كان أحد الثلاثة الأعلام الأفذاذ من علماء النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى وهم البيرونى وابن ســـينا وابن الهيثم ، وله بحســـب ما تؤدى اليه بعض أقوال ابن أبى أصيبعة عام ٣٥٤ من الهجرة أى حوالى عام ٩٦٥ بعد الميلاد ، وكان أول أمره بالبصرة .

كلف منذ نشأته بالعلم ، ولا نعرف مرجعا عنه يكشف عن تلك النشأة الأولى ، ولكنا نعرف الكثير عن ذلك العصر الذى أعقب مرحلة الترجمة لعلوم الأغارقة والسريان والهنود الى اللغة العربية ، ثم انشاء بيت الحكمة على يد الخليفة هارون الرشيد ثم التوسع فيها على يد ابنه المأمون الذى هادن صاحب جـــزيرة قبرص ليستحوذ على خزانة كتب اليونان بها ، ثم هادن حاكم القسطنطينية لينال مجموعات أخرى من تلك الكتب .

وتغلغلت تلك العلوم فى عناصر الفكر الاسـلامى ، وأتاحت الخلافة العباسية باعتبارها دولة عالمية وسيلة للتوصيل الجيد لهذه العلوم فى جميع أرجائها ، وذلك بفضل ما فرضته من نظام وتجانس ، وظهرت تلك العلوم كطفح جلدى فوق روح الحضارة الاسلامية ، فاستثارت كوامنه ، ومن ثم نشأ التحدى لذلك العامل الدخيل الذى شكل هـذه الحضارة بظاهرة التشكل الكاذب لليونانيات وغيرها ، فكان الابداع والابتكار .

وظهر أساطين أعلام فى الفلسفة والطب والكيميا والرياضيات والفلك والعلوم التعليمية ، منهم فى الفلسفة الكندى والفارابى ، وفى الطب أبو بكر الرازى ، وفى الكيمياء جابر ، وفى الرياضيات أبو سهل ويجن بن رستم القوهى ، وأحمد بن محمد بن الحسين الصفائى ، والعلامة نصر بن عبد الله ، والعلامة أحمد بن محمد بن عبد الجليل السجزى ، وأبو الوفاء محمد بن محمد البوزجانى ، وأبو بكر محمد بن الحسن الكرخى ، وغيرهم أمثال أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمى وثابت بن قرة وبنو شاكر .

وفى الفلك أبو معشر البلخى وحنين بن اسحاق ، وأحمد بن كثير الفرغانى ، وسهل بن بشر ، ومحمد بن جابر الحرانى المشهور بالتبانى ، وعبد الرحمن الصوفى وأبو الوفا البوزجانى وغيرهم كثيرون ، يضيق المقام بتفصيل أعمالهم ، بل وبذكر أسمائهم ، لهم مؤلفات قيمة نقل أكثرها الى اللاتينيـة ، وكانت المراجع المعتمدة عند أهل أوروبا فى عصر التنوير .

فابن الهيثم شهد عند أول نشأته عصرا صاخبا بجلبة الحركة العلمية المتدفقة ، والحركة المذهبية فى الدين ، وما سببته من ديناميكية التصادم بين الفرق المتنابذة ، تصادما قد تولد من رواسب الحضارات الهامدة التى احتضنتها الحضارة الاسلامية، فكان أن تمت بينها اتصالات فى البعد المكانى والزمانى ، فأحدثت هديرا فى الفكر النامى الجديد .

أخذ صاحبنا يدرس كل ما وقعت عليه يداه من كتب المتقدمين والمتأخرين ، لا فى العلوم الرياضية وفروعها فحسب ، بل فى الطب وفى الفلسفة من منطق وطبيعى وما بعد الطبيعة أيضا ، ولم يكن يقنع بمجرد الاطلاع على تلك الكتب ، وانما عنى بتلخيصها وبوضع المذكرات والرسائل فى موضوعات تلك العلوم ، وبالتصنيف فيها والتعليق عليها .

وبلغت تصانيفه من تلك العلوم العشرات من الكتب ، بلغ ما يتعلق منها بالفلسفة والعلم الطبيعى فى حدوده المعروفة فى ذلك العصر ، ثلاثة وأربعين كتابا ، وما يتعلق منها بالرياضيات والعلوم التعليمية خمسة وعشرين ، فضلا عن كتاب فى الطب اعتمد فى تصنيفه على كتب « جالينوس » بلغت أجزاؤه عدة الثلاثين ، وذكر ابن أبى أصيبعة أسماء هذه الكتب نقلا عن مقالة ابن الهيثم نفســــه .

وازداد الشقاق والتصادم بين الفرق الدينية المذهبية ، كرد فعل عنيف واستجابة لتحديات وفدت عليها من الخارج ، وجلبتها معها العناصر التركية والايرانية ، وتفاعلات اجتماعية داخليـــة متنابذة ، فاعتزل الامام الغزالى الريادة بعد أن أودع تأملاته فى كتابه « المنقذ من الضلال » وهاجر العراق .

وضاقت طائفة المتشددين من أهل السنة ذرعا بالفلســــفة والرياضيات الدخيلة ، وأخذت تنظر فى شىء من الشك وعــدم الثقة والاطمئنان الى هؤلاء الذين قيل فى أحدهم :

فارقت علـم الشـــــافعى ومالك
وشرعت فى الاســــلام رأى دقلس

ودقلس هذا هو اختصـــار لاسم الفيلســـوف اليونانى « أمباذوقليس » لكى يستقيم بيت الشعر ، وأصاب ابن الهيثم بعض الرذاذ ، فيحدثنا القفطى فى أخبار العلماء بأخبار الحكماء :

« أخبرنى الحكيم يوسف السبتى الاسرائيلى قال : كنت ببغداد يومئذ تاجرا ، وحضرت المحفل ، وسمعت كلام ابن المارستانية ، وشاهدت فى يده كتاب الهيئة لابن الهيثم ، وهو يشير الى الدائرة التي مثل بها الفلك ، وهو يقول : وهذه الداهية الدهياء ، والنازلة الصماء ، والمصيبة العمياء ، وبعد اتمام كلامه حرقها وألقاها فى النار » .

وكما انتقل الفارابى الى الشام ، انتقل ابن الهيثم أيضا ، ويقول البيهقى فى كتاب « تتمة صيوان الحكمة » .

« وأقام بالشام عند أمير من أمراء الشام ، فأدر عليه ذلك الأمير ، وأجرى عليه أموالا كثيرة » .

هذه المرحلة من حياة ابن الهيثم يمكن أن نعتبرها مرحلة التحصيل ، أما مرحلة الابداع والابتكار فقد ابتدأت منذ أن استقر فى القاهرة ، وكان وفقا لرواية ابن أبى اصيبعة قد بلغ الثالثة والستين بحسب التوقيت العربى ، وفى المرحلة الثانية أخرج أعمق تآليفه فى الضوء ، وهى التى ظلت المرجع الأساسى لهذا العلم فى أوربا حتى القرن السابع عشر الميلادى .

كان ابن الهيثم على ضآلة جسمه وقصر قامته دائم الاشتغال، قوى الذكاء كثير التصانيف وافر الزهد ، سامى النفس ، محبا للخير كما يقول المرحوم الدكتور مصطفى عبد الرازق .

* * *

واشتهر ابن الهيثم بغزارة انتاجه العلمى ، وبلغت شهرته آفاق العالم الاسلامى فى ذلك الوقت ، اشتهر لا كعالم رياضى فحسب بل كمهندس له فى الفنون الهندسية آراء ومؤلفات ، كانت جليلة القيمة فى ذلك العصر .

وبلغت شهرته مصر ، وكان صاحب السلطان في ذلك العهد في مصر الحاكم بأمر الله الفاطمى ، والعصر الفاطمى يعد من أزهى عصور مصر الاسلامية من الوجهة العلمية ، فلقد بلغت الحيـــاة العلمية درجة كبيرة من النمو والازدهار لكثرة العلماء الذين كانوا يفدون عليها وهم من شتى الآديان حتى أن طبيب العزيز بالله كان مسيحيا ، وهو أبو الفتح منصور بن معشر .

وقيل أن العزيز بالله كاتب جبرائيل بن بختيشوع وهو أحد أسرة بختيشوع الشهيرة بالطب في جنديشابور ، كاتبه ليستدعيه فى الاقامة بمصر فاعتذر ، وأرسل الحاكم بأمر الله الى ابن الهيثم يستدعيه فأجاب :

ووفد على مصر القاضى عبد الوهاب بن على أحد أئمة الفقـــه المالكى لضيق حاله ببغداد ، فأكرمه الفاطميون رغم أن مذهبه يناقض مذهبهم الشيعي ، كما وفد الطبيب أبو الحسن المختـــار ابن الحسن المعروف بابن بطلان النصرانى البغدادى .

ويخيل الينا أن السبب الذى من أجله شجع أئمة الفاطميين العلم والعلماء أن المذهب (١) الفاطمى نفسه يقوم على العلم والعقل قبل كل شيء ، ومن طريق العلم وبالجدل والمناظرات استطاعت الدعوة الفاطمية أن تنتشر فى العالم الاسلامى .

أمثلة من هذه المنـــاظرات هى تلك التى كانت بين ابن بطلان الطبيب النصرانىّ العراقي ، وابن رضوان الطبيب المصرى ، وقد حفظ لنا ابن أبى أصيبعة خمس رسائل لهذين الطبيبين فى المناظرة بينهما ، وطبعت هذه الرسائل بكلية آداب جامعة القاهرة .

استطاع الفاطميون أن يكونوا دولتهم العتيدة ، فعقيـــدة الفاطميين كانت تقوم على العمل والعلم ، فالعمل هو الظـــاهر

---

(١) الدكتور محمد كامل حسين « مصر الفاطمية » .

والعلم هو الباطن . وعلم الباطن يقوم على استخدام العقل ومطابقة المحسوس للمعقول .

ولاحظ المستشرق « أوليرى » تسرب الفلسفة اليونانية الى عقيدة الفاطميين فقال :

« ان الحركة الفاطمية بأكملها أخذت مكانتها فى جو مشبع بالفكر الهلينى ، واحياء دراسة المواد اليونانية هو الالهام المباشر لطائفة الاسماعيلية » .

واليونانيات تمجد العلم أعظم التمجيد وها هو أفلاطون (١) يقول :

« اطلب العلم تعظمك الخاصة ، والمال تعظمك العامة ، والزهد يعظمك الفريقان ، كفى بالعلم شرفا أن كلا يدعيه ، وبالجهل ضعة أن كلا يتبرأ منه ، والانسان انسان بالقوة اذا لم يعلم ولم يجهل جهلا مركبا ، فاذا علم كان انسانا بالفعل ، أو جهل جهلا مركبا كان حيوانا ، بل أسوأ منه لفقدان آلة التخييل » .

وكان للحاكم بأمر الله ميل للعلم وميل لتشجيع العلماء ، آوى اليه كثير من أطباء عصره وقربهم اليه وأغدق عليهم نعمه ، وأنشأ بالقاهرة دارا عرفت « بدار الحكمة » أو « دار العلم » جمع فيها العلماء ، لكى تنافس « بيت الحكمة » ببغداد ، فظهرت الدولة الفاطمية فى مصر شبحا للخلافة العباسية فى بغداد ، أو صورة لدولة عالمية لها نظم ولها تقاليد !

وأنشأ الحاكم بأمر الله فى المقطم مرصدا ، جعل فيه أحد مشهورى علماء الفلك في ذلك العصر ، وهو « ابن يونس المصرى » ، وانقطع فيه ابن يونس للرصد حتى أتم ارصاده ، وجمعها فى جداول تعرف فى تاريخ علم الهيئة « بالزيج الحاكمى » ويقول عنه

(١) تذكرة داود الانطاكى .

ابن خلكان أنه لم ير في الأزياج على كثرتها أطول منه اذ يقع فى أربعة مجلدات .

ولابن يونس أيضا كتاب اسمه « التعديل المحكم » هو زيج لتقويم الشمس ، وفى حساباته الفلكية كان ابن يونس يستخدم المعادلة الرياضية التالية ، نظرا لأن اللوغاريتمات لم تكن قد عرفت بعد ، وهذه المعادلة هى :

$$\text{جتا ا جتا ب} = \frac{1}{2}\left[\text{جتا (ا} - \text{ب)} + \text{جتا (ا} + \text{ب)}\right]$$

كثيرا ما كان الحاكم بأمر الله يحضر المناظرات العلمية فى دار العلم التى أنشأها ، وبلغ الحاكم أمر ابن الهيثم وهو الموجود بالشام ، يروى القفطى أنه بلغه أيضا قول ابن الهيثم :

« لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال وهو فى طرف الاقليم المصرى » .

ويروى القفطى أن الحاكم أرسل اليه اموالا وهدايا رغبة فى الحضور الى مصر ، ولعل الحاكم لم يرد فقط أن يستفيد منه فيما قال فى أمر النيل ، بل أراد أيضا أن يستأثر بفخر ايوائه اليه وشموله بعطفه ورعايته .

ويروى أيضا أن الحاكم خرج لاستقباله والتقى به خارج القاهرة ، وأكرمه وأمر باكرام مثواه ، ثم استمهله أياما وطالبه بما قال فى أمر النيل ، ثم يقول ان ابن الهيثم سار ومعه جماعة من الصناع المحترفين لأعمال البناء بأيديهم ، وتتبع مجرى النيل ، وكأنه فى بعثة هندسية بالمعنى الحديث ، حتى وصل الى أسوان .

وتجاوزها الى موضع يقول القفطى انه يعرف بالجنادل ، وعاين هذا المكان من جانبيه ، ولكنه لم يجد الأمر متفقا وفكرته الهندسية التى خطرت له ، ففكر ، وقدر ، فلم يجد مندوحة من

العودة الى القاهرة وهو فى أشد حالات الخجل والانخذال ، واعتذر الى الحاكم .

ويروى القفطى أيضا أن الحاكم تظاهر بقبول عذره ، وولاه منصبا من مناصب الحكومة ، فتولاه ابن الهيثم لا رغبة فيه بل رهبة من بطش الحاكم ، ولو أنصف الحاكم لصرفه عن الوظيفة ، وجعله فى زمرة من جمعهم فى دار الحكمة ، أو لجعله زميلا لابن يونس فى مرصد المقطم .

ولكن لعل ابن الهيثم قد انحطت منزلته العلمية لدى الحاكم بأمر الله ، أو لعل زمرة المنتفعين التى كانت تحيط بالحاكم أرادت اقصائه عن المحيط العلمى كله ، وخشى ابن الهيثم أن يعتذر عن قبول الوظيفة تجنبا من غضبه ، وهو المشهور بنزواته المتسرعة .

أغلب الظن أن هـــذا الحادث قد ترك أثرا سيئا فى نفس ابن الهيثم ، وفى تصورى أن الأمر لا يضيره كثيرا ولا قليلا ، فهو قد أبدى رأيه بشجاعة ، وكان من الممكن أن يتمادى فى مشروعه وأن يطيل فى مدة التنفيذ ليستفيد بأكبر قدر من المال والجاه ، ولكن أبى عليه تواضعه العلمى الا أن يعترف بعجزه أمام ما وجده من فن القدماء فى مبانيهم واهراماتهم ومعابدهم الضخمة التى وقف أمامها مبهوتا ، فكر لو كان مشروعه من السهولة تنفيذه لكان قدماء المصريين أسبق الناس الى ذلك .

نحن وان كنا لا نعلم على وجه التحقيق ماهية المشروع الذى فكر فيه ، فان أخذه الصناع المحترفين لأعمال البناء كما روى القفطى ، ان دل على شيء فهو يدل على أن المشروع كان من قبيل السد أو الخزان ، فهل يضيره أنه سبق الأجيال وفكر فى أمر لم يحن موعد تنفيذه الا بعد ثمانية قرون وأكثر ، خصوصا وأنه بنى فكرته على ما بلغه من أن النيل ينحدر من مكان مرتفع على حدود البلاد المصرية .

وتولى ابن الهيثم العالم الرياضي الفيلسوف منصبا من مناصب الدولة ، قد عرض مثله لنيوتن من بعده ، مع الفارق كما يقولون ، فنيوتن بعد أن أتيحت له بحوثه عن تشتت الضوء ، وماهية ألوان الطيف ، وكشفه العظيم لقانون الجاذبية ووصفه الأساسى الذى يقوم عليه علم الميكانيكا ، نيوتن الذى هو فى نظر بعض مواطنيه ، صاحب أكبر عقل ظهر فى الوجود ، كان فى ضيق من العيش لقلة المرتب الذى كان يتقاضاه من منصب الأستاذية الذى كان يتولاه فى جامعة « كمبردج » فتاقت نفسه الى وظيفة من وظائف الدولة تدر عليه خيرا لا يجده فى منصبه فى الجامعة ، وكان العلم فى وقته ينظر اليه على أنه شيء نافل ولا طائل من تحته .

سعى نيوتن لدى بعض أصدقائه من ذوى النفوذ ، ولم يثمر المسعى أول الأمر ، فلبث قلقا ، وشكا الى صديق آخر مالقيه من صديقه الأول من ارجاء وتسويف ، ولما أراد الله أن يتولى صديقه الأول وزارة المالية ، عينه فى وظيفة فى دار الصك ، فقبل نيوتن الوظيفة ، وقلد بعد قليل رياسة الدار ، وصار مرتبه مائتين وألف من الجنيهات فى العام ، وقنع نيوتن بذلك ، واطمأنت نفسه ، ولكنه انشغل بأعمال الوظيفة عن العلم والنظر فيه ، فاضمحل انتاجه العلمى وما سكب !!

أما ابن الهيثم فقد تولى الوظيفة وهو كاره لها ، وكيف يستسيغ الوظيفة وأعمال الدواوين ويؤثرها على لذة البحث والانقطاع للعلم ؟

وفى الوقت نفسه كيف المفر والحاكم واقف له بالمرصاد ، ذلك الديكتاتور المتقلب الذى لا يؤمن جانبه ، كثير النزوات : مثل من نزواته انه أصدر (١) أمرا عام ٤٠٤ هـ بألا يتحدث أحد

---

(١) كنز الدرر وجامع الغرر تأليف الداوادى ، الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية .. تحقيق الدكتور المنجد ـ الناشر المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة .

فى علم النجوم ، وأمر بأن ينفى المنجمون فى اقليم مصر ، فاجتمعوا ووقفوا للقاضى أحمد بن أبى العوام فتحـــدث لهم فأعفوا من النفى لاغير .

فكر ابن الهيثم مرة أخرى وقدر ، فلم يجد حيلة يتخلص بها غير أن يتظاهر بالجنون ، فأشاع ذلك عن نفسه حتى بلغ الحاكم ، فعزله وصادر أمواله وأمر بحبسه فى منزله وجعل عليه من يخدمه، ولبث ابن الهيثم على هذه الحال التعسة الى أن توفى الحاكم وتأكد من وفاته ، فعاد الى الظهور والاشتغال بالعلم ، واستوطن دارا بالقرب من الجامع الأزهر ، وأقام بالقاهرة الى أن توفى فى حدود سنة ثلاثين وأربعمائة أو بعدها بقليل بحسب رواية القفطى .

وقد روى « البيهقى » حادثة ابن الهيثم مع الحاكم برواية أخرى ، وروى « علم الدين قيصر » وهو المعاصر لابن الهيثم حادثة الوظيفة والتخلص منها بالتظاهر بالجنون ، وروايته تتفق ورواية القفطى سوى أنه وزر بالشام ، ثم تخلص من الوزارة وظعن الى مصر فأقام بالقاهرة على باب الجامع الأزهر متنسكا ، ومشتغلا بالتصنيف والتعليم ، ونسخ الكتب القديمة .

انه احترف الوراقة ، ينسخ ثلاثة كتب لأوقليدس والمتوسطات والمجسطى مؤونته لعام نظيرماية وخمسين دينارا ، ويا لها من قيمة بخسة لرجل عاش للعلم ومات فى سبيله .

مات فى القاهرة متنسكا ، ولا أحد يعرف مكانه اذ ذهبت رفاته مع التراب هباء ، ولا أحد يشيد له ضريحا على غرار تلك الأضرحة المنتشرة هنا وهناك ، ونسيه القوم أو تناسوه هنا قرابة تسعة قرون ، حتى هيأ الله له شيخا جليلا وعالما فاضـــلا هو الأستاذ مصطفى نظيف فأحيا ذكراه وخلده فى كتاب عميق من جزءين ، خلد بحوثه فى البصريات وأوفاه حقه .

لا أحد يشيد له ضريحا ، أو يدفن فى مقابر العظماء كمقبرة وستمنستر بلندن أو كمقبرة البانثيون بباريس ، ولكن كفاه أن تاريخ العلم هو مقبرة العظماء التى يحج اليها كل يوم كل باحث وكل متتبع لنضال العقل البشرى فى اجتلاء أسرار الكون ، وكفاه أيضا أن جميع مكتبات جامعات العالم أجمع قد شيدت له أضرحة متواضعة هى فهارسها التى تنير الطريق اليه ..

العالم الموسوعى

كان ابن الهيثم غزير التأليف ، متدفق الانتاج فى شتى أنواع المعرفة ، فلقد طرق الفلسفة والمنطق والطب والفلك والبصريات والرياضيات ، مستحدثا فيها أنماطا جديدة من الفكر العلمى الأصيل ، وفى أول عهده كان شارحا لتراث الأغارقة ثم ناقدا لكتبهم ، ثم متمردا على كثير من آرائهم •

تحدث عن نفسه ، فى مقالة نقلها ابن أبى أصيبعة عن خط يده ، ذاكرا أسماء ما يقرب من مائتى تصنيف ، خلا رسائل ومقالات أخرى له ، شاعت بين أيدى الناس من الشرق والغرب، وضاعت أصولها من يده ، ونسبت الى غيره .

لم تكن له لذة فى الحياة سوى التفرغ للبحث والتأليف ، وهو يقول فى هذا الصدد : « انه ما مدت له الحياة ، سيبذل جهده ، ويستفرغ قوته فى التأليف ، متوخيا به أمورا ثلاثة : أحدها — أن يجد الناس فى كتبه ، بعد موته ، الفائدة والعلم اللذين يقدمهما لهم فى حياته • والثانى — أن يجعل من التأليف وتدبيج الرسائل ارتياضا لنفسه بهذه الأمور ، فى تثبيت ما تصوره فكره وأتقنه من هذه الدراسات .

أما الأمر الثالث — فهو أن يدخر من تلك التآليف عدة لزمن الشيخوخة وأوان الهرم » •

ولعل فى ذلك كله ما يفسر لنا صدور هذا العدد الضخم من المؤلفات عن ابن الهيثم ، ويبين كيف اتسعت حياة رجل واحد

لتأليفها كلها ، مع ما فيها من دقة وغزارة فى المادة ، ومع ما تمتاز به من طابع العمق والاحاطة .

واذا جاز لنا أن نكتفى بصفة واحدة لابن الهيثم ، تغنى عن جميع صفاته وتنطوى فيها جميع الملكات والمواهب التى أعانته على جميع أعماله وآرائه فتلك هى صفة العالم الموسوعى بأدق ما تكون الكلمة ، عالم موسوعى على غرار ابن سينا والبيرونى والكندى والرازى وغيرهم من العلماء العرب الذين حملوا مشعل البحث والتأليف فى كل نوع من أنواع المعرفة ، فعصرهم لم يكن ليعرف معنى للتخصصات التى طغت على عصرنا الحاضر .

والتخصص هذا قد جار على الشخصية الانسانية ، فلم يترك فى كل امرىء الا جزء من انسان مستغرقا فى جزء من المعرفة : وجزء من العناية بالعالم الواسع الذى يعيش فيه ، وليس أضر ولا أوخم من هذه التجزئة فى الزمن الذى ولدت فيه الفكرة العالمية ، وأصبحت علاقة العالم الانسانى بعضه ببعض حقيقة متمكنة ، تتطلب الانسان كله للمساهمة فيها ، ولا تقنع منه بجزء ناقص محبوس فى قواقع منعزلة .

كان العلماء العرب فى تلك الحقبة يتخاطبون ويتفاهمون فى يسر وغير مشقة ، فهم يفهمون اللغة العلمية التى يتداولون بها ، أما اليوم فعالم الكيميا العضوية لا يفهم لغة الكيميا النووية أو الكيميا الفيزيقية ، مع أنها روافد لعلم واحد ، فما بال التخصصات المتشعبة المتفرعة فى علوم الحياة ؟

نظرة عاجلة فيما خلفه ابن الهيثم من ثبت كتبه ، تكشف لنا غزارة تأليفه :

فقد ألف فى كل من : الهندسة والطبيعة والفلك والارثماطيقى والجبر والمقابلة ، كما ألف الكثير من الكتب والمقالات الفلسفية ، وتناول بعض المسائل الدينية العويصة ، وفى اثبات النبوات

وايضاح فساد رأى الذين يعتقدون بطلانها ، وذكر الفرق بين النبى والمتنبى ، ودبج الرسائل والكتب فى التوفيق بين الفلسفة والدين ، وفى تبطيل رأى بعض الفرق الدينية ، ورد شىء من آرائهم .

وسنعرض الآن لذكر نصيب كل ناحية من هذه الفنون من نشاط هذا العبقرى الفذ :

١ ـ فلقد آثر الهندسيات وحدها بثمانية وخمسين تصنيفا ، ضمنها الكثير من آرائه الشخصية وبراهينه المبتكرة لمسائل تواترت عن أوقليدس وأرشميدس خلوا من البرهان ، أو كانت فى حاجة الى الشرح والاثبات ، وتعرض فيها كذلك لموضوعات التحليل والتركيب الهندسيين ، وقسمة الزاوية الى ثلاثة أقسام ، وخواص الدائرة والقطاعات المخروطية والمساحات وغير ذلك .

ولكن لا يوجد فى مكتبات العالم أكثر من واحد وعشرين مخطوطا ، فى مكتبات فايز ، وعاطف ، وفاتح ، وجار الله ، وبشير أغا ، وسراى بالآستانة ، وفى الجزائر وطهران ولندن وباريس ، وخدابخش بتنه فى حيدر آباد الدكن بالهند ، وفى دار الكتب المصرية ، وفى مكتبة بلدية الاسكندرية .

٢ ـ وألف فى الحساب والجبر والمقابلة ما لا يقل عن عشرة كتب ، لا يوجد منها سوى كتاب « فى حساب المعاملات » بمكتبة عاطف وتوجد صورة فوتوغرافية له بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية ، وكتاب « فى مسألة عددية » بمكتبة زنجان ، وكتاب « استخراج مسألة عددية » بمكتبة عاطف أيضا .

ومؤلفاته فى الرياضيات يمكن تلخيصها فى الآتى :

١ ـ مصادرات أوقليدس

٢ ـ حل شكوك أوقليدس

٣ ـ مساحة المجسم المكافىء
٤ ـ العدد والمجسم
٥ ـ قسمة الخط الذى استعمله ارشميدس فى الكرة
٦ ـ قول فى حل مسألة عددية
٧ ـ مقدمة ضلع المسبع
٨ ـ تربيع الدائرة
٩ ـ مسألة فى المساحة
١٠ ـ خواص المثلث من جهة العمود وله صورة فوتوغرافية فى معهد مخطوطات جامعة الدول العربية
١١ ـ عمل المسبع فى الدائرة
١٢ ـ استخراج الضلع المكعب
١٣ ـ علل الحساب الهندى
١٤ ـ أوسع الأشكال المجسمة
١٥ ـ مساحة الكرة
١٦ ـ قول فى مسألة هندسية
١٧ ـ شرح قانون أوقليدس
١٨ ـ بركار الدوائر العظام
١٩ ـ جمع الأجزاء
٢٠ ـ قسمة المقدارين
٢١ ـ التحليل والتركيب
٢٢ ـ حساب الخطأين
٢٣ ـ استخراج أربعة خطوط
٢٤ ـ قول فى المكان
٢٥ ـ تعليق فى الجبر
٢٦ ـ قول فى شكل لبنى موسى

٣ ـ وألف فى البصريات ما يقرب من أربعة وعشرين موضوعا بين كتاب ورسالة ومقالة ، وتناول فيها الضوء ، ومسائل مراكز الأثقال وصنعة الميزان وغير ذلك ، ولكن أكثر هذه

المؤلفات قيمة قد باد وتشتت ، غير اثنى عشر مصنفا ، مبعثرة بين زنجان والآستانة ولندن وخدابخش بيتنه ومن بينها كتاب « المناظر » الذى يحوى آراء جريئة مبتكرة فى علم الضوء ، وهو يتكون من سبعة أجزاء ، وقد ظل المرجع الرئيسى لهذا العلم حتى القرن السابع عشر بعد ترجمته الى اللاتينية ، ويوجد مخطوط كامل من هذه الأجزاء في مكتبة « أيا صوفيا » وستة أجزاء من مخطوط آخر له فى مكتبة الفاتح ، أما الجزء السادس المفقود من النسخة السابقة فموجود بمكتبة « طوب قابى سراى » بالآستانة ، ومن بينها أيضا مقالاته فى المراية المحرقة بالدوائر ، والمرايا المحرقة بالقطوع ، والكرة المحرقة ، وفى كيفية الاظلال ، وفى عمل البنكام ، وفى القرسطون .

٤ ـ أما الفلك ، الذى أطلق فيه على ابن الهيثم اسم « بطليموس الثانى » لابداعه فيه وعنايته به عناية جعلته يؤلف فيه رسالة الى بعض الرؤساء يحثه فيها على عمل الرصد النجومى ، وجعله يهتم به حتى يؤلف فى احدى رسائله أكثر من خمسة تصانيف ، فلم يصلنا من تراث ابن الهيثم فى الفلكيات الا نحو سبع عشرة مقالة من أربع وعشرين تأليفا ، وهذه المقالات يوجد أغلبها فى مكتبتى عاطف وفاتح بالآستانة ، وتوجد واحدة منها فى ليدن ، وأخرى فى زنجان ، وثالثة فى القاهرة ، ثم قصيدة عينية فى « بروج الشمس والقمر » بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا ، وشرحان لها أحدهما فى برلين والآخر بالجزائر .

وقد تحدث ابن الهيثم فى تآليفه الفلكية عن أبعاد الأجرام السماوية وأحجامها ، وكيفية رؤيتها ، وعن الرصد النجومى ، وحركاته وارتفاع القطب ، ومن مائية الأثر على وجه القمر .

٥ ـ وفى الطب ألف ابن الهيثم كتابين ، أحدهما فى « تقويم الصناعة الطبية » ضمنه خلاصة ثلاثين كتابا قرأها لجالينوس ،

والآخر « مقالة فى الرد على أبى الفرج عبد الله بن الطيب » لابطال رأيه الذى يخالف فيه رأى جالينوس ، والكتابان مفقودان .

وله رسالة فى تشريح العين وكيفية الابصار :

٦ ـ وكذلك نجد لابن الهيثم فى الفلسفة والمنطق وعلم النفس والأخلاق ، وفى الالهيات واللغة ما يربو على أربعين مؤلفا ، لا نعرف موجودا منها غير مقالته فى « المكان » الموجودة فى مكتبة « المكتب الهندى » بلندن ومكتبة خدابخش بتنه ، ومقالته « ثمرات الحكمة » بمكتبة كوبرلى زاده بالآستانة .

* * *

وابن الهيثم يعتبر مصريا بحكم اقامته بالقاهرة وانتاجه الفياض بها ، ولكن نصيب مصر من مؤلفات ابن الهيثم فى الوقت الحاضر ما يأتى ويا للأسف : ـ

١ ـ مائية الأثر الذى فى وجه القمر ـ وهو مخطوط بمكتبة تيمور نقلا عن بلدية الاسكندرية .

٢ ـ فى التحليل والتركيب ـ بمكتبة تيمور .

٣ ـ حل شكوك أوقليدس وشرح معانيها ـ صورة فوتوغرافية بمعهد مخطوطات الدول العربية .

٤ ـ قول فى مسألة هندسية بمكتبة مصطفى فاضل (دار الكتب المصرية) .

٥ ـ تنقيح المناظر لذوى الأبصار والبصائر لكمال الدين الفارسى شرحا لكتاب المناظر لابن الهيثم .

٦ ـ الشكوك على بطليموس ـ صورة فوتوغرافية بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٧ ـ حساب المعاملات ـ صورة فوتوغرافية بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٨ ــ مجموعة رسائل ابن الهيثم مطبوعة بدائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن وتشمل الآتى :

(أ) فى أضواء الكواكب .
(ب) فى المرايا المحرقة بالقطوع .
(جـ) فى المكان .
(د) فى المساحة .
(هـ) فى الضوء .
(و) فى المرايا المحرقة بالدائرة .
(ز) فى شكل بنى موسى .
(ح) فى أضواء القمر .

وتوجد فى مكتبة جامعة القاهرة ، كما توجد بها أيضا المصورات التالية :

١ ــ كتاب المناظر .
٢ ــ قول فى أضواء الكواكب .
٣ ــ مقالة فى المرايا المحرقة بالقطوع .
٤ ــ مقالة فى المرايا المحرقة بالدوائر .
٥ ــ مقالة فى ضوء القمر .
٦ ــ مقالة فى مراكز الأثقال (كما أوردها الخازنى فى كتابه « ميزان الحكمة ») .

وفى دار الكتب بالقاهرة المصورات التالية :

١ ــ مقالة فى استخراج ارتفاع القطب على غاية التحقيق .
٢ ــ مقالة فى ارتفاع الأشخاص القائمة وأعمدة الجبال وارتفاع الغيوم .
٣ ــ مقالته فى المخروطات ، اصلاح لشكل بنى موسى

* * *

ترى ما الذى تسبب فى بعثرة هذه المخطوطات ، وكان أولى

بها أن توجد جميعها بالجامع الأزهر حيث قضى ابن الهيثم بقية عمره بجواره ، ان ما يوجد بالقاهرة اليوم بالاضافة الى بعض الترجمات الألمانية بقلم العلامة « فيدمان » لبعض بحوث ابن الهيثم والتى كانت مرجعا لنا فى هذا الكتاب لدليل على عدم المبالاة بتراثنا القديم ، وبتراث ابن الهيثم الذى ظل منسيا لا يعرفه سوى قلة حتى أن جورجى زيدان لم يذكره فى مؤلفاته عن العلماء العرب .

ولولا أن قيض الله لابن الهيثم عالم معاصر جليل أطال الله عمره هو الأستاذ مصطفى نظيف مدير جامعة عين شمس سابقا ، فألف له متنا عميقا يتناول فيه البصريات عند ابن الهيثم ، تلقفته جامعات أوروبا بالترجمة اذ اعتبرته مرجعا علميا لا يشق له غبار فى هذا الموضوع ، لولا هذا لبقى ابن الهيثم مغمورا فى بعض الفهارس مثله كمثل بقية علمائنا العرب .

والسؤال الذى يتبادر الى الأذهان لماذا بقى ابن الهيثم مغمورا فى الشرق الاسلامى ، وفى أوروبا لم يعرفه الا القليل ، بل يخلطون بينه وبين الخازنى فيلقبونه ب « الهازن » ؟ ، وها هو أثير الدين : الفضل بن عمر الأبهرى العالم الايرانى صاحب « هداية الحكمة » الذى توفى عام ١٢٦٣ م لا يذكر ابن الهيثم بتاتا فى كتابه هذا بل يذكر ابن سينا وغيره ، وهاهو نصير الدين الطوسى عالم المراغة الكبير (١٢٠١ — ١٢٧٤) لا يذكر ابن الهيثم مطلقا فى مؤلفـاته الرياضية والبصرية ، بل ها هو قطب الدين محمود بن مسـعود أبو الثناء الشيرازى (١٢٣٦ م) يذكر لتلميذه كمال الدين الفارسى فى شىء من عدم الاكتراث أنه قد رأى فى صباه ببعض خزائن الكتب بفارس كتابا فى المناظر لابن الهيثم .

يقول الأستاذ مصـطفى نظيف أن التنـاحر بين الدويلات الاسلامية ، ومحنة المغول والتتار هما سبب عدم ذيوع شهرة ابن الهيثم فى الشرق الاسلامى ، وأن الترجمة اللاتينية للقس « فيتلو » لكتاب المنـاظر لابن الهيثم دون ذكر اسـمه هى التى

حجبت شهرته ، ونحن لا نرى أن هذا سبب كاف لطمس ابن الهيثم ، كتب الكندى والرازى والبيرونى وابن سينا لم تتعثر بهذه الكيفية ، وأسماؤهم بقيت متوهجة فى العالم الاسلامى كله وفى أوروبا ، وكذلك نصير الدين الطوسى ، وهم تعرضوا لنفس الأسباب التى يذكرها الشيخ الجليل مصطفى نظيف !

لقد لاحظ المستشرق « دى بور » اهمال العلماء لابن الهيثم فقال :

« انه لم يكن لدعوة ابن الهيثم ثمرة كبيرة فى الشرق ، ولا يعرف من تلاميذه غير واحد يعد من الفلاسفة ، هو أبو الوفا مبشر بن فاتك القائد » .

ويقول المرحوم الدكتور محمد كامل حسين أستاذ التاريخ بجامعة القاهرة وهو الرأى الأصوب :

« واقع الأمر أن لابن الهيثم تلاميذ كثيرون ، وأنهم حافظوا على تعاليمه ودعوته ، ولكن كان التعصب الدينى عند الأيوبيين والعباسيين قويا ، حتي انهم لم يفرقوا بين عقيدة الفاطميين أعدائهم وبين العلوم الرياضية .

فكل من اتصل بالفاطميين فهو من زمرتهم ، وكل عالم من علماء مصر الفاطمية متهم بالخروج عن الدين ، ويجب أن تحرق كتبه ، ولا تتبع تعاليمه ، وهذا ما حدث لابن الهيثم وغير ابن الهيثم من العلماء » .

ونحن نرى الصواب فى هذا الرأى ، ودليلنا مخاطبة عمر الخيام . وهو من المعسكر التركى السنى المتعصب — لابن الهيثم فى كتابه مصادرات اوقليدس — « وهذا الرجل قد أتى بكذا وكذا .. الخ » وهى لهجة تنم على الازدراء .

* * *

ولكن كيف تسربت بحوث ابن الهيثم الى العالم المسيحى بأوروبا ؟ .

يقول « الدوميلى » فى كتابه « العـــلم عند العرب » « أن أول كتاب نشر لابن الهيثم هو ترجمة لجيرار دى كريمونا أشـــهر المترجمين فى أسبانيا (١١١٤ ــ ١١٨٧ م) ، ثم ظهر مطبوعا فى لشبونة عام ١٥٤٢ م بعد اختراع الطباعة ، مع كتاب نشره فريدريك رسنر فى مدينة بال بسويسرا عام ١٥٧٢ م لأبحاث ابن الهيثم فى المناظر مع شرحه لكمال الدين الفارسى وكتاب الأوبطيقا لفيتلو » .

ويقول « انريكو ناردوشى » مؤرخ العلم الايطالى (١٨٧١م) أن ترجمات لاتينية كثيرة عملت فى القرون الوسطى لكتاب المناظر لابن الهيثم ، ويقول أيضا « لعل الأثر الذى تركته مؤلفات هذا العالم العربى فى البصريات ، والذى يبدو فى أعمال بيكون وفيتلو هو السبب فى أن كتب ابن الهيثم لم تنشر مبكرة فى عصر النهضة ، كما أنها لم تنشر بعد ذلك كثيرا » .

ويقول العالم الأسبانى « بويج » فى أرشيف التاريخ المذهبى والأدبى للعصور الوسطى طبعة باريس ١٩٣٠ م أن « روجـير بيكون » قد قرأ الكتب العربية وتأثر بابن الهيثم .

ومن الثـــابت أيضا أن كتـــاب « جون بـكام » الموســـوم ب « المنظور » والذى نشر قبل عام ١٢٧٠ م ليس الا اقتباسا ناقصا من كتاب ابن الهيثم فى البصريات .

أما كتاب « فيتلو » الذى الفه نحو عام ١٢٧٠ م فهو مأخوذ فى قسم كبير منه عن ابن الهيثم ، ولا يتجاوز النتائج التى وصل اليهـــا .

وطبع الناشران « ايباتوس وتانشستتر » عام ١٥٣٥ كتاب « فيلتو » فى الأوبطيقا قبل طبعة فريدريك رسنر .

أما أهم من ترجم لابن الهيثم فى الغرب الاسلامى خـــلاف جيرار دى كريمونا « الفونس الحـــكيم » الذى اهتم بانشـــاء أضخم مجموعة فلكية (حوالى سنة ١٢٧٧ م) للعلماء العرب ــ

تلك المجموعة التى جعلت رحلات الأسبان والبرتغال فى المحيط الأطلنطى متيسرة بفضل الأزياج الفلكية والمعلومات الرياضية والطب العربى ، وقد عنى بترجمة كتاب ابن الهيثم « فى هيئة العالم » الى اللغة القشتالية .

ويأتى بعدهما موسى بن طبون (١٢٤٠ ــ ١٢٨٣) حيث ترجم نفس الكتاب وغيره من الكتب ، وكذلك حذا حذوهم « پروفاسيوس » وأبراهيم الطليطى .

* * *

ومن الذين تأثروا بابن الهيثم فى الشرق الاسلامى العالم الايرانى « بهاء الدين الحرقى » الذى توفى عام ١١٣٨م ، تأثر به فى كتابه « منتهى الادراك فى تقسيم الأفلاك » رغم أن طابعه المميز جغرافى رياضى .

ثم يأتى بعده فى المرتبة الأولى « كمال الدين الفارسى » الذى درس ابن الهيثم دراسة وافية فى البصريات وألف فى ذلك متنه الكبير « تنقيح المناظر لذوى الأبصار والبصائر » وعن هذا الكتاب عرفت أوروبا الكثير عن ابن الهيثم ، وعن نظريته بالانعطاف فى الكرة المشفة التى بنيت عليها نظرية قوس قزح نشرها الراهب الدومينيكى الألمانى من فريبورج « تيودوريق » فى كتابه بين عامى ١٣٠٤ ــ ١٣١١ عن قوس قزح .

فيلسوف أرسطاليسى

فى عصر ابن الهيثم ، كانت هناك نزعتان فى الفلسفة ، احداهما افلاطونية تميل نحو الشك وتأخذ بالتفسير الرياضى دعامة لمعرفة الكون وموجوداته ، والأخرى مشائية تأخذ بالتفسير الطبيعى الذى ارتضاه أرسطو مذهبا له ، ثم ما تلاه من الشراح أمثال الاسكندر الأفروديسى ثم ثامسطيوس .

واستطاع العلماء العرب فى كرتهم العلمية الأولى أن يمتصوا العناصر الدخيلة على الروح اليونانية الخالصة ، ونعنى بها تلك العناصر الشرقية التى مزجت بعناصر يونانية ، كتلك العناصر المترسبة من البابلية والآشورية والساسانية ، فكأنها لم تأخذ اذن شيئا مما يميز الروح اليونانية الحقيقية ، ويطبعها بطابعها الوثنى الخالص ، وانما هى استعادت ما أخذته منها الروح اليونانية ، وفى هذا تعليل واضح للنجاح الهائل الذى لقيته الأفلاطونية المحدثة فى العالم الاسلامى ، وهى التى نبعت من أفلوطين الاسكندرانى .

فأرسطو اليونانى لم تستطع روح الحضارة الاسلامية أن تهضمه ، فاستعانت على هضمه واجتراره بالأفلاطونية المحدثة ، التى هى مزيج ، نصيب الروح الشرقية فيه أكبر من نصيب الروح اليونانية .

وتفاعلت النزعتان ثم تشابكتا فى خصام حينا أو فى مهادنة أحيانا ، فكانت هناك الفرق الاسلامية المتنابذة من أشاعرة ومعتزلة وكيسانية وغيرها ، وتنافر المعسكر السنى مع الفلك والرياضيات ،

فظهر واضحا فى شعر ابن الرومى عند هجائه صاعد وابنه أبى عيسى حيث يقول :

وثنى بابنه السفيه المعنى   بأساطير رسطاطاليس
والذى لم يصخ بأذنيه الا   نحو ذو ثوريوس أو واليس
عاقدا طرفه ببهرام أو كيو   ان أو هرمس أو البرجيس
أو بشمس النهار والبدر والز   هرة عند التثليث والتسديس
واجتماعاتهن فى كل قيد   وافتراقاتهن عن كل قيس

وعلى النقيض من ذلك المعسكر الشيعى فى مصر حيث الدولة الفاطمية التى كانت ترعى الرياضيات والفلكيات ، ويظهر ذلك واضحا فى شعر أبى على المهندس المصرى الذى كان قيما بعلم الهندسة ، حيث يقول :

تقسم قلبى فى محبة معشر   بكل فتى منهم هواى منوط
كأن فؤادى مركز وهم له   محيط واهوائى لديه خطوط

ويقول أيضا :

أوقليدس العلم الذى يحوى به   ما فى السماء معا وفى الآفاق
تزكو فوائده على انفاقه   يا حبذا زاك على الانفاق
هو سلم وكأنما أشكاله   درج الى العلياء للطراق
ترقى به النفس الشريفة مرتضى   أكرم بذاك المرتقى والراقى

وبينما نجد الغزالى فى حيرة تقلق مضاجعه ، والشك يعصره فى كتابه المنقذ من الضلال ، نجد ابن الهيثم يمر بذلك الطور من الشكوك ، ودليلنا فى ذلك ما نقله ابن أبى أصيبعة من خط ابن الهيثم فى مقالة له قوله :

« انى لم أزل منذ عهد الصبا مرويا فى اعتقادات الناس المختلفة ، وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأى ، فكنت متشككا فى

جميعه ، موقنا بأن الحق واحد ، وأن الاختـــلاف فيه انما هو من جهة السلوك اليه .

فلما كملت لادراك الأمور العقلية انقطعت الى طلب معـــدن الحق .. فخضت لذلك ضروب الآراء والاعتقادات ، وأنواع علوم الديانات فلم أحظ من شيء منها بطائل ، ولا عرفت منه للحق منهجا ولا الى الرأى اليقينى مسلكا جددا .

فرأيت اننى لا أصل الى الحـــق الا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية ، وصورتها الأمور العقلية ، فلم أجد ذلك الا فيما قرره أرسطوطاليس ..

فلما تبينت ذلك أفرغت وسعى فى طلب علوم الفلسفة ، وهى ثلاثة : علوم رياضية ، وطبيعية ، والهية » .

وبعد أن عدد مصنفاته قال :

« ثم شفعت جميع ما صنعته من علوم الأوائل برسالة بينت فيها أن جميع الأمور الدنيوية والدينية هى من نتـائج العلوم الفلسفية » .

ويقول بعد ذلك :

« فان ثمرة هذه العلوم هى علم الحق والعمل بالعدل فى جميع الأمور الدنيوية ، والعدل هو محض الخير الذى بفعله يفوز ابن العالم الأرضى بنعيم الآخرة السماوى » .

انه يؤمل ويرجو رجاء العالم المتواضع فيقول فى موضع آخر :

« ولعلنا ننتهى بهذا الطريق الى الحق » .

وأى حق هو ؟

« الذى به يثلج الصدر » .

ثم يقول :

« ونصـــــل بالتدرج والتلطف الى الغاية ، التى عندها يقع اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة ، التى يزول معها الخلاف تنحسم بها مواد الشبهات » .

ثم يستطرد :

« وما نحن مع جميع ذلك برآء مما هو فى طبيعة الانسان من كدر البشرية ، ولكنا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الانسانية ، ومن الله نستمد العون فى جميع الأمور » .

الا يتفق هذا القول والرأى القائل بأن المعرفة على وجه عام انما هى بالاضافة وليست على الاطلاق ، وأن العلم انما هو لغة لشرح العالم فهو اذن من صنع عقولنا !

ثم اننا نجد فى بعض ما روى المؤرخون ما يدل على حـــرص ابن الهيثم على الحق والعدل ، ذكر البيهقى أن أميرا من الأمراء جاء الى ابن الهيثم متعلما ، فقـال له أبو على : أطلب منك للتعليم أجرة هى مائة دينار فى كل شهر ، فبذل ذلك الأمير مطلوبه وما قصر فيه ، وأقام عنده ثلاث سنين ، فلما عزم الأمير على الانصراف قال له أبو على : خذ أموالك بأسرها فلا حاجة لى اليها وأنت أحوج اليها منى عند عودك الى مقر ملكك ومسقط رأسك ، وانى قد جربتك بهذه الأجرة ، فلما علمت أنه لا خطر ولا موقع للمال عندك فى طلب العلم ، بذلت مجهودى فى تعليمك وارشادك ، وأعلم أن لا أجرة ولا رشوة ولا هدية فى اقامة الخير ، ثم ودعه وانصرف .

ان هذه (١) الواقعة تشعرنا بأن ابن الهيثم فى مبادئه السياسية والأخلاقية ، ينزع الى نوع من الأرستقراطية يجـــاوز به تقسيم طبقات الناس بحسب ما يصـــلحون له من الأعمال فى الحيـــاة الاجتماعية الى الاستخفاف بالعامة وازدرائها ، وابن الهيثم يريد

---

(١) المرحوم الدكتور مصطفى عبد الرازق .

بالعامة الذين يزدريهم من ليس همهم الحق والخير فهم يؤثرون على طلب الحق والعدل ، ومن أجل ذلك لم يبذل علمه للأمير الا بعد ما وثق من استهانته بالمال فى سبيل طلب المعارف النفسية والعمل بالعدل الذى هو محض الخير .

وأساس الأخلاق عند ابن الهيثم ايثار الحق وطلب العلم ، والحق ليس هو أن يدركه الكثير من الناس ، لكن هو أن يدركه الفهم الفاضل منهم ، ولذلك يقول ابن الهيثم على ما نقله ابن أبى أصيبعة :

« فكنت ، كما قال جالينوس فى المقالة السابعة من كتابه فى حيلة البرء يخاطب تلميذه : لست أعلم كيف تهيأ لى منذ صباى ان شئت قلت باتفاق عجيب ، وان شئت قلت بالهام من الله ، وان شئت قلت بالجنون أو كيف شئت أن تنسب ، ذلك انى ازدريت عوام الناس واستخففت بهم ، ولم ألتفت اليهم ، واشتهيت ايثار الحق وطلب العلم ، واستقر عندى أنه ليس ينال الناس من الدنيا شيئا أجود ، ولا أشد قربة الى الله من هذين الأمرين » .

ولابن الهيثم كلمات مأثورة ذكرها البيهقى تدل على نزعاته الأخلاقية منها قوله :

« ابذل لعارفك معروفك ، وللمستعد علمك ، وحراس عرضك ودينك » .

ومنها :

« اذا وجدت كلاما حسنا لغيرك فلا تنسبه الى نفسك ، واكتف باستفادتك منه ، فان الولد يلحق بأبيه ، والكلام بصاحبه ، وأن نسبت الكلام الحسن الذى لغيرك الى نفسك ، نسب غيرك نقصانه ورذائله اليك »

تلك كانت الأخلاقيات عند ابن الهيثم لن نخوض فيها الى أبعد من ذلك ، وسنوجه بحثنا الى عنايته بالمنطق الأرسطى عندما كان

يعيش بالعراق وسوريا فى المرحلة الأولى من حياته ، على غرار الطابع الرئيسى فى فلسفة معاصريه كالفارابى وابن سينا ، أما فى المرحلة الثانية من حيـــاته حينما استقر بجوار الجامع الأزهر بالقاهرة فان طابع المدرسة الاسكندرانية كان متغلبا على مناشطه العلمية كطابع التجريب عند ارشميدس وبطليموس القلوذى ، والطابع الرياضي والقياس البرهاني عند أبولونيوس واوقليدس ، وطابع الاستنباط والاستقراء الذى ارتضاه لنفسه منهجا بعد أن زاوجه مع التجريب والقياس ، وهو نفسه قد شعر بذلك اذ وجد أن مقالته السابقة فى علم المناظر لم تعد تشبعه وهى المقالة التى كتبها فى عهده الأول بالعراق أو سوريا ، أما كتابه الذى ألفـــه بالقاهرة فى المناظر فانه قد اعتبره قمة فى الادراك الصحيح طبقا للنهج الجديد الذى استقر فى عقله ، وهو يقول عن كتابه الأول بلفظه فى مقدمة كتابه الأخير فى المناظر :

« فمن وقع اليه المقالة التى ذكرناها ، فليعلم أنها مستغنى عنها بحصول المعانى التى فيها فى مضمون هذا الكتاب » .

* * *

ورغم أن المنطق الأرسططاليسى غامر معظم مؤلفاته الا أننا نرى أن رسالته « فى المكان » تعتبر بروزا واضحا لتأييد هـــذه الفكرة ، وسوف نناقشها فى اقتضاب .

يقول ابن الهيثم فى مقدمة رسالته ما يلى :

« قد اختلف أهل النظر المتحققين بالبحث عن حقائق الأمور الموجودة فى ماهية المكان ، فقال قوم ان مكان الجسم هو السطح المحيط بالجسم ، وقال قوم آخرون أن مكان الجسم هو الخلاء المتخيل الذى ملأه الجسم ، ولم نجـــد لأحد من المتقـــدمين كلاما مستقصى فى ماهية المكان ولا دليلا واضحا يفصح عن حقيقـــة المكان .

ولما كان ذلك كذلك رأينا أن نبحث عن ماهية المكان بحثا مستقصى يظهر به ماهية المكان ، وتنكشف حقيقته ، ويسقط به الخلاف ، ويزول معه الاشتباه » .

ان ما يقصده ابن الهيثم هو المفهوم المتواتر عن المكان فى الشرق الاسلامي وهو الذى ترسب من عناصر هيلينستية ، هذا المفهوم يتضح فى تعريف ابن سينا للمكان حيث يقول عنه :

« هو السطح الباطن من الجرم الحاوى المماس للسطح الظاهر للجسم المحوى ، ويقال مكان للسطح الأسفل الذى يستقر عليه جسم ثقيل ، ويقال مكان بمعنى ثالث الا أنه غير موجود ، وهى أبعاد مساوية لأبعاد المتمكن تدخل فيه أبعاد المتمكن فان كان يجوز أن يبقى من غير متمكن كانت نفسها هى الخلاء ، وان كان لا يجوز الا أن يشغلها جسم كانت هى أبعاد غير أبعاد الخلاء ، الا أن هذا المعنى من لفظ المكان غير موجود » .

أما مسألة الخلاء فهى شديدة القرب من مسألة المكان ، وكان فيها من قبل لأرسطو رأيان متضادان تمام التضاد : أحدهما يقرر وجود الخلو باعتباره لابد منه للحركة ، والثانى كان يؤكد فى جزم على سواء أن الخلو لا يوجد فالطبيعـــة تمقت الفراغ ، وكان انكساغوراسى يدافع عن هذه النظرية الأخيرة ، ويحاول أن يثبتها بتجربة محسوسة ، فكان يفش أوطابا مملوءة بالهواء فى ساعات مائية يثبت بذلك أن ما يظنونه خلوا انما هو مملوء بالهواء .

ويتخذ أرسطو من هذا البرهان أداة لعدم قبول امكان وجود الخلو ، فالخلو فى نظره ليس ضروريا للحركة كما قد يتخيل بل هو لها عقبة كؤود ، وفى الخلود تفقد الأشياء ميولها الطبيعية التى تحملها الى فوق اذا كانت خفيفة والى تحت اذا كانت ثقيلة .

ويطرق ابن الهيثم هذا الموضوع بلباقة فى رسالته السابقة هكذا :

« فنقول ان كل جسم فله شيئان : كل واحد منهما يحتمل أن يسمى مكانا له ، فأحدهما السطح المحيط بالجسم ، أعنى سطح الهواء المحيط بالجسم الذى فى الهواء ، وسطح الماء المحيط بالجسم الذى يكون فى الماء ، وسطح كل جسم فى داخله جسم منفصل عنه ، وهو الذى ذهب اليه احدى الطائفتين المختلفتين .

والمعنى الآخر هو الخلاء المتخيل الذى ملأه الجسم ، فان كل جسم فانه قد انتقل من الموضع الذى هو فيه ، فان السطح المحيط كان به يمكن أن يتخيل خاليا لا جسم فيه ، وان كان قد ملأه هواء أو ماء أو جسم من الأجسام غير الجسم الذى كان فيه ، وأريد بالموضع أحد الأمكنة التى تقدم ذكرها ، التى كل واحد منها يسمى بالاتفاق مكانا .

والخلاء المتخيل هو الأبعاد المتخيلة التى لا مادة فيها التى بين النقط المتقابلة من السطح المحيط بالخلاء » .

ويستطرد أبن الهيثم قائلا فى سبيل الدفاع عن رأى أرسطو :

« فأما الخلاء المتخيل الذى قد ملأه الجسم ، فان الذى يعترض فيه من الشبه ، هو أن يقال ان الخلاء ليس بموجود فى العالم ، فاذا قيل ان كان الجسم هو الخلاء ، لزم أن يكون مكان الجسم شىء ليس بموجود ، والجسم موجود ، وكل جسم موجود فهو فى مكان ، واذا كان المتمكن موجودا فمكانه موجود ، فيلزم أن يكون الخلاء موجودا ، وهو قول شنيع عند من يقول ان الخلاء ليس بموجود .

فهذه الشبه تنحل بما نصف ، وهو أن يقال فى جواب هذا القول ان الخلاء انما هو أبعاد مجردة من المواد ، فالخلاء المتخيل الذى قد ملأه الجسم هو الأبعاد المتخيلة المساوية لأبعاد الجسم اذا تخيلت مجردة من المادة .

فالخلاء المتخيل الذى قد ملأه الجسم هو أبعاد متخيلة مساوية لأبعاد الجسم قد انطبقت عليها أبعاد الجسم المتخيلة فى الجسم » .

* * *

يرى أرسطو أن الدليل الواضح على وجود المكان هو تعاقب الأجسام التى تتناوب التحيز فى محل واحد بعينه ، ليكن مثلا اناء فيه ماء الآن ، أخرج منه الماء فيأتى الهواء يحل محله أى أن جسما جديدا يأتى فيأخذ المحل الذى أخلاه الآخر ، يوجد اذن مكان محل يتميز عن جميع الأشياء التى هى فيه والتى تختلف اليه ما دام أن الهواء يوجد الآن به حيث كان يوجد الماء من قبل .

ويؤيد ابن الهيثم ذلك فى مثال مشابه ويصل فيه الى أن الجسم اذا تغير شكله تغير شكل السطح المحيط به فيقول :

« ومن ذلك أن الماء اذا كان فى قربة كان سطح داخل القربة مكان الماء ، ثم اذا عصرت القربة فاض الماء من رأس القربة ، ويكون سطح القربة محيطا بما بقى من الماء ، ثم كلما عصرت القربة خرج الماء ، وكان سطح القربة محيطا بما بقى من الماء ، ثم كلما عصرت القربة خرج الماء ، وكان سطح القربة محيطا بما بقى ، فيكون الجسم يتناقص دائما ، ومكان كل ما بقى منه هو مكانه الأول ، ويلزم من ذلك أن يكون المكان الواحد الذى هو سطح داخل القربة مكانا لأجسام مختلفة المقادير متباينة الاختلاف ، وسطح القربة تارة محيط بأعظمها ، وتارة محيط بأصغرها ، وتارة محيط بأوسطها ، وهذه شناعة شنيعة » .

وتعريف المكان بالسطح المحيط بالجسم ، والحد الأول للامتحرك للحاوى هو تعريف الحيز وليس هو التعريف الخاص للمكان ، ويقول ابن الهيثم فى هذا الصدد :

« ويلزم من جميع ذلك أن يكون الجسم الواحد له أمكنة كثيرة مختلفة المقادير ، ومقدار الجسم لم يتغير ، وذلك الجسم

المنفعل كالشمع والرصاص والماء ، وكل جسم سيال قد يتشكل بأشكال مختلفة من غير أن يزيد فيه ولا ينقص منه شيء ، وذلك أن الشمع وما جرى مجراه اذا كان على شكل مكعب ، كان سطحه المحيط به هو مكانه ، ثم اذا جعل ذلك الجسم بعينه كريا كان مكانه هو السطح الكرى المحيط ، والسطح الكرى هو أبدا أصغر من مجموع سطوح المكعب اذا كان جسم الكرة مساويا لجسم المكعب » .

ويرى أرسطو أن كل الدلائل تتضافر على اثبات أن المكان موجود كشيء فعلى بصرف النظر عن الأجسام التى يحويها ، وأنه بالتبع كل جسم محسوس هو فى المكان ، من أجل ذلك يظهر أن الشاعر « هيزيود » كان على حق حين جعل العماء قبل كل الأشياء اذ يقول :

قبل سائر الباقى قد كان العماء ، ثم الأرض ذات الصدر الفسيح .

أى أن الشاعر يفترض أنه قبل ظهور الأجسام كان يوجد مكان يستطيع أن يقبلها ، وفيه تجد محلها ، وهذا المكان هو ضرورة متقدم على كل ما هو غيره ، وبالتبع فالمكان الذى كان يوجد قبل الأشياء لا يزال موجودا بعدها ، ولا يفسد حين تفسد الأشياء التى هو يشتمل عليها .

ومن وجهات نظر أخرى يمكن أن توضع مسائل محيرة على المكان ، كيف يمكن أن يكون المكان علة بالنسبة للأشياء ؟ الى أى نوع من العلة يمكن رده ؟ فهو لا يمكن اعتباره كمادة للموجودات ما دام ليس واحد من الموجودات مركبا من مكان ، كذلك ليس هو الصورة والماهية للأشياء ، وليس كذلك غايتها ، وليس محركها .

وثمة اعتراض آخر : اذا كان المكان هو مادة الأشياء وصورتها فحينئذ هو يندمج فيها ، ويكون فى الشيء نفسه لا خارجا عنه

بعد ، وبالنتيجة يكون المكان فى المكان ، ما دام أن جسما هو دائما وبالضرورة فى حيز لأن الصورة والهيولى يتحركان ويتغيران بالمكان مع الشيء لأنهما لا يبقيان بعده فى الحيز بعينه بل يذهبان الى حيث يذهب ، وحينئذ يلزم مكان للمكان ، حيز للحيز ، وهذا سخف .

على هذا فالمكان الذى ليس هو جسما ولا علة يكاد يكون موجودا ، لأنه اذا كان موجودا فسيتساءل المرء مع الفيلسوف الأغريقى « زينون » أين حيز المكان ؟ ما دام أن كل موجود هو بالضرورة فى حيز ، فسيكون اذن مكان لمكان وهلم جرا الى ما لا نهاية .

كل هذه الاعتراضات يجيب عنها ابن الهيثم فى تعريف مانع شامل « مكان الجسم هو أبعاد الجسم » ويرد على اعتراضات « زينون » على الحيز قائلا :

« فان قيل أن الخلاء هو جسم والجسم المتمكن فى المكان هو جسم ، وليس يجوز أن يداخل الجسم جسما آخر ، ويصير جسما واحدا .

فالجواب أن الجسم لا يداخل الجسم اذا كان واحد منهما ذا مادة ، وكان فى المادة مدافعة وممانعة فيمنع كل واحد منهما الآخر أن يصير فى مكانه وهو ثابت فى مكانه ، والخلاء ليس بذى مادة ولا فيه مدافعة ، وانما الخلاء هو أبعاد فقط متهيئة لقبول المواد .

والجسم الطبيعى هو المادة التى هى الأبعاد المتخيلة متهيئة لقبولها مع الأبعاد ، وكل الأبعاد فهى متهيئة لقبول كل مادة ، وكل بعد فليس فيه مانع يمنع من أن تنطبق عليه ، فليس يمتنع أن ينطبق أبعاد الجسم الطبيعى الذى الخلاء متهيىء لقبوله على أبعاد الخلاء ، التى هى أطوال لا عروض لها ولا مدافعة فيها . واذ ذلك كذلك

فقد بطل القول بأن الجسم الطبيعى لا يداخل الخلاء لأنهما جسمان ، واذ قد تبين جميع ما بيناه فمكان الجسم هو أبعاد الجسم التى اذا جردت فى التخيل ، كانت خلاء لا مادة فيه مساويا لجسم شبيه بشكل الجسم ، وذلك ما أردنا بيانه فى هذه المقالة » .

بقيت ملاحظة أخيرة ، حيث يتفق ابن الهيثم مع أرسطو فى أن الرياضيات مع كونها مجردات تثبت أيضا وجود المكان لأنه ، ولو أن الموجودات التى تشتغل بها بما هى عقلية محضة ليس لها حيز ، ولا يمكن أن يكون لها حيز ، الا انها مع ذلك لها وضع بالنسبة لنا والذهن يميزها بأن يضعها على اليمين أو على الشمال حسب الحاجة : على هذا فالذهن يحلها كما أن الطبيعة نفسها تحل العناصر .

وابن الهيثم يؤمن بأن الضوء شىء له وجود فى ذاته وله حركة نقلة من مكان الى مكان ، وتلك الحركة تقتضى زمانا ، بل وأن تلك الحركة كمية موجهة فى الذهن وفى الحقيقة ، وقوانين الانعكاس والانكسار شواهد اثبات على ذلك .

* * *

ويختلف ابن الهيثم مع أرسطو فى آنية الضوء ، فأرسطو يقول بأن الضوء يتحرك لا فى زمان ، بينما يؤكد ابن الهيثم بأن الضوء يتحرك فى زمان ، ورأى أرسطو صريح فى ذلك الصدد ففى مخطوطه (١) « فى أن الضوء ليس بجسم » يقول بلفظه :

« قال أصح ما انتهى الينا من قول الأوائل فى الضياء حجج أرسطو ، فما احتج به فى كتاب النفس وغيره على ذلك أنه قال كل جسم اذا تحرك فانما حركته فى زمان ، والضياء يتحرك لا فى زمان ، فليس بجسم ، وذلك أنه مع طلوع الشمس يضىء الأفق كله معا ، وليس يضىء جزء منه بعد جزء ، فيكون متحركا لا فى زمان لأن

(١) مخطوط بدار الكتب وهو من كلام جمعه حنين بن اسحاق من كلام أرسطوطاليس (٢٨٣٥ و) .

الزمان يتجزأ بالقبل والبعد ، ويتجزأ ما كان فيه من الحركات متجزئة » .

ويستند أرسطو فى برهانه على قضية المكان فيقول :

« ان كان ضياء الشمس جسما ، فلا يخلو اذا سلك فى الهواء وأنار به ، من احدى ثلاث خلال : اما أن يجاور الهواء أو يداخله أو يكون محمولا فيه .

فان كان مجاورا له فمكانه غير مكانه ، فهذا شأن الأجسام المتجاورة ، فيكون المكان الذى يحل فيه الضياء مضيئا ، والمكان الذى يحل فيه الهواء غير مضىء ، والحس يبطل هذا ، لأنا نجد الهواء اذا أشرقت الشمس عليه مضيئا كله .

وان كان مداخلا له لزم أن يحلا فى مكان أحدهما ، ولو جاز هذا فى جسمين . جاز فى ثلاثة وأربعة ، وفى أجسام العالم كلها ، حتى يكون العالم كله مداخلا لبهاه ، وهـذا محال . فلم يبق الا أن يكون محمولا فيه والمحمول فى الجسم عرض ، فالضياء عرض » .

يرى أرسطو ، ورأيه حاسم فى هذا الموضوع ، أن الضوء ليس بجسم ، ولم يوضح لنا ماهية هذا الضوء ، فرأيه سلبى غـير ايجابى ، وتحايل ابن الهيثم فلم يبت برأى صريح فى هذه الماهية سوى أنه قال بأن الضوء شىء له وجود فى ذاته ، ولكن ما هو كنه هذا الوجود ، انه مثله بنموذج الكرات الصلدة التى يسقطها من عل فوق ألواح من الفولاذ صقيلة ، نموذج ميكانيكى لا أقـل ولا أكثر ، لأنه خشى الولوج فى قضية المكان المتشابكة هـذه ، ومنطق أرسطو قوى الحجة حيث يعيد القول :

« ان المكان له قوة أثرها بين الأشياء الطبيعية ، ولذلك يوجد لكل جسم مكان خاص به ، يطلبه بطبيعته ، فالمكان أحد الأسباب

المتقدمة فى معرفة طبيعة الشىء اذا كانت الأجسام المستقيمة الحركة :

والتى حركتها على الاستدارة لها أمكنة طبيعية ، وكان العلو مكان النار ، والهواء والوسط مكان الأجسام التى يغلب على تركيبها الأرض أو الماء ، والموضع المحيط بالوسط للأجسام المستديرة الحركة .

وكانت هذه الأمكنة الثلاثة هى الأمكنة الطبيعية ، وكان محال أن يوجد جسم ليس له مكان خاص به ، وذلك أنه لما يكن للجسم الأول حركة طبيعية خاصة به ، وجب أن يكون له مكان طبيعى خاص به .

فيجب من هذه المقدمات أن يكون الضياء ليس بجسم ، وذلك أنه ليس شىء من هذه الأمكنة ، أعنى العلو والوسط ، والوسط أخص بالضياء من غيره لأنه يوجد فيها كلها ولا يطلب منها شىء اذا فارقه » .

يتضح من ذلك أن قضية المكان قد تفرعت منها قضية ماهية الضوء ، فأرسطو يرى أن الضوء ليس بجسم ، لأن الجسم لابد له من حيز ، ومحال أن يتداخل جسم الضوء مع جسم الهواء أو الأجسام التى تعترضه فينيرها .

وابن الهيثم يرى أن الضوء موجود فله كيان بذاته ، وفلاسفة الضوء من الأوربيين فى عصر النهضة قالوا غير ذلك ، اذ استغل « نيوتن » فكرة ابن الهيثم الميكانيكية فقال بنظرية الجسيمات .

ورأى « هيجنز » العالم الهولندى خلاف ذلك ، فقال ان الضوء ما هو الا موجات متعاقبة ، كما رأى بعث فكرة الأثير ، تلك المادة اللطيفة التى تساعد على انتشار موجات الضوء التى تحدث فيه ثم تنتقل من مكان الى مكان ، على غرار موجات الماء ، وسنوضح ذلك فى مكان آخر بالتفصيل .

فقضية المكان اذن قضية متشعبة الأطراف فى الطبيعيات احدثت قلقا فى الفكر ، فتفرعت منها قضايا أخرى مثل ضوء النار حيث يقول أرسطو فى نفس المخطوط :

« ان كان ضوء النار جسما ، فلابد أن يكون اما نارا ، واما جسما منبعثا من النار ، ولا يجوز أن يكون ضوء النار نارا ، لأن النار تحرق والضوء لا يحرق ، لأن الضوء يوجد فى الماء ، والماء لا تمنعه من أن يبرد ويرطب ، وهو ضد النار ، والأضداد اذا تلاقت تفاسدت ، والضوء والماء اذا اجتمعا لم يتفاسدا ، فالضوء ليس بنار .

وأيضا فنجد ضوء النار واقعا على القطن والصوف والأشياء التى من شأن النار أن تلهب فيها ، فلو كان ضوء النار نارا لكان محرقا ملهبا لهذه الأشياء ، ولو كان جسما منبعثا من النار لم يمتنع أن يوجد بعد انطفاء النار ، لأن الأجسام قائمة بأنفسها ، ومنفردة بذواتها ، والحس يبطل هذا ، لأنا نجد ضوء النار يزول بزوالها فليس بجسم » .

ولابن الهيثم شروح كثيرة على الأضواء الصادرة من فتيلة محترقة أو شمعة أو ما شابه ذلك ، ومقارنتها بالأضواء الصادرة من الشمس أو الكواكب ، نرجىء الخوض فى موضوعها لمكان آخر سيأتى بعد .

الفلكى

فى صدر الدولة العباسية ، اعتمد علماء العرب فى الفلكيات على رافدين أحدهما هندى يتمثل فى كتاب السـندهند ، وهو كتاب فى علم الهيئة بنى على طريقة الهنادكة فى عمل الأزياج أى الجداول الفلكية ، والآخر اسكندرانى يتمثل فى المجسطى لمؤلفه بطليموس القلوذى الذى عاش فى الاسكندرية فى القرن الثـانى الميلادى وعمل أرصادا فلكية من عام ١٢٥ - ١٤١ م ، والعرب هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم وهو مشتق من كلمة "Majestos"

ويضم الكتاب الأخير صفوة العلوم الفلكية عنـد اليونان والمصريين القدماء ، والعلم الرياضى ، بالاضافة الى أرصاد بطليموس نفسه ومن سبقوه أمثال ابيرخس ، وأصبح المجسطى الحجـة الأولى فى هذا المجال كما كان كتاب الأدوية المفردة لجالينوس حجة فى الطب ، ولم يستطع أحد من العلماء أن يطعن فى النظـام البطليموسى الذى استقر نهائيا فى الأذهان ، وتمخضت الجهود فى المحاولة للتوفيق بين نظام بطليموس ونظرياته وبين نتائج الأرصاد التى قام بها علماء أمثال الفرغانى والبوزجانى والنظـام الأعرج النيسابورى .

درس ابن الهيثم كتاب المجسطى دراسة عميقة ، بل كان مصدر رزقه كما روى القفطى عن « يوسف الفاسى الاسرائيلى الحكيم » كما رواه أيضا ابن أبى أصيبعة عن « علم الدين قيصر المهنـدس » وكان من معاصرى ابن الهيثم ، قالا أن مورد رزق

ابن الهيثم فى أيامه الأخيرة بجوار الجامع الأزهر كتابين أو ثلاثة كتب رياضية ، منها كتاب الأصول لأوقليدس وكتاب المجسطى لبطليموس ، كان ينسخها كل عام فيأتيه من أقاصى البلاد من يشتريها منه بثمن معلوم ، لا مساومة فيه ولا معاودة ، وكان ثمنها يكفيه مؤونة العام .

وكانت نتيجة دراسة ابن الهيثم لكتاب المجسطى تأليفه « مقالة فى الشكوك على بطليموس » وهى مخطوط موجود بمكتبة بلدية محافظة الاسكندرية للآن جاء فيه بلفظه : « ولما نظرنا فى كتب الرجل المشهور بالفضيلة ، المتفنن فى العلوم الرياضية ، المشار اليه فى العلوم الحقيقية ، أعنى بطليموس القلوذى ، وجدنا فيها علوما كثيرة ، ومعانى غزيرة كثيرة الفوائد عظيمة المنافع ، ولما خصمناها وميزناها ، وتحرينا انصافه وانصاف الحق منه ، وجدنا فيها مواضع مشبهة ، وألفاظا بشعة ، ومعانى متناقضة ، الا أنها يسيرة فى جنب ما أصاب فيه من المعانى الصحيحة .

ورأينا أن فى الامساك عنها هضما للحق ، وتعديا عليه ، وظلما لمن ينظر بعدنا فى كتبه فى سترنا ذلك عنه ، ووجدنا أولى الأمور ذكر هذه المواضع واظهارها ، ثم نجتهد بعد ذلك فى سد خللها ، وتصحيح معانيها بكل وجه يمكن أن يؤدى الى حقايقها .

ولسنا نذكر فى هذه المقالة جميع الشكوك التى فى كتبه ، وانما نذكر المواضع المتناقضة ، والأغلاط التى لا يقول فيها فقط ، يعنى متى لم يخرج لها وجوه صحيحة ، وهيئات مطردة انتقصت المعانى التى قررها وحركات الكواكب التى حصلها » .

وكتاب المجسطى الذى يمحصه ابن الهيثم يحتوى على ثلاث عشرة مقالة ومائة واحد وأربعين فصلا ، ومائة ستة وتسعين شكلا ، على ما فى النسخة التى نقلها اسحاق بن حنين ، وأصلحها ثابت بن قرة .

والمقالة الأولى بها أربعة عشر فصلا وستة عشر شكلا ، وهى تطرق مواضيع كثيرة ، فى أن السماء كرية وحركتها مستديرة ، وفى أن الأرض كرية فى الحس بالقياس الى الكل ، وفى أن الأرض وفى وسط السماء كالمركز فى الكرة ، وفى أن الأرض كالنقطة عند فلك البروج ، وفى أن الأرض ليس لها حركة انتقال ، وفى أن أصناف الحركات الأول للسماء اثنان ثم يلى ذلك مواضيع أخرى فى العلوم الجزئية والرياضيات .

وفى المقالة الثانية ثلاثة عشر فصلا وخمسة وعشرون شكلا : منها : فى معرفة سـعة المشرق من مقـدار النهـار الأطول أو الأقصر .. الخ .

وفى المقالة الثالثة عشرة فصول وعشرون شكلا منها : فى مقدار زمان السنة ، وفى حساب التقويم الشمسى .

ويلى ذلك بقية المقالات التى تطرق مواضيع كثيرة مثل : فى تعيين الأرصاد التى منها تعرف امور القمر الكلية ، وفى تصحيح حركتى الطول والعرض ، وفى صيغة آلة تقاس بها الكواكب ، وفى حساب تقويم القمر طولا وعرضا ، وفى عمل آلة لرصد اختلاف المنظر ، وفى تحصـيل أبعاد القمر ، وفى مقادير أجـرام النيرين والأرض .. الخ .

ولا يستطيع كتابنا هذا أن يسرد جميع هذه المواضيع التى تأخذ من وقت القارىء الكثير ، وانما سردنا بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر .

ومثل من أمثلة دراسة ابن الهيثم ما يقوله بلفظه :

« وأما كتابه الموسوم بالمجسطى فانا وجدناه ذكر فى الفصل الثالث من المقالة الأولى منه ، فهو « فى أن السماء كرية » أن الشمس انما ترى فى الآفاق أعظم منها اذا كانت فى وسط السماء ، لأن بخارا رطبا هو الذى يحيط بالأرض يصد فيما بين البصر

وبينها ، فترى كذلك ، كما أن ما يلقى فى الماء يرى أعظم ، وكلما رسب كان أزيد فى عظمه .

يشير الى أن البخار الرطب هو فى الآفاق ، وليس فى وسط السماء ، ولذلك ترى الشمس فى الآفاق أعظم .

وهو يقول (أى بطليموس) فى المقالة الخامسة من كتابه فى المناظر أن جسم السماء ألطف من جسم الهواء يعنى أشد شفيفا ، وبين فى آخر هذه المقالة أن المبصر اذا كان فى جسم أغلظ ، وكان البصر فى جسم ألطف ، فان المبصر يرى أصغر مما يرى على استقامته .

وبين من كلامه فى هذه المقالة فى الزجاج والهواء والماء ، أن الجسم الذى على البصر كلما ازداد غلظة ازداد الشعاع انعطافا على العمود الذى فى الجسم الألطف ، أشد اجتماعا واضيق زاوية ، فيلزم من ذلك أن يكون الهواء كلما ازداد غلظا ازداد المبصر الذى فى السماء صغرا فى الزاوية .

وهذان المعنيان متناقضان ، وذلك أنه اذا كان البخار الرطب فى الآفاق ، فليس هو فى وسط السماء ، كان البخار أغلظ من بقية الهواء ، والسماء ألطف من الهواء فيجب أن ترى الشمس فى الآفاق أصغر مما ترى فى وسط السماء ، لأن البخار الذى فى الآفاق أغلظ من الهواء الذى فى وسط السماء ، والسماء هى واحدة بعينها فى كل موضع والوجود بخلاف ذلك » .

هذا هو موضع التناقض الذى اعترض عليه ابن الهيثم على رأى بطليموس ، ولكن من الواضح أنه اذا كان ابن الهيثم يريد بالأبخرة الغليظة بخار الماء ، فبخار الماء من حيث الشفيف ألطف من الهواء لا أغلظ ، وان كان التفاوت بينهما صغيرا يصح اغفاله ، واذا كان يريد بالأبخرة الغليظة ما هو من قبيل السحب أو الضباب أو البلورات الثلجية ، فليس الحال فيها حال الجسم

المشف المتصل المتجانس الأجزاء الذى ينعطف الضوء عند نفوذه فيها على المنوال المقصود فيما نحن بصدده .

* * *

ومن جهة أخرى فقد وضح ابن الهيثم فى مخطوطه « كتاب المناظر » أن انعطاف الضوء الوارد من الكواكب فى الطبقة الهوائية المحيطة بالكرة الأرضية يترتب عليه بوجه عام ادراك الأبعاد التى بين الكواكب ، أو اعظام الكواكب نفسها ، أصغر مما هى عليه فى الواقع ، وهو فى ختام بحوثه عما يترتب على الانعطاف من الخطأ فى ادراك هذه الأمور يشير أيضا الى أن انعطاف الضوء النافذ خلال طبقة من بخار غليظ أو هواء غليظ ، قد يعرض وجودها فى الجو كثيرا أو قليلا ، يترتب عليه هو أيضا خطأ فى ادراك(1) العظم .

وهو يرى أن مثل هذه الأبخرة الغليظة كثيرا ما توجد عند الأفق دون أن تتصل الى وسط السماء ، ولذلك فان التفاوت فى العظم حالة كون الكوكب أو البعد بين الكوكبين عند الأفق أو قريبا منه ، وهذه الأبخرة موجودة ، وحالة كونه فى وسط السماء وهذه الأبخرة ليست موجودة ، يظهر واضحا للحس .

فاذا فرضنا وجود مثل هذه الأبخرة الغليظة بالقرب من الأفق ، فضوء الكواكب وهى بالقرب من الأفق لا يعانى الانعطاف الذى روعى من جسم السماء الألطف الى طبقة الهواء الأغلظ فحسب ، بل يعانى أيضا عند نفوذه خلال هذه الأبخرة الغليظة انعطافا من الهواء الألطف الى البخار الأغلظ ، ثم انعطافا آخر من البخار الأغلظ الى الهواء الألطف قبل وصوله الى البصر .

وابن الهيثم يرى أن الانعطاف فى مثل هذه الأبخرة الغليظة يؤدى الى خطأ فى ادراك العظم هو ادراكه أعظم من حقيقته .

---

(1) مصطفى نظيف (الحسن بن الهيثم – بحوثه وكشوفه البصرية) :

وكما بين كمال الدين الفارسي الشارح الأكبر لبحوث ابن الهيثم ، في تعليقه على هذا الأمر ، اذا فرضنا مثلا أن طبقة البخار الغليظ المتوهم ، محدودة بسطحين في حكم المتوازيين ، فمن السهل بيان أن الانعطاف من الهواء الى البخار الغليظ ، ثم من البخار الغليظ الى الهواء مرة أخرى ، يؤدي الى ادراك المبصر أعظم مما هو عليه في الواقع ، ولا يتطلب هذا البيان من المعاني والأصول شيئا جديدا لم تتضمنه بحوث ابن الهيثم السابقة .

واذا كان الأمر كذلك وقع التفاوت في الاختلاف بين عظم المبصر ، وهو يرى على الأفق أو قريبا منه ، وهذه العلة موجودة ، وبين عظمه هو نفسه وهو يرى في وسط السماء وهذه العلة قد زالت .

وابن الهيثم لم يتوسع في شرح ما يحدث من التأثير اذا أبصر مبصر في الهواء خلال طبقة مشعة أغلظ من الهواء (كلوح سميك من الزجاج) تحول بينه وبين البصر ، ولكنه ألم في أقواله التي أوردها في هذا الصدد بالفكرة الأساسية التي فحواها باصطلاحنا الحديث ، أن الصورة التي تحدث بالانعطاف الأول من الألطف الى الأغلظ تعد بمنزلة مبصر في الأغلظ تحدث له صورة بانعطاف ثان من الأغلظ الى الألطف .

وهو في بيان ما يريد يقول « وذلك أن الموضع من مقعر السماء الذي ينعطف منه صورة الكوكب الى البصر تحصل فيه صورة الكوكب وتمتد منه الصورة من ذلك الموضع الى البصر على خطوط مستقيمة اذا لم يكن في الأفق بخار غليظ ، فاذا كان في الأفق بخار غليظ امتدت هذه الصورة الى سطح البخار الغليظ الذي يلي السماء ، فتحصل صورة الكوكب في سطح البخار الذي يلي السماء ، فيدرك البصر هذه الصورة كما يدرك المبصرات التي تكون في البخار ، وهو أن تمتد هذه الصورة في البخار الغليظ على خطوط مستقيمة ، ثم تنعطف عند البخار الذي يلي البصر ،

ويكون انعطافها الى خلاف جهة العمود القائم على سطح البخار الذى هو سطح مستو ، لأن الهواء الذى يلى البصر ألطف من البخار الغليظ ، فيلزم من ذلك أن ترى الصورة أعظم مما كانت ترى على استقامة ، وهذا المعنى قد تبين فى الشكل الأول من هـــذا الفصل وهو اذا كان الجسم الألطف يلى البصر ، وكان الجسم الأغلظ يلى المبصر ، وكان سطح الجسم الأغلظ مسطحا ، فتكون الصورة التى تحصل فى سطح البخار الذى يلى السماء هى المبصر والجسم الذى فيه هذه الصور هو البخار الغليظ ، والهواء الذى فيه البصر الطف من البخار الغليظ » .

وابن الهيثم يعـد وجـود مثل هـذه الطبقة الغليظـة عـلة « عارضة » يترتب عليها ادراك المبصر فى السماء وهو عند الأفق أو قريبا منه أعظم من حقيقته ، ويميز بينها وبين العلة الأخرى التى سبق بيانها فى أغلاط البصر ، وهى التى يتسبب عنها ادراك المبصر فى السماء وهو عند الأفق أو قريبا منه ، أعظم منه وهو فى وسط السماء ، ويسميها العلة « اللازمة الدائمة » اذ لا ارتباط لها بوجود مثل هذه الأبخرة الغليظة المتوهمة ، بل ولا ارتباط لها بالانعطاف البتة .

فان كانت الكواكب والأجرام السماوية تدرك وهى عند الأفق أو قريبا منه أعظم مما هى فى وسط السماء أو بالقرب منه بسبب العلة الدائمة التى سبق بيانها ، فانه « اذا عرض فى الآفاق بخار غليظ » وجدت علة أخرى هى هذه العلة العارضة ، وينجم عنها ادراك المبصر وهو عند الأفق أعظم من حقيقته ، فيترتب على اجتماع العلتين أن يزيد العظم زيادة تجعله أبين وآكد للبصر .

تلك هى نظرية ابن الهيثم وتتوقف صحتها على كون تلك الأبخرة الغليظة هى صنو للضباب أو السحب أو بلورات الصقيع الرشية .

وفى مخطوط المقالة السابقة من المناظر ، يدرس ابن الهيثم موضوعا آخر عن اثر الانعطاف فى أبعاد الكواكب ومقاديرها ، ويقول فى هذا الصدد :

« وهذا المعنى (أى الغلط فى ادراك العظم) يظهر فى الأبعاد التى فيما بين الكواكب ظهورا أكبر مما يظهر فى أعظام الكواكب أنفسها ، لأن مقدار الكواكب فى رأى العين مقدار صغير ، فالتفاوت فى اختلاف مقادير مقدار بعد ما بين الكوكبين ، بين كون الكوكبين فى الأفق وبين كونهما فى وسط السماء ، اختلاف متفاوت وظاهر للحس ظهورا بينا ، وخاصة الأبعاد المعترضة » .

لذلك تدور بحوثه حول بيان التفاوت التى يظهر فى البعد بين نقطتين (١) .

فاذا فرضنا أنهما كوكبان فى السماء كان القول منصبا على البعد بينهما ، وان فرضنا أنهما طرفا قطر من أقطار كوكب من الكواكب ، التى يدرك البصر لها عظما ، كالكواكب السيارة ، أو كالنيرين الشمس والقمر ، كان القول منصبا على عظم الكوكب فى اتجاه القطر .

ففى هذه البحوث يفرض ابن الهيثم خطا مبصرا محـــدودا بنقطتين ، ويتناول شرح كيفية ادراك البصر لهذا المبصر ، وهو فى ثلاثة أوضاع ، أولها عند ما يكون الخط المبصر عند السمت ، وثانيهما عند ما يكون الخط المبصر يوازى الأفق وعلى الأفق أو بالقرب منه ، وثالثها عند ما يكون الخط المبصر منتصـــبا فى السماء فى مستوى من المستويات المارة بالسمت .

* * *

---

(١) مصطفى نظيف .

ولابن الهيثم مؤلفات أخرى فى الفلكيات يبلغ عددها ٢٤ رسالة . منها ما هو مفقود ومنها ما هو موزع فى مكتبات العالم ، ولقد درس الدكتور محمد رضا مدور مدير مرصد حلوان السابق ، والحائز على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٨ رسـالته عن ارتفاع القطب الذى هو عبارة عن عرض المكان ، وهو موضوع له أهميته الكبيرة فى أعمال المساحة والملاحة البحرية ، فيقول :

« ان ارتفاع القطب على وجه التحقيق يتطلب استنباط طريقة للرصد والحساب خالية من الأخطاء بقدر المستطاع ، ولقد تم لابن الهيثم النجاح فى ايجاد هذه الطريقة » . وتتلخص الطريقة فى رصد الزمن الذى يستغرقه الكوكب للوصول من ارتفاع شرقى قريب من خط نصف النهار الى ارتفاع غربى متساو ، ومعرفة قيمة الارتفاع الشرقى أو الغربى وارتفاع الكوكب عند مروره بخط نصف النهار .

والأجهزة الفلكية التى استخدمها ابن الهيثم فى سبيل تحقيق هذه الأرصاد هى :

البنكام أو الساعة المائية لتعيين الزمن ، وآلة الاسطرلاب لرصد الارتفاع عند الأفق ، ولقد بين ابن الهيثم بوضوح كيفية أخذ الأرصاد المذكورة ، ثم هو يطبق القانون الخاص بعـلاقة الارتفاعات المذكورة ، والزمن الذى يستغرقه الكوكب فى الحالة الأولى التى يمر فيها الكوكب بسمت الرأس أو عند عبوره قريبا منها ، وفى الحالة الثانية عند ما يكون عبوره على نقطة من خط نصف النهار تختلف عن سمت الرأس يؤيد ابن الهيثم بالبرهان الهندسى الدقيق كيفية الحصول على هذه العلاقات ، برهانا تبرز فيه ملامح عالم متمكن فى الرياضيات .

ويبين ابن الهيثم أن تأثير الانعطاف على أرصاد الكواكب عند قربها من سمت الرأس يكاد يكون معدوما ، وعليه فان الأخطاء

الناشئة من تعيين الارتفاع بواسطة الأجهزة المستعملة تخلو من هذا العامل ، كما تخلو أيضا من عامل زاوية اختلاف المنظر ، نظرا لأن بعد الكوكب عن الأرض بالنسبة الى نصف قطر الأرض كبير جدا .

وبناء على ذلك تمكن ابن الهيثم من تعيين ارتفاع القطب أو عرض المكان على وجه التحقيق ، وهذه الطريقة هى الأكثر استعمالا حتى وقتنا هذا ، وان كانت الأجهزة المستخدمة حاليا قد تنوعت وتطورت فاختلفت عن الأجهزة القديمة البدائية التى استخدمها ابن الهيثم بدقة فأوصلته الى أرصاد صحيحة خالية من الأخطاء .

وللدكتور مدور بحث آخر فى رسالة ابن الهيثم « هيئة العالم » نقلا عن مقال للأستاذ ڤيدمان وفيها يوضح كيف استطاع ابن الهيثم ابتكار تغييرات جديدة على النظام البطليموسى فى الفلك، وان كان لم يمس الفكرة الأساسية لهذا النظام وهو وجود الأرض فى مركز العالم ، بينما تدور الشمس والكواكب حولها ، كل فى فلك يسبحون !

وفيما مضى كان القدماء يعتبرون أن الشمس والقمر والكواكب الخمسة كعطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل ، كانها ثابتة على كرات مجسمة تدور من حول الأرض ، وتتولد من دورانها موسيقى سماوية ، ثم أدخل بطليموس النظام الكونى المعروف باسمه ، وهو يقضى بأن يتحرك كل كوكب من الكواكب المعروفة على دائرة صغيرة يتحرك مركزها على دائرة كبيرة يتفق مركزها مع مركز العالم ، فحركة الشمس مثلا انما هى محصلة لحركات دائرية ، وكأنها عرى متداخلة ، انها عجل يدور فوق عجل كدود على عود دائرى .

وافترض بطليموس أن لكل كوكب مدارا دائريا يقال له « فلك الكوكب الدائر » ولم يكن الكوكب يتحرك فى هذا الفلك ، بل على

محيط دائرة أصغر يقال لها « فلك التدوير » مركزها يتحرك على الفلك الدائر ، وبذلك تتركب حركة الكوكب الفعلية من حركتين دائريتين منتظمتين . حركة الفلك الدائر ، وحركة الكوكب بالنسبة له ، وتصور بطليموس كل فلك دائر محمولا على سطح كرة بلورية تامة الشفافية ، وأن كل هذه الكرات تدور مرة فى اليوم ، حول محور مار بقطبى السماء ، أما النجوم الثوابت فكانت معلقة فى كرة بلورية خارجية ، تدور مثل الكرات الأخرى .

استحدث ابن الهيثم نسقا جديدا على هذا النظام فجسم الأفلاك ، وجعل كل كوكب يدور على كرة فلكية يبعد مركزها عن مركز العالم بمقدار بسيط ، بحيث يتفق التقويم تقريبا مع الأرصاد ، ثم يشرح فى الجزء الثانى هيئة العالم والحركة بصفة عامة .

والعالم فى نظره يتألف من أجسام خفيفة وأجسام ثقيلة وأجسام ليست ثقيلة وأجسام ليست خفيفة أو ثقيلة ، فالأرض من الأجسام الثقيلة ، ويحيط بها الماء على شكل غلاف كروى ، أما الأجسام الخفيفة فهى الهواء والنار وحركتها فوقانية ، والأجسام التى ليست خفيفة أو ثقيلة هى الأجسام السماوية الوهمية التى تؤلف فى مجموعها كرة سماوية وعليها النجوم بصورها .

وهذه الكرة تدور دورة سريعة من الشرق نحو الغرب فى يوم وليلة ، والسطح الخارجى لكرة السماء هو الحد النهائى للعالم ، حيث أن الفضاء بعده ليس بخلاء ولا ملاء ، وعليه يكون العالم محدودا ولكن لا نهاية له ، ثم هو يبين أن الأجسام الطبيعية تؤدى حركة واحدة فقط ، وأن هذه الحركة منتظمة لا عجلة لها ، وأن الأجسام السماوية لا تقع تحت أى تأثير آخر .

هذا نسق استحدثه ابن الهيثم لكى يبسط سير الكواكب فتنتظم جميعا على منوال واحد ، وسار هذا النسق حتى القرن

السادس عشر حتى قلبه كوبرنيق فجعل الشمس فى مركز العالم والأرض والكواكب الأخرى تدور من حولها فى مدارات اهليليجية طبقا لارهاصات عالم سمرقند الكبير جمشيد غياث الدين الكاشى فى القرن الخامس عشر .

لقد جعل ابن الهيثم الحد النهائى للعالم كرة السماء كما كان الاعتقاد سائدا وقتئذ ، غير أن الآراء الحديثة المبنية على الأرصاد الفلكية بواسطة المناظير الكبيرة ، توضح أن ما وراء كرة السماء هذه فضاء يكاد يكون فارغا ، غير أنه على أبعاد شاسعة يقطعها الضوء فى آلاف أو مئات الألوف من السنين حتى ملايين السنين الضوئية .

ان الفلكيين فى الوقت الحاضر يجدون هنا وهناك أجساما عظيمة جدا يبلغ اتساعها عشرات أو مئات السنين الضوئية ، وهذه الأجسام ليست بالنجوم ، وأنما هى مجموعة من النجوم الصغيرة تظهر على شكل سحاب أو سديم ، ولها أشكال منتظمة حلزونية فى الغالب ، ومن الغريب أن هذه الأجسام تبتعد عنا بسرعة عظيمة تتناسب كبرا مع البعد وتبلغ سرعتها عند بعد مخصوص نحو ٥٠٠ كيلومتر فى الثانية الواحدة .

والنجم قنطورس هو أقرب النجوم الى ما وراء المجموعة الشمسية لنا ، اذ يبعد عنا بمسافة لا تزيد على خمس سنوات ضوئية فقط ، وهو يوجد فى النصف الجنوبى من القبة السماوية وتتعذر رؤيته شمال نحو خط عرض ٣٠ درجة شمالا ، ولهذا لم يرصده العرب فى مراصدهم بقرطبة وبغداد ودمشق وقاهرة المعز ، وكذلك لم يعرفه الاغريق بطبيعة الحال .

تلك الكشوفات العظيمة التى حدثت فى القرن الحالى ، كانت بعيدة عن نطاق العلم العربى فى عصر ابن الهيثم ، الذى لو كان يعيش بيننا اليوم لكان أسبق العلماء الى هذه الكشوف لو أعطيت له امكانيات هذا العصر نظرا لما كان يمتاز به من عبقرية وميضة .

* * *

بحث فلكى آخر قام به ابن الهيثم اذ لم يكن معروفا فى أيامه على وجه التحقيق كيفية اشراق الضوء من القمر ، فأصحاب التعاليم أى علماء الرياضة والفلك ، كانوا يقولون : أن ضوء القمر هو ضوء الشمس منعكسا عن سطحه كما ينعكس الضوء عن سطوح الأجسام الصقيلة كالمرايا مثلا ، فأراد أن يختبر صحة هذا القول :

أجرى بحثا هندسيا ، متسلسل الخطوات ، مستوفى البراهين ، قدر به الجزء من مساحة سطح القمر ، الذى ينعكس عنه الى نقطة من سطح الأرض الضوء الواقع من الشمس على سطح القمر كله ، وذلك على فرض أن سطح القمر كرى محدب ، فوجد أن ذلك الجزء هو مساحة صغيرة من سطح القمر لا يتجاوز طولها القوس التى توتر عند مركز القمر زاوية قدرها ٣٤ دقيقة ، ولا يتجاوز عرضها القوس التى توتر عند مركز القمر زاوية قدرها ١٧ دقيقة ، واثبت أن هذا الجزء الصغير يقع من سطح القمر على الجزء المقابل للنقطة المفروضة على سطح الأرض وحوالى الجزء الأوسط منه ، وبما ان هذه النتيجة التى أثبتها بالبرهان الهندسى لا تتفق والواقع المشاهد من الأمر ، فليس يكون الضوء المشرق من القمر هو ، كما يقول أصحاب التعاليم ، ضوء الشمس منعكسا كما ينعكس عن سطوح الأجسام الصقيلة ، وقد راعى فى هذا البحث تأثير الانعطاف أيضا .

على هذه الصفة أبطل تلك النظرية ، وأقام على أنقاضها نظرية فى ضوء القمر ، هى أن ضوء القمر هو ضوء ثانوى أو عرضى يشرق من سطح القمر المستضىء بالضوء الذاتى المشرق من الشمس ، كما يشرق الضوء من جسم كثيف معتاد ، اذا وضع بالقرب من جسم مضىء بذاته ، وليس هو ضوء منعكس بالمعنى الخاص بالانعكاس .

وثمة موضوع آخر يناقشه ابن الهيثم فى مخطوطه (١) « مقالة

---

(١) هذا المخطوط موجود فى بلدية الأسكندرية .

فى مائية الأثر الذى على وجه القمر » مناقشة يجمع فيها بين المشاهدة وبين المنطق الارسطاطاليسى ، فيقول : « قد اختلف أهل النظر فى مائية الأثر الذى يظهر على وجه القمر ، وهذا الأثر اذا تؤمل واعتبر ، وجد دائما على صفة واحدة لا يتغير ، لا فى شكله ولا فى وضعه ، ولا فى مقداره ، ولا فى كيفية سواده ، وقد تصرفت ظنون الناس فيه ، وتشتت آراؤهم ، فرأى قوم أنه فى نفس جرم القمر :

ورأى قوم أنه خارج عن جرم القمر ومتوسط بين جرم القمر وبين أبصار الناظرين اليه : ورأى قوم أنه صورة تظهر بالانعكاس لأن سطح القمر صقيل ، فاذا نظر اليه الناظر انعكس شعاع بصره عن سطح القمر الى الأرض كما ينعكس من سطوح المرايا ، فتظهر له صورة الأرض او بعضها .

وقال قوم أنه صورة البحار التى فى الأرض ترى بالانعكاس :

وقال قوم أنه صورة الجبال التى فى الأرض :

وقال قوم أنه صورة قطعة من الأرض التى يقع عليها الشعاع المنعكس » .

يناقش ابن الهيثم هذه الآراء مناقشة موضوعية ، ويفند أسانيدها خطوة خطوة حتى يثبت بطلانها ، فيوصله منطقه الى الرأى الأخير الذى اقتنع به ، فيقول بلفظه : « وقد تبين فى جميع ما بيناه فساد الآراء التى قدمنا ذكرها ، وقد تبين أن الأثر هو فى نفس جرم القمر ، اذ قد تبين أنه ليس هو لمعنى خارج عن جرمه ، ولا صورة تظهر بالانعكاس .

فقد بقى أن نبين مائية هذا الأثر :

فنقول أن جوهر القمر مخالف لجوهر جميع الكواكب الباقية، والدليل على ذلك أن جميع الكواكب مضيئة من ذواتها ، لا من اشراق الشمس عليها » .

ثم يبحث عن العلة التى من أجلها كانت القوة القابلة التى فى موضع الأثر أضعف من القوة القابلة التى فى بقية جرم القمر ، وهذه العلة انما هى كيفية الجزء من جرم القمر المتأثر بالأثر .

ويعزو ذلك الى الكثافة واللون ، وينتهى الى الحكم التالى ، وهو بلفظه : « فالأثر الذى يظهر فى وجه القمر هو لون القمر الذى يخصه ممتزجا بالضـوء الذى يحصل فيه ، وانما ظهر فى هـذا الموضع دون بقية سطح القمر لأن الضوء الذى فى هذا الموضع أضعف من الضوء الذى فى بقية سطح القمر ، وضعف الضوء الذى فى هذا الموضع انما هو لضعف القوة القابلة للضوء التى فى هذا الموضع ، وضعف القوة القابلة التى فى هذا الموضع انما هو لزيادة كثافة هذا الموضع على كثافة بقية ما يظهر من سطح القمر ، وذلك ماقصدنا تبيينه فى هذه المقالة » .

* * *

أنا لوطيقى فى الرياضيات

لأبى القاسم مسلمة بن احمد المجريطى عالم الأندلس الكبير والمتوفى عام ٣٩٥ هجرية مخطوط بدار الكتب المصرية عنوانه « رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء » : يقول فيه : « والعلوم الفلسفية أربعة اجناس : الرياضيات والطبيعيات والمنطقيات والالهيات ، فالرياضيات أربعة أنواع : الارثماطيقى وهو معرفة ماهية العدد وكيفية أنواعه ، وخواص تلك الأنواع وكيفية نشوءها من الواحد قبل الاثنين ، وما يعرض فيها من المعانى اذا أضيف بعضها الى بعض » .

« والثانى الهندسة والجومطريا ، وهو معرفة ماهية المقادير ذوى الأبعاد ، وكمية أنواعها وخواص تلك الأنواع ، وما يعرض فيها من المعانى اذا أضيف بعضها الى بعض ، وكيفية مبدأها من النقطة التى هى رأس الخط ، وهى فى صناعة الهندسة كالواحد فى صناعة العدد » .

« والثالث الاسطرنوميا وهى النجوم ، وهو معرفة كمية الأفلاك والكواكب والبروج وكمية أبعادها ، ومقادير أجزائها ، وكيفية تركيبها وسرعة حركاتها ، وكمية دورانها ، وماهية طبائعها، وكيفية دلالاتها على الكائنات قبل كونها .

« والرابع الموسيقى الذى هو علم التأليف وهو معرفة ماهية النسبة ، وكيفية تأليف الأشياء المختلفة ، والجواهر المتباينة الصور ، المتضادة القوى المتنافرة الطباع ، وكيف تجمع وتؤلف ،

ويتحد بعضها ببعض وتصير شيئا واحدا ، وتفعل فعلا واحـدا أو عدة أفعال » .

ثم ينتقل بعد ذلك فى تقسيم العلوم المنطقيات مما لا مجال له هنـــا .

هذا هو مفهوم العلوم الفلسفية فى الغرب الاسلامى ، أما فى الشرق الاسلامى فهم يسيرون على هذا النهج ، ولكنهم يسبقون الهندسة والحساب على المنطق ، وبهذا يقول علم سمرقند « قاضى زاده رومى » فى مخطوطه . اشكال التأسيس .

« على أنها (الهندسيات) أى مع أن تلك الأشكال رايضة لقوى العقل ، فانها تروضها رياضة تعتاد بها اليقينيات ، ولا تقنع بالظن فى البرهانيات ، ولهذا كانوا يقدمون فى تعاليمهم على سائر العلوم حتى المنطق ، بشىء فى الهندسة والحساب تقويما لأفكار المتعلمين ، وتأنيسا لطلبات بعضهم بالبراهين »

* * *

سبق أن إقلنا أن العرب فى يقظتهم الأولى تلقوا الفلســـفة الاغريقية من رافدين : أحدهما مذهب المشائية اى مذهب أرسطو وقد تسرب الى الشرق مع الاسكندر الأفروديسى وثامسطيوس ، والثانى مذهب الأفلاطونية المحدثة عن طريق الاسكندرانيين أصحاب النزعة الرياضية أمثال اقليدس وبطليموس وارشميدس وأيرون .

وآثر فلاسفة العرب بعد عصر الترجمة النزعة المشائية ، تلك التى تتسم أولا وقبل كل شىء بالاتجاه الطبيعى ، ثم اتخاذ المنطق الارسطى أداة للتفكير ، ومنهجا للنظر فى الموجودات حسية كانت أم عقليـــة .

وتشابك المذهبان حينا ، وتعايشا أحيانا ، وقدر للنزعـــة الطبيعية المشائية الغلبة ، فطبعت الفلسفة الاسلامية عند معلمها

الثانى : وشيخها الرئيس ابن سينا بطابع واضح ، واتخذ ابن الهيثم لنفسه منهجا بين النزعتين ، فكان مشائيا فى المرحلة الأولى من حياته عندما كان بالعراق وسوريا مع بصمات واضحة للمذهب الرياضى ، وكان اسكندرانيا فى المرحلة الثانية من حياته حينما استقر بالقاهرة وجعلها مقاما مع بصمات مترسبة من المذهب الارسطططاليسى ، ذلك لأن المناخ الفكرى فى القاهرة كان غذاؤه من تلك العناصر ، ومن ثم اتجه الى الماصدق أى المنطق الرياضى الحديث .

لقد آمن ابن الهيثم بأن الانالوطيقا الأولى أى التحليل . والانالوطيقا الثانية أى التركيب هما الغاية التى ينتهى اليها كل باحث ، والانالوطيقا الأولى هى القياس فى نظره ، أما الانالوطيقا الثانية فهى البرهان .

لنستمع اليه فى مخطوطه (١) « مقاله فى التحليل والتركيب » بلفظه :

« كل علم ، وكل تعلم ، فله غاية هى ذروته التى يسعى اليها المجتهدون ، وعلوم التعاليم مبنية على البراهين ، وغاياتها هى استخراج المجهولات من جزئياتها ، ووجود البراهين التى تدل على خصائصها ومعانيها .

والدورة التى تسمو اليها فى هذه العلوم ، والمجتهدين فى طلبها ، الظفر بالبراهين التى تستنبط بها مجهولاتها ، والبرهان الدال بالضرورة على صحة نتيجته ، وهذا القياس هو مركب من مقدمات تعرف فيها ، ومن نظام وترتيب لهذه المقدمات ، وطريق هذه المقاييس هو تصيد مقدماتها ، وتمحل الحيل فى ثقة اليها .

---

(١) هذا المخطوط موجود بدار الكتب ٣٢٣ رياضيات تيمور .

والصناعة التى بها تصيد هذه المقدمات ، وبها يتوصل الى الترتيب المؤدى الى المطلوب من نتائجها يسمى صناعة التحليل ، وجميع ما خرج الى الوجود من علوم التعاليم انما خرج بهـذه الصناعة » .

والقيـاس فى نظر ابن الهيثم هـو قول مؤلف من أقوال اذا سلمت لزم عنها لذاتها شيء آخر ، فهو يعتمد على علاقة الاشتمال، ويطبقه فى الطبيعيات وأهمها الضـوء والفلك ، كمـا يطبقه فى الرياضيات كالأرثماطيقى والهندسة والموسيقى .

فعن طريق القياس يمكن استخراج المجهول من جزئيات الظواهر الفيزيقية التى تقع للحس ، أو من المعطيات الرياضـية والحسابية ، فالعلوم والحالة هذه ليست الا من نتاج العقل البشرى ، فهى غير كامنة كمون الشرر فى الحجر ، بل تخرج الى الوجود بالتحليل وهو القياس ثم التركيب وهو البرهان ، طبقا لمفاهيم عصر ، وقد يصيبها التبديل والتغيير خصوصا فى الطبيعيات والفلك فتتغلف بغلالات جديدة من مفاهيم عصر آخر .

ومنهج ابن الهيثم فى التحليل قريب الشبه بمذهب ديكارت الذى ذكره فى « مقال فى المنهج » حيث يوصى فى القاعدة الثانية بأن « أقسم كل واحدة من المعضلات التى سأختبرها الى أجزاء بقدر ما فى الوسع ، وبقدر ما تدعو الحاجة الى حلها على خير الوجوه » والتحليل هنا مثالى ، شبيه بتحليل العالم الرياضى الذى يحلل النظرية الى عناصرها ، والعلم الفيزيقى الذى يحلل الظواهر الضـوئية ، وهو من المعطيات الحسـية ، الى حركات وأحداث .

والتحليل فى الهندسيات أو الارثماطيقى يوصـل الى نتـائج حاسمة لا اختلاف فيها ، أما التحليل في الطبيعيات فقد يوصل الى

نتائج سيالة حسب تعبير ابن الهيثم أى الى نظريتين أو أكثر لكل منها شيعة تناصرها .

وقد يحدث أن تعيش نظريتان متناقضتان جنبا الى جنب ، وينقسم معها العلماء الى شيعتين ، لكل فريق مقاييس واستدلالات وطرق ، تجعله يتشبث بنظريته ، مثل النظرية الجسـيمية فى الضوء لاسحاق نيوتن والنظرية الموجية « لهيجنز »

والتحليل الذى يعتمد على الأمور الحسية ، كثيرا ما يخطىء ، وابن الهيثم يعلم هذا ، بل يقرر أن العقل يخطىء أيضا ، يخطىء فى القياس ويخطىء فى البرهان ، فأقواله فى كيفية ادراك المبصرات، وعلل أغلاط البصر ، تشف عن رأيه أن فى الاستطاعة معرفة علل الأخطاء أو الأغلاط ، وفى الاستطاعة اجتنابها ، اذن فى الاستطاعة ادراك الشيء ادراكا « محققا على غاية التحقيق » وليس هذا المحقق على غاية التحقيق مطلقا ، بل هو « بالاضافة الى الحس » . تلك عبارته بلفظه فى مخطوطه المناظر .

* * *

ومنهج ابن الهيثم الانالوطيقى فى البحث العلمى هو نفس المنهج الذى يتبعه فى العلوم التعليمية ، ولنا عودة فى توضيح المذهب الأول، أما فى الأمور التعليميـة فقوله صريح فى مخطوطه « التحايل والتركيب » حيث يقول بلفظه :

« ونحن نشرح فى هذه المقالة كيفية صناعة التحايل المؤدى الى استخراج المجهولات من العلوم التعليمية ، وكيفية تصيد المقدمات التى هى مواد البراهين الدالة على صحة مايستخرج من مجهولاتها.

وطريق التوصل الى ترتيب هذه المقدمات وهيئة تأليفها ، وتبين أيضا كيفية هذه المقدمات ، وعكس ترتيبها الذى هو القياس البرهانى ، وهو الذى يسمى التركيب ، وانما سمى تركيبا لأن تركيب المقدمات المستنبطة بالتحليل تركيب قياس .

ونقسم مع ذلك هذه الصناعة الى أقسامها ، ونذكر قواعدها وقوانينها ، والوصول الى جزئياتها ، ونبين على جميع ما تفتقر اليه هذه الصناعة من الأمور المستعملة فيها ، وهذا حين نبتدىء القول فيهـا .

فنقول ان كيفية التحليل هو أن نفرض المطلوب على غاية التمام والكمال ، ثم ننظر فى خواص موضـوعه اللازمة لذلك الموضـوع ولجنسه ، وفيما يلزم من لوازمه ، ثم فيما يلزم تلك اللوازم الى أن نتبين الى شيء مفطى فى ذلك المطلوب وغير ممتنع فيه ، فهذا هو كيفية التحليل بالجملة ، واذا انتهى هذا النظر الى المعنى الى الشيء المعطى قطع النظر فى ذلك المطلوب ، ووقف الناظر عنده ، والمعطى هو المعنى الذى لا يمكن دفعه ولا يمتنع منه مانع » .

ثم ينتقل ابن الهيثم الى تفسير خطوات التركيب قائلا :

« أما كيفية التركيب فهو أن نعرض الشيء المعطى الذى انتهى اليه التحليل ، وعنده وقف الناظر ، ثم تضاف اليه الخاصة التى وجدت قبل تلك الخاصة ، ويسلك فى الترتيب عكس الترتيب الذى سلك فى التحليل ، فانه اذا التمست هذه الطريق انتهى الترتيب الى المعنى المطلوب ، لأنه كان أول موضوع فى التحليل .

فعند عكس الترتيب يصير لأوله ولآخره ، واذا انتهى الترتيب المعكوس الى المطلوب الأول المفروض ، صار هذا الترتيب قياسـا برهانيا ، وصار المطلوب الأول المفروض نتيجة له ، ويصير المطلوب موجودا ، ومع ذلك فصحته متبينة ، لأنها نتيجة قياس برهانى ، دال بالضرورة على صحة نتيجته .

وصـناعة التحليل تحتاج الى تقدم العلم بأصـول التعاليم والارتياض بها ، ليكون المحلل ذاكر الأصول عند التحليل ، ويحتاج مع ذلك أيضا الى حدس صناعى ؛ وكل صناعة فليس يتم لصانعها الا بحدس على الطريق الذى يؤدى الى المطلوب ، والحدس انمـا

يحتاج اليه فى صناعة التحليل اذا لم يجد المحلل فى موضوع المسألة خواصا معطاة ، ومتى ركبت أنتجت المطلوب .

فعند هذه الحالة يحتاج المحلل الى الحدس ، والذى يحتاج الى الحدس عليه هو زيادة يزيدها فى الموضوع ليحدث بزيادتها خواص للموضوع مع الزيادة تؤدى الى الخواص المعطاة التى متى ركبت انتجت المطلوب » .

هذا المنهج هو قريب الشبه بمنهج « ديكارت » الذى يعتمد فى المعرفة بوجه عام على الحدس والاستنباط ، فالحدس هو الادراك الذهنى المباشر لحقيقة مستكفية بذاتها ، وتفرض ذاتها اطلاقا ، أما الاستنباط فهو : الحركة المتصلة غير المنقطعة ، حركة فكر يدرك كل شيء ببداهة ، التى لم تعد هى البداهة الحسية ، بداهة ما يسمى بالأمر الواقع المحسوس ، وانما هو البـــداهة العقلية ، تلك التى تضيء الذهن أمام القضايا الرياضية .

والحدس الفعلى يجعل المحلل يدرك افكارا واضحة ، أى أفكارا تفرض نفسها على كل ذهن واع متنبه ، ويجعله يدرك أفكارا متميزة ، أى أفكارا بلغت من الجلاء والدقة والوضوح بحيث أن أحـــدا لا يستطيع أن يخلط احداها بالأخرى .

* * *

يعزز ابن الهيثم مذهبه فى التحليل بأمثلة كثيرة ، ثم يقسمها بحسب موضوعاتها فى الأمور التعليمية كما يقول :

« ونحن فى مستأنف القول نورد أمثلة لجميع ما ذكرناه ، ننتج بها جميع المعانى التى حددناها ، وتظهر كيفياتها أو ينكشف ما غمض عنها ، وتتحقق مع ذلك صحة ما حددناه وبيناه ، ونتيقن من بعد أن نفصل هذه الصناعة ونرتبها ونستوعب ساير أنواعها ، وأقسام هذه الصناعة تنقسم بحسب موضوعاتها ، لأن الطريق

فى تحليل كل نوع من أنواع موضوعاتها غير الطريق فى تحليل باقى انواعها .

وموضوعات هذه الصناعة فى المجهولات من جزئيات العلوم التعليمية ، تنقسم الى أقسام جميع جزئيات هذه العلوم ، وجزئيات هذه العلوم تنقسم أولا الى قسمين هما العلم والعمل .

ثم يستمر ابن الهيثم فى سرد المعانى العلمية والمعانى العملية ، وهى المعانى الجزئية لكل فرع من فروع الرياضيات فيقول :

(فأما المعانى العلمية فى علم الهندسة فهى مثل قولنا كل ضلعين من مثلث فهما أعظم من الصنع الباقى ، ومثل قولنا كل مثلث فزواياه الثلاث مجموعة متساويات لزاويتين قائمتين ، ومثل قولنا الأضلاع المتقابلة من السطوح المتوازية الأضلاع مساوٍ بعضها لبعض) .

عند ديكارت هذه المعانى العلمية هى التى يدخلها ضمن مفهوم الحدس ، ويعرفه بأنه الادراك الذهنى المباشر لحقيقة ستكفيه بذاتها ، وتفرض ذاتها اطلاقا .

وأما المعانى العملية فى الهندسة ، فهى عند ابن الهيثم مثل قولنا نريد أن نعمل مثلثا متساوى الأضلاع على خط مستقيم معلوم ، ومثل قولنا نريد أن نعمل على خط مفروض زاوية متساوية لزاوية مفروضة ، ومثل قولنا نريد أن نعمل مربعا مساويا لشكل مفروض .

وهو يرى أن كثيرا من القضايا تتفرع الى عدة حلول ، فعلى ذلك فالنتيجة سيالة ، فيقول :

« ومثل قولنا فى جزئيات الهندسة نريد أن نعمل دائرة تماس دائرتين معلومتين مفروضتين ، فان هذا المعنى يكون أن نعمل بعدة وجوه ، وذلك أنه يمكن أن تكون الدائرة المعمولة تماس الدائرتين

متحدبها بحدبتى الدائرتين ، ويمكن أن تماس احدى الدائرتين متحدبها ، وتماس الأخرى بتقعيرها لتحديب الأخرى ، ويمكن أن تماس كل واحدة من الدائرتين بتقعيرها لمحدبى الدائرتين ، فيكون عمل هذه الدائرة بثلاثة أجوبة .

ومثل قولنا نريد أن نخرج من نقطة مفروضة خطا مستقيما يماس دائرة مفروضة ، وهذا العمل يقع له وجهين ، لأنه اذا وصل بين تلك النقطة وبين مركز الدائرة بخط مستقيم يمكن أن يخرج من تلك النقطة خطان من جنبتى ذلك الخط كل واحد منهما يماس الدائرة » .

ويقول ابن الهيثم عن علم الهيئة انه غير ممكن ايجاد أجزاء عملية الا فى البراهين التى ترجع الى العدد والهندسة ، لأنه قد توجد فى حركات الكواكب ما يمكن أن يكون على وجهين مثـــل حركة الشمس التى يمكن أن تكون بفلكين أحدهما مركزه مركز العالم والآخر فلك تدويره مركزه على محيط هذا الفلك ، ويمكن أن تكون حركة الشمس بفلك واحد مركزه خارج عن مركز العالم الا أن هذا المعنى ليس عمليا لأنه ليس هو فى نفسه الا على أحد هذين الوجهين ، ولا يجوز أن يكون على الوجه الآخر .

وبخلاف ذلك فان جزئيات علم الموسيقى قد تقع فيها أجزاء عملية سيالة ، الا أن أعمالها ترجع الى علم العدد ، ويقول بلفظه :

« مثل قولنا نريد أن نقسم الاتفاق الذى بالكل الى الاتفاقين اللذين بالخمسة وبالأربعة الذى نسبة هذا الاتفاق يقع فى موضعين وذلك أنه يمكن أن نجعل الاتفاق الذى بالأربعة يتقدم بالاتفاق الذى بالخمسة ، ويمكن أن الاتفاق الذى بالخمسة يتقدم الاتفاق الذى بالأربعة .

ومثل قولنا نريد أن نقسم الاتفـاق الذى بالأربعة الى ثلاثة اتفاقات ، وهذا الاتفاق الذى بالأربع ينقسم الى طنينين » .

فالنتيجة أن البعد الذى بالأربعة عبارة عن طنينين وفضلة ، أى : لا ــ سى (طنينى) + سى ــ دو (فضلة) + دو ــ رى (طنينى)

والذى بالخمسة عبارة عن ثلاثة طنينــــات وفضلة ، أى رى ــ مى (طنينى) + مى – فا (فضلة) + فا – صول (طنينى) + صول ــ لا (طنينى) .

* * *

لن نخوض فى التعريفات والتقسيمات الى أبعد من ذلك ، وسنقتضب القول على أمثلة فى التحليل والتركيب فى القسم العلمى من المسائل الهندسية ، وسنختار مثالا واحدا يذكره ابن الهيثم ، فيقول :

« كل ضلعين من مثلث فهما أعظم من الضلع الباقى » .

هذا المثال من النوع الذى يدرسه طلبتنا بالمدارس الثانوية باعتباره نظرية هندسية ، وتطبيق ابن الهيثم فكرتى التحليل والتركيب عليه ، فيه أبعاد تستوعب العمق فى المنحى الفكرى ، بل تطبيقه فى قضايا اخرى فى الطبيعيات وفى علم الضوء قد أبرز نقاطا على جانب عظيم من الأهمية سنذكرها فى أبواب تالية .

يقول ابن الهيثم بلفظه :

« فتحليل هذا الشكل هو أن نفرض الدعوى على ما أوحى فيها ، فيكون ضلعا ا ب ، ا حـ مجموعين أعظم من ب حـ » .

لنقف هنــا قليلا ولننظر فى القــاعدة الثالثة التى يذكرها « ديكارت » فى المنهج حيث يوصى بأن « نفترض مؤقتا ، ترتيبا بين الأفكار التى لا يسبق بعضها بعضا بالطبع » وبأن « نقود أفكارنا بترتيب مبتدئين من أبسط المعطيات وأيسرها معرفة » .

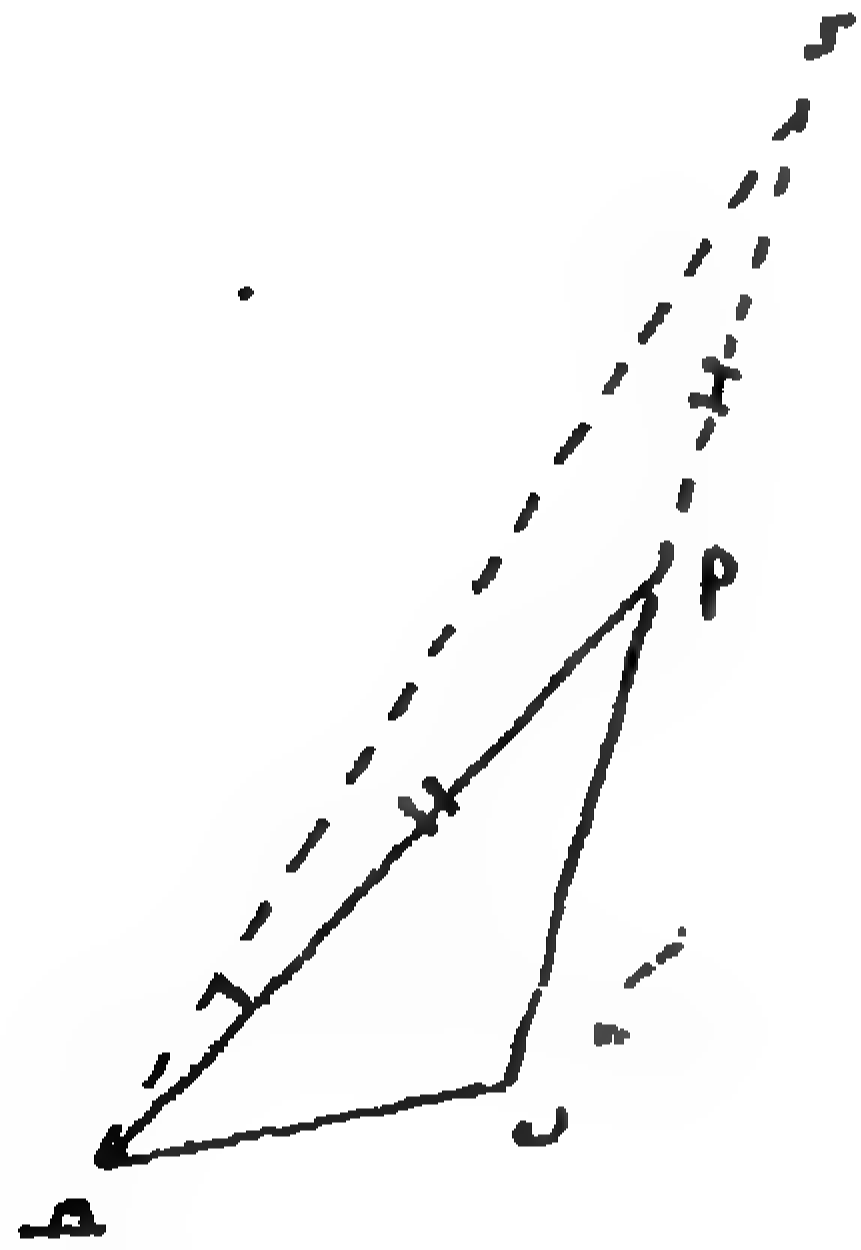
هذا المنهج هو نفس منهج ابن الهيثم ولكن بتخريج آخر ، مثل التخريج الذى يراه الفيلسوف المعــاصر « برتراند رسل » فى

منهجه الرياضي حين يعرف المادة فيقول عنها بأنها علة للمعطيات الحسية ، وبأنها موضوع فيزيقى لابد من افتراض وجوده لنفسر به تلك الثغرات التى لا تستطيع تجربتنا الحسية أن تقدم عنها جوابا » .

فابن الهيثم يفترض وجود المثلث حسب الشكل التالى وذلك فى مثاله الهندسى الذى يخضعه للتحليل والتركيب ، وبرتراند رسل يفترض وجود المادة كموضوع فيزيقى لكى يخضعه للتحليل والتركيب فى كتابه « مشكلات الفلسفة » : موضوعان مختلفان ، ولكن النبع الفكرى واحد فى الحالتين .

وابن الهيثم فى الضوء يفترض أن له وجودا فى ذاته لكى يخضعه للتحليل والتركيب فى اعتباراته التى سوف نوضحها فى أبواب تالية :

ولنرجع ثانية الى مخطوط ابن الهيثم فى «التحليل والتركيب» حيث يقول بلفظه :



« فتحليل هذا الشكل هو أن نفرض الدعوى على ما أوحى فيها فيكون ضلعا ا ب ، ا حـ مجموعين أعظم من ب حـ .

فننظر فى خواص المثلث ليظهر فيها خاصة تؤدى الى ذلك ، واذا نظر فى خواص المثلث وهو على ما هو عليه لم يوجد فيه خاصة تؤدى الى صحة هذه الدعوى ، فينبغى أن يحدس المحلل على زيادة يزيدها فى هذا الشكل ، ليحدث بها خاصة أو خواص ليست موجودة فى هذا المثلث ، وهو على ما هو عليه واجد الزيادات التى تحتمل أن تزاد لتحدث خاصة زايدة .

هو أن نجعل الضلعين خطا واحدا فنخرج ب ا على استقامته ، ونفصل منه مثل ا حـ وليكن ا ء فيكون ب ء أعظم من ب حـ .

نصل حـ ء فيصير ب ء حـ مثلثا ، ويكون ضلع ء ب منه أعظم من ضلع ب حـ فقد تبين فى الشكل الثامن عشر من المقالة الأولى من كتاب أوقليدس أن الضلع الأعظم من كل مثلث يوتر الزاوية العظمى ، فتكون زاوية ب حـ ء أعظم من زاوية ب ء حـ .

ولكن زاوية ب ء حـ هى مثل زاوية ا حـ ء لأن ا ء = ا حـ .

فتكون زاوية ب حـ ء أعظم من زاوية ا حـ ء .

ولكن الأمر كذلك ، فقد انتهى التحليل الى معنى هو معطى لا شك فيه ، وهو أن زاوية ب حـ ء أعظم من زاوية ا حـ ء .

وتركيب هذه المسألة يكون كما نصف .

نخرج ب ا على استقامته كما فعل فى التحليل ، ونفصل ا ء مثل ا حـ .

ونصل ء حـ فيكون زاوية ب حـ ء أعظم من زاوية ا حـ ء .

وهذه المقدمة هى التى وصل اليها التحليل ، وهى التى تجعل ا ء أوله فى البرهان ، وزاوية ا حـ ء مساوية لزاوية ا ء حـ .

لأن ا حـ مثل ا ء .

وبهذه المقدمة هى التى تبينت قبل المقدمة الأخيرة .

فتكون زاوية ب حـ ء أعظم من زاوية ب ء حـ .

فيكون ضلع ب ء أعظم من ضلع ب حـ .

كما تبين فى الشكل التاسع عشر من المقالة الأولى من كتاب أوقليدس .

وضلع ب ء هو مثل ضلعى اب + ا حـ .

وعليه فضلعا ب ا + ا حـ أعظم من ضلع ب حـ ، وذلك ما أردنا أن نبين » .

* * *

يتناول ابن الهيثم فى مخطوطه جميع المعلومات المتوارثة فى علم الهندسة ، والعدد والهيئة والموسيقى من معان جزئية علمية وعملية ، وتقسيم المعانى العلمية الى محدود وغير محدود ، ثم تقسيم الأخير الى قسمين سيال وغير سيال .. الخ .

والشىء الجديد الذى أضافه هو الأشياء المعلومة الوضع ذات الحركة ، وعنصر الحركة مفهوم جديد فى الفكر الاسلامى كان يفتقر اليه الفكر اليونانى الذى يمتاز بالسكونات ، فهندسة اوقليدس ساكنة ، وعلم المناظر عند اوقليدس ساكن يعبر عن الضوء تعبيرا تجريديا بخطوط مستقيمة .

وقبلَ ابن الهيثم ظهرت بادرة الحركة فى الهندسيات عند « ويجن رستم القوهى » عند برهانه على حجم المجسم المكافىء ، بادرة ظهرت فى الحجوم والمساحات وفى مراكز الاثقال ، تعتبر ارهاصا لعلم التفاضل والتكامل فى النهايات .

يقولَ ابن الهيثم فى مخطوطه « التحليل والتركيب » وهو صادق أمين فيما يقول :

« فهذا الذى ذكرناه هو جميع أقسام المعلومات ، وجميعها يستعمل فى صناعة التحليل ، وجميع المعلومات الذى ذكرها اوقليدس فى كتابه المسمى المعلومات هى داخلة فى جملة هذه الأقسام التى ذكرناها ، وفيما ذكره شىء لم يذكره اوقليدس ، وهى الأشياء المعلومة الوضع المتحركة » .

ثم يستطرد :

« فأما المعلوم الوضع فهو الذى لا يتغير وضعه ، فأما ما هو الوضع فهو الصفة تتقوم بالقياس الى شيء معلوم ، والوضع يكون فى الجسم ، ويكون فى السطح ، ويكون فى الخط ويكون فى النقطة ، فالوضع فى الجسم منقسم الى قسمين :

اما أن يكون مضافا الى شيء ثابت ، وأما أن يكون مضافا الى شيء متحرك .

فالمضاف الى شيء ثابت هو الذى ينتقل ولا يتحرك لضرب من ضروب الحركات ، فالجسم المعلوم الوضع المضاف الى شيء ثابت هو الذى يكون بعد كل نقطة منه من النقط الثابتة الموجودة فى الشيء الثابت بعدا واحدا لا يتغير .

وهذا القسم هو الذى يسمى معلوم الوضع على الاطلاق .

فأما الجسم المعلوم الوضع المضاف الى شيء متحرك فهو الذى يكون بعد كل نقطة منه من كل نقطة من ذلك الشيء المتحرك بعدا واحدا لا يتغير ، فيلزم من ذلك أن يكون المعلوم الوضع الذى بهذه الصفة متى تحرك الشيء الذى هو مضاف اليه بحركة ذلك الجسم المعلوم الوضع حركة مساوية لحركته ، ويكون أبعادها بين كل نقطة منه من كل نقطة من الشيء الذى مضاف اليه هى الأبعاد بعينها التى كانت بينها كالجزء المعين من أجزاء الجسم المحرك ، وكالعضو المعين من أعضاء الانسان ، فان أبعاد الجزء من الجسم ليس يتغير لأبعاد كل نقطة منه من كل نقطة من بقية أجزاء ذلك الجسم ، ومع ذلك فان ذلك الجسم اذا تحرك بحركة ذلك الجزء بحركته ، وأبعاد كل نقطة من ذلك الجزء من كل نقطة من بقية ذلك الجسم أبعاد واحدة باعتبار لا يتغير .

وهذا القسم يقال له المعلوم الوضع بالقياس الى كل أو كذا ، ولا يمكن أن يشار اليه الا ويشار الى الشيء الآخر الذى هو معلوم الوضع عنده مع الاشارة اليه » .

ثم ينتقل ابن الهيثم بعد ذلك الى الأوضـــاع الحركيــة في السطوح فيقول بلفظه : وكذلك السطوح المعلومة الوضع تنقسم أيضا قسمين :

وحالها في أوضاعها كحال الأجسام لا فرق بينها اذا أمكن أن يكون وضعها مضافا الى سطوح أو خطوط أو نقطة ثابتة ، واما أن يكون وضعها مضافا الى سطوح أو خطوط أو نقطة متحركة ، فتكون هذه السطوح متحركة بحركة الأشياء التى الوضع مضاف اليها .

وكذلك الخطوط ينقسم وضعها الى قسمين على مثل قسمة السطوح ، وكذلك النقطة اذا قيل أن النقطة معلومة الوضع على الاطلاق فهى التى وضعها مضاف الى نقطة ثابتة وهى التى لا تنتقل ولا تتحرك .

واذا قيل ان النقطة معلومة الوضع بالقياس الى شيء متحرك فهى التى يكون بعدها من كل نقطة من ذلك الشيء المتحرك بعدا واحدا لا يتغير ، واذا تحرك ذلك الشيء تحركت النقطة بحركته ، كمركز الدائرة فان بعده من كل نقطة من محيط الدائرة بعد واحد لا يتغير ، ومع ذلك فان الدائرة اذا تحركت تحرك مركزها معها .

واذا عبرنا عن هذا الكلام الوصفى بالرموز الرياضية لن نجد خيرا من الرياضـــة الكارتيزية الذى ابتدعهـــا « ديكارت » كما يقولون ، ثم تشعبت الرياضة الكارتيزية الى علم جديد هو علم الكينماتيكا فى القرن الثامن عشر .

مبادىء عامة وصفها ابن الهيثم فيها الشمول ، تشـــكلت بمفاهيم عصر النهضة فكانت علوما جديدة .

ويستمر ابن الهيثم قائلا :

« وقد بقى من بعد هذه الأقسام معنى الحركة لم يذكره أحــد من المتقدمين ولا وجدناه فى شيء من الكتب ، وهو من المعانى التى

تحتاج اليها فى صناعة التحليل ، ويعظم الانتفاع بها فى استخراج المسائل ، ونحن نذكر فى هذا الموضوع بعض أقسامه لنستعمله فى أمثلة التحليل » .

مثل من أمثلة الحركة عند ابن الهيثم ما يلى :

« اذا كانت دائرة معلومة القدر والوضع ، حـ نقطة معلومة الوضع ، وخرج من النقطة خطا الى محيط الدائرة ، وأنفد على استقامته حتى صارت نسبة الخط الأول الى الخط الثانى كنسبة معلومة ، فان النقطة التى صارت وهى نهاية الخط الثانى هى على محيط دائرة معلومة الوضع » .

مثال ذلك دائرة ا ب معلومة القدر والوضع .

نقطة حـ معلومة .

خرج من نقطة حـ خط حـ ا ، ونفذ على استقامته الى ء .

وكانت نسبة حـ ا الى ا ء معلومة .

فأقول أن نقطة ء على محيط دائرة معلومة الوضع .

ومن هـذا المثال يتضح أن نقطة ء متحركة بالنسـبة الى النقطة حـ .

برهان ابن الهيثم :

انا نجد مركز الدائرة وليكن هـ ونصل حـ هـ ونخرجه على استقامته فى جهة هـ .

ونصل حـ أ ونتوهم د ر موازيا لخط أ هـ .

فيكون نسبة ر د الى هـ أ كنسبة د حـ الى حـ أ وكنسبة $\frac{رحـ}{حـ هـ}$:

ونسبة د حـ الى حـ أ معلومة لأن نسبة د أ الى أ حـ معلومة .

كما تبين فى الشكل السادس من المعطيات فنسبة د ر الى هـ أ معلومة .

ونسبة ر حـ الى حـ هـ معلومة ، هـ أ معلوم القدر ، د حـ معلوم القدر .

فخط ر ء معلوم القدر .

وخط ر حـ معلوم القدر كما تبين فى الشكل الثانى من المعطيات .

ولأن نقطتى حـ ، هـ معلومتى الوضع ، يكون خط حـ هـ معلوم الوضع كما تبين فى الشكل الخامس والعشرين من المعطيات .

فخط حـ ر معلوم القدر والوضع ، ونقطة حـ منه معلومة ، ونقطة ر منه معلومة كما تبين فى الشكل السادس والعشرين من المعطيات .

ونجعل نقطة د مركزا وندير ر د المعلوم القدر بدائرة ، ولتكن دائرة د حـ ط وهى دائرة معلومة القدر والوضع لأن مركزها معلوم الوضع ونصف قطرها معلوم القدر ونقطة د هى على محيط هذه الدائرة .

فنقطة د على محيط دائرة معلومة القدر والوضع .

وذلك ما أردنا أن نبين .

* * *

ان طريقة التحليل والتركيب فى القضايا الهندسية ، كان لها انصار كثيرون فى عصر ابن الهيثم ، منهم أبو الريحان البيرونى ، وأبو العلاء بن أبى الحسن ، وأبو الحسن اسحاق بن ابراهيم ابن يزيد الكاتب وغيرهم ، وقد ذكرهم البيرونى فى مخطوطه « استخراج الأوتار فى الدائرة »(١) وفيه يقول :

« تركت المتعلم الذى قد قرأ كتابى فى التحليل والتركيب ، وسائر الأعمال الهندسية ، وكتابى الذى فى الدوائر المحاسبة ، ينظر فى واحدة منها ، اذا فهم طريق تحليلها ليقيسها ويحلل قسما قسما منها ، وينظر هل يطابقه هذا التحليل الذى نقله أم لا ؛ ثم ينظر فيما يستحيل ويجوز ، والسيال وغير السيال ، والمحدود وغير المحدود ، ويركب هو وينظر فى عدد المرات التى لا يمكن أن نقطع زيادة عليها ، ويبين أن تلك المرات كذلك ، وهذه الأمور كلها من المنافع التى لنا نحن اليها النظر فى هذا الكتاب .

ومنها أن فيه مسائل مستعصية حسية ، لا يستغنى ذوو الفهم بالهندسة عن استعمالها فيما يستخرجونه ، ويعملونه فى الأعمال الهندسية » .

ثم يتبع ذلك بمسائل على جانب كبير من الصعوبة ، يقوم عليها بالطريقة المشار اليها .

* * *

بقيت ملاحظة أخيرة ، قد لا تكون متعلقة بهذا الباب ، ولكننا نسوقها ردا على الذين يكررون القول بأن ديكارت هو أول من

---

(١) تحقيق وشرح احمد سعيد الدمرداش .

طبق الجبر فى الهندسة ، وبذلك نشأت فكرة الهندسة الكارتيزية أو الهندسة التحليلية .

فهذا القول غير حقيقى ، ودليلنا ما أثبته عالمان روسيان هما يوسكيفيتش وروزنفيلد وهما من أعضاء أكاديمية العلوم بلينيجراد ، وما توصلا اليه ما يأتى :

« هذا ولقد أوجد العالم المصرى ابن الهيثم مجموع مسلسلتى الأس الثالث والرابع للأعداد الطبيعية عندما كان يقوم بحساب حجم الجسم الدورانى الناتج عن دوران قطعة قائمة من قطع مكافىء حول محور عمودى على محور تماثلها .

على غرار ما يلى بالرموز الجبرية الحديثة :

$$١^{٣} + ٢^{٣} + ٣^{٣} + \dots \dots + ن^{٣} = \frac{ن^{٢}\,(ن - ١)^{٢}}{٤}$$

$$١^{٤} + ٢^{٤} + ٣^{٤} + \dots ن^{٤} = ن.\left[\left(\frac{ن \times (ن+١)}{٢} - ١\right)^{١} + \frac{ن\,(ن+١)}{٢}\right]$$

$$+ \left[ن\,\frac{(ن+١)\,(٢ن+١)}{٦}\right]$$

وهذا المجموع هو حل تقريبى للتكامل $\int_{صفر}^{١} س^{٤}\, ء\, س$

ومن ناحية أخرى نجد البيرونى المعاصر لابن الهيثم يمزج الجبر مع الهندسة فى مخطوطه استخراج الأوتار فى الدائرة لمعرفة وتر العشر فى الدائرة وقد وصلته هذه الطريقة الى ايجاد جيوب الزوايا ، ففى حالة وتر العشر الذى يقابل زاوية قدرها ٣٦° أى $\frac{٣٦٠}{١٠}$ فانه توصل الى ايجاد جيب زاوية ١٨° من المعادلة الجبرية التالية :

س٢ + نق س − نق٢ = صفر

وباعتبار نق نصف قطر الدائرة افترض له واحد صحيح

ومنه ينتج أن وتر العشر

$$= \sqrt{\text{ں}^{٢} + \frac{١}{٤}\,\text{ں}^{٢}} - \frac{\text{ق}}{٤}$$

وبهذه الطريقة توصل الى ايجاد جداول الجيوب .

وليس المجال هنا مناسبا للخوض فى الكثير من الحقائق التى تكذب من يدعون بأن ديكارت هو أساس كذا من العلوم ، وهم فى الواقع يرددون أقوال مؤرخى العـلوم من الأجانب المتعصـبين لقومياتهم ، وعلينا واجب تصحيح التاريخ من هذه الناحية .

فكرة النظام عند ابن الهيثم

ان الاحاطة بتاريخ علم الضوء قد لا تخدم هذا العلم في ذاته ، بيد أنها تقدم لنا الأساس الذى نما عليه هذا العلم ، ومعنى هذا اقتناع يقينى بأن عناوين الصحف قد أصبحت ولهـا مكان فى التطور الذى يسود عالمنا ، ومهما يكن من شيء فمعرفة تاريخ هذا العلم تصل ما بينه ، وما نعنى به من قيم انسانية ، ذلك لأنها تؤكد، لا وحدة التاريخ فحسب ، بل تحقق أيضا وحدة المعرفة .

ثلاثة عوامل خلاقة كانت هى اللبنات التى بنى من مادتها علم الضوء ، وهى : عامل النظام ، وعامل السببية ، وعامل المصادفة ، وما من عامل منها اختص بالعلم وحده ، بيد أنها جميعا لها تطبيقات فى العلم تولدت عن مدركات عامة ، رآها العلماء والحكماء فى كل عصر من العصور التى سبقت عصر ابن الهيثم ، فابتدعوا نظما مختلفة لتفسير هذه المدركات ، مرتبطة بمفاهيم وما صدقات كل عصر ، نظما هى من صنع العقل البشرى لا تمثـل فى واقعها الا ايقاعا متسقا فى ملحمة موسيقية تقرع ، تلك الملحمة هى ملحمة تاريخ الانسانية جمعاء .

يسجل لنا علم الضوء هذه المدركات العامة بطريقة سلسة ، فله تاريخ يمكن أن نتلمس فيه بسهولة ويسر مراحل نمو هـذه المدركات وتطورها ، وفضلا عن ذلك يمكننا بدراسة هذا التاريخ أن نعرف اللحظات الحاسمة ذات الأهمية العظمى ، تلك اللحظات التى تعاد فيها صياغات هذه المدركات من جديد ، واحدى هذه

اللحظات هى واحدة من ومضات ابن الهيثم فى تفسير وصياغة قوانين الانعكاس والانعطاف للضوء ، بل وتفسير ماهية الضوء نفســـه .

تناول ابن الهيثم رؤوس موضوعات كثيرة فى علم الضوء سجلها فى كتابه المناظر ، وقام بدراستها دراسات مستفيضة ظلت هى المرجع الأساسى لهذا العلم حتى القرن الثامن عشر الميــلادى ، ووضع نظاما لكل موضوع لحمته أحكاما شاملة بناها على أساس من التجربة والمشاهدة والاستقراء ، كان موقفه موقف من يتساءل :

هل الأضواء جميعا سواء منها المشرق من الأجسام المضيئة بذاتها أو المشرق من الأجسام المستضيئة بغيرها تمتد فى الجسم المشف الواحد على السموت المستقيمة ؟ وان كان الأمر كذلك ، هل من سبيل الى القول بأن الابصار يكون بورود الضوء المشرق من المبصر الى البصر ؟ وان قيل هذا ، فان الضوء الوارد من المبصر الى البصر يرد من كل نقطة من المبصر الى جميع سطح البصر أى الى جليدية العين .

فكيف يتسنى للبصر أن يدرك المبصر بأجزائه المختلفة وألوانه ونقوشه وتخطيطاته ، كما هو عليه فى الواقع المحسوس دون أن يختلط كل ذلك بعضه ببعض ؟ وكيف يتسنى ادراك المبصرات المختلفة معا دون أن تختلط صورها أو تشتبه ؟

واذا كان الاحساس يحدث فى داخل البصر بورود الضوء من المبصر ، فكيف يدرك البصر المبصر فى مكانه خارج البصر ؟ بل كيف يتسنى أن يدرك بعده ، وعظمه ، وشكله ، وتجسمه وما الى ذلك ؟ وكيف يعرض ما يعرض أحيانا من الغلط فى ادراك هــذه الأمور ؟ وكيف يتسنى أن يدل المبصر واحدا بالنظر اليه بالعينين الاثنتين ؟ .

وأيضا هل الأضواء جميعا تنعكس على صفة واحدة ؟ وان كان الأمر كذلك فما هى الصفة العامة التى تنعكس عليها الأضواء جميعا ؟ وبعد هل من سبيل الى القول بأن ادراك المبصر بالانعكاس هو بورود الضوء المشرق منه الى العين بعد انعكاسه ؟ .

وان كان الأمر كذلك ، فأين يكون موضع الخيال الذى يرى ، وما هى صفاته ؟

وأيضا هل الأضواء جميعا تنعطف على صفة واحدة وما هى هذه الصفة ؟ وبعد هل من سبيل الى القول بأن ادراك المبصر بالانعطاف هو بورود الضوء المشرق منه الى العين بعد انعطافه ؟

وان كان الأمر كذلك فأين يكون موضع الخيال ، وما هى صفاته ؟

رسم ابن الهيثم خطة للبحث فى هذه القضايا وفى هذه المدركات قائلا فى كتابه المناظر :

« نبتدىء فى البحث باستقراء الموجودات ، وتصفح أحوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر فى حال الابصار ، وما هو مطرد لا يتغير ، وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس ، ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدريج والترتيب ، مع انتقاد المقدمات ، والتحفظ من الغلط فى النتائج ، ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى فى سائر ما نميزه ونتنقده طلب الحق لا الميل مع الآراء » .

فى هذا القول الموجز وضع ابن الهيثم الشرط الأساسى الذى يجب أن يتوافر فى البحث العلمى ، « استعمال العدل لا اتباع الهوى وطلب الحق لا الميل مع الآراء » .

هذا المنهج الرياضى قريب الشبه بمنهج « برتراند رسل »

الفيلسوف المعاصر وهو المنهج التحليلى الذى يقوم على الشعار الانجليزى التقليدى « فرق تسد » بمعنى .

« قسم الشيء الى أجزاء تصل الى معرفة أوضح عنه » .

وابن الهيثم يتصفح أحـــوال المبصرات ، ثم يميز خواص الجزئيات التى عن طريقها ينتقل من المجهول الى المعلوم ، أى الى المعلوم الذى سيصل اليه عن طريق المعرفة باللقاء ، أو كما يقول:

« فرأيت اننى لا أصل الى الحق الا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية ، وصورتها الأمور العقلية » وابن الهيثم يتشكك فى المعرفة المتواترة ، ويشك فى مقوماتها شكا قريبا من شـــك ديكارت ، وان كان لا يمت اليه فى روحه العامة من حيث أن الباعث على هذا الشك الأخير لم يكن الا رغبة ديكارت فى أن يقيم اليقين الذى اقامه بعد الشك على أسس ميتافيزيقية ، بينما ابن الهيثم يقصد الوصول الى نوع من « الغربلة » الهدف من ورائها الوصول الى أحكام قاطعة لكل زمان ومكان ، ويقول :

« ولعلنا ننتهى بهذا الطريق الى الحق » .

وأى حق هو ؟

« الذى به يثلج الصدر » .

* * *

لقد ورث الفكر الاسلامى تركة مثقلة بالمتناقضـــات فى كيفية الابصار ، ورث فكرة الفيثاغوريين وهم شيعة فيثاغورس التى تنادى بخروج ذرات أو بالأحرى دقائق تنبعث من المبصر ، اذا وردت الى البصر يحدث عن وقوعها علة الابصار ، فكرة قريبة الشبه من نظرية الجسيمات التى قال بها « نيوتن » والتى يعد بحسبها الضوء كأنه دقائق تنبعث من الجسم المضيء .

وورث أيضا فكرة « أمبذوقليس » الفيلسوف اليونانى المتوفى عام ٤٣٥ ق.م ، فالموجودات فى نظره تتكون من « عناصر » أو أجرام

غير متجزئة ، ويسود عالم الوجود فى نظره قوتان أو محركان ، أحدهما المحبة أو الألفة والثانى العداوة أو الغلبة أو البغضة ؛ فبعامل المحبة تتجاذب وتتصل تلك العناصر كل مثيل الى مثيله ؛ وكل نوع الى نوعه ، وبعامل الغلبة تتنافر الأنواع عن غيرها ، والأشياء عن أضدادها .

والادراك بوجه عام هو فى نظره من اتصال العناصر فى الموجودات الخارجية بأنواعها فى الانسان ، والأبصار بوجه خاص هو بخروج عناصر من البصر واتصالها بعناصر من نوعها تخرج من المبصر ، وبوقوع الاتصال بين هذه وتلك يحدث الابصار .

وكذلك ورث مذهب أفلاطون « ٤٢٨ — ٣٤٧ ق.م » فى الابصار ، ويتلخص مذهبه فى زعمه أن البصر لا يدرك المبصر الا على النمط التالى :

فمن البصر ينبعث ما عبر عنه الأفلاطونيون « بالنار الالهية » أو « بالقوة النورية » وهو ما شاع تسميته عند الاسلاميين بالروح الباصر ، فاذا خرجت النار الالهية من البصر فى ضوء النهار ، اتصلت بذلك النور الذى من نوعها ، واذا ما اتصل المثل بالمثل على هذه الكيفية اندمجا واتحدا وتكون منهما الشعاع الذى به يدرك البصر المبصر .

وورث أيضا مذهب أرسطو الذى عارض فيه مذهب أفلاطون؛ فهو يرى أن الضوء صفة ، أو كيفية عارضة تعرض على الوسط أو الجسم المشف الذى يتوسط بين المبصر والبصر ، وأنكر أن للضوء وجودا فى ذاته ، فالضياء ليس بجسم نير ، فالجسم اذا تحرك فانما تكون حركته فى زمان والضياء لا يتحرك فى زمان ؛ كما أنكر أن الضوء يقبل الحركة أو أن يكون شيئا يرد من البصر ، والا فكيف يتفق أنه يوجد شيئان فى مكان واحد ؟

فهو صفة عارضة تعرض على المشف اذا ما زالت عنه كانت

الظلمة ، والظلمة ليست جسما فيجب أن يكون الضوء ليس هو جسما ، وذلك أن قوة المتضادين واحدة ، فان كان أحدهما عرضا كان الآخر عرضا كالسواد والبياض .

فالابصار فى زعمه هو انطباع يحدث فى البصر لا من جراء شىء يرد من المبصر الى البصر ، وانما بفعل المشف المتوسط عن قبوله تلك الصفة العارضة عليه .

ولم يدم رأى أرسطو ، فلم يقبله « ابيقور » (٣٤١ — ٢٧٠ ق . م) لأنه نحا فى فلسفته المنحى الحسى البحت ، وأبطل فيها وجود اللامادى غير المحسوس ، لذلك لم يقبل القول بأن المبصر يؤثر فى البصر عن بعد ، دون أن يرد منه الى البصر شىء ، فقرر فكرة « الورود » فالمبصرات فى زعمه « أشباح » أو « صور » هى أخيلة رقيقة على مثال الأجسام المبصرة نفسها تنخلع عنها ، وتنبعث منها باتصال واستمرار ، والابصار هو بورود هذه الأشباح الى العين .

وقد ظل مذهب أرسطو المنطوى على عدم ورود شىء من المبصر الى البصر ، ومذهب ابيقور المنطوى على ورود شبح من المبصر الى البصر يتنازعان آراء الفلاسفة الطبيعيين زمنا طويلا ، والغريب أنه على الرغم من تناقضهما فقد اندمجا معا ، وتكون منهما مذهب كان هو مذهب ابن سينا فى الابصار .

فابن سينا قد جمع بين النقيضين ورأى أن الابصار هو « بانتشاح شبح المبصر » فى البصر بمجرد المحاذاة ، دون أن يكون ذلك بورود شىء منه الى البصر .

أما فلسفة الرواقيين (٣٣٦ — ٢٦٤) ، وهى التى سادتها المادية ، فكل ما هو موجود مادى محسوس فى زعمهم ، وفعل الجسم فى الجسم أو تأثيره فيه لا يكون الا بالاتصال المادى بين الجسمين أو بتماسهما ، وكذا الادراك بتوسط الحواس .

فالابصار فى زعمهم لا يكون الا بالاتصال الفعلى أو المادى بين العضو الحاس وهو العين وبين المبصر ، وكيفية ذلك أن

يخرج من العين « شعاع » على شكل مخروط رأسه عند العين وقاعدته عند سطح المبصر ، فاذا ما خرج هذا الشعاع من فالعين ووقع على المبصر فلمسه حدث الابصار ، فكأن العين وهى العضو الحاس تمتد حتى تلمس المبصر ، وكأن الشعاع بمثابة ما يسميه علماء الحشرات قرون الاستشعار (١) ، والقول بالشعاع الخارج من العين هو المذهب الرياضي في العصر الاسكندراني ، وأطلق عليهم ابن الهيثم أصحاب الشعاع .

* * *

جاء ابن الهيثم فأحدث ثورة علمية فى علم الضوء ، أحدث تحولا فى النظر الى الأشياء من فكرة ترى العالم وكأن أجزاءه تنتظم حسب طبيعتها المثلى الى فكرة ترى العالم تجرى الأحداث فيه حسب نظام ثابت .

كانت الفكرة القديمة المتوارثة من الأغارقة تتمثل فى أن للموجودات طبائع هى فى أساسها من طبيعة الانسان ، كانوا يؤمنون بوجود نوع من الارادة الموجهة عند هذه الموجودات : قد تكون ارادة غير واعية ، ولكنها على أية حال ارادة حيوانية عنيدة فالنار تصاعد الى أعلا ، والموجودات الثقيلة تساقط الى أسفل ، والهواء مقدر له أن يتصاعد الى طبقات الجو ، كل يتحرك بدافع من نفسه ، ليجد مستقرا له فى تلك الأماكن ؛ وضوء الشمس ينير العالم دفعة واحدة فلا يصل الى الأرض فى زمان ، والابصار يكون عن طريق خروج شعاع من العين حين يقع على المبصر يسبب الاحساس بالابصار ، شعاع له ارادة موجهة عنيدة تريد مستقرا .

جاء ابن الهيثم وأثبت أن الضوء هو مجموعة من أحداث ، وأن له وجودا فى ذاته ، وأنه ينتقل طبقا لنظام ثابت ذى نموذج آلى مسبق فى كل زمان وفى كل مكان ، والأضواء كلها من جنس

---

(١) مصطفى نظيف .

واحد ، سواء كانت أضـــواء ذاتية من الشمس أو الكواكب أو أضواء عرضية ، أو أضواء صادرة من فتيلة مشتعلة ، كلها تخضع لنظام واحد تمتد من المبصر الى البصر على ســـموت خطوط مستقيمة ، ويقول بلفظه :

« ان امتداد الضوء على سموت خطوط مستقيمة يظهر ظهورا بينا من الأضواء التى تدخـــل من الثقوب الى البيوت المظلمة ، فان ضوء الشمس وضوء القمر وضوء النار اذا دخل فى ثقب الى بيت مظلم ، وكان فى البيت غبارا ، أو أثير فان الضوء الداخل من الثقب يظهر فى الغبار الممازج للهواء ظهورا بينا ، ويظهر على وجه الأرض أو حائط البيت المقابل للثقب .

ويوجد الضوء ممتدا من الثقب الى الأرض أو الى الحائط المقابل للتقب على سموت خطوط مستقيمة ، وان اعتبر هـــذا الضوء الظاهر بعود مستقيم وجد الضوء ممتدا على استقامة العمود ، وان لم يكن فى الأرض غبار وظهر الضوء على الأرض وعلى الحائط المقابل للثقب ، ثم جعل بين الضوء الظاهر وبين الثقب عود مستقيم ، أو مد بينهما خيط مدا شديدا ، ثم جعل فيما بين الضوء والثقب جسم كثيف ظهر الضوء على ذلك الجسم الكثيف ، وبطل من الموضع الذى كان يظهر فيه .

ثم ان حرك الجسم الكثيف فى المسافة الممتدة على استقامة العود وجد الضـــوء أبدا يظهر على الجسم الكثيف ، فيتبين من ذلك :

أن الضوء يمتد من الثقب الى الموضع الذى يظهر فيه الضوء على سموت خطوط مستقيمة » .

ان الملكة العلمية الطبيعية فى هذا العقل العبقرى ، هى التفسير على سموت خطوط مستقيمة ان الملكة العلمية الطبيعية فى هذا العقل العبقرى ، هى التفسير الذى لا غنى عنه لجميع أعماله واعتباراته ، ويتضح ذلك من جمع الحوادث المتفرقة فى ظاهرة

واحدة ، لأنها بنية حية وليست أشتاتا من الحوادث يمسكها السمط ، ولكنها فى نظر ابن الهيثم تؤخذ جانبا جانبا كما تؤخذ الصور من جوانبها المتعددة ، وحين تتحرك هذه الصور الساكنة يتولد عنها « فيلم » سينمائى فيه حياة وفيه موضوع ، هذا هو النظام الذى ارتآه ابن الهيثم للأضواء الذاتية والأضواء العرضية والأضواء الصادرة عن وهج الشموع ، نظام يجمع هذا الهرج والمرج فى التفسيرات السابقة لهذه الأضواء على الرغم من اختلافها الظاهر ، ورغم هذا الاختلاط بينها ، فانه قد تمكن بعد دراستها أن يستدل على رابطة تنشأت عليها .

* * *

ان البحوث العملية لابن الهيثم التى استقراها واستنبطها عن خواص الأضواء الذاتية وخواص الأضواء العرضية ؛ قد أثبتت أن الخواص واحدة فى الحالتين ، مما يقوم دليلا على أن ماهية الأضواء الذاتية ، وماهية الأضواء العرضية واحدة ، فبذلك يصبح مذهب ابن الهيثم فى التوحيد بينهما لا يعوزه برهان، وتصير نظريته فى أن للضوء وجودا ذاتيا ، وان الأبصار انما هو بفعل هذا الضوء الذى يشرق من المبصر ، وينفذ فى المشف الى البصر ، تصير هذه النظرية وطيدة البنيان ، رغم انكار الكثير من الفلاسفة لها ، أما أصحاب التعاليم فانهم لم يسموا اليها .

وها هو أثير الدين مفضل بن عمرو الأبهرى العالم الايرانى الفيلسوف الذى توفى عام ١٢٦٣ م لا يذكر نظرية ابن الهيثم فى الابصار رغم مضى أكثر من مائة عام عليها . ففى مخطوطه « هداية الحكمة » الموجود بدار الكتب (١) يقول ان مذاهب الابصار ثلاثة :

---

(١) ٣٤ فلسفة .

١ ـ **مذهب الرياضيين** : وهو أن الابصار بخروج شعاع من العينين على هيئة مخروط رأسه عند مركز البصر ، وقاعدته عند سطح المبصر ، ثم انهم اختلفوا فيما بينهم ، فذهب جماعة الى أن ذلك المخروط مصمت ، وذهب جماعة أخرى الى أنه مركب من خطوط شعاعية مستقيمة ، أطرافها التى تلى البصر مجتمعة عند مركزه ثم تمتد متفرقة الى المبصر .

فما ينطبق عليه من المبصر أطراف تلك الخطوط أدركه البصر ، وما وقع بين أطراف تلك الخطوط لم يدركه ، ولذلك يخفى على البصر المسافات التى فى غاية الدقة فى سطوح المبصرات ، وذهب جماعة ثالثة الى أن الخارج من العينين خط واحد مستقيم ، فاذا انتهى الى المبصر يتحرك على سطحه فى جهتى طوله وعرضه حركة فى غاية السرعة ، وتتخيل بحركته هيئة مخروطية .

٢ ـ **مذهب الطبيعيين** : وهو أن الابصار بالانطباع ، وهو المختار عند أرسطو وأتباعه كالشيخ الرئيس وغيره : قالوا ان مقابلة المبصر الباصرة توجب استعدادا تفيض به صورته على الجليدية ، ولا يكفى فى الابصار الانطباع فى الجليدية ، ولا يرى شىء واحد شيئين لانطباع صورته فى جليديتى العينين ، بل لابد من تأدى الصورة الى ملتقى العصبيتين المجوفتين ، ومنه الى الحس المشترك ، ولم يريدوا بتأدى الصورة من الجليدية ومنه الى الحس المشترك انتقال العرض الذى هو الصورة ، بل أرادوا ان انطباعها فى الجليدية معد بفيضان الصورة على الملتقى ، وفيضانها عليه معد لفيضانها على الحس المشترك .

٣ ـ **مذهب طائفة الحكماء** : وهو أن الابصار ليس بالانطباع ولا بخروج الشعاع الذى فى البصر ، بل ان الهواء المشف الذى بين الرائى والمرئى يتكيف بكيفية الشعاع الذى فى البصر ، ويصير بذلك آلة للابصار .

* * *

هذا المذهب الأخير يرفضه ابن الهيثم فيقول :

« وامتداد الضوء فى الأجسام الطبيعية هو خاصة طبيعية لجميع الأضواء ، ولا يصح أن يقال ان امتداد الضوء فى جميع الأجسام المشفة على سموت الخطوط المستقيمة هو خاصة تخص الأجسام المشفة .

لأن هذا القول الأخير يفسد عن السبر والاعتبار ، والقول الأول هو الصحيح ، وذلك انه لو كان امتداد الضوء فى الجسم المشف هو خاصة الجسم المشف ، لكان امتداد الضوء لا يكون الا على سموت مخصوصة ، وليس يوجد الأمر كذلك .

بل توجد الأضواء فى الأجسام المشفة على سموت متقاطعة ومتوازية ومتلاقية وغير متلاقية فى وقت واحد ، ومن ضوء جسم واحد .

وذلك أن كل نقطة من الجسم المضىء يمتد منها ضوء على كل خط مستقيم يصح أن يمتد من تلك النقطة ؛ فالأضواء التى تمتد من نقطتين مفترقتين من النقط التى فى الجسم المضىء تكون متقاطعة ، أعنى أنه يكون الخطوط الممتدة من احدى النقطتين فى جميع الجهات متقاطعة للخطوط الممتدة من النقطة الأخرى فى جميع الجهات .

واذا حضر فى الوقت الواحد عدة من الأجسام المضيئة امتدت الأضواء من كل واحد منها ، فتكون الخطوط التى يمتد عليها جميع تلك الأضواء مختلفة الوضع اختلافا متفاوتا ؛ ويعرض من ذلك أن يكون امتداد الأضواء فى جهات متضادة اذا كانت الأجسام المضيئة فى جهات متضادة بالقياس الى الجسم المشف .

فيبطل الاختصاص ، ولا يكون فى الجسم المشف سموت مخصوصة تؤدى الضوء ، ومع ذلك فان الحركات الطبيعية

لا تكون فى جهات متضادة ، فلو كانت الصورة المؤدية للضوء التى فى الجسم المشف تؤدى الضوء على سموت مستقيمة بخاصة تخصها لكانت لا تؤدى الضوء على سموت واحدة بأعيانها فى جهتين متضادتين .

واذا كانت الأضواء تمتد فى الجسم الواحد المشف على سموت واحدة بأعيانها فى جهتين متضادتين فليس امتداد الضوء فى الأجسام المشفة على سموت الخطوط المستقيمة بخاصة تخص الأجسام المشفة ، واذا كان الضوء لا يمتد الا فى الأجسام المشفة ولا يمتد فى الأجسام المشفة الا على سموت خطوط مستقيمة ، وكان الامتداد على الخطوط المستقيمة ليس هو بخاصة تخص الأجسام المشفة ، فليس امتداد الضوء على سموت الخطوط المستقيمة الا بخاصة تخص الضوء ، فخاصة الضوء أن يمتد على سموت خطوط مستقيمة ، وخاصة الشفيف أن لا يمنع نفوذ الأضواء فى الأجسام المشفة ، والضوء الممتد فى الأجسام المشفة على سموت الخطوط المستقيمة هو الذى يسمى شعاعا .

فالشعاع هو الضوء الممتد من الجسم المضىء فى الجسم المشف على سموت خطوط مستقيمة ، والخطوط المستقيمة التى يمتد عليها الضوء هى خطوط متوهمة لا محسوسة ، والخطوط المتوهمة مع الضوء الممتد عليها لمجموعها هو الذى يسمى الشعاع .

فالشعاع هو صورة جوهرية ممتدة على خطوط مستقيمة ، وانما يسمى أصحاب التعاليم شعاع البصر شعاعا لشبهها بشعاع الشمس وشعاع النهار » .

وهنا يقرر ابن الهيثم قرارا جازما بأن الضوء وامتداده ، ومن ثم الابصار ليس بخاصة تخص الأجسام المشفة ، ولا يتكيف الهواء وهو الشفيف بكيفية خاصة فتصيره آلة للابصار ، انما الضوء وله كيان بذاته يمتد فى الأجسام المشفة سواء كانت هواء أو ماء

أو زجاجا بصفة واحدة وكيفية واحدة على سموت الخطوط المستقيمة .

هذا نظام قد خططه ابن الهيثم واستقر رأيه عليه نهائيا ، نظام استقصى البحث فيه من الناحية العملية والتجريبية ؛ نظام يشترك فيه جميع الأضواء ذاتيها وعرضيها ، وأنه طبيعة ثابتة للضوء بما هو ضوء ، وليست صفة عارضة تعرض فى بعض الأحوال ، وتزول فى بعض الأحوال ، وأن امتداد الضوء على السموت المستقيمة ليس من لواحق الضوء نفسه ، وليس من لواحق الجسم المضيء الذى يشرق منه الضوء ، بل انه لازمة لا تنفك عن الضوء ، حتى اذا انعكس عن سطح الصقيل الى جهة خاصة أو انعطف فى مشف آخر أو خرج نافذا منه .

وتجاربه فى هذا الصدد من البساطة بمكان ، فهى لا تختلف كثيرا عما نجده فى كتب الدراسة الأولية فى الوقت الحاضر ، فضوء الشمس اذا دخل بيتا مظلما من ثقب ، وكان الهواء الذى فى البيت كدرا بغبار أو دخان ، فان الضوء يظهر ممتدا على استقامة من الثقب الذى يدخل منه الضوء الى الموضع الذى ينتهى اليه ذلك الضوء من أرض البيت أو جدرانه .

واذا كان الهواء صافيا نقيا ، ولم يظهر امتداد الضوء للحس ، وأخذ المعتبر جسما كثيفا وقطع به السمت المستقيم بين الثقب وموضع الضوء عند أية نقطة كانت ، وجد الضوء يظهر على ذلك الجسم الكثيف ، ويبطل من الموضع الذى كان يظهر فيه من أرض البيت أو جدرانه .

ويقول ابن الهيثم فى المقالة الأولى من المناظر :

« واذا اعتبر المعتبر أى مسافة شاء من المسافات المنعرجة والمنحنية والمقوسة التى بين الثقب وبين الوضع الذى يظهر فيه الضوء فقطعها بالجسم لم يظهر فيها شيء من ذلك الضوء » .

وهو يتخذ ظاهرة الاظلال دليلا على امتداد الأضـــواء على السموت المستقيمة ويقول بلفظه : « وقد يظهر هذا المعنى أيضا فى جميع الأضواء من الاظلال ، فان الأشخاص المنتصبة الكثيفة اذا أشرق عليها الضوء ، وظهرت اظلالها على الأرض وعلى ما يقابلها من الأجسام الكثيفة ، توجد الاظلال أبدا ممتدة على استقامة ، وتوجد المواضع التى استظلت هى المواضع التى قطعت الأشخاص المظلة المسافات المستقيمة التى بينها وبين الجرم المضىء الذى انقطع ضوؤه عن تلك المواضع » .

ومن خواص الضوء ما نعبر عنه فى الوقت الحاضر بالحزمة الضوئية التى تخرج من الجسم المضىء على هيئة مخروط ، فضوء الشمس اذا نفذ من ثقب ضيق يوجـــد أبدا منخرطا انخراطا محسـوسا ، بحيث اذا ما وقع على جسم يقابل الثقب وجدت المسافة المستضيئة به أوسع من الثقب أضعافا مضاعفة ، ويستدل من هذه المشاهدة على أن ضوء الشمس حتما يشرق من جميع أجزائها الى الثقب الضيق على سموت خطوط مستقيمة ، يلتئم منها شكل مخروطى ، ثم يمتد الضوء بعد ذلك على ســـموت الخطوط المستقيمة نفسها ، فيحدث مخروط آخر مقابل للمخروط الأول .

ويستدل ابن الهيثم على أن الضوء يشرق من الجسم المضىء سواء كان شمسا أو قمرا أو ذبالة من جميع أجزاء الجسم ، وأنه يمتد على السموت المستقيمة .

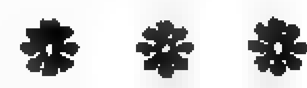
ولعل من أجدر تجاربه بالذكر فى هذا الصدد تجربة أوردها فى مقالة فى ضوء القمر ، بين بها أن جرم القمر اذا أشرق عليه ضوء الشمس وصار مضيئا ، فان ضوءه يشرق من كل نقطة من سطحه على كل نقطة تقابلها كما تشرق الأضواء الأولى من الأجسام المضيئة بذواتهـــا .

ولا يقتنع ابن الهيثم بالتجاوب المباشر ، بل يمضى فى تحقيق الامتداد على السموت المستقيمة فى الأضـــواء المنعكسة ، وفى الأضواء النافذة من الأجسام المشفة ، ويصف لذلك تجارب كثيرة ، ويتلخص بعضها فى أن يؤتى بجسم كثيف تقطع به المسافة المستقيمة بين السطح الصقيل العاكس ، وبين موقع الضوء الذى ينعكس عنه .

أو بين الجسم المشف وبين موقع الضوء النافذ منه ، الذى هو منه بمثابة الظل ، حيث يتبين فى جميع الأحوال أن الامتداد هو فعلا على السموت المستقيمة .

ويستعين أيضا فى بعض تجاربه لبيان امتداد الأضواء المنعكسة على السموت المستقيمة بظاهرة الظلال ، حيث اذا استقبل الضوء المنعكس على جسم كثيف أبيض يوضع بالقرب من السطح العاكس، ودخل فى المسافة المستقيمة بينهما ميل دقيق أو خلاله ، لوحظ ظهور ضوء منعكس على الميل نفسه ، وظهور ظل الميل على الجسم الكثيف الأبيض .

وهو يعنى فى بحوثه فى الانعطاف أن الضوء عند نفوذه من وسط مشف كالهواء الى آخر مشف يختلف شفيفه عن شفيف الأول كالماء أو الزجاج فانه يمتد فى المشف الثانى أيضا على السموت المستقيمة سواء كان نفوذه فيه مقرونا بالانعطاف أو غير مقرون .



ان تصنيف الأشياء غير المتطابقة فى رتبة واحدة أو مجموعة واحدة أصبح شيئا مألوفا جدا بحيث نسينا مدى أهميته ، يعتمد هذا التقسيم على القدرة على تمييز عوامل الشبه بين الأشياء بالرغم من أنها غير متطابقة تماما ، فنحن نقسمها تبعا لما نراه فيها من عوامل مشتركة ، اى بما نحس فيها من تشابه ، وبحكم العادة أصبحنا نظن أوجه الشبه واضحة .

والمقدرة على تصنيف الأشياء ووضعها فى أقسام متشابهة وأخرى مختلفة ، لهى فى رأيى أساس التفكير البشرى ، وهى حقا مقدرة بشرية أن نرى أوجه التشابه التى لم توجدها الطبيعة .

لقد أدرك « نيوتن » أن ما يحدث فوق الأرض من جاذبية هو عين ما يحدث فى السماء من جاذبية بين الأجرام السماوية ، سقطت تفاحة فوقه كما يقولون نتيجة جاذبية الأرض فاسترعت نظره فقام لتوه يحسب قوة الجاذبية بين القمر والأرض ، فبصيرة هذا العبقرى وسرعة ادراكه كانت فى تمييزه لأوجه الشبه بين سقوط التفاحة وتحرك القمر فى مداره حول الأرض ، بما لم يدركه أحد من قبله .

تعتمد نظرية الجاذبية أو التأثير عن بعدّ على هذا الارتباط ، الذى قد يبدو لنا اليوم واضحا مألوفا ، على حين كان أتباع الفكر الارسططاليسى يرونه مجرد خيال ، كانوا يعتبرون مجرد سقوط التفاحة حدثا عاديا لأن لها ارادة حيوانية عنيدة لتستقر فى مكانها التحتانى ، ومجرد تصاعد اللهب والدخان حدث ضرورى ليستقر فى مكانه الفوقانى ، كل بحسب طبيعته التى أضفيت عليه من قبل .

أما نيوتن فقد اقتنع بأن سقوط التفاحة انما يرجع الى علة أساسها الجاذبيـــة ، وبذلك اقترب التفكير العلمى الى مفهـوم السببية الكامن فى النظام الكونى .

ولقد سبقه ابن الهيثم فى هذا الصدد عند دراسته ظاهرة الاظلال ، فما يحدث فى السماء من خسوف وكسوف هو عين ما يحدث فوق الأرض من ظلال ، فاذا أشرق الضوء على جسم كثيف استتر ما وراء هذا الجسم عن الضوء ، واذا رفع الكثيف أشرق الضوء على الموضع المستظل :

ظاهرة مألوفة فى غاية البساطة تعتبر من المدركات الأولية التى يراها الجميع فى كل زمان ومكان ، ولكن ليس لكل أن يستطيع

الربط بينها وبين ظاهرتى الخسوف والكسوف ، الا من أوتى بصيرة نافذة .

لقد أفرد ابن الهيثم للاظلال مقـالة خاصة هى « مقالة فى الاظلال » تناول فيها أمورا كثيرة ، ذلك لأن ظاهرة الاظلال لها شأن كبير فى علم الفلك ، وهى كما يقول ابن الهيثم فى مقدمة مقالته أحد الأصول المعتمد عليها فى علم الهيئـة ، فالخسوفات بأنواعها المختلفة تحدث عن الاظلال ، وتحقيق مقادير الخسوفات وأزمانها لا يتأتى الا بدراسة أشكالها .

ويستفاد من مقالة ابن الهيثم أن الذين تناولوا هذه الظاهرة بالبحث من قبله ، لم يستوفوا بحثها ولم يبينوا أشكال الاظلال المختلفة ، ولم يميزوا بين ما نسميه « الظل » وما نسميه « شبه الظل » فى الوقت الحاضر ، واقتصرت أقوالهم على ناحية واحدة من نواحيها .

وأجرى بعض التجارب الأرضية ، اذ استخدم « سراجا ذا فتيلة غليظة » وجعله على مسرجة مرتفعـة عن الأرض فى بيت لا يدخله الضوء ، وجعل بعد السراج عن الحائط نحو ذراعين أو أقل ، واعتمد عودا دقيقا قابل به السراج ، ومد العود فيما بين السراج والحائط .

فاذا تأمل المعتبر ما يظهر على الحائط فى مثل هذه الحـالة وجد ظلا عريضا أعرض كثيرا من العود ، واذا قدم العـود الى السراج ، اتسع عرض الظل ، واذا أبعده عنه وقربه نحو الحائط ضاق عرض الظل .

ودرس ابن الهيثم الظواهر المتعددة فى الخزانة ذات الثقب ، وأجرى الكثير من التجارب والبحوث ، فتوصل الى دراسة كسوف الشمس ، والمقـارنة بين صورة كسوف الشمس وصورة هلال القمر .

واستنتج بالاستعانة الى براهين هندسية الى أن نسبة بعد الشمس عن مركز الأرض الى قطر الشمس كنسبة ١١٥ : ١ ، وهى نسبة قريبة جدا مما نعرفه اليوم .

ان نسبة فضل الكشف عن ظاهرة تكون صور المرئيات بواسطة الثقوب الضيقة الى (دلاپورتا) كما هو الشائع المتواتر ، أو الى « روچر باكون » أو الى « ڤيتلو » أو الى « ليوناردو دافنشى » أو غيرهم من المتأخرين عن ابن الهيثم ، لا يكون مشكوكا فيها فحسب ، بل تكون قطعا غير متفقة والواقع ، لقد سبق ابن الهيثم كل هؤلاء ، ولزم علينا أن نؤكدها وننشرها(١) .

* * *

يرى ابن الهيثم فى جميع ظواهر الضوء مجموعة من الحوادث العلية ، التى تخضع لمجموعة من القوانين العلية ، ومعنى الحوادث هنا قريب جدا من المعنى الذى استعملها فيه متكلموا السنة ، حين أطلقوا كلمة الحوادث مفردها حدث ، وليس حادثة على الأعراض أو صفات المادة التى لا تدوم ، فالحوادث وحدات صغيرة جدا ليس لها حيز فى المكان أو اتصال فى الزمان .

فمهما كان سطح الصقيل ، مسطحا كان أو محدبا أو مقعرا أو اسطوانيا فان الضوء ينعكس فوق سطحه طبقا لقوانين علية هى قوانين الانعكاس ، أى زاوية السقوط تساوى زاوية الانعكاس، والشعاع الساقط والشعاع المنعكس والعمود على السطح عند نقطة السقوط تقع كلها فى مستوى واحد .

ومهما كان سطح الشفيف دائريا أو منسطحا أو غير ذلك فان الضوء حين ينفذ من شفيف الى شفيف آخر فانه يخضع لأحكام وقوانين علية ثابتة ، قد أوضحناها فى أبواب تالية ، والأجسام

---

(١) مصطفى نظيف .

المشفة يختلف شفيفها ، وكل نوع من أنواعها يختلف شفيفه ما سوى جسم الفلك ، وذلك أن الهواء يختلف شفيفه فمنه غليظ ومنه لطيف ، والغليظ كالضباب والدخان ، وما خالطه غبار أو دخان ، ومنه لطيف كالأهوية التى بين الجدران والهواء القريب من الفلك .

الضوء بحسب مذهب ابن الهيثم ليس بجوهر وليس بمادة ، بل هو شيء موجود بذاته ، هو مجموعة من حوادث ، تشرق الشمس فينتقل الضوء فى زمان ، ينتقل فى شفيف الفلك ثم ينعطف فى شفيف الهواء فنرى الكواكب فى وضع ظاهرى يدرسه ابن الهيثم ، ثم ينعكس فوق السطوح التى تعترضه وينعطف فى الماء وهكذا فهو مجموعة من حوادث يخضع لقوانين علية كما تخضع الموجودات والأجرام السماوية الى قانون على هو قانون الجاذبية .

وعلى هذا الأساس درس ابن الهيثم الحوادث التالية :

تعيين نقطة الانعكاس عن المرآة الكرية ــ وتعيين نقطة الانعكاس عن المرآة الاسطوانية ، وتعيين نقطة الانعكاس عن المرآة المخروطية ــ والخيالات التى ترى بالانعكاس ، وتفصيل أحوال الخيالات التى ترى فى المرايا الكرية ، وأحكام الانعطاف وما يتعلق بالانعطاف عند السطوح المستوية ــ وخيال النقطة المبصرة الذى يرى بالانعطاف ــ وخيالات المبصرات المدركة بالانعطاف عند السطح المستوى ــ والانعطاف عند السطوح الكرية وما يترتب على الانعطاف من الظواهر الجوية ــ والخيالات التى ترى بالانعطاف عند السطوح الكرية ــ درس كل هذا دراسة مستفيضة ووضع لها نظما ، كانت المرجع الأساسى فى عصر التنوير وعصر النهضة بأوروبا بل ان الأشكال الهندسية التى جعلها كوسائل ايضاح قد نقلت بحرفها عند « تيودوريق » « وروجر (١) باكون » « وروبرت جروستست » و « فيتلو » و « ديكارت » .

---

(١) انظر كتاب الدكتور كرومبى « أوجسطين الى جاليليو » .

ودراسات ابن الهيثم هذه ليس المجال لها هنا ، ويكفى أن نشير الى كتاب الأستاذ مصطفى نظيف لمن يطلب المزيد .

* * *

بقيت نقطة أخيرة لزاما علينا ان نذكرها ، لكى نبرز المنهج العلمى الذى اختطه ابن الهيثم فى بحوته ، فنقول :

ان رجال المنهج العلمى ليختلفون — وما يزالون يختلفون الى يومنا هذا — اى المنهجين أولى فى البحث العلمى : الاستقراء الذى قصاراه نتائج محتملة الصدق ، أم الاستنباط الذى يضمن اليقين فى النتائج ، على شرط أن تكون مقدماته يقينية ، ولا تكون المقدمات كذلك الا اذا جاءت عن غير طريق الملاحظة الخارجية .

اى أنها تجىء عن طريق الادراك الحدسى المباشر من الداخل ، أم أنه لابد من الجمع بين هذا وذاك : فنلاحظ ظواهر الطبيعة أولا ، ثم نحدس بالعيان العقلى فرضا نفرضه لتفسير ما قد لاحظناه ، ثم نركن الى الاستنباط فى استخراج ما يلزم عن ذلك الفرض لزوما عقليا .

ان لكل من هذه الاتجاهات من يناصره ، ففرانسيس باكون (١٥٦١ — ١٦٢٦ م) مثلا نصير للملاحظة الخارجية وحدها ، انه بقصر البحث على المشاهدة أو التجـــربة والاكتفاء بجميع المشاهدات أو نتائج التجربة ، طريقة ضيقة محدودة ، لا نخطىء كثيرا اذا قلنا انها تجعل من العالم البحاثة آلة ترقب وتدون وتبوب وتفهرس ، وانها تهوى بالعلم من سموه الى الوصف المجرد من الخلق أو الابداع .

وديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠ م) نصير للاستنباط العقلى وحده.

وجون ديوى (١٨٥٩ — ١٩٥٢) نصير للجمع بين الملاحظة الخارجية والاستنباط معا ، هذه الطرق فى البحث التى تعد من مبتكرات العصر الحـــديث قد أدركها ابن الهيثم فى القـــرن

الحادى عشر الميلادى ، فهو قد أدرك ضرورة الأخذ بالاستقراء ، والأخذ بالقياس ، والأخذ فى بعض البحوث بالتمثيل كتجاربه فى الانعكاس والانعطاف من الناحية الميكانيكية ، ثم ضرورة الاعتماد على الواقع الموجود ، على غرار المنوال المتبع فى البحوث العلمية الحديثـــة .

فابن الهيثم لم يسبق(١) « فرنسيس باكون » الى ادراك خطر عنصر الاستقراء فحسب ، بل سما عليه ، لأنه أدرك العنـــاصر الأخرى التى لم يدركها « باكون » من بعده ، وأيضا ابن الهيثم لم يطل فى الكتابة عن الطريقة المثلى فى البحث ، دون أن يقوم ببحث يصح أن يتخذ مثالا يهتدى به ، كما فعل « باكون » بل اكتفى بأن يلم بعناصرها فى قول موجز ، وانطلق يسلك سبيلها فى بحوثه ودراساته عملا وفعلا .

---

(١) مصطفى نظيف .

فكرة الدالة عند ابن الهيثم

اقتبست الحياة العامة استعمال كلمة دالة بمعناها الشائع الذى يستعمل فى الرياضيات ، مثال ذلك أن نقول « ان مزاج الانسان دالة هضمة » نكون قد استعملنا الكلمة بمعناها الرياضى نفسه ، ويكون المقصود بها ، امكان تحديد قاعدة تنبؤنا عن حالة مزاجه اذا علمنا حالة هضمه ، فالفكرة سهلة فى حد ذاتها ، وما علينا الا أن نرى كيفية تطبيقها فى الرياضيات على الأعداد المتغيرة .

ولنبدأ بأمثلة محسوسة :

فاذا سار قطار بسرعة منتظمة قدرها عشرون ميلا فى الساعة، فالمسافة ف التى يقطعها خلال أى عدد من الساعات ، وليكن ن تحسب بموجب المعادلة .

$$ف = ٢٠ ن$$

فيقال ان ف هى دالة للزمن ن .

فاذا تغير الزمن ن تغيرت المسافة .

ودالة الجسم الساقط من حالة السكون هى :

$$ف = \frac{1}{2} جـ ن^{٢} \quad ، \quad \frac{1}{2} جـ ن^{٢}$$

حيث جـ هى العجلة الأرضية ، والمسافة هنا دالة لمربع الزمن ن .

كل هذه دوال خاصة ، ولكن الرياضيات بحكم الطبع تنزع الى تعميم أساليبها ، فهى ترمز الى الفكرة العامة لكل دالة بالرمز .

ص = د (س)

فالدالة ليست الا نوعا من الرابطة بين متغيرين ، فاذا تغيرت قيمة س تغيرت قيمة ص تبعا لها .

ولم تظهر الدالة فى الرياضيات الاغريقية الا لماما ، ذلك لأن روح هذه الحضارة انما يتصورها اليونانى وكأنها صادرة مباشرة عن رمزه الأولى ، رمز الجسم المنعزل الحاضر ، رمز الوجود على صورة نقط يسود بينها الانسجام ، والمكان على هيئـــة المكان الأوقليدى .

بينما نجد ابن الهيثم فى تصوره الرياضى فى التحليل والتركيب أو فى تصوره للضوء ذا ارادة متجهة أو قوة روحية تسودها ارادة ذات اتجاه ، وهذا ما عناه بلمية الضوء .

لذلك نجد أن أوقليدس عند دراسته لعلم المناظر ، انما يدرس هذا العلم على أساس أن الضوء انما يسير فى خطوط مستقيمة يغلب عليها السكون ، وهى مكونة من نقط يسود بينها الانسجام ، وأشعة الضوء فى سقوطها وانعكاساتها ، تحدث زوايا ذات مقادير ، وأن زاوية السقوط تساوى زاوية الانعكاس اذا ما انعكست فوق سطح صـــقيل .

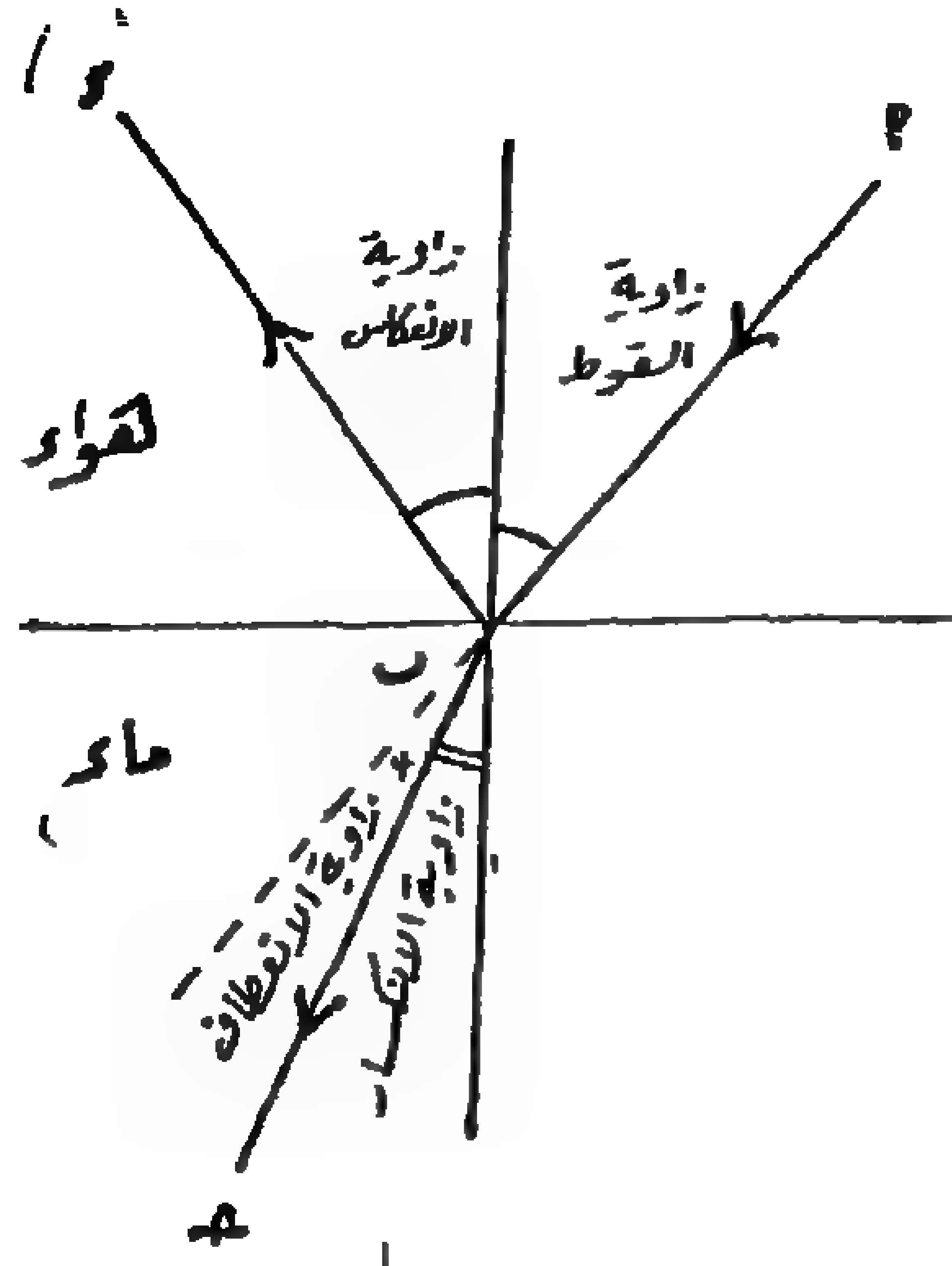
هذا هو الشطر الأول من قانون الانعكاس .

وظهرت بادرة من بوادر الدالة عند بطليموس حينما توصل الى ايجاد زوايا الانكسار للأشعة الضوئية اذا ما نفذت من وسط شفيف الى وسط مشف آخر أى من الهواء الى الماء مثلا حسب الشكل التـــالى .

فالشعاع أ ب الساقط فى الهواء على سطح الماء عند ب ينكسر الى ب جـ داخل الماء ، وينعكس على السطح الفاصل الى ب د .

وزاوية السقوط تساوى زاوية الانعكاس .

كل ما عمله بطليموس هو قياس زواياالانكسار فى الماء ، المقابلة لزوايا سقوط فى الهواء الفرق بين كل واحدة منها عشر درجـــات أى ١٠°، ٢٠°، ٣٠°، ... ٩٠°



ويحدثنـــا البرت ليجين "Albert Legeune" فى بحثـه عن جـداول الانكسار لبطليموس الذى نشره فى مجلة الجمعيـة العلمية ببروكسل عـام ١٩٤٦ أن بطليمـــوس اســـتطاع أن يحســـب العـــلاقة بين زوايا الانعكاس وزوايا الانكسار ، وايجاد الفروق بينها طبقـــا للجدول التالى :

زاوية السقوط	١٠°	٢٠°	٣٠°	٤٠°	٥٠°	٦٠°	٧٠°	٨٠°
زاوية الانكسار	٨	١٥½	٢٢½	٢٩	٣٥	٤٠½	٤٥½	٥٠
الفرق	٧½	٧	٦½	٦	٥½	٥	٤½	

ومن هذا الجدول يتضح لنا أن الفروق الثانية أى (٧ ـــ ٧½) وهكذا = ـــ ½° وهى كمية ثابتة فى جميع الحالات .

ويرى « البرت ليجين » أن هذا الحساب من جانب بطليموس لم يأت جزافا ، وانما قصد منه الوصول الى علاقة بين متغيرين هما زاوية السقوط وزاوية الانكسار ، أو حسب تعبيرنا الحالى :

زاوية الانكسار هى دالة لزاوية السقوط .

ويظهر ذلك جليا اذا ما استكملنا الصفوف الأولى من جدوله هكذا .

زاوية السقوط	صفر	١٠°	٣٠°	....
زاوية الانكسار	صفر	٨	١٥ ½	....
الفروق		٨°	٧ ½°	٧°

فعندما يكون الشعاع الساقط عموديا أى عندما تكون زاوية السقوط صفرا فان الشعاع النافذ فى الماء لا ينكسر بل يستمر فى طريقه دون أن يعانى انكسارا .

وسار ابن الهيثم على هذا النهج بل توسع فيه ، ولكنه اتجه الى قياس زوايا الانعطاف بدلا من زوايا الانكسار ، وابتكر أجهزة متنوعة على غاية من الدقة لهذه اقياسات لم يسبقه أحد من قبل اذ استخدم صفيحة ذات ثقب لكى يعزل الأشعة الساقطة المتفرقة الى حزمة ضيقة محددة السير والهدف .

ويقول فى مخطوطه المقالة السابعة من المناظر ما نصه :

« فتبين من جميع ما بيناه بالاعتبار (اى التجارب) وبالقياس أن كل ضوء فى جسم مضىء ، ذاتيا كان الضوء أو عرضيا ، قويا كان الضوء أو ضعيفا ، فان كل نقطة منه (أى من الجسم) يمتد منها ضوء ، فى الجسم المشف المماس لها ، على كل خط مستقيم يصح أن يمتد منها ، هواء كان الجسم المماس لها أو ماء أو حجرا مشفا .

واذا صادفت الأضواء الممتدة فى الجسم المماس للضوء الذى هو مبدؤها جسما مخالف الشفيف لشفيف الجسم الذى

هى فيه ، فان ما كان منها على خطوط قائمة على سطح الجسم الثانى امتد على استقامته فى الجسم الثانى ، وما كان منها على خطوط مائلة على سطح الجسم الثانى انعطف فى الجسم الثانى ولم ينفذ على استقامته ، وامتد فى الجسم الثانى على سموت خطوط مستقيمة غير الخطوط الأولى التى كان ممتدا عليها فى الجسم الأول » .

وفى موضع آخر مقالته السابعة ينص على أحكام الكيف فى الانعطاف هكذا :

« ان كل ضوء ينعطف من جسم مشف الى جسم آخر ، فان انعطافه أبدا يكون فى السطح القائم على سطح الجسم الثانى على زوايا قائمة » .

هذا الحكم لم يكن معروفا لدى بطليموس فى كتابه « المناظر » (أوبطيقا) فانه من المتفق عليه باجماع الآراء أن ابن الهيثم قد زاد على ما كان يعلمه السابقون النص الصريح على معنى القانون الذى يعرف الآن بقانون الانكسار الأول ، وهو الذى ينص على ان الشعاع الساقط والعمود من نقطة السقوط والشعاع المنعطف فى مستوى واحد .

وابن الهيثم فى النص على هذا المعنى قد أدرك حقا خطورته ، وأدرك انه ركن أساسى بصرف النظر عن شكل السطح المماس سواء كان مسطحا أو كريا كما أثبت ذلك فى تجاربه المتعددة .

ثم يستطرد ابن الهيثم قائلا :

« وان كان الجسم الثانى أغلظ من الجسم الأول ، فان الانعطاف يكون الى جهة العمود الخارج من موضع الانعطاف ، القائم على سطح الجسم الثانى على زوايا قائمة ، ولا ينتهى الى العمود ، وان كان الجسم الثانى ألطف من الجسم الأول فان الانعطاف يكون الى ضد الجهة التى فيها العمود الخارج من

موضع الانعطاف القائم على سطح الجسم الثانى على زوايا قائمة ، على اختلاف أشكال سطوح الأجسام المشفة .

وان الضوء اذا انعطف من جسم مشف الى جسم ثان مشف ومن جسم ثان الى جسم ثالث ، فانه ينعطف أيضا عن سطح الجسم الثالث اذا كان الجسم الثالث أغلظ من الجسم الثانى كان انعطاف الضوء الى جهة العمود الخارج من موضع الانعطاف القائم على سطح الجسم الثالث على زوايا قائمة ، وان كان الجسم الثالث ألطف من الجسم الثانى كان انعطاف الضوء الى ضد الجهة التى فيها العمود ، وكذلك ان انعطف الضوء الى جسم رابع وخامس وأكثر من ذلك » .

ان هذه الأحكام وان كانت وصفية وكيفية ولكنها تحمل فى اركانها علاقات بين متغيرات كثيرة ربطها ابن الهيثم ربطا وثيقا يمسكها السمط فى صورة نظام تتحكم فيه قوانين ثابتة لكل زمان ولكل مكان .

* * *

والناحية الكمية من بحوث ابن الهيثم تشمل قياس زوايا الانعطاف المقابلة لزوايا سقوط معينة عند نفوذ الضوء من الهواء فى الماء ومنه فى الزجاج وبالعكس ، وعند نفوذه من الزجاج فى الماء أيضا ، وقد راعى فى الأحوال التى اعتبر فيها بالزجاج الانعطاف عند السطح المستوى وعند السطح الكرى بل وضمن بحوثه اعتبارات فى الانعطاف عند السطح الاسطوانى أيضا .

وبحوثه الكمية هذه لا تختلف من حيث الفكرة الأساسية التى أنبنت عليها عن البحوث الوصفية التوضيحية السابقة ، ولكنها تمتاز فى أن ابن الهيثم راعى فيها تخير الأوضاع التى كفلت له قياس الزوايا التى أراد قياسها وحاول أن يتخذ قياسها وسيلة الى كشف العلاقة بين زاوية السقوط وبين زاوية الانعطاف ،

وبمعنى آخر أراد اثبات أن زاوية الانعطاف ما هى الا دالة لزاوية السقوط .

وبحوث ابن الهيثم تتلخص فى ثلاث أنواع من التجارب :

فالنوع الأول خاص بانعطاف الضـــوء عند نفوذه من الهواء فى الماء .

والنوع الثانى خاص بانعطاف الضوء فى كل من الوسطين الهواء والزجاج ، والزجاج والماء اذا كان السطح الفاصـــل بين الوسطين مستويا .

والنوع الثالث خاص بانعطاف الضوء فى كل من الوسطين المذكورين اذا كان السطح الفاصل بينهما كريا أو اسطوانيا .

واستطاع ابن الهيثم تعيين مقـادير زوايا الانعطاف وهى الزوايا التى يحيط بها امتداد الخط الأول الذى يمتـــد عليه الضوء فى الجسم الأول والخط الذى يمتد عليه فى الثانى .

وجعل المقادير تتفاضل بينها زوايا السقوط عشر درجات ، أى ٢٠ ، ٣٠ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٨٠ درجة .

وابن الهيثم يعقب على شرحه هذا الأمر قائلا بلفظه :

« وان أحب المعتبر (أى صاحب التجربة) أن يعتبر الزوايا خمسة أجزاء خمسة أجزاء ، فعل ذلك على مثل ما تقدم شرحه ، وان أحب أن يعتبر ما هو أدق من خمسة أجزاء فعل ذلك على الترتيب الذى رتبناه » .

وأكبر الظن أن ابن الهيثم اكتفى فى بحوثه بالاعتبـــار بالزوايا التى تتفاضل بعشر درجات فعشر .

لم تكن التجارب التى قام بها هينة يسيرة ، ولم تكن الأجهزة التى استخدمها فى هذه التجارب فى متناول اليد كما هو الحال

اليوم حيث الحصول عليها من مصانع انتاجها سهل وميسور ، بل كان على ابن الهيثم أن يصنعها بنفسه أو تحت ارشاده ؛ ثم يقوم بتدريجها بنفسه تدريجا دقيقا لا يشوبه الخطأ ، كما كان عليه أن يعد الأجزاء الاضافية كقطع الزجاج المختلفة الأشكال بالأبعاد التى يجب أن تكون عليها وصقل هذه القطع صقلا تاما ، كل ذلك وما اليه ليس من الأمور الهينة .

والذى (١) يدعو الى التقدير والاعجاب أن الصعوبات العملية فى هذه البحوث لم تعجزه عن المضى فيها ، ومتابعتها الى استنباط الأحكام التى قررها ، والتى نجدها بوجه عام فى حدود التجارب التى أجراها والمواد المشفة التى اعتبرها ، صحيحة ، أصلح وأتم من الأحكام التى تنسب سواء بحق أو بغير حق الى بطليموس ، بل ان « فيتلو » القس البولونى ، و « كبلر » قد استعانا بمثل هذه الأجهزة فى بحوثهما ، وقد ذكرها « فيديريكس رزنر » : "Federicus Rsner" فى كتابه الذى نشر فى مدينة بازل بسويسرا عام ١٥٧٢ م .

بل ان مكتبة « جاليليو » الخصوصية والتى تركها بعد وفاته كانت بها نفس النسخة كما يقول الباحث الايطالى « أنطونيو فافرو » .

وكتاب الذخيرة فى البصريات "Opticae thesaurus" « لرزنر » يحتوى على ثلاثة أبواب هى :

١ ــ كتاب الحسن بن الهيثم .

(1) Alhazeni Arabis libre Septem .

(2) Eisisdem liblr de Crepusculis et nubium ascensionibus .

٢ ــ كتاب فيتلو .

(3) Vitellonis Thuringopoloni libri .

---

(١) مصطفى نظيف .

وقد لخص ابن الهيثم النتائج التى استنبطها من اعتباراته المذكورة فى الجزء الأخير من الفصل الثالث من مقالته السابعة فى المناظر ، ونورد فيما يلى هذه النتائج كما ذكرها بلفظه ، وهى مقسمة الى ثمانية أقسام كالآتى(١) :

الحكم الأول :

« كل زاويتين يحيط بكل واحدة منهما الخط الأول الذى امتد عليه الضوء والعمود الخارج من موضع الانعطاف ، القائم على سطح الجسم المشف على زوايا قائمة ، يكونان فى جسمين بأعيانهما مشـــفين ، وتكون الزاويتان مختلفتين ، فان زاوية الانعطاف عن الزاوية العظمى منهما تكون أعظم من زاوية الانعطاف عن الزاوية الصغرى » .

وتفسير هذا الحكم بأسلوب الوقت الحاضر ، أن مقادير زوايا الانعطاف تختلف بحسب مقادير زوايا الســـقوط لكل وسطين ، وكلما عظمت زاوية السقوط عظمت زاوية الانعطاف وبالعكس .

ومعنى ذلك أن زاوية الانعطاف هى دالة لزاوية السقوط .

الحكم الثانى :

« وتكون زيادة زاوية الانعطاف (أى الأولى) على زاوية الانعطاف (أى الثانية) أقـــل من زيادة الزاوية العظمى التى يحيط بها الخط الأول والعمود ، على الزاوية الصغرى التى يحيط بها الخط الأول والعمود » .

هـــذا الحكم يتضح من الجدول الذى ذكره بطليموس فى قراءاته فاذا كانت زاوية السقوط ٨٠° كانت زاوية الانعطاف ٣٠°٥

(١) نفس المرجع .

واذا كانت زاوية السقوط ٧٠° كانت زاوية الانعطاف ½٤٢° والفرق بين زاويتى الانعطاف ½٥° وبين زاويتى السقوط (٨٠ — ٧٠) أى عشرة ومعنى هذا .

أنه اذا زادت زاوية السقوط بمقدار معين زادت زاوية الانعطاف بمقدار أصغر ، ففرق زاويتى السقوط ١٠° وفرق زاويتى الانعطاف ½٥° .

وهذا الحكم لا يصح على وجه الاطلاق الا اذا كان الانعطاف من وسط لطيف فى وسط غليظ ، وقد اعترض الفارسى فى التنقيح عليه ، ولربما يبدو أول وهلة أن من التعنت القول بأن ابن الهيثم أراد به حكما عاما يشمل ايضا أحوال الانعطاف من الوسط الغليظ فى الوسط اللطيف لولا أنه قد طبقه فى أحد بحوثه فى خيال النقطة التى ترى بالانعطاف من الوسط الغليظ فى الوسط اللطيف .

الحكم الثالث :

« وتكون نسبة زاوية الانعطاف عن الزاوية العظمى الى الزاوية العظمى ، أعظم من نسبة زاوية الانعطاف عن الزاوية الصغرى الى الزاوية الصغرى » .

ينص هذا الحكم على أن نسبة زاوية الانعطاف الى زاوية السقوط لوسطين معينين ليست ثابتة بل تزداد تبعا لزيادة زاوية السقوط ، وقد كان من المتواتر أن بطليموس ذهب الى القول بثبوت نسبة زاوية الانعطاف الى زاوية السقوط ، ومن المعلوم الآن كما قال ابن الهيثم أن هذه النسبة ليست ثابتة ، وانها تزداد كلما زادت زاوية السقوط ، وان كان معدل زيادتها ليس هو الآخر ثابتا .

الحكم الرابع :

« ويكون الباقى بعد زاوية الانعطاف من الزاوية العظمى أعظم من الباقى بعد زاوية الانعطاف من الزاوية الصغرى » .

والحكم الرابع معناه أن زاوية الانكسار تزيد تبعا لزيادة زاوية السقوط ، وهذا الحكم لا شبهة فيه ، وكان الأولى به من وجهة نظرنا الحديثة أن يسبق أحكامه الأخرى ، فالحكم العـام الذى يتضمن جميع الأحكام الخاصة بعلاقة زاوية السـقوط بزاوية الانعطاف وبزاوية الانكسار هو الذى ينص على العلاقة الصحيحة بين زاويتى السقوط والانكسار أو بين زاويتى العطف والباقية بحسب الاصطلاح القديم .

ولكن ابن الهيثم لم يوجه عنايته الى زاوية الانكسار بل وجهها الى زاوية الانعطاف،وعنى بأن ينص على العلاقة بين زاويتى السقوط والانعطاف ، فلم يوفق الى الكشف عن قانون عام يتضـــمن فى صيغة موجزة بسيطة هذه العلاقة على تصاريف الأحوال .

ومما يدل على انصراف ابن الهيثم عن العناية بزاوية الانكسار أن حكمه الرابع هو الوحيد بين أحكامه العدة ، الذى عنى أن يذكر فيه شيئا يتعلق بهذه الزاوية .

الحكم الخامس :

« وتوجد زاوية الانعطاف اذا كان الضوء خارجا من الجسم الألطف الى الجسم الأغلظ أبدا ، أقل من نصف الزاوية التى يحيط بها الخط الذى امتد عليه الضوء الى موضع الانعطاف والعمود الخارج من موضع الانعطاف » .

الحكم السادس :

« واذا كان الضـــوء خارجا من الجسم الأغلظ الى الجسم الألطف كانت زاوية الانعطـــاف (أقل من) نصـــف مجموع الزاويتين » .

هذان الحكمان ينصان على أن الوسط الثانى اذا كان أغلظ

كانت زاوية الانعطاف أبدا أقل من نصف زاوية السقوط ، واذا كان الطف كانت زاوية الانعطاف أقل من نصف مجموع الزاويتين » .

والحكمان في الحقيقة مرتبطان أحدهما بالآخر ، وما يقال على أحدهما يمس الآخر ، وابن الهيثم يطلق حكميه الخامس والسادس اطلاقا ، وليس يصح اطلاقهما اطلاقا تاما على الصورة التي أرادها .

فالحكم الخامس يؤدى الى القول بأن زاوية الانكسار تكون أعظم من نصف زاوية السقوط اذا كان الانعطاف فى الوسط الأغلظ ، وطبقا للحكم السادس تكون زاوية الانعطاف أصغر من زاوية السقوط اذا كان الانعطاف فى الألطف ، وبما أن زاوية الانكسار فى هذه الحالة هى مجموع زاويتى السقوط والانعطاف فان حكم ابن الهيثم السادس معناه كما أشار الى ذلك الفارسى أن زاوية الانكسار تكون أصغر من ضعف زاوية السقوط اذا كان الانعطاف فى الوسط الألطف ، ويتفق ومدلول الخامس كما تقضى بذلك قاعدة العكس .

ومن المرجح أن قصور هذين الحكمين قد أخفى عن ابن الهيثم أمرا من أهم أمور الانعطاف ، فاذا كانت زاوية الانعطاف فى الأغلظ أقل أبدا من نصف زاوية السقوط فى الألطف فمؤدى هذا أن زاوية الانعطاف تقترب قيمتها من نصف القائمة كلما اقتربت قيمة زاوية السقوط فى الألطف من القائمة ، فتكون الزاوية التى نسميها الآن الزاوية الحرجة نصف قائمة ، أو بالأحرى لا تتجاوز هذا القدر ، ونحن ان لم نجد من اقوال ابن الهيثم قولا صريحا يفيد أنه يرى هذا الرأى فاننا لم نجد له أيضا قولا يمس معنى الزاوية الحرجة أو ظاهرة الانعكاس الداخلى الكلى المرتبطة بها .

ويلاحظ أن تتالى بعض الآراء وتدرجها فى بعض بحوثه ، وان كانا يقضيان فى الأحوال المعتادة الى المساس بمعنى الزاوية الحرجة ، فانه لم يتعرض الى هذا المعنى ولم يدل فيه برأى .

الحكم السابع :

« اذا كانت زاويتان متساويتان يحيط بكل واحدة منهما الخط الأول الذى امتد عليه الضوء والعمود الخـــارج من موضع الانعطاف ، احداهما بين الجسم الألطف وبين جسم أغلظ منه ، والأخرى بين ذلك الجســـم الألطف بعينه وبين جسم أغلظ من الجسم الغليظ الأول ، فان زاوية الانعطاف التى فى الجسم الأكثر غلظا تكون أعظم من زاوية الانعطاف التى فى الجسم الأغلظ الذى هو أقل غلظا » .

الحكم الثامن :

« كذلك ان كان الانعطاف من الجسم الأغلظ الى الجسم الألطف تكون أبدا زاوية الانعطاف التى من الجسم الأغلظ الى الجسم الألطف ، الذى هو أشد لطفا ، أعظم من زاوية الانعطاف التى من ذلك الجسم الأغلظ بعينه الى الجسم الألطف الذى هو أقل لطفا » .

* * *

تلك هى أحكام ابن الهيثم الثمانية كما هو منصوص عنها فى المجمل الوارد فى ختام الفصل الثالث من مقالته السابعة من كتاب المناظر .

ولابن الهيثم حكم تاسع (١) أورده ضمن أقواله فى شرح تجاربه الكمية فى انعطاف الضوء من الهواء فى الزجاج وانعطافه من الزجاج فى الهواء ، وهذا الحكم معناه أن الشعاع النافذ من وسط لطيف الى وسط غليظ اذا نفذ فى الوسطين نفسيهما فى الاتجاه المضاد أى من الغليظ الى اللطيف ، وكانت زاوية السقوط فى الحالة الثانية هى عين زاوية الانكسار فى الأولى كانت زاوية

(١) مصطفى نظيف .

انعطافه فى الحالتين واحدة ، أو بالأحرى كان خط مسـيره فيهما هو هو .

ولكن ابن الهيثم لم يذكر هذا الحكم مرفقا بأحكامه الثمانية التى فصلناها آنفا ، وان هو قد اتخذه فى مواضع أخرى من كتابه أساسا بنى عليه شرحه كيفية ادراك المبصرات بالانعطاف .

وقد عنى كمال الدين الفارسى بأن يودع هذا الحكم صراحة ضمن أحكام ابن الهيثم الكمية فى الانعطاف ، والفارسى فى هذا الصدد لم يتقيد فى عرض هذه الأحكام بألفاظ ابن الهيثم كما هى واردة فى أصول المناظر ، وان هو لم يخرج فيها عن المعانى التى قصدها ابن الهيثم نفسه فقد تصرف فى عرضها كثيرا وصاغها فى صيغ من عنده تختلف عن صيغها الأصلية .

وقد ذكر الفارسى هذا الحكم التاسع فى موضعين من كتابه التنقيح أحدهما فى صـدد أقواله عن أحكام الكم فى الانعطاف والآخر فى صدد كيفية ادراك المبصرات بالانعطاف ، وصاغه فى الموضعين فى صيغتين مختلفتين .

ففى الموضع الأول قال الفارسى :

« زاوية الانعطاف التى يقتضيها عطفيته من جسم ألطف فى مخالف ، مثل التى يقتضيها عطفيته من المخالف فى الجسم الأول اذا كانت العطفية فى الثانى مثل الباقية فى الأول » .

وفى الموضع الثانى قال :

« اذا كانت نقطتـان مضيئتان فى الجسمين فان السمتين اللذين يمتد عليهما ضوء الأول الى الثانية هما اللذان يمتد عليهما ضوء الثانية الى الأولى » .

ولعل النص الثانى أوضح فى أداء المعنى وأبين .

وهذا الحكم التاسع صريح فى تضمنه معنى القاعدة المعروفة

الآن « بقاعدة قبول العكس » فيما يتعلق بالانعطاف ، ولا شك فى أن ابن الهيثم قد أدرك معنى هذه القاعدة فيما يتعلق بالانعكاس ، وحسبه تعبيراته الشائعة فى مباحث الانعكاس كقوله « النقطتين المتعاكستين » وقوله « النظيرين » .

وان كانت قاعدة قبول العكس فيما يتعلق بالانعكاس يستلزمها قانون الانعكاس بشطريه المعروفين فهى فيما يتعلق بالانعطاف مرتبطة بمعنى « معامل الانكسار » وثبوته لكل وسطين معينين ، وهذان المعنيان مرتبطان بثبوت نسبة جيب زاوية السقوط الى جيب زاوية الانكسار لكل وسطين ، وثبوت هذه النسبة ظل مجهولا الى أوائل القرن السابع عشر حتى ثبت على يد (سنل) كما سنوضحه فيما بعد .

فورود هذا الحكم التاسع ـ الذى ارتضيناه حكما ـ فى كتاب المناظر ، يثبت لابن الهيثم فضل السبق الى ادراك معنى قاعدة قبول العكس ادراكا تاما فى حالتى الانعكاس والانعطاف ، والحكم التاسع هو حكم عام يرتبط به الحكمان الخامس والسادس بحيث اذا صح أحدهما لزم الآخر .

* * *

يقول الدكتور « كرومبى » الأستاذ بجامعة كمبردج الآن أن ابن الهيثم امتنع عن اثبات مقادير زوايا الانعطاف لكل زوايا السقوط التى ذكرها ، وأن أحكامه كيفية ، فى حين أن « ڤيتلو » قد ذكر هذه المقادير بعد أن استعان بأجهزة القياس التى استخدمها ابن الهيثم : قال كرومبى هذا فى كتابه الموسوعى « من أوجستين الى جاليليو » .

ان ابن الهيثم لم يكن من ذلك الطراز من الرجال الذين ينقلون أعمال الغير ، انه لم ينقل جداول الانعطاف لبطليموس كما فعل (ڤيتلو) ثم غير وبدل فيها لكى تتمشى مع قاعدة العكس التى

سردها هذا الأخير حين رأى أن مقدار الانعطاف لزاوية سقوط قدرها عشر درجات هو ٢٫٢٥ من الهواء الى الماء ، وانه اذا كانت زاوية السقوط من الماء ــ هواء هى ٥١٠ درجات فان الانعطاف فى الهواء بعيدا عن العمود لا بد أن يصبح ٥١٢٫٢ ، وهذا قول خاطىء فى القذائف الضوئية ، اذ كيف يكون التصور بأن زاوية الانكسار تصبح ٥١١٠ اذا كانت زاوية السقوط ٥٨٠ ! ؛ ويقول مؤرخ العلم البلجيكى « ليبجين » أن ڤيتلو قد نقل جـــداوله من بطليموس باعتبارها مصدرا لا يناقض ، ولو أن بطليموس نفسه لم يقصد ربط المتغيرات فى دالة بادىء ذى بدء .

ان ابن الهيثم كان نمطا فريدا طابعه التشكك فى أعمال من سبقوه ، فهو يقوم باجراء التجارب بنفسه لأنه يطالب الحق لذاته ، ومن غير المعقول أن يتوصل الى تلك الأحكام العامة دون قياس زوايا الانعطاف فى جهازه الخاص الذى ابتكره .

يقول ابن الهيثم فى مقدمة مخطوطه « شكوك بطليموس » .

« الحق مطلوب لذاته ، وكل مطلوب لذاته فليس يعنى طالبه غير وجوده ، ووجود الحق صعب ، والطريق اليه وعر ، والحقائق منغمسة فى الشبهات ، وحسن الظن بالعلماء طباع فى جميع الناس .

فالناظر فى كتب العلماء اذا استرسل مع طبعه ، وجعل غرضه فهم ما ذكروه ، وغاية ما أوردوه ، وحصلت الحقائق عنده ، وهى المعانى التى قصدوها والغايات التى أشاروا اليها ، وما عصم الله العلماء من الزلل ، ولا حمى علمهم من التقصير والخلل .

ولو كان ذلك كذلك لما اختلف العلمـــاء فى شىء من العلوم ، ولا تفرقت آراؤهم فى شىء من حقائق الأمور ، والوجود خـلاف ذلك ، فطالب الحق ليس هو الناظر فى كتب المتقدمين المسترسل مع طبعه فى حسن الظن بهم ، وطالب الحق هو المتهم بظنـــه منهم ،

المتوقف فيما يفهمه عنهم المقنع الحجة والبرهان ، لا قول القايل الذى هو انسياق المخصوص فى جبلته بضروب الخلل والنقصان .

والواجب على الناظر فى كتب العلوم ، اذا كان غرضه معرفة الحقائق أن يجعل نفسه خصما لكل ما ينظر فيه ، ويجيل فكره فى متنه ، وفى جميع حواشيه ، ويخصمه من جميع جهاته ونواحيه ، ويتهم أيضا نفسه عند خصامه ، ولا يتحامل عليه ، ولا يتسمح فيه ، فانه اذا سلك هذه الطريق انكشفت له الحقائق ، وظهر ما عساه وقع فى كلام من تقدمه من التقصير والشبهة » .

ذلك هو الدستور الذى وضعه ابن الهيثم نصب عينيه ، ومن بحوثه التى امتازت بالعمق ودقة التجربة نحن نصدقه فيما يقول ، ونكذب القس البولونى « ڤيتلو » وهو المبتدىء فى علوم البصريات ، ونكذب « كپلر » فيما ادعاه بأن « ڤيتلو » هو الينبوع الأصلى لهذه العلوم ، ونكذب « كرومبى » فيما ادعاه على ابن الهيثم من عدم قيامه بقياس زوايا الانعطاف .

نهج ابن الهيثم في الضوء

ينبوع لديكارت ونيوتن

يقال لحادثين تاريخيين أنهما متعاصران ، اذا كانا ، كل فى حضارته الخاصة ، يظهران الدقة فى أحوال واحدة نسبيا ؛ ويكون لهما بالتالى معنى مناظر تماما ، فاذا قد ثبت أن تطور الرياضيات والفيزيقا فى الحضارة الأغريقية ثم فى الحضارة الاسلامية ، وتطورها فى الحضارة الغربية متفق تمام الاتفاق ، فان من الممكن اذن أن نقول ان (بطليموس وابن الهيثم) ، (وفيثاغورس وديكارت) ، (وأفلاطون ولاپلاس) ، (والبيرونى ونيوتن) ، كل منهما متعاصر مع الآخر .

ويرى ديكارت أن تفسير الطبيعة دعامته النهج الهندسى ، فالمادة فى اعتقاده ليست الا الامتداد فى الأقطار الثلاثة ولاشىء غير ذلك ، وهى جوهر ممتد فى الطول والعــرض والعمق ؛ أما المكان الذى يسميه المحل الداخلى ، والجسم فى ذلك المكان ، فهما لا يختلفان الا بالذهن .

ان الامتداد عينه فى الطول والعرض والعمق الذى يكون المكان يكون الجسم أيضا ، والفرق الوحيد بينهما ينحصر فى أننا نحمل على الجسم امتدادا خاصا ، فان الجســم هو للمكان الذى هو محوى به ما النوع للجنس ، ثم هو يجزم بقبول المادة للتجزئة الى اللانهــاية .

ولأن المادة والامتداد شيء واحد فهو ينكر وجود الخـــلاء ، ويتصور المكان كله مملوءا مادة لا ندركها بالحس لدقتها ولطافتها ولكنها تحمل الينا آثار الأفعال الطبيعية ، ومن هذه الآثار ما نسميه الضوء ، فالضوء فى نظره ليس الا ضغطا تحسه العين ، مصدره الجسم المضيء وواسطة انتقاله المادة اللطيفة ، ولأن المكان كله ملاء ، فهذه المادة اللطيفة لا تقبل الانضغاط والانكماش ، أى هى عارية عن صفة المرونة ، واذن ينتقل فعل الضوء من الجسم المضيء الى العين فى غير زمان ، مهما تكن المسافة بينهما ، وذلك كما يتحرك طرف العصا فى نفس اللحظة التى يتحرك فيها طرفها الآخر ، وكما يتحسس الضرير طريقه بالعصا فى التو .

أما ابن الهيثم فبالرغم من أنه يتبع النهج الهندسى فى تفسير الضوء ، الا أنه يرى أنه طالما أن للضوء وجودا فى ذاته ، وأن صورته يقبلها الجسم المشف قبول تأدية من مكان الى آخر ، فان انتقال الضوء فى الوسط المشف لا يكون آنيا ، أى دفعة واحدة وفى غير زمان ، بل يستغرق زمانا محدودا بسرعة محددة .

وهو فى (١) مقالته الثانية فى المناظر فى أثناء شرحه كيفية ادراك البصر للضوء يوضح أن الآن الذى عنده يقع الادراك ليس هو الآن الذى عنده يصل الضوء الى سطح البصر ، ويستدل على ذلك بوصول الضوء من المنافذ والثقوب التى يدخل منها الى الأجسام المقابلة للمنافذ والثقوب ، ويقول بصريح العبارة :

« اذا كان الثقب مستترا ثم رفع الساتر ، فوصول الضوء من الثقب الى الجسم المقابل ليس يكون الا فى زمان وان كان خفيا عن الحس » .

وهو فى شرح هذا المعنى يقول :

---

(١) مصطفى نظيف .

« لأن مصدر الضوء من الثقب الى الجسم المقابل الثقب ليس يخلو من أحد أمرين ، اما أن يكون الضوء يحصل فى الجزء من الهواء الذى يلى الثقب قبل أن يحصل فى الجزء الذى يليه ثم فى الجـــزء الذى يليه ، ثم فى الجزء الذى يلى ذلك الجزء من الهواء ، الى أن يصل الى الجسم المقابل للثقب ، واما أن يكون الضوء يحصل فى جميع الهواء المتوسط بين الثقب وبين الجسم المقابل للثقب ، وعلى الجسم نفسه المقابل للثقب دفعة واحدة ، ويكون جميع الهواء يقبل الضوء دفعة لا جزء منه بعد جزء .

فاذا كان الهواء يقبل الضوء جزءا بعد جزء ، فالضوء انما يصل الى الجسم المقابل للثقب بحركة ، والحركة ليست تكون الا فى زمان، وان كان الهواء يقبل الضوء دفعة واحدة ، فان حصول الضوء فى الهواء بعد أن لم يكن فيه ضوء ، ليس يكون الا فى زمان وان خفى عن الحس » .

ولكنه يشرح هذا الأمر الأخير على أساس أن رفع الساتر عن الثقب يستغرق زمانا ، وأن الساتر لا ينكشف عن شيء من الثقب له مساحة الا فى زمان ، وانه ليس يصير الضوء من الهواء الذى فى خارج الثقب الى الهواء الذى فى داخل الثقب الا فى زمان .

عند ديكارت مادة الهواء ممتدة من الثقب حتى السطح المقابل للثقب حيث يرى الضوء منعكسا كعصا الضرير ، اذا لمس الضوء طرفها ، ظهر الضوء فى الطرف الآخر فى التو دون زمان ، أما ابن الهيثم فانه يرى أن للضوء حركة وسرعة ، فانتقاله يكون فى زمان .

نهجان ميتافيزيقيان متماثلان ، ولكنهما متناقضان فى النتيجة.

وتحقق الحدس الذهنى لابن الهيثم قبل الربع الأخير من القرن السابع عشر ، عندما استدل « رومر » من مشاهداته الفلكية أن الفترة الزمنية بين رؤية خسوفين متتاليين لأحد أقمار المشترى ليست ثابتة بل تتغير تغيرا دوريا ، تكاد تكون مدته عاما ، ثم حققت

التجارب بعد ذلك فى منتصف القرن التاسع عشر أن للضوء سرعة مقدارها ٣٠٠ الف كيلومتر فى الثانية ، وضوء الشمس يصل الينا منها فى سبع دقائق .

* * *

طرق ديكارت فى الضوء موضوعين آخرين هما ظاهرة الانكسار وظاهرة الانعكاس ، وهو فى سبيل ذلك أراد بادىء ذى بدء هدم الاعتقادات الجذرية التى كانت تظهر فوق النمط العلمى كطفح جلدى ترسب من افكار أرسطو ، فهناك كيوف خفية للمادة آمن الكثيرون بها مثل سقوط الأشياء الثقيلة الى أسفل ، وصعود لهب النيران الى أعلا .

ارادة حيوانية عنيدة هى التى تسبب السقوط الى العالم التحتانى أو الصعود الى العالم الفوقانى ، وارادة حيوانية عنيدة للمادة أيضا هى التى تسبب التأثير عن بعد ، كظاهرة الفسيولوجيا الجديدة للمغنطيس كما نشرها الطبيب الانجليزى وليم جلبرت عام ١٦٠٠ م .

لم يؤمن ديكارت بكل هذا ولكنه كان يؤمن بالنسق الهندسى للكون ، فالضوء فى نظره ليست له ارادة ولكنه يوجد هندسيا ، حركته فى غير زمان ، وطبق هذا النمط على ظاهرة الانعكاس على أساس ميتافيزيقى فأخذ النتائج التى توصل اليهـــا ابن الهيثم وجعلها فروضا ، والمسلمات التى وضعها ابن الهيثم جعلها وسائل ، فأوقعته نتائجه فى تناقض ، لحمته أن سرعة الضوء بعد الانعكاس تساوى سرعته قبل الانعكاس .

فللضوء سرعة اذن ، فانتقاله حتما يكون فى زمان وهذا خلف لما افترضه فى آنية الضوء ، ينظر ابن الهيثم فى انعكاس الضوء على السطوح الصقيلة ، وهو يفترض أن للضوء « حركة فى غاية القوة » ، وأن الصقيل « يمانعه ممانعة فى الغاية » ، فيكون الانعكاس من أجل

هذه الحركة ومن أجل هذه الممانعة ، ويكون رجوعه بقوة تعادل قوته قبل اصطدامه بالصقيل .

ولكى يستنبط ابن الهيثم اتجاه الحركة المنعكسة ، يعتبر الحركة الساقطة (أو الاعتماد كما يطلق عليه) مركبة من حركتين ، احداهما عمودية على السطح الصقيل ، والأخرى موازية له ، أما الحـركة العمودية فتبطل عند التصادم بسبب ممانعة الجسم الصقيل لاعتماد الضوء فى هذه الحركة ، ويتولد منها ومن ممانعة الجسم لها حركة عمودية مساوية فى الاتجاه المضاد .

أما الحركة الموازية فتبقى على حالها بعد التصادم لعدم وجود ما يمنعها ، ومن ذلك يستنتج ابن الهيثم أن انعكاس الضوء يكون بزاوية مساوية لزاوية السقوط ، فالطريقة التى اتبعها هى طريقة تحليل الحركة ـ باعتبارها كمية موجهة ـ الى مركبتين ، أو كما يقول « قسطين » متعامدين ، ثم تركيبها من قسطين : أحدهما هو القسط الموازى الأول ، والآخر يساوى القسط العمودى الأول فى المقدار ويضاده فى الاتجاه .

أما ديكارت فقد عرض قانون انكســار الضوء فى كتابه « فى الانكسار » على أنه نتيجة مستنبطة من بعض الفروض ، لا على أنه نتيجة وصل اليها بالاستقراء التجريبى ، والطريقة التى اتبعها فى الاستنباط هى عين طريقة ابن الهيثم المبتكرة فى التحليل والتركيب .

ابن الهيثم يفترض انعكاس المركبة العمودية ، ويستنتج من ذلك مساواة سرعة الضوء بعد الانعكاس لسرعته قبله ، فى حين أن ديكارت على الضد من ذلك يفترض هذه المساواة افتراضا ويجعل انعكاس المركبة العمودية نتيجة لا فرضا ، وليس لهذا الخلاف أهمية من الوجهة الرياضية سوى أن ديكارت أراد أن يوهم عصره بأنه قـد أحدث ثورة فى علم الضوء وأتى بجديد ، رغم أن فروضه قد قابلتها

اعتراضـــات نبه اليها الرياضى الفرنسى « فرما » وهو المعـــاصر لديكارت

***

منطق ابن الهيثم تجريبى اذ أنه يستند الى تجارب مضنية أجراها بنفسه بأجهزة صنعها بنفسه ، والتجربة يسميها الاعتبار ، وهو يمهد الى نظريته فى الانعكاس باعتبارات منها اثنان أساسيان، يعتبر فى أولهما بما يسميه « الحركة الطبيعية » للجسم ، أى حركته اذا ترك وشأنه تحت تأثير جاذبية الأرض ، ويعتبر فى الآخر بمـا يسميه « الحركة العرضية » أى التى تعرض على الجسم بفعل فاعل .

والاعتبار الأول يتلخص فى أن يسقط المعتبر كرة صغيرة ملساء من الحديد أو النحاس ، أو ما يجرى مجراهما من موضع مرتفع على مرآة مستوية أفقية من الحديد ، ثم يتأمل الكرة عند لقائها وتصادمها مع المرآة ، واختار للكرة وزنا أكثر من مثقال ، واختار للارتفاع ما يزيد عن عشرين ذراعا .

وبين أن الكرة بعد تصادمها ترجع الى جهة العلو ثم تهبط الى جهة السفل ، وأنها ان ألقيت من مسافة أقرب كان رجوعها أقل ، وأنها ان ألقيت من مسافة أكبر كان انعكاسها عن المرآة أقوى والى مسافة أبعد .

والاعتبار الثانى يتلخص فى أن تجعل المرآة المذكورة فى الاعتبار الأول فى جدار قائم على سطح الأرض بحيث يكون سطحها رأسيا ، ثم تقذف الكرة نحو المرآة بقوة ، ويقترح ابن الهيثم أن تجعل الكرة فى رأس سهم قوس من التى تقذف الحصى ، وتقذف بقوة بحيث تكون حركتها أولا على استقامة العمود القائم على سطح المرآة ، وثانيا على استقامة خط مائل على سطح المرآة ، ومواز للأفق .

ويتأمل المعتبر الكرة فى الحالتين .

وابن الهيثم فى بيان ما يشاهد فى الحالة الأولى يقول بلفظه .

فانه (اى المعتبر) يجدها ترجع على العمود نفسه القائم على سطح المرآة ، ويكون ذلك بأن يدرك الكرة عند رجوعها موازية للأفق ثم لا تلبث الكرة بعد هذا الرجوع حتى تهبط الى أسفل .

ويقول فى بيان ما يشاهد فى الحالة الثانية :

« فانه يجدها ترجع فى الجهة المقابلة للجهة التى فيها الرامى ، ويجدها فى أول رجوعها متحركة على خط مواز للأفق ، ومائل على سطح المرآة ميلا شبيها بميل السهم عند تفويقه الى المرآة بالقياس الى الحس ، ثم لا تلبث الكرة حتى تهبط الى جهة السفل ، للقوة الطبيعية المحركة لها الى أسفل ، وكلما كانت حركة القاذف اقوى فانه يوجد رجوع هذه الكرة أقوى . وان اعتبر هذا المعنى بجسم غير المرآة ، ويكون فيه بعض اللين كالخشب أو ما يجرى مجراه وجد رجوع الكرة بقوة دون القوة الأولى » .

ثم يتساءل ابن الهيثم :

« لم يرجع المتحرك عند الممانعة ؟ لأنه يكتسب من الممانعة حركة فى جهة الرجوع ، والذى يدل على أن حركة الرجوع انما تحدث من الممانعة ، هو أن هذه الحركة تكون بحسب الممانعة ، وكلما كانت الممانعة اقوى كان الرجوع أقوى ، وقوة الممانعة تكون بحسب قوة الحركة الأولى ، وبحسب امتناع الجسم المانع من الانفعال » .

فقوة المانع او امتناعه من الانفعال بحسب مدلول هذه العبارة تقدر فى نظر ابن الهيثم بنسبة قوة حركة الرجوع الى قوة الحركة فى الأول ، وهذا المعنى شبيه بالمعنى المتضمن فعلا فى تعريف معامل الارتداد فى عـــلم الديناميكا ، وكأن ابن الهيثم يعبر عن المعنى المقصود بمعامل الارتداد بقوله : « قوة الممانعة » .

هكذا كان ابن الهيثم يرى الضوء ، كرات من الحـــديد مثلا تساقط عمودية أو تساقط منحرفة فوق السطوح المقابلة ، فهو

مثال للعالم الذى يقدم النماذج الكاملة الديناميكية ، والتى تحقق شروحه واستنباطاته الذهنية : حس وحدس .

ثم يأتى بجديد بعد ذلك اذ يحلل حركة الضوء الى مركبتين احداهما عمودية على سطح المانع ، والأخرى موازية للسطح ، ويريد الدكتور كرومبى أن يسلبه حق هذا الابتكار فيقول عن هذه الفكرة انها مستوحاة من أبولونيوس .

صحيح أن أبولونيوس استخدم التحليل الى مركبتين للوصول الى حجوم ومساحات القطوع المخروطية ، وصحيح أن ويجن رستم القوهى العالم العراقى الذى سبق ابن الهيثم بحوالى قرن من الزمان استخدم الأحداثيات الأفقية والرأسية ثم المدورات فى اثبات حجم المجسم المكافىء ، ولكن ابن الهيثم ومذهبه الأساسى التحليل والتركيب استخدم الفكرة فى تحليل وتركيب كمية الحركة الموجهة لأشعة الضوء فى اتجاهين عموديين فكان جديدا فى ابتكاره ، وكما يقول بلفظه :

« فالضوء اذا لقى جسما صقيلا فهو ينعكس عنه من أجل أنه متحرك ، ومن أجل أن الجسم الصقيل يمانعه ، ويكون رجوعه فى غاية القوة ، لأن حركته فى غاية القوة ، ولأن الجسم الصقيل يمانعه ممانعة فى الغاية » .

ثم يستطرد :

« واعتماد المتحرك على الجسم المانع انما يكون مركبا من الحركة الى الجهة التى يمتد منها العمود القائم على سطح الجسم المانع النافذ فى نفس الجسم المانع ، ومن الحركة الى الجهة التى يمتد اليها العمود القائم على هذا العمود الممتد فى السطح الذى فيه الحركة » .

والمركبة الأولى تبطل من جراء الممانعة ، وتستبدل بها حركة على العمود نفسه ، ولكن فى الاتجاه المضاد ، أما المركبة الثانية

فلا ممانعة تؤثر فيها ، فلا هى تبطل ولا هى تزيد أو تنقص ؛ بل لا يصيبها تغير قط ، وانما تبقى على حالها الأول .

وعلى ذلك تصبح حركة المتحرك بعد التصادم مركبة من قسطين احدهما فى اتجاه العمود على سطح المانع الى الخارج ، والآخر المركبة الثانية الناتجة من حركة المتحرك قبل التصادم مع السطح ، وهى الباقية على حالها الأول .

وبتركيب هذين القسطين او بمعنى آخر ايجاد محصلتيهما : يتضح تساوى السرعتين قبل وبعد التصادم ، ويمثل ابن الهيثم لخاصة الصقال فى السطح العاكس للضوء بخاصة الصلابة فى الجسم المانع فى المثال الميكانيكى السابق ذكره ، وان كان انعكاس الضوء سببه صقال السطح ، فلا ارتباط البتة بين الصقال والصلابة ، كما يقول هو بنفسه :ــ

« لأن الأضواء تنعكس عن الأجسام الصقيلة ، وان لم تكن الأجسام الصقيلة صلابا كالماء وجميع الرطوبات التى سطوحها صقيلة » .

وتتضح لنا معالم شخصية ابن الهيثم العلمية من النص التالى:ــ

« واذا كان الاعتماد مركبا من هاتين الحركتين ، كانت الحركة التى تحدث من هذه الممانعة مركبة من الحركة على العمود القائم على سطح الجسم المانع فى الجهة الخارجة من الجسم المانع ، ومن الحركة نفسها التى كانت فى جهة العمود القائم على هذا العمود فى الجهة التى اليها الحركة ، وذلك لأن الاعتماد اذا كان مركبا من الحركتين المذكورتين ، كان القسط من هذا الاعتماد ، الذى هو من الحركة على العمود النافذ فى الجسم المانع ، يبطل من أجل ان الجسم المانع هو من هذه الجهة ، ومانع للمتحرك من هذه الجهة » .

« ويتولد من هذا القسط من الاعتماد ومن ممانعة الجسم المانع، لهذا القسط من الاعتماد ، حركة على العمود نفسه الذى عليه كان

(هذا القسط) من الاعتماد ، وفى الجهة من هذا العمود المقابلة لجهة الاعتماد ، ويكون القسط الثانى من الاعتماد الذى هو من الحركة على العمود القائم على هذا العمود باقيا على حاله لم يبطل ولم يتولد منه حركة مضادة ، لأن جهة هذا العمود ليس فيها مانع » .

واذا كان هذا القسط باقيا ، ويتولد من القسط الأول حركة على العمود القائم على سطح الجسم المانع فى الجهة الخارجة من الجسم المانع ، كانت الحركة الحادثة مركبة من الحركة على العمود القائم على سطح الجسم المانع ، ومن الحركة على العمود القائم على هذا العمود الممتد فى الجهة التى اليها الحركة .

واذا كان ذلك كذلك ، كان الخط الذى عليه حركة الانعكاس ، فيما بين العمود القائم على سطح الجسم المانع وبين العمود القائم عليه ، اللذين من الحركتين عليهما تولدت حركة الانعكاس ، ويكون بعد هذا الخط المائل من العمود الثانى كبعد الخط الذى عليه كانت تكون الحركة من هذا العمود لو نفذ المتحرك على استقامته ، لأن قسط هذا العمود من الحركة لم يبطل ولم ينقص ولم يزد ، ويكون هذا الخط فى السطح الذى فيه العمود ، لأن الحركتين اللتين منهما تولدت هذه الحركة هما فى هذا السطح .

والحركة الأولى أيضا هى فى هذا السطح وهذا السطح قائم على السطح المستوى المماس للسطح الصقيل على نقطة الالتقاء ، لأن السطح المستوى المماس هو الذى يمتد فيه العمود الثانى .

واذا كان بعد هذا الخط عن العمود الثانى كبعد الخط المتصل بالخط الذى عليه ، كانت الحركة الأولى عن العمود الثانى ، كان ميل هذا الخط عن العمود الأول القائم على سطح الجسم المانع مساويا لميل الخط الذى عليه كانت الحركة الأولى عن هذا العمود .

ومعنى استقرائه هـذا أن زاوية السقوط للشعاع الساقط تساوى زاوية الانعكاس ، وهما الزاويتان المنحصرتان بين الشعاع

الساقط والعمود المقام من نقطة السقوط على سطح الصقيل ، وبين الشعاع المنعكس عند هذه النقطة ونفس العمود ، وبالقياس لحركة ارتداد الكرة فى المثال الميكانيكى ، حيث وجد أن خط حركة الكرة أولا وخط حركتها ثانيا والعمود القائم من نقطة اللقاء جميعها تقع فى مستوى واحد ، يستنبط ابن الهيثم القانون الثانى للانعكاس فيقول ان الشعاع الساقط والعمود المقام من نقطة السطح الذى يقع عليه الضوء والشعاع المنعكس من هذه النقطة جميعها تقع فى مستوى واحد .

وان كانت كيفية الانعكاس واحدة فثمة فرق يذكره ابن الهيثم بين حركة الضوء وحركة الكرة ، فالضوء يتحرك حركة فى غاية السرعة ، ولا تؤثر فيه قوة تحركه الى اسفل ، كالقوة المحركة الى أسفل بعد رجوعها عن المرآة فى الاعتبار الميكانيكى ، ويقول فى ذلك .

« فأما الضوء فليس فيه قوة تحركه الى جهة مخصوصة ، بل انما خاصته أن يتحرك على الاستقامة فى جميع الجهات التى يجد السبيل اليها ، اذا كانت تلك الجهات ممتدة فى جسم مشف ، فاذا انعكس الضوء بما حصل فيه من القوة المكتسبة ، وصار على سمت الاستقامة التى أوجبها الانعكاس ، امتد على ذلك السمت ، وليس فيه قوة تحركه الى غير ذلك السمت ، لأن ليس من خاصته أن يطلب جهة مخصوصة ، ولذلك لا يحيد عن سمت هذه الاستقامة من بعد الانعكاس » .

والنص الذى يورده ابن الهيثم فى صدد اثبات قانونى الانعكاس هو ما يلى ، ونحن نردده هنا ليتبين لنا شموله ووضوحه بحيث أصبح حكما ثابتا لا يتغير أبدا ، وهو ما يدرس حتى اليوم فى المدارس الثانوية ، وان كان أوقليدس قد سبقه فى اثبات تساوى زاويتى السقوط والانعكاس ، أو بطليموس فى اثبات القانون الثانى فان مفهوم الضوء كان لديهما غير مفهوم الضوء عند ابن الهيثم والمفهوم الأخير هو المعمول به حتى اليوم .

وهنا هو نص ابن الهيثم :

« ان كل ضوء ينعكس عن سطح صقيل ، فان كل نقطة من السطح الصقيل الذى منه انعكس الضوء ، ينعكس الضوء منها على خط مستقيم يكون هو والخط المستقيم الذى عليه امتد الضوء الى تلك النقطة ، والعمود الخارج من تلك النقطة القائم على السطح المستوى المماس للسطح الصقيل على تلك النقطة ، فى سطح واحد مستو .

ويكون وضع الخط الذى عليه ينعكس الضوء بالقياس الى العمود المذكور كوضع الخط الذى عليه امتد الضوء الى نقطة الانعكاس ، بالقياس الى ذلك العمود ، أعنى أن كل خط ينعكس عليه ضوء من سطح صقيل ، فانه يحيط مع العمود الذى يخرج من تلك النقطة قائما على السطح المستوى المماس للسطح الصقيل على تلك النقطة ، بزاوية مساوية للزاوية التى يحيط بها الخط الأول الذى عليه امتد الضوء الى تلك النقطة مع ذلك العمود » .

تلك هى خلاصة التعاصر بين ابن الهيثم وديكارت فى موضوع انعكاس الضوء ، ترى ما هو موقف ديكارت من موضوع الانكسار ؟

ذلك ما سوف نوضحه فيما بعد .

* * *

عرض ديكارت قانون انكسار الضوء فى كتابه الموسوم « فى الانكسار » على أنه نتيجة مستنبطة من بعض الفروض ، لا على أنه نتيجة وصل اليها بالاستقراء التجريبى ، والطريقة التى اتبعها فى الاستنباط هى عين طريقة ابن الهيثم فى التحليل والتركيب .

وديكارت ، مثل ابن الهيثم ، يطبق هذه الطريقة فى حالتى الانعكاس والانكسار ، وهو فى الحالة الثانية يضع فرضين :

الفرض الأول هو أن المركبة الموازية للسطح الفاصل بين المشفين تبقى على حالها (أى لا تزيد ولا تنقص) بعد الانكسار ، وهو فى ذلك قد خالف ابن الهيثم الذى قال عن هذه المركبة أن مقدارها يزيد اذا كان المشف الثانى ألطف ، أو ينقص هذا المقدار ان كان المشف الثانى أغلظ .

والفرض الثانى الذى يضعه ديكارت هو أن هناك نسبة ثابتة بين سرعة الضوء فى المشف الذى فيه الشعاع المنكسر وسرعته فى المشف الذى فيه الشعاع الساقط .

هذا الفرض(١) الأخير ينطوى على الفكرة القائلة بأن سرعة الضوء خاصة للوسط الذى يكون فيه ، وهى فكرة عبر عنها ديكارت فى كتاباته الخاصة التى دونها بين عامى ١٦١٩ — ١٦٢١ أى قبل ظهور كتابه فى البصريات بنحو ستة عشر عاما ، وقد قال بعض الباحثين فى بصريات ديكارت أن الوقوع على هذه الفكرة يعتبر ومضة من ومضات العبقرية ، غافلين أن ابن الهيثم هو الذى أخرجها وهى علامة من علامات عبقريته ، واليكم النص من مخطوط المناظر لابن الهيثم :

« والأضواء تمتد فى الأجسام المشفة بحركة سريعة تخفى عن الحس لسرعتها ، ومع ذلك فان حركتها فى الأجسام اللطيفة أعنى الشديدة الشفيف أسرع من حركتها فى الأجسام الغليظة أعنى الأضعف شفيفا ، وذلك أن كل جسم مشف اذا نفذ فيه الضوء ، فان الجسم المشف يمانع الضوء ممانعة بحسب ما فيه من الغلظ ، لأن كل جسم طبيعى فلابد أن يكون فيه غلظ ما » .

وواضح من هذا النص أن سرعة الضوء تكون بحسب الممانعة التى يصادفها فى الوسط المشف الذى يسير فيه ، وهذه الممانعة تكون

---

(١) دكتور عبد الحميد صبره .

بحسب ما فى المشف من غلظ ، أى بحسب خاصة قائمة فى المشف نفسه .

ويرى ابن الهيثم أن الأجسام المشفة فى الطبيعة ليس شفيفها فى الغاية ، وأن فيها شيئا من الغلظ ، والغلظ والشفيف فى نظره من الأضداد ، فان كان هو المعنى الذى يجعل الأجسام تؤدى الأضواء فيها ، فالغلظ هو المعنى الذى يجعل الأضواء تعتاق عن الامتداد فيها ، ثم هو يرى أن سرعة الضوء عند وقوعه على سطح المشف الثانى تتحلل الى مركبتين ، احداهما فى اتجاه العمود على السطح ، والأخرى فى اتجاه المماس للسطح على نقطة السقوط .

وأقواله تفيد أنه يرى أيضا أن المركبة الثانية لا تحتفظ بقيمتها الأولى اذا نفذ الضوء فى المشف الثانى ، فان كان المشف الثانى أغلظ فانها تصير أصغر ، فلا تبقى محصلة المركبتين فى المشف الثانى على استقامة حركة الضوء فى المشف الأول بل يكون اتجاهها منعطفا الى جهة العمود ، وتكون سرعة الضوء فى المشف الثانى أصغر من سرعته فى الأول .

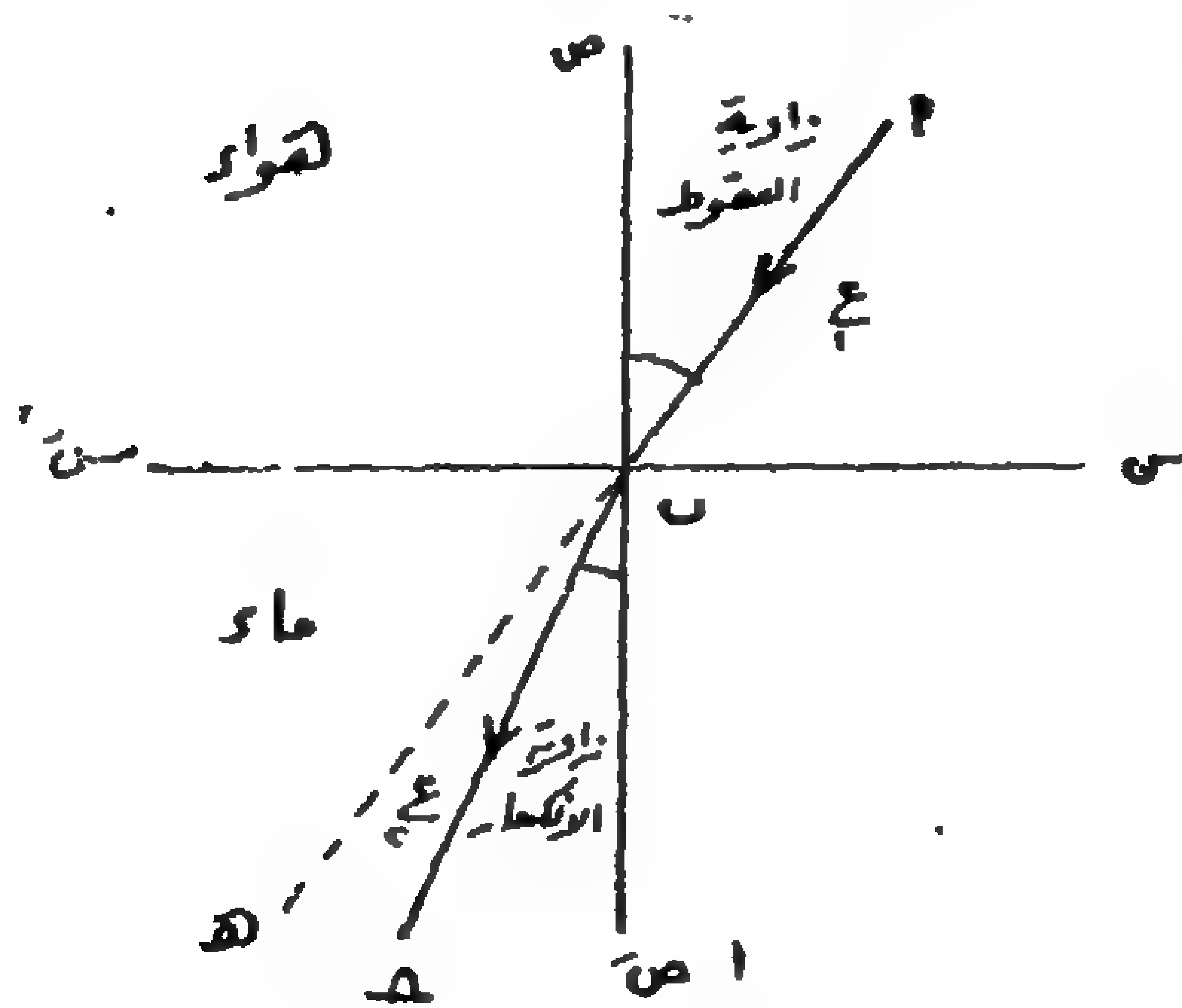
وبالمثل اذا نفذ الضوء من الأغلظ فى الألطف ، فان مركبة السرعة فى اتجاه المماس تصير فى الألطف أكبر ، وينعطف الضوء عند خروجه الى الألطف الى خلاف جهة العمود ، واستند ابن الهيثم فى تأييد رأيه بأمثلة ميكانيكية .

مثل الانعطاف من الألطف فى الأغلظ بكرة صغيرة من الحديد ، فهى اذا وقعت على لوح رقيق ، وكان اتجاه حركتها فى اتجاه العمود على اللوح ، فان نفوذها فى اللوح أسهل مما لو كان اتجاه حركتها مائلا على العمود ، حين تكون قوة الحركة واحدة فى الحالتين ، ومثل أيضا بالسيف ، فهو اذا ضرب به عود وكان حد السيف قائما على سطح العود قطعه فى أكثر الأحوال ، وان ميل السيف وضرب به العود لم يقطع العود بالسهولة نفسها .

ويقول ابن الهيثم بلفظه :

« واذا امتد الضوء فى جسم مشف ثم لقى جسما آخر مشفا مخالفا الشفيف للجسم الذى هو فيه وأغلظ منه ، وكان مائلا على سطح الجسم المشف الذى لقيه انعطف الى جهة العمود القائم على سطح الجسم المشف فى الجسم الأغلظ » .

ويمكن تفسير ذلك بالرسم التالى :



فلو سقط شعاع ا ب سرعته ع١ .

فى الهواء على سطح الماء ، انعطف من ب الى ب حـ بسرعة ع٢ لأن سرعة الضوء فى الماء تقل بحسب المانعة ، والانعطاف الى جهة العمود ب ص لذلك تقل زاوية الانكسار .

والزاوية ا ب ص هى زاوية السقوط .

الزاوية حـ ب صَ هى زاوية الانكسار .

الزاوية حـ ب هـ هى زاوية الانعطاف أو زاوية العطف كما يسميها كمال الدين الفارسى ولو فرض خروج شعاع حـ ب من الماء

الى الهواء فانه تنعطف الى غير جهة العمود ب ص لأن سرعة الضوء فى الهواء أكبر من سرعته فى الماء .

وهذه هى قاعدة العكس ، ويدلنا قول ابن الهيثم :

« فاذا خرج الضوء من الجسم الأغلظ الى الجسم الألطف كانت حركته أسرع » .

على أنه يتفق الى حد كبير والرأى الذى رآه « فرما » الفرنسى، وبنى عليه قاعدته التى تعرف بقاعدة أقصر الأوقات ، والتى تتلخص فى أن الضوء عند نفوذه من نقطة فى جسم مشف الى نقطة أخرى فى جسم مشف آخر ملامس للأول ، يختلف شفيفه عن شفيف الأول يسلك السبيل الذى يستغرق فيه الوصول من النقطة الأولى الى الثانية أقصر الأوقات ، فهو يسلك السبيل الذى تكون عليه الحركة بحسب تعبير ابن الهيثم « أسرع وأسهل » .

أما أقواله من ناحية الكيفية التى يحصل بها الانعطاف ، وتضمنت فكرة تحليل السرعة الى مركبتين ، واعتبار المركبة التى فى اتجاه المماس هى المتغيرة ، فتناظرها فى كل ذلك نظرية « نيوتن » الانجليزى ، ففيها أيضا تحلل سرعة الضوء الى مركبتين ، احداهما عمودية على السطح والأخرى فى اتجاه المماس .

مع الفارق فى أن نيوتن يعتبر المركبة العمودية على السطح هى المتغيرة ، وانها عند نفوذ الضوء فى الجسم الأغلظ تزداد من جراء القوة التى تؤثر فى الدقائق الضوئية بحسب نظريته عند اقترابها من السطح ، وتجذبها فى اتجاه العمود الى داخل الجسم الأغلظ ، وأنها فى الجسم الألطف تقل من جراء القوة التى تؤثر فى الدقائق الضوئية عند اقترابها من سطح الألطف وتدفعها قليلا فى اتجاه العمود الى خارج الجسم الألطف .

ومع الفارق أيضا فى أن نظرية نيوتن تتطلب أن تكون سرعة

الضوء فى الأغلظ أعظم وفى الألطف أصغر ، وهو ما ينفيه الواقع ، فى حين أن الأمر بحسب أقوال ابن الهيثم بعكس ذلك .

* * *

لقد قدم ديكارت فى الانكسار ، وهى احدى المقالات الثلاثة الملحقة بكتابه بحث فى المنهج ، استنتاجا نظريا لقانون جيب زاوية الانكسار للشعاع الضوئى ، والذى كان الرياضى الهولندى « ويليبرورد سنليوس » (١٥٩١ — ١٦٢٦) قد اكتشفه تجربيا ، وهو القانون المعمول به حتى وقتنا هذا ، وينص على أن معامل الانكسار من مادة الى مادة مثل الهواء — ماء ثابت ويساوى جيب زاوية السقوط على جيب زاوية الانكسار دائما أبدا ، أى أن :

$$\frac{\text{حا س}}{\text{حا ك}} = \text{م} \quad \text{حيث م مقدار ثابت هو معامل الانكسار}$$

ديكارت كان على علم بهذا القانون عندما استقر فى هولندا زمنا ، وجاء بقانون يتضمن العلاقة بين جيبى زاويتى السقوط والانكسار وسرعة الضوء فى الشفيفين كالآتى :

$$\frac{\text{حا س}}{\text{حا ك}} = \frac{\text{ع ك}}{\text{ع س}} = \text{م}$$

حيث س زاوية السقوط ، ك زاوية الانكسار ، ع س = سرعة الشعاع الساقط ، ع ك = سرعة الشعاع المنكسر ، م = مقدارا ثابتا.

والقانون فى هذه الصورة يلزم عنه أن تكون سرعة الضوء فى المشف الأغلظ أكبر من سرعته فى المشف الألطف ، وهذا عكس الرأى الذى ذهب اليه ابن الهيثم ، وهو بعيد عن الصواب .

والغريب فى نظرية ديكارت أن هذه الاعتبارات التى استخدم فيها طريقة ابن الهيثم فى التحليل والتركيب لا تتفق بحال من الأحوال

مع نظرته العامة فى طبيعة الضوء وطريقة انتقاله ، لقد جاء ديكارت بثورة فى علم الطبيعة كان يرمى من ورائها الى احالة العلم الطبيعى بأسره علما هندسيا كما سبق أن قلنا ذلك فى بدء هذا الفصل .

علما هندسيا لا أثر فيه للصور الجوهرية أو الكيوف الخفية التى قام بها الفلاسفة المدرسيون فى العصر الوسيط والذين سيقوه أمثال روبرت جروسست (١١٧٥ ـ ١٢٥٣) أول محافظ لجامعة اكسفورد الذى ألف فى البصريات وقال بالتأثير عن بعد ، أو روجر باكون (١٢١٠ ـ ١٢٩٣ م) أو ڤيتلو أو كپلر وغيرهم .

ولكن الكيفيات الخفية التى عارضها ديكارت لم تكن قاصرة على الفلاسفة وحدهم ، فالجاذبية التى قال بها نيوتن مثلا من بعد ، تعتبر من وجهة النظر الديكارتية كيفية خفية ، شأنها شأن الجذب أو التنافر المغناطيسى ، فلا ينبغى أن يسمح باستخدامها فى العلم الطبيعى ، لذلك لم يكن القول بالجاذبية مقبولا للعلماء المتأثرين بفلسفة ديكارت مثل هيجنز وليبنتز .

واذن فقد أراد ديكارت أن يقصى من مفهوم المادة كل صفة لا يمكن ردها الى الصفات الهندسية أو الميكانيكية البينة كالشكل والمقدار والحركة ، ولا يمكن من وجهة النظر هذه أن يؤثر جسم فى آخر الا عن طريق التصادم بينهما .

ديكارت يقول بآنية الضوء ، وهو مدفوع الى ذلك القول برغبته فى تفسير الطبيعة تفسيرا هندسيا ، ولكن هذا التطرف فى التأويل الهندسى منعه من تطبيق الهندسة على الظواهر الضوئية تطبيقـــا معقولا خاليا من التناقص ، فكيف نفهم مثلا تطبيق طريقة التحليل والتركيب فى الانكسار ان كان انتقال الضوء لا يستغرق زمانا ؟

وكيف نؤول القانون الذى تؤدى اليه فروضه اذا لم ننسب الى الضوء سرعات محدودة مختلفة فى الأوساط المختلفة ؟

تلك صعوبات نبه اليها المعاصرون لديكارت ، وكان لابد للتغلب عليها من الرجوع الى وجهة نظر ابن الهيثم التى تقول بأن للضوء سرعة محددة وان كانت لقوتها تخفى عن الحس ، وهذا ما فعله « هيجنز » و « فرما » قبل أن يتوصل « رومر » الى تقدير سرعة الضوء من المشاهدات الفلكية عن أقمار المشترى .

وثم صعوبة أخرى اصطدمت بها النظرية الديكارتية ، وهى لا تقل خطرا عن الصعوبات السابقة ، ان قانون ديكارت فى الانكسار يقتضى أن تزيد سرعة الضوء فى الوسط الأغلظ ، فكيف نفسر ازدياد السرعة ميكانيكيا دون الخروج عن حدود علم الطبيعة كما تصوره ، أى دون التسليم بفكرة القوة ، تلك الأسطورة التى ترسبت من العصر القوطى فى أساطيرهم ودخلت فى مفاهيم علم الديناميكا ؟

حاول ديكارت الخروج من ذلك المأزق بقوله ان المشف الأغلظ يقاوم حركة الضوء بأكثر مما يقاومها الألطف ، وهو يفهم هذه المقاومة بحيث تتناسب طرديا ، لا عكسيا مع السرعة ، وهذه الفكرة أصولها أيضا فى فلسفة ابن الهيثم عن الضوء ، ولكنها كانت بعيدة عن الوضوح والاقناع .

* * *

حين نشر (١) ديكارت نظريته واطلع عليها الرياضى الفرنسى « فرما » رفض الأخير برهانه ، قائلا انه برهان مغالطى لا يصح من الوجهة الرياضية ، فضلا عن الصعوبات التى تواجهه من الناحية الفيزيقية .

وظل « فرما » ثابتا على ذلك الرأى رغم الرسائل الكثيرة التى تبادلها مع ديكارت ، فى هذا الموضوع ، فلم يسلم بقانون ديكارت ، وفيما بعد قيل لفرما ان التجربة تؤيد قانون ديكارت ، فكان جوابه

(١) دكتور عبد الحميد صبره « نظريات الضوء فى القرن السابع عشر » .

على ذلك أن تأييد التجربة ليس بالضرورة دليلا على صدق القانون ولا صحة الاستنتاج .

ثم أخذ على عاتقه أن يبحث عن طريقة جديدة لعلها تؤدى الى قانون جديد ، والطريقة التى سلكها « فرما » كان قد صاغها للعثور على مماســـات المنحنيات المخروطية ، وتعرف بطريقة الحدين الأعلى والأدنى .

افترض « فرما » أن الضوء فى انتقاله من نقطة الى أخرى يتخذ الطريق الذى يستغرقه فى الزمان الأقصر ، وهذا الفرض تجد ملامحه مختفية بين ثنايا تعبيرات ابن الهيثم كما سبق أن قلنا ذلك ، ولكن رغم ذلك فان الأوروبيين من مؤرخى العلم يطلقون عليه اسم قاعدة أو مبدأ « فرما » الذى يتفق مع انتشار الضـــوء فى الأوساط المتجانسة على السموت المستقيمة ، من حيث أن الخط المستقيم هو أقصر المسافات بين نقطتين .

أما اذا كانت نقطة البدء فى وسط غير الوسط الذى توجد فيه نقطة الوصول ، فان الضوء ينكسر على نقطة فى السطح الفاصـــل بحيث يقطع فى الوسط الشفيف الذى تكون فيه سرعته أكبر مسافة تزيد على المسافة التى يقطعها فى الوسط الذى تكون فيه سرعته أقل ، وكانت دهشة « فرما » عظيمة حين وجد أن مبدأه يؤدى الى نفس النسبة التى وصفها « ديكارت » أعنى نسبة جيب زاوية السقوط الى جيب زاوية الانكسار ، ولكنه تأدى فى الوقت نفسه الى أن العلاقة بين هذه النسبة والنسبة بين السرعتين هى على عكس ما يريد « ديكارت » .

أى أن مبدأ « فرما » يلزم عنه أن تكون السرعة أكبر فى الوسط الألطف ، وكأنى به وقد رجع ثانية الى رأى ابن الهيثم .

تلك هى ــ فى تاريخ العصريات ــ المرة الأولى التى يبرهن فيها رياضيا على هذه النتيجة التى افترضها ابن الهيثم ، ولكنه كان

برهانا استلهم فيه صاحبه القول بالعلل الغائية ، ولم يحاول أن يفسره تفسيرا يرضى العالم الطبيعى ، أما أول تفسير طبيعى يتفق مع نتيجة « فرما » فقد جاء به للمرة الأولى العـــالم الهولندى « كريستيان هيجنز » .

* * *

بدأ « هيجنز » هو الآخر من نظرية « ديكارت » ، ولكنه وجه عنايته الى ناحيتها الميكانيكية بدلا من الناحية الرياضية التى سلم بها « نيوتن » وعارضها « فرما » وكان هيجنز يتفق مع ديكارت فيما يجب أن يكون عليه التفسير الفيزيقى المعقول ، فرفض فكرة القوة المؤثرة عن بعد ، واعتبر أن الظاهرة الأساسية التى ينبغى أن تنبنى عليها كل الظواهر الطبيعية من ضوئية ومغنطيسية .. الخ هى ظاهرة التصادم .

لذلك افترض هيجنز مادة أثيرية تملأ المكان وتتغلغل فى ثنايا الأجسام كالمادة اللطيفة التى تصورها ديكارت ، وقال ان الضـــوء ينشأ عن اهتزازات أجزاء الجسم المضىء فتحمل المادة الأثيرية آثار هذه الاهتزازات الى مسافات لا حد لها ، وذلك كما نرى حين تصطدم كرة متحركة بالكرة الأولى فى سلسلة من الكرات المتلاصقة فى خط مستقيم .

فينتقل أثر الصدمة الى الكرة الأخيرة فتتحرك ، وكان لابد لهيجنز ، كى يحصل على صورة ميكانيكية واضحة ، أن يتخلى عن قول « ديكارت » بآنية الضوء ، فافترض الأثير حاصلا على صفة المرونة ، وعلى ذلك يكون انتقال الضوء فى الأثير على هيئة كرات متعاقبة أو أمواج كالتى نشاهدها على سطح الماء ، وتكون الأشعة الضوئية هى الخطوط المستقيمة الواصلة من المركز الى المحيط .

مرة أخرى نجد بصمات الحسن بن الهيثم واضحة فى هـــذه الفروض ، والنص الذى أورده ابن الهيثم فى مخطوط المناظر هو :

« فقد تبين من جميع ما شرحناه وبيناه بالاستقراء والاعتبار ؛ أن اشراق جميع الأضواء انما هو على سموت خطوط مستقيمة فقط ، وأن كل نقطة من كل جسم مضىء ذاتيا كان الضـــوء الذى فيـه أو عرضيا ، فان الضوء الذى فيه يشرق منه ضوء على كل خط مستقيم يصح أن يتوهم ممتدا منها فى الجسم المشف المتصل بها .

فيلزم من ذلك أن يكون الضوء يشرق من كل نقطـة من كل جسم مضىء فى الجسم المشف المتصل به اشراقا **كريا** ، أعنى عن كل خط مستقيم يصح أن يمتد من تلك النقطة فى الجسم المشف ، ويلزم أن يكون الجسم المشف هواء كان أو غيره اذا أضاء بضوء ما ، أى ضوء كان ، فان الضوء الذى فيه هو ضوء يشرق عليه من كل نقطة من الضوء الذى منه أضاء ذلك الجسم المشف ، على سمت مستقيم يمتد من تلك النقطة فى ذلك الجسم المشف » .

معنى الاشراق الكرى هنا فى الواقع ليس سطحيا كما يظن بادىء ذى بدء ، فابن الهيثم يريد القول بأن النقطة من سطح الجسم المضىء سواء كان ضوءه ذاتيا أو عرضيا مستمدا من غيره لا يشرق منها الضوء الى جهة خارج الجسم فحسب ، بل يشرق منها ضوء الى جهة باطن الجسم أيضا بقدر ما يسمح به امتداد الوسط المشف من وراء النقطة المضيئة الى تلك الجهة .

فمن المعلوم أنه اذا وقعت موجة « ضوئية » على سطح جسم فالنقطة التى يلمس عليها صدر الموجة سطح الجسم تعد مركزا تبتدى منه مويجة ضوئية لا تنتشر خارج الجسم فحسب ، بل تنتشر أيضا داخل جرمه لو كان بالجسم شفيف يسمح بذلك .

وها هو « هيجنز » يفسر ظاهرة انكسار الضوء على هذا المنهج ، فهو ينظر فيما يحدث حين يصطدم صدر الموجة المنتشرة فى وسط متجانس بسطح يفصله عن وسط يخالفه فى الشفيف . وليكن صدر الموجة الساقطة مائلا على السطح الفاصل ، أى أنه لا يصطدم

بالسطح الفاصل دفعة واحدة ، وهنا يفترض هينجنز أن كل نقطة على الصدر ، يمكن اعتبارها مركزا لموجة أخرى صغيرة ، أو بمعنى آخر مويجة أخرى تنتشر فى كل اتجاه بالسرعة التى تلائم الوسط ٠

فالجزء من المصدر الذى يصطدم بالسطح الفاصل أولا تنشأ عنه موجة تنتشر فى المشف الثانى بالسرعة الملائمة بهذا المشف ، فى حين أن بقية أجزاء الصدر لا تزال متقـــدمة فى المشف الأول بالسرعة الملائمة له ، وعلى هذا النحو استطاع « هيجنز » باستدلال هندسى جميل أن يستنتج قانون انكسار الضوء بعد أن حدد اتجاه صدر الموجة فى المشف الثانى ٠

والصيغة التى وضع فيها القانون هى عين الصيغة التى اكتشفها « فرما » وفى نفس الكتاب الذى نشر فيه « هيجنز » نظريتـــه عام ١٦٩٠ م يبرهن على أن مبدأ أقصر الأزمنة التى قال به « فرما » لا يتفق فقط مع التطورات الموجية ، بل هو نتيجة منطقية لهذه التصورات ، بحيث يتعين على من يعتنق النظرية الموجية أن يسلم بمبدأ « فرما » ٠

ولكن نظرية هيجنز كان يعيبها عدة أمور ، فهو لم يحاول أن يفسر بواسطتها ظاهرة التفرق المنشورى التى كان نيوتن قد جاء بتفسير لها من وجهة النظر الجسيمية ، وكذلك لم يحاول « هيجنز » أن يفسر بواسطة نظريته ظاهرة الحيود التى درسها « جريمالدى » أو ظاهرة التداخل التى درسها من قبل « هوك » و « نيوتن » ٠

والغريب أن « هيجنز » استبعد من أمواجه صراحة الصـــفة الأساسية التى ربما كانت تساعد فى مثل هذه التفسيرات ، وهى صفة الدورية ، فقال ان اهتزازات أجزاء الجسم المضىء التى تصدر عنها الموجات لا تحدث على نحو منتظم ، وبذلك يمتنع تحديد طول معين للموجات أو مقدار معين لتردد الاهتزازات ، وكان أول من

قرن الدورية بالموجات الضوئية هو الفيلسوف الفرنسى « مالبرانش » ٠

تلك العيوب التى اتصفت بها نظرية « هيجنز » تدل على قصورها ، ولكنها لا تدل على كذبها أو عدم صحتها ، غير أن نيوتن نبه الى حقيقة تجريبية بسيطة يبدو أنها تدحض الغرض الموجى من أساسه ، وهى أن الموجات المعروفة جميعا تنعطف من وراء العوائق الموضوعة فى طريقها ، فيصدق ذلك مثلا على الموجات فى الماء والموجات الصوتية ، ولكن ظاهرة الظلال تدل على انتشار الضوء فى خطوط مستقيمة غير منعطفة ، أو كما يقول ابن الهيثم على السموت المستقيمة ، اذن فالنظرية الموجية فى الضوء نظرية كاذبة ٠

ذلك اعتراض خطير لم يستطع « هيجنز » دفعه ، فكان عاملا من العوامل التى صرفت الناس عامة عن نظريته طوال القرن الثامن عشر ، أما العوامل الأخرى فأهمها المكانة التى احتلتها نظريات « نيوتن » عامة ، ومنها نظريته فى الضوء بحيث أصبح من غير المتصور أن يجرؤ على نقدها أحد ٠

* * *

تلك كانت الصورة الباهتة للصراع العلمى فى القرنين السادس والسابع عشر ، صراعا تسبب بطريق مباشر أو غير مباشر من نظريات ابن الهيثم فى الانعكاس والانكسار للأشعة الضوئية ، ولننظر الآن موضع « اسحاق نيوتن » من هذا الصراع ، ذلك العالم البريطانى الذى يقول عنه مواطنوه أنه نفحة من نفحات العبقرية قلما يجود بمثلها الزمان ٠

نظر « نيوتن » الى المثال الميكانيكى لابن الهيثم ، حين مثل شعاع الضوء بكرات من الحديد تساقط على لوح صقيل من الفولاذ ، فأخذ بتلابيب تلك الفكرة وقال ان شعاع الضوء ما هو الا مجموعة من أحداث ، أحداث الكرات المتعاقبة ، وعلى ذلك فالضوء يتكون من

جسيمات دقيقة تنبعث من الجسم المضيء تسبب الاحساس بالنظر اذا ما سقطت على العين ، أو تتسبب عنها ظاهرتي الانعكاس والانكسار ٠

مثل هذا القول سبق أن نادى به العالم السكندري « هيرون » في العصر الهيليني حيث قال ان الضوء جسيمات تخرج من البصر الى المبصر ، وهو قول معكوس لنظرية « نيوتن » الجديدة .

وعلى هذا الاعتبار يمكن الجزم بأن هذه النظرية هجينة بين نظريتي ابن الهيثم وهيرون ، ولننظر الآن في نظرية « نيوتن » هذه ، ولنتأمل ظاهرة الانكسار من وجهة نظر ديناميكية ، أي نفترض أن الشعاع الضوئي شيء ما يخضع لقوانين الديناميكا ، فنقول ان انعطاف الشعاع الضوئي حين ينفذ في المشف الثاني دليل على وجود قوة ما عن السطح الفاصل بين المشفين ٠

ولأن الشعاع لا يتغير اتجاهه حين يسقط عموديا على ذلك السطح ، والقوة التي قررنا وجودها ينحصر عملها في الاتجاه العمودي ، أي ليست لها مركبة في غير هذا الاتجاه ، واذن فمركبة سرعة الشعاع الساقط التي توازي السطح الفاصل لا تتأثر عند الانكسار بالزيادة أو النقصان ٠

واذن يتحقق فرض ديكارت الأول ٠

وأيضا اذا كان انعطاف الشعاع في المشف الثاني الى جهة العمود على السطح الفاصل ، فمعنى ذلك أن القوة المؤثرة عند السطح متجهة نحو المشف الثاني (الذي فيه الشعاع المنكسر) وأن السرعة قد زادت بعد الانكسار ، أما اذا انعطف الشعاع الى ضد جهة العمود فهذا دليل على أن القوة متجهة الى أعلى (أي الى الوسط الذي فيه الشعاع الساقط) وأن السرعة قد نقصت بعد الانكسار ٠

ونحن نعلم من التجربة أن الضوء حين ينكسر من وسط ألطف كالهواء الى وسط أغلظ كالزجاج ، فانه ينعطف الى جهة العمود على السطح الفاصل ، أى أن سرعة الضـوء فى الأغلظ تكون أكبر من سرعته فى الألطف ، كما ينص عليه قانون « ديكارت » فنرى من الملاحظات السابقة أن باستطاعتنا أن ننظر الى نظرية نيوتن على أنها تأويل ديناميكى لبرهان « ديكارت » الرياضى على قانون الانكسار ، ولنقف عند هذا الحد اذ أن الصراع بين نظرية الجسيمات والنظرية الموجية ما زال منذ ذلك الوقت دائر الرحى حتى يومنا هذا .

ان الصراع الذى نشأ فى القرنين السادس والسابع عشر على أساس من مذهب ابن الهيثم فى الضوء وفى المعايير الديناميــكية الأخرى مثل الاعتماد وتحليله الى مركبتين أو قسطين متعامدين ، ومثل الميل والقصور الذاتى ، كان بدء التمرد على العلم الاسلامى والنزوع الى مجالات أخرى فى التفكير الواعى لمناشط علمية جديدة ولآفاق أوسع .

ويشبه هذا الصراع ما عانته الحضارة الاسلامية النامية فى القرن العاشر الميلادى حينما تمرد الرازى على الطب الاغريقى فألف « فى الشكوك على جالينوس » وألف ابن الهيثم فى « الشكوك على أوقليدس » وفى الشكوك على بطليموس » وألف ابن رشد فيمـــا بعد متمردا على أرسطو وهو متتبع مناحيه .

فكان القرن العاشر الميلادى نقطة التمرد للعلم الاسلامى على طفح العلم الاغريقى الذى كان قد أصابه بغلالات رقيقة من ظاهرة التشكك الكاذب ، فكان هناك ابتكار وكان هناك ابداع .

وبالمثل كان القرن السادس عشر نقطة التحول فى العــــلم الأوروبى .

هندسيّات

الهندسيات أى المسائل الهندسية ، هى علم يبحث فيه عن أحوال المقادير من حيث التقدير ، وينثنى أى ينعطف وترجع اليها مسائل الرياضيات ، وهى علم يبحث عن أمور مادية يمكن تجريدها عن المادة فى البحث ، وهو المسمى بالعلم التعليمى والعلم الأوسط بالنسبة الى الالهى الأعلى والطبيعى الأدنى ، وأصوله أربعة : الهيئة والهندسة وعلم العدد المسمى بآرثماطيقى وعلم التأليف الذى معظمه الموسيقى ، وفروعه كثيرة كعلم المناظر وجر الأثقال وغيرها .

ذلك هو مفهوم هذا العلم فى الحضارة الاسلامية ، ولابن الهيثم باع طويل فيه وسنورد هنا قليلا مما كتب فيه :

١ ـ **مسألة « الهازن »** : عرفت هذه المسألة بهذا الوصف منذ عصر النهضة الأوروبية ، وتناولها الكثيرون من العلماء أمثال « بارو » أستاذ الرياضة بجامعة كمبردج عندما كان نيوتن تلميذا بها فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، وكذلك « كرستيان هويجنز » العالم الفيزيقى المشهور (١٦٢٩ ـ ١٦٩٥) الذى كان معاصرا لديكارت ونيوتن ، وتتلخص المسألة فيما يلى : ـ

« اذا فرضت نقطتان حيثما اتفق أمام سطح عاكس ، فكيف تعين على هذا السطح نقطة بحيث يكون الواصل منها الى احدى النقطتين المفروضتين بمثابة شعاع ساقط ، والواصل منها الى الأخرى بمثابة شعاع منعكس ؟ » .

حقيقة الأمر أن ابن الهيثم كان متأثرا ببحوث الكندى فيلسوف العرب ، ولا أغالى اذا قلت أنه قد نحى منحاه فى هذا الصدد ، ولكنه فاقه فيما ابتكر من حلول عميقة سنذكرها اقتضابا فيما بعد ، اننا لا نلقى الكلام جزافا ، اذ أن دليلنا فى هذا الموضوع مخطوط « كتاب الشعاعات الشمسية » لمؤلفه « يعقوب بن اسحق الكندى » والموجود بمكتبة خدابخش بتنة فى حيدر آباد الدكن بالهند ، وله صورة فوتوغرافية بمعهد مخطوطات الجامعة العربية ٠

ومن ناحية أخرى كان الكندى متأثرا بتلك الأسطورة المتوارثة عن أرشميدس السكندرى ، حيث قيل انه ابتكر مرايا عاكسة لضوء الشمس ، استخدمها لاحراق سفن العدو المهاجمة لبلاده عندما كان فى سيراكوزا ، فيقول الكندى فى مخطوطه :

« أحرق مراكب المحاربين له بشعاع الشمس ، وجب من هذه الجهة اثبات ذلك ، فانه ممكن باضطرار ، فنحن ناظرون فى ذلك بقدر ما يمكننا ، واضعون لتهيئة ذلك مقدمات أشياء يسيرة نحن اليها مضطرون فيما نريد من تهيئة المرايا ، فهذا قول «أثناميوس» وقد كان يجب على « أثناميوس » الا يقبل خبرا بغير برهان ، وقد مثل كيف يعمل مرآة تنعكس منها أربعة وعشرون شعاعا على نقطة واحدة ، ولم يبين كيف تكون النقطة التى يجتمع عليها الشعاع ، على أى بعد شيئا من وسط سطح المرآة ، ونحن ممثلون ذلك على أوضح ما يمكننا وأقربه ، ومبينون بالبراهين الهندسية والجهة الأخرى التى ذكرها على أوضح ما تبلغه طاقتنا ، ونتمم من ذلك ما كان ناقصا ، فانه لم يذكر بعدا مفروضا » ٠

وهكذا يتابع الكندى فروضه الهندسية المتعددة الجوانب ، ثم يشفعها ببراهين موضحة أشكالها ، مما لا مجال له هنا ، فنحن بصدد دراسة ابن الهيثم وليس الكندى ، ولكننا نستطيع أن نجمل دراسات الكندى فى النقاط التالية :ـ

١ ـ الشعاع الواقع على سطح المرآة المقعرة السطح تقعيرا كريا ، والشعاع المنعكس منها يقطعان أعظم دائرة فى كرة تلك المرآة المتممة لها بخطين متساويين ٠

٢ ـ الشعاع المنعكس عن سطح المرآة الكرية التقعير ، لا يمر على مركز كرتها منه أبدا : الا الشعاع الواحد الواقع على مركز المرآة ، أعنى الذى هو قطر دايرتها ، فانه وحده ينعكس على ذاته ٠

٣ ـ نريد أن نحد العلامة التى يمر عليها الشعاع المنعكس من علامة مفروضة من المرآة المقعرة السطح تقعيرا كريا من الخط الخارج من مركز الدائرة العظمى من الكرة المتممة لها ٠

٤ ـ نريد أن نجد المرآة المقعرة السطح تقعيرا كريا التى تنعكس شعاعات الى مركزها ، ثم يختتم الكندى مخطوطه قائلا :

« فانا قد قدمنا من موضوعاتنا ما فيه كفاية فى علم هذه الصناعة ، فلنذكر ما وعدنا ذكره مما قال انثاميوس فى ذات الأربعة وعشرين شعاعا ، على أقصد المسالك الى علم ذلك ، وايضاحه بتوفيق ذى القدرة ٠

نريد أن نعمل مرآة ينعكس منها أربعة وعشرون شعاعا الى علامة واحدة :

فليكن المثال لذلك أن نعرض سطح المرآة مسدس أ ب جـ ء هـ و المتساوى الأضلاع والمتساوى الزوايا ، ولتكن المرآة مستوية السطح ٠٠٠ وقد يمكننا أن نعمل مرآة ينعكس منها كم شعاع شيئا من العمود الخارج من مركزها أتقن مما عمل انثاميوس ٠٠ »

نعود ثانيا الى مسألة ابن الهيثم ، فنقول أنه قد فاق الذين سبقوه فى هذا الموضوع ، فاق ما تناوله بطليموس (١) القلوذى

---

(١) الحسن بن الهيثم : بحوثه وكشوفه البصرية لمصطفى نظيف ٠

فيما يتعلق بالنقطتين المختلفتي البعـد عن المركز ، بل أبتكر حلولا عجز عنها بطليموس ، وعجز عن ايرادها الكندى ، انه ابتكر الحلول العامة لتعيين نقطة الانعـكاس فى أحوال المرايا الكرية والاسطوانية والمخروطية المحدبة منها والمقعرة .

ان المسألة سهلة بسيطة اذا كان السطح العاكس مستويا ، كما تناولها الكندى ، لأنه اذا أخرج من احدى النقطتين المفروضتين عمود على السطح كان المستوى الذى يقع فيه هذا العمود والنقطة الثانية هو مستوى الانعكاس ، فاذا مد هذا العمود على استقامته الى نقطة ، بحيث يكون بعدها عن النقطة التى يلقى عليها هـذا العمود السطح العاكس كبعد النقطة الأولى عنها ، ثم وصلت تلك النقطة الى النقطة الثانية المفروضة ، كانت النقطة التى يلقى عليها هذا الواصل العاكس هى نقطة الانعـكاس المطلوب تعيينها ، والبرهان على ذلك يسير ، والمسألة سهلة بسيطة اذا كان السطح العاكس كريا أو اسطوانيا أو مخروطيا فى حالات خاصة معينة .

ففى حالتى السطح الاسطوانى أو المخروطى اذا كانت النقطتان المفروضتان وسهم الاسطوانية أوسهم المخروطية فى مستوى واحد ، كان هذا المستوى هو مستوى الانعكاس ، وكان الفصل المشترك بينه وبين السطح العاكس خطا مستقيما ، وآل الانعكاس الى ما يشبه الانعكاس عن السطح المستوي ، كذلك فانه من السهل تعيين نقطة الانعكاس عن السطح الكرى المحدب اذا كانت النقطتان المفروضتان على بعد واحد من مركز كرة السطح ، ومن السهل أيضا تعيين نقطة الانعكاس أو بوجه عام نقاطه عن السطح الكرى المقعر اذا كانت النقطتان على قطر واحد من أقطار الكرة ، أو اذا لم تكونا على قطر واحد كانتا على بعد واحد من مركز الكرة .

ولكن تزول عن المسألة هذه السمة من السهولة فى أحوال السطوح غير المستوية ، اذا فرضت النقطتان حيثما اتفق فى مقابلة

بجزء منها ، وابن الهيثم لم يودع كتابه المناظر حلولا للمسألة فى مثل الأحوال الخاصة المذكورة فحسب ، بل تناول أيضا بحثها من الناحية العامة ، وأورد لها حلا لكل نوع من أنواع المرايا الكرية والاسطوانية والمخروطية المحدبة منها والمقعرة .

تناول ابن الهيثم دراسة الموضوع على أساس منطقى سليم ، فعنى أولا بوضع بضع نظريات أو بالأحرى عمليات هندسية ، هى فى ذاتها على جانب ليس بالقليل من التعقد وبعد المنال ، ذكرها وبين كيفية اجرائها ، ووضع لها البراهين المضبوطة ، وذلك كله على أساس هندسى لا عيب فيه ، ثم اتخذ هذه العمليـــات الهندسية مقدمات الى الحلول التى أرادها لتعيين نقطة الانعـكاس ، وساق لتلك الحلول بعد ذلك براهينها الهندسية ، فبحوثه فى هذا الأمر يجب أن تراعى كوحدة واحدة تتكون من قسمين أحدهما المقدمات الهندسية ، والثانى الحلول العامة المبينة على تلك المقدمات ، وعلى هذه الصفة يمكن تقدير القيمة الحقيقية لتلك البحوث ، هـــذا النمط من البحث انما يعكس تفكيره المنطقى الســـليم المبنى على دعامات من التحليل والتركيب كما يتضح من مخطوطه هذا فى الخطوط العامة .

* * *

ولقد عنى بعض العلماء بتاريخ نشوء هذا البحث من قبل أن يتناوله ابن الهيثم ، وعن مبلغ ما يصح نسبته الى ابن الهيثم من الفضل فى ابتكار الحلول التى أوردها ، وما يصح نســبته الى المتقدمين من العلماء ، وعلى رأس هؤلاء المستشرقين « فون بودا » عام ١٨٩٣ م .

لم يرد البتة فى مناظر أوقليدس موضـــوع البحث عن نقطة الانعكاس ، وانما ورد فى كتاب المناظر المنســـوب الى بطليموس القلوذى ، غير أن ما جاء منه فى هذا الكتاب وان أريد منه أن يتناول المرآة الكرية فلم يتجاوز ما يتعلق بالكرية المحدبة بيان أن تعاكس

النقطتين عنها لا يكون الا من نقطة واحدة ، أما فيما يختص بالكرية المقعرة فقد تناول البحث بضع حالات خاصة نذكرها فيما يلى :

(أولا) الحالة التى تكون فيها النقطتان المتعاكستان على قطر واحد من أقطار المرآة ، وروعى فيها وضعان أحدهما الوضع الذى تكون فيه النقطتان على بعد واحد من المركز ، والثانى الوضع الذى تكون فيه النقطتان على بعدين مختلفين من المركز .

(ثانيا) الحالة التى لا تكون فيها النقطتان على قطر واحد من أقطار المرآة ، وانما تكونان فيها على بعدين متساويين من المركز ، وقد قسم البحث عنها قسمين روعى فى أحدهما أن يكون المستقيم الواصل بين النقطتين المتعاكستين واقعا بين مركز المرآة والجزء العاكس من سطحها ، وهو القسم الذى يقابل من بحوث ابن الهيثم الانعكاس من قوس القطاع الأول ، وفيه تخرج الدائرة المحيطة بالمثلث المكون من مركز المرآة ومن النقطتين المتعاكستين ، فان قطعت الدائرة محيط دائرة الفصل على نقطتين ، كانت نقطتا التقاطع نقطتى انعكاس ، وكانت أيضا النقطة التى يلقى عليها العمود المنصف للمستقيم الواصل بين النقطتين محيط دائرة الفصل ، نقطة انعكاس أيضا ، فيكون نقاط الانعكاس ثلاثا ، أما اذا لم تقطع الدائرة المحيطة بالمثلث المذكور محيط دائرة الفصل ، كانت نقطة الانعكاس واحدة وهى النقطة التى يلقى عليها العمود المنصف للمستقيم الواصل بين النقطتين محيط دائرة الفصل .

وقد حاول بطليموس فى هذا المقام أن يبرهن على امكان تعاكس النقطتين المختلفتى البعد عن المركز من ثلاث نقاط ، ولكن كانت غاية ما استطاعه أن يعين القوس التى لا يؤدى فرض الانعكاس من نقطة منها الى الخلف ، أى التى يصح أن تتعاكس النقطتان من نقطة منها ، أما كيفية تعيين نقطة الانعكاس بالذات أو اثبات امكان الانعكاس من ثلاث نقاط فلم يستطع شيئا منهما .

أما القسم الثانى من البحث فقد روعى فيه أن يكون الخط الواصل بين النقطتين المتعاكستين فيما يلى مركز المرآة من الجزء العاكس من سطحها ، وهو يقابل من بحوث ابن الهيثم الانعكاس من قوس القطاع المقابل ، وفى هذا الصدد بين بطليموس فيما يختص بالنقطتين المختلفتى البعد من المركز امكان تعاكسهما من نقطة تلك القوس •

تلك هى بالتفصيل الأحوال التى ذكرت فى مناظر بطليموس والتى أوردها « بودا » فى كتابه ، أما المرايا الاسطوانية والمخروطية فلم يتجاوز ما ورد عنهما غير بضع كلمات اكتفى بذكر تلكم المرايا •

ويتضح من هذا أن بطليموس وان كان قد سبق ابن الهيثم الى ذكر بعض الأمور المتعلقة بنقطة الانعكاس عن المرايا الكرية المقعرة ، فانه لم يحسن منها الا معالجة حالتين خاصتين ، احداهما حالة النقطتين اللتين على قطر واحد من أقطار المرآة ، والثانية حالة النقطتين اللتين ليستا على قطر واحد اذا كانتا على بعد واحد من المركز •

وانتابت بحوث ابن الهيثم عن المسألة التى وضعها وحلوله التى ابتكرها شكوك ، رغم أن هذه البحوث قد بلغت الذروة ، ويقول عنها الأستاذ مصطفى نظيف :

« هى فى نظرنا آية بينة لما أوتيه هذا الرجل من المواهب الرياضية الممتازة والعقل الناضج والنظر البعيد الثاقب ، وما كان له من سعة الحيلة والكفاية فى علم الهندسة ، واعتمد الغرب على الترجمة اللاتينية لكتاب المناظر لهذه البحوث وتعليقات القس « قتلو » عليها ، وهى تعليقات تشوبها اغلاط وأخطاء لصعوبة ادراكها ، مما حدا لعالم مبرز مثل « بارو » الأستاذ بجامعة كمبردج أن يقول عن الحل الذى أورده ابن الهيثم لايجاد نقطة الانعكاس

عن سطح المرآة الكرية المقعرة انه « مطولا تطويلا شنيعا »
أما « بودا » المستشرق الألمانى فيصف بعض براهين ابن الهيثم بالتعقيد ، ويقول عن برهانه على تعيين نقطة الانعكاس عن سطح المرآة الاسطوانية المحدبة انه يشق على الفهم ، ويعزى ذلك الى الأخطاء المطبعية فى النسخة اللاتينية من ناحية ، والى عدم صحة الشكل الوارد فيها من ناحية أخرى •

وهو وان كان قد أورد طريقة ابن الهيثم لتعيين نقطة الانعكاس عن المرآة الكرية المحدبة وعن الاسطوانية المحدبة وعن المخروطية المحدبة ، فانه أوردها بايجاز وأوجز فى الوقت نفسه المقدمات الهندسية التى بنى عليها ابن الهيثم بحوثه فى كل هذه الأمور ، ولم يورد براهين ابن الهيثم عليها •

ويرجع الفضل الى اماطة اللثام عن هذا الغموض الى بحوث الأستاذ مصطفى نظيف الذى قام بتصحيح الأخطاء ، ثم قام بشرح تفاصيل هذا الموضوع تفصيلا رائعا مبسطا ، لا يترك لبعده من مزيد •

* * *

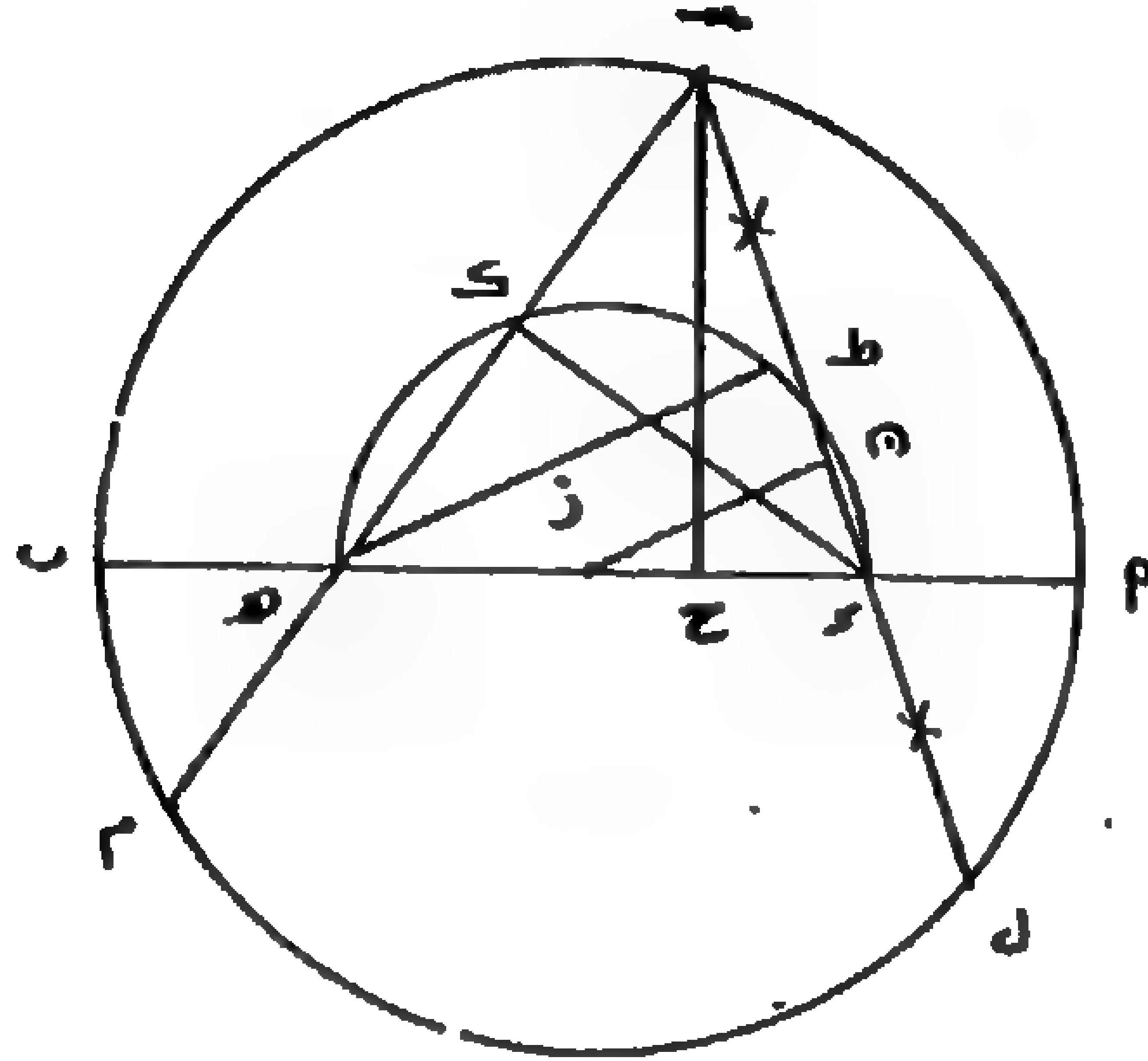
٢ ــ نترك هذا الموضوع الهندسى الفيزيقى ، لكى نطرق مسألة هندسية بحتة وهى مذكورة فى المخطوط ن خ ٨ م بدار الكتب المصرية ، وهى من ابتكار ابن الهيثم ومنطوقها كالآتى : ــ

« اذا فرض على قطر دائرة نقطتان بعدهما عن المركز متساويان ، فان كل خطين يخرجان من النقطتين ، ويلتقيان على محيط الدائرة ، فان مجموع مربعيهما مساو لمجموع مربعى قسمى القطر » •

هذا هو منطوق الفرض بلفظ ابن الهيثم ، وهو يعقبه ببرهان به قليل من الأخطاء ، ويرجع ذلك الى الناسخ للمخطوط ، وقد رأينا أن نشرح الموضوع كله بلغة العصر الحاضر لكى يسهل استيعابه وفهمه •

الفــــرض :

دائرة أ ب جـ قطرها أ ب ومركزها نقطة ز ، أخذت نقطتان ء ، هـ بعدهما عن المركز متساويين ، وأخرج منهما ء جـ ، هـ جـ فتلاقيا فى جـ وهى نقطة على محيط الدائرة حسب الشكل التالى :



المطلوب اثباته : ء حـ² + هـ حـ² = ب ء² + ء أ²

العمــــل : ندير على ء هـ نصف دائرة هـ ك ط ء ونصـــــل ء ك ، هـ ط ثم نخرج حـ ح عمودا ا ب يقابله فى ح ، وننفذ حـ ء ، حـ هـ على استقامتيهما الى ل ، م على محيط الدائرة ،

وننزل عمود ز ن من ز على حـ ل

البرهان : ∵ ء ط ك هـ نصف دائرة

∴ د ء ط هـ = ق ، د حـ ح هـ = ق

والمثلثان حـ ء ح ، هـ ط ء متشابهـــــــان لأن د حـ ء ح مشتركة ،

د هـ ط ء = د حـ ء ح = ق ∴ ء حـ / ء هـ = ء ح / ء ط

∴ حـ ء • ط ء = ء ح • ء هـ

وبالمثل حـ هـ • هـ ك = ء هـ • هـ ح

وبالجمع حـء • ط ء + حـ هـ • هـ ك = ء هـ (ء ح + هـ ح) = ء هـ ٢ أ

∵ ز ن عمود فخط ل ن = ن حـ

∴ خط ن ط = ء ن ، ∴ ء ل = ط حـ

∴ حـ ء • ء ل = ء حـ • حـ ط

ولكن حـ ء • ء ل = ب ء • ء ا وترين متقابلين فى ء

∴ حـ ء • حـ ط = ب ء • ء ا

وبالمثل هـ حـ • حـ ك = ا هـ • هـ ب

ولكن ا هـ • هـ ب = ب ء • ء ا

∴ بجمع ٢، ٣ — حـ ء • حـ ط + هـ حـ • حـ ك = ٢ ب ء • ء ا

لأن ب ء = هـ ا ∴ حـ ء • حـ ط + هـ حـ • حـ ك = ٢ هـ ا • ء ا

ولكن من ا حـ ء • ط ء + حـ هـ • هـ ك = ء هـ ٢

∴ حـ ء • ء ط + حـ ء • حـ ط + حـ هـ • هـ ك + حـ هـ • حـ ك = ٢ هـ ا • ء ا + ء هـ ٢

∵ المستقيم ء هـ مقسم من الخارج فى ا .

∴ ء هـ ٢ = ا هـ ٢ — ٢ ا هـ • ا ء + ا ء ٢

∴ ء هـ ٢ + ٢ ا هـ ء ا ء = ا هـ ٢ + ا ء ٢

∵ هـ ا = ء ب

∴ حـ ء • ء ط + حـ ء • حـ ط + حـ هـ • هـ ك + حـ هـ • حـ ك = ب ء ٢ + ء ا ٢

∴ ء حـ ٢ + حـ هـ ٢ = ب ء ٢ + ء ا ٢

وذلك ما أردنا أن نبين

متل هذه المسائل ينبغى أن يدرسها طالب ثانوى كنموذج من النماذج ، ويطلق عليها مسألة هندسية لابن الهيثم ، حتى يشعر الطالب العربى بما كان عليه علماء العرب من فكر عميق ، مثل هذا يحدث فى الكتب الأجنبية حيث يقول الفرنسة ان هذه معادلة لاجرانج ويقول الألمان تلك معادلة اويلر ، وهكذا .

* * *

ننتقل بعد ذلك الى موضوع هندسى آخر لابن الهيثم ، نسرد بعضا منه عن مخطوط « قول ابن الهيثم فى خواص المثلث من جهة العمود » ؛ والمخطوط موجود بمكتبة خدابخش بتنة بحيدر آباد الدكن فى الهند وتاريخ نسخه ٦٣٢ هجرية ، وقد سبق لى أن حققته علميا فى مجلة رسالة العلم عدد مارس ١٩٦٦ م ، ويبتدىء المخطوط بالبسملة كما هى عادة علماء العرب ثم يقول :

« ان المتقدمين من المهندسين نظروا فى خواص المثلث المتساوى الأضلاع ، فظهر لهم أن كل نقطة تعترض على ضلع من أضلاع المثلث المتساوى الأضلاع ، ويخرج منها عمودان على ضلعى المثلث الباقيين ، فان مجموعهما مساو لعمودى المثلث وأثبتوه فى كتبهم .

ونظروا فى أعمدة المثلث الباقية فلم يجدوا لها نظاما تاما ، ولا ترتيبا فلم يذكروا فيها شيئا ، ولما كان الحال هذه دعتنا الحاجة الى النظر فى خواص المثلث ، فوجدنا لأعمدة المثلث المتساوى الساقين نظاما مطردا ، ووجدنا لأعمدة المثلث المختلف الأضلاع أيضا نظاما وترتيبا مطردا .

فلما تبين لنا ذلك ألفنا فيه هذه المقالة .

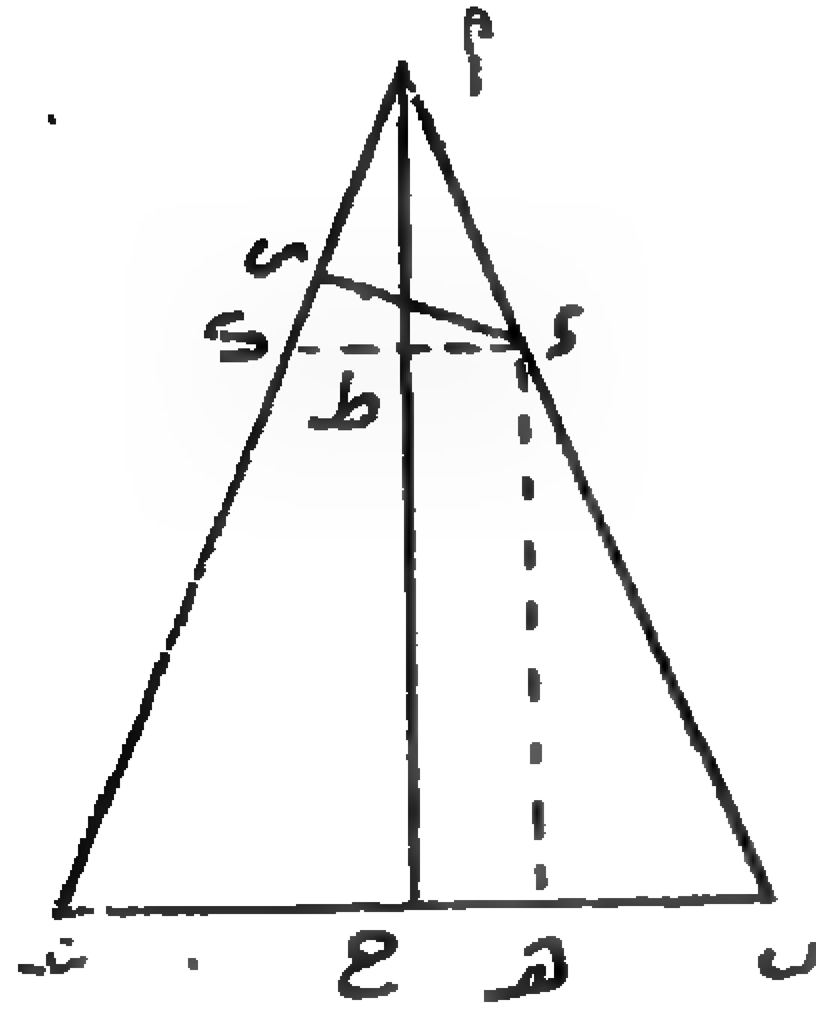
ونحن نقدم أولا ما ذكره المتقدمون من خاصة أعمدة المثلث المتساوى الأضلاع ثم نتبعه بما استخرجناه نحن من خواص أعمدة المثلثات الباقية ، لتكون خواص أعمدة جميع المثلثات مجتمعة فى هذه المقالة .

أما الذى ذكره المتقدمون فهو كل مثلث متساوى الأضلاع نفرض على أحد أضلاعه نقطة ، ويخرج منها عمودان الى الضلعين الباقيين ، فان مجموعهما مساو لعمود المثلث » .

ثم يبرز ابن الهيثم مقالا لما ذكره المتقدمون وهو :

مثلث أ ب جـ متساوى الأضلاع وفرض على الضلع أ ب نقطة ء حسب الرسم التالى ، وخرج منها عمودا ء هـ ، ء ى وأخرج عمود أ ح فان عمودى ء هـ ، ء متساويان بمجموعهما لعمود أ ح .

البرهـــان :



يرسم الخط ء ك موازيا للضلع ب حـ

فعلى ذلك يصبح △ ا ء ك متساوى الأضلاع

لتشابهه مع المثلث الأصلى ا ب حـ

∴ ا ط = ء ى

∵ الضلع ء هـ يوازى ويساوى ط ح

∴ ء ى + ء هـ = ا ط + ط ح

ويذكر ابن الهيثم أيضا أن المتقدمين أثبتوا أيضا أن كل مثلث متساوى الأضلاع ، اذا فرضت نقطة بداخله ، وخرج منها أعمدة على أضلاع المثلث ، فان مجموع تلك الأعمدة مساو لعمود المثلث .

هذه التمارين الهندسية بسيطة فى حد ذاتها ولكن مدلولها كبير، لأنها توضح ما كان عليه علم الهندسة قبل ابن الهيثم ، الذى يستطرد قائلا :

« وأما الذى استخرجناه نحو فهو الذى نذكره الآن :

كل مثلث تخرج من زواياه أعمدة على أضلاعه فان نسبة الضلع الى الضلع بالتكافؤ »

مثال ذلك :

△ ا ب حـ خرج فيه أعمدة ا ء ، ب هـ ، حـ ر

فأقول أن نسبة عمود ا ء الى عمود ب هـ كنسبة ا ج الى حـ ب

وأن نسبة عمود ا ء الى عمود حـ ر كنسبة ا ب الى ب حـ .

برهان ذلك :

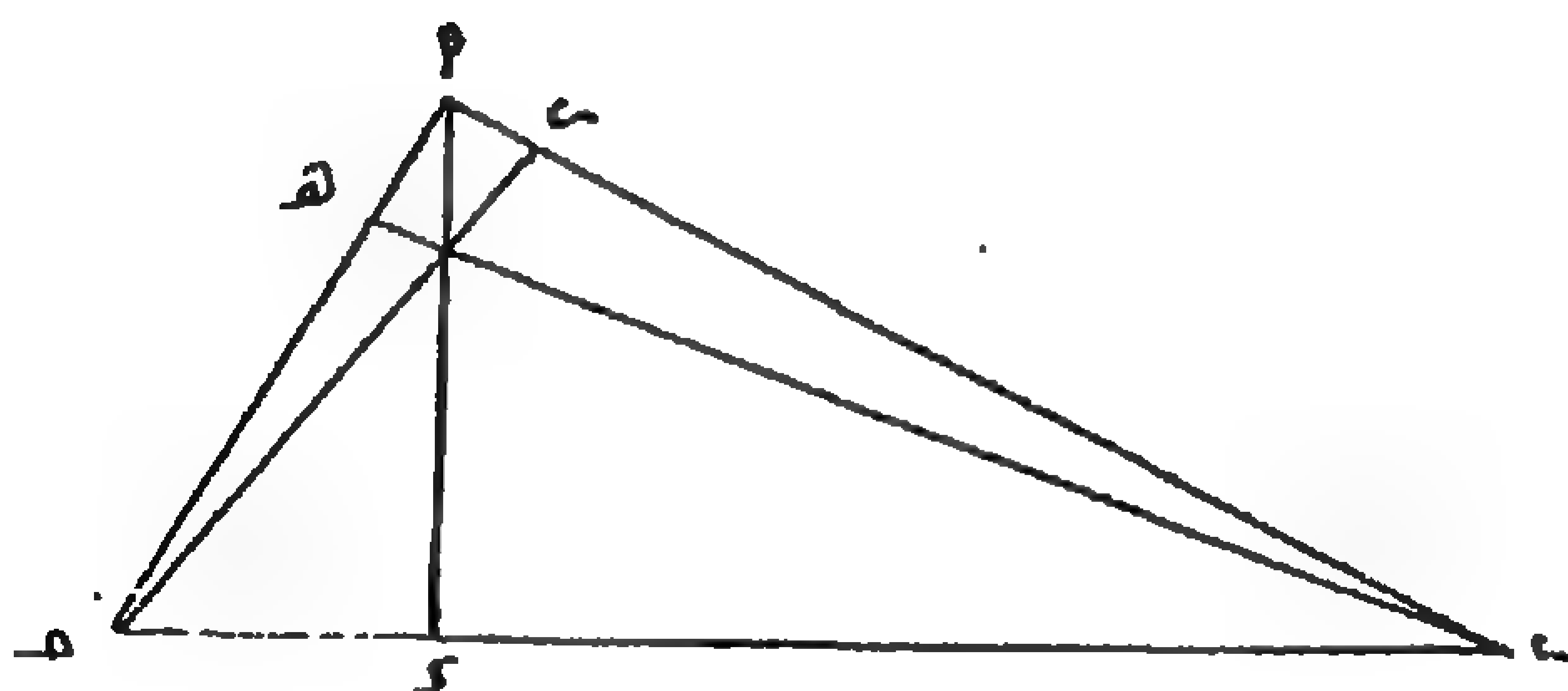
ان زاويتى ء ، هـ كل واحدة منهما قائمة

وزاوية حـ مشتركة

△ ا حـ ء يشابه △ ب حـ هـ

$\frac{\text{ا حـ}}{\text{حـ ب}} = \frac{\text{ا ء}}{\text{هـ ب}}$ (فى الأصل ا حـ خطأ)

وكذلك يمكن اثبات أن $\frac{\text{ا ب}}{\text{ب حـ}} = \frac{\text{ا ء}}{\text{حـ ر}}$

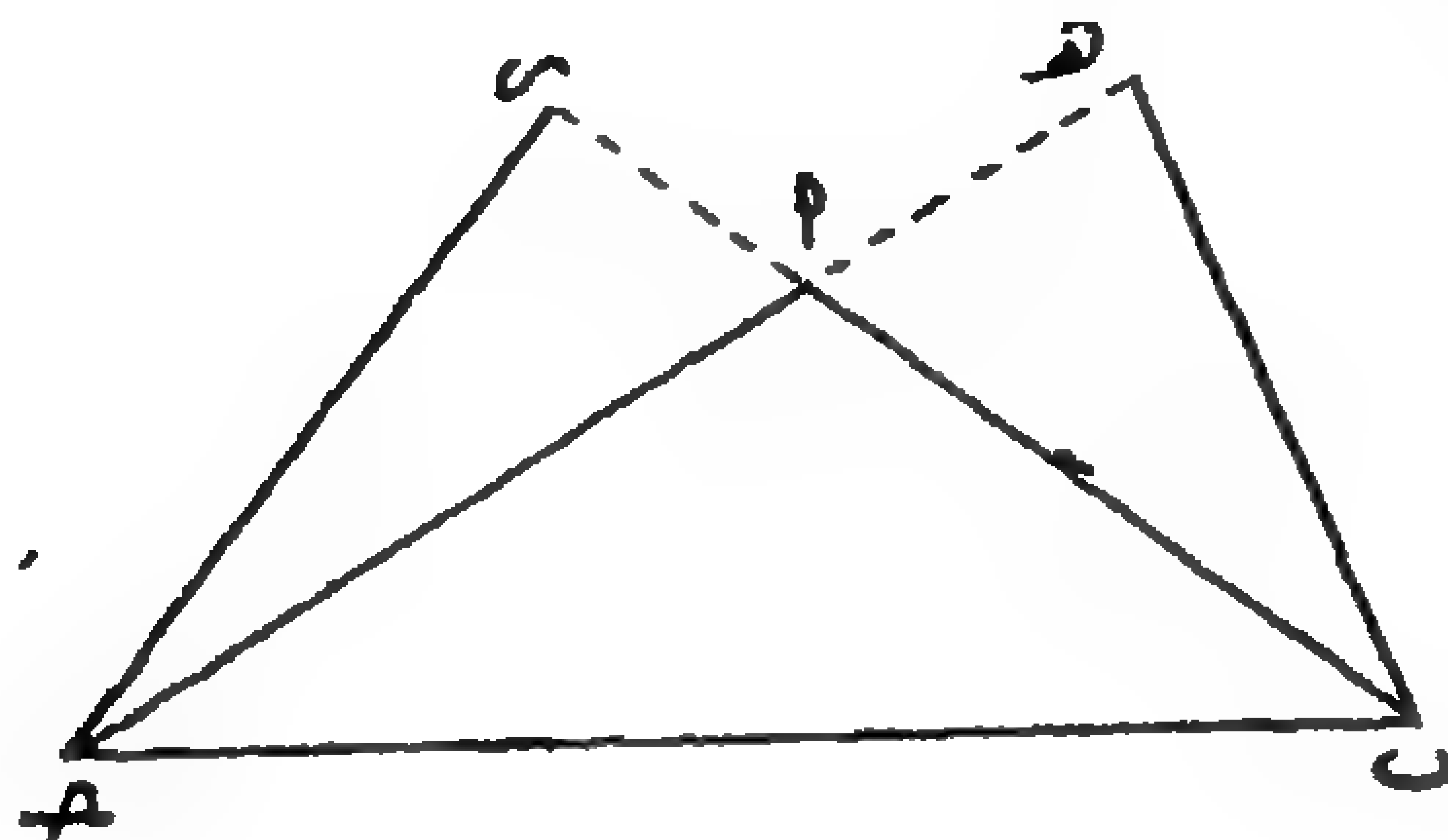


فاذا كان المثلث حاد الزوايا فمساقط الأعمدة تكون ثلاثتها فى داخل المثلث على ما فى الصورة السابقة .

وان كان المثلث منفرج الزاوية فواحدة من الأعمدة تكون فى داخل المثلث ، والعمودان الباقيان يكونان خارج المثلث على ما فى

الصورة التالية وان كان المثلث قائم الزاوية ، فالعمودان الخارجان من الزاويتين الحـادتين انمـــا هما ضلعا المثلث المحيطان بالزاوية القائمة ٠

ثم يستطرد ابن الهيثم فى سرد الكثير من الفروض ، ويبرهنها بطرق مبسطة :



ومثال ذلك :

« وأيضا فان كل مثلث قائم الزاوية مختلف الأضلاع تخرج من زاويته القائمة عمود على القاعدة ، ثم نفصل من أعظم قسمى القاعدة مثل أصغرها ، ونوصل بين نهايته وبين الزاوية القائمة بخط ، ثم نقسم الزاوية التى تبقى من الزاوية القائمة بنصفين ، فان الجزء الذى ينفصل من القاعدة بين الخط الذى يقسم الزاوية الباقية وبين مسقط العمود مساو للعمود » ٠

ثم يوضح ابن الهيثم حالات المثلث المتساوى الساقين وحالات المثلث المختلف الأضلاع فى بقية مخطوطه ، وجميعها من ابتكاراته ولم يسبقه أحد فى الوصول اليها ٠

أوقليدس
مصادراته و شكوكه

ألف الحسن بن الهيثم كتابين عن أوقليدس هما :

١ ــ شرح مصادرات أوقليدس

٢ ــ في حل شكوك كتاب أوقليدس

وكثيرا ما يتمثل بكتاب « الأصول » لأوقليدس ، فمن هو هذا الأوقليدس الذى أثار كل هذا الصراع العلمى بين حكماء العرب ؟

يقول قاضى زاده(١) فى مخطوطه « كتاب شرح أشكال التأسيس » الموجود بدار الكتب المصرية رقم ٧ مجاميع م :

« اقلى هو المفتاح ودس هو الهندسة أى مفتاح الهندسة ، أوقليدس وزيادة واو اسم رجل وضع كتابا فى هذا العلم المعروف ، وقول ابن عباس أوقليدس اسم كتاب غلط » ، فى الواقع لا ينطبق هذا الشرح على ما هو موجود بقواميس العرب فالأقليد هو المفتاح وليس أقلى كما يذكر المخطوط !

وحقيقة الأمر كما ذكره نصير الدين الطوسى فى مخطوطه « تحرير أصول أوقليدس » أن كتاب الأصول الذى يقال له الاستقصى

---

(١) قاضى زاده رومى هو عالم سمرقند الكبير أيام السلطان أولوغ بك (المتوفى عام ١٩٤٦ م) .

لتحليل سائر العلوم الرياضية اليه فى سالف الأيام ، كان مرتبا على خمس عشرة مقالة ، فمال بعض ملوك اليونان الى حله ، فاستعصى عليه فأخذ يتنسم أخبار الكتاب من كل وارد من أهل العلم عليه ، فأشار بعضهم الى رجل اسكندرانى فى بلد الصور ، يقال له أوقليدس أنه مبرز فى علمى الهندسة والحساب فطلبه الملك ، وأمره بتهذيب الكتاب وترتيبه ، فهذبه ورتبه على ثلاث عشرة مقالة ، واشتهر الكتاب باسمه ، وحذف المقالتين الأخيرتين لأن مسائلها كانت من المقدمات التى يتوقف عليها براهين نسب المجسمات المذكورة فى المقالة الثالثة عشرة ، وكيفية رسم الأشكال المذكورة فيها بعضها فى بعض ، وكانت كلها تستبين منها ومن غيرها ومن المقالات المقدمة عليها ، وكان الكتاب موضوعا لأن يوضع فيه الأصول دون الفروع ، اذ هى غير متناهية ، ولذلك عدت قضايا لم تتبين الا فى هذا العلم من الأصول الموضوعة لما كانت ظاهرة البيان من مسائل الكتاب ، ثم نشأ بعد زمان بعسقلان رجل يقال له « انسقلاوس » برز فى العلوم الرياضية ، وألحق المقالتين بالكتاب بعد تهذيبهما ، فصار الكتاب بهما خمس عشرة مقالة ، ثم نقل الى العربية مرتبا على خمس عشرة مقالة ، واشتهر من النسخ المنقولة نسختان بين علماء هذه الصناعة ، احداهما هى التى أصلحها ثابت بن قرة الحرانى والأخرى هى التى نقلها وأصلحها حجاج بن مطر .. الخ » .

ثم أخذ كثير من المتأخرين فى تحريره متصرفين فيه ايجازا وضبطا وايضاحا وبسطا : والأشـــهر مما حرروه تحرير المحقق نصير الدين الطوسى :

ولم يؤثر كتاب الأصول لأوقليدس فى المناشط العلمية فقط ، بل أثر فى الفلسفة الاسلامية أشد تأثير ، وهاجمه الامام الغزالى فى كتابه المنقذ من الضلال ، وقال بعض الشعراء فيه شعرا ركيكا ، ذكره قاضى زاده فى مخطوطه :

وذو هيئـــة يزهو بوجه مهندس | أموت به فى كل يوم وأبعث
أحاط بأشـــكال الملاحة وجهه | كأن به اقليـــدسا يتحـــدث
فعـــارض خط استوا وخاله | به نقطة والصدغ شكل مثلث

* * *

يقول بعض شراح مقالات أوقليدس ، أن الأسباب التى منها يؤلف العلم ، وبمعرفتها يحاط بالعلوم يلى الخبر والمثـــال والخلف والترتيب والبرهان والفصل والتمام ، وأن أوقليدس يستعمل فى بعض الأشكال جميع هذه الأسباب السبعة التى ذكر أن منها يؤلف العلم ، وبمعرفتها يحاط بالعلوم ، وقد يتم الشكل الرابع فقط من المقالة الأولى بالأربعة منها ، أعنى بالخبر والمثال والبرهان والتمام ، وأكثرها يتم بالخمسة أعنى بزيادة الترتيب ، ولا يتم شكلا واحدا بستة لأن الخلف مقرون بالفصل ، وأما ما جعل الخاف بعد المثال فهو بين من المسائل التى برهن عليها بالخلف .

أما الخبر فهو الخبر المقدم عن الجملة قبل التفسير .

وأما المثال فهو صور الأشكال المدلول بصفتها على معنى الخبر .

وأما الخلف فهو خلاف المثال وصرف الخبر الى مالا يمكن .

وأما الترتيب فهو تأليف العمل المتفق على مراتبه فى العلم .

وأما الفصل فهو فصل ما بين الخبر الممكن وغير الممكن .

وأما البرهان فهو الحجة على تحقيق الخبر .

وأما التمام فهو احاطة العلم بالمعلوم التابع لجميع ما ذكر .

ومن جهة أخرى نرى الخوجة نصير الدين الطوسى (١) يذهب الى التجميع ، فيقول أن أوقليدس يبنى براهينه على ثلاث فئات من القضايا هى : —

---

(١) تحرير أصول الهندسة والحساب مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١ هندسة م .

١ ـ الحدود مثل قوله :

« ان النقطة مالا جزء له » أو ان « الخط طولا بلا عرض وينتهى بالنقطة » أو ان السطح أو البسيط ماله طول وعرض فقط وينتهى بالخط .

٢ ـ العلوم المتعارفة مثل قوله :

الأشياء المساوية لشىء بعينه متساوية ، أو

ان أزيد على المتساوية أو نقص منها متساوية ، حصلت متساوية ، أو ان الكل أعظم من الجزء

أما المصادرات التى يضعها أوقليدس فهى الخمس الآتية : ـ

١ ـ لنا ان نخط خطا مستقيما بين أى نقطتين .

٢ ـ وأن نخرج خطا مستقيما محدودا على استقامته .

٣ ـ وأن نرسم دائرة على اى نقطة وبأى بعد .

٤ ـ الزوايا القائمة كلها متساوية .

٥ ـ اذا وقع خط مستقيم على خطين مستقيمين فصير الزاويتين الداخلتين على جهة بعينها انقص من قائمتين ، فان المستقيمين ان أخرجا الى غير حد ، يلتقيان فى تلك الجهة .

ويلاحظ أن المصادرات الثلاث الأولى تطلب التسليم بامكان عمل بعض الأشكال الهندسية (ان فى الواقع أو فى المخيلة) ، فى حين أن المصادرتين الأخيرتين تقرر كل منهما حقيقة معينة .

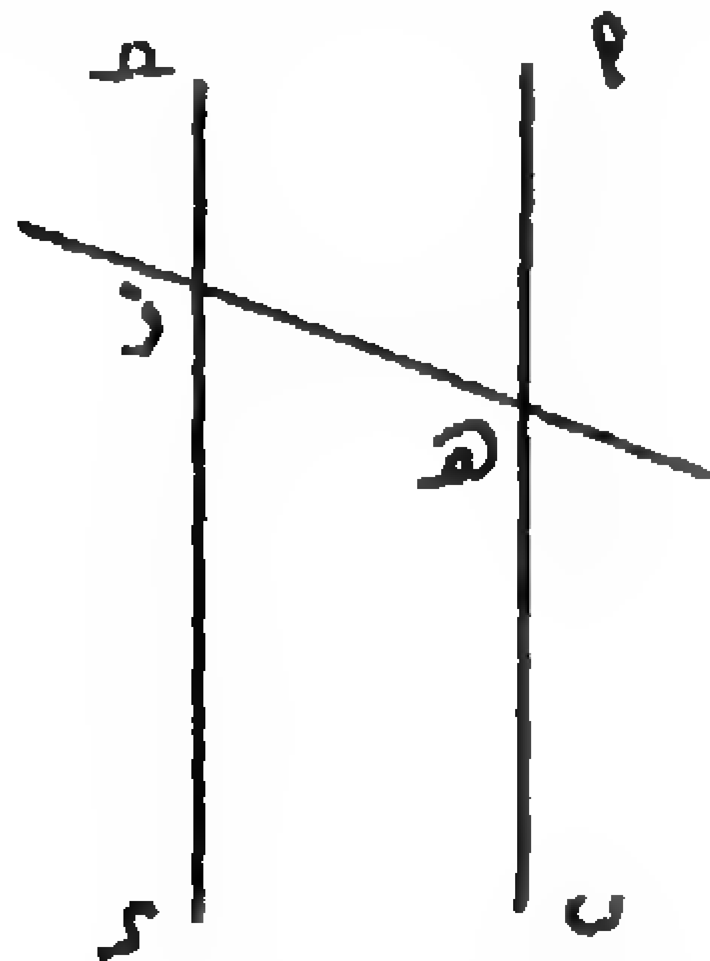
فالمصادرة الرابعة تقرر تساوى الزوايا القائمة جميعا ، وبذلك تجعل من الزاوية القائمة مقدارا متعينا يقاس به غيرها من الزوايا ، وهذا الأمر بالاضافة الى ما يبدو من وضوح هذه المصادرة ، هو

الذى دعا بعض الشراح القدماء الى اخراجهـا من جملة المصادرات ووضعها في عداد العلوم المتعارفة .

والمصادرة الخامسة تقرر التقاء الخطين المستقيمين المرسومين فى سطح واحد مستو ، ان تحقق شرط معين .

ويذهب ثابت بن قرة الحرانى فى مقالته عن برهان المصادرة المشهورة من أوقليدس فى مخطوطه الموجود بدار الكتب المصرية ن خ ٧ رياضة م الى تجديد المصادرة فى الخطوات التالية :

١ ـ اذا وقع خط مستقيم على خطين مستقيمين وكانت الزاويتان المتبادلتان متساويتين فان ذينك الخطين لا يقربان ولا يبعدان فى جهة من جهتيهما مثل خطى أ ب ، جـ د وقع عليها خط هـ ز فكانت زاويتا أ هـ ز ، هـ ز د متساويتين .



يستند ثابت بن قرة فى برهان هذه القضية على طريق الخلف .

٢ ـ اذا وقع خط مستقيم على خطين مستقيمين لا يقربان ولا يبعدان فى جهة من جهتيهما فان المتبادلتين متساويتان .

والبرهان أيضا بطريق الخلف .

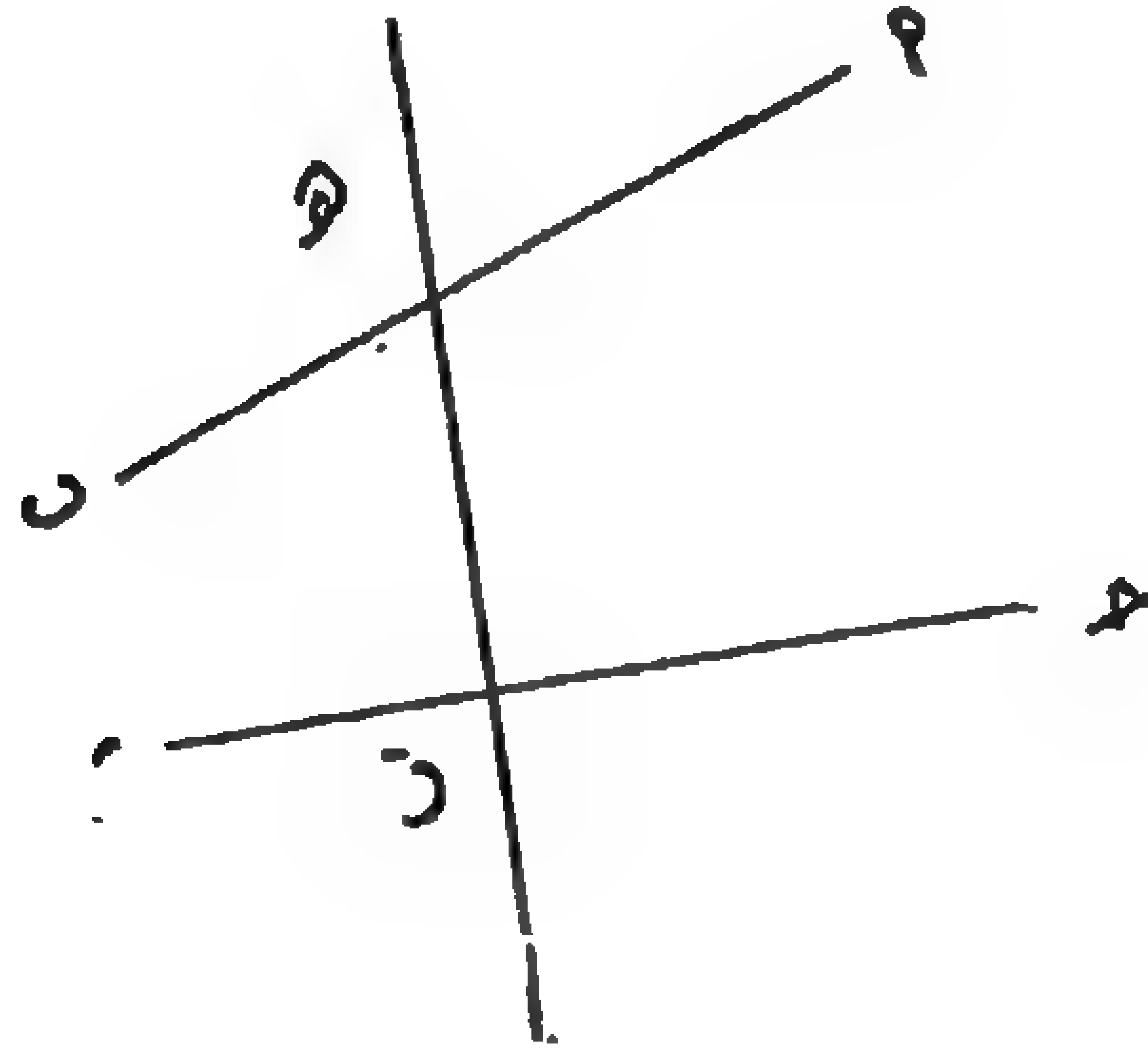
٣ ـ اذا وصل بين أطراف خطين مستقيمين متساويين لا يقربان ولا يبعدان بخطين مستقيمين فانهما أيضا متساويتان ولا يقربان ولا يبعدان .

٤ ـ كل مثلث يقسم ضلعين من أضلاعه وكل واحد منهمـا بنصفين ، ويوصل بين النقطتين اللتين قسما عليهما بخط مستقيم فانه نصف الضلع الآخر ولا يقرب منه ولا يبعد .

٥ ــ اذا وقع خط مستقيم على خطين مستقيمين فصير الزاويتين اللتين فى جهة واحدة أقل من قائمتين فان الخطين اذا أخرجا فى تلك الجهة التقيا ·

* * *

وليكن أ ب ، جـ ء هما الخطين المستقيمين المرسومين ، وليكن هـ ز قاطعا لهما بحيث أن مجموع الزاويتين ب هـ ز ، هـ ز ، أقل من قائمتين ، فالمصادرة تقرر أن الخطين لابد من أن يلتقيا أن أخرجا باستمرار فى جهة ب ، ء ·



والحق أن هذه المصادرة كانت هدفا لنقد الرياضيين من اللحظة التى أعلنها فيها أوقليــــدس ، وقد أوضح أبروقلوس (Proclos) ٤١٠ ــ ٤٨٥ م فى شرحه على المقالة الأولى من كتاب « الأصول » نوع الاعتراضات التى وجهت اليها ، ويمكن تلخيص هذه الاعتراضات الأولية فيما يلى :

ليست المصادرة الخامسة مصادرة بمعنى الكلمة ، أى أنها ليست من القضايا التى يجوز التسليم بها دون برهان ، وانمـــا هى فى الحقيقة قضية تنطوى على صعوبات بالغة ، وهنا يستشهد ابروقلوس

بمحاولة بطليموس الفلكى فى البرهنة على هذه القضية ، والتى يعتبرها غير موفقة .

فقد يسلم المرء بأن فى انقاص الزاويتين الداخليتين عن قائمتين ما يستلزم بالضرورة تقارب الخطين من جهة هاتين الزاويتين ، ولكن هذا وحده لا يكفى للجزم بأن الخطين لابد ملتقيان فى نقطة ما ، اذ من المعلوم أن هناك خطوطا هندسية يقترب الواحد منها نحـــو الآخر باستمرار ، دون أن يلتقيا أبدا (ومثل ذلك القطع الزائد Hyperbola والخط المستقيم المقارب له Asymptote).

واذن فلابد من البرهنة على أن الخطوط المستقيمة ليست من ذلك النوع ، وعلى ذلك فالمصادرة الخامسة هى مجرد فرض راجح الصدق ، ولكن لما كان رجحان الصدق لا يكفى للاقناع فى الهندسيات فلا مفر من البرهنة عليها .

وبالفعل صاغ أبروقلوس برهانا جديدا فى شرحه المذكور بعد أن بين وجوه النقص التي رآها فى برهان بطليموس ، ولكن محاولة أبروقلوس هذه لم تكن الأخيرة من نوعها ، فقد أدرك الرياضيون اللاحقون من العيوب فى برهان أبروقلوس مثل ما أدركه هو فى براهين السابقين .

وكان لابد لهم أن يحاولوا من جديد ما حاوله هو من قبل ، واستمرت المحاولات على هذا النحو فى العالم القديم ، ثم انتقلت العدوى الى العالم الاسلامى بعد ترجمة كتاب الأصول الى العربية فى نهاية القرن الثـــــانى الهجرى ، ودلا دلوه كل من ثابت بن قرة والحسن بن الهيثم وعمر الخيام والجوهرى ونصير الدين الطوسى وأثير الدين الأبهرى وقاضى زاده رومى .

* * *

قال الطوسى أن هذه القضية ليست من العلوم المتعارفة ، ولا مما يتضح فى غير علم الهندســـة ، فاذن الأولى أن تترتب فى

المسائل دون المصادرات ، واعترض على أوقليدس فى الدليل ، وهذا أنسب الاعتراض معنى ، وان كان الأول الأقرب لفظا ، كما ذكر طائفة من مبرزى صناعة الهندسة .

قالوا ثبت فى الحكمة تجزئة المقادير المتصلة الى غير النهاية لامتناع الجزء الذى لا يتجزأ ، وهذا يجوز التقارب أبدا مع عدم الانتهاء الى التلاقى ، على معنى أن العقل لا يجزم بمجرد التقارب على تقدير تسليمه ما لا ينتهى الى التلاقى بناء على أن المقادير قابلة للتجزئة الى غير النهاية ، فلا تكون المقدمة القائلة بأن التقارب ينتهى الى التلاقى ضرورة ، فيتجه اليها المنع قبل أن يقام عليها البرهان .

على أن بعضهم زعم أن التقارب أبدا من غير انتهاء الى التلاقى ممكن فى نفسه وألف رسالة فى بيانه ، ويمكن أن يمنع أيضا قوله ، فيكون ما بين الخطين فى تلك الجهة أضيق ، ثم ألفوا فى بيان هذا الشكل رسالات مشتملة على أشكال ومقالات كالرسائل المنسوبة الى الحكماء والمهندسين مثل الحسن بن الهيثم وعمر الخيام والجوهرى ونصير الدين الطوسى وأثير الدين الأبهرى وقاضى زاده.

ولا خفاء فى أن ما ذكروه من جواز التقارب أبدا مع عدم التلاقى أمر يشهد صريح العقل بفساده ، هكذا يقول قاضى زاده فى « أشكال التأسيس » : « اذ لو ساغ ذلك أى التقارب مع عدم التلاقى بناء على ما ثبت فى الحكمة لامتنع التقارب أيضا ، لكن التالى بطل بالاتفاق ، فكذا المقدم ، وفيه منع ظاهر يشهد صريح العقل بصحته .

وما يقال من أن التقارب بين الشيئين انما يحصل بتقليل الوسايط بينهما ، وهو ان صح على ذلك التقدير ليس بشىء ، لأن ذلك التقدير انما يقتضى عدم انتهاء الوسايط الممكنة لاستحالة تقلبها ، فانه اذا أفرز شىء منها يكون الباقى أقل بلا اشتباه » .

ويستطرد قاضى زاده قائلا :

« فان قلت لا شك أن افراز شيء يتوقف على امتداد الخط مقدارا ما وهو صح على ذلك التقدير ، واستحال اخراج خط من نقطة الى أخرى لاشتمال ما بينهما على وسايط غير متناهية ، قلت الوسايط غير متناهية بالامكان لا بوجوبه حتى يلزم ما ذكره » .

* * *

وابن الهيثم فى مخطوطه « مصادرات أوقليدس » يتناول هذه القضية من ناحية أخرى ، ويبرز فيها مفاهيم جديدة تتناول الحركة والحس والتمييز ، فهو يرى أن استبدال منطوقها من « اذا وقع خط مستقيم على خطين مستقيمين فصير الزاويتين الداخليتين اللتين فى جهة واحدة أقل من قائمتين فان الخطين يلتقيان » الى منطوق آخر هو :

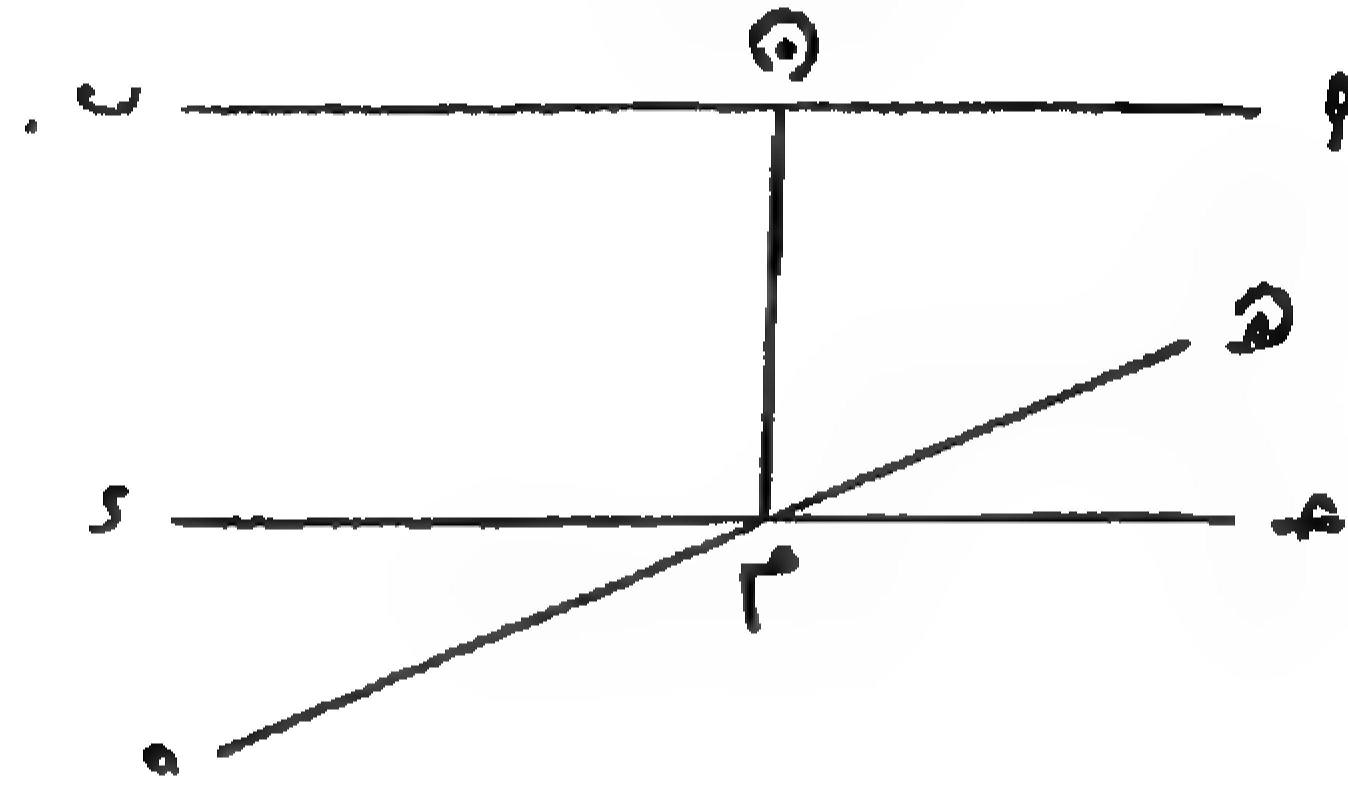
« ان كل خطين مستقيمين متقاطعين ، وليس بزاوية ، وخطا واحدا مستقيما » وهذه القضية ترجع الى تلك القضية الا أن هذه أبين من تلك ، اذ أنها ترجع الى تلك القضية ، ولأنه اذا خرج من نقطة التقاطع عمودا على الخط المفروض حدث بين العمود وبين الخطين المتقاطعين زاويتان ، وحدث بينه وبين الخط المفرد زاوية قائمة .

وان كان أحد الخطين المتقاطعين موازيا للخط المفرد ، فان الزاوية التى تحدث بينه وبين العمود تكون قائمة ، وذلك أن الخط الموازى هو الخط الذى يحدث من حركة العمود على الخط الذى هو عمود عليه ، اذ كان فى جميع حركته قائما على الخط الذى هو عمود عليه ، واذا كان فى جميع حركته قائما على الخط الذى هو متحرك عليه »

وتفسير ابن الهيثم يذكر فى اقامة عمود على النقطة م حسب الشكل التالى ، وهى نقطة تقاطع الخطين حـ ء ، هـ و والخط م ن عمود على حـ ء الموازى للخط ا ب ، ويثبت أن زاوية ن م هـ أقل من الزاوية القائمة ن م حـ .

وبما أن زاوية أ ن م = زاوية ن م حـ = ق

والخط ا ب ، حـ ء متـــــوازيان ، ثم أن الخط هـ و ، حـ ء متقاطعان ، فعلى ذلك فالخطان ا ب ، هـ و لابد متقابلان



ويقول بلفظه :

« وبين فى ذلك الشكل أن هذا الخط الذى يحدث يحيط مع العمود زاوية قائمة ، فاذا كان أحد الخطين المتقاطعين موازيا للخط المفرد (جـ ء ، أ ب) فهو محيط مع العمود الخارج من نقطة التقاطع القائم على الخط المفرد بزاويتين قائمتين •

فيكون الخط الأخير المقاطع له يحيط مع العمود بزاوية أقل من قائمتين فهما يلتقيان •

فهذه القضية أعنى خطين متقاطعين موازيان خطا واحدا ترجع الى القضية التى ذكرها أوقليدس ، وقد يتبين صحة تلك بالبرهان فى شرح المصادرات » •

وما يعنيه ابن الهيثم استحالة وجود خطين متقاطعين وهما فى الوقت نفسه موازيان للخط المنفرد ، أى من المستحيل أن يوازى كل من الخطين جـ ء ، هـ و المتقاطعين فى نقطة م الخط المنفرد أ ب •

ويستطرد ابن الهيثم قائلا :

« فهذه القضية اذن صادقة ، وأما أن هذه القضية أظهر من تلك عنـــد الحس ، وأوقع في النفس ، فلأن الخطين المتوازيين اللذين لا يلتقيان (أ ب ، حـ ء) يكون البعد الذى بينهما أبدا متسـاويا ، وقد تبين فى الشكل الأول من شرح المصادرات أن ذلك كذلك ، ومع هذه الحال فتساوى البعد بين الخطين المتوازيين يشهدها الحس ، لأن كل خطين يوجدان فى الأجسام الطبيعية ، اذا كان البعد الذى بينهما متساويا ، والحس يشعر بهما فهما لا ينتهيان .

واذا فرض الخطان ، وفرض أنهما لا يلتقيان ، فالحس يشهد أن الأبعاد التى بينهما متساوية ، فالحس يشهد أن الخطوط المحسوسة التى أبعاد ما بينها متسبـــاوية لا تلتقى ، والخطوط المتوازية التى لا تلتقي يشهد الحس والتمييز جميعا أن الأبعاد التى بينها أبدا متساوية ، فاذن لابد أحد الخطين المتقاطعين موازيا للخط المفرد ، فالحس والتمييز يشهدان أن الأبعاد التى بينهما أبدا متساوية .

واذا كانت الأبعاد التى بين أحد الخطين المتقاطعين ، وبين الخط المنفرد متساوية ، فان الأبعاد التى بين الخط الآخر وبين الخط المنفرد يشهد الحس والتمييز بأنها مختلفة ، لأن هذا الخط الآخر يكون فيما بين الخطين المتوازيين ، وتكون الأعمدة التى تقع منه على الخط المنفرد مختلفة لأنه كلما أخرج على استقامته ، تعد من الخط المقاطع له ، وكلما بعد فصل من الأعمدة التى تقع بين الخطين المتوازيين مقاديرا أعظم ، والحس يشهد بذلك » .

وابن الهيثم يعنى من ذلك أن الخط م ن اذا تحرك فى اتجاه ب ، ء فان طوله يكبر كلما مد على استقامته حتى يقاطع الخط هـ و ، أى حركته الى اليسار تسبب زيادة طوله ، وحركته الى اليمين تسبب قصر طوله ، والطول هنا ما بين الخطين أ ب ، هـ و .

ويستمر ابن الهيثم في برهانه :

« ولهذه العــلة يشــهد الحس والتمييز أن الخطين المتقاطعين لا يوازيان خطا واحدا ، فاذا صودر على القضايا الخمسة من غير تمييز ولا برهان ، فالأولى أن نجعل هذه القضــية ، أعنى خطين متقاطعين لا يوازيان خطا واحدا بدلا من القضية الأخيرة » .

* * *

تفكير ابن الهيثم هذا لم يعجب عمر الخيام ، فتناوله بالنقد فى مخطوطه « مصادرات أوقليدس » حيث قال فى مقدمته :

« وقد أتى بمصادرة عظيمة (أى أوقليدس) ولم يبرهن عليها ، وهى قوله ان كل خطين مستقيمين يقطعان خطا مستقيما على نقطتين خارجين منه فى جهة واحدة على أقل من زاويتين قائمتين ، فانهمـــا يلتقيان فى تلك الجهة ، بل أخذها مسلمة ، وهذه مسألة هندسية لا يتبرهن الا فيها أصلا ، فهى لازمة للمهندس شاء أم أبى ، وليس له أن يبنى عليها شيئا الى بعد البيان .

ثم انى شاهدت جماعة من متصفحى كتابه ، وحالى شكوكه لم يتعرضوا لهذا المعنى أصلا لصعوبته ، مثـــل ايرن وأوطوقس من المتقدمين ، أما المتأخرون فقد مدت منهم جماعة أيديهم الى البرهان عليها ، مثل الخازن والشنى والتبريزى وغيرهم ، فلم يتأت لواحد منهم برهان نقى ، بل كل واحد منهم صادر على أمر ليس تسليمه بأسهل من هذا ، ولولا كثرة نسخ تلك الكتب ، وكثرة مزاوليها والناظرين فيها لكنت أوردها ها هنا ، وأبين وجه المصادرة والغلط ، على أن تعرف ذلك من مسطوراتهم أمر سهل جدا .

وقد شاهدت كتابا لأبى على بن الهيثم رحمـــه الله ، موسوما ب « حل شكوك المقالة الأولى » فلم أشك أنه قد تصدى لهذه المقدمة وبرهن عليها ، فلما تصفحته مبتهجا به صادفت المصنف قد قصد أن تكون هذه المصادرة في صدر المقالة من جملة سائر المبادىء من غير احتياج الى برهان ، وتكلف فى ذلك تكلفا خارجا عن الاعتدال ، وغير

حدود المتوازيات ، وفعل أشياء عجيبة كلها خارجة عن نفس الصناعة منها أنه قال اذا تحرك خط مستقيم قايم على خط آخر ، ويكون قيامه محفوظا على ذلك الخط فى حركته ، فانه يفعل بطرفه الآخر خطا مستقيما ، فان الخط الحادث مواز للخط الساكن ، ثم يأخذ هذين الخطين ويلويهما ويحركهما ، ويعتبر فيهما عدة اعتبارات كلها خارجة ، حتى يصح له فى الصدر هذه المقدمة بعد ارتكاب هذه المصاعب والمنكرات .

وهذا كلام لا نسبة له الى الهندسة أصلا من وجوه ، منها أنه كيف يتحرك الخط على الخطين مع انحفاظ القيام ، وأى برهان على أن هذا يمكن ؟ ومنها أنه أية نسبة بين الهندسة والحركة ، وما معنى الحركة ؟ ، ومنها أنه قد بان عند المحققين أن الخط عرض لا يجوز أن يكون الا فى سطح ، ذلك السطح فى جسم ، أو يكون نفسه فى جسم من غير تقدم سطح ، فكيف يجوز عليه الحركة عن موضوعه ؟ ، ومنها أن الخط كيف يحصل عن حركته النقطة وهو قبل النقطة بالذات والوجود ؟ » .

ويستمر عمر الخيام (١٠٤٠ – ١١٣٢ م) فى نقده الشديد لابن الهيثم حتى فى استشهاده ببراهين أوقليدس قائلا بلفظه :

« ولقايل أن يقول ان أوقليدس قد حد الكرة فى صدر المقالة الحادية عشر بشيء من هذا القبيل ، وهو قوله : الكرة حادثة من ادارة نصف دايرة الى أن يعود الى المبتدأ ، فنجيب ونقول ان الرسم الحقيقى الظاهر للكرة معلوم ، وهو أنه شكل مجسم يحيط به سطح واحد فى داخله نقطة ، كل الخطوط المستقيمة الخارجة منها الى السطح المحيط متساوية ، وأوقليدس عدل عن هذا الرسم الى ما قال مجازفة ومساهلة ، فانه فى هذه المقالات التى يذكر فيها المجسمات تساهل جدا تعويلا منه على تدرب المتعلم عن دخوله اليها ، ولو كان لهذا الترسيم معنى لكان يحد الدائرة بأن يقال ان الدايرة هى شكل

مسطح حادث عن ادارة خط مستقيم فى سطح مستو بحيث يثبت أحد طرفيه فى موضعه وينتهى الآخر الى مبتدأ الحركة ، فلما عدل عن هذا النوع من الترسيم لمكان الحركة وأخذه ماليس له مدخل فى الصناعة مبدأ فيها ، لزمنا أن نقفو آثارهم ولا نخالف الأصول البرهانية والدستورات الكلية المذكورة فى كتب المنطق .

ثم ليس تحديد اقليدس للكرة مثل تحديد هـــذا الرجل (ابن الهيثم) ، وذلك أن أقليدس عرف شيئا ما بوجه غير مرض ، وذلك الشيء معلوم من عدة وجوه أخر ، وتعريفه المذموم لا يصير مقدمة لأمر عظيم الشأن ، بل يعدل عن تعريف آخر أحسن منه ، وهذا الرجل (ابن الهيثم) اجتهد فى هذا النوع من التعريف المنكر أن يصيره مقدمة لاثبات أمر لا يكاد يثبت الا بالبرهان ، فبين الرجلين فى التعريفين فرق ، هذا الشك فى صدر المقالة الأولى » .

ان من يقرأ هذا النقد العنيف لعمر الخيام يشعر بمدى تغلغل فكرة الشعوبية فيه ، فعمر الخيام ايرانى والحسن بن الهيثم عراقى عربى ، ومخاطبته بـ « هذا الرجل » يشعر بتعاليه عند التحدث عن عالم كبير توفاه الله قبل أن يولد الخيام ببضع سنوات ، مع أن برهان ابن الهيثم فيه حساسية وحركة ، أما براهين الخيام ففيها « سكوت » على غرار براهين الأغارقة .

* * *

لم يقف النضال العلمى عند هذا الحد ، بل استمر دفاقا فى الشرق الاسلامى برغم محنة المغول وتحطيم الخلافة العباسية فى بغداد بعد هجمات الطاغية هولاكو خان الذى انتظم فى خدمته العالم المحقق الكبير نصير الدين الطوسى (١٢٠١ ــ ١٢٧٤) .

تناول هذا العالم مؤلفـــات أوقليدس : أصوله ومصادراته وشكوكه وألف فى هذا الصدد كتابه تحرير أصول أوقليدس الذى

طبع فى روما سنة ١٥٩٤ م على الحجر فى القرن السادس عشر ، وكان قد ترجم الى اللاتينية قبل ذلك •

قال الطوسى عن مصادرة أوقليدس الخامسة :

« لما كانت لا تعتبر ضمن القضايا المشتركة بين العلوم جميعا ، ولا يختص بالنظر فيها علم غير الهندسة ، فهى ليست مما يجوز أن يطلب التسليم به فى الهندسة ، وانما ينبغى ادراجها فى عداد القضايا التى يطلب عليها البرهان الهندسى » •

ولكى يبرهن الطوسى على المصادرة الأوقليدية ، يطلب منا التسليم بقضية أخرى يضعها بدلا منها ، وهذا هو المنحى الذى سبق أن اتجه اليه ابن الهيثم واعترض عليه عمر الخيام ، وصياغة الطوسى هكذا :

« الخطوط المستقيمة الكائنة فى سطح مستو ، ان كانت موضوعة على التباعد فى جهة فهى لا تكون موضوعة على التقارب فى تلك الجهة بعينها ، وبالعكس الا أن يتقاطعا » ولنا أن نتساءل عما اذا كانت هذه القضية الجديدة لا يرد عليها نفس الاعتراض الذى أورده الطوسى على المصادرة الأوقليدية ، فمما لا شك فيه أنها ليست من القضايا التى تتضح فى غير علم الهندسة ، فهل معنى ذلك أنه اعتبرها من العلوم المتعارفة ؟ لا يجيب الطوسى صراحة على هذا السؤال ، وكل ما نستطيع افتراضه أنه اعتبرها أكثر وضوحا من مصادرة أوقليدس •

وبالطبع يجيز الطوسى لنفسه فى برهانيه أن يستخدم ما يشاء من القضايا الأوقليدية السابقة على القضية ٢٩ من المقالة الأولى من كتاب « الأصول » وهى القضية التى يفترض فيها أوقليدس المصادرة الخامسة للمرة الأولى فى كتابه ، ولكن الطوسى لم يكن باستطاعته أن يتم برهانيه معتمدا على تلك القضايا وحدها ، وانما

اضطر الى التسليم بقضية أخرى ، قد استعملها أوقليدس • كما يقول ويصوغها الطوسى هكذا .

« كل مقدارين محدودين مختلفين بالعظم والصغر ، فالصغير يصير أعظم من العظيم بالتضعيف مرة بعد أخرى » •

تعرف هذه القضية الأخيرة بـ « مصادرات أرشميدس » وان لم يكن أرشميدس أول من استعملها ، فالمعلوم (نقلا عن أرشميدس نفسه) أن أودكسوس (٣٦٧ ق.م) قد استعان بها فى البرهنة على بعض القضايا التى ظهرت فيما بعد فى كتاب « الأصول » •

وكذلك استعملها أوقليدس فى برهانه على القضية الأولى من المقالة العاشرة ، مستندا فى تبريره لها الى تعريفه للمقادير ذوات النسبة كما ذكره فى المقالة الخامسة •

« يقال عن المقادير أنها ذات نسبة الى بعضها البعض ، اذا كان يزيد بعضها على البعض بالتضعيف » •

وهكذا يتضح لنا أن الطوسى قد استعان بوسائل ليبلغ هدفه فى برهان المصادرة الخامسة لأوقليدس ، وهذه الوسائل هى :

١ ـ المصادرة الجديدة التى ابتكرها الطوسى نفسه كما ذكرناها •

٢ ـ القضايا الأوقليدية المفروضة والمبرهنة الى ما قبل القضية ٢٩ من المقالة الأولى من كتاب « الأصول » فيما عدا المصادرة الخامسة طبعا •

٣ ـ مصادرة أرشميدس التى يسلم بها أقليدس فى المقالة العاشرة •

لسنا هنا فى مكان الاسترسال لشرح براهين الطوسى ، اذ لا مجال لها هنا ، ولكننا أردنا أن نوضح مدى عمق العلماء

الاسلاميين عندما يتناولون قضية من القضايا بالشرح والتنفيذ والتوضيح مما كان له أثره البعيد فى لحظات اليقظة الأولى لعلماء عصر النهضة الأوروبية حيث تتابعت محاولات البرهنة على المصادرة الخامسة منذ محاولات الأب اليسوعى « جيرولامو ساكيرى » (١٦٦٧ - ١٧٣٣) الذى كان استاذا للرياضيات فى جامعة بافيا بايطاليا ، ومن ثم تكاثرت سريعا فى القرنين الماضيين أى الثامن والتاسع عشر ، وكان الأساس مجموعة ما يعرف باسم « نظرية التوازى » النابعة من المصادرة الخامسة هذه ٠

ويعترف ساكيرى نفسه بأنه اطلع على محتويات النص العربى الذى طبع فى روما عام ١٥٩٤ ، وتميزت محاولاته بشيئين :

استقصاء البحث واستخدام برهان الخلف ٠

وهو يؤمن كغيره بصدق المصادرة الخامسة ، وبصدق براهين ابن الهيثم وعمر الخيام والطوسى وغيرهم التى نقلت فيما نقلت من العلوم الى أوروبا ، ولكنه كان أيضا مثل الكثيرين غيره يشعر بضرورة البرهنة عليها ، ونحن نعلم أن البرهنة على قضية ما بواسطة برهان الخلف تبدأ بافتراض كذب هذه القضية ، أو بعبارة أخرى تبدأ بافتراض صدق نقيض هذه القضية ، فاذا أدى هذا الافتراض الى قضية متناقضة (كاذبة) كان هذا دليلا على كذب الفرض ، وبذلك نتوصل الى ثبات صدق القضية الأولى التى أردنا البرهنة عليها ، وهذا هو ما حاوله ساكيرى مع فارق واحد غير جوهرى من الناحية الصورية ، هو أنه بدأ بافتراض كذب قضية مكافئة للمصادرة الخامسة ، بدلا من أن يبدأ بافتراض كذب المصادرة نفسها ٠

وكان فى انتظار ساكيرى مفاجأة لم يكن يتوقعها ، ذلك أنه لم يتوصل الى التناقض الذى كان يأمل فيه الا بعد أن برهن على عدد كبير من القضايا المخالفة لما يناظرها فى أوقليدس ، بل سرعان

ما أظهر البحث فيما بعد أن ذلك التناقض الظاهرى لم يكن فى الحقيقة الا نتيجة لخطأ صورى فى الاستنباط ، وأن النسق الذى بناه ساكيرى على القضية التى اعتقد بكذبها كان فيما يبدو خاليا من كل تناقض ، ومعنى ذلك أننا مالم تكشف عن تناقض فى هـــذا النسق ، فلابد من أن نسلم بامكان قيامه باعتباره نظرية هندسية تخالف قضاياها قضايا الهندسة الأوقليدية ، الا أن هذه النظرية الجديدة لها من الناحية الصورية على الأقل مثل ما للهندســـة الأوقليدية من حق الوجود ٠

وهكذا كان اكتشاف أول الهنـــدسات اللاأوقليدية على يد ساكيرى ولكن بالرغم منه ، وهكذا نشأت العلوم الجديدة فى محيط ومناخ غير اسلامى ، نشأت من مشاكل طارئة بعد جهد من بحوث فرعية ٠

ومن ذلك الحين اتجهت الأبحاث فى المصادرة الخامسة وجهـة جديدة ، فقد كان من آثار محاولة ساكيرى هذه أن بدأ الشـــك يتسرب الى نفوس الرياضيين فى امكان البرهنة عليها ، كما أن النتائج التى توصل اليهـــا ساكيرى بعثت رغبة جديدة فى ولوج أنماط أخرى كان قد فتح الطريق اليها ٠

واستطاع بالفعل الرياضى الســـويسرى يوهان هينرج لامبرت (١٧٢٠ ـ ١٧٧٧) أن يضيف عددا كبيرا من القضايا الى ما سبق أن استنبطه ساكيرى من افتراض كذب المصادرة الأوقليدية ، وبين الرياضى الفرنسى أدريان مارى لچاندر (١٧٥٢ ـ ١٨٣٢) فى بحوث عديدة ما كان قد أدركه ساكيرى من أن هناك صلة جوهرية بين نظرية التوازى الأوقليدية والقضية القائلة بتساوى مجمـــوع زوايا المثلث القائمتين ٠

وشيئا فشيئا أخذ البحث ينأى عن محاولة البرهنة على مصادرة أوقليدس أو على قضية مكافئة لها ، وسار فى طريق مستقلة عن

هذه المصادرة ، فكانت بحوث شفايكارت (١٧٨٠ — ١٨٥٧ م) وتورينوس (١٧٩٤ — ١٨٧٤ م) وجاوس (١٧٧٧ — ١٨٥٥ م) ولوباتشيفسكى (١٧٩٣ — ١٨٥٠) ويولياى (١٨٠٢ — ١٨٦٠) وريمان (١٨٢٦ — ١٨٦٦) وكلها أبحاث فى الهندسيات اللاأوقليدية بمعنى الكلمة ٠

وينبغى أن نلاحظ أخيرا أن جاوس كان أول من أعلن الاعتقاد باستحالة البرهنة على مصادرة أوقليدس ، ولكن هـذه الاستحالة لم تثبت بالبرهان الا على يد بلترامى (١٨٦٨ م) وهويل فى مقال له نشر عام ١٨٧٠ م ٠

* * *

والمتتبع لتاريخ العلم يرى أن « كتاب الأصول » لأوقليدس قد تعرض لمعارك علمية غزيرة ، فى العصر الاسكندرانى ثم فى العصر الاسلامى بعد ترجمته من السوريانية الى العربية ، وألفت كتب كثيرة عن مصادراته ، وكتب أخرى فى حل شكوكه التى نشأت عن غموض بعض براهينه ، وفى هذا يقول ابن الهيثم فى مخطوطه « حل شكوك أوقليدس فى الأصول وشرح معانيه » ما يلى بلفظه :

« كل معنى تغمض حقيقته ، وتخفى بالبديهة خواصه ، ويشك به فى بعض أحواله غيره ، فالشك متسلط عليه ، وللمعاند والمشكك طريق مقنع الى معاندته ، والطعن عليه ، وخاصة العلوم العقليــة والمعانى البرهانية ، اذ العقل والتمييز مشترك لجميع النــاس ، وليس جميعهم متساوى الرتبة فيها ، وليس يذعن واحد من الناس لغيره فيما يدعى صحته بالقياس ، ولا تصح دعواه فى نفسه ، الا بعد أن يصح له ذلك المعنى بقياسه وتمييزه الذى استأنفه هو وتشكك صحته فى عقله » ٠

ثم قال :

« واذا لم تظهر له الحقيقة فقد عرض له التشكك ، فالتشكك

واقع لأكثر الناس فى المعانى الخفية ، ومن جملة المعانى اللطيفة التى يشتمل عليها كتاب أوقليدس فى الأصول ، وهذا الكتاب هو الغاية التى يشار اليها فى صحة البراهين والمقاييس ، ومع ذلك فلم يزل الناس قديما وحديثا يتشككون فى كثير من معانى هذا الكتاب ، كثير من مقاييسه ، ويتكلف أصحاب علم التعاليم حل كل الشكوك وكشف فسادها وصحة المعانى المتشكك فيها » .

ثم يستطرد ابن الهيثم فيوضح السبب الذى دعاه الى تأليف كتابه هذا فيقول : « وقد ألفت فى حل شكوك هذا الكتاب كتب ومقالات للمتقدمين والمتأخرين ، الا أننا ما وجدنا فى هـذا المعنى كتابا مستوفيا لجميع الشكوك التى يحتمل أن يعترض بها فى معانى هذا الكتاب ، ولا كتابا مشتملا حلها » .

وفى تصورى أن ابن الهيثم كان يمارس القاء المحاضرات كما نقول بلغة العصر الحاضر ، وموقفه بالنسبة لعصره كموقف الفقيه الذى يدافع عن مذهب ما يعتقد بصحته ، ويتولى الرد على الهجمات التى تتصدى لمذهبه هذا ، وفى الواقع أن من يطلع على كتاب ابن الهيثم فى حل الشكوك لأوقليدس فى الأصول وشرح معانيه يشعر بأنه أمام فقيه فى الرياضيات يفند كل نظرية ويرد على الهجوم نقطة نقطة ، ويقوم بالشرح بأسلوبه فلذلك فهو يضيف الى جميع ذلك ـ العلل التعليمية فى الأشكال العلمية ، وان كانت علل المعانى العلمية كما يقول هى المقدمات التى تستعمل فى براهين الأشكال ، فان تلك العلل القريبة ، والذى يزيده هو فى كل شكل هو العلة الأولى البعيدة وفى هذا المعنى ما ذكره أحد من المتقدمين ولا المتأخرين على ابن الهيثم ، ثم يضيف الى ذلك أيضا أن بين الأشكال التى بينها أوقليدس ببراهين الخلف ما يدعو الى التشكك فهو يوضحها ببراهين مستقيمة حتي يصبح الكتاب مستوفيا فى شروحه .

وحين يبتدىء ابن الهيثم فى الشكوك فهو يبتدىء بالمقدمات

المذكورة فى المصادرات ، التى يقسمها الى وحدات منها ما هو متسلم ومنها ما هو مبين ومنها ما هو محدود ، فكل متسلم يحتمل التشكك ، وكل ما هو مبين بالقياس فقد يمكن أن يعترض على مقدمات قياسه ، وكل ما هو محدود فيمكن أن يطعن فى حدوده ·

وليس المجال هنا فى تلخيص كتابه هذا فهو مخطوط يقع فى حوالى ١٨١ ورقة ، وتوجد منه نسخة فى مكتبة جامعة استانبول ، وبمعهد المخطوطات بالجامعة العربية صـــورة فوتوغرافية منه ، اذ يعجز المجال هنا عن ذلك ، فنكتفى بذكر قليل من الأمثلة لنرى مدى العمق الذى يتصف به ابن الهيثم فيقول بلفظه :

« ان اوقليدس قال فى أول كتابه النقطة هى شيء لا تجزئة له ، وهذا القول يتوجه عليه الشك من وجهين أحدهما أنه أثبت النقطة انية موجودة ، ثم حدها ، لأنه ليس يمكن أن يحد شيء من الأشياء الا بعد أن تكون انيته موجودة ، لأن الحد هو قول دال على مائية المحدود ، فهو يميز المحدود من غيره ، وليس يمكن أن يميز شيء من أشياء الا بعد أن يكون ذلك المعنى ، وجميع تلك الأشياء موجودة ، وما بين اوقليدس أن النقطة موجودة .

والقول الثاني هو أن قوله هى شيء لا جزء له قد جعله حـدا للنقطة ، والحد انما يوجد من جنس وفصل ، فقد جعل الشيء جنسا للنقطة ، ثم فصله بقوله لا جزء له ، فجعل لا جزء له فصلا ، وليس تنفصل النقطة من جميع الأشياء بأنها لا تتجزأ ، لأن مالا يتجزأ هو أشياء كثيرة ·

وانما المتجزىء من جميع الموجودات هو المقادير فقط ، وما سوى المقادير فليس يتجزأ كالوحدة وكالهيولى الأولى وكالعقل الفعال وكالعدم ، فان لا شيء يتجزأ ، وكل واحد من هذه يسمى شيئا ، فقوله لا جزء له ليس يفصل به النقطة عن غيرها ، هذا اذا أثبت أن انية النقطة موجودة » ·

يتولى ابن الهيثم الرد على هذه القضية شارحا :

« فنقول فى جواب هذا القول اما أخذه لوجود انية النقطة ، فذلك لأن الكلام فى وجود الموجـــودات ليس هو كلاما هندسيا ، ولا يجب على المهندس اثبات انية النقطة ، ولا اثبات شيء من انيات المقادير التى يستعملها ، لأن اثبات وجود انيات الموجودات انما هو على الفيلسوف لا على المهندس .

فأما قوله هى شيء لا جزء له فلم يقصد به الحد الذى يشير اليه المتفلسفة ، وانما جعله قولا دالا على المعنى الذى يسميه نقطة ، وذلك أن المهندس اما كلامه فى المقادير ، وجميع المقادير يتجزأ ، والنقطة هى شيء يكون في المقادير ، ومع ذلك فليس يتجزأ ، فلذلك أشار اليها أنها لا تتجزأ ، فقول لا جزء له هو معنى يفصل النقطة من المقادير التى هى فيها ، وليس هو بمحتاج الى أن يفصلها من غير المقادير اذ كانت لا توجد الا فى المقادير أو منتزعة من المقادير .

وهذا القول كاف فى حل شك من طعن على تحديد أوقليدس للنقطة » .

ثم يستمر ابن الهيثم فى هــــذا النسق من الشرح والتعميق فيقول عن الخط :

« قال أوقليدس والخط طول لا عرض له ، وليس يعترض فى هذا الجواب شك ، اذ الخط هو البعد بين كل نقطتين ، والنقطة لا طول لها ولا عرض ولا سمك ، فالبعد بين كل نقطتين لا عرض له .

وأيضا فان الخط هو تقاطع سطحين ، والسطح لا سمك له ، فالخط لا عرض له لأنه لو كان له عرض لكان يكون العرض سمكا لأحد السطحين ، فليس يعترض فى هذا القول شك ، أعنى قول أوقليدس والخط طول لا عرض له .

ثم قال أوقليدس ونهايتا الخط نقطتان .

فهذا القول يعترض فيه شك من وجه واحد ، وهو أن يقال ان أوقليدس قد جعل هذا القول قولا كليا يطرد على كل خط ، فقد أخذ أن كل خط فهو متناهى ، وليس كل خط متناهيا لأنه قد يمكن أن نفترض خط مستقيم وخطوطه منحنية ، ولا نفترض لها نهايات ، فالخط المحيط بالدائرة أيضا ليس له نهاية موجودة ، واذا كان ليس كل خط متناهيا ، فليس لكل خط نهايتان ، فليس كل خط نهايتاه نقطتان .

فنقول فى جواب هذا الشك ان أوقليدس انما تكلم على الخطوط الموجودة فى التخيل وكل خط من الخطوط المستقيمة والمنحنية الموجودة فى التخيل فهو متناهى ، لأن ما لا نهاية له من الخطوط المستقيمة لا يتشكك فى التخيل » .

ثم يستمر ابن الهيثم فى ذكر التفاصيل الدقيقة لتعريف الخطوط المستقيمة والمستديرة والبسيط أى السطح ، فيقول أن كل نقطتين من النقط التى على الخط المستقيم ، فالجزء من الخط الذى بين تلك النقطتين ، هو أقصر الأبعاد التى بين تلك النقطتين ، وهذا القول هو حد للخط المستقيم ، وللخط المستقيم حدود كثيرة ، وهو فى هذا الكتاب انما يحل ما يعترض به على كلام أوقليدس فقط من الشكوك ،

ثم يعرف البسيط بأنه هو ماله طول وعرض فقط ، ويقول :

« فليس يعترض في هذا القول شك ، ونهايات البسيط خطوط ، وهذا القول يعترض عليه شك مثل الشك الذى تقدم ذكره فى الخط ، أعنى أن يقال ان قول أوقليدس هو قول كلى يدل على أنه يعتقد أن كل سطح فهو متناهى » ، والجواب نفس الجواب الذى مر بتعريف الخط أنه موجود فى التخيل .

ورغم هذه الشروح المضنية لابن الهيثم فى شكوك أوقليدس ،

فانه لم يسلم من النقد كما حدث له في مصادرات أوقليدس الذى تعرض فيه لنقد عمر الخيام ، والنقد فى هذا الصدد انما جاء من عالم آخر هو « أبو الفتوح نجم الدين أحمد بن محمد بن السرى البغدادى » المعروف بابن الصلاح المتوفى عام ٥٤٨ هـ أى عام ١١٥٣ م ، وعنوان كتابه المقالات السبع وهو مخطوط موجود بمكتبة فيض الله ، وله صورة فوتوغرافية بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .

وقد تناول فى المقالة الرابعة « الرد على ابن الهيثم فيما وهم فيه من كتاب شكوك أوقليدس » .

مثل من أمثال اعتراضاته عن الشكل العشرين فى المقالة الثالثة ، قال أخطأ أبو على ابن الهيثم فى برهان هذا الشكل وجعله به خاصا مع أنه عام ، ويعزز اعتراضه ببرهان فى النسبة والتناسب ، ويحتاج التفصيل فى هذا الموضوع الى الكثير مما لا يحتمله هذا الكتاب .



ابن الهيثم وهذا شأنه فى علم الضوء وفى شتى أنواع المعرفة ، خليق بأن تمجده جامعاتنا وأن تحيى ذكراه فى كل حين ، وخليق بوزارة التعليم العالى أن تنشىء كرسيا لتاريخ العلم فى احدى الجامعات ، يطلق عليه كرسى ابن الهيثم لتاريخ العلوم ، وأن يطلق على أحد المدرجات اسمه تخليدا له على مر السنين .

وخليق بوزارة الثقافة أن تحيى ذكراه باقامة مهرجان له بجامعة الدول العربية ، مثله كمثل ابن خلدون الذى أقيم له تمثال رمزى بمركز البحوث الجنائية ، وابن الهيثم لا يقل عن ابن خلدون علوا وشأنا .

منذ سنوات أقامت حكومة ايران مهرجانا كبيرا لابن سينا ، حضره مندوبون من جميع أرجاء العالم ، وابن الهيثم معاصر لابن سينا ، ولكنه كان أقل حظا منه .

وأقام الاتحاد السوفيتي جامعة فى طشقند عاصمة أوزبكستان، وأطلق عليها اسم جامعة البيرونى للدراسات الشرقية .

وابن الهيثم معاصر للبيروني أيضا ، ولكنه كان أقل حظا منه .

وابن سينا والبيرونى كانا فى رغد من العيش ، أما ابن الهيثم فقد عاش فقيرا ، ومات معدما .

مات فى القاهرة بعد أن اكتسب رعويتها بحكم اقامته فيها بجوار الجامع الأزهر ، وبحكم انتاجه الوفير فى البصريات والرياضيات والفلكيات وغيرها ، وابن سينا تمجده حكومة ايران ، والبيرونى يمجده الاتحاد السوفيتى ، أما ابن الهيثم المصرى فلا يجد عزاء سوى بضعة مجهودات فردية من الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، مجهودات ضئيلة تحتاج الى تدعيم على النطاق العربى الواسع العريض .

وتراث ابن الهيثم العلمى ، فى احيائه تدعيم للقومية العربية .

وقد آن الأوان لاحياء تراث هذا العملاق ، الذى لم ينل حظا فى حياته ، ولم تنل بحوثه من التقدير والتمجيد بعد مماته فى الدولة الأيوبية وما بعدها حتى اليوم ما هى جديرة به .

والوقت الحاضر هو أنسب الأوقات فلنبتدىء !!

فهرس الكتاب

صفحة

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ ـ محمد عبده	عباس العقاد
٢ ـ المعتمد بن عباد	على أدهم
٣ ـ جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون ...	د . على عبد الواحد وافى
٥ ـ ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ ـ معاوية	ابراهيم الابيارى
٧ ـ سيد درويش	د . محمد أحمد الحفنى
٨ ـ عبد القاهر الجرجانى	د . أحمد بدوى
٩ ـ عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ ـ عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١ ـ مالك	أمين الخولى
١٢ ـ القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ ـ الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ ـ الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ـ ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ ـ المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى

المؤلف	اسم الكتاب
د . سيدة اسماعيل الكاشف	١٧ ـ الوليد بن عبد الملك ... ...
د . أحمد كمال زكى	١٨ ـ الأصمعى ... ...
صبرى أبو المجد	١٩ ـ زكريا احمد ... ...
د . ماهر حسن فهمى	٢٠ ـ قاسم أمين ... ...
احمد الشرباصى	٢١ ـ شكيب أرسلان ... ...
د . عبد الحميد سند الجندى	٢٢ ـ ابن قتيبة ... ...
محمد عجاج الخطيب	٢٣ ـ ابو هريرة ... ...
د . جمال الدين الرمادى	٢٤ ـ عبد العزيز البشرى ... ...
محمد جابر الحينى	٢٥ ـ الخنساء ... ...
د . أحمد فؤاد الاهوانى	٢٦ ـ الكندى ... ...
د . بدوى طبانه	٢٧ ـ الصاحب بن عباد ... ...
د . محمد عبد العزيز مرزوق	٢٨ ـ الناصر بن قلاوون ... ...
أنور الجندى	٢٩ ـ أحمد زكى ... ...
د . سيد حنفى حسنين	٣٠ ـ حسان بن ثابت ... ...
عقيد : محمد فرج	٣١ ـ المثنى بن حارثة الشيبانى ...
عبد القادر أحمد	٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى ... ...
د . ابراهيم أحمد العدوى	٣٣ ـ رشيد رضا ... ...
د . محمود أحمد الحفنى	٣٤ ـ اسحاق الموصلى ... ...
د . زكريا ابراهيم	٣٥ ـ أبو حيان التوحيدى ... ...
د . أحمد كمال زكى	٣٦ ـ ابن المعتز العباسى ... ...
د . ماهر حسن فهمى	٣٧ ـ الزهاوى ... ...
د . عائشة عبد الرحمن	٣٨ ـ أبو العلاء المعرى ... ...
د . حسين فوزى النجار	٣٩ ـ أحمد لطفى السيد ... ...
د . فوقية حسين	٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين

اسم الكتاب	المؤلف
٤١ ـ صلاح الدين الأيوبى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى	محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير	د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش	أنور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيق القيروانى	عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمد بن عبد الملك الزيات ...	محمود خالد الهجرسى
٤٧ ـ حفنى ناصف	محمود غنيم
٤٨ ـ أحمد بن طولون	د . سيدة اسماعيل كاشف
٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى	أحمد سعيد الدمرداش
٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق	محمد عبد الغنى حسن
٥١ ـ المهدى العباسى	د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ ـ الأشرف قانصوه الغورى ...	د . محمود رزق سليم
٥٣ ـ رفاعه الطهطاوى	د . حسين فوزى ألنجار
٥٤ ـ زرياب	د . محمود أحمد الحفنى
٥٥ ـ الكندى « المؤرخ »	د . حسن أحمد محمود
٥٦ ـ ابن حزم الاندلسى	د . زكريا ابراهيم
٥٧ ـ ابن النفيس	د . بول غليونجى
٥٨ ـ السيد أحمد البدوى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ ـ المأمون	د . محمد مصطفى هدارة
٦٠ ـ المقسرى	محمد عبد الغنى حسن
٦١ ـ جمال الدين الأفغانى	عبد الرحمن الرافعى
٦٢ ـ الجاحظ	د . أحمد كمال زكى
٦٣ ـ ابن ماجد	د . انور عبد العليم

اسم الكتاب	المؤلف
٦٤ ـ محمـد توفيق البكري	د . ماهر حسن فهمي
٦٥ ـ محمود سامي البارودي	د . علي محمد الحديدي
٦٦ ـ ابن زيدون	علي عبد العظيم
٦٧ ـ عمر مكرم	د . عبد العزيز محمد الشناوي
٦٨ ـ موسى بن نصير	د . ابراهيم احمد العدوي
٦٩ ـ أبو الحسن الشـاذلي	د . عبد الحليم محمود
٧٠ ـ عبد العزيز بن مروان	د . سيدة اسماعيل كاشف
٧١ ـ علي مبـارك	د . حسين فوزي النجار
٧٢ ـ أبو الحسن الشـاذلي	د . عبد الحليم محمود
٧٣ ـ العزيز بالله الفـاطمي	د . علي حسني الخربوطلي
٧٤ ـ أبو بكر الطرطوشي	د . جمال الدين الشيال
٧٥ ـ يونس بن حبيب	د . حسين نصار
٧٦ ـ صقر قريش	عباده كحيلة
٧٧ ـ البـيروني	د . محمد جمال الفندي د . امام ابراهيم أحمد
٧٨ ـ عبد الكريم الخطابي	د . جلال يحيى
٧٩ ـ أسـامة بن منقذ	د . أحمد كمال زكي
٨٠ ـ محيى الدين بن العربي	عبد الحفيظ فرغلي
٨١ ـ مصطفى صادق الرافعي ...	د . كمال نشأت
٨٢ ـ أبو جعفر المنصور	علي أدهم
٨٣ ـ ابن الأثير الجـزري	د . عبد القادر أحمد طليمات
٨٤ ـ أبو العباس المرسي	د . عبد الحليم محمود
٨٥ ـ الحسن بن الهيثم	أحمد سعيد الدمرداش

ملتزم التوزيع
في الجمهورية العربية المتحدة وجميع أنحاء العالم
الشركة القومية للتوزيع

مكتبات الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

١ — فرع شريف	٣٦ شارع شريف	تليفون ٤٠٠١٢	القاهرة
٢ — فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣٢	القاهرة
٣ — فرع ميدان عرابي	٥ ميدان عرابي	٤٦٣٨٣	القاهرة
٤ — فرع المبتديان	١٣ شارع محمد عز العرب	٢١١٨٧	القاهرة
٥ — فرع الجمهورية	٢٢ شارع الجمهورية	٩١٠٧٤٢	القاهرة
٦ — فرع عابدين	١٤ شارع الجمهورية	٩١٤٢٢٣	القاهرة
٧ — فرع الحسين	ميدان الحسين		القاهرة
٨ — فرع الجيزة	٢ ميدان الجيزة	٨٨٨٣٦٤	القاهرة
٩ — فرع أسوان	السوق السياحي	٢٢٩٣٠	أسوان
١٠ — فرع الاسكندرية	٤٩ ش سعد زغلول	٢٥٩٢٥	الاسكندرية
١١ — فرع طنطا	ميدان الساعة	٢٥٩٤	طنطا
١٢ — فرع المنصورة	ميدان المحطة		المنصورة
١٣ — فرع أسيوط	شارع الجمهورية		أسيوط

مراكز ووكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

١ — مركز توزيع الجزائر	شارع بن مهيدي العربي رقم ١١ مكرر	الجزائر
٢ — مركز توزيع لبنان	شارع دمشق	بيروت
٣ — مركز توزيع العراق	ميدان التحرير	بغداد
٤ — عبد الرحمن الكيالي	شارع ٢٩ أيار — دمشق	سوريا
٥ — الشركة العربية للتوزيع	ص.ب رقم ٤٢٢٨ بيروت	لبنان
٦ — قاسم الرجب	مكتبة المثنى — بغداد	العراق
٧ — رجا العيسى	وكالة التوزيع — عمان	الأردن
٨ — عبد العزيز العيسى	دار التوزيع ص.ب ١٥٧١	الكويت
٩ — وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ — مكتب الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص — ليبيا	بنغازي
١١ — محمد بشير الفرجاني	٥٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ — الشركة الوطنية للتوزيع		تونس
١٣ — وكالة الأهرام	شارع الرشيد	دمشق
١٤ — المكتبة الوطنية	المنامة — الخليج العربي	البحرين
١٥ — مكتبة العروبة	ص.ب ٤٢ و ٩٤	الدوحة
١٦ — عبد الله حسين الرستماني	المكتبة الأهلية ص.ب ٣٦١	دبي/عمان
١٧ — المكتبة الحديثة	ص.ب ٢٧	مسقط
١٨ — أحمد سعيد حداد	المكتبة الوطنية ص.ب ٢٥	المكلا
١٩ — مكتبة دار القلم	شارع عبد المغني ميدان التحرير	صنعاء
٢٠ — علي ابراهيم بشير	ص.ب ٨٢	اسمرة
٢١ — عبد الله قاسم الحراري	ص.ب ١٧١٤	اديس أبابا
٢٢ — مكتبة ستار	ص.ب ٩٣٦	مقديشيو
٢٣ — عبد الله عاشم محمد	ص.ب ٨٤٥	ممباسا
٢٤ — مكتب توزيع المطبوعات العربية	لندن	لندن
٢٥ — المكتب التجاري الشرقي	٤٠ ش كندهار ص.ب ٩٢٠٥	سنغافورة
٢٦ — مكتبة مصر		الخرطوم
٢٧ — مكتبة الفجر		وادي مدني
٢٨ — زكي جرجس بطليوس	ص.ب رقم ١٥٥	الخرطوم
٢٩ — ابراهيم عبد القيوم	مكتبة القيوم ص.ب ٤٨٥	بور سودان
٣٠ — عوض الله محمود ديورة	مكتبة ديورة ص.ب ٢٤	عطبرة
٣١ — عيسى عبد الله	المكتبة الوطنية ص ٢٤٥	وادي مدني
٣٢ — مصطفى صالح	ص.ب ٤٤	كوستي

أسعار البيع للجمهور في الدول العربية

سوريا ١٠٠ قرش سوري — لبنان ١٠٠ قرش لبناني — الأردن ١٠٠ فلس — العراق ١٠٠ فلس — الكويت ١٢٠ فلس — السودان ١٠٠ مليم — ليبيا ١٠٠ مليم — قطر ١٥٠ درهم — البحرين ١٥٠ فلس — عدن ٢٠٠ سنت — أديس أبابا ١٠٠ سنت — أسمرة ١٠٠ سنت — الجزائر ١٥٠ سنتيم

صدر حديثا

عن

دار الكاتب العربي

شعر الهذليين

تأليف : الدكتور أحمد كمال زكي

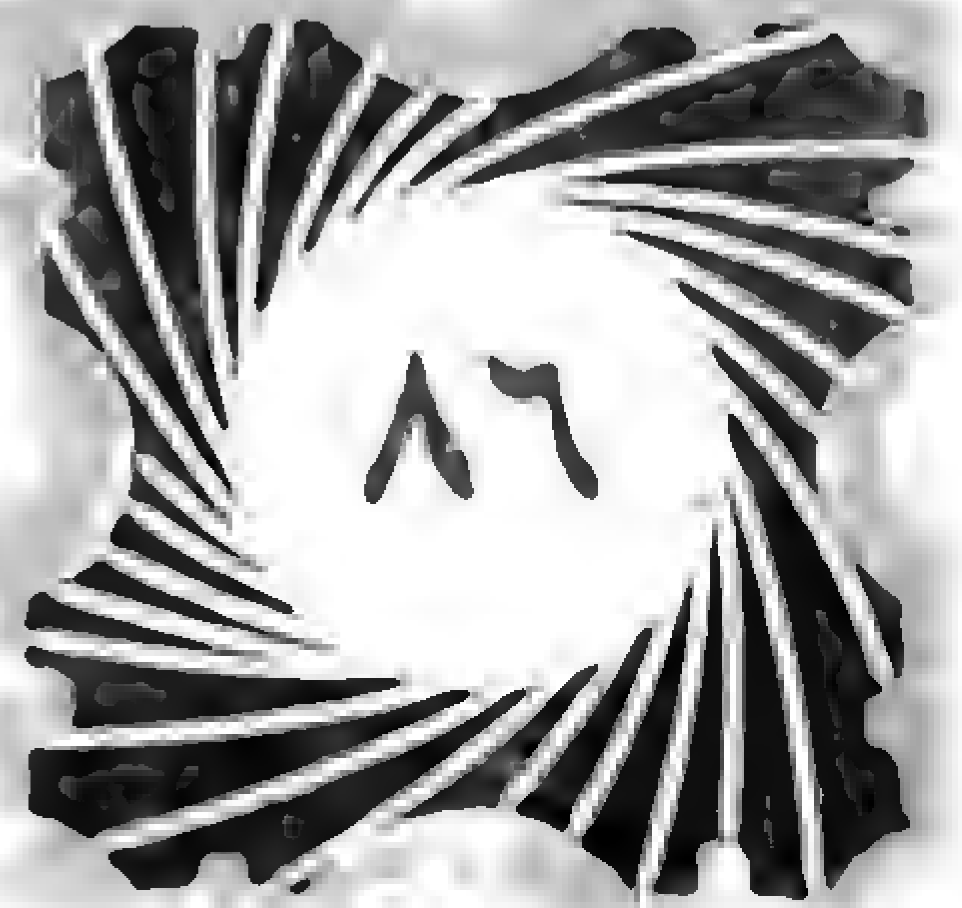
ديوان ابن سناء الملك ج ٢

تحقيق : محمد إبراهيم نصر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

فرع مصر ـ ١٩٦٩

أعلام العرب



ساطع الحصري

بقلم

الدكتور محمد عبد الرحمن برج

سبتمبر ١٩٦٩

أعلام العرب

ساطع الحصري

بقلم

الدكتور محمد عبد الرحمن برج

الهيئة العامة للتأليف والنشر
(دار الكاتب العربى)
١٩٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

المقـــدمة

فقدت الأمة العربية فى الرابع والعشرين من ديسمبر الماضى (١٩٦٨) علما من أبرز أعلامها ، وجنديا من أبسـل جنودها .. فقدته فى وقت كانت أشد ما تكون فى حاجة اليه وهى تخوض معركة المصير العربى ، وتمر بأحسم أيام تاريخها .

مات ساطع الحصرى عن ثمان وثمانين عاما ، قضاها كلها فى الكفاح والنضال من أجل قضية القومية العربية ، لقد جند قلمه من أجلها ، ووضع جهده كله فى خدمتها .

عاش ساطع من أجل قضية الوحدة العربية ، ونذر نفسه فداء لها ، وآمن بحتمية هذه الوحدة طال الزمن تحقيقها أو قصر .. وكان يؤمن بأن فكرة القومية العربية تعنى الايمان بوحدة هذه الأمة ، فنجده كثير ما يكتب : على كل واحد منا أن يؤمن أصدق الايمان بأن الوطن العربى يمتد من المحلط الأطلسى الى الخليج العربى ، ويشمل جميع البلاد التى يتكلم أهلها اللغة العربية ، وأما الدول والدويلات القائمة بين هذه الدول فانها وليدة المناورات والمساومات والمقاسمات التى قامت بين الدول العربية .

ويؤمن ساطع بأن أخطر ما تتعرض له القوميات هي أن تكون انفعالا عاطفيا ، وانما ينبغي أن تكون حركة القومية لها أسسها العلمية ، وأن تتولى أجيال المفكرين الايمان بها ، والدفاع عنها.. وفي ايمانه بذلك كان سعيه الى انشاء المعهد العالي للدراسات العربية . ولم يكن هذا المعهد بالنسبة لساطع معهد تعليم يخرج طلابا يحملون شهادات كأي معهد تعليمي آخر .. ذلك كان أبعد الأمور عن ذهن ساطع ، وانما كان يرغب أن يكون معهدا تمر عليه أجيال وأجيال من المفكرين والكتاب العرب الذين يعطون لأمتهم جهدهم وفكرهم .

وكان ساطع ثوريا في فكره وفي عمله من أجل أمته ، فلم يكن يؤمن بحلول جزئية لمشاكل القومية ، بل كان ثوريا في ايمانه بالقضية التي انبرى يدافع عنها ، كان مع كل حزب عربي يخدم قضية الوحدة العربية عن اخلاص ويقين . وضد كل حزب يستخدم الوحدة العربية مناورة سياسية لخدمة مصالح ذاتية .. وكان متفائلا التفاؤل كله في مستقبل الأمة العربية ، لقد آمن بأن القومية العربية حركة ثورية وأنها في ثوريتها لابد أن تصطدم بردود فعل من الخارج والداخل ، وأن التحصن من ردود الفعل هو أن نعالجها بثورية لاتستسلم لفشل تجربة من التجارب .. كان ذلك ما أحس به يوم حدث الانفصال بين سورية ومصر ، فانبرى في غير هوادة يوضح أنه لا ينبغي لهذا الانفصال أن يجعلنا نكفر بالوحدة وحتميتها وأن الوحدة بين الشقيقتين العربيتين كانت تجربة على طريق النضال منها نستفيد ، وعنها نتعلم ونأخذ الدروس .

وكان هذا هو نفس احساسه ازاء نكسة الخامس من يونيو (حزيران) ١٩٦٧ . لقد هزت هذه النكسة ساطع من الاعماق ، لكنها لم تبلغ به حد اليأس ، ولم تزعزع ثقته في نصر قريب ..

لقد كان يؤمن أنه ما من أمة وصلت الى الكمال الذى تنشده الا بعد أن اجتازت عقبات كثيرة ، واضطرت الى تضحيات عديدة ، كانت عقيدته هو أن الاستعداد التام ، مصحوبا بروح التضحية الحقيقية ومدعوما بالأمل الذى لا يقهر ، هو أهم ما يترتب علينا ، وما يجب أن يلتزم به أبناء هذه الامة العربية •

ولم يؤمن ساطع بأن للانسان سنا ينبغىعنده أو بعده أن يخلد الى الراحة ، فلقد رأيت وأنا أبحث فى أوراقه الخاصة عند اعدادى لهـذا البحث ، أن ساطعا قد وضع لنفسـه خطة فى عام ١٩٦٩ هى أن يصدر ثلاثة كتب عن مذكراته فى تركيا ثم فى سورية ومصر • وشاء الله الا يشهد ساطع هذا العام وأن تفيض روحه قبل أن يحل •

عاش ساطع الحصرى مخلصا لقضيته يبحث فى كل ما يقرأ عما يمكن أن يعود بالفائدة على القضية العربية ويخدمها ، يؤرخ لابن خلدون باعتباره رائدا من رواد الفكر العربى بعد أن يرى قلة الابحاث والدراسات المنشورة عنه باللغة العربية •• وأهم ما يركز ســاطع حوله فى هذه الدراسة الواسعة التى قام بها لابن خلدون أن ينفى عنه ماحاول البعض الصاقه بهذا العلامة الكبير من أنه نعت العرب بأوصاف تحقر من شأنهم ، وأنه كان من الكافرين بالعروبة • فينبرى ساطع للرد على ذلك موضحا الخطأ فى هذا على نحو ما سنضعه بين يدى القارىء الكريم حين يجىء موضعه من الحديث •

ويهتم بالتاريخ بالنسبة لمدى ما يمكن أن يسديه لخدمة القضية العربية •• ومن القول المأثور عن ساطع « اذا كانت اللغة هى الروح والحياة فالتاريخ هو الوعى والشعور » •

والتعليم عنده ينبغى أن يكون هدفه الاول والاساسى تربية الاجيال العربية تربية قومية ، ويصطدم ساطع فى سبيل تحقيق

ذلك بالعقبات الكثيرة في العراق وفي سورية ، وحين تتغلب عليه العناصر الرجعية في العراق وتبعده عن الاشراف على التربية والتعليم الى وظيفة مدير الآثار يتجه بالعمل فى هذه الناحية الى المدى الذى يمكن أن يخدم الفكرة القومية ، فيهتم بالكشـــف عن الآثار التى توضح ماضى العرب وحضارتهم العريقة ٠

وتناول شخصية ســـاطع فى بحث واحد من أصعب الأمور على الكاتب ، فكل جانب من جوانب تلك الشـخصية كاف وحـده أن يتناول فى كتب بل فى مجلدات ٠٠ وكل ما حاولته فى هذا البحث هو أن أكشف عن بعض نواحى العظمة فى شخصية ساطع ٠٠ وكل أملى أن يتبع هذا البحث بأبحاث أخرى فى شخصية هذا الفيلسوف والعلامة الكبير ٠٠ بهذا يكون الكتاب والمثقفون العرب قد أدوا بعض ما عليهم من دين لأمتهم ، لا أقول تجاه ساطع ، فلم يكن الحصرى سوى أحد جنود أمته ٠٠ وتكريم ذكرى ساطع هو العمل المخلص الجاد من أجل الامة العربية مثلما فعل ٠٠

سمو ما بعده سمو فى كل نواحى حياته ومراحلها ٠

يعين فى عمل من الاعمال أو فى وظيفة من الوظائف ، وهو يضع لهذه الوظيفة مسئولياتها التى ينبغى أن يقـــوم بها ، فاذا ما واجهته المشاكل قاوم وحاول التغلب عليها ، فاذا أعيته الحيلة بادر الى الاستقالة لينفض عن نفسه أمام الله وأمام أمته مسئولياتها

كان ذلك منهجه من أصغر وظيفة الى أكبرها ، ومن أول منصب الى آخره ٠

فحين تخرج ساطع من المدرسة الملكية فى القسطنطينية عام ١٩٠٠ ، وعين مدرسا للعلوم ووجد الكتب التى يستخدمها المدرسون فى تدريسهم مشحونة بالاغلاط والاخطاء ، حاول أن يقنع وزارة

المعارف العثمانية بأن تغير في مناهجها وخططها التعليمية ، فلما لم تصغ الى نصحه آثر الاستقالة .. وفعل ساطع نفس الشيء في آخر عمل له حين دفعه حرصه الشديد على معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية الى تقديم العديد من المقترحات والاصلاحات الخاصة به ، فلما لم يؤخذ بما اقترحه بادر الى الاستقالة ، وآثر المعيشة فى غرفة متواضعة فى احد فنادق القاهرة ، يعيش على دخل ضئيل من موارد كتبه ، ويرفض كل العروض التي قدمت لمساعدته مادية وأدبية .

كانت العروبة عنده عقيدة وايمانا ، ويكفى أن أشير فى هذه المقدمة الى حديثه عند انتصار الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٩٢٥ على المملكة الهاشمية فى الحجاز ، ونزعه الملك الحجاز من الملك حسين ابن على ، وكان ساطع شديد الارتباط بهذا الملك وبأسرته وبابنه فيصل ، فلقد عمل معه وزيرا للمعارف فى سورية ، ثم عمل معه بعد ذلك فى العراق حتى توفى الملك فيصل عام ١٩٣٣ م . لكننا نجد ساطعا يؤيد ما قام به الملك عبد العزيز آل سعود ، ويسمو السمو كله ويرتفع الى أعلى مراتب العظمة حين يقول :

« ومع ما أكنه من الاجلال والتعظيم لذكرى الملك حسين بن على فانى أقرر أن ما قام به الملك عبد العزيز بن سعود ، من ضم للحجاز والعسير ، موافق لمصلحة الأمة العربية .. **أقول ذلك لأنى أنظر الى القضايا العربية نظرة مجردة من النوازع الشخصية ، واضعا مصلحة القومية العربية فوق كل اعتبار** .. لا أقول ياليت (الحسين بن على) بقى على رأس مملكته حتى مماته ، ولا أقول ياليت المملكة التى أسسها بقيت قائمة حتى الآن .. بل اننى أقول ان ما تم على يد عبد العزيز بن سعود كان بمثابة خطوة من الخطوات الفردية للسير فى سبيل تحقيق الوحدة العربية .

أرأيت أيها القارىء الكريم مثل هـذا السمو في الشخصية ومثل هذا الايمان بمثل عليا لا تتأثر بنزعة من النوازع ، أو بعاطفة من العواطف ، أو صلة من الصلات ؟

ولم يحصر ساطع نفسه داخل نطاق ضيق من المعرفة ، فمن دراسة للتاريخ الطبيعي وفنون التحنيط والتشريح وما اليه ، الى دراسة لعلم الطبيعة والهندسة والرياضة، حتى تنبأ له زملاؤه في المدرسة أنه سيكون أشبه بأرشميدز .. وذلك كله الى جانب دراسة في علم الاجتماع والفلسـفة والأخلاق وتحقيق في التراث العربي ونبوغ في الترجمة ودراسة في اللغة والأدب .

ونحمد الله أن الأمة العربية قد وعت لساطع ما فعل ، وحفظت له ما صنع من أجلها ، وأن مصر التي عاش يخفق قلبه بحبها ، والتي دافع عن وجهها العربي أمام المتجنين عليهـا قد كرمته في شخص الرئيس عبد الناصر حين منحته جائزة الدولة في العلوم الاجتماعية عام ١٩٦٥ عن كتابه (الاقليمية جذورها وبذورها) ، وكرمه الشعب المصري بعـد وفاته ، فبادر تنظيمه السياسي الممثل في الاتحـاد الاشـتراكي العربي يقيم له حفل تأبين في الخامس عشر من فبراير ١٩٦٩ ، ويدعو فيه الدكتور لبيب شقير الجامعة العربية الى تخصيص أسبوع لدراسة فكر ساطع .

وتبادر أجهزة الاعلام في مصر الى الحديث عن تخليد ذكراه ، وتبدأ الهيئات العلمية في عقد الندوات التي تدعو فيها المثقفين الى دراسة عميقة واعية لفكر ساطع كأحد متطلبات المعركة في ظروفنا الراهنة.

وليكن لنا فيما كتب ساطع زادا نتزود به على الطريق ، ودافعا لما نحن مقدمون عليه من نضال قاس مرير ، من أجل حياة حـرة كريمة ، والله الموفق .

المؤلف

الفصل الأول

أسرة ساطع ونشأته الأولى

يكاد يكون الحديث عن أسرة ســاطع ونشأته الأولى من أهم الفصول فى هذا البحث لأنه ليس هناك شيء عن ذلك فى احد الكتب أو المراجع ، واقتضانى البحث عن ذلك الرجــوع الى أوراق المرحوم ساطع الحصرى الخاصة وما حفظه من وثائق ٠

نسب ساطع :

يصر ساطع فى مذكراته ، ويرجو أن يكتب لقبه مشكلا على هذا النحو الحصرى Husri وذلك بعكس ما لقبته به الكثير من دور النشر ٠

يقول ساطع : ولدت فى صــــنعاء من والدين عربيين حلبيين فى تاريخ يصادف ٥ من آب (أغسطس عام ١٨٨٠ ٠

ووالدى هو : محمد هلال بن السيد مصطفى الحصرى

ووالدتى هى : فاطمة بنت عبد الرحمن الحنيفى

ووالدة والدتى : جميلة بنت أسعد الجابرى

كلهم ينتسبون الى أسر عربية حلبية ٠

لقد انجب والدى خمسة عشر ولدا : ثمانية بنين وسبع بنات العشرة الاولى من أمي والخمسة الأخيرة من شركسيات ٠٠ ولقد كنت السادس من السلسلة الأولى ، وأقدم صورة تظهرنى مع والدى واخواتى تعود الى (١٨٨٥ ــ ١٨٨٦) وهى مأخوذة فى طرابلس الغرب وهى تظهر والدى وهو يرتدى الجبة والعمامة ، وكان لى فى ذلك خمس سنوات ، وكانت قد توفت احدى اخواتى واحد اخوتى ، وأصبحت الرابع بين أفراد الأسرة ، وقد ظهر فى الصورة التى أشير اليها ولدان لأبى هما : بشير مجدى وبديع نورى ، وبنتان : بديعة ولطفية ٠

وكان فى بيتنا ثلاث عبدات كن يتنقلن معنا على الدوام ٠٠ وكان ينضم اليهن بعض الخدم والخادمات فى كل مدينة نحل فيها ٠ وغنى عن البيان أن كثرة أفراد العائلة ــ علاوة على كثرة تنقلاتها بحكم ظروف عمل والدى ٠ كانت من العوامل التى زادت من ثروة الذكريات التى لازمت حياة طفولتى ٠

كان والدى يقول : ان اجداده انتقلوا من الحجاز الى حلب فى القرن التاسع للهجرة ، وكان يحتفظ بشجرة نسب تشهد على ذلك، وهذه الشجرة من جملة الاوراق التى وصلت الى ، على الرغم من الحرائق التى أتلفت أوراق والدى ومخطوطاته ومؤلفاته وديوانه ، وهى (شجرة النسبة هذه) يبلغ طولها ٤٨٧ سم والقسم المكتوب منها ٢٧٠ سم ٠ ويعود أصلها الى القرن السابع للهجرة وقد جاء فيها :

ــ صحت هذه النسبة الشريفة وقوبلت بنسب الشريف محمد

ابن عمر ، وشهد بصحتها القاضى عبد الوهاب الحسينى وأثبت فى مقابلة نسبه بخطه فى دار الرصاصى فى شهر ذى الحجة سنة خمس وستمائة • وفيها شهادة بصحة النسخ تنص على مايلى :

ـ نسخت هذه النسبة المباركة وشهد بصحتها وقوبلت عليه الشريف أحمد فرج البكرى الحاكم بالمدينة المنورة ، وشهد بصحتها عيسى بن سيجوره البكرى ، وسنان بن ابراهيم الحسينى ، وعبد الرحمن المحاصر يومئذ فى المدينة ، والسيد شريف محمد ابراهيم الشريف ، وعبيد بن محمد الشريف ، والسيد الشريف أحمد بن محمد الوتارى ، فيثبت هذا النسب الشريف بشهادة هؤلاء السادة الاشراف ••

وبعد ذلك تنص الشجرة على نقل هذه النسبة الشريفة الى حلب على يد السيد الشريف أحمد بن السيد ادريس الحسينى فى رمضان سنة سبع وسبعين وثمانمائة •

ثم يقول ساطع عن شجرة النسب هذه : « أنا أعرف أن أمثال هذه الشجرات لا يمكن أن تعتبر من الدلائل القاطعة على اتصال النسب بالامام على ومع هذا لا أرى ما يستوجب الشك فى صحة ما جاء فيها عن أن أجداد والدى كانوا فى الحجاز ، وانتقلوا منها الى حلب ، على كل حال رأيت أن أذكرها هنا نظرا لاعتقاد والدى فيها » •

القسم الأول من حياة ساطع :

يقول ساطع فى أوراقه : جاء فى ترجمة (حال والدى) الرسمية المحفوظة فى سجلات الدولة العثمانية أنه درس العلوم العربية والشرعية فى لمدرسة الاسماعيلية بحلب ، ثم أتم دراسته فى الازهر الشريف بالقاهرة ، ونال «الاجازة» هناك على يد الشيخ محسن

الدمنهورى والشيخ حسن العدوى الحمزاوى (١) ، وهما من شيوخ الازهر المشهورين ومن المؤلفين المعروفين .

وعاد والد ساطع الى القسطنطينية بعد أن تم دراسته فى الازهر حيث عمل فى سلك القضاء الشرعى بعد أن تقدم للامتحان أمام الهيئة المنوط بها تعيين القضاة الشرعيين فى بلاد الدولة العثمانية ، والتى كانت تعرف باسم (مجلس انتخاب حكام الشرع). وجاء أول تعيينه لوظيفة القاضى الشرعى فى دير الزور ثم حماة ، وكانت تابعة لولاية حلب فى ذلك الحين، وكان نظام القضاء الشرعى فى ذلك الوقت أن يعين القاضى لمدة سنتين فى مكان ، فاذا ما انتهت هذه المدة فى المكان الذى عين فيه عاد الى القسطنطينية ينتظر تعيينه فى مكان آخر .

وعندما أتم والد ساطع مدة السنتين فى حماة وعاد الى القسطنطينية لم يطلب تعيينه قاضيا شرعيا فى مكان آخر من أيالات الدولة العثمانية ، وانما أراد العمل فى المحاكم التى عرفت فى ذلك الحين بالنظامية ، وكانت الدولة العثمانية قد أخذت تنشىء هذه المحاكم فى مراكز الولايات العثمانية ، وجعلتها محاكم مستقلة عن المحاكم الشرعية ، وعهدت الى هذه المحاكم النظامية بالأمور المدنية ،

---

(١) عاش الشيخ حسن العدوى الحمزاوى مابين سنتى ١٢٢١ ـ ١٣٠٣ هـ (١٨٠٦ ـ ١٨٨٦ م) وهو من قرية عدوة من قرى مديرية المنيا بمصر ، وكان من أكبر فقهاء المالكية فى مصر ، وكان يفخر كل من يتتلمذ عليه ، وله العديد من المؤلفات منها (النور السارى من فيض صحيح البخارى) يقع فى خمسة مجلدات و (النفحات الشاذلية) و (ارشاد المريد فى خلاصة علم التوحيد) .

وكان له مركز كبير وكان الحكام فى مصر يكرمونه ويقبلون شفاعته وبنى المسجد المعروف باسمه بعطفة الشنوانى قرب مسجد سيدنا الحسين .

ارجع الى الخطط التوفيقية جـ ١٤ ص ٣٧ ، الاعلام فى قاموس التراجم لاشهر الرجال والنساء : خير الدين الزركلى جـ ٢ ص ٢١٤ .

وتقدم والد ساطع الى الامتحان الذى عقدته وزارة العدل العثمانية في القسطنطينية وتولى أمر هذا الامتحان في هذه الوزارة لجنة خاصة عرفت بمجلس انتخاب موظفى العدلية ٠

ونجح محمد هلال الحصرى (والد ساطع) فى هذا الامتحان الذى أجرى لاختيار القضاة المدنيين فى الدولة العثمانية ، وعين رئيسا لمحكمة الاستئناف في ولاية اليمن ، وسافر على الفور للقيام بأعباء وظيفته في صنعاء اليمن وكان ذلك فى أواخر سنة ١٨٧٩ ، وهناك فى صنعاء ولد ساطع فى الخامس من أغسطس (آب) عام ١٨٨٠ ٠

ولم تطل مدة بقاء والد ساطع الحصرى فى اليمن أكثر من سنتين ، لأن (وزارة العدلية) العثمانية قررت الغاء المحاكم النظامية فيها (فى اليمن) ، وغادر محمد هلال الحصرى اليمن وعاد الى عاصمة الدولة العثمانية (القسطنطينية) فى أوائل سنة ١٨٨١ ومعه ساطع قبل أن يتم السنة الاولى من حياته ٠

تنقلاته مع والده وأسرته :

وبعد عودة والد ساطع الى القسطنطينية عين رئيسا لمحكمة الاستئناف (أو كما كانت تسمى دائرة الجزاء) فى ولايات : اضنه، انقره ، طرابلس الغرب ٠ ثم عاد ساطع الى اليمن للمرة الثانية مع والده عندما عاد اليها للعمل فى القضاء بها ، بعد أن أعيد اليها نظام المحاكم النظامية ، ثم الى قونيا ٠ وبعدها نقل والده الى طرابلس الغرب (للمرة الثانية) وكان ذلك سنة ١٨٩٢ ميلادية ٠

وكان المتبع أنه عندما ينقل والد ساطع من ولاية الى أخرى كان يسافر الى عاصمة الدولة العثمانية ويبقى فيها مدة تتراوح بين ثلاثة أشهر وسنة قبل أن يسافر الى عمله الجديد فى الولاية المنقول اليها ٠

ولقد عاد والد ساطع الى القسطنطينية قبل سفره الى طرابلس الغرب للمرة الثانية ، ليترك ساطع بهـــا ليتم تعليمه فى القسم المتوسط ، ثم القسم العالى ، وذلك بالمدرسة الملكية الشاهانية .

وكانت كثرة تنقلات والد ساطع وهو فى المرحلة الاولى من حياته حائلا دون التحاقه بمدرسة إبتدائية معينة ، ومع هذا تعلم ساطع القراءة والكتابة التركية مع الفرنسية فى البيت من اخوته بوجه خاص .

يقول ساطع فى مذكراته : قدر لى أن أتنقل خلال السـنوات الاثنتى عشرة الاولى من حياتى بين المدن التالية : من استانبول الى أضنه ، من أضنه الى أنقرة ، من أنقرة الى استانبول ، من استانبول الى طرابلس الغرب ، ومن طرابلس الغرب الى اســتانبول ، من استانبول الى صنعاء اليمن ، من صنعاء اليمن الى استانبول ، من استانبول الى قونيا ، من قونيا الى استانبول ، وكان الانتقال بين هذه المدن المتباعدة يتم فى ذلك التاريخ بوسائل متنوعة وشاقة : الجمال ، البغال ، عربات الخيول ، البواخر ، السكك الحديدية .. ولقد تركت هذه الرحلات التى تمت خلال طفولتى فى نفسى أثرا من الانطباعات العميقة ، والذكريات المتنوعة .

دراسته فى المدرسة الملكية باستانبول :

درس ساطع فى هذه المدرسة مدة سبع سنوات أربــع منها بالتعليم المتوسط (الاعدادى) والثلاث الاخيرة بالقسم العالى ، وبقى طوال هذه المدة بالقسطنطينية لم يغـادرها الا مرتين لمدة قصيرة ، وذلك خـــلال عطلة الصيف حين ذهب الى طرابلس الغرب لزيارة والده ، والى حمص وبنى غازى لزيارة أخيه الاكبر (بشير مجدى) الذى كان قد تولى وظيفة المدعى العام فى المدينتين المذكورتين .

وبقي ساطع خلال السنوات الثلاث الاولى التى أمضاها فى المدرسة الملكية بالقسم الداخلى ، وكان معه أخوه (بديع نورى) الذى كان يكبره بأربع سنوات ، والذى كان فى القسم العالى منها٠٠ وبعد مضى السنوات الثلاث الاولى عاد والده الى القسطنطينية ليقيم فيها فترك ساطع القسم الداخلى ، وأقام مع والده ٠

ولقد أبدى ساطع خلال دراسته الاعدادية ولعا بالعلوم الرياضية ، وأظهر مقدرة فائقة على حل المسائل العويصة ، ولم يكتف بما كان يدرس له من دروس الرياضة فحصل على مذكرات الرياضة التى كانت تدرس فى مدرسة الهندسة وفى مدرسة أركان الحرب ، وولع بعد ذلك بوجه خاص بالهندسة التحليلية ، حتى ان زملاءه فى المدرسة لقبوه بلقب « ارشميدز » ٠

ووجد ساطع فى نفسه ميلا الى دراسة العلوم الطبيعية وأخذ يقرأ الكتب المؤلفة باللغة الفرنسية فى هذه العلوم ، ووضع لنفسه أمنية عاش على أمل أن تتحقق ، وهى أن يصبح عالما فى هذه العلوم، ومضى ساطع فى دراسته بالقسم العالى من المدرسة الملكية الشاهانية يدرس العلوم الادارية والسياسية ، وعندما يعود الى بيته فى المساء ينصرف الى دراسة العلوم الطبيعية ، بل وصل به الاهتمام والنبوغ فى هذه العلوم أن نشر عدة مقالات بعضها اسم مستعار وبعضها باسمه الصريح فى نقد كتب العلوم الطبيعية المقررة للمدارس الثانوية ، والتى كانت تسمى فى ذلك الحين بالاعدادية ٠

أعماله بعد تخرجه من المدرسة الملكية (من ١٩٠٠م ــ ١٩١٨م) :

تخرج ساطع من المدرسة الملكية عام ١٩٠٠ م أى فى بداية القرن العشرين فلم يشأ أن يشتغل بالوظائف الادارية التى تخولها له شهادته ، بل دفعه حبه للعلوم الطبيعية أن قدم طلبا لوزارة

المعارف العثمانية ، لتعيينه مدرسا للعلوم الطبيعية في المدارس الثانوية ، التي كانت تعرف بالاعدادية على نحو ما سبق القول ، وتم بالفعل تعيينه في ثانوية ولاية يانيا (Joanina) وكانت تقع هذه الولاية في أقصى الغرب من البلاد العثمانية الاوربية ، وتقع يانيا على شمال بحر اليونان ، وجنوب بحر الادرياتيك ، وعندها تمر الحدود بين البانيا واليونان ، وبقي ساطع فيها خمس سنوات ، ولقد تمكن خلال وجوده بها وبفضل سهولة اتصالها بالمدن الاوربية أن يحصل على كثير من الكتب الفرنسية التي نشرت في باريس ، وأن يشترك في عدة مجلات علمية ، وأن يحصل على الادوات والمواد التي استطاع بها تحنيط الطيور والحيوانات وجمع الحشرات ، وعمل التجارب على زراعة النباتات المختلفة ، وأن يتسع أفقه ومداركه بفضل توسعه الكبير في دراسة العلوم الطبيعية .

ولم يقتصر ما كان يدرسه ساطع في مدرسة يانيا هذه على العلوم الطبيعية وحدها ، فلم يكن لدى وزارة المعارف العثمانية اعتراف بفكرة التخصص في المواد ، كذلك عهد اليه المسئولون عن التعليم في يانيا — نظرا لتخرجه من المدرسة الملكية — القيام بتدريس المعلومات القانونية التي كانت تدرس للتلاميذ وعلم الثروة (وهو الاسم الذي كان يطلقه في ذلك الحين على علم الاقتصاد) والتاريخ.

واستمر ساطع على هذا النحو سنتين ثم اقتصر عمله بعد ذلك ولمدة ثلاث سنوات أخرى على تدريس علم التاريخ الطبيعي ، وألف ساطع في ذلك الحين عدة كتب مدرسية ، وهذه الكتب هي معلومات زراعية ، دروس الاحياء ، علم الحيوان ، علم النبات ، التطبيقات الزراعية .

وقد قررت وزارة المعارف العثمانية تدريس الكتابين الأولين للمدارس الابتدائية كما قررت تدريس الكتابين الذين أصدرهما ساطع تحت اسم (دروس الاحياء ، وعلم الحيوان) على طلبة المدارس

الثانوية ، وأخذ ساطع يكتب العديد من المقالات العلمية التى أخذت الصحف فى القسطنطينية تنشرها ، وكان يستهدف منها تبسيط العلوم وتحبيب الناس فيها ، وجاء بعض هذه المقالات يصف مناظر الطبيعة ، وبعضها فى عرض الاكتشـــافات والاختراعات العلمية ، وفى نشأة علم الكيمياء ، الاشعة المجهـولة ، التلغراف اللاسلكى ، العالم القطبى ، لمعان البحر ، مناظر الغروب •

على أن ماأخذ ساطع يكتبه بعد ذلك سرعان ما اصطدم بعراقيل كثيرة ناجحة عن اشتداد ظروف الاستبداد التى شـــهدتها الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد •

تولى السلطان عبد الحميد الحـــكم فى الدولة العثمانية فى أغسطس عام ١٨٧٦ وقد جاء به مدحت باشا الى الحـكم بعد عزله للسلطـــان عبد العزيز وتولية السلطان مراد الخـامس الذى كان مضطربا فى قواه العقلية فعزله (مدحت باشا) وكانت قد تجمعت فى يده السلطة الفعلية فى البـــلاد منذ توليه منصب الوزارة العظمى (رئيس الوزراء) فى سنة ١٨٧٣ على عهد السلطان عبد العزيز وكان (مدحت باشا) قائدا لحركة تركيا الفتاة الاولى •• وقد تكونت هذه الحركة من العناصر الوطنية التى رأت أنه لا بد من فرض الاصلاح فرضا على السلاطين العثمانيين الذين لا يجب أن يترك مصير حركة الاصلاح فى أيديهم ، وقد عبرت هذه الحركة عن نفسها فى الادب التركى فكانت الحركة الرومانتيكية ، ومع أن هذه الحركة لم تكن لها قوة كبيرة ، ولم تترك أثرا بعيدا ، الا أن أهميتها جاءت فيما تضمنته من تعبيرات جديدة فى الفـــكر التركى ، كالحرية الفردية والدستور والحياة النيابية(١) •

---

(١) ارجع الى كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ تأليف الدكتور أرنست أ . رمزور (جامعة برنستن) ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى ، وكذلك كتاب الدولة العثمانية «والشرق العربى» تأليف د. محمد أنيس ص ٢٤٨ •

جاء (مدحت باشا) بالسلطان عبد الحميد على أساس قبوله لفكرة الحكم الدستورى ، فأعلن الدستور (المشروطية) فى ٢٣ من أغسطس عام ١٨٧٦ ، لكن سرعان ما اتضح (لمدحت باشا) أنه أساء الاختيار فاستبد عبد الحميد بالحكم وعزل مدحت ، وأجل البرلمان وعطل الدستور ، وأخذ السلطان عبد الحميد يحكم البلاد حكما مطلقا مستبدا ، ويقاوم الاتجاهات التحررية كافة فى الولايات جميعها عن طريقة الجواسيس والعملاء متخذا شعار الوحدة الاسلامية شعارا لاستبداده ٠

وكشأن كل حكم مستبد أوجد السلطان عبد الحميد نظام الرقابة على المطبوعات ، وبدأت كل مقالات ساطع وكتبه تعرض على الرقيب قبل نشرها ، وأخذ أعضاء مكتب الرقيب يخشون من أن تكون هناك مقاصد خفية من هذه العبارة أو تلك ، فبدأ الحذف لهذه الكلمة والتبديل لهذه العبارة ، مما جعلت المقالات التى يكتبها ساطع تظهر ــ على حد قوله ٠ بصورة مضحكة مخلة بالمعنى المطلوب وأحيانا تعكس هذا المعنى تماما ٠ وتمشيا مع تعليمات الرقابة ، تشددت وزارة المعارف العثمانية فى ضرورة تمسك المدرسين فى المدارس باتباع ما هو مكتوب فى الكتب المدرسية ، وعدم الخروج عليه ٠٠ وكانت المادة التى احتوتها الكتب المدرسية ــ كما لاحظ ساطع ــ محشوة بالأخطاء العلمية ومليئة بنظريات ثبت بطلانها بدلائل علمية حاسمة ، ومن ثم شعر ساطع بصعوبة العمل فى سلك التدريس سنة بعد أخرى ٠ وازاء ذلك قرر أن يجرب العمل فى الحياة الادارية ، فغادر يانيا الى القسطنطينية بعد أن أهدى للمدرسة التى كان يعمل بها متحف التاريخ الطبيعى الذى كان قد كونه طوال السنوات الخمس التى قضاها بها ٠

رغب ساطع أن يعمل فى مقدونيا أو كما كانت تسمى بالولايات الثلاث اشارة الى (سالونيك salonika ، موناستير

Monastir ، قوصوه Kosov) ، وكانت مساوى العهد الحميدى قد اشتدت فى جميع الولايات العثمانية ، باستثناء هذه الولايات على حد قول ساطع ـ نظراً لما تقرر لها من نظام دولى خاص ٠

وتفصيل ذلك أن مقدونيا شهدت على عهد السلطان عبد الحميد اضطرابات سببها تحرك العناصر غير المسلحة بها لتحرير مقدونيا من حكم الترك ، وتكونت جمعيـات سرية فى سالونيك فى نوفمبر من عام ١٨٩٣ ، كان شعارها مقدونيا للمقدونيين ٠ كما تكونت فى صوفيا جمعية ثورية طالبت بضم كل مقدونيا لبلغاريا، كذلك تحرك اليونانيون يطالبون بضمها الى بلادهم الأمر الذى أدى الى قيام الحرب بين تركيا واليونان فى سنة ١٨٩٧ : والتى انتهت بهزيمة اليونان ، ونجم عن ذلك كله حالة مضـــطربة فى مقدونيا ، ممـا دعا سفيرا روسيا والامبراطورية النمسوية المجرية الى تقديم مذكرة مشــتركة فى الحادى والعشرين من فبراير سنة ١٩٠٣ يطالبان فيها بتعيين مفتش عام للولايات المقدونية الثلاث ، وأن تنـظم قـــوات الدرك (الجندرمة) فيها بمساعدة ضباط أجانب ضمانا لحفظ الامن فيها ٠ ونزل السلطان عبد الحميد على رغبة هاتين الدولتين ، ثم تلا ذلك أن قدمت حكومتا روسيا والامبراطورية النمسوية الجزء الثانى من مشروع الاصلاح المقترح لمقـــدونيا والذى عرف ببرنامج مورستيج Mursteg ، وقبله السلطـــان العثمانى كذلك حيث تقرر تعيين مستشارين زوس ونمسويين للعمل مع (حسين حلمى باشا) المفتش العام العثمانى ، وعهد الى جنرال ايطالى مهمـة اعادة تنظيم قوات الشرطة (الجنـــدرمة) يعـاونه مفتشون فرنســيون ، انجليز ونمسويون ، وروس وايطاليون ٠

أصبح الوضع فى مقدونيا على هذا النحو أحسن من غيره من ولايات الدولة العثمانية التى استشرى فيهـا الفساد ، ومساوى الحكم العثمانى التى عمت كل أنحاء الولايات على عهـــد السلطان

عبد الحميد .. فالمفتش العثـــماني من حقه أن يتصرف في أمور مقدونيا دون أن يراجع الوزارة القائمة في عاصمة الدولة العثمانية، والهيئة الدولية في مقدونيا مكلفة بتنظيم الامور فيهـا ، ومستوى التعليم فيها (مقدونيا) أرقى من بقية الولايات العثمانية ، لأنها أكثر اتصالا بالعالم الاوربي ، وكل ذلك جعل ساطع الحصري يرغب في الخدمة فيها انتظارا الى تخلص الدولة العثمانية من مساوى الادارة الحميدية .

وكما سبق القول رغب ســاطع أن يجرب العمـــل في الحياة الادارية فغادر يانيا الى القسطنطينية ، حيث قدم طلبا الى وزارة الداخلية ، راغبـــا تعيينه في مقدونيا ، وتحققت له رغبته بتعيينه « قائمقام » في رادويشته التــابعة الى ولاية قوصوه احدى ولايات مقدونيا . ولما كانت هذه المنطقة قريبة من الحدود البلغـــارية فقد شهدت الكثير من نشاط العصابات البلغارية .. وبقي بهـا ساطع مدة سنتين انجز خلالها الكثير من الاعمــال الاصلاحية ثم نقـل الى «قائمقامية» فلورينا التابعة الى ولاية موناستير من الولايات المقدونية الثلاث على نحو ما سبق ذكره(١) .

وحين وصل ساطع الى مقدونيا ليعمل فيها كانت (مقدونيا) في ذلك الحين معقل الضباط الثائرين في الجيش الثالث العثماني .. فلقد ولد مصطفى كمال (اتاتورك) في سالونيك ، وتخرج من كلية أركان الحرب في يناير من عام ١٩٠٥ حيث عهـــد اليه بمنصب عسكري في دمشق وبدأ مصطفى كمال يجمع العناصر الساخطة على عبد الحميد ، وألف منها في اكتوبر من عـام ١٩٠٦ جمعية سماها

(١) مما تجدر الاشــــارة اليه ان مدينة رادوبشـــتة أصبحت بعد الحرب البلقانية من أجزاء يوغسلافيا . أما مدينة فلورينا فأصبحت من أجـــزاء دولة اليونان . أما موناستير فأصبحت من أجزاء يوغسلافيا وأصبحت تعرف بيطوليا .

الوطن .. وعندما نقل مصطفى كمال الى سالونيك حدث اتصال بينه وبين الجمعية السرية فيها فى أوائل عام ١٩٠٧ واتفقا على العمل المشترك ، ووضعا دستورا موحدا للحركتين تحت اسم الاتحاد والترقى .

وبدأت حركة الاتحاد والترقى فى الاتصال بالعناصر المناوئة للاستبداد الذى اشتهر به السلطان عبد الحميد ، وكان ممن اتصلت به ساطع الحصرى ، وبرغم أن مهمته كانت تقضى أن يبلغ المسئولين عن هذه العناصر الوطنية بحكم عمله في الجهاز الادارى للدولة العثمانية ، الا أن ساطعا أيد هذه الحركة الثورية وباركها وعمل بكل جهده لتأييدها .

ثم اتفق على أن تقوم الثورة ضد السلطان عبد الحميد فى ذكرى الاحتفال بعيد جلوسه فى ٢١ من أغسطس عام ١٩٠٨ ولكن حدث ما عجل بالثورة فقد تمت مقابلة بين ادوارد السابع ملك انجلترة وقيصر الروسيا فى ريفال فى ظروف الاتفاق الودى عام ١٩٠٧ لتصفية الخلاف بين الدولتين . وفهم من هذا الوفاق أنه مساومة استعمارية بين الدولتين على حساب الدولة العثمانية ، كما حدثت اضطرابات فى البانيا ضد النمسا ، وفهم ان ذلك سيبرر تدخل النمسا فى البانيا . تحرك الضباط العثمانيون الثائرون لمواجهة الخطر الخارجى على الدولة العثمانية ، وأرسلوا للسلطان عبد الحميد يطالبونه باعادة دستور عام ١٨٧٦ الذى عطله فى عام ١٨٧٨ .. وفى ٢٤ من يوليو عام ١٩٠٨ أعلن السلطان عبد الحميد اعادة الدستور (المشروطية) وألغى الرقابة والجاسوسية . وقوبل اعلان الدستور بابتهاج بالغ وحماسة شديدة فى أنحاء الامبراطورية العثمانية كافة ، وجاءت الجماعات فى فلورنيا الى ساطع مهنئة مباركة ، وأخذ ساطع يلقى فيها الخطب الحماسية الملتهبة ، ونشرت

كلماته في جريدة النورة التي صارت تصدر باسم (نير حقيقت) أي شمس الحقيقة ٠

ولم يرغب ساطع أن يمضي قدما في الحياة السياسية، فعاوده الحنين الى حياة العلم والتعليم والتأليف ، فقدم استقالته من وظيفته، وعاد الى عاصمة الدولة راغبا أن يستفيد من الحرية التي أمل الناس فيها بعد اعلان المشروطية ، لتحقيق مخططه القديم في نشر نهضة علمية ٠

عمله في القسطنطينية (١٩٠٨ ـ ١٩١٨م) :

عندما عاد ساطع الى عاصمة الدولة العثمانية أقدم على الفور في اصدار مجلة علمية عنوانها أنوار علوم (أي أنوار العلوم) ولكنه سرعان ما عرف أنه كان مخطئا في اصدار مجلة علمية في تلك الآونة لأن حماسة الانقلاب السياسي كانت شغل الناس الشاغل ، فلم تجد مجلته العلمية رواجا ، فعدل عن اصدارها ، وصار ينشر مقالاته في مختلف الصحف والمجلات ، كما تولى التدريس في عدد من المدارس والقى الكثير من المحاضرات في مختلف النوادي والمدارس العالية ٠

لكن أبرز ما قام به ساطع خلال هذه الفترة تلك النهضة العلمية التي شهدتها مدرسة المعلمين في القسطنطينية ،حين عهد اليه بأمر ادارتها ٠ أعاد ساطع تأسيس هذه المدرسة على أسس جديدة تماما ، دون أن يتقيد بمناهجها القديمة ، أو بهيئتها التعليمية ٠ وأدخل في مناهجها لأول مرة علم النفس، وفن التربية والتدريس، كما ألحق بها مدرسة يطبق فيها التلاميذ ما يتلقونه من محاضرات ٠

ولم ينحصر نشاطه عند الأخذ بتحسين مستوى دار المعلمين فحسب ، بل تعدى ذلك الى مختلف المدارس القائمة في البلاد

العثمانية كلها ، فأنشأ مجلة سماها مجلة التدريسات الابتدائية التى كانت أول مجلة تربوية تصدر باللغة التركية ، وكانت تتألف من قسم نظرى وآخر عملى ، وكان ساطع يجمع فيها الكثير من نماذج الدروس • وأخذت وزارة المعارف العثمانية توزع هذه المجلة على جميع المدارس الرسمية الموجودة فى الولايات العثمانية ، كما أنشأ فى دار المعلمين قسما لتخريج مدرسين فيهـــا ، وفى دور المعلمين الاخرى التى أخـذت تنتشر فى مختلف الولايات العثمانية ، ودعا ساطع المعلمين ومديرى التعليم الى عقد اجتماعات ومؤتمرات لمناقشة مختلف أمور التربية والتعليم ، وأحدث بهذه الطريقة انقلابا جذريا وأساسيا فى المدارس الابتدائية •

ثم استقال ساطع من العمل مديرا لدار المعلمين لخلاف بينه وبين وزير المعارف العثمانى ، لـــكنه ظل يواصل العمل فى مجال التربية والتعليم ، فأصدر مجلة خاصة سماها مجلة التربية وأنشأ مدرسة خاصة أسماها المدرسة الحديثة ، وألحق بها روضة للأطفال أسماها عش الاطفال ، كما أنشأ دار المربيات لتخريج مربيات يتولين تربية الاطفال الصغار وطبق فيها أحسن ما وجب من طرق التربية التى نادى بها علماء علم النفس والتربية • وظل يواصل العمل فى هذه السبيل حتى نهاية الحرب العالمية الثانية •

كان ساطع يؤمن أنه ينبغى للانسان أن يســافر فى رحلات يدرس فيها نظم التعليم فى البـــلاد الاخرى ، وقام بأولى رحلاته الاستطلاعية الى بلاد أوربا سنة ١٩١٠ حيث زار المدن التـالية : جنيف ، لوزان ، زيورخ ، باريس ، لندن ، بروكسل ، ميونخ ، برلين •• وقام خلال زيارته لهـذه المـدن وعواصم الدول بدراسة أحوال التعليم فيها ، ولا سيما دور المعلمين ، والدراسة فى المراحل الابتدائية وما تطبقه هذه الدول من نظم تعليمية جديرة بأن تحتذى•

وما كاد ساطع يعود من رحلته هذه حتى سافر الى ايطاليا في العام التالي سنة ١٩١١ حيث زار قسم التربية المهنية في المعرض الدولي الذي أقيم في تورينو . وسافر في السنة التالية عام ١٩١٢ الى لاهاي للاشتراك في المؤتمر الدولي للتربية الاخلاقية الذي انعقد هناك .

وتكررت زيارة ساطع بعد ذلك الى البلاد الاوربية فزار سويسرا وشاهد ما يطبق في الكانتونات السويسرية من نظم التربية والتعليم ، ومدى ما تقتبسه من نظم فرنسية وألمانية وايطالية ، وكان ساطع يتصل خلال رحلاته هذه بمشاهير رجال التربية والتعليم . وعندما تأسس معهد جان جاك روسو في جنيف تعرف ساطع الى أهم مؤسسيه ، وأخذ يحث وزارة المعارف العثمانية على أن توفد البعض من طلابها في بعثات تعليمية للدراسة في هذا المعهد ، نظرا لما يطبقه هذا المعهد من نظم جديدة في التعليم ، كما دعاه الاستاذ بير بوفيه Piere Bovet المؤسس والمدير الاول لهذا المعهد أن يكون من أعضاء الهيئة الراعية له أو التي تعرف

أما أهم آثار ساطع العلمية التي نشرها خلال تلك الفترة فكانت العديد من الكتب العلمية والمقالات ، وكلها كانت باللغة التركية .

وأهم هذه الكتب :

١ – فن التربية أصدره في ثلاثة مجلدات .

٢ – علم الأقوام وهي الدروس التي ألقاها في المدرسة الملكية

٣ – لأجل الوطن واسمه بالتركية (وطن ايتشون) .

٤ – الأمل والعزيمة. Comitee de Patronage (امين وعزم)

٥ ـ اليابان واليابانيون

٦ ـ تقاريرى

كما أخذ ينشر مقالاته فى جرائد (ملت طنين) (ووقت)، وفى مجلات العلوم الاقتصادية والاجتماعية ، وفى مجموعة سى ـ اجتهاد ـ ملكية مجموعة سى ـ معلم ـ آتيان ـ دو شونجه (التفكير) ، هذا فضلا عن مقالاته الكثيرة فى المجلات التى أصدرها أو تولى رياسة تحريرها مثل تدريسات إبتدائية ، تربية •

وعندما انتهت الحرب العالمية الاولى غادر ساطع بلاد الدولة العثمانية ليقيم فى البلاد العربية وهنا تبدأ فترة هامة وحافلة من حياته نتناولها فى الفصول التالية •

الفصل الثانى

ساطع فى البلاد العربية
(فى سورية والعراق)

غادر ساطع أرض الدولة التركية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى الى سورية ، وبقى فيها حتى استيلاء الفرنسيين على دمشق فى الخامس والعشرين من يوليو عام ١٩٢٠ ، بعد الموقعة الشهيرة التى جرت فى اليوم السابق (٢٤ من يوليو) عند ميسلون ٠

وهنا يبرز سؤال نرى من الأهمية مناقشته ٠٠ لماذا غادر ساطع الدولة التركية بصفة نهائية ليقيم فى البلاد العربية عقب الحرب العالمية الأولى ؟

ترتبط الاجابة على هذا السؤال بالدور الذى مرت فيه حركة القومية العربية ، لقد مرت هذه الحركة بدورين : الدور الأول ما بين ١٩٠٨ و ١٩١١ ، وهو دور الوفاق مع الحركة التركية القومية التى كانت موجهة ضد استبداد السلطان عبد الحميد ، وتركت هذه الحركة التركية أثرها على الولايات العربية بصفة خاصة ٠٠ فلقد حمل المفكرون العرب على السلطان عبد الحميد بنفس العنف الذى حمل به الأتراك الأحرار ، وهناك من المؤرخين من يرى أن كتاب

طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبى كان المقصـود منه مهاجمته عبد الحميد بالذات .

ولقد قوبل اعلان الدستور فى عام ١٩٠٨ بحماسة بالغـة عند العرب ، وأقيمت صلاة الشكر فى طرابلس الغرب على سبيل المثال ، أما الدور الثانى للحركة القوميـــة العربية فيبدأ منـذ سنة ١٩١٢ .. حين انفصلت هذه الحركة عن جمعية الاتحاد الترقى وبعد أن تطورت حركة الجامعة العثمانية الى الحركة الطورانية وهى دعوة صريحة الى تفوق الجنسى التركى وطمس معـــالم القوميـــات العربية . وكان لفشل الدولة العثمانية فى الدفـــاع عن طرابلس أثناء الحرب التركية الايطالية فى سبتمبر سنة ١٩١١ .. حين أطلق الاسطول الايطالى قذائفه على موانى طرابلس وبرقه ــ أن أحس العرب بضرورة ابراز كيانهم الخاص المتميز بهم . وجاءت هـــذه الحرب التركية الايطالية بعد أن أخذت الأحداث تتوالى على الدولة العثمانية منذرة نهايتهـا ، فضمت النمسا ولايتى البوسنة والهرسك واستقلت بلغاريا والجبل الأسود استقلالا تاما . وكانت نتيجـــة الحربين البلقانيتين الأولى والثانية أن أخذت الراية العثمانية ترتد نحو القسطنطينية .

وبدأ التفكير الدينى الاسلامى عند العرب يتحول الى تفكير قومى . وجاءت الأبحاث التى ألقيت فى مؤتمر الطلبة العرب فى باريس سنة ١٩١٣ تتناول تعريف الأمة العربية .

ومن هذه الأبحاث ذلك البحث الذى ألقاه عبد الغنى العريسى لتعريف الأمة العربية حيث قال :

هل للعرب حق جماعة ــ أى أمة ؟ ان الجماعات فى نظر علماء السياسة لا تستمد هذا الحق الا اذا جمعت على رأى علماء الألمان وحدة اللغة ووحدة العنصر ، وعلى رأى العلماء الايطاليين وحـــدة

التاريخ ووحدة العادات ووحدة الطمح السياسى ، فحق للعرب بعد هذا أن يكون لهم على رأى كل علماء السياسة دون استثناء حق جماعة ، وحق شعب ، وحق أمة • (١)

بدأت الحركة القومية العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى والهزيمة التى منيت بها تركيا فيها تستقطب كل العناصر المؤمنة بها ، ومنهم بطبيعة الحال ساطع الحصرى الذى رأى فى الدولة العربية التى تكونت فى سورية تحت حكم فيصل الأول بن الحسين بن على تجسيدا للحركة القومية العربية • فلقد كانت هذه الدولة ــ من وجهة نظر ساطع • عظيمة الدلالة وجليلة الشـــأن برغـم قصر عمرها الذى لم يتجاوز الأربعة شهور ٨ من مارس (آذار) ١٩٢٠ ــ ٢٥ من يوليو (تموز) من العام نفسه) •

يرى ساطع فى هذه الدولة العربية السورية الأولى تحقيقـا لأمل عزيز غال عند كل العرب فقد كانت وليدة الثورة العربية وقبلة آمالها • كانت دولة عربية عصرية بكل معانى الكلمة تشعر بعروبتها شعورا واضحا وتعمل للقومية العربية عملا متواصلا وتقدر فى الوقت نفسه مقتضيات الحياة العصرية تمام التقدير ، ثم كان يوم ميسلون وهو اليوم الذى سقطت فيه هذه الدولة الفتية اثر حملة عسكرية شنها الفرنسيون ، ثم يقول ساطع : « ونحن لا نغالى اذا قلنا ان ذلك اليوم كان يوما فاصلا فى تاريخ القضية العربية ، انه كان خاتمة الفصول الأولى من القضية العربية ، وفاتحة فصولها الجديدة ففيه انحل الجيش النظامى الذى تكون خلال الثورة العربية ، وبعده تبعثر رجال الثورة ، ودعاة القومية فى مختلف الأقطار ، وأخذوا يجابهون حياة كفاح جديدة ، شاقة ومتشعبة تختلف شروطهـــا عن شروط الصفحة الاولى اختلافا جوهريا ، لذلك يحق لنا ان نقول

(١) د. محمد انيس ــ الدولة العثمانية والشرق العربى •

بكل تأكيدا « ان يوم ميسلون كان من أخطر الايام التى مرت على الأمة العربية فى تاريخها الحديث » ٠

ولقد سطر ساطع تفاصيل هذه الأحداث فى كتـــابه الذى أسماه يوم ميسلون ٠

وحين نمضى مع كتابه هذا نجده وقد سجل الاحداث تسجيل المؤرخ الذى يعيش الاحداث ينفعل بها وتؤثر فيه يأتى بالوثائق ويعرض وجهة نظر الفرنسيين ، ويسرد مناقشـــاتهم البرلمانية وتصريحاتهم ٠٠ ومن ثم يعتبر كتاب ساطع الذى أســـماه (يوم ميسلون) من الوثائق التاريخية الهامة ٠ فلقد جاء حرصه عـلى تسجيل هذه الاحداث بسبب ما رآه من أن معظم الشهود تبعثروا عقب الواقعة فى مختلف الاقطار العربية وبدءوا حياة كفـاح جديدة وعنيفـــة ، صرفتهم عن التفكير فى جمع وثائق ذلك اليوم ، ونشر وثائقه بين الناس واظهار حقائقه للعيان ٠ (١)

وكان ساطع فى تلك الأيام على مسرح الاحداث بل فى قلب هذا المسرح ، وفى موقف خاص يسر له الاطلاع على جميع صفحات الوقائع بتفاصيلها التامة (ذلك لأنى كنت عضـــوا فى مجلس المديرين الذى كان يعمل عمل مجلس الوزراء منذ بداية تأليفـه حتى اعلان الاستقلال ثم وزيرا فى الوزارة الاولى التى تألفت اثر الاستقلال وبعد ذلك وزيرا فى الوزارة الثانية التى اعقبتها ، والتى بقيت فى الحكم حتى يوم ميسلون ، كل ذلك يسر لى الاطلاع على مقدمات القضية من أولها لآخرها اطلاعا مباشرا ، زد على ذلك أن لوزارة الأخيرة كانت قد عهـدت الى بمهمـة التفاوض من الجنرال غورو عقب تقدم جيوشه نحو سفوح ميسلون ، فتسنى لى من جراء ذلك أن أطلع على تفاصيل الصفحة الاخيرة من القضية أكثر من أى

---

(١) يوم ميسلون ، ساطع الحصرى ص ٣٠ ٠

شخص آخر • ثم رافقت الملك فيصل الى أوربا بعد خروجه من سورية غداة يوم ميسلون • فأفسح ذلك أمامى مجالا واسعا لدرس جميع الوثائق الخاصة بهذه القضية الرسمية منها وغير الرسمية وبتفصيل تام) •

ويبدأ ساطع فى كتابه دراسة تاريخية للتنافس الاستعمارى على البلاد العربية ويعتبر هذه الدراسة ضرورة لازمة لفهم احداث سقوط الدولة السورية التى جلس فيصل الاول على عرشها •

ولذلك جاء كتابه الذى وضعه فى دمشق فى يوليو (تموز) من عام ١٩٤٥ فى ذكرى مرور ربع قرن على الاحداث الهامة مقسما الى قسمين : القسم الأول يشرح المقدمات • والثانى يبين الوقائع والأحداث • ويسجل ساطع فى القســـم الاول من كتابه (يوم ميسلون) ما خرج به من قراءة الابحـــاث والكتب عن الصراع الاستعمارى بين الدول الاوربية الكبرى ، وخاصة فرنسا وانجلترا على البلاد العربية ، وفى القسم الثانى عرض لما شـــاهده وسجله بنفسه خلال الوقائع والأحداث نفسها •

يعتبر ساطع أن أطماع فرنسا فى سورية ترجع الى تاريخ قديم منذ الحروب الصليبية وتمشيا مع ذلك استمرت فرنسا فى رسال الارساليات الى الشام حتى بعد فصلها بين الدين والسياسة وجعل التعليم علمانيا •• ثم قويت رغبة فرنسا فى احتلال سورية بعد احتلالها للجزائر عام (١٨٨٠) وتونس عام (١٨٨١) ، وكان لابد أن تصطدم فى رغبتها هذه بعقبتين رئيسيتين الأولى المنافسة الدولية ، والثانية المقاومة العربية •

أما بالنسبة للعقبة الأولى ، فقد قررت فرنسا ذلك واستعدت لها ولم تقدم على ضربة ميسلون الا بعد تذليل هذه العقبة •• أما بالنسبة للعقبة الثانية وهى المقاومة العربية فيرى ساطع ان فرنسا

لم تعط لها أهمية تذكر ، وتوهمت ان ضربة ميسلون ستقضى على المقاومة العربية قضاء مبرما ، وكانت فرنسا فى ذلك خاطئة الخطأ كله ، فانه اذا كان يوم ميسلون بمنزلة الفصل الأخير من رواية المنافسة الدولية التى حامت حول سورية فانه (يوم ميسلون) كان بمثابة الفصل الاول فى المقاومة الوطنية القومية التى قامت فى سورية ضد القوات الفرنسية .

ولعله من المفيد ونحن تتناول بالبحث حياة ساطع أن نشير اشارة مقتضبة للظروف التى نشأت فيها هذه الدولة العربية السورية تحت حكم فيصل الاول والتى ظل ساطع يعطيها من الاهمية فى كتاباته الشىء الكثير ، ولما كان ساطع أحد الرجال المسئولين فيها بحكم المناصب التى اسندت اليه فيها ثم بفضل ما قام به من سفارة لدى القوات الفرنسية ، كل ذلك يجعلنا نرى من الضرورة أن نتناول نشأة هذه الدولة التى لم يتجاوز عمرها أربعة أشهر (مارس ـ يوليو عام ١٩٢٠) ، ويعتبر ساطع الحصرى هذه الفترة برغم قصرها من أخطر الفترات فى تاريخ الأمة العربية فى عصرها الحديث .

شعرت انجلترة خلال الحرب العالمية الاولى بضرورة الاستعانة بالشريف حسين شريف مكة .. فقد كانت تركيا بسيطرتها على بلاد الشام والعراق فى وضع تستطيع منه أن تهدد بريطانيا فى موقعين عند قناة السويس ، وسواحل الخليج العربى ، حيث توجد بالقرب منهما منابع البترول الخاصة بالشركة الانجليزية الفرنسية ، وكان لا بد للانجليز أن يعملوا على منع الاخطار التى قد تهدد سفنهم فى البحر الأحمر من منطقة الحجاز ، فضلا عن أنه منها (الحجاز) يمكن بث الالغام فى قناة السويس أو حشد القوات الى تنقل لمحاربة الانجليز فى مصر والسودان ، هذا من الناحية الحربية ، أما من الناحية الدينية فقد كان الحجاز على مر العصور والايام له مكانته الدينية فى العالم الاسلامى .

من أجل ذلك سعت انجلترة للتفاوض مع الشريف حسين حيث وعدته باستقلال البلاد العربية ودارت بهذا الخصوص المكاتبات المعروفة بمكاتبات حسين مكماهون ، وفى الوقت نفسه كانت انجلترة تفاوض فرنسا سرا فى مسألة تقسيم البلاد العربية بين نفوذ كل منهما • وتوصلا الى الاتفاقية المعروفة باتفاق سايكس ــ بيكو (نسبة الى المندوب الفرنسى فى المباحثات المسيو جورج بيكو • وكان قنصلا عاما لدولته فى بيروت خلال الاعوام التى سبقت الحرب، وكان زميله البريطاني مارك سايكس صاحب شهرة واسعة فى شئون الشرق بفضل كتاباته وأبحاثه) (١) ، وارفق بهذا الاتفاق بين الدولتين الانجليزية والفرنسية خريطة لمنطقة المشرق العربى لونت عليها المناطق التى تقرر أن تحتلها انجلترة باللون الاحمر (العراق من بغداد حتى الخليج العربى) والمنطقة التى تقرر أن تحتلها فرنسا باللون الازرق (الساحل السورى) ، كما لونت فلسطين باللون الاسمر ، وتقرر انشاء ادارة دولية فيها على أن يعين شكل الادارة فيها بعد استشارة روسيا بالاتفاق مع بقية الحلفاء ممثلى شريف مكة • كما تقرر طبقا لاتفاقية سايكس ــ بيكو أن تعترف كل من فرنسا وبريطانيا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رياسة رئيس عربى فى المنطقتين اللتين عرفتا بالمنطقة (أ) (داخلية سورية) والمنطقة (ب) (داخلية العراق) • ويكون لفرنسا فى المنطقة (أ) ولانجلترة فى المنطقة (ب) حق الأولوية فى المشروعات والقروض المحلية ، وتنفرد فرنسا فى المنطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الاجانب • بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية • (٢)

---

(١) ارجع الى الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين المجموعة الاولى التى نشرتها جامعة الدول العربية (ص ٨٦) •

(٢) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى، وكذلك .
Gerorge Antonius : The Arab Awakening P. 448

كما تقرر طبقا للمادة الرابعة من اتفاقية سايكس ـ بيكو أن تكون حيفا تحت ادارة انجلترة على أن تكون ميناء حرا لتجارة فرنسا ومستعمراتها ، وأن تكون الاسكندرونة تحت ادارة فرنسا على أن تكون ميناء حرا لتجارة الامبراطورية البريطانية ٠

ويشاء الله ان تطيح ثورة البلاشفة فى روسيا بحكم القياصرة، وان تعلن الحكومة الجديدة على الملأ الاتفاقيات السرية التى عقدتها الحكومات السابقة على الثورة ، وتعلن الغاءها وعدم تمسكها بها ، وكان من بين ما أذاعته تلك الاتفاقية السرية المعروفة باتفاقية سايكس ـ بيكو التي وافقت عليها حكومة روسيا قبل الثورة بها ٠ اذاعت الحكومة البلشفية هذه الاتفاقية يوم ٢١ من فبراير عام ١٩١٨ فأثارت ثائرة العرب ، ولما لم تكن الحرب قد انتهت بعد فان الحكومة البريطانية قد بادرت تؤكد وعودها السابقة للعرب من حيث بقائها على وعودها السابقة مع الشريف حسين ، وتأييدها لاستقلال البلاد العربية حسبما تم من مكاتبات معه بهذا الخصوص٠

وفى ذلك الحين كانت قوات الثورة العربية قد تقدمت طبقا للاتفاق مع انجلترة من شمالى الحجاز الى العقبة فاحتلتها فى أغسطس من عام ١٩١٧ وفى أكتوبر من العام التالى (١٩١٨) دخلت القوات العربية مع القوات الانجليزية دمشق ٠ وفى نفس الشهر تمكن الفرنسيون من احتلال بيروت والاسكندرونة ، وبدأت الجيوش التركية ترغم على الجلاء عن البلاد السورية بأجمعها ٠ وبدأت المانيا تطلب وساطة ولسون لانهاء الحرب ٠

وعندما وقعت الدولة التركية على اتفاقية الهدنة فى مودرس كانت أوضاع (الولايات العربية) على النحو التالى : العراق بأجمعه تحت الجيش البريطانى أما بلاد الشام فكانت مقسمة الى ثلاثة أقسام : قسمها الساحلى الجنوبى من حدود مصر حتى رأس الناقورة

تحت احتلال الجيش البريطاني ، قسمها الساحلي شمال رأس الناقورة تحت احتلال الجيش الفرنسي ، وأقسامها الداخلية تحت ادارة الجيش العربي .

وكانت المطامع والنوازع السياسية التي تحوم حول البلاد العربية متضاربة ومتشابكة ، كانت هناك أماني الاستقلال تجيش في صدور رجال الثورة العربية ، ويدعم هذه الاماني ويقوي الامل في تحقيقها المبادىء المشهورة التي أعلنها الرئيس الامريكي ولسون من ناحية ، ووعود بريطانيا المقررة في مكاتبات (حسين ـ مكماهون) من جهة أخرى ولكن خلافا لكل ذلك كانت هناك أطماع فرنسا وانجلترة التقليدية في حكم البلاد المذكورة واستعمارها ، والتي تضمنتها اتفاقية سايكس ـ بيكو . وهذا كله وبالاضافة اليه وعد بلفور المشهور . ويتناول ساطع ـ في كتابه الذي أسماه يوم ميسلون ـ اتفاقية سايكس ـ بيكو في نقد لاذع . لقد قال عنها انها كانت تقضي بتقسيم البلاد العربية تقسيما كيفيا لا يتفق مع النزعات القومية ولا يراعي الضرورات الاقتصادية .

وعند انتهاء الحرب كان هناك تضارب بين المصالح البريطانية والفرنسية حول اقتسام البلاد العربية ، فاذا كانت اتفاقية سايكس ـ بيكو قد أقرت دولية فلسطين ، فان انجلترة بعد فتحها لها لم تكن لتتركها ، خاصة وأنها أحست بأهميتها الاستراتيجية وقربها من قناة السويس .

ويرجع اهتمام بريطانيا بفلسطين الى ما قبل الحرب العالمية الاولى أيام كان كتشنر قنصلا عاما لبلاده في مصر ، اذ أوضح للمسئولين في الحكومة البريطانية آنذاك أهمية جنوب سورية (من حيفا على البحر الابيض المتوسط الى خليج العقبة على البحر الاحمر ، كسد يمنع الخطر عن قناة السويس ، وكطريق برى

المشرق) • وفى سنة ١٩١٣ عهدت الحكومة البريطانية بناء على طلب كتشنر الى لجنة من سلاح المهندسين الملكى بها وبرياسة نيوكومب بمسح شبه جزيرة سيناء بأسرها • وجاءت نتيجة هذا المسح الذى قامت به اللجنة مؤيدة لرأى كتشنر بأن سورية الجنوبية شمالا الى حيفا وعكا وجنوبا الى خليج العقبة ضرورى للامبراطورية البريطانية سياسيا وحربيا •

وعندما أعلنت الحرب وتبوأ كتشنر مقعد وزير الحرب أحث حكومته على ضرورة التمسك بفلسطين ، لتكون منطقة نفوذ بريطانية والا تسمح لأحد غيرها ان يكون له نفوذ فيها • ولعل ذلك أحد الدوافع الرئيسية التى حدث بالحكومة البريطانية الى اصدار وعد بلفور •

ولما شعرت فرنسا بأن بريطانيا تريد التمسك ببعض المناطق دون البعض ، خلافا لما تضمنه اتفاقه سايكس بيكو ، رأت أنه لابد من تسوية أمورها مع انجلترة •• ويقال ان كلمنصو الذى كان رئيسا للوزارة الفرنسية خلال مفاوضات الصلح التى دارت عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى سأل لويد جورج رئيس وزراء انجلترة : قل لى ماذا تريدون منا ؟ فيجيبه لويد جورج : نريد فلسطين والموصل •

كان الاتفاق بين الدولتين الانجليزية والفرنسية أمرا ضروريا حتى يمكنها مواجهة حركة القومية العربية •• وتم التوصل الى اتفاقية تقضى بأن تبقى الموصل فى يد بريطانيا على أن تعطى لفرنسا حصة من نفطها ، وأن تترك بريطانيا لفرنسا القسم الداخلى من سورية • كان موقف انجلترة على هذا النحو يعنى أنها تخلت عن المطالب القومية العربية ، وذلك بتصريحها لفرنسا أن تتقدم من الساحل السورى غربا لتحتل بقية القسم الشرقى من سورية ،

والذى كانت ترابط فيه القوات العربية ، لكن قيادة الجيش العربى في سورية قررت المقـــاومة والتصدى للقوات الفرنسية اذا ما بدأت تتقدم الى داخل البلاد ، وازاء ذلك قررت القيـــادة العســـكرية الفرنسية تأجيل احتلالها للقسم الشرقى من ســـورية حتى يحين الموعد المناسب ، وحتى تنتحل من الأعذار والاسباب ما يبرر لهـــا ذلك .

لكن القيادة العسكرية للجيش العربى فى سورية سرعـــان ما حولت نفسها الى ادارة مدينة ، ودعت الى مؤتمر يمثل جميـــع أقسام سورية بحدودها الطبيعية ، وعرضت عليه مشروعا بقانون للتجنيد الاجبارى ، فصدق عليه المؤتمر بحماسة كبيرة في ديسمبر من عام ١٩١٩ ثم اتبعت ذلك باعلان استقلال سورية بكل أقسامها بعد أن كان وضع الجيش العربى والحكومة في سورية غريبا فهـــو من الوجهة القانونية جزء من جيوش الحلفاء تابع للالنبى .. ولم يكن هناك بد من اعلان الاستقلال وتم ذلك فى ٨ من مارس عام ١٩٢٠ وتلى على الناس من شرفة البلدية فى دمشق .

وقال المؤتمر السورى فى قراره التاريخى الذى أعلن فيـــه الاستقلال : « لما كانت الثورة العربية قد قامت لتحرير الشعب العربى من حكم الترك وكانت الاسباب التى يستند اليها فى استقلال القطر السورى هى ذات الأسباب التى يستند اليها فى اســـتقلال القطر العراقى ، وبما أن بين القطرين صـــلات وروابط لغـــوية وتاريخية واقتصادية وطبيعية وجنسية تجعل كل قطر لا يستغنى عن الآخر فنحن نطالب باستقلال القطر العراقى » .

وهكذا لم يهمل المؤتمر السورى فكرة الوحدة العربية حتى وهو فى أشد اللحظات وفى أكثر الاوقات أزمة .. وكان من الطبيعى أن يثير قرار الاستقلال ثائرة كل من الحكومتين البريطانية والفرنسية

فسرعان ما صرح اللورد كيرزون وزير الخارجية أن بريطانيا العظمى لا تعترف لأية هيئة فى دمشق بحق التكلم عن فلسطين والعراق ، ولم تعترف انجلترة بفيصل ملكا ، وظلت تعـــامله على أنه أمير هاشمى .

أما فرنسا فقد بادرت هى الاخرى تتخذ الخطوات الكفيلة بالقضاء على هذه الدولة العربية الوليدة فى مهدها قبل أن تثبت أقدامها وتقوى .

وبادرت كل من فرنسا وانجلترة الى اصدار قرار من مؤتمر الصلح الذى كان منعقدا فى سان ريمو بوضع كل من سورية والعراق وفلسطين ولبنان تحت الانتداب ، ولقد عهد لانجلترة بمهمة الانتداب على العراق وفلسطين ووضعت سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسى .

ويعتبر ساطع هذا القرار الذى أصدره مؤتمر الصلح فى الخامس والعشرين من ابريل عام ١٩٢٠ من أخطر القرارات فلقد صدم العرب بهذا القرار من مؤتمر مفروض فيه تحقيق السلام واجابة رغبات الشعوب ، فاذا به تصبح مهمته تحقيق رغبات المستعمرين .

الانذار الفرنسى وسفارة ساطع :

بعد أن اعترف مؤتمر الصلح لفرنسا بحق الانتداب على سورية أخذت تستعد لغزو المنطقة الشرقية منها وهى المنطقة التى كان يحتلها الجيش العربى ، واعتمدت فرنسا الاموال اللازمة لحملة قررت أن تتقدم من غربى سورية الى شرقيها ، ووضعت تحت قيادة الجنرال غورو ما يقرب من مائة ألف جندى على نحو ما صرح هو به فى البرلمـــان الفرنسى بعد حوادث ميسلون . وحين تم تجهيز الحملة العسكرية قدم القائد الفرنسى الى الملك فيصل الأول عددا من المطالب فى شكل انذار ، وذلك فى الرابع عشر من يوليو عام ١٩٢٠ .

يبدأ الانذار بمقدمة طويلة يتهم فيها الحكومة السورية بتنظيم العصابات التى هاجمت الجيوش الفرنسية فى المنطقة الغربية لسورية كما يتهم هذه الحكومة بتحريضها للشعب العربى على كره الفرنسيين، وينتهى الانذار بتقديم عدد من المطالب يطالب الحكومة السورية اما بقبولها كلها أو رفضها كلها كمجموعة واحدة لا تقبل التجزئة ، وذلك خلال أربعة أيام أى قبل منتصف ليل ١٨ من يوليو عام ١٩٢٠ أما هذه المطالب فهى :

١ ـ وضع سكة حديد رياق ـ حلب تحت تصرف الجيش الفرنسى •

٢ ـ قبول الانتداب الفرنسى •

٣ ـ الغاء التجنيد الاجبارى الذى قررته الحكومة السورية وتسريح المجندين •

٤ ـ قبول الاوراق النقدية التى أصدرها البنك السورى، وكان الفرنسيون قد أسسوا مصرفا ماليا سموه بنك سورية ولبنان واصدروا قرارا باعتبار العملة التى يصدرها هذا البنك عملة رسمية اجبارية ، وكانت المعاملات تجرى بين الناس بالعملة الذهبية ، وكانت الحكومة السورية قد أصدرت قرارا بعدم اعترافها بهذا المصرف ولا بالعملة التى يصدرها •

٥ ـ معاقبة من أسماهم الانذار بالمجرمين الذين استرسلوا فى معاداة فرنسا •

وقال الانذار انه ينبغى ان يصاحب حرية التصرف فى سكة حديد رياق حلب احتلال محطات رياق ، بعلبك ، حمص ، حماه ، حلب مع مدينة حلب نفسها •

كما جاء فى الانذار أنه فى حالة قبول الحكومة السورية للانذار تصدر الاوامر للسلطات السورية بعدم عرقلة سير الجيوش الفرنسية وفى حالة الرفض ستصبح الحكومة الفرنسية حرة فى أعمالها •

وبدأت الحكومة السورية تبحث الانــذار الفرنسى ، ثم قررت ايفاد أحد رجالها للتفاهم مع غورو ، ووقع الاختيار على ساطع ليقوم بمهمة السفارة لدى القائد الفرنسى ٠

وقبل أن يغادر ساطع دمشق الى (عاليه) لمقابلة الجنرال غورو دعاه الملك فيصل ، وأطلعه على برقية أرسلها لغورو بقبوله الانذار ، ورد غورو بالشكر ، وطلب ارسال برقية بالقبول النهائى مع ذكر الشروط بالتفصيل ٠ وفي الطريق لمقابلة غورو شاهد ساطع القوات الفرنسية وهي تزحف تجاه العاصمة السورية ٠ وتمت المقــــابلة بين ساطع والجنرال غورو ، وكان ســـاطع خير من توفده الحكومة السورية لأخطر مهمة يتوقف عليها مستقبل الدولة العربية السورية٠ ويوضح ساطع للجنرال الفرنسى أنه ليس هناك مبرر لتقـــدم القوات الفرنسية بعد (قبولنا للانذار وتسريحنا للجيش) ، لكن القائد الفرنسى وقد ألجمته الحجة لا يجد ردا على ذلك سوى تمسكه بأن الفرنسيين لم يعودوا يثقون بالعرب ، ويقدم لساطع شروطـا يطلب من الحكومةالعربية قبولها، وتتضمن اقامة بعثة فرنسية مفوضة في دمشق لها اختصاص الرقابة ، ودراسة طرق تطبيق الانتداب الفرنسى في المنطقة الشرقية ٠ ووعد الجنرال غورو ساطع أن يصدر الاوامر للقوات الفرنسية بوقف زحفها تجاه دمشق ٠

لكن ساطعا يعود الى دمشق وهو جازم كل الجزم ان الفرنسيين (مصممون على احتلال بلادنا احتلالا تاما ، وعاملون على استكمـــال وسائل هذا الاحتلال ، مهما تقلبت الظروف والأحوال) ٠

لكن القائد الفرنسى سرعان ما نقض ما وعد به ساطع ٠ فقرر أن تتقدم قواته بحجة وصولها الى مكان يتوافر فيه الماء الكافى، ويكون قريبا من السكة الحديدية ، وعندما عاد ساطع الى دمشق قرر مجلس الوزراء السورى دعوة قناصل الدول لشرح القضية العربية لهم ،

وكما كلف مجلس الوزراء ساطعا بالتفاوض مع القائد الفرنسى كلفه ان يشرح القضية لممثلى الدول ، ويحسن ساطع عرض القضية وتفنيد حجج الفرنسيين ، ويختم كلامه لهؤلاء الممثلين بقوله : على كل حال فلقد شهدتم كلكم القسم الاعظم من الحوادث بأنفسكم ، ان الحكومة قبلت شروط الانذار وشرعت تسرح الجيش ، وهو الامر الذى سبب هياج الاهلين واضطرت الحكومة الى استعمال السلاح لتسكين الاضطرابات ، ولقد علمتم ان الجيوش الفرنسية بدأت تزحف نحو دمشق •

يوم ميسلون :

وتدور المعركة بين القوات الفرنسية وبين القوات العربية بقيادة يوسف العظمة وزير الحربية السورى ، وذلك فى الرابع والعشرين من يوليو (تموز) عام ١٩٢٠ ، ولم يكن من المتوقع ان تصمد هذه القوات العربية طويلا أمام الجيش الفرنسى الزاحف ، الذى أحسن تسليحه واعداده بعكس القوات العربية التى كان ينقصها التسليح ، ويستشهد يوسف العظمة ، وتدخل القوات الفرنسية دمشق فى اليوم التالى مباشرة (٢٥ من يوليو عام ١٩٢٠) ، وتنتهى بذلك صفحة أول دولة عربية سورية ، ثم يأمر الفرنسيون فيصلا بمغادرة البلاد ، فيغادرها الى الحجاز ، ومعه ساطع ، ومنها الى حيفا ، ثم بورسعيد ، حيث ركبا الباخرة الى ايطاليا فى الخامس والعشرين من أغسطس عام ١٩٢٠ •

وظل الأمل يراود فيصل فى امكان استعادة عرشه فى سورية فهو يوفد ساطع الحصرى الى تركيا فى محاولة للالتقاء بالكماليين وتنسيق العمل معهم ، وينفذ ساطع رغبة فيصل ولكنه يعلم حين يصل الى أرض الدولة التركية ان الكماليين كانوا فى ذلك الحين مغلوبين على أمرهم ، وانهم بدءوا يسعون للتفاهم مع الفرنسيين كى يتمكنوا من مقاومة الانجليز •

وحين يعود ساطع من تركيا يكلفه الملك فيصل الاتصال بالاستاذ بونفانتى أستاذ الحقوق فى الجامعة الايطالية بروما لوضع دراسة قانونية عن القضية السورية ٠

أما الانجليز فقد أخذوا يحولون أنظار فيصل عن سورية الى العراق ، ودعوه الى لندن لمباحثته فى هذا الخصوص (أما أنا (ساطع) فلم أر فائدة من مرافقته خلال هذه السفرة ، ورأيت العودة الى مصر والاتصال بالاخوان المجتمعين هناك) ٠

ساطع والنهضة العلمية فى سورية :

لا غبار على ساطع لو لم يقم بأى اصلاحات خلال المدة التى عاشتها تلك الدولة العربية السورية الاولى التى لم يتجاوز عمرها الشهور الأربعة فلقد ولدت فى ظروف مشحونة بالتوتر والتهديد يحيط بها العدو ، ويحدق بها الخطر من كل جانب ، الامر الذى يجعل شغلها الشاغل الاهتمام بأمر الدفاع عن نفسها وكيانها ، لكننا نجد ان ساطعا الى جانب نشاطه السياسى الذى مر بنا يقوم بعدد من الاصلاحات الهامة ، فهو بحكم عمله كوزير للمعارف فى هذه الدولة منذ أعلن استقلالها (٨ من مارس عام ١٩٢٠) حتى قضى عليها الاحتلال الفرنسى لدمشق (٢٥ من يوليو عام ١٩٢٠) يقرر تعريب التعليم فى سورية ٠ كان التعليم يتم باللغة التركية ، والكتب المدرسية مطبوعة بهذه اللغة ، لكن ساطعا يقرر على الفور اتباع منهج قومى عربى فى التعليم، ويؤلف لجنة لجمع المصطلحات العلمية المستعملة قديما وحديثا ، تمهيدا لانتخاب الأوفق منها ، واعداد معجم عربى ، ويؤسس المجمع العلمى العربى فى دمشق ، ولكن الحوادث فى تطورها كانت أسرع من كل شىء فلم يمهل الفرنسيون هذه الدولة العربية لتمضى مع أول حركة قومية عربية ، فبادروا باحتلال دمشق على نحو ما سبق ذكره ٠

وكما وقف الجنرال اللنبى عند بيت المقدس يقول ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين ، يقف القائد الفرنسى الذى قاد القوات الفرنسية الى دمشق ، ويذكر أيام الحروب الصليبية • يقول هذا القائد الفرنسى : أنا فى دمشق !

ان هذا الاسم كان يمثل لى شيئا خرافيا عندما كنت اقرؤه فى سجلات عائلتى وأنا فى سن الطفولة ••

ان الجد البعيد لجدتى من جهة أبى – لويز – كان قد وقع فى الاسر خلال الحروب الصليبية الثانية سنة ١١٤٧ •• ، ونقل الى مدينة دمشق ، وجعل منه أهل دمشق فى ذلك الحين عبدا يشتغل فى أحد المصانع التى يصنع الورق فيها من القطن ، واشتغل جدى هناك شغلا شاقا خلال ثلاث سنوات ، وبعد ذلك فر الى دمشق وتمكن من الالتحاق بالجيش الصليبى بعد اجتياز آلاف المخاطر • وعندما عاد الى مسقط رأسه بعد غياب دام عشر سنوات أسس أولى طواحين الورق التى عرفتها أوربا

أو ليست العدالة العليا هى التى سمحت لحفيد أسير الحروب الصليبية أن يدخل المدينة المقدسة ظافرا منصورا ؟

ساطع فى العراق :

قلنا ان ساطعا عاد الى مصر فبلغها فى التاسع من ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٩٢٠ ، فأقام فيها مدة تقرب من العام ، اتخذ له سكنا ضاحية الزيتون ، وانصرف فى هذه المدة عن العمل السياسى وآثر أن يعود الى عمله الاول والى وظائفه التعليمية التى يستطيع من خلالها تحقيق أغراضه التربوية والقومية •

بدأ ساطع يعد نفسه للأعمال التعليمية بالعراق بناء على اتفاق

بينه وبين فيصل ، وكانت اقامته فى القاهرة انتظارا لدعوة فيصل يدعوه فيها الى مواصلة الاعمال التعليمية بالعراق ، وأراد انتهاز فرصة اقامته فى مصر للوقوف على حالة التعليم فيها ، فكتب الى وزير المعارف المصرى (جعفر والى باشا) فى ذلك الحين خطابا يلتمس له التصريح بزيارة بعض المدارس المصرية ، وجاءته الموافقة ، وحين قام بهذه الزيارة آثر — حرصا على مصلحة مصر وحبها — أن يقدم للمسئولين فيها اقتراحاته بخصوص ما يراه واجبا من اصلاحات ، وأن يكتب لوزارة المعارف المصرية رأيه فى برامج التعليم المصرى .

كان أهم ما لفت ساطع من مساوى فى هذا التعليم المصرى هو ثنائية التعليم الابتدائى حيث كان يوجــد فى ذلك الحين ما يعرف بالمدارس الأولية والمدارس الابتدائية ، ولكل من هذين النوعين برامجه ومناهجه ، كذلك كان اعتراض ساطع على تقسيم الثانوية العامة الى قسمى العلوم والآداب فى ختام السنة الثانية من سنى الدراسة الثانوية فى ذلك الحين مما يجعل الطالب فى شــعبة الآداب لا يلم شيئا عن العلوم وطالب العلوم لا يلم شيئا عن التاريخ ، والى جانب ذلك يرى اهمال المدارس المصرية خصوص فى المدارس الاوليــة والابتدائية لتدريس مادة التاريخ واعطائها المزيد من العناية ، ذلك أن ساطعا ينظر الى لتاريخ على أنه الاساس المتين الذى تقوم عليــه التربية الوطنية .

وسنرى ان ساطعا سيستفيد من هذه الدراسة التى قام بها عن أحوال التعليم المصرى فيما يقدم عليه من اصلاحات بالعراق .

ثم جاءته دعوة فيصل للسفر الى العراق بعد أن تم تتويجــه هناك ملكا فى الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٩٢١ .

سافر ساطع الى العراق وهو يشعر بثقل المسئولية التى ستلقى

عليه فيه ، ويحس بالاوضاع السيئة التي فرضها الاستعمار على البلاد العربية ، وعلى سوريه والعرق بوجه خاص ، ويقول ساطع حين يدعى للسفر الى العراق : « نحن نعيش الآن في أسوء الظروف العالمية وأضرها بالمصالح العربية في سورية والعراق ، فلا بد أن نعمل تحت الظروف السيئة والقاسية ، دون أن نأمل في أيــة مساعدة مادية ومعنوية من أية دولة من الدول الداخلة في عصبة الأمم أو الباقية خارجها » .

أما أبرز وأهم مواطن الضعف في العراق فكانت كما رآهــا ساطع على النحو التالى :

١ ــ كثرة العشائر البدوية التي تحيط بمعظم المدن .

٢ ــ قلة المتعلمين وقلة معاهد التعليم .

٣ ــ سوء وسائل المواصلات بين مختلف أنحاء العراق .

٤ ــ تخلف التعليم في العراق منذ كان يحكمها الأتراك .

ازاء ذلك كله أحس ساطع بالمسئولية الكبيرة التي ينبغى أن يشعر بها كل غيور على مصلحة العراق وشعبه ، كما شعر بمــا ينبغى على الحكومة العراقية عمله فعليها أن تعمل عملا حثيثا لتلافى تأخر الحركة التعليمية في العراق .

فضل ساطع على التربية والتعليم في العراق :

ظل ساطع خلال شهور السنة الاولى التي جاء فيها الى العراق لا يتولى أحد المناصب ، وانما بقى في معية الملك فيصل بمثــابة مستشار في أمور المعارف ، وكان عدم تولى ساطع لأحد المناصب طيلة هذه الفترة بناء على رغبته هو ، كى تكون فترة للدراسة والبحث والاستطلاع ووضع الخطة ، فهو يرى أنه لا بد من وضع خطــط

مرسومة للاصلاح (ويجب على أن أضع هذه القاعدة نصب عيني على الدوام فى الاعمال التى ســـأقوم بها في العراق ، قد تكون الاهداف الأساسية صعبة المنال ومستحيلة التحقيق مرة واحدة فلابد من وضع مخططات إنتقالية ٠٠ ان هذه القاعدة تكتسب أهمية خاصة فى أمور التربية والتعليم ، فالمنهج الذى يوضع على أسس نظرية ومثالية بحتة دون الالتفات الى الأحوال الراهنة ـ من مستوى التلاميذ ومقدرة المعلمين ـ يبقى حبرا على ورق ، اذ لا بد للمنهج أن يأخذ بعين الاعتبار الاحوال الراهنة ، وفضلا عن ذلك كله يجب على المنهج أن يتطور ويرتفع كلما ارتفع مستوى التلاميذ والمعلمين) ٠

وحين وصل ساطع الى العراق وشعر بما ينبغى عليه عمله تمنى لو بقى فيه عشرة أعوام على الأقل ، كى يستطيع أن يجعـل التعليم فى العراق يجتاز مرحلة التخلف الى مرحلة الانطلاق والتقدم السريع ٠

وأحسن ان كل المشـــاكل سهلة الحلول اذا ما صابر الانسان عليها ، وكانت لديه العزيمة والقدرة ، لكنه يشعر أن أضخم هذه المشاكل بالنسبة للعراق هى المشكلة السياسية ٠٠ فلقد حـكم الانجليز العراق حكما مباشرا مدة طويلة ، ولا ينتظر منهم أن يتخلوا دفعة واحدة عن جميع السلطات التى كانوا يمارسونها ٠

ولقد صدق ظن ســاطع وحدث ما توقعه ، فما كاد يعهـــد اليه بمنصب معاون وزير المعارف فى الخامس من فبراير عام ١٩٢٢ حتى بدأ الاحتكاك بينه وبين المستشار البريطانى لوزارة المعـــارف العراقية وكان اسمه (فارل) ٠ لقد كان (فارل) يشعر بأن النظام التعليمى الذى وضعته الادارة البريطانية هو النظام الامثل ٠٠ لكن ساطعا يؤمن بأن العراق ليس بحاجة الى أن يطبق نظم التعليم الانجليزية أو الفرنســية لا التركية ، وأن النظام الامثل

له هو ما ارتبط بأحوال العراق العامة وظروفه التاريخية ، وهذا ما ينبغي أن يكون شأن النظام التعليمي في كل بلد ، وأمام عناد (فارل) واصراره على عدم الأخذ بما اقترحه ساطع من اصلاحات لم يكن هناك مفر من اقصائه عن العراق اذا ما أريد اصلاح التعليم به ، وتم ذلك بناء على طلب من الملك فيصل الى السير برس كوكس المندوب السامي البريطاني .

باشر ساطع العمل معاونا لوزارة المعارف مدة كانت أقل من عام (١٩٢٢/٢/٥ - ١٩٢٣/١/١٧) انجز خلالها العديد من الأعمال. أما أهم هذه الاصلاحات التي حققها ساطع فهي اصلاح وتنظيم التعليم الابتدائي بوضع منهج جديد ، مبنى على أسس تربوية ، ومقترن بتوجيهات وطنية قومية ، لقد وجد ساطع أن نظام التعليم الابتدائي في العراق شبيه بنظام التعليم المصرى ، فهناك ثنائية في التعليم الابتدائي على غرار ما هو متبع في مصر . ولما كان قد سبق له دراسة نظام التعليم المصرى خلال اقامته في مصر ، وشعر بمساوىء هذا التعليم فقد رأى لزاما عليه أن يضع منهجا جديدا لهذا التعليم العراقى لا يعترف بنوعين من المدارس في المرحلة الابتدائية (أولية وابتدائية) ، ويحذف فيما يضعه من منهج مادة اللغة الانجليزية في السنين الاربع الأولى لصعوبة تعلم الطفل لغتين في آن واحد ، ثم لاحساسه بضرورة تقوية التلميذ في لغته العربية التي هي اللغة القومية .

ويعطى في منهجه هذا اهتماما كبيرا بتدريس التاريخ ، فهو يرى أن الغرض الاصلى من تدريس التاريخ في المدارس الابتدائية هو تعليم التلميذ العراقي تاريخ وطنه وماضى أمته ، بهدف تقوية الشعور الوطنى والقومي عنده ، ولذلك ينبغى أن يكون تاريخ البلاد العراقية والامة العربية محور الدروس التاريخية ، أما تاريخ

بقية البلاد وسائر الأمم فلا يبحث عنه فى الصفوف الاولية الا بنسبة علاقتها بتاريخ العراق وتاريخ العرب •

ثم هو يشرح بعد ذلك فى هذا المنهج الذى وضعه لاصلاح التعليم الابتدائى فى العراق ما ينبغى على المعلمين اتباعه عند تدريس التاريخ من حيث تجنب ذكر الوقائع والاسماء والتواريخ الكثيرة التى تشوش عقل الطفل ولا تحببه فى التاريخ •

فاذا انتقل ساطع من التاريخ الى الجغرافيا جعل الهدف من تدريس هذه المادة تنمية الوعى القومى حيث قرر أن يدرس التلاميذ الى جانب تاريخ العرب جغرافية البلاد العربية ، ووسائل الاتصال بين هذه البلاد •• ثم هو يحرص أن يدرس التلاميذ كذلك الاناشيد التى تثير عواطفهم الوطنية ، وتقوى فيهم الروح القومية •

لكن النهضة التعليمية التى أخذ ساطع يرسى قواعدها سرعان ما أثارت حقد الكثيرين عليه ، فالغى منصبه بحجة الاقتصاد فى النفقات المالية فى العراق ، ثم هو يعين بعد ذلك فى منصب مدير المعارف العام ، ويفرح ساطع بهذا المنصب لما ظنه سيعطيه من سلطات تنفيذية يحقق بها الاصلاحات التى ارتآها ضرورية للتعليم فى العراق •• لكن الوشاية تلاحقه والدسائس تكادله الأمر الذى دفعه الى الاستقالة •

يقول ساطع : « كنت احرص حرصا شديدا على اقامة صرح المعارف على أسس متينة دون الالتفات الى المظاهر الخداعة ، وأن أعمل عملا متواصلا لرفع مستوى التعليم ، وزيادة كفاءة المعلمين ، وأن أتخذ من التدابير كل ما يمكن اتخاذه لقطع دابر التساهل والمحاباة فى أمور التربية والتعليم » •

لكن مصالح الطامعين والحاقدين لاحقت ساطع بالتشكيك فى

اخلاصه للتعليم ، فاتخذ أولئك الحاقدون من عدم ولادته بالعراق وسيلة للكيد له ، واستغلوا النوازع الاقليمية وقالوا : انه ليس عراقيا فلا يمكن أن يعمل لمصلحة العراق ، وأنه سورى يسعى لخدمة السوريين واستقدام المعلمين السوريين للعمل فى العراق .

كما اتخذ أولئك الناقمون على ساطع ما قام به من جهد فى محاربة التعليم الأجنبى سبيلا الى التشـــهير والتنديد به . رأى ســـاطع كثرة المدارس الايرانية فى العراق ، والتحاق الكثير من الاطفال العراقيين بهـــا ، وكان المدرسون بهـذه المدارس يلقنون التلاميذ ما يتنافى مع الوطنية العراقية ، والقومية العربية ، فسعى الى الحد من نشاط هذه المدارس ، وأخذ ينشىء الى جانب كل مدرسة ايرانية مدرسة عربية ، وأخذ ييسر سبل الالتحاق بهذه المدارس العربية مما دفع الكثيرين الى الانصراف عن المدارس الايرانية الى المدارس العربية ، الأمر الذى ساعد على غلق الكثير من المدارس الايرانية .. وسرعان ما سعى أولئك القوم المحاربون لساطع الى اثارة الشيعيين العراقيين ، وقالوا : ان ساطعا يجامل السنيين على حساب الشيعة ، لكن الحقيقة أن ساطعا ظل بعيدا كل البعد عن أن يتأثر فى عمله بدين من الأديان ، أو بمذهب من المذاهب ، وانمـــا كان يصدر فى عمله عن عقيدة قومية ، وأسلوب علمى بعيد عن التعصب أو التخريب .

والى جانب ما حققه ساطع بالنســـبة للتعليم الابتدائى فى العراق ، رغب فى اصلاح التعليم الثانوى فيه ، وحـــين وجد أن السبيل لاصلاحه هو دعوة الكفاءات من خارج العراق اتخذ ذلك ذريعة للتهجم عليه ، بحجة أنه لا يريد ان يعطى الفرصة للمعلمين العراقيين للترقى ، فقدم استقالته من منصب مدير المعـــارف العام ، وتولى منصب استاذ فى دار المعلمين العليـــا فى الفترة من ١/٨ سنة ١٩٢٧ الى ١٩٣١/١٠/١ .

وكان الدافع الذى حدا بساطع الى طلب تعيينه فى دار المعلمين هو ايمانه أن السبيل الوحيد لاصلاح التعليم هو البدء باعداد المعلم الجيد ، وأنه عن طريق التدريس فى هذه الدار يستطيع أن يعد المدرس الكفء٠٠وقام ساطع بتدريس علم النفس وأصول التدريس والتطبيق التربوى ، كما اشترك فى لجنة فحص الكتب المدرسية التى شكلتها وزارة المعارف العراقية فى ذلك الحين ، وعين كذلك عضوا فى لجنة اصلاح البرامج المدرسية والى جانب ذلك كله قام ساطع منذ بداية عام ١٩٢٨ باصدار مجلة سماها مجلة التربية والتعليم ،والقى العديد من المحاضرات فى نادى المعلمين كما أجرى الكثير من اختبارات الذكاء ٠

لكن اليد التى مضت تحارب ساطع لم تيأس ، فسرعان ما نجحت فى اصدار قرار بالغاء دار المعلمين العالية فى سنة ١٩٣١ حيث ظلت مغلقة حتى سنة ١٩٣٥ ٠

تولى ساطع بعد الغاء منصبه فى دار المعلمين منصب مراقب التعليم العام فى الفترة من أول أكتوبر عام ١٩٣١ الى ١٢/٣١ سنة ١٩٣١ أى مدة ثلاثة شهور فقط ٠ كان المدير العام للتعليم فى ذلك الحين هو الدكتور سامى شوكت ٠٠ يقول ساطع : « كنت مخدوعا فى تفكيره القومى ، فاختلفت معه ازاء رغبتى فى استبدال عدد من مفتشى المعارف بآخرين مؤهلين تأهيلا عاليا » ٠ وكان السبب الذى حدا بالدكتور شوكت الى عدم موافقة ساطع على رغبته هو خوفه من غضب المستشار البريطانى ، عندئذ قرر ساطع التخلى عن وظيفته هذه ، مبديا رغبته فى العمل بكلية الحقوق ، فكان له ما أراد حيث عين مديرا لها ، مدة قاربت السنوات الأربع (١٢/٢٢ سنة ١٩٣١ الى ١٩٣٥/٩/١٥) ثم اسند اليه خلال السنة والنصف الأخيرة منصب مدير الآثار القديمة علاوة على منصبه ٠

وما يكاد ساطع يتولى منصب الرجل المسئول عن كلية الحقوق في العراق حتى يعد مذكرة بما ينبغي بشأنها من اصلاحات ، أهمها في نظره ضرورة الاهتمام بمكتبة الكلية « يجب الا تنسى أن المكتبات في كلية الحقوق تعتبر بمثابة المختبرات في كلية العلوم ، فهي آلات البحث ، ووسائل التنقيب لدى الطلاب ، كما أنه من الضروري أن نتخذ التدابير لحمل الطلبة على مطالعة كتب القانون المكتوبة باللغات الأجنبية) .

ثم يفجع ساطع بوفاة الملك فيصل في السابع من سبتمبر سنة ١٩٣٣ ، ويرى ان وفاته خسارة كبرى للعراق ، ويصفه ساطع بالذكاء والمرونة والنشاط والحيوية .. لقد كان ساطع وثيق الصلة بفيصل ومعه ، ثم كان من الطبيعي أن يحز في نفسه خسارته لصديق عمل معه في سورية ثم في العراق .

ويتولى ساطع مرة أخرى أحد المناصب الرئيسية في وزارة المعارف ، وهو منصب مدير التدريس والتربية العام .. تولى ساطع هذا المنصب لمدة عام واحد (١٦/٩/١٩٣٥ و ١٦/٩/١٩٣٦) بدلا من رياسة كلية الحقوق ، وظل معه منصب مدير الآثار القديمة ، ثم هو يطلب خلال توليه لهذا المنصب ايفاده الى مصر لتنظيم الروابط الثقافية وفق ما رسمه من خطة لذلك ، وحين عاد من مصر اعد مذكرة برأيه في السياسة التي ينبغي أن تتبع في تسيير أمور المعارف واصلاحها ، لكن تصرف وزير المعارف العراقي معه دفعه الى الى الاستقالة بعد ما رأى أن ما يقترحه من اصلاحات لا يؤخذ به .

وقصر ساطع عمله بعد ذلك على العمل في مديرية الآثار العراقية لكنه لا ييأس من أن يعمل ما وسعه العمل في سبيل اصلاح المعارف العراقية ، فيقدم لوزارة المعارف في الخامس عشر من يناير عام ١٩٣٦ خطة خمسية يراها كفيلة باصلاح أحوال التعليم العراقي.. وأهم ما تضمنته خطة السنوات الخمس هذه ما أشار اليه ساطع في

ضرورة التوسع فى نشر التعليم الابتـدائى ، وانشـاء المزيد من المدارس ، وأما بالنسبة للتعليم العملى فيطالب بفتح الورش الصناعية لتعليم التلاميذ ، كمـا يقترح بالنسبة للتعليم العالى تزويد كليـة الحقوق ودار المعلمين العليـا بالاساتذة ، ويرى ضرورة الاهتمام بكلية الطب كى تكون هى وكلية الحقوق نواة الجامعة العراقية فى المستقبل ، وذلك كله الى جانب ما اقترحه من اهتمام بالمكتبات العامة ، والمبانى المدرسية •

ساطع مديرا للآثار القديمة بالعراق :

لم يأخذ القائمون على أمر التعليم فى العراق بما كان يقترحه ساطع من اصلاحات ، فلم ير بدا من الاستقالة من مناصب التعليم ، قاصرا عمله فى مديرية الآثار ــ العراقية ، وكانت هـذه المديرية أحوج ما تكون لشخص مثل ساطع يعطيها من عنايته ، ويوليها من اهتمامه الشىء الكثير • فأسست مديرية الآثار القديمة فى العراق سنة ١٩٢٠ ، تحت اسـم الدائرة الاركيولوجيـة وتولت أمرها السكرتيرة الشرقية للمندوب السامى البريطانى ، وظل يتولى أمرها بريطانيون حتى عين لها ساطع فكان بذلك أول مدير وطنى لها •

تولى ساطع امر الآثار فى العراق فى الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩٣٤ ، وكانت سمعتها قد وصلت الى الحضيض ، فالآثار تسرق وتهرب الى خارج البلاد ، وليس هنـاك من رقيب • وكانت جميع الحفريات تقوم بها بعثات أجنبية •

وما كاد سـاطع يتولى أمرها حتى يقرر أن تقـوم المديرية بحفريات فى اطلال سامراء ثم هو يضع لها قانونا يحكم الرقابة على الآثار وعلى المتقدمين لعمل حفريات ، وحين يدعى الى مؤتمر دولى فى مصر سنة ١٩٣٧ للحفريات الاثرية ، ويعرض القانون الذى وضعه حتى لقى من المؤتمر كل استحسان •

ويؤمن ساطع ان العمل فى مجال الآثار شأنه شأن العمل فى مجال التربيه والتعليم من حيث ان الهدف منهما ينبغى أن يكون خدمة القوميه العربية ، فما تكاد الحرب العالمية الثانية تعلن ، ويتوقف وصول البعثات الى العراق للقيام بالتنقيب ، حتى يقرر أن تمضى دائرة الآثار بأعمال التنقيب ٠٠ ولقد وفقت الدائرة الى كشف مداخل نينوى فى الموصل ، وبدأ يقيم المعارض التى تعلن الفكرة الصحيحة عن الأزياء التى كانت تستعمل فى عهد الأمويين والعباسيين ٠ وجهز مرسما بالدائرة لهذا الغرض ٠

يرى ساطع فى العناية بالآثار العراقية عناية بتاريخ العراق ، وهو أمر ينبغى أن يعطى له كل اهتمام ٠٠ ونلمس ذلك فى المحاضرة التى القاها على فريق الكشافة العربى فى متحف الآثار العربية فى بغداد عام ١٩٣٧ حيث يقول : « ان الامة التى تحافظ على لغتها وتنسى تاريخها شأنها شأن فرد فاقد الشعور ، هى بمثابة فرد يغط فى نومه ، أو قل فرد فى حالة اغماء ٠٠ ان اهمال التاريخ القومى بمثابة الاستسلام الى الذهول ٠٠ واهم ما يجب ان نستلهمه من التاريخ هو الايمان بحيوية الامة العربية، وبامكان حصولها على مجد جديد ، لا يقل شأنا عن المجد الذى نالته على مر العبور ٠٠ ثم هو يبث روح الأمل فى نفوس الشباب العربى ويذكر لهم اسطورة اليونان القديمة عن الأمل » (١)

ثم يقول ساطع : « يجب علينا الا ننسى ان الامل هو اثمن

---

(١) خلاصة هذه الاسطورة ان الآلهة باندور حازت كل شيء ، وسميت لذلك عطية الكل ، وحين غضب جوبتر على هرقل أراد أن ينتقم منه بواسطه الآلهة باندور فسلمها علبة وطلب منها ألا تفتحها وتسلمها لهرقل ، لكن حب الاستطلاع دفع باندور لفتح العلبة فخرجت منها جميع الشرور . واندهشت باندور لذلك ، وحاولت تغطية العلبة، غير أنه لم يبق فيها الا شيء واحد وهو الامل .

عوامل العمل ٠٠ يجب أن نحرص عليه كل الحرص ٠٠ فلا نترك سبيلا للقنوط يتسلل الى القلوب ٠ ليكن قلب كل منا شبيها بعلبة باندور يحفظ الأمل ٠٠ ولا يكتفي بحفظه فحسب ٠٠ بل يسعى الى تغذيته وتقويته الى أن يتحول الى ايمان لا يتزعزع ، يدفعنا الى العمل المتواصل بروح التضحية والاخلاص » ٠

طرده من العراق :

تم كان ان خضع العراق خلال وصاية الامير عبد الاله على الملك فيصل الثانى لحكم رجعى بغيض مناوىء لكل نهضة تقدمية أو حركة تحريرية ٠٠ ولقد ساعدت ظروف الحرب العالمية الثانية الانجليز على أن يحكموا قبضتهم على أمور العراق ، منتهزين فرصة وجود عميلهم عبد الاله ٠ ونجحت فى القضاء على الانتفاضة التحرريه التى قامت فى ذلك الحين ، والتى تعرف بحركة رشيد عالى الكيلانى وتفصيل ذلك أن الحكومة البريطانية طلبت من الحكومة العراقية قطع علاقاتها مع ايطاليا ، اسوة بما فعلته مع المانيا ٠٠ وكان رشيد عالى الكيلانى رئيسا للوزراء فى ذلك الحين ، وأما وزارة الخارجية فكان يتولاها نورى السعيد الذى اشتهر بتأييده للاستعمار البريطانى، كان كل من نورى السعيد وعبد الاله يؤيدان طلب بريطانيا ، وذلك خلافا لما كانت تراه بقية أعضاء الحكومة ، وخشيت بريطانيا من نوايا رشيد الكيلانى وطلبت من عبد الاله ابعاده ٠٠ وقام الوصى على العرش العراقى على الفور بابلاغ ذلك الى رئيس ديوانه الذى أبلغه لرئيس الوزراء ٠ لكن مجلس الوزراء العراقى قرر الاجتماع، وأصدر قرارا بعدم الاذعان للمطلب البريطانى ، ثم كان أن اجتمع العقداء الأربعة الذين كانوا على رأس القوات المسلحة المرابطة فى العاصمة العراقية (بغداد) وقرروا التدخل فى الأمر ، لكن رشيد عالى الكيلانى لفرط حبه للعراق ولوطنيته خشى على بلده من مغبة

هذه التطورات ، فقدم استقالته التى قبلها الوصى على العرش على الفور ، وأصدر أمرا بتعيين طه الهاشمي رئيسا للوزراء ٠

وما كاد يتولى منصب الحكم حتى يصدر اوامره باعتقال العقداء الاربعة ، لكنهم كانوا اسرع منه فتحركت قواتهم واجبروه على الاستقالة ، وفر عبد الاله فالتجأ الى الانجليز فى قاعدتهم بالحبانية ، واستدعى القادة العراقيون رشيد الكيلانى لتوليه أمر الوزارة ، وعهد بأمر الوصاية الى الشريف شرف ولكن عبد الاله ظل يشجع بريطانيا على عدم الاعتراف بالوضع الجديد ، فارسلت قوة عسكرية بقيادة الجنرال جلوب زحفت على بغداد واعادته الى منصبه٠

عاد عبد الاله الى حكم العراق، وكان من الطبيعيأن تكون نفوس الثوار العراقيين ساخطة ، وكان من بين الساخطين ساطع الحصرى ، وأخذت تجمعات الثوار تبحث أوضاع العراق ، والاستبداد الذى خضع له ، والحكم العميل للاستعمار ٠ واجتمع ساطع مع بعض العراقيين فى منزل الصحفى المعروف الاستاذ روفاييل بطى ، وأخذوا يتذاكرون أحوال العراق ، وكان حكم ساطع على عبد الاله قاسيا وقال : ان رصاصة واحدة كفيلة بتخليص العراق منه ٠٠ ونقل ما قاله ساطع لعبد الاله ، وكان لابد من التخلص منه ٠

لم يكن هناك مفر من ان يتخلص عبد الاله من ساطع ، حتى ولو لم يقل ما قاله ، ولم يبلغه مابلغه ، فلم يكن العميل الاستعمارى، وقد عاد الى حكم العراق على أسنة رماح الانجليز ، وفى حراسة دباباتهم ، ان يقبل وجود شخص كساطع معروف عنه نزعته التحررية وغيرته على أمته العربية ، وعناده للاستعمار ٠

وأصدر عبد الاله أمرا بسحب الجنسية العراقية من ساطع ، مستندا الى قرار كان موجودا آنذاك وينص على عدم منح الجنسيه

العراقية لكل شخص سـكنت اسرته العراق بعد ١٩١٤ · وفى الحادى والعشرين يونيو عام ١٩٤١ جاء شرطى لساطع فى منزله يطلب جواز سفره ، وبعده بساعتين جاء رجل من قبـل الحكومة يبلغه أن الحكومة قررت اخراجه من العراق ، واركبته القطار المتجه شمالا الى خارج حدود العراق (فى ١٩٤١/٦/٢٣) ·

وغادر ساطع العراق بعد أن أقام فيها زهاء العشرين عاما ، وبعد أن أحدث بها نهضة تعليمية وثقافية لا ينساها له شعب العراق الى اليوم ·

الفصل الثالث

القسم الثانى من حياة ساطع في البلاد العربية

١ ـ فى لبنان

١٩٤١ ـ ١٩٤٤

لم يكن لما حدث لساطع على يد القوى الرجعية فى العراق ليفت فى عضده ، ولم يكن طرده من العراق أو نزع الجنسية العراقية منه دافعا له الى أن يكفر بما آمن به وعاش من أجله · كان ساطع يؤمن بأمته العربية الايمان كله ، وكان يعتقد أنها أحوج ما تكون الى جهود أبنائها المؤمنين بهاالعاملين من أجلها · وكان على يقين أن رواد النهضة العربية لا بد وأن تواجههم الصعاب ، لكنهم منصورون ان ثبتوا على ما نادوا به ودعوا اليه ، لا يتسلل اليأس والقنوط الى قلوبهم ·

وعاش ساطع يحارب روح اليأس فى نفوس أبناء أمته العربية· يحدث الشباب العراقى بشأنه على نحو ما مر بنا ، وينادى بمقاومة هذا اليأس الذى تسرب الى نفوس البعض بعد حرب سنة ١٩٤٨ فى

فلسطين ، وبعد نكسة الانفصال بين الاقليمين الشمالى والجنوبى للجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦١ ، وبعد الخامس من حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ على نحو ما سنسرده فيما بقى من حديث وفيما سيتسع له هذا البحث ·

دراسته عن بن خلدون : أقام ساطع بعد أن اخرج من العراق فى لبنان وامتدت اقامته هناك حوالى أربع سنوات ، وخلال اقامته كتب الجزئين الأول والثانى من **دراســـاته عن مقدمة** ابن خلدون ·

لقد أعجب ساطع كل الاعجاب بهـــذا الفيلسوف العـــربى ، وسمى ابنه خلدون حبا وشغفا بهذا المفكر العربى ، وجاءت دراستهعن ابن خلدون تنبىء عن علم غزير ، وتعليقات اتسمت بســعة الأفق وخصب الفكر ·· والواقع ان الشبه كبير بين الرجلين (ابن خلدون وساطع) · عاش ابن خلدون وقد دمر التتـــار بغداد ، والاندلس يفلت من يد العرب ورأى ابن خلدون حصار يتمورلنك دمشق ، وشاهد ساطع حصار الفرنسيون لها ·

وكما فشلت سفارة ابن خلدون لدى التتار ، فشلت سفارة ساطع لدى الفرنسيين ، أعجب ساطع بابن خلدون أثناء تدريسه لعلم الاجتماع فى دار المعلمين العالية ببغداد ، وتمنى لو استطاع أن يعد دراسة عن هـــذا العملاق العربى · يقول ساطع : « ان كتـــابة دراسة منفصلة عن مقدمة ابن خلدون كانت من أعز الأمانى التى لم أنقطع عن التفكير فيها ، والعمل لاعداد وسائلها ، منذ مدة غير يسيرة · انها كانتمن جملة المشاريع الفكرية التى وضعتها لنفسىبغية انجازها ، فى الوقت الذى اتخلص فيه من أعباء الأعمال الرسمية ، وأتفرغ الى الدرس والتاليف فى المسائل التربوية والاجتماعية » ·

ولقد شعر ساطع أن الفرصة قد واتته حين أقام فى بيروت بعد

طرده من العراق ، ويؤكد ســـاطع فى بحث عن ابن خلدون الذى أخرج الجزء الاول منه فى ٢٠ من ديسمبر عام ١٩٤٢ والجزء الثانى عام ١٩٤٤ ، ان دراسته هذه ليست سوى بعض النماذج ، أو بعض الخطط لدراسات علمية يأمل أن تتم عن ابن خلدون ، فيستطيع من يقدم على هذه الدراســة العلمية أن يجد فى بحث ســاطع نموذجا ينسج على منوالها ويقدم على اتمامها ، فاذا تحقق الغرض المرجو من بحثه هذا عن ابن خلدون يكون قد أدى خدمة لذكرى مؤلفها العظيم.

يعتقد ساطع أن الجيل المثقف الحاضر (وقت أن أعد بحثه عن ابن خلدون) مقصر فى أداء واجباته نحو هذا المفكر العربى العظيم تقصيرا كبيرا ، ان هذا التقصير لا يتجلى فى نظر ساطع فى ضآلة الدراسات فحسب ، بل فى رداءة الطبعات التى ظهرت فيها مقدمة ابن خلدون . ويصف ساطع جميع الطبعات العربية التى ظهرت للمقدمة بأنها ناقصة ومشوهة ومشوبة ببعض الأخطار المطبعية التى تشوه المعنى ، فضلا عن ضآلة الشروح التى لوجمعت فى محل واحد لما ملأت أكثر من ثلاث صفحات .

ولقد أسدى ساطع خدمة كبيرة للتراث العربى حين أخذ يحقق بين الطبعات التى وجدت للمقدمة ، والنسخ الخطية التى عثر عليها . توصـــل ساطع الى أن أقدم طبعات كتاب بن خلدون هى طبعـة للمستشرق كاترمير فى ســـنة ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ ميلادية ، حيث استند هذا المستشرق على أربع نسخ خطية ثلاث منها محفوظة فى المكتبة الوطنية بباريس ، واحداها فى المكتبة العامة فى ميونيخ .. وأما أقدم الطبعات المصرية فقد تمت فى القاهرة تحت اشراف الشيخ نصر الهورينى حيث اعتمد هذا الشيخ على نسخة خطية ـ ذكرها عرضا باسم النسخة الفاسية . ونقل بالاضافة اليها فصلا واحدا من نسخة أخرى سماها النسخة التونسية .. ثم هناك طبعة بيروتية

تحت اشراف الكاتب رشيد عطية والمعلم عبد الله البستاني ، كما أصدرت المكتبة التجارية بمصر طبعة مشكولة جديدة ، لكن ساطعا يؤكد أنه بمقارنة هذه الطبعة بطبعة بيروت يتضح ان طبعة المكتبة التجارية لم تراجع شيئا من النسخ الخطية ، بل كانت نسخة طبق الأصل من الطبعة البيروتية باغلاطها ونواقصها ٠

ثم يدرس ساطع النسخ المترجمة لمقدمة بن خلدون وينتهي الى القول ان هناك نسختين مترجمتين لهـا ، احداها باللغة التركية والثانية بالفرنسية ، ولما كانت الترجمة التركية أقدم من الطبعات العربية فلا جـدال انها اعتمدت على نسـخ خطية ، أما الترجمـة الفرنسية فقد تمت على يد البارون دو سلان De slane ونشرت في باريس في ثلاثة مجلدات الأولى سنة ١٨٦٣ ٠ والأخير سـنة ١٨٦٨ م ٠ ويقارن ساطع مقارنة لها أهميتها الكبيرة في دراسة هذه المقدمة بين الطبعات بعضها ببعض مع ملاحظة النسخ المترجمة ٠

ثم هو يدعو الباحثين الى محاولة الحصول على النسخ المخطوطة لابن خلدون ودراستها وهو ما تعذر على ساطع القيام به ، وخاصة النسخة التونسية التي أشار اليها صاحب الطبعة المصرية للمقدمة (الشيخ نصر الهويني) ، لأنها أقدم النسخ للمقدمة والتي كتبهـا ابن خلدون قبل هجرته الى مصر ، فاذا اتم ذلك أمكن الوقوف على التطورات التي حدثت في اسلوب ابن خلدون وعقليته والتغيرات التي حدثت في معلوماته ونزعاته خلال هذه المدة تحت تأثير حياته الجديدة وبيئته في مصر ، يقول ساطع : « اني آسف كل الأسف على أنني لم أكن الآن في وضع يمكنني من الحصول على النسخة المذكورة ، أو الوصول اليها لاتولى دراستها ومقارنتها بنفسي ، ولذلك أراني مضطرا للاكتفاء بتسجيل رأيي في أهمية هذه النسخة وخطورة هذه

المقارنة وأدعو الباحثين الذين يهتمون بأمر ابن خلدون ومقدمته الى القيام بهذه المهمة على ضوء الملاحظات التى سردتها آنفا » ٠

ثم هو يدعو الى دراسة الترجمة المفصلة التى كتبها ابن خلدون عنه بنفسه عن حياته ، والتى هى محفوظة (وقت أن نشر ساطع بحثه هذا عن بن خلدون) بحالة مخطوطة فى زوايا مكتبة فى القاهرة ، ومكتبتين فى استانبول ، وهو أمر يحول بين الغالبية وبين أبناء الامة العربية من الاطلاع عليها والالمام بها ٠

وأهم ما يركز ساطع حوله الحديث فى هذه الدراسة لمقدمة ابن خلدون نفيه لما حاول البعض الصاقه لهذا العلامة الكبير بأنه نعت العرب بأوصاف تحقر من شأنهم ، وأنه كان من الكافرين بالعروبة ٠ وكان بسبب هذا الفهم الخاطىء لكلمة العرب فى استخدام ابن خلدون ان هاجمه الكثيرون ، ومنهم مدير المعارف العام العراقى ، أثناء وجود ساطع بالعراق فى خطبة ألقاها على المعلمين العراقيين ، زاعما انه كان من الكافرين بالعروبة ، وقائلا بوجوب حرق كتبه ونبش قبره باسم القومية ٠ وانبرى ساطع فى ذلك الحين يرد على مزاعم المدير العراقى فى مقالة كتبها فى ذلك الحين ونشرتها له مجلة لبنانية ، ودعا ساطع الى انه ينبغى أن يكون لدى العرب (نظرة قومية متنورة) ، كما كتب بحثا آخر حول هذه المعنى فى صحيفة عراقية كانت تصدر فى ذلك الحين باسم جريدة البلاد ٠

ومن ثم كان أهم ما يعنى ساطع فى هذه الدراسة عن ابن خلدون أن يعود الى بحث هذه المسألة لأهميتها الخاصة عنه ، وعند كل مشتغل بالفكر القومى ٠

يوضح ساطع انه كان علماء اللغة وواضعوا المعاجم الآن قد

صاروا يميزون بين كلمة عربي وعرب وبين اعرابي واعراب ، غير ان هذا التمييز لم يكن قديما تماما . ويستشهد ساطع بما جاءت به معاجم اللغة العربية قديما وما تقوله : تعرب الرجل بمعنى أقام بالبادية وصار اعرابيا . وهناك من العوام – كما يقول ساطع – في جميع البلاد العربية من يستعمل كلمة العرب بمعنى البدوي والفلاح . « فكثيرا مانرى العوام يقولون : ذهب الى العرب بمعنى ذهب الى البادية » . ثم يقول ساطع : « ان هذه العادة (قول العوام عن البدو بأنهم عرب) في حديث العوام قد لفتت نظري بوجه خاص أثناء كنت مديرا عاما للمعارف في العراق، ولهذا السبب أصدرت بلاغا عاما بتاريخ أول كانون الثاني (يناير ١٩٢٤) ألفت فيه نظر جميع المديرين والمعلمين الى هذا الأمر وأحرم عليهم استخدام كلمة عربي بمعنى فلاح أو بدوي » .

ثم يناقش ساطع أقوال ابن خلدون في هذه الناحية وهو ما اتخذ سبيلا للتهجم عليه من ذلك قوله في احد فصول المقدمة : (ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب) والدليل عند ابن خلدون على ذلك قوله : فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتقلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له ، فالحجر مثلا انما حاجتهم اليه لنصبه أثافي للقدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ، ويعدونها لذلك ، والخشب أيضا انما حاجتهم اليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم ، فيحزمون السقف عليه لذلك » .

ويخلص ساطع عن قول ابن خلدون هذا ان مدار بحثه هنا لا يتعدى البدو الذين يعيشون تحت الخيام . ثم ينتقل الى الفصل الذي يقول فيه ابن خلدون : « ان جيل العرب في الخلقة طبيعي » . وفيه يقول : « واما من كان معاشهم من الابل ، فهم أكثر ظعنا وابعد في القفر مجالا . فكانوا لذلك أشد الناس توحشا ، وينزلون من

أهل الحوافر منزلة الوحش غيرالمقدور عليه ، والمفترس من الحيوان العجم ، وهؤلاء هم العرب ، وفي معناهم ظنون البربر وزناتة بالمغرب، والاكراد والتركمان والترك بالمشرق ، الا أن العرب أبعد نجعة واشد بداوة • لانهم مختصون بالقيام على الابل فقط ، ويؤكد ساطع أن المفهوم من هذه العبارات ولا سيما العبارة الأخيرة ما قصده ابن خلدون من كلمة العرب فلقد قصد بها بمالا يدع مجالا للشك أعراب البادية الذين يعيشون خارج المدن » (١) •

ثم يعود ساطع ليؤكد ذلك فيما جاء به ابن خلدون في الفصل الأخير من مقدمته عن العلوم ، يشبهها الصنائع فيأتي بقول ابن خلدون من كلمة العرب فلقد قصد بها بمالا يدع مجالا للشك أعراب أبعد الناس عنها ، فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب)•

ومعنى هذا في رأي ساطع أن استعمال ابن خلدون كلمة العرب مقابلة لكلمة الحضر أمر لا يدع مجالا للشك في انه كان يقصد بها البدو •

وينبرى ساطع في الجزء الثاني من كتابه عن ابن خلدون للدفاع عن هذا المفكر العربي ، وعما يعتقد أن البعض تجنوا عليه ، ومن ذلك ما كتبه ــ كما يقول ساطع الاستاذ الدكتور طه حسين في بحث له باللغة الفرنسية عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، والتي نقلها للعربية الاستاذ الكبير محمد عبد الله عنان • ويعتقد ساطع ان فيما يقوم به من رد على أولئك الذين تجنوا على ابن خلدون واجب تدفعه اليه الامانة العلمية ، وليس بدافع التعقيب والتحزب

---

(١) يوافق المستشرق الفرنسي Deslane ساطع الحصري في رأيه بقوله
Les Arabes d' Ibn Khaldoun Sout Les Arabes Nomades.
كتب دوسلان في المجلد الثالث من الترجمة لمقدمة ابن خلدون في معجم الالفاظ الملحقة بها مقابل كلمة عرب العبارة الصريحة التالية ان عرب ابن خلدون هم الاعراب

له • ويرجو ألا يغمط الباحثون ابن خلدون حقه وذلك بمقارنة ما جاء به ابن خلدون بالقياس الى ما وصلنا اليه من معرفة وعلم « وانما ينبغي ونحن ندرس مقدمته ألا ننسى انه من رجال القرن الرابع عشر الميلادى ، فعلينا ونحن ندرس فصول هذه المقدمة أن نستعرض ما كان يقول به المفكرون في هذا الصدد في العصر الذى عاش فيه ابن خلدون وفي العصور التى اتت بعده » •

يطالب ساطع اذا الباحثين العرب ألا يطالعوا مقدمة ابن خلدون والا يقرءوها ، كما نطالع نحن ونقرأ المؤلفات العصرية غير ملقين بالا للقرون الطويلة التى تفصل بيننا وبين تاريخ كتابة المقدمة المذكورة ، فى حين أن قيمة المؤلفات القديمة ومنزلةالمفكرين القدماء ـ على حد قول ساطع — لا يمكن أن تقدر على هذه الطريقة • فكل عالم ومفكر يشترك بوجه عام مع معاصريه فى معظم آرائهم، فيشاطرهم أكثر اخطائهم ولا يمتاز عليهم الا فى بعض الآراء التى يوفق الى ابتكارها ، وبعض المعلومات التى يتوصل الى اكتشافها • ولذلك فان منزلة الباحث والمفكر في تاريخ العلوم والأفكار لا تتعين كما يقول ساطع بملاحظة جميعالآراء الصائبة والخاطئة التى جاءت فى كتاباته ، ومؤلفاته المختلفة ، بل تتقرر بملاحظة الآراء المبتكرة التى يسمو بها على معاصريه ، والحقائق الجديدة التى يضيفها الى المكتبات الفكرية البشرية •

ويخلص ساطع من هذا القول الى أن علينا أن نقارن المقدمة بكتاب من امثالها مقارنة شاملة كما يحق لنا أن نقارن الآراء الثمينة المستخرجة منها بما استخرج من أمثالها • ويقول ان دراسته لابن خلدون استهدفت ذلك بغية اظهار منزلة مؤلفها العظيم على هذا الأساس •

وظل ساطع يشعر أن عليه دينا ينبغي عليه الوفاء به تجاه

هذا المفكر العربي الذى غمطه الباحثون عامة والعرب خاصة حقه من الدراسة والبحث . لذلك لم تحل مشـــاغله دون المضى قدما فى دراسة كل ما يصل اليه عن ابن خلدون . ففى عام ١٩٥٠ سافر ساطع الى تونس (وكان وقتها يعمل بالجامعة العربية) لدراســة الآثار والذكريات المتعلقة بابن خلدون هناك . وكانت هذه زيارته الثانية لتونس فلقد اتيح له زيارتها من قبل سنة ١٩٣٩ خلال عمله فى العراق مديرا للآثار القديمة حيث سافر الى افريقية الشمالية لدراسة الآثار العربية القائمة بها ، وزار خلال هذه الرحلة المغرب والجزائر وتونس وانتقل منها الى صقلية وزار ايطاليا .

ولقد سعد ساطع ان وجـد الناس فى تونس يعرفون تماما الدار التى ولد فيها ابن خلدون وترعرع فيها ، وتقع هذه الدار فى أحد الشوارع المهمة من المدينة القديمة وهو الشارع المعروف باسم تربة الباى ــ وتشغل مدرســة الادارة العليا هـذه الدار منذ عدة سنوات . وقد وضع على جانب بابها لوحة رخامية تحمل اسم ابن خلدون وتذكر الناس بمولده فيها . وزار ساطع فى آخر شارع تربة الباى كتابا صغيرا تحت قبة جميلة يسمى مسيد القبة (وكلمة مسيد محرفة من كلمة مسجد ، والكتاب على حد قول ساطع يسمى فى تونس مسيد) ويروى ان ابن خلدون درس فى هذا الكتاب ، وأما قلعة ابن سلامة التى كتب فيها ابن خلدون مقدمته الشـــهيرة فموقعها معلوم لدى الجميع وانها تقع على بعد خمسة كيلو مترات من مدينة فرندا الحالية التابعة الى مقاطعة وهران فى الجزائر ، واطلال القلعة شاخصة الى الابصار هناك .

ويتأسف ساطع الحصرى لان الذاكرة الشعبية فى مصر لم تحفظ شيئا عن ابن خلدون وأن قبره غير معروف فى القاهرة التى عاش فيها مدة أربع وعشرين سنة .

وفي سنة ١٩٥٢ سافر ساطع الى استانبول للاشتراك في المؤتمر الأممي الخامس عشر لعلم الاجتماع حيث قدم بحثا عن ابن خلدون باللغة الفرنسية وكان عنوان البحث الذى القاه :

علم الاجتماع عند ابن خلدون La socioliogie d'Ibn Khaldoun وانتقد ساطع في هـذا البحث الذي ألقاه آراء الاسـتاذ الفرنسي جاستون بوتول Gaston Bouthoule استاذ الدراسات العليا في باريس ، فقد زعم هذا الاستاذ الفرنسي أن ابن خلدون كان من القدريين Fatalists أي ممن يعتقدون أن الامور تحدث بحكم القضاء والقدر • فانبرى ساطع يثبت أن ابن خلدون بريء من هذا الزعم ، وأنه كان يقول دائما هذه الامور تحدث على هـذا المنوال من جراء طبيعة الأشياء • كذلك انتقد ساطع ما قاله بوتول الفرنسي في كتابه عن ابن خلدون والذى اسـمـاه ابن خلدون وفلسـفته الاجتماعية Ibn Khaldoun sa philosophie Sociale(1) حين قال أن ابن خلدون كان يعرف الشيء القليل عن التاريخ القديم وانه كان يعتقد مثل العوام أن الآثار الرومانية من مباني العمالقة ، ومع تسليم ساطع ان ابن خلدون لم يكن يعرف شيئا عن التاريخ القديم ، وعن تاريخ الرومان بوجه خاص ، فانه لم يعتقد أبدا ان الآثار الرومانية من مباني السالفة • بل ان ابن خلدون على حد قول ساطع فند الروايات الشائعة بين الناس في هذا الشأن • ثم تساءل ساطع عن السبب الذى دعا الاستاذ بوتول ان يقول ذلك ، ثم يفسره بأنه (بوتول) لم يكلف نفسه عناء قراءة الفصل بكامله الذى كتبه ابن خلدون عن هذه الناحية ولذلك لم يطلع بوتول على ما كتبه ابن خلدون في نقد وتجريح تلك الخرافات ، فتوهم ان ابن خلدون اعتقد بصحتها •

---

(١) قامت الدار المصرية للتأليف والترجمة بترجمة هذا الكتاب سنة ١٩٦٤ وقام بالترجمة الاستاذ غنيم عبدون •

واستشهد ساطع فى قوله بما جاء فى الترجمة الفرنسية للمقدمة التىقام به دوسلان Deslane ولم يكف ساطع عن دراسة ابن خلدون فاخرجت له دار المعارف فى السنة التالية لهذا المؤتمر (١٩٥٣) دراسة موسعة عن ابن خلدون ضمت الدراسة التى كان قد قام بها فى عام ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ • والتى نفدت طبعتها ، كما اشتملت هذه الدراسة الموسعة على درسة لتاريخ حياة ابن خلدون • ومن المعروف أن الباحثين قد استجابوا لدعوة ساطع التى دعا اليها فى كتابه الذى وضعه عن ابن خلدون عام ١٩٤٣ وطالب فيها بنشر مخطوط ترجمة ابن خلدون • فلقد نشر هذا المخطوط سنة ١٩٥١ بمعرفة لجنة التأليف والترجمة والنشر بعد التحقيقات التى قام بها والحواشى التى كتبها السيد محمد بن تاويت الطنجى ، ويهتم ساطع بهذا التعريف الذى كتبه ابن خلدون عن تاريخ حياته لماتضمه من الوثائق والمعلومات التاريخية والأدبية •

بعد ذلك يقسم ابن خلدون بحثه فى هذه الطبعة الموسعة عن ابن خلدون ثلاثة أقسام •• القسم الأول نظرات وملاحظات عامة ، والقسم الثانى مكانة ابن خلدون فى تاريخ فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، أما القسم الثالث فقد خصصه ساطع لآراء ابن خلدون ونظرياته •

واذا ما اردنا ان نعرف الجهد الذى بذله ساطع فى دراسة ابن خلدون ما بين صدور كتابه الأول عنه سنة ١٩٤٣ ، وصدور الطبعة الموسعة بعد ذلك بعشر سنوات القينا نظرة على بعض الدراسات التى اضافها فى طبعته هذه والتى لم يتضمنها كتابه الأول •

جاء ساطع فى هذه الطبعة الموسعة بدراسة عن مؤلف المقدمة اسرته ، عصره ، حياته ••

ثم آثاره وابن خلدون فى الذاكرة الشعبية • حول ابن خلدون

وكونت • أسلوب المقدمة ومفرداتها اللغوية • وتأثير ابن خلدون في كتاب الاتراك ومؤرخيهم • اكتشاف ابن خلدون في أوربا ـ نقد كتاب البروفسور غاستون بوتول • خريطة تبين مسسارح حياة ابن خلدون • تاريخ ولادة ووفاة أهم فلاسفة التاريخ بعد ابن خلدون •

ثم يختتم ساطع بحثه عن ابن خلدون برجاء الى باحثي المخطوطات العربية ألا يتوانوا في البحث عن النسخة التونسية للمقدمة وهي النسخة التي قدمها المؤلف الى السلطان الحفصي في تونس قبل نزوحه الى مصر ، وكان ساطع يعتقد انه سيعثر على هذه النسخة في دار الكتب المصرية عندما أقام في القاهرة ، ولكنه لم يعثر عليها ، ثم كان يأمل أن يجدها في تونس فسافر اليها سنة ١٩٥٠ على نحو ما سبق القول لكنه لم يوفق في بحثه • يدعو ساطع الباحثين ألا ينقطعوا عن البحث عنها مؤكدا لهم أن اكتشاف النسخة المذكورة سيكون ذا قيمة علمية وتاريخية كبيرة •

٢ ـ فى سورية

١٩٤٤ ـ ١٩٤٧

بعد أن أقام ساطع فى لبنان زهاء أربع سنوات (١٩٤١ ـ ١٩٤٤) دعته الحكومة السورية للعمل بها مستشارا فنيا للمعارف، وكان من الطبيعي أن تقع دعوة الحكومة السورية من نفسه ومن قلبه موقعا محببا ، ذلك ان لسورية مكانتها الخاصة فى نفس ساطع، فلقد عاصر فيها أحداثها السياسية التى أطاحت بأول حكم عربى شهدته سورية فى عصرها الحديث .. وخرج منها ساطع بعد استيلاء الفرنسيين عليها ، وهو يدعو الله أن يعطيه من العمر حتى يشهد يوم خروجهم منها ، وحقق الله لساطع ما تمناه ، فعاد اليها وهى قاب قوسين أو أدنى من حصولها على الاستقلال الذى تحقق لها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية .

عهدت الحكومة السورية لساطع مهمة دراسة نظم التعليم السورية ، ووضع ما يراه من مقترحات كفيلة باصلاحه ، وعكف ساطع على الفور على القيام بما عهد به اليه ، فدرس أحوال المعارف فى سورية وأعد ستة عشر تقريرا فى شأن اصلاح التعليم السورى: التقرير الاول والثانى عن اجراءات التعيين فى وزارة المعارف ، والروتين المعقد الذى يأخذ طريقا فى كل كبيرة وصغيرة من أمور الوزارة ، أما التقرير رقم (٣) الذى وضعه ساطع فى الثانى والعشرين من مارس عام ١٩٤٤ فقد خصصه لبحث تشكيلات وزارة المعارف ، ثم وضع ساطع باقى التقارير تباعا التى تناولت التعليم الابتدائى (قدمه للحكومة السورية فى ٢٠ من ابريل عام ١٩٤٤)

والتقرير رقم (٦ ، ٧) عن التعليم الثانوى والمعلمين ودور المعلمين (قدمه للحكومة فى ٢٤ من ابريل عام ١٩٤٤)

التقرير رقم (٨) عن المبانى المدرسية (قدمه فى ٣ من مايو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (٩) عن الآثار القديمة والمتاحف قدمه فى ٣٠ من مايو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (١٠ ، ١١) عن التعليم الفني والتفتيش (قدمه بتاريخ ١٤ من يونيو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (١٢) عن التعليم العالى والجامعة السورية (قدمه فى ١ من يوليو عام ١٩٤٤).

تقرير رقم (١٣) عن أنظمة الامتحانات العامة (قدمه فى ٢ من يوليو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (١٤) عن تنويع المدارس وتكييف المناهج (قدمه فى ٥ من يوليو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (١٥) عن الانظمة العامة والقوانين فى أمور المعارف (قدمه فى ٦ من يوليو عام ١٩٤٤)

ثم قدم ساطع بعد ذلك مشروعا بقانون عن نظام التعليم وآخر عن تشكيل وزارة المعارف ، وقد وافقت الحكومة السورية على المشروعين بقانون وقدمتهما للمجلس النيابى الذى وافق عليهما وأصبحا قانونين نافذين .

كما قدم تقريرا عن توثيق الصلات الثقافية بين سورية وسائر الاقطار العربية وكيفية السبيل الى تحقيقه .

واذا كان الحديث في هذا البحث لا يسمح بتناول كل هذه المقترحات التي قدمها ساطع مستهدفا بها اصلاح التعليم السوري، فاننا سوف نكتفي بالاشارة الى أهم ما احتوته هذه التقارير ٠

طالب ساطع وزارة المعارف السورية أن تسعى الى توحيد مصطلحاتها في مجال المعارف مع سائر البلدان العربية ٠ ولاحظ بالنسبة لتسمية الصفوف في المدارس التجهيزية والاكمالية انها تسير من الاعلى للأسفل بمعنى أن التلميذ في آخر سنة له بالمدارس الثانوية يعرف بانه في السنة الاولى ، بينما تتبع عكس ذلك في التعليم الابتدائي فتسمى الصفوف من أسفل الى أعلى ٠ فيجب على وزارة المعارف السورية ــ على حد قوله ــ الا تقلد فرنسا في هذه الناحية ٠

واقترح ساطع الحصري كذلك على وزارة المعارف السورية أن تلغي اسم المدرسة التجهيزية ، وتسميها بالثانوية ، مثلما تفعل مصر وباقي البلاد العربية ، وكذلك اسم المدرسة الاكمالية الذي هو مقتبس من فرنسا ، لكنه في سورية مطبق على غير المقصود منه عند الفرنسيين ، فالدروس الاكمالية في فرنسا هي الدورة التي تضاف الى الدورات الثلاث الموجودة في المدارس الابتدائية بغية اكساب الطلاب بعض المعلومات الاكمالية ، وهذه الصفوف تكون عادة ملحقة بالمدارس الابتدائية ومستقلة عن المدارس الثانوية ، لكن وضع المدارس الاكمالية التي وجدت في سورية في ذلك الحين كان مختلفا عن ذلك ، لأنها (المدارس الاكمالية) في سورية تتولى مهمة الدورة الاولى من الدراسة الثانوية ٠ وطالب ساطع بأن يحتفظ بتعبير الاكمالية للدلالة على الصفوف التي تفتح لاتمام معلومات الطلاب بعد الدراسة الابتدائية ٠ وأما المدارس الاكمالية الحالية التي ما هي الا القسم الاول من المدرسة الثانوية فيجب أن تسمى باسم خاص جديد ، واقترح تسميتها بالمتوسطة شأن ما هو حادث في العراق٠

أما عن الجـــامعة السورية التى كانت نواتها فى ذلك الحين معهدى الطب والحقوق ، فاقترح ساطع لاصلاحهما الاستعانة بعدد من الاساتذة الجامعيين غير السوريين ، ويفتخر ســاطع بأن هذين المعهدين كانا أول كليتين تدرسان علومهما باللغة العربية بين كل الكليات الجامعية فى البلاد العربية ، ثم يقول: «ان الجامعة السورية بحاجة شديدة الى اصلاحات كلية تتناول جميع الاسس التى تقوم عليهـــا ، ولا يمــكن أن يتم ذلك بغير الاستعانة بخبرات عدد من الأساتذة الجامعيين غير الســـوريين • انى أعرف أن ظروف الحرب الحالية (الحرب العالمية الثانية) تحدد الوسائل التى يمكن الحصول عليها وتحول لذلك دون اتمام الاصلاحات المطلوبة ومع هذا اعتقد أنه يترتب على الحكومة السورية أن تشرع فى التفكير فى أمر بنايات الجامعة حالا وأن تقوم بالاصلاحات الجزئية التى يمكن انجازها الآن •

ثم أعد ساطع مشروعا بقانون لتنظيم أمور التعليم فى سورية، وقد لقى هذا المشروع موافقة الحكومة السورية ، وتصديق المجلس النيابى السورى ، فقد أقر المجلس هذا المشروع بقـانون بحماسة منقطعة النظير •

وأهم ما استحدثه ساطع من اصــــلاح هو تخليصنه للتعليم السورى من أن يكون تابعا للتعليم الفرنسى ، مثلما جاهد فى العراق لتخليص التعليم فى العـــراق من تبعيته للتعليم الانجليزى ، كان ســـاطع يؤمن ان ظروف كل بلد تختلف عن الاخرى وأن النفـوذ الثقافى مقدمة للنفوذ السياسى ، أو هو مكمل له ، فاذا ما تخلصت بلد من سيطرة سياسية عليها فعليها أن تتخلص من التبعية الثقافية• وليس معنى ذلك كما يؤكد ســاطع الاستغناء عن ثمـــار الثقافات الاجنبية ، وانمــا القصد منه تخليص المعارف السورية من قيود التبعية للمعارف الفرنسية ، وحين أقــدم ساطع على ذلك هاجمه

الكثيرون فذكرهم بما قيل عنه في العراق حين أقدم على اصلاح التعليم فيه حيث اتهمه البعض انه يريد أن يستبدل بالثقافة الانجليزية فى العراق الثقافة الفرنسية • لكنه الآن وهو يهاجم تبعية التعليم فى سورية للتعليم الفرنسي فهل معنى ذلك أنه عاد وارتمى فى أحضان الثقافة الانجليزية ؟

ويؤكد ساطع انه لا يشـــغل نفسه بأيهما أرقى هل الثقافة الانجلو ساكسونية أو الفرانكو لاتينية « انما أنا أبحث عما هو أنسب لنا وأصلح » •

وألغى ســاطع تعليم اللغـــة الاجنبية في المدارس الابتدائية السورية ، على نحو ما فعل فى العراق ، لصعوبة تعلم الطفل لغتين في وقت واحد ، حسبما قرر خبراء التربية والدارسون لأمور الطفل هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لصعوبة اللغـــة العربية ذاتها مما لا يدع مجالا للشك فى أن تعلم قواعد هذه اللغة ، وهـــذا الخط يتطلب من أطفال العرب جهدا ذهنيا أكبر بكثير مما تتطلبه سائر اللغات • كما أنقص مدة التعليم الثانوى من سبع سنوات الى ست، وغير أسماء الصفوف فى هذه المرحلة الثانوية ، فجعلهـا تبدأ من أسفل الى أعلى ، وجعل مدة الدراسة الابتدائية خمس سنوات بعد أن كانت أربعة وجعل السنوات الأربع الاولى منها حلقة تامة والسنة الاخيرة متممة لها •

وضع ساطع نصب عينيه فى اصلاحه للتعليم السورى خدمة الهدف القومى ، فنصت المادة الاولى من مشروع قانون المعارف العامة الذى وضعه فى سورية ما يلى بخصوص واجب وزارة المعارف : مهمة وزارة المعارف تربية الجيل الجديد تربية صالحة من جميع الوجوه البدنية والخلقية والفكرية ليصبح كل فرد من أفراده قوى البدن حسن الخلق صحيح الفكر محبا لوطنه معتزا بقوميته مدركا لواجباته ومزودا بالمعلومات التى يحتاج اليها •

ولذلك اشترط ساطع (فى المادة ٤٥ من مشروع القانون الذى قدمه للحكومة السورية) أن تدرس جميع المدارس الخاصة الابتدائية والثانوية اللغة العربية ، وتاريخ العرب ، وجغرافية البلاد العربية ، حسب منهج وزارة المعارف ، وان ذلك أمر اجبارى ، ويجب ألا تقل دروس اللغـــة العربية عن خمس ساعات أســـبوعية فى الصفوف الابتدائية ، وعن ثلاث ساعات فى صفوف المدارس الثانوية .

وأعطى ساطع للجامعة السورية استقلالها وشخصيتها الخاصة، وتوخى أن تكون مهمة المدرسة شيئا أكثر من مجرد التعليم فمهمتها التربية فنجـده يقول : « لقد اعتاد الناس أن يتوخوا من المدرسة التعليم وحده . انهم كثــيرا ما يظنون ان روح المدرسة وجوهرها ينحصر فى الصفوف ، ان واجب المدرسة مراعاة التربية البـدنية والاجتماعية كما أن عليها مراعاة نفسية الطفل والتشويق والترغيب وغيره من أسس التربية » لقد ألم ساطع بكل ما قاله خبراء التربية فى مجال التعليم ، منذ بدأ يمارس العمل فى هذا المجال مع بداية أيام القرن العشرين بعد تخرجه من المدرسة الملكية فى القسطنطينية على نحو ما مر بنا .

ثم هو يقترح توثيق الصلات الثقـــافية بين سورية والبلاد العربية ، ويرى ساطع ان سورية كانت فى طليعة البلاد التى آمنت بالفكرة العربية وعملت من أجلها وان الشعب السورى الذى كان ولا يزال مؤمنا بالوحدة العربية ايمانا راسخا ، وكان ولا يزال أبعد الشعوب العربية عن التيارات الاقليمية التى تحد من فكرة القومية. من أجل هذا ينبغى أن تكون سورية فى طليعة البلاد العربية التى تسعى لتقوية الروابط الثقافية بينهـا وبين شقيقاتها العربيات . واذا كانت السلطة الاجنبية (الفرنسية) التى حكمت ســورية منذ مدة قاربت ربع قرن قد خالفت هذا النهج وعملت على محاربة هذا الايمان فلقد استهدف الفرنسيون أن يبعدوا سورية عن التيارات

الرامية الى توحيد الثقافة العربية ، بل يبذلوا الجهود لمحاربة فكرة الوحدة العربية بل فكرة الوحدة السورية ذاتها . ثم ينتقد ساطع ما أدخله الفرنسيون على قانون التعليم العالى السورى بحصر أستاذية الجامعة فيمن يحملون شهادة الدكتوراه من معاهد سورية وفرنسا فقط بينما تقضى منفعة التعليم والعلم بانتقاء أساتذة الجامعة من بين أرقى أرباب العلم والاختصــــاص بقطع النظر عن منشأ شهادة الدكتوراه التى يحملونها » . كذلك تضمن قانون التعليم السورى ان الشهادة الفرنسية تعتبر مثل الشهادة السورية لها الرجحان على شهادات البلاد الاجنبية الاخرى ولقد طالب ساطع بالغاء ذلك على الفور « ولا حاجة الى بيان أن تعبير البـــلاد الاجنبية الواردة فى القوانين القصد منه مصر والبلاد العربية الاخرى » .

ثم هو يحمل على القــــائلين بعدم امكان الوحدة الثقافية بين البلاد العربية وهو ما سنتناوله بالحديث فى موضع آخر من هذا البحث .

وأشار ساطع فى ذلك الحين بما وضعته وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٤١ من مشروع لعقد مؤتمر تعليمى عربى غرضه البحث فيما يجب عمله لحل المشاكل التعليمية وتقريب المناهج الدراسية ، غير أن ظروف الحرب العالمية الثـانية حالت دون تحقيق هــذا المشروع فاستبدلت وزارة المعارف به مشروعا لمكتب التعاون الثقافى ، وأسس المكتب المذكور بعضوية مصر والعراق ، وعندما حصلت سورية على استقلالها دعتها مصر للاشــــتراك فى عضوية هذا المكتب ، ولبت سورية الدعوة . ورأى ساطع أنه أصبح من واجبات وزارة المعارف أن تتهيأ للقيام بالمهام التى ترتبت على عضويتها فى مكتب التعاون الثقافى ، ثم هو يطالبها بتشجيع تبادل الكتب والمجلات ومقـاومة استخدام اللغة العامية ، لقــــد كان ساطع يرى ان دعاة الاقليمية يشجعون استخدام اللغة العامية فى البلاد العربية بغية القضاء على

أهم رابطة تجمع بين أبناء هذه الامة وهى اللغة ، وسنعرض لذلك عند حديثنا عن القومية كما تصورها ساطع ٠

ووافقت الحكومة السورية على ضرورة تنظيم الصلات التقافية بين سورية والبلاد العربية فعهدت الى ســـاطع أن يضمن مشروعه لاصلاح التعليم السورى ما يراه من مقترحات كفيلة بذلك ٠ يعتقد ساطع أن واجب وزارة المعارف السورية ينقسم الى ثلاثة أقسام فى مجال توثيق وتنظيم الصلات الثقافية :

١ ــ رفع الموانع والحواجز التى تعرقل الصـــلات الثقافيه وتحول دون توثقها ٠

٢ ــ العمل لضمان التقارب بين منـــاهج الدراسة فى البلاد العربية المختلفة ، وتوحيد الاتجاهات الاساسية المرسومة لها ٠

٣ ــ التعاون مع وزارات المعارف فى البلاد العربية الاخرى فى جميع الاعمال الانشائية التى تساعد على تكوين ثقافة عربية موحدة٠

لقد عاش ساطع يؤمن بأهمية توحيد الثقافة العربية بين جميع البلاد العربية كسبيل الى وحدة عربية ، ومن أجل هذا استأثرت الثقافة العربية باهتمامه البالغ وسنتناول ذلك عند حديثنا فى فضل ساطع على الثقافة العربية ٠ لكننا نكتفى هنا ونحن نتناول جهود ساطع فى اصلاح التعليم السورى بالقول انه كان يؤمن بأن أهداف التربية فى البلاد العربية بناء مجتمع عربى يختلف عن المجتمع الحالى تماما ، يقول ساطع : « نحن نشعر بالتأخر العظيم والنواقص الكبيرة التى يلى بها مجتمعنا الحـــالى ــ ولذلك نســعى وراء مجتمع جديد يختلف عن مجتمعنا الحالى اختلافا كليا ٠ ونحن لا نجهل نوع هذا المجتمع بوجه عام ٠ اننــــا نعلم ان الامة العربية ظلت متأخرة فى مضمار الرقى والحضارة تأخرا كبـيرا ومحرومة من ثمـــار العلوم

والفنون العصرية الحديثة حرمانا أليما • ونجد ان بعض أبنائها فى بعض الجهات لا يزالون يعيشون كما يعيش أجدادهم فى القرون الوسطى — ان لم نقل فى القرون الاولى ، لذلك نريد أن نتلافى هذا التأخر ، ونصلح هذا النقص ، لكى تصبح أمتنا متمتعة بنعم الحضارة العصرية من جميع نواحيها ومتبوئة المكان الذى يليق بها نظرا لعظمة ماضيها • اننـا نعلم أن الامة العربية غلبت على أمرها وحرمت من نعم الوحدة والاستقلال منذ عهد بعيد •

« وقد تقاسمتها الدول المستعمرة أخيرا ، وأخذت تسـعى بكل ما لديها من قوة سلطان لترسيخ نفوذها المادى والمعنوى فى البلاد التى استولت عليها • والتفرقة الادارية التى حدثت بهذه الصورة عقدت المشاكل الاساسية ، كما زادت الحيرة والارتباك بتـأثير النزعات الدينية والمذهبية من جهة والتسويات الاستعمارية من جهة أخرى ، كما أخذت تتصادم بمقتضيات المشاكل الاقليمية أيضا بصور شتى ، ان كل هذه الاحوال ترينا بوضوح تام الواجبات التى تترتب علينا فى هذه الظروف ، فعلينا أن نسعى لتوحيد البلاد العربية لتكون أمة قوية عصرية تستعيد مجدها الغابر وتدخل فى مصاف الأمم الراقية • ولذلك نحن لا نستهدف فى تربيتنا المحافظة على المجتمع الحالى بل نسعى لجعل الجيل الجديد عاملا لتكوين المجتمع الراقى الذى ينشده على الدوام » •

وركز ساطع اهتمامه فى تربية النشىء العربى على الناحية الاجتماعية ورأى ان ما ينقص المواطن العربى ليس الخصال الفردية وانما هى الخصال الاجتماعية • وعلينا ان نعمل على تخليص الفرد العربى من الانانية ونعوده الايثـار ونقوى فيـه روح الاقـدام والتضحية •

وفي معرض تأكيده لاهمية الجانب الأجتماعى فى التربية كتب ساطع :

« كثيرا ما يتناقش المربون فى مسألة تقديم وتفضيل المطالب الفردية على الاجتماعية أو الاجتماعية على الفردية فى الجهود والمقاصد التربوية · انني لا اتردد فى ترجيح المطالب والخصال الاجتماعية نظرا لأحوالنا العامة لأن العرب بوجه عام أقوياء من حيث الخصال الفردية ضعفاء من حيث الخصال الاجتماعية ، فيجب علينا ان نجعل أمر ازالة هذا الضعف من أهم المرامى فى جهودنا التربوية ·

« اننا نرى فعلا عددا كبيرا من أفراد العرب ينجحون نجاحا باهرا فى جميع أقطار العالم وفى جميع نواحى الأعمال ·· نشاهد ذلك على الأخص فى المهاجر ، بين العرب الذين يعيشون خارجا عن مواطنهم الاصلية ، فى الصين ، الهند الشرقية ، امريكا الشمالية والجنوبية · كل ذلك يدل دلالة جلية على قوة الخصال والقابليات الفردية فى الأمة العربية ·

« فيمكننا ان نقول : ان ما يحتاج اليه العربى قبل كل شيء وأكثر من كل شيء هو التربية الاجتماعية التى تقوى وتنمى فى نفسه روح التضامن والطاعة والتضحية فتضمن له النجاح لا لفرد قائم بنفسه فقط بل كشخص خادم لأمته ايضا ·

« ولذلك اقول بلا تردد يجب علينا ان نهتم بتقوية الخصال الاجتماعية أكثر من اهتمامنا بتنمية القوى الفردية ·

ونادى ساطع بأنه ينبغي على السياسيين العرب ورجال الاحزاب أن يبعدوا بنشاطهم عن نطاق التعليم والمدارس « فمن واجبنا أن نترك المدارس فى موقف حيادى تام تتفق جميع الاحزاب والاشخاص على احترامها احتراما حقيقيا » ·

ويؤمن ساطع بأنه لا ينبغي ان تهدف التربية في البلاد العربية الى تنشئة الفرد بأحسن ما يمكن من الصور ، على أمل أن يحــل مشاكل المستقبل بنفسه ، دون أن نفكر في شـــكل المجتمع القادم منذ الآن · فهي طريقة لا ينبغي للمربين العرب ان يؤمنوا بها و·ن يتبعوها لأنها قد تلائم أحوال الأمم التي تسير في مقدمة الحضارة ، والتي تســـتطيع ان تقول دائما (ان الزمان يخدمني دائما) · يرى ساطع ان الأمة العربية بعيدة عن هذه الأحوال بعدا كبيرا بل بعكس ذلك يجد كل فرد من أبناء الأمة العربية نفسه معرضا لتيارات معاكسة متناقضــة ، ويجد أن معظم التيـــارات الحاكمة مخـالفة لمصالحنا القومية ·· فاذا ما تركنا الأمور على حالها دون أن نسعى للسيطرة على هذه التيـــارات ـ بقوة التربية ـ ودون أن نجتهد لتوجيهها نحو تكوين المجتمع الجديد الذي ننشره ـ عن طريق التربية نكون قد تركنـــا الاجيال الجديدة عرضه لتأثير العوامل الخارجيـة الأجنبية التي تخالف مصالحنا القومية مخالفة تامة ·· ولهذا السبب نحن مضطرون لحشد جهودنا في تربية الجيـــل الجديد نحو الغاية القصوى التي ننشدها وهي توحيد الأمة العربية وترقيتها ·

وما أظننا بعد نكسة الخامس من يونيو بحاجة لأكثر ممـــا نادى به ساطع · ولعل القارىء العربي يشاركني الرأى في أن بيان (الثلاثين من مارس ١٩٦٨) الذى اجمعت عليه الجمهورية العربية المتحدة حين تقرر العمل بكل الطاقات في سبيل انشاء الدولة العصرية في مصر جاء متمشيا مع آراء ســـاطع ومع مطلبه من أبنـــاء الأمة العربية ·

٣ - في مصر

منذ سنة ١٩٤٧

عند ختام مدة السنوات الثلاث التى تعاقد فيهـــا ساطع مع الحكومة السورية انتقل الى مصر وتولى التدريس فى معهد التربية العالى بالمنيرة حيث ألقى سلسلة محاضرات عن التربية الاجتماعية ، واحتياجات التربية والتربية الوطنية والقومية ، واستمر فى هذا العمل ثلاث سنوات (من ١٩٤٧ الى ١٩٤٩) وفضلا عن ذلك القى ساطع فى قاعة الجمعية الجغرافية باسم كلية الآداب جامعة القاهرة ست محاضرات فى نشوء الفكرة القومية • وقد نشرت هذه المحاضرات للمرة الأولى فى القاهرة سنة ١٩٥١ وسوف نتعرض للحديث عنها عندما نتناول دور ساطع فى مجال حركة القومية العربية •

وبعد تكوين جامعة الدول العربية وتشكيل ادارتها الثقافية عين ساطع مستشارا فنيا فى هذه الادارة اعتبارا من عام ١٩٤٨ •

شهدت هذه الفترة اضخم نشاط لساطع فى مجـــال الثقافة فبدأ باصدار سلسلة حولياته الثقافية •

صدرت الحولية الأولى لساطع سنة ١٩٥٠ تتناول الشـــئون الثقافية فى البلاد العربية من سنة ١٩٤٥ ــ ١٩٥٠ •

ثم صدرت الحولية الثانية سنة ١٩٥٢ تتناول هـذه الشئون من سنة ١٩٥٠ ــ ١٩٥١ •

كما صدرت الحولية الثالثة ســـنة ١٩٥٣ تتناول الفترة من سنة ١٩٥١ ــ ١٩٥٢ •

ثم كانت الحولية الرابعة سنة ١٩٥٤ تتناول الفترة من سنة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ ٠

وصدرت الحولية الخامسة سنة ١٩٥٧ تتناول الفترة من سنة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣

وآخر هذه الحوليات هي الحولية السادسة صدرت سنة ١٩٦٣ تتناول الفترة من سنة ١٩٥٧ – ١٩٦٢ ٠

أما الهدف الذى رمى اليه ساطع من اصداره لهذه الحوليات الثقافية فهو ما كتبه فى فاتحة الحولية الأولى ٠ يقول ساطع :

« الفت هذا الكتاب لافتتح به سلسلة الحوليات التى ستنشرها الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية عن شئون الثقافة العربية كل عام ٠ وكان الباحث الذى يود أن يحصل على فكرة ولو اجمالية عن الاوضاع الثقافية فى أى قطر عربى يضطر الى مراجعة عدد من المطبوعات والكتب ، فأصبح من مهمة الحولية ان توفر هذه المهمة » وأهمية هذه الحوليات على حد قوله ان الثقافة العربية لم تكن من الثقافات المنطوية على نفسها بل انها من الثقافات الواسعة من الوجهة المادية والمعنوية ٠ لذلك فان الشئون العربية تسترعى انتباه الكثيرين مما يعطى اهمية لوجود مثل هذه الحوليات ٠

بدأ ساطع حوليته الأولى بدراسة الشئون الثقافية لخمس دول عربية هى مصر ، العراق ، سورية ، لبنان والاردن ، ولم يتناول فيها الشئون الثقافية للملكة السعودية واليمن لتعذره الحصول على بيانات عن كل منهما ، ثم تناول بالدراسة الشئون الثقافية للسعودية فى حولياته التى تلت ذلك ٠

تناول ساطع الاحوال الثقافية فى البلاد العربية تناول المحايد الذى يصف هذه الاحوال كما هى دون تعليق او نقد فنجده يقول :

« هذا ولا بد لى من التصريح اننى وصفت الاحوال الراهنة وصفا حياديا ذلك لاعتقادى ان للنقد مجالات أخرى غـــير صحائف هذه الحوليات التى تصدر باسم الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية . ولم أبد رأيا شخصيا الا قولى فى موضع واحد من هذه الحولية .. فقلت يظهر من هذه النظريات السريعة التى القينــــاها على تاريخ المعارف فى مختلف الأقطار العربية ان الفروق التى تشاهد بين هذه الأقطار من حيث نظم التعليم واتجاهات الثقافة لم تكن نتاج طبيعة البلاد الأصلية وحاجاتها الحقيقية ، انما كانت من نتائج السياسات الأجنبية التى سيطرت على مقدراتها عنطريق الانتداب أو الاحتلال. فلا مجال للشك فى ان هذه الفروق ستتضاءل كلما تخلصت الدول العربية من النظم التى ورثتها عن عهود الاحتلال والانتداب ، وكلما عدلت النظم والاوضاع الناتجة فى بلادها وفق ما تقتضيه مصالحها الحقيقية بنظرات شاخصة نحو المستقبل البعيد والمثل الاعلى الذى تنطوى عليه فكرة العروبة الخالدة » .

ثم يقول ساطع : « واضيف اننى آمل املا قويا ان الذين بيدهم زمام أمور المعارف والثقافة فى مختلف الدول العربية عندما يلمسون الحقيقة التى سردتها سيشعرون شعورا قويا اقوى واوضح مما كانوا يشعرون به بوجوب العمل على ازالة هـــذه الفروق بكل اهتمام واندفاع .

ومن ثم يمكن القول ان ساطع استهدف من وضعهذه الحوليات التى بذل فيها جهدا كبيرا مرهقا ان تكونبداية الطريق لازالةالفروق الثقافية بين البلاد العربية فقد كان يعتقد كل الاعتقاد أن الوحدة الثقافية ينبغى أن تتحقق كبداية للوحدة الســـــياسية بين الدول العربية وأنه مادامت الفروق الثقافية قائمة بقيت الاقليمية بظلهـا الكئيب باسطة سلطانها بين أبناء الأمة العربية .

كذلك وضع ساطع أثنـــاء توليه منصب مستشـــار الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية مشروعا لانشاء متحف للثقافة العربية بهدف اظهار الفروق القائمة بين نظم التعليم ومناهج الدراسة فى مختلف البلاد العربية حتى تســتفيد الدول العربية من تجـارب بعضها البعض فى مجال التعليم ٠

ولذلك اقترح ساطع ان يجمع المتحف جميع الوثائق المتعلقة بالتعليم وتشـكيلات وزارات التربية والتعليم وســائر الحركات الثقافية ، وان تستعين الادارة الثقافية بالكتب والانظمة والتقارير والصور التى تطلبها من وزارات المعارف المختلفة ٠ ووافقت الجامعة العربية على ما اقترحه ساطع وتم افتتاح المتحف بحضور ممثلى جميع الدول العربية سنة ١٩٤٩ ٠

واعد دليل مطبوع للمتحف وزع على الزوار الــذين حضروا حفل الافتتاح وجاء فى الدليل ما يلى مما يوضح الغرض من المتحف ٠

رأت الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية ان تأخذ على عاتقها مهمة تأسيس متحف الثقافة العربية لتحقيق غرضين :

١ ــ جمع المعلومات والوثائق المتعلقة بالثقافة ونظم المعارف ٠

٢ ــ عرض خلاصة تلك المعلومات بغية اعطاء فكرة واضحة عن حالة المعارف والمدارس فى كل قطر من الأقطار العربية ٠

وكان المقرر الا يبقى المتحف جامدا على شكل واحد بل يتبدل ويتجدد من حين لآخر ٠ وسنرى عند حديثنا عن الثقافة العربية ودور ساطع فى خدمتهـــا ان المتحف قد تقلص وتوقف عن النمو حتى انحصر فى غرفتين وتحول الى ما يشبه المخزن ولم يتـــابع شئون التربية والتعليم فى البلاد العربية ٠ وقد انتقد ذلك ساطع فى كتابه الذى اسماه ثقافتنا فى جامعة الدول العربية ٠

ومضى ساطع يخدم في اخلاص الفكرة التي عاش من اجلها ونذر نفسه فداء لها وهي فكرة القومية العربية .

ان اهم ما لقنه ساطع للاجيال من بعده ان القومية العربية ليست انفعالا عاطفيا وانما هي حركة لها أسسها العلمية ومن هذه الناحية جاءت ابحاثه العديدة الواسعة تخدم هذا الاتجاه وتدعمه .

ورأى ساطع ان الضرورة تقتضي انشاء معهد للدراسات العربية يخدم هذا الغرض ويحقق هذه الغاية . لقد كان ابعد الامور عن ذهن ساطع يوم جاهد من اجل انشاء هذا المعهد أن يكون سبيلا للحصول على الشهادات ومكانا أشبه بغيره من المعاهد العلمية ، انما كان يبتغي منه ان يكون معهدا للدرس والبحث تمر عليه اجيال المثقفين من ابناء الأمة العربية ليكونوا على دراية بأمور أمتهم يناقشون مشاكلها ويدرسون أمورها . كان ساطع يريد لهذا المعهد ان يقوم بدور الموجه والمرشد في مجال الدراسات العربية فلا يحاول فيه الاساتذة والمحاضرون عرض جميع الابحاث المتعلقة بالمواد التي يقومون بتدريسها . بل يكتفون بالتوسع والتعمق في ناحية محدودة من نواحي الموضوع ، ويتركون الطلبة يدرسون بأنفسهم ، فتكون قاعات المعهد للمناقشة والبحث وليست للتلقين أو الاملاء .

وخرجت فكرة ساطع الى حيز الوجود ، فتقرر انشاء المعهد وافتتح للدراسة في العام الدراسي (١٩٥٣ ـ ١٩٥٤) وعين ساطع مديرا له واستاذا للقومية العربية فيه .

وفي المحاضرة الافتتاحية التي القاها ساطع على طلبة المعهد(١) أوضح ما يتمناه من وراء انشاء هذا المعهد حيث قال :

---

(١) ألقيت المحاضرة بتاريخ ٧ من نوفمبر سنة ١٩٥٣ .

« اتمنى أن نوفق أنا وزملائي الاساتذة الى انجاز المهمة الملقاة على عاتقنا في سبيل خدمة الأمة العربية عن طريق هذا المعهد خدمة صادقة .

« وانتهز فرصة هذا الاجتماع لتوضيح الغاية من انشاء هذا المعهد ، وتفصيل الخطة التي يتبعها لتحقيق تلك الغاية » .

ثم أوضح كيف اختلفت الأمة العربية عن سائر الامم اختلافا هائلا ومرجع هذا الاختلاف أن هناك فارقا كبيرا بين ماضي الأمةالعربية وبين حاضرها ، وكانت هناك فتوحات عربية كبرى قامت بها تلك الأمة العظيمة منذ أخذت على عاتقها نشر رسالة الدين الاسلامي حتى بلغت ارقى مكانة بين الأمم وصارت مؤلفاتها أثمن واغزر منابع العلم ، ثم استشهد ساطع بالكلمات العربية التي تسربت الى اللغات الأوربية ، وضرب مثالا لذلك كلمة موسيلين Moussiline التي تسمى بها ارقى انواع المنسوجات في بلاد الغرب ، ترجع الى كلمة موصل المدينة العراقية الشهيرة كذلك كلمة دامسقو Damasco التي يعرف بها نوع آخر من القماش فى أوربا محرفة من اسم دمشق، ثم أوضح ساطع كيف اعترف رجال الفكر في الماضي ان التبحر في العلم والفلسفة لا يمكن ان يتم من غير درس المؤلفات العربية .

ثم كان ان تخلفت الأمة العربية من وجهة نظر ساطع في ميدان الوعي القومي . وأرجع السر في ذلك الى خضوع البلاد العربية الى السلطات العثمانية باعتبارها (دولة الخلافة الاسلامية) وكانت هذه السلطة المعنوية تخدر في العرب روح القومية العربية . وتلا ذلك استيلاء الدول الاستعمارية وخاصة فرنسا وانجلترا على البلاد العربية وهما الدولتان اللتان ـ على حد قوله ـ تكرهان الحركات القومية وخاصة بسبب ما نجم عن تلك الحركات من وحدة ايطاليا ووحدة المانيا . وحين استولت كل من انجلترا وفرنسا على بعض

الاقطار العربية اخذتا تحكمانها بأساليب مختلفة ، واوجدتا فى كل قطر منها أنظمة ادارية وتشريعية واقتصادية وثقافية خاصة • ثم كانت حركات التحرير فى تلك الاقطار العربية التى لم تتغلب على النزعات الاقليمية المتولدة من انقسام البـــلاد العربية الى دويلات عديدة •

وكان ساطع يخشى أن التطور الطبيعى للبلاد العربية ينبىء باضعاف النزعات القومية ، لذلك لابد من مســـاع جدية تبذل فى سبيل مساعدة هذا التطور والاسراع فيه وهذا هو اهم اهداف هذا المعهد •

ان هدف هذا العهد هو المساهمة فى الاعمـــال التى ترمى الى تعجيل التطور الذى ذكرناه آنفا ، وتقوية الفـكرة القومية العربية بين جميع الناطقين بالضاد

وقد حدد النظام الاســـاسى الذى اقره مجلس جامعة الدول العربية اغراض المعهد فى مادته الأولى بالعبارات التالية •

يعمل معهد الدراسات العربية على تحقيق الاغراض الآتية :

أولا : اعداد شباب عربى مثقف ثقافة عربية عالية •

ثانيا : نشر الثقـافة العربية عن طريق التدريس والتأليف والنشر والمحاضرات العامة •

ثالثا : اقامة فكرة القومية العربية على اسس علمية صحيحة

رابعا : تكييف أسس الثقافة العربيـــة بحيث تنتفع من تقدم المدنية الحديثة • لكن ساطعا يقول لطلبته انه لا يكتتفى من هـذا المعهد بهذه الاغراض فحسب •

« ولكننا ننتظر من اعمال المعهد ثمرة أخرى أهم واسمى من كل ما ذكرته آنفا الا وهى تنشيط الوعى القومى فى العالم العربى مع اشاعة الشعور بالوحدة العربية ، وبث الايمان بمستقبل هذه الأمة العربية » ٠

ثم يقول : « اننا سنسعى الى تقوية فكرة القومية العربية ، ولكننا سنفعل ذلك مستندين الى الحقائق العلمية على الدوام ، سندعم جميع دراساتنا من قانونية واقتصادية وتاريخية وأدبية بدراسات ومباحثات تحوم حول القوميات بوجه عام ، والقومية العربية بوجه خاص ٠

« وان اهم الثمرات التى نرجوها من اعمال هذا المعهد ومساعيه هى تنشيط الوعى القومى فى العالم العربى مع اشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية وبث الايمان بمستقبلها » ٠

وسيظل الاساتذة الذين عملوا مع ساطع الحصرى فى هذا المعهد يذكرون له غيرته عليه ٠ كان يتتبع كل ما يلقى فيه ويسعى وراء حل كل مشكلة بنفسه ٠٠ لم يؤمن بأن للانسان سنا يتبغى أن يخلد عندها الى الراحة ٠ فلقد بدأ ساطع العمل فى هذا المعهد وسنه قد تجاوز السبعين لكنه كان يعمل بحماسة الشباب ان لم نقل أكثر من حماسة كثير منهم ٠٠ لقد امتاز بقدرته المتواصلة على العمل فهو يحاضر فى المعهد ويشرف عليه اداريا بحكم منصبه ويعد البحوث ويراجع أبحاث الطلبة ويجتمع بهم ويتناقش واياهم ٠

وسوف يظل تلامذته الذين تتلمذوا عليه فى هذا المعهد يذكرونه بكل اكبار واجلال هم بالنسبة له اخوانه واصدقاؤه ٠ كان يريدهم رسلا لحركة القومية العربية كما كان ينبغى أن يكون طلبته

في هذا المعهـــد الرجال المؤمنين بأمتهم العربية الغيورين عليهـــا المجندين لخدمتها • من أجل هذا كان يريد أن يكون عند كل واحد منهم ما عنده من حماسة وان يكون كل فرد منهم في ثورتيه •

ويفسر هذا سر حرصه الشديد على عدم السماح باى تقصير يبدو فيرسالة هذا المعهد ، ولما بدا له ان المعهد لم يحقق ماكان ينشده منه وما استهدف من وراء انشائه بادر على الفور الى تقديم استقالته منه سنة ١٩٥٨ واعتزل بعدها جميع الاعمال الرسمية •

رأى ساطع أن المعهد قد تناسى رســـالته العلمية والقوميـة وانحرف عن السبل المؤدية الى تحقيق تلك الرسالة انحرافا كليا • لقد كان هدف المعهد من وجهة نظره الا يكون محلا لدراسات عالية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، أى لا يحاول الاساتذة والمحاضرون عرض جميع الابحاث المتعلقة بالمواد التى يقومون بتدريسها ، بل انهم يكتفون بالتوسع والتعمق فى ناحيةواحدة محدودة من نواحي الموضوع، على أن يترك للطلاب استكمال البحث في بقية نواحيه ، لكنه لوحظ ان المعهد لم يعد يتمسك بهذه المبادىء •• واصبح الطلبة الذين يدرسون به يريدون الحصـــول على شهادة المعهد بأســـهل الطرق وأيسرها دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الاطلاع والبحث ، ثم بدأت تشغلهم مشكلة الاستفادة من هذه الشهادة ومدى اعتراف الجامعات في الدول العربية بها • وبمعنى آخر لقد اصبح الطلبة ينظرون لهذا المعهد نظرتهم الى أى معهد دراسى آخر لا تحدوهم المصلحة العامة ولا يدفعهم الدافع القومي •

ثم لاحظ ساطع ان المعهد قد ساير الطلاب فيمـــا يرغبون فاصبح يمتحنهم فيما يملى عليهم من محاضرات •

ولم يقتصر انحراف المعهد من وجهة نظر ساطع عن المبادىء

والخطط الاساسية المقررة بل تعدى ذلك الى تقرير مواضيع المحاضرات وانتخاب المحاضرين ٠

ويذكر ساطع انه في سنة ١٩٥٦ وزعت مذكرة على اعضاء مجلس ادارة المعهد تقول : من المعلوم لدى الجميع ان معهد الدراسات العربية العالية انما انشىء لتحقيق اغراض علمية وقومية سامية ٠ وان المعهد الذى تعرض فى فترة من فتراته الى فكرة الغائه ثم عدل عن تلك الفكرة ينبغى أن يكون عند ثقة الأمة العربية فيه ٠ وكان ينبغى على المسئولين عنه ان يواصلوا العمل والبحث فى احسن السبل وانجع الوسائل لتحقيق أغراض المعهد وتأدية رسالته على اتم الصور ٠

ثم يقول ساطع : « لكن الذى حدث مع الاسف الشديد كان عكس ذلك ٠ لقد اخذنا نتناسى رسالته السامية ٠ وانى بناء على ذلك ارى من الواجب ان اسجل واعلن استنكارى لهذه الاوضاع والاتجاهات واقول بكل صراحة اذا استمرت الاحوال على هذا المنوال اخشى ان يتحول معهد الدراسات العربية الى مؤسسة تمنح الشهادات لجماعة من الطلاب ، وتوزع أجور المحاضرات لطائفة من الاساتذة ، دون أن تسعى سعيا جديا وراء تحقيق الاغراض العلمية والقومية التى انشئت من أجلها » ٠

ويرى الحصرى انه حين تستمر سياسة المعهد على ما هى عليه : الطلاب يمتحنون فيما درسوه ويملى بعض المحاضرين محاضراتهم املاء وان يظل المعهد بعيدا عن التساؤل فى مجموع المعلومات التى اكسبها لطلابه واساليب البحث والتفكير التى تهيئوا عليها قبل منحهم الدبلومات أمر خطير كل الخطورة ، واثم ما بعده اثم فى حق الأمة العربية ، والقضية السامية التى ينبغى ان يجند الكل من أجلها ، وهى قضية القومية العربية ٠

ثم يسوء ساطع ما وصلت اليه امور الابحاث فى المعهد حتى أصبحت الدراسات العربية خارجه أكثر من داخله ، فى الوقت الذى كان المفروض فيه ان يقوم هـــذا المعهد بدور المرشد الموجه لتلك الأمور والدراسات ٠

أما من حيث هيكل معهد الدراسات العربية التنظيمى فلقد انتقد ساطع تشكيل مجلس ادارته من حيث عدم اضافة أربعة أعضاء من ذوى الرأى فى البلاد العربية ، حسب النظام الأساسى ٠ كما انتقد زيادة عدد الطلاب فيه ، وعدم تحديد مدة للاســاتذة الذين يعملون فيه ، الأمر الذى لم يترك امام المعهد مجالا كافيا للاستفادة من خدمات الكفايات الأخرى فى البلاد العربية ٠

ولقد عمل ساطع جهدا كبيرا فى سبيل اعداد مكتبـــة هذا المعهد وتزويدها بالمراجع المختلفة والمصادر التاريخية والاجتماعية السياسية والادبية وغيرها ٠ كذلك بدأ ساطع فى طبع سلسلة من الوثائق والنصوص وضعهـا تحت تصرف الباحثين والدارسين من الاساتذة والطلاب ليدركوا واقع الامة العربيـة ولينطلقوا من هذا الواقع الى تحقيق الوحدة العربية والمجتمع العربى التقدمى ٠

وكان من بين هذه الوثائق التى اهتم ساطع بها دساتير البلاد العربية التى اشرف على جمعها المرحوم الدكتور سعيد صبرى وقوانين العمال فى البلاد العربية التى أشرف على اعدادها وجمعها الدكتور محمد حلمى مراد وزير التعليم السابق فى الجمهورية العربية المتحدة وقوانين الجنسية فى العالم العربى التى أشرف الدكتور جابر جاد عبد الرحمن مدير جامعة القـاهرة الحالى على جمعها ٠ كما أشرف الاستاذ الدكتور لبيب شـقير على جمع اتفاقيات البترول ، كذلك جمعت قوانين الملــكية فى العالم العربى التى أشرف على تفسيرها مجموعة من الاساتذة من مختلف البلدان العربية ٠

وما زالت هذه السلاسل والوثائق والنصوص فى مكتبة المعهد تشهد لساطع بالجهد الخارق والحماسة المنقطعة النظير فى خدمة أمته العربية ٠

وكان من بين الأمور التى ساءت ساطع النقص فى عملية تزويد مكتبة المعهد بالمراجع والكتب ، وتقل الاعتمادات المالية المخصصة لذلك ، بينما هو يقترح فى مذكرة له عام ١٩٥٧ ان يزاد الاهتمام بأمر المكتبة ، وان تعطى لجميع وسائل الدرس والبحث فيها مزيدا من العناية كما ينبغى ان تتخذ التدابير اللازمة لزيادة الاهتمام ٠ بجمع الكتب والمجلات التى تنشر فى البلاد العربية ، وكذلك التى تنشر عن تلك البلاد فى مختلف اللغات الأجنبية مع الحصول على محاضر جلسات البرلمانات والمؤتمرات المتعلقة بالشئون العربية ٠

وينبغى أن نؤكد هنا حقيقة هامة هى ان ساطعا حين قدم استقالته من معهد الدراسات العربية لم يفعل ذلك كفرا منه بما دعا اليه ونادى به ٠ لكن ساطعا حين آثر الاستقالة من جميع الاعمال الرسمية سنة ١٩٥٨ وآثر الاقامة فى غرفة متواضعة فى فندق لافينواز بالقاهرة مضى قدما فى جهاده من أجل أمته فتفرغ للتأليف والبحث ، وأخرج بعد استقالته عشرات الكتب ومئات الابحاث والمقالات التى تخدم قضية أمته العربية ٠

استقال ساطع من معهد الدراسات العربية لينبه جامعة الدول العربية الى الحال التى صار اليها هذا المعهد ، ودعا الجامعة فى تقاريره ومذكراته الى المبادرة للاصلاح المنشود لهذه المؤسسة العلمية التى طالما جاهد من أجل انشائها ، فلما اعيته الحيلة نفض يده لا تهربا من مسئولية وانما ليتفرغ بكل وقته ويخصص كل جهده لاخراج الابحاث والكتب التى تناولت القضية العربية من جانب

او من آخر ، وأكدت ايمانه العظيم بامته ، وحبه لها ، والعمل جاهدا من أجلها ٠

وظلت غرفته في هذا الفندق المتواضع ملتقى لطلابه ومريديه وحوارييه ، وعاش ساطع على دخل كتبه المتواضع ورفض الكثير من العروض لمساعدته ماديا والتي عرضها عليه كثير من الشخصيات العربية ٠

وفي عام ١٩٦٥ اعيدت اليه الجنسية العراقية فعاد الى بغداد ليموت ويدفن هناك بعد ذلك بثلاث سنوات ، وعلى وجه التحديد يوم الرابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٦٨ ٠ وكان موته خسارة كبرى لامته في ظروف كانت احوج ما تكون لجهاده ونضاله ٠٠ مات ساطع وامته تخوض معركة مصيرية مع اعدائها ، والمعركة تتطلب جهود كل المخلصين من أبنائها ٠٠ ومن أخلص لامته من ساطع التى أحبها من كل قلبه وجند قلمه دفاعا عن حقها ٠

لكن العزاء فى وفاته أن اعماله الكبيرة والكثيرة كانت خير ما ورثته امته عنه ، وكانت دعوته المخلصة المؤمنة هى النداء الذى حمله من بعده اجيال المثقفين العرب الذين طالما ناشدهم ساطع ان يعملوا من أجل امتهم ويخلصوا فى سبيلها ٠

كان ساطع يؤمن ان المعركة الدائرة مع العدو تتطلب كل الجهود وفى مقدمتها جهود المثقفين العرب ، وانه اذا كان الوطن العربى يتطلب من أبنائه فى هذه الأيام كل التضحيات فانه ينبغى على المثقفين ان يكونوا هم القادة وهم الرواد لانهم يعرفون قبل غيرهم أهمية هذه التضحيات ومخاطر التردد فى بذلها سواء كانت التضحية بالروح أو بالمال ٠ بدونها لا كرامة وبغيرها لا شرف ٠

واذا كان العمل باقصى طاقته هو أول متطلبات المعركة ،

فالمثقفون كانوا كما يراهم ساطع هم أولى الناس بالعمل المخلص الجاد من أجل أمتهم ، لانهم يعرفون أكثر من سواهم ما هو المصير لو تقاعس أفراد الشعب العربى عن العمل وتخلوا عن اداء الواجب ٠٠ كان ساطع يريد من أبنـــاء الأمة العربية ايمانا بحق هـذه الأمة ويطالبهم بالعمل من اجل هذا الحق والنداء فى سبيله ٠

يخاطب ساطع الأدباء فيقول :

على الأدباء أن يكونوا قوميين يشعرون بقوميتهم ويعتزون بها ويتحمسون لها ، لأن الأديب اذا آمن بالقومية العربية سيشعر حتما بآمالها وآلامها ، لما له من احســـاس مرهف ، وعاطفة مشبوبة ، وسيجد بطبيعة الحال أحسن الوسائل لاظهار شعوره هذا فى انتاجه الأدبى ، لما له من سعة خيال وقوة تعبير ، ويطالب ساطع الدول العربية أن تعمل على تشجيع ونشرالانتاج العربى الذى يخدم فكرة القومية العربية ، وهذا هو حق هذه الدول بل هو واجبها ، دون أن يقال انها تعرضت الى حرية الأدباء بالتوجيه ٠

ثم هو يبحث هل ينبغى ان يكون الادب للادب وفقـــا لشعار الفن للفن أو أن الأدب فى خدمة المجتمع وفقا لشعار الفن للحياة ؟

وينتهى الى القول بأنه من الأمور التى لا خلاف فيهـا ٠ أن الأدب يتفاعل مع المجتمع تفاعلا مستمرا : يتأثر به ويؤثر فيه بدون انقطاع ، وان شدة تأثير الادب فى الحياة الاجتماعية والأخلاقية تحمل الأدباء مسئولية معنوية كبيرة ٠ وعلى الأباء ـ على حد قوله ـ ان يقدروا هذه المسئولية حق قدرها فيحرصوا على الا يكون انتاجهم الادبى ضارا بالمجتمع ٠

يقول ساطع : ان ما نطلبه من الأديب أن يقدر مدى ما يحدثه الأدب من تأثير ، كما يحق لنا أن نطلب من الأديب الذى يصـــور

مفاسد المجتمع وينقد أحواله أن يقدر مسئوليته المعنوية والا يهمل التفكير في خير المجتمع ؛ ٠٠ ويطالب ساطع الحصرى الأدباء العرب أن يؤمنوا بوحدة الأمة العربية فيتمسكوا بالقومية العربية ولا يستسلموا لنوازع الاقليمية التي تنافى الوحدة العربية ، ولا يندفعون نحو فكرة العاميه التي تخدر العواطف القومية ٠ وعلى أدباء العرب أن يدركوا حق الادراك حاجة الأمة الى لغة موحدة ، فيتمسكوا باهداب اللغة الفصحى مع تجنب الجمود فيها ، وعليهم أن يواصلوا العمل فى سبيل تبسيطها حتى يصبح هناك معجم مفصل يتضمن جميع الكلمات المستعملة في الكتب القديمة والحديثه على اختلاف أنواعها ٠ ثم يطلب ساطع من كل أديب عربى الا ينسى اننا نعيش الآن فى دور من أشد وأخطر الأزمات التى يجتازها الأمة العربية ، وبأننا أصبحنا فى حاجة الى أسلحة معنوية تحارب بها الأنانية والنفعية والرجعية والتواكلية والى آلات انتاج معنوية تساعد على تنشئة جيل عربى جديد يمتاز بروح التضحية والتفانى ٠

ويقول : اننى أشبه الانتاج الأدبى من جهة تأثيره الاجتماعى ببعض المصنوعات المادية منها ما يعمل عمل أسلحة الحرب والنضال مثل المدافع والرماح ٠

ومنها ما يعمل عمل آلات الحرث والانتاج مثل المحارث والمحركات ٠

ومنها ما يعمل عمل الزخارف والمصنوعات مثل الأساور والقلادات ٠

ولكل نوع من هذه الآلات والمصنوعات وظيفة خاصة ، ومهمة معينة فى الحياة الاجتماعية ٠ وكل مجتمع يحتاج الى كمية منها ٠

والمهم فى هذا المضمار هو تعيين وتحديد النسبة بين هذه الأنواع بصورة معقولة ، لا يمكن لأى مجتمع أن يعيش بالأسلحة وحدها ، ولا بالزخارف وحدها • ولا حياة لمجتمع يزيد فيه عدد الصاغة على الفلاحين والحدادين أو عدد النقاشين على النجارين وهكذا •

« ومما تجب ملاحظته فى هذا المضمار أن الحاجة الى كل نوع من أنواع الآلات والمصنوعات التى ذكرتها تتغير بتغير الظروف والأحوال •

« ومن المعلوم أنه — فى أدوار الكفاح العنيف — وفى عهود الأعمال البطولية من حياة الأمم • تتخلى النساء عن مصوغاتها فى سبيل توفير واستكمال الأسلحة التى تحتاج اليها البلاد •

« ولا أرانى فى حاجة للبرهنة على أن العالم العربى الآن فى مثل هذه الحالة •

ويحق لنا أن نطلب من كل أديب عربى أن لا ينسى اننا نعيش الآن فى دور من أشد وأخطر أدوار الأزمات التى تجتازها الأمة العربيــة ، ونحن الآن فى حاجة الى آلات انتاج معنوية تبث روح التضحية والتفانى أكثر مما نحتاج الى مجوهرات تزين المعاصم والصدور ، أو زخارف تزيد من بهرجة القصور » •

يطالب ساطع الأدباء بعمل ما يمكن تسميته بالتعبئة الفكرية من أجل المعركة الدائرة مع العدو ، ولا أرى أن للأدباء فى هذه الآونة واجبا أقدس من ذلك ولا مهمة أعظم من ذلك •

ومات ساطع الحصرى بعد أن أضاء بفكره العربى الأصيل مشعل ضوء يخفت ولا يظلم ، مات بعد أن نقل ايمانه العميق الصادق بقضية العروبة والوحدة الى الآلات بل الى الملايين من أبناء أمته بفضل ما خلفه من زاد فكرى ضمتها كتبه وأحاديثه •

ولقد رأيت ونحن نترجم لحياة ساطع أن أورد ثبتا بمؤلفاته ودرجة الأهمية فى ذلك أن بعضها فقد وبعضها معروف للبعض دون البعض الآخر ولقد أوردت هذا الثبت كما كتبه ساطع بخط يده فى أوراقه واضعا أمام كل مؤلف تاريخ طبعته الأولى .

مؤلفات ساطع الحصرى

اسم الكتاب	سجل وتاريخ الطبعة الاولى
مبادىء القراءة الخلدونية ـ الألفباء	بغداد عام ١٩٢٢
مرشد القراءة الخلدونية ـ طريقة تعليم الألفباء	بغداد عام ١٩٢٢
مساعد القراءة الخلدونية	بغداد عام ١٩٣٤
دروس الاشياء	
للسنة الرابعة الابتدائية	بغداد عام ١٩٢٨
للسنة الخامسة الابتدائية	بغداد عام ١٩٢٨
للسنة السادسة مبادىء العلوم	بغداد عام ١٩٢٩
للسنة السادسة مبادىء الزراعة	بغداد عام ١٩٢٩
دروس فى أصول التدريس	
الجزء الاول ـ الاصول العامة	بغداد عام ١٩٢٨
الجزء الثانى ـ أصول تدريس العربية	بغداد عام ١٩٢٨
مجلة التربية والتعليم	
خمسة مجلدات	بغداد عام ١٩٢٨ـ١٩٣٢

الحولية الخلدونية لسنة ١٩٢٩ ، ١٩٣٠

رسائل الى بول مونرو

ـ فى نقد تقرير لجنة الكشف التهذيبى	بغداد عام ١٩٣٢
الاحصاء : محاضرات فى كلية الحقوق	بغداد عام ١٩٣٧

دراسات عن مقدمة ابن خلدون

ـ الجزء الاول	بيروت عام ١٩٤٣
ـ الجزء الثانى	بيروت عام ١٩٤٤
ـ الطبعة الموسعة	القاهرة عام ١٩٥٣

(تضم أبحاث الجزئين الاول والثانى مع أبحاث أخرى كتبت بعد السفر الى تونس وأعيد طبعها سنة ١٩٦١)

تقارير عن حالة المعارف فى سورية واقتراحات لاصلاحها

ـ الجزء الاول	دمشق عام ١٩٤٤
ـ الجزء الثانى	دمشق عام ١٩٤٥
آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية	القاهرة عام ١٩٤٤
آراء وأحاديث فى التربية والتعليم	القاهرة عام ١٩٤٤

أعيد طبعها فى السنوات التـــالية ١٩٥١ ، ١٩٥٤ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦١

(الطبعات الثلاث الاخيرة فى بيروت)

صفحات من الماضى القريب	بيروت عام ١٩٤٨
محاضرات فى نشوء الفكرة القومية	القاهرة عام ١٩٥١

(أعيد طبعها فى بيروت فى السـنوات التـالية : ١٩٥٤ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٤)

آراء وأحاديث فى العلوم والاخلاق والثقافة القاهرة عام ١٩٥١

آراء وأحاديث فى القومية العربية القاهرة عام ١٩٥١

(أعيد طبعها فى بيروت فى السنوات ١٩٥٦ ، ١٩٥٩، ١٩٦٤ وقد أضيف اليها اعتبارا من ١٩٥٦ مقدمة جديدة والحق بهـا نقد لمقالة شفيق غربال)

آراء وأحاديث فى التاريخ والاجتماع القاهرة عام ١٩٥١

(أعيد طبعها فى بيروت ١٩٦٠)

العروبة بين دعاتها ومعارضيها بيروت عام ١٩٥٢

أعيد طبعها فى السنوات التالية ١٩٥٥ ، ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٥

دفاع عن العروبة بيروت عام ١٩٥٦

أعيد طبعها سنة ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦١

آراء وأحاديث فى اللغة والادب بيروت عام ١٩٥٧

أعيد طبعها فى بيروت عام ١٩٦٥

حول الوحدة الثقافية العربية بيروت عام ١٩٥٩

ثقافتنا فى جامعة الدول العربية بيروت عام ١٩٦١

المحاضرة الافتتاحية لمعهد الدراسات العربية العالية القاهرةعام١٩٥٣

خريطة زمانية : البلاد العربية منذ ظهور الاسلام القاهرةعام١٩٥٣

ما هى القومية ؟ القاهرةعام١٩٥٩

(أعيد طبعها سنة١٩٦٣ وأضيف اليها نقد لكتاب هنرى هاوزر)

وهى عبارة عن أبحاث ألقيت على طلاب معهد الدراسات العربية العالية

البلاد العربية والدولة العثمانية	القاهرةعام١٩٥٦

(أعيد طبعها فى بيروت سنة ١٩٦١) بعد اضافة القسم الثانى المتعلق بالبلاد العربية بين الدولة العثمانية وبين الدول الاوربية وهى ألقيت على طلاب معهد الدراسات العربية العـــالية وأعيد طبع هذه الطبعة الموسعة سنة ١٩٦٥)

حول القومية العربية	بيروت عام ١٩٦١
أحاديث فى التربية والاجتماع	بيروت عام ١٩٦١
أبحاث مختارة فى القومية العربية	القاهرة عام ١٩٦٤
الاقليمية	بيروت عام ١٩٦٣
	الطبعة الثانية بيروت ١٩٦٤

الحوليات

حولية الثقافة العربية

ـ السنة الاولى حتى ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠	القاهرةصدرتعام١٩٥٠
ـ السنة الثانية عن ١٩٥٠ ـ ١٩٥١	القاهرةصدرتعام١٩٥٢
ـ انسنة الثالثة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢	القاهرةصدرتعام١٩٥٣
السنة الرابعة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣	القاهرةصدرتعام١٩٥٤
السنة الخامسة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧	القاهرةصدرتعام١٩٥٧
السنة السادسة ١٩٥٧ ـ ١٩٦٢	القاهرةصدرتعام١٩٦٣

المذكرات

مذكراتى فى العراق ١٩٢١ ـ ١٩٤١ — بيروت عام ١٩٦٧
الجزء الاول ١٩٢١ ـ ١٩٢٧
الجزء الثانى ١٩٢٧ ـ ١٩٤١ — بيروت عام ١٩٦٨

ثم يضيف ساطع الى ذلك انه بسبيل اصدار مذكراته عن الدولة العثمانية وسورية ومصر سنة ١٩٦٩ وهو العام الذى لم يشهده ساطع وشاء الله أن يتوفاه اليه قبل حلوله بأيام •

الفصل الرابع

العروبة عند ساطع إيمان وعقيدة

عاش ساطع من أجل قضية الوحدة العربية ونذر نفسه وجهده لها ، وجند قلمه دفاعا عنها ، تلك حقيقة لا خلاف بشأنها ولا غبار حولها ، لقد خصص ساطع كل مجالات نشاطه وأعماله وأبحاثه من أجل هذه القضية الكبرى .

كتب يقول في سنة ١٩٤٥ : « انى من الذين يؤمنون بالوحدة العربية ايمانا عميقا ، ومن الذين يقولون بوجوب العمل من أجلها عملا متواصلا دون توان أو تخاذل .

اننى أعتقد جازما بأن الوحدة العربية (ضرورية) لحفظ كيان الشعوب العربية ، كما أعتقد أنها (طبيعية) بالنسبة الى حياة الامة العربية وتاريخها الطويل .. فلا أشك أبدا فى أنها ستتحقق يوما من الايام ان عاجلا أو آجلا .

لا أدرى فيما اذا كان ما بقى لى من العمر سيسمح لى بادراك ذلك اليوم .

غير أنى أقول بكل اخلاص : اذا قدر لى أن أدرك اليوم الذى

ستتحقق فيه الوحدة العربية سأعتبر نفسي أسعد الناس جميعا وسأنسى كل ما كابدته من مشاق وآلام ٠٠ وسأترك هذه الحياة راضيا مرتاحا ٠٠ كأنني لم أتعب أبدا ولن أشعر بذرة من الألم »٠

لكن ساطعا وان لم يعش ليصبح أسعد الناس جميعا على حد تعبيره ، ولم يتحقق أمله الأكبر ومات قبل أن تصبح الوحدة العربية حقيقة واقعة ، لكنه عاش مع ذلك ليرى الايمان بالقومية العربية وقد أصبح هو التيار الغالب في العالم العربي كله ، وليرى الاقتناع بضرورة تحقيق الوحدة العربية وقد أخذ يعم الأمة العربية بأسرها٠

واذا كانت أمنية ساطع الاولى لم تحقق بعد فانه كان يشعر بالرضا قبل وفاته من أنه استطاع على قدر جهده أن يؤدى دوره نحو أمته ٠ لقد عاش ساطع ليرى الفكرة التى آمن بها وكافح من أجلها وقد أصبحت المطلب الرسمي لكثير من الدول العربية وتصبح أغلى الاماني لدى الاغلبية الساحقة من أبناء هذه الامة العربية ٠

قضى ساطع الحصرى عمره مكافحا من أجل ايقاظ الشعور القومي العربي ، ساعيا الى نشر هذا الشعور وتعميقه ، مؤرخا لنشوء وتطور الفكرة القومية فى البلاد العربية ، مفندا وداحضا لادعاءات ومزاعم خصوم هذه الفكرة ، داعيا الى الوحدة العربية مؤكدا حتميتها شارحا ضرورتها الحيوية والملحة ، عاملا من أجلها ، مناضلا فى سبيل تعبئة أبناء الامة العربية بأجمعها وراء هذه الدعوة ٠

وبسبب ايمانه العميق بالرسالة التى كرس لها حياته ٠ واصراره الذى لم يتزعزع على مواصلة الجهاد فى سبيلها تعرض للكثير من ألوان الاضطهاد على نحو ما سبق لنا أن تناولناه عند عرضنا الموجز لحياته ٠

يحقد عليه الحاقدون فى العراق فيتهمونه انه معاد للثقافة

ونظم التعليم الانجليزيين وأنه نصير الثقافة الفرنسية فاذا ما عمل في سورية بعد العراق يتضح لهؤلاء انه مثلما حارب فكرة الاقتباس من النظم الانجليزية في معارف العراق يحارب الامر نفسه بالنسبة للنظم الفرنسية في معارف سورية • لكنه لم يكن عدوا للثقافات الاجنبية فلقد دعا أبنـــاء الامة العربية الى زيادة حصيلتهم العلمية بالاطلاع على علوم الغرب وثقـــافاتهم • لكنه بالمرصاد لكل سيطرة ثقافية يراد فرضها على الامة العربية • فلقـد رأى ساطع في هذه السيطرة الثقافية لونا من ألوان الاستعمار لا يختلف عن السيطرة السـياسية • واذا ما تحررت الامة العربية سياسيا فلا ينبغي أن تبقى مستعبدة ثقافيا •

ويطرد من العراق وتسحب منه الجنسية العراقية ويحرم من معاشه فلا يزيده ذلك الا استمساكا بمبادئه واصرارا على دعوته •

كان يرى ان أولى الخطوات لتحقيق الوحدة العربية هو الايمان بحتمية هـذه الوحدة طال الزمن على تحقيقها أو قصر • وكان يؤمن أن يوم الوحدة الشاملة آت لا ريب فيه •

يقول ساطع : كثـيرا ما يسألونني : ما هي الطريقة العملية لتحقيق الوحدة العربية ؟ وفي بعض الاحيان يســـتهلون السؤال بمقدمة قصيرة :

انت تتـــكلم عن القومية العربية وتدعو الى الوحدة ولـكنك لا تقول لنا : ما هي الوسائل العملية لتحقيق هذه الوحدة ؟ وأما أنا فأقول لهؤلاء على الدوام :

انى أعتقد ان أول ما يجب عمله لتحقيق الوحدة العربية في الاحوال الحاضرة هو ايقاظ الشعور بالقومية العربية وبث الايمان بوحدة هذه الامة •

فعندما يستيقظ هذا الشعور تمام اليقظة ، وعندما ينتشر هذا الايمان ويرسخ فى النفوس تمام الرسوخ تتوضح السبل وتتمهد الطرق أمام الوحدة العربية ٠٠ وتزول العقبات وتنهار العوائق التى تعترضها بكل سهولة ٠ ولكن اذا بقى الشعور بالقومية العربية على ما هو عليه من الضآلة والايمان بوحدة الامة العربية على ما هو عليه من الضعف تبدو آنفة العوائق بمثابة العقبات التي لايمكن اقتحامها، فتتوقف الجهود أمام أولى الصدمات وتنهار العزائم أمام أصغر المشاكل ٠

ولذلك فأنا أسعى على الدوام وراء ايقاظ الشعور بالقومية وبث الايمان بوحدة الامة العربية ٠

الايمان والمعرفة بالوحدة وحتميتها :

كان ساطع يؤمن أن أولى الخطوات نحو تحقيق الوحدة العربية هو الايمان بضرورة هذه الوحدة وبغير هذا الايمان تكون الدعوة الى الوحدة دعوة مفتعلة ٠٠ فالوحدة كدعوة تحتاج من الداعين اليها الايمان الثابت الراسخ بها ٠٠ والوحدة كضرورة تحتاج من جنودها الى الاصرار عليها والتمسك بها ٠٠ والوحدة كطريق للخلاص مما فيه العرب الى مستقبل مشرق بسام تحتاج الى صبر والى عمل والى نضال مرير وشاق ٠

كتب ساطع فى العدد السادس من مجلة العربى الصادر فى مارس (آذار) من عام ١٩٥٩ :

على كل واحد منا أن يؤمن أصدق الايمان بأن الوطن العربى يمتد من المحيط الأطلسى الى الخليج العربى وجبال زاغروس ٠ ويشمل جميع البلاد التى يتكلم أهلها اللغة العربية ٠٠ وأما الدول

والدويلات القائمة بين هذه المناطق فانها وليدة المناورات والمساومات والمقاسمات التى قامت بين الدول المستعمرة •

وكان الشعار الذى ردده ساطع فى كتاباته فى هذه الناحية : ما اغربنا !

اننا ثرنا على الانجليز ، ثرنا على الفرنسيين •

ثرنا على الذين استولوا على بلادنا وحاولوا استعبادنا •

كررنا الثورات الحمراء عدة مرات وواصلنا الثورات البيضاء عدة عقود من السنين • وقاسينا فى هذا السبيل ألوانا من العذاب وتكبدنا أنواعا من الخسائر ، وضحينا بكثير من الارواح •

ولكنا :

عندما تحررنا من نير هؤلاء أخذنا نستقدس الحدود التى كانوا قد أقاموها فى بلادنا بعد أن قطعوا أوصالها •

ونسينا ان تلك الحدود انما كانت حدود (الحبس الانفرادى) و (الاقامة الجبرية) التى كانوا قد فرضوها علينا •

لكن ساطعا كان يرى ان الايمان بالوحدة العربية ينبغى أن يقترن به ، بل تسبقه المعرفة بحقائق أمتنا العربية •• فهذه المعرفة سبيل الى الايمان بالوحدة العربية • لكنه يلفت النظر الى ان الايمان والمعرفة ليسا بالامرين المنفصلين ، بل يوجد بينهما ارتبـــاط قوى مما لا يترك لمسألة الاسبقية أهمية كبيرة •

يرى ساطع ان الايمان القومى شيء حديث العهـد بكل معنى الكلمة ، وانه لم ينتشر بعد انتشارا كافيا يسمح لنا بأن نقول انه أصبح متأصلا فى النفوس •

وهو يقول للشباب : ان جيل الامس ـ جيل الشيوخ مثلى ـ

كان يجد نفسه بين تيارات عديدة ، تدفعه أو تجذبه الى اتجـاهات مختلفة ، تبعده عن الاتجاه القومي ، وذلك مثل التيارات والنزعات التى كانت تعرف باسم (الجامعة العثمانية) و (الجامعة الاسلامية) و (الرابطة الشرقية) • وأبناء ذلك الجيل كانوا فى حاجة الى التغلب على تلك التيارات القوية والقديمة ، لكى يتوصلوا الى الايمان بالقومية العربية • أما الجيل الحاضر ــ جيلكم انتم فهو لا يزال يتعرض الى تأثيرات مختلفة تنازع الايمان بالقومية العربية بل تعاديه ، فان هناك النزعات الاقليمية التى تربط نفوس الكثيرين بالدول التى قامت بعد الحرب العالمية ربطا يبعدهم عن الايمــــان بوحدة الامة العربية •• وهناك النزعات العالمية التى أخذت تتسرب الى نفـوس البعض ــ بأشكال مختلفة ــ وصــــارت تزدرى النزعات الوطنية والقومية ، وذلك فضلا عن التيارات التى تعادى القـومية العربية تحت ستار الدين ، دون أن تقدر حقائق الدين تقديرا صحيحا •

لذلك كان ساطع يؤمن أنه لا بد من أن نقتلع من أفكار أبناء الامة ما يشوش تفكيرهم فالفكر العربى عنده أشــبه بالارض التى ينبغى لضمان نجاح زراعتها أن نقى هذه المزروعات والمغروسات من تأثير الرياح التى تهب من جهات مختلفة ، وكان يرى أن وضعنا فى البلاد العربية يختلف عن غيره من البلدان الأخرى التى سبقتنا فى مجال القومية ، واستطاعت أن تتم تطورها القومى وأن تكون دولا قومية تامة ــ حيث تنطبق فيها القومية على الوطنية تمام الانطباق ــ فى هذه الدول تأصل الايمان القومى وانتقل من الكبار الى الصغار عن طريق الايحاء والتلقين مثلما يحدث فى انتقال الدين ، ولكنه وحتى تصبح الأحوال فى بلادنا العربية على هذا النـحو ، ينبغى أن تكون للمعرفة بالقومية أهميتها •• وكان ســـاطع يؤمن ان الاوضاع فى البلاد العربية ستتطور على نحو يصبح فيه الايمان القومى متأصلا

فى جميع النفوس ، فيتسرب الى قلوب الصغار وعقولهم من آبائهم وأمهاتهم ومن البيئة الاجتماعية التى ترعاهم ٠

ويرى ساطع الحصرى اننا فى نشر الفكرة القـومية ، وبث الايمان بها ، ينبغى أن نلجأ لكل الوسائل ـ من تعريف ، واقناع ، وتلقين ، وايحاء ، وتحبيب وتحميس ٠ يجب أن نخـــاطب العقول والقلوب ، يجب أن نهتم بجميع ضروب المعرفة والايمان ٠

وأما النسبة بين مبلغ اهتمامنا بكل واحدة من هذه الوسائل المختلفة ، فيجب أن تختلف باختلاف الافراد والجماعات ، وأن نأخذ فى الاعتبار أعمارهم ومستويات معارفهم وأنواع ثقـــافاتهم وألوان التيارات الفكرية والسياسية التى أثرت وما زالت تؤثر فيهم ٠٠ يجب العمل وفق خطط متنوعة ، وبمعنى آخر ان ما يصلح فى هذا المجال لتلاميذ المدارس الابتدائية لا يصلح لطلاب الدراسات العالية، وما يصلح لهؤلاء الاخيرين لا يلائم سواد الناس ٠

فالايمان بالفكرة القومية والعمل فى سبيل غرس هذا الايمان فى نفوس وعقول أبنـاء الامة العربية هو الخطوة الاولى التى لا بد منها ، ولا غنى عنها لخدمة القضية العربية ٠

وحين يواجه البعض ســاطعا أنه يحصر همه فى حدود الآراء والنظريات المتعلقة بالقومية دون الاهتمام بالناحية الايمانية ، يشير الى أقدم ما كتبه فى هذا المجال فى كتبه ٠٠ يحيلهم ساطع الى كتابه (آراء وأحاديث فى الوطنية والفومية) ، فالى جانب ما تناوله فى هذا الكتاب من نظرات عامة ملقاة على قضية القومية من وجوهها المختلفة ٠ الوطنية والقومية ، عوامل القـومية ، بين الوحدة العربية والوحدة الاسلامية ، الوطنية والأممية ، بين العروبة والفرعونية ، الى جانب تلك الابحاث فى هذا الكتاب هنـــاك بحث خاص عنوانه (الايمان القومى) ٠ كذلك يطالبهم ساطع بالرجوع الى ما كتبه فى كتابه

(العروبة أولا) وما جاء في فاتحته من كلمة صريحة عن وجوب بث الايمان بوحدة الامة العربية ٠

ولا ينكر ساطع انه عالج القـــومية من الناحية النظرية لكنه لم يكن ليهمل الناحية العملية وفى مقدمة الناحيتين ينـادى بأهمية الايمان فى مسألة القومية قبل أى عامل آخر ٠

عالج ساطع الآراء الخاصة بالناحية القومية وتطرق الى كثير من المعلومات وكانت في معظمها ردودا وانتقادات على ما كتبه ونشره كبار الاساتذة والكتاب والادباء اعتراضا على الاتجـــاهات القومية ودفاعا عن النزعات الاقليمية ، فمعالجة ومعارضة آرائهم لا بد وأن تكون بالآراء والمعلومات لأن الرأى كما يقول ســـــاطع لا يمكن أن ينقض أو يهدم الا بالرأى ٠

يرى الحصرى ان فى العالم العربى آراء ونظريات كثيرة لاتسلم بوحدة الامة العربية بل تعارضها معارضة شديدة ، وتعمل على بث الايمان بعكسها ، فلابد أن ننقد هذه الآراء والنظريات حتى لا تشوش فكر الشـــباب العربي وحتى يستنير هؤلاء الشباب بالآراء السليمة فى القومية للرد على دعاة الاقليمية ، أو منكرى الفـــكرة القومية ، ولكي يؤمنوا الايمان القومي : أى أن ساطع يهدف مما يكتب فى مجال القومية أن تتضح الحقيقة أمام أبناء الامة العربية من الزيف والحق من الباطل ، والصدق من الزيف والبهتان ٠ واذا ما تحققت لهم هذه المعرفة كان ايمانهم بحق أمتهم وبقضية عروبتهم ثم بالواجب عليهم نحو أمتهم ٠

وأهم هذه الحقائق التى يريد ساطع أن يحفظها كل أبناء هذه الامة العربية عن ظهر قلب أربع :

١ ـ حقيقة خاصة بالبلاد العربية :

ان جميع البلاد التى يتكلم سكانها باللغة العربية هى عربية مهما تعددت الدول التى تحكمها .

ومهما تنوعت الاعلام التى ترفرف على بناياتها الحكومية .

ومهما تعرجت وتشابكت الحـــدود التى تفصل بين أقسامها السياسية .

انها بلاد عربية .

ويقول ساطع : (بلاد العرب) ليست الجزيرة العربية وحدها، كما يزعم البعض ولكنها جميع البلاد التى يتـكلم أهلهـــا باللغة العربية . من جبـــال زاغروس فى الشرق الى المحيط الاطلسى فى الغرب ، ومن شواطىء البحر الابيض وهضاب أناضول فى الشمال، الى المحيط الهندى ومنابع النيل والصحراء الكبرى فى الجنوب(١).

٢ ـ حقيقة خاصة بالعرب :

يقول ساطع : ان كل من ينتسب الى البـلاد العربية ويتكلم اللغة العربية فهو عربى ، مهما كان اسم الدولة التى يحمل جنسيتها وتابعيتها بصورة رسمية ، ومهما كانت الديانة التى يدين بهـا ، والمذهب الذى ينتمي اليه ، ومهما كان أصله ونسبه ، وتاريخ حياة أسرته .

---

(١) يستشهد ساطع بالنشيد المعروف :

بلاد العرب أوطانى　　من الشام لبغدان
ومن نجد الى يمن　　الى مصر فتطوان

ويقول ان ذلك يعبر عن شمول (بلاد العرب) تعبيرا فنيا رائعا (العروبة أولا : ساطع الحصرى ص ١١

والعروبة ليست خاصة بأبنــاء الجزيرة العربية ، ولا مختصة بالمسلمين وحدهم ٠

بل انها تشمل كل من ينتسب الى البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية ٠

سواء أكان مصريا أم كويتيا أم مراكشيا ، وسواء أكان مسلما أم مسيحيا ، وسواء أكان سنيا أم جعفريا أم درزيا ٠ وسواء أكان كاثوليكيا أم أورثوذكسيا أم بروتستانتيا ٠

٣ ـ حقيقة خاصة بالدول العربية :

ان الدول العربية القائمة الآن لم تتكون ولم تتعــدد بمشيئة أهلها ولا بمقتضيات طبيعتها وانمـــا تكونت وتعـــددت من جراء الاتفاقات والمعاهدات المعقودة بين الدول التى تقاسمت البلاد العربية وسيطرت عليها ٠٠ والحدود الفاصلة بين الدول العربية لم تنقرر وفق مصالح البلاد وسكانها وانما تقررت بعد المساومات والمناورات الطويلة التى جرت بين الدول المستعمرة ضـــمانا لمصالحها هى ٠ والفروق والاختلافات التى تشاهد الآن بين الدول العربية من حيث النظم الادارية والتشريعية والاتجاهات السياسية ، انما هى بأجمعها من مواريث عهود الاحتلال ٠ انها وليدة الاستعمار حديثة وعارضة٠

٤ ـ أما الحقيقة الرابعة التى ينبغى أن يعرفها أبنـــاء الامة العربية حق المعرفة ويؤمنون بها أشد الايمان فهى عن الامة العربية٠

العرب أمة واحدة ، وما المصريون والعراقيون والمغـــاربة ٠٠ آلا شعوب وفروع لأمة واحدة هى الامة العربية ٠

رأى ساطع ان وضع هذه الحقائق الاربع أمام أبناء الامة العربية

هى الضرورة التى ينبغى علينا عملها كى نجعل من (المعرفة) سبيلا الى تقوية الايمان وتثبيت دعائمه فى الفكر العربى ٠

و نبرى ساطع فى تورية لاتعرف المهادنة يهاجم ضعاف الايمان بالوحدة ، والقائلين باستحالة وضع البلاد العربية المترامية الاطراف تحت راية واحدة ، ويستشهد فى سبيل ذلك بما حدث فى بلاد أخرى غير البلاد العربية ، لقد خرجت البلاد العربية عن سلطان الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى لكننا نجد أن الايالات انسلافية والكرواتية ، والسلوفنية ، البوسنة والهرسك عندما انفصلت عن الامبراطورية النمسوية اتحدت فيما بينها ، ومع المملكة العربية ومملكة الجبل الاسود ، فكونت بذلك دولة سلافية واحدة٠٠ أما الولايات العربية التى كان تعداد سكانها لا يختلف كثيرا عن تعداد يوغسلافيا فقد انقسمت الى دول عدة ٠

كذلك يستشهد ساطع بأندونسيا التى استقلت عن هولندا عقب الحرب العالمية الثانية ، وكونت دولة واحدة ، مع أن مجموع سكانها كان يبلغ فى ذلك الحين حوالى ٧٦ مليونا ، منتشرين على مئات من الجزر المتباعدة ٠

والباكستان كونت دولة واحدة عندما تخلصت من الاستعمار البريطانى مع ان جزءيها الشرقى والغربى ينفصل بعضهما عن بعض بأراضى هندية ، لا يقل طولها عن ألف وخمسمائة كيلومتر ، كذلك يضرب ساطع مثالا بالهند التى يبلغ سكانها أضعاف سكان الدول العربية ، ومع ذلك فهى دولة واحدة ٠

ثم يتساءل ما أسباب هذا التباين بين وضعنا نحن العرب والاندونيسيين مثلا ! ويرجع السبب فى ذلك الى أن أندونيسيا خضعت لاستعمار أجنبى واحد هو الاستعمار الهولندى بينما نكبت البلاد العربية باستعمار دول أوربية عديدة : فرنسا

وانجلترة في الدرجة الاولى ، ايطاليا وأسبانيا فى الدرجة الثانية • وتنوعت أساليب الاستعمار ما بين مباشر ومقنع بقناع الحماية أو الانتداب • وكافح كل جزء عن البلاد العربية على حدة فى سبيل استقلاله ، وأدى ذلك الى تكوين حكومة وطنية فى كل جزء من هذه الاجزاء تتمتع باستقلال جزئى مقيد بقيود عديدة •

أما من يتوهم الوحدة العربية بأنها خيال محض ، فالرد عليه عند ساطع ان فكرة الوحدة العربية قد اجتازت طور الخيال المحض، والأمنية البعيدة المنال ، ودخلت فى طور التنفيذ والتحقيق • يقول ساطع : « لسنا الآن فى بداية الطريق المؤدى الى الوحدة بل دخلنا فيه فعلا » •

أحداث التاريخ مؤيدة لفكرة الوحدة :

وفى مجال الرد على ضعاف الايمان بفكرة الوحدة العربية واستحالة تحقيقها يتخذ ساطع من أحداث التاريخ شاهدا ومؤيدا على أن الوحدة العربية آتية لا ريب فيها ، وأن ما حدث فى تاريخ العرب الحديث ينبىء عن قرب تحقيق هذه الوحدة •

الدليل فى ذلك عند ساطع ما حدث فى سورية عقب استيلاء الجيوش الفرنسية عليها عقب يوم ميسلون حين قضت تلك الجيوش على الدولة العربية القائمةفيها ، اذ قرر الجنرالغورو المندوب السامى الفرنسى والقائد العام للقوات الفرنسية تجزئة أراضى تلك الدولة ليتيسر له السيطرة عليها بأقل جهد مستطاع • ففى أول سبتمبر (إيلول) عام ١٩٢٠ سلخ عنها منطقة البقاع مع بعض المناطق الاخرى وألحقها بلبنان ، ثم بعد أسبوع فصل عنها حلب وأنشأ بها دولة ، ثم بعد ذلك بمدة وجيزة أعلن قيام دولة فى جبل العلويين ، وبعد بضعة أشهر أضافت فرنسا الى هذه السلسلة دولة جبل الدروز •

وظنت أن هذه الاجراءات ستضمن لفرنسا السيطرة على تلك البلاد بسهولة والى الأبد ٠

لكن تطورات الحوادث جاءت على عكس ما رغبت فرنسا فيه وتمنته ٠ لقد أوجدت هذه التجزئة استياء شديدا فى المحافل الوطنية ولذلك قرر ساسة فرنسا أن يخففوا من وطأتها بانشاء مجلس اتحاد بين دولتي حلب ودمشق ، ثم أخذ الفرنسيون يقومون بدعاية بغرض تعميـق الانفصـــال عند أهل حلب ، ولذلك أمر المندوب السامى الفرنسى باجراء انتخـــابات عامة لتأليف مجلس يقرر دستور دولة حلب ٠٠ وعند اجتماع المجلس قرر على الفور انهاء الانفصال والاتحاد مع دمشق ، ولم يجد المندوب السامى مفرا من الموافقة على توحيد حلب مع دمشق ، وجعلها جزءا من الدولة السورية اعتبارا من بداية عام ١٩٢٥ ، وبهذه الصورة انتهت دولة حلب بعد أن استمرت أربعة أعوام وبضعة أشهر ٠

أما دولتا جبل العلويين وجبل الدروز فقد طالت مدتهما بسبب احكام الفرنسيين القبضة عليهما وحكمهما حكما مباشرا ، وظل الحال كذلك حتى سنة ١٩٣٦ حيث كانت ثورات الوطنيين تقاوم الاستبداد الفرنسى ، واتخذت هذه الثورات شكلا مسلحا فى بعض الاحيـــان ، وبناء على اصرار الوطنيين وافق الفرنسيون على ضم جبل الدروز وجبل العلويين لسورية ٠ ولكنه نظرا لعدم تصديق البرلمان الفرنسى على ذلك ظلت أوضاع هاتين الدولتين ، معلقة ومذبذبة الى أن قامت ثورة التحرير الاخيرة سنة ١٩٤٤ ٠ وتم ضم الجبلين الى سورية بصورة نهائية ٠٠ وبهذه الصورة تكونت دولة سورية الحالية من اتحاد دويلات حلب ، دمشق ، جبل الدروز ، وجبل العلوين ٠

كذلك يستشهد ساطع بما حدث فى المملكة العربية السعودية، ٠كا... اراضى المملكة السعودية حتى العقد الثالث من القرن الحاضر

مقسمة بين أربع وحدات سياسية أمارة آل الرشيد شمال نجد ، سلطة آل السعود فى أقســـام أخرى من نجد ، المملكة العربيــة الهاشمية فى الحجاز ، امارة الادريبيسى فى الفسير .

ثم كان أن قام عبد العزيز آل السعود بعدة حركات عسكرية قضت على الاوضاع السياسية ولقد استغرق القضاء على هذه الأوضاع السياسية عشر سنوات :

أولا سنة ١٩٢١ : استولى على حائل ، وقضى على امارة الرشيد، ووحد بذلك جميع أقسام نجد .

ثانيا سنة ١٩٢٥ : استولى على الحجاز وقضى بذلك على المملكة العربية الهاشمية .

وفى سنة ١٩٢٦ : ادخل العسير تحت حمايته ، وفى ســـنة ١٩٣٠ استولى على سائر اقســـامه وقضى بذلك على امارة الادريبى وضم القطر المذكور أيضا الى للمملكة .

وبهذا تكونت المملكة العربيـــة السعودية من اتحاد واندماج (امارتين وسلطنة ومملكة) ، وصارت تمتد لذلك من حائل الى العسير ومن جدة الى الظهران .

ثم يتساءل ساطع هل ما حدث من توحيد هذه المناطق الأربع جاء وفقا لمصلحة الامة أو ضدها ؟ هل أصبحت أحسن مما كانت عليه أو أسوأ ؟

فمما لا شك فيه على حد قول ساطع إنه لو بقيت هذه الدويلات لبقى التنازع . ثم يرتفع ساطع ويسمو السمو كله حين يبعد العاطفة جنبا ، وينزع عن نفسه حبه للملك الهاشمى حسين بن على ، ويقرر أن الحركات التوحيدية التى قام بهـا الملك عبد العزيز بن السعود انتهت الى أوضاع موافقة لمصلحة الامة العربية .

« أقول ذلك مع كل ما أكنه من الاجلال والتعظيم لذكرى الملك حسين بن علي ٠٠ أقول ذلك لأني أنظر الى القضايا القومية بنظرات مجردة من النوازع الشخصية واضع مصلحة القومية العربية فوق كل اعتبار ٠ لا أقول يا ليته (الحسين بن علي) بقي على رأس ملكه حتى مماته ، ولا أقول يا ليت المملكة التي أسسها بقيت قائمة الى الآن ، بل أقول ان ما حدث على يد عبد العزيز بن السعود كان بمثابة خطوة من الخطوات الضرورية للسير في سبيل تحقيق الوحدة العربية » ٠

وساطع الحصرى الذى يقول ذلك نعرف من تاريخ حياته انه كان وثيق الصلة بالملك الهاشمى حسين بن على ، ثم بابنه فيصل الأول ، فلقد خدم مع ابن الحسين (فيصل) فى سورية ثم فى العراق حتى وفاة الملك فيصل فى سنة ١٩٣٣ ٠

لكن الدارس لشخصية ساطع لا يأخذه العجب مما يقرره ساطع ومما يقوله ٠٠ فلقد عاش ساطع من أجل مثل أعلى ، وفكرة سامية ، لا تشوبها المصالح الشخصية ، ولا العلائق الفردية ، عاش ساطع من أجل قضية أكبر ولخدمة هدف أسمى ، وهذه هى العظمة كلها والاخلاص كله لأمته العربية التى بادلها ساطع حبا بحب ، ورأى أنها أحوج ما تكون للكلمة الجريئة المنزهة عن الهوى ، واذا كان هناك الكثيرون من أبناء الأمة العربية المعروف عنهم اخلاصهم لأمتهم ووفائهم لها ، فان هناك القلة المشككة التى تزيف الحقائق وتنشر الزيف والأراجيف ٠٠ رأى ساطع أن الامة العربية بحاجة الى الكلمة الصريحة التى لا تخدم مصلحة شخص ، وانما تخدم مصلحة الامة ٠٠ ذلك دين الأمة على أبنائها ، وواجب الأبناء البارين نحو أمتهم ٠

لقد رأى ساطع أن أقاليم سورية التى اتحدت لتكون الدولة السورية قادرة على أن تتحد مع غيرها من الدول لتكون وحدة للعالم العربى ، ورأى نفس الشىء بالنسبة للمملكة العربية السعودية التى

تكونت من اتحاد بعض الامارات العربية مع الحجاز الذى كان مملكة للحسين بن علي ٠٠ وكانت نظرته الى القطر الليبى الذى تكون من برقه وطرابلس وفزان نفس نظرته الى المملكة العربية الســـعودية والى سورية والى غيرها من الأقطار العربية ، بمعنى أنه يرى أن اتحـاد الدول العربية مع بعضها البعض شيء أشبه باتحاد أقسام القطـر الواحد ٠

وأن الأمر ليس فيه استحالة أو صعوبة ، وانما الصعوبة فى نظرتنا نحن الى هذه الوحدة ٠ نحن ننظر الى الوحدة بمنظار الاقليميا فنرى الصعوبات والعوائق بل لقد أصبحت كل دولة من الدول العربية بؤرة لوطنية خاصة بها أخذت تستقطب ولاء الاهلين لها ، ولذلك تولد فى كل واحدة منها (نوازع المحافظة على الكيان السياسى القائم) وما نسميه اليوم باسم الاقليمية ما هو الا مجموع هذه النوازع التى تعمل فى اتجاه يخالف مقتضيات الوحدة العربية ويعرقل انطلاقها٠

ويتبين من ذلك ان الاقليمية ترتبط ارتباطا وثيقا بالدولة ، حتى أصبحت هذه الاقليمية نتيجة طبيعية لتعدد الدول العربية ، ويفسر ساطع السبب الذى من أجله أصبحت الاقلمية نتيجة طبيعية لوجود الدول العربية بأن الحياة السياسية الداخلية والخارجية فى هذه الدول تغذى بطبيعتها النوازع الاقليمية ٠

فكل دولة من الدول العربية صارت لها معالم خاصة مشهورة وملموسة ، وسلطات مغلبة تظهر وتثبت وجودها بشتى المناسبات ، لكل دولة علم خاص بها ، وشرطة خاصة بملابس وشارات خاصـة وجيش خاص ونشيد رسمى خاص وأوراق هوية وجواز سفر وأوراق نقدية ونقود خاصة ٠

وبتعبير أقصر صار لكل دولة من الدول العربية سلسلة من الأمور الخاصة بها ، يراها كل فرد منذ نعومة أظفاره ، ويألفهـــا

ويرتبط بها نفسيا ، ويشعر من جرائها بأنه يختلف عن غيره من أبناء الدول العربية الأخرى .

وتصبح فكرة القومية العربية أمام تعدد الدول العربية مجرد فكرة فى الخواطر تختلج في الصدور ولا تجد ما يدعمها ويقويها من طبيعة الحياة الادارية والسياسية القائمة ، بل قد تجد منها معارضة شديدة وتصطدم على الدوام بالنوازع الاقليمية .

وفضلا عن ذلك فان هناك عوامل كثيرة في رأى ساطع تقوى وتنمى النزعات الاقليمية وتضر بالفكرة القومية ، فكل دولة عربية لها قوانينها واقتصادها الخاص بها ونظمها التعليمية وثقافتها الخاصة واذاعتها وصحافتها ، وفوق هذا كله وأخطر منه انه يتكون فى كل دولة طائفة من الزعماء والحكام والساسة الذين ترتبط منافعهم ومطامعهم بالاوضاع السياسية القائمة فينزعون الى المحافظة على كيان الدولة ولا يرضون بذلك الكيان ، داخل دولة موحدة .

ثم هناك الى جانب هذه العوامل الداخلية عوامل خارجية عديدة تعمل فى نفس الاتجاه وتقوى النوازع الاقليمية . فالدول الطامعة فى خيرات البلاد العربية ترى من مصلحتها أن يستمر التباعد والتخالف بين الدول العربية بل تعمل جاهدة على أن يزداد ويتفاقم . ولذلك تبذل كل ما فى وسعها من جهود لاثارة الروح الاقليمية فى مختلف البلاد العربية .

والخلاصة التى يريد أن يصل اليها ساطع من ذلك كله ان الاقليمية وليدة تعدد الدول العربية ، وتعدد الدول العربية وليد الاستعمار .

يجب على كل فرد عربى أن يكافح الاقليمية كما كان يكافح الاستعمار •

ويجب عليه أن يكافح الاقليمية أولا فى خبـــايا نفسه ثم بين بنى قومه بكل قواه •

ويجب ن ترسخ فى أذهان كل فرد عربى هذه الحقائق رسوخا تاما ولا يغيب عن باله أن الاستعمار الأوربى الذى جثم على صـــدر مختلف الأقطار العربية قد خلف قبل أن يزول كثـــيرا من البذور والآثار الضارة •• وان أخطر هذه البذور وأضرها هو تجزئة البلاد الى دول ودويلات عديدة وفصل بعضها عن بعض بحدود مصطنعة ، وتوجيه كل منها اتجاها يختلف عن اتجاه غيرها حتى استطاع أن يهيىء البيئة الصالحة لتنمية (الروح الاقليمية) فى كل واحـــدة منها •

موقفه من تجربة الوحدة بين مصر وسورية :

سعد ساطع السعادة كلها واغتبط كل الاغتباط يوم تحققت أول تجربة للوحدة بين مصر وسورية وأرسل له اكرم الحورانى يوم اعلان الوحدة برقية يقول فيها :

فى فجر هذا اليوم الذى يتحقق فيه الأمل بتحقيق وحـــدة القطرين العربيين تتطلع الى الأحرار الملهمين الذين غذوا نفوس هذا الجيل بشعور القومية ليخبى فيهم روح الوطنية التى حملت هـــذا المشعل دون وهن فلكم شكر الوطن •

لكن التجربة الحبيبة الى نفس كل عربى واجهت ما كان ساطع

يحذر أبناء الامة العربية منه ، واجهت مقاومة من أصحاب المصالح الذين ترتبط مصالحهم ومنافعهم ومطامعهم بالنزعة الاقليمية، وواجهت حربا من جانب الاستعمار الذى ترتبط مصالحه هو الآخر فى تقوية الاتجاه الاقليمي واستمرار التباعد والتنابذ بين الدول العربية ٠

وكان لهذا كله ولغيره ان انتكست أول تجربة للوحدة فحدث ما ظل ساطع يصفه بخيانة ٢٨ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٦١ من انفصال القطر السورى الشقيق من الوحدة التى ارتضاها ودعا اليها كل أبنائه المخلصين البارين بوطنهم وبأمتهم العربية ٠

وحين حدثت هذه الخيانة بادر ساطع دون هوادة يحمل فى ثورية حملة شعواء على دعاة الانفصالية ٠ وجاء كتابه الاقليميـــة جذورها وبذورها يفضح كل من تناسى المبدأ فى سبيل السياسة ٠

لم يستبد اليأس بساطع يوم حدث الانفصال فما عرف عنه انه كان أسير اليأس فى يوم من الايام ٠ لقد كان يشعر ان واجبه هو أن يقوى روح التفاؤل بين أبناء الأمة العربية لأن الاستعمار كان من مهمته أن يبث اليأس في مستقبل هذه الامة بين نفوس أبنائها ٠ ومن ثم كان أول واجب دعاه المصلحين فى هذه الإمة أن يقاوموا روح اليأس وهذا ما فعله ساطع ونجح فيه ٠

رأى ساطع أن القومية العربية حركة ثورية لا بد أن تصطدم بردود الفعل من الخارج والداخل ، وان التحصن من ردود الفعل ان نعالجها بثورية لا تستسلم لفشل تجربة من التجارب ٠

وغداة الانفصال نشرت له جريدة الحوادث البيروتية رأيه فى خيانة ٢٨ من ايلول عام ١٩٦١ ٠

قال ساطع : « ان ايمانى بمستقبل الامة العربية الزاهـــر ووحدتها المحتومة ٠٠ لم يتزلزل ، على الرغم من النكسة الاليمة التى

منيت بها أخيرا .. وأما منطق البيان الذى أصدره بعض دعـاة الانفصالية تبريرا لموقفهم فيشبه كل الشبه منطق من يقول :

هذا الوليد لا يزال غير سليم من العيوب ، فلنقتله الآن لكى نحييه بالشكل الذى نريده فى مستقبل الأيام » .

ولم يكن مهاجمة ساطع لأولئك الانفصاليين أساسه معارضته لحزب معين أو لنظام سياسى خاص ، فالمعروف أن ساطعا سما فوق كل الاحزاب فهو يقول :

« لم انتسب لأى حزب من الاحزاب السياسية لا فى العراق ولا فى سورية ، ان موقفى من الأحزاب السياسية موقف الباحث المتفرج بوجه عام »

هو مع كل حزب عربى ينادى بالوحدة العربية ، وضد كل حزب يعارض هذه الوحدة .

هو مع كل سياسى يسعى لهذه الوحدة ، وضد كل سـياسى يشكك فى أمرها أو يضلل بشأنها أو يتاجر باسمها .

أخذ ساطع يفند الاتهامات التى وجهت لتجــربة الوحدة .. هناك من رأى فى الوحدة انها حرمت المدرسين السوريين من أن يكون لهم دروس اضافية يتقاضون عنها راتبا . هناك من رأى فيها انهـا أضرت بالمحامين لأنها وجدت لجان مصالحة فصار الكثيرون من أصحاب الدعاوى يحلون قضاياهم فى اللجان المذكورة فلا يذهبون الى المحاكم! وهناك من قال ان الوحدة كانت ظالمة وحين يسأله ساطع عن أى نوع من الظلم يقصد ، فيجيبه القائل انه كان صاحب قضية قضـائية فانتهى الحكم فيها الى حكم جائر وحين يسأله ساطع : وهل كان القـاضى مصريا ؟ يجيبه لا كان سوريا . وهل القانون الذى حكم به وضع فى عهد الوحدة ؟ يقول لساطع لا كان القانون موجودا قبلها .

ويدهش ساطع وما علاقة هذه القضية بالوحدة ، ثم يقـــول

« لقد كنتم تنتظرون من الوحدة أن تأتى بالمعجزات كأنها تملك عصا سحرية تستطيع ان تغير كل الاحوال وتصلح كل الامور فى جملة واحدة ، فتحقق ما عجزت عن تحقيقه أرقى بلاد العالم ، وكأنها المدينة الفاضلة التى يسود فى أرجائها العدل المطلق والخير العميم •

كان ساطع وهو يتقصى الحقائق التى أدت الى الانفصال يريد أن يقف على أمور موضوعية فيخيب أمله من أن نظرة كل شخص للوحدة كانت نظرة من جهة مصالحه هو •

أما الساسة الذين أيدوا الانفصال وباركوه فقد أخذ ساطع يذكرهم بتصريحاتهم قبل الوحدة وأبانها وكيف باركوا هذه الوحدة وأيدوها •

ثم يتكلم عما عرف بالاخطاء التى بررت الانفصال أو تقـــال تعليلا له :

« اننى اعتقد ان كل من يربط بين الانفصال وبين الاخطاء يرتكب خطأ عظيما يدل على تقصير كبير فى الفهم السياسى ، فضلا عن ضعف شديد فى الايمان القومي • لأن الخطأ والصواب من الامور الدارجة فى الحياة الفكرية والسياسية ، فلا يسلم من الخطأ فى بعض الامور أى انسان ، مهما كان عظيما وعبقريا » •

يستنكر ساطع الحديث عما يعرف باسم الاخطاء لأن الخطأ من خصائص العاملين والعظيم ليس من لا يخطىء ولا يفشل أبدا ، بل هو الذى يعرف كيف يستفيد من الأخطاء ، ويصحح الخطأ • أن البحث فى الخطأ لمجرد معرفته أمر لا يقره انسان ، لكن البحث فى

الخطأ تمهيدا لاستخلاص الدروس العملية والاستفادة مما حدث أمر مفيد وضروري ٠

ويشير ساطع في اكبار واحترام للنقد الذاتي الشامل الذي أوضحه الرئيس عبد الناصر وأعلن نتائجه الى الرأي العام في صراحة وشجاعة بعد نكبة الانفصال ٠

ويصفه بأنه نقد ذاتي مشبوب بحرارة الايمان ومقرون بشجاعة أدبية لا مثيل لها في التاريخ ٠ ويرى ان هذا النقد الذي أوضحه الرئيس يدعو الى الانحناء أمام هذا الاخلاص وهذه الصراحة بكل تقدير واعجاب واجلال ٠

لم يكن لما حدث من نكسة تجربة الوحدة ليوهن من عزم ساطع بل على العكس زادته قوة على قوة ، واعطته مزيدا من الايمان بحتمية الوحدة ، برغم ما حدث من انفصال ٠ فالوحدة عند ساطع كالنهر الذي لا بد أن يشق طريقه ، برغم ما قد يعترض طريقه من معوقات ٠

.. أما الشكل الذي يتصوره ساطع للوحدة العربية ، فهو اتحاد يجمع بين هذه الدول يتوحد فيه دفاعها وتتوحد فيه سياستها الخارجية وثقافتها وأمورها الاقتصادية ٠

يقول ساطع ذلك ويؤكده في رده على نقد وجهته له جريدة العمل اللبنانية التي كانت تعبر عن حال حزب الكتائب اللبنانية (١)

كذلك يقول ساطع في رده على سؤال وجهته له صحيفة أخبار اليوم في سنة ١٩٥٤ عن رأيه في الوحدة ، وكانت الصحيفة قد وجهت هذا السؤال لعدد من الكتاب والسياسيين ٠ قال ساطع

---

(١) ارجع لذلك في كتاب ساطع : العروبة بين دعاتها ومعارضيها

في رده : أعتقد ان اتحاد الاقطار العربية العام سيكون ــ ويجب أن يكون على أساس « النظام الفدرالى » لا أشك فى أنه سيحدث (اندماج تام) بين بعض الاقطار ، ولكنى أعتقد أن ذلك لن يكون عاما .

وأما (الامبراطورية ذات المركزية التامة) فيجب أن تستبعد من الأذهان لأن نظام المركزية الشديدة الذى ألفته الحكومات العربية القائمة الآن لا يتلاءم مع حاجات العصر الحديث ولا يضمن مصالح الشعوب الحقيقية .

وأنا أعتقد بوجوب تخليص الدول العربية من المركزية التى اعتادتها الى الآن . فمن الطبيعي ألا أحبذ تأسيس مثل هذه المركزية فى الدول العربية العامة التى ستتكون من اتحاد هذه الدول فى مستقبل الأيام .

ثم هو يدعو الى الاعتماد على المجالس البلدية والمحلية فى ادارة البلاد العربية لأن عدم تقدم الحياة الديموقراطية الحقيقية فى البلاد العربية يتأتى فى الدرجة الاولى من اهتمامنا بالانتخابات النيابية وحدها ، وعدم تقديرنا لوجوب الاهتمام بالمجالس المحلية » .

ويؤكد ساطع أن قوله هذا لا يصح أن يؤخذ على أنه تعارض مع دعوة الوحدة مثلما حدث ذات يوم أن جاءه من قال له معروف عنك انك وحدوى تام فكيف تقول ذلك . ويرد عليه الحصرى بأنه ما قاله ليس فيه خروج على الوحدوية لأنه تكلم عن اتحاد الأقطار العربية العام ، وأكد انه سيحدث اندماج تام بين بعضها غير ان ذلك لن يكون عاما من أول الامر ، ومن ثم يجب أن يكون بين هذه الاقطار كلها اتحاد فدرالى (١) .

---

(١) الاقليمية جذورها وبذورها : ساطع الحصرى ص ٧٩ . الطبعة الاولى

وهنا يتعين علينا توضيح حقيقة هامة وكثيرة ما اتخذت سبيلا لطعن ساطع فى آرائه . لم يدن ساطع فى دعوته الى اتحاد فدرالى بين الدول العربية يرمى من ذلك الى تثبت الفوارق الاقليمية بين هذه الدول ، وانما كان يستهدف من ذلك الا تكون هناك كما قال امبراطورية ذات سلطة مركزية ، هذا من جهة ومن جهة أخرى كان يريد أن تكون للمجالس المحلية والشعبية فى تلك الاقطار العربية سلطاتها ودورها الفعال .

والدليل على ذلك انه هاجم فى سنة ١٩٦٢ المشروع الذى قدمه بعض الساسة فى سورية لاعادة الوحدة بين سورية ومصر والذى نشر فى مايو (آيار) من تلك السنة .

جاء فى هذا المشروع ان يكون شكل الوحدة على النحو التالى :

دولة الوحدة دولة واحدة اتحادية برئيس واحد ونائب رئيس واحد حكومة اتحادية ومجلس نيابى ومجلس اتحادى ومحكمة اتحادية وادارات ومؤسسات ومجالس ولجان اتحادية .

وان الشرط فى الرئيس ونائب الرئيس الا يكونان من اقليم واحد. وانتماؤهما من الاقليمين يرمز الى التكافؤ بين الاقليمين ، والى المشاركة فى أمور الدولة الواحدة .. أما الهيئة التشريعية فتتألف من مجلسين مجلس نيابى ينتخب على أساس عدد السكان ومجلس اتحادى ينتخب على أساس التساوى بين ممثلى الاقليمين ، وكل تشريع يصدر عن المجلس النيابى لا يقر الا اذا وافق عليه المجلس الاتحادى ، **وبهذا يضمن عدم تسلط الاقليم الكبير على الاقليم الصغير،**

ويتحقق تكافؤ الاقليمين بالدولة الواحدة ..

هاجم ساطع هذا المشروع بكل قوة على أساس انه يهتم بالفوارق الاقليمية فهو مشروع يتكلم عن (واقع هذه الفروق) ويحتم

العمل على ضوء أحوال الاقليم الواقعية ٠ لقد رآه مشروعا تم التفكير فيه بعقلية التجزئة كما قال وأعد بدوافعها ومن ثم فهو مشروع تطل فيه الاقليمية برأسها ، مآله الفشل ولا خير يرجى منه ٠

وحين يجد من يبرر الانفصال بأن الدافع اليه هو المحافظة على الكيان السورى ينبرى ساطع للرد على ذلك مستعينا بالخرائط فيقول ان ما يزعمه البعض من الوجود أو الكيان السورى أساسا لطعن فكرة الوحدة هو زعم لا أساس له من الصحة ولا سند له من التاريخ ٠ فسورية الحالية بحدودها التى هى عليها حديثا لم تكتسب الا منذ الاربعينات من هذا القرن بعد أن اندمجت اللاذقية وجبل الدروز وحلب مع دمشق على نحو ما سبقت لنا الاشارة اليه ٠

ومضى ساطع يحمل فى غير هوادة دفاعه عن قضية العروبة وعن ضرورة البذل فى سبيلها بكل غال ٠ ويفند قول القائلين بأن الشقاق طبع فى العرب ٠

بهذا كتب ساطع فى مجلة الرسالة جوابا على سؤال لصديقه الاستاذ الكبير أحمد حسن الزيات ٠

يسأله الاستاذ الزيات هل الشقاق طبع فى العرب ؟ فيجيب ساطع :

صديقى الاستاذ

لقد أطلعت على السؤال الذى وجهتموه الى فى مقالكم بعنوان : هل الشقاق طبع فى العرب ؟ يا صديقى الأستاذ لا يوجد فى طباع الأمة العربية ما يجعلها شاذة عن سائر الامم فى الاتفاق والانشقاق

يجب علينا أن نعرف ذلك حق المعرفة ، كما يجب علينا ان نعتقد اعتقاد جازما بأن طبائع الامم لا تبنى على وتيرة واحدة على مر العصور ان الماضى لا يقيد الحال مطلقا ٠٠ يجب علينا أن نتخلص من نزعة الاشتغال بالماضى كثيرا وان نقلع عن الالتفات الى الوراء ٠ فلا يجوز أن نحاول تبرير مساوينا الحالية بنقائص أسلافنا الاقدمين ٠ لا ريب ان حالتنا الحاضرة سيئة للغاية ، والنكبات التى منينا بها أخيرا كانت فى منتهى الفظاعة (كتب ساطع ذلك بعد عام ١٩٤٨ مشيرا الى حرب فلسطين) ٠

ولا يريد ساطع ان يحلل الاسباب التى أدت الى نتائج حرب عام ١٩٤٨ فى فلسطين ، وانما يرى أن هناك سببا آخر ربما كان أبعد أثرا وأشد خطرا من كل ذلك هو ضعف ايماننا بقضايانا القومية ، وعدم اقدامنا على معالجة تلك القضايا بعزم وحزم ، اننا لم نستجمع بعد قوانا المادية والمعنوية ونحشدها لتحقيق هدفنا الاسمى ، بل اننا عملنا بتراخ وتردد بدون عزم قوى ٠٠ ومهما يكن الأمر يجب علينا ، ألا نقطع الامل فى النجاح فى المستقبل وألا نتأخر عن اعادة الكرة بايمان عظيم ٠

ثم هو يرى ان العقبات فى سبيل تحقيق الآمال لا يجب أن تكون سبيلا الى القنوط واليأس فيقول : « يجب علينا ألا ننسى انه ما من أمة وصلت الى الكمال الذى تنشده الا بعد ان اجتازت عقبات كثيرة وذاقت مرارة الفشل مرات عديدة ، واضطرت الى تضحيات كثيرة ٠٠ ان الأمم الحية الوثابة تتغط بالنكبات فتندفع الى العمل وتواصل الكفاح بحرارة أشد وعزم أمتن ٠ وأستطيع أن أقول ان الايمان القوى والعظيم بامكانيات أمتنا ، والعمل الحازم المتواصل لتحقيق غايتنا ، والاستعداد التام للكفاح مصحوبا بروح التضحية الحقيقية ومدعوما بالأمل الذى لا يقهر ، هى أهم ما يترتب علينا من واجبات

« وبناء على هذه الملاحظات أستطيع أن أقول بلا تردد : لا يجوز لنا ان نترك مجالا لتسرب الخور والقنوط الى أنفسنا ، ويجب أن نعلم علم اليقين ان النكبة لا تصل الى حدها الاقصى الا عندما تثبط العزائم • فعلينا الا نستسلم للقنوط والخور » •

وهكذا ظل ساطع يبث الايمان في نفوس أبناء أمته العربية ينزع عنهم روح اليأس ، ويبث فيهم روح التفاؤل، لكن التفاؤل الذى دعا اليه ساطع ليس تفاؤل التواكل المستسلم للأمور انما كانت دعوته الى تفاؤل مصحوب بالعمل ، تفاؤل نستفيد منه من أخطاء الماضي وتجارب الاحداث ، يدعونا ساطع أن نخرج من النكبة بالدروس التي تجنبنا الوقوع فيما وقعنا فيه من قبل •

ومع نكسة الخامس من يونيو (حزيران) عام ١٩٦٧ ظل ساطع الحصرى على ايمانه بأن الوحدة العربية هي الدرس الذى ينبغي أن نخرج به منها ، لقد هزت هذه النكسة ساطع من الاعماق لكنها لم تبلغ به اليأس ، لقد رأى ان العدو خطط لنفسه على أساس استحالة وحدة العرب فلا سبيل لمواجهته الا بوحدة تنسق بين امكانياتهم وتوفق بين جهودهم •

مصر والبلاد العربية عند ساطع :

كانت لمصر عند ساطع مكانتها الخاصة ومنزلتها الحبيبة الى قلبه، كان يشعر أنها بالنسبة للعالم العربي بمثابة القلب من الجسد لها مكانتها ولها فاعليتها ودورها الهام المؤثر في هذا العالم • اختار ساطع مصر للاقامة فيها بعد أن اعتزل المناصب ، وظل فيها حتى سمح له الرئيس الراحل عبد السلام عارف بالعودة الى العراق فأقام هناك حتى توفى •

لكن الذين كانوا على صلة بساطع عن قرب يعرفون تماما مدى

ما كان يكمنه لمصر من حب وغيرته عليها ودفاعه عنها. ومنذ أقام ساطع في البلاد العربية (١٩١٩) وهو دائم التردد على مصر لا يترك فرصة تسنح له الا وقدم لزيارتها ، أو أقام فيها باحثا في نظمها متقصيا في أحوالها .

سافر الى مصر سنة ١٩١٩ .. في بداية عمله في سورية بغيـة لاطلاع على أحوال مدارسها والكتب المدرسية المطبوعة فيهـا على نحو ما سبق لنا ذكره . وبعد خروجه من سـورية عقب احتلال الفرنسيين لها . قام في مصر واتخذ له بيتا فيها حتى دعاه فيصـل الأول للعمل في العراق . ثم تتابعت زيارته لمصر أثناء عمله في العراق فجاء اليها سنة ١٩٣٥ عندما عين مراقبا عاما للتعليم العراقي ، جاء ساطع الى مصر موفدا من الحكومة العراقية لتنظيم العلاقات الثقافية بين البلدين .

ثم جاءها سنة ١٩٣٧ .. عندما كان مديرا للآثار القديمة موفدا من الحكومة العراقية لحضور مؤتمر الحفريات الدولى الذى انعقـد في القاهرة ، وقد انتخبته منظمة التعاون الفكرى التابعة الى عصبة الأمم الى عضوية لجنة المتاحف الامية . ومر بمصر في عام ١٩٣٩ خلال عمله في مديرية الآثار القديمة حين سافر الى افريقيا الشمالية لدرس الآثار العربية فيها حيث زار المغرب والجزائر وتونس وانتقل منها الى صقلية وزار ايطاليا .

ثم سافر ساطع الى مصر سنة ١٩٤٦ عندما كان مستشارا فنيا لوزارة المعارف في سورية حيث استفاد من أجازته السنوية التى لم يكن قد استنفدها وجاء الى مصر حيث زار أماكنها الاثرية وسافر الى الاسكندرية والأقصر وأسوان .

ثم أقام فيها ساطع بعد أن ترك عمله في سورية مدة قاربت العشرين عاما حيث كان يعمل بالجامعة العربية ومعهد الدراسـات

ربية العالية ، ثم اختارها بعد أن استقال من كل أعماله وتفرغ
بحث والتأليف •

مصر عند ساطع عربية لحما ودما وحين يسأل السائل ساطعا :
ى كانت مصر مع العرب ؟ فيجيبه على الفور ومتى كانت مصر بعيدة
ن العرب ؟ يكتب ساطع فى مجلة الرسالة ناقدا لنظام التعليم فى
مر وينهى بحثه بقوله :

أرجو الا يعتبرنى أحد متطفلا على مصر بهذه الملاحظات ، فانى ربى صميم ، أدين بالعروبة التى تملأ كل جوانحى واهتم بمصر ر اهتمامى بسورية والعراق • ولا أكون مغاليا اذا قلت اننى أهتم مصر أكثر مما أهتم بسورية والعراق ، لأنى أعرف أن مصر بحسب وضاعها العامة أصبحت القوة المؤثرة على العالم العربى بأجمعه •
بأعتقد لذلك ان كل تقدم يحصل فى مصر لا يخلو من النفع لسائر لبلاد العربية ، كما أن كل نقص يعيش ويستمر فى مصر لا يخلو من ضرر العدوى الى سائر البلاد العربية ، فكل خدمة تسدى الى مصر نما تسدى الى البلاد العربية جميعها » •

ثم يناقش ساطع ما أثاره بعض المفكرين المصريين عما اذا كانت على مصر أن تتجه نحو الرابطة الافريقية ، أو رابطة البحر الابيض المتوسط ، أو الجامعة الاسلامية •

ويناقش ساطع هذه القضايا التي أثارتها صحيفة أخبار اليوم فى عددها الصادر فى ١٩٥٠/٣/٢١ بسؤال للأستاذ فتحى رضوان قال فيه : « من أنا ومن انت ؟ لست أسأل عن اسمى أو اسمك أو صناعتك أو عملى أو عملك وانما أسأل من يكون هؤلاء الذين يقيمون فى هذه الرقعة من الارض التى تسمى مصر ؟ فهل المصريون عرب ؟ وهل هم عرب جنسا عرب سياسة أم عرب ثقافة ؟• أم هؤلاء المصريون افريقيون ؟ أم هم من أهل البحر الابيض المتوسط؟

فسياستهم وثقافتهم وتقوم على تقوية العلائق السياسية والثقافية بدول وشعوب هذا البحر ولا سيما دول الجزء الشرقي والجنوبى منه ؟ أم هؤلاء المصريون من أوربا وبلادهم قطعة منها كما كان يقول الخديو اسماعيل ؟ » ٠

ولبى الاجابة على سؤال الاستاذ فتحى رضوان عدد كبير من الكتاب والسياسيين ونظمت دار الهلال ندوة اشترك فيهـــا عدد من الشخصيات المصرية الكبيرة فى ذلك الحين ٠

بادرساطع يناقش هذه القضايا ، ويقول : قد يعترض على معترض ان السؤال موجه الى المصريين والمقصود منههو حمل المصريين على التفكير فى قضاياهم القومية فلماذا تحشر نفسك فى هذه المناقشة وانت لست من المصريين ؟

ويجيب ساطع على ذلك مؤكدا ما كان يقوله فى كل مرة : انه يهتم بمصر قدر اهتمامه بسورية والعراق أو بأى بلد عربى ، انه يعرف أن لمصر دورها المؤثر والفعال فى العالم العربى ، فهو حريص على مصلحتها حرصه على مصلحة كل بلد عربى ٠

ثم يتساءل ساطع : اذا كان من المعلوم ان مصر تقع فى أقصى الشمال من القارة الافريقية فهل يحتم وضعها الجغرافى على المصريين ان يعتبروا أنفسهم من الشعوب الافريقية ؟ وهل يترتب على مصر من جراء هذا الوضع ـ أن تجعل الرابطة الافريقية محورا لسياستها العامة فتسعى وراء توحيد شعوب هذه القارة ؟

يجيب ساطع على ذلك بقوله : لا يجوز للمصريين أن يعتبروا بلادهم افريقية محضة وساطع بقوله ذلك لا يقصد ان يهمل المصريون أمور القارة الافريقية ولا العمل على تنسيق سياستهم وأمورهم مع سياسة وأمور اخوانهم الافريقيين ، لكنه يرمى الا تكون السياسة

المصرية موجهة على أساس ان مصر بلد افريقى محض فتنسى ما عداه من أمور ٠

وساطع حين قال هذا وقرره فى الاربعينات من هذا القرن كان يبغى أن يجعل المصريين غير منطويين على أنفسهم يشعرون بعروبتهم وبأن مصر جزء لا يتجزأ من العالم العربى ٠

يقول ساطع : « لقد تعرضت البلاد العربية المختلفة فى الماضى القريب ولا سيما خلال العقد الثالث من القرن الحاضر ـ لاحداث وعواصف سياسية عديدة ومتنوعة ٠

« خلال تلك السنين كان معظم الأقطار العربية ـ ولا سيما القطر المصرى ـ منطويا على نفسه لا يهتم بما يحدث فى غيره ، ولذلك بقيت تلك الأحداث خارج نطاق اطلاع معظم المثقفين واهتمامهم فى مختلف البلاد العربية » ٠

ويقصد ساطع من اثارة هذه القضايا « ان ينير السبيل أمام تفكيرنا السياسى ويساعد على توجيهه الوجهة السليمة فى بحر القضايا العربية الذى يزداد تلاطما يوما بعد يوم ٠

هو اذا لا يدعو مصر أن تنسى انها جزء من القارة الافريقية وأن مصيرها مرتبط بمصير هذه القارة ، لكنه يدعوها الا يكون ذلك سببا فى ان تنسى انها جزء من عالم عربى تحيط به العواصف وتسيطر عليه المطامع الاستعمارية ، فينبغى على مصر أن تؤكد وجهها العربى وسياستها العربية وثقافتها العربية ٠

وهذا يوضح قوله « واذا أمعنا النظر فى وضع مصر من حيث اللغة والثقافة وجدنا أنها (مصر) تقع فى وسط عالم عربى واسع الارجاء يمتد من شواطىء المحيط الاطلسى فى الغرب الى هضاب ايران فى الشرق » ، فمصر من هذه الوجهة عنده قريبة جدا من

الوجهة الثقافية من البلاد العربية ثم هو يستعين بما قاله الباحثون الجيولوجيون ان مصر تؤلف (وحدة طبيعية) مع الجزيرة العربية وسورية ووادى الرافدين .

كذلك ينكر ساطع على القائلين قولهم بأن مصر تنتمى الى رابطة البحر المتوسط ويقول ان هذه الفكرة لاتنتمى الى تفكير علمى صحيح . ويحذر المصريين من ان تجد هذه الفكرة قبولا لديهم « انى أحذر المصريين من ان ينخدعوا بهذه الآراء السياسية المقنعة من ان يفكروا فى جعل شئون البحر الابيض المتوسط محورا لسياسة مصر الداخلية أو الخارجية » .

ان الساعين الى بث هذه الفكرة استهدفوا من ورائها فى نظر ساطع ابعاد المصريين عن فكرة العروبة اذ قالوا لهم (للمصريين) لا علاقة بينكم وبين العرب . أنتم من شعوب البحر الابيض المتوسط مثلنا .

كذلك كان موقف ساطع من نفس الفكرة القائلة بالرابطة الاسلامية . هو لا ينكر ان الرابطة الاسلامية أهم وأقوى بكثير من الرابطة الافريقية ورابطة البحر المتوسط على أساس أن الربطة الاسلامية رابطة معنوية تستمد قوتها من العواطف الدينية .

وموقف ساطع على هذ النحو مرجعه كما سنبين عند حديثنا عن أسس القومية عنده . ان الدين وان كانت له أهميته ودوره الفعال ، لكنه عند ساطع ليس بأحد الاسس التى تبنى عليها القوميات . فالمصريون ليسوا كلهم مسلمين ومن ثم فهو يؤكد ان الرابطة الوطنية والقومية يجب أن تتقدم ـ بهذا الاعتبار ـ على الرابطة الدينية فى الشئون السياسية .

كذلك يرى ساطع أن عصر القرن العشرين هو عصر انفصلت

فيه العلائق السياسية عن العلائق الدينية واختلفت عنها اختلافا كليا ٠

ثم هو يستعين بأمثلة التاريخ التى تثبت ان الاتفـــاق فى الديانة بين الدول لم تمنع من نشوب الحروب فيما بينها ٠ فمثـلا فى سنة ١٨٥٤ اتفقت انجلترة وبروسيا وسردينا مع السلطنـــة العثمانية ضد روسيا وأرسلت هذه الدول جيوشها وأساطيلهـــا الى القرم لتحارب بجانب الجيوش العثمانية المسلحة ضد روســـيا المسيحية ٠٠ كذلك نجد ان ايطاليا لم تحجم عن الاغارة على الحبشة مع ان الامبراطورية الحبشية كانت مسيحية مثل ايطاليا ٠ ثم هناك حركة مصطفى كمال فى تركيا ومساعدة روسيا له ضد اليونان ٠٠ كل هذا يستشهد به ساطع للدلالة على ان الدين لم يعد هو الباعث لحركات الدول ٠ فاذا ما خشى ساطع ان يعترض عليه معترض بأن ما يقوله قد يكون صحيحا بالنسبة الى العالم الغربى ، ولكنـــه غير صحيح بالنسبة الى العالم الاسلامى ، يقول فى معرض الرد على ذلك : ان الامم الاسلامية كثيرة ومتنوعة ومنبثة فى أقطار متباعـدة من طنجة فى الغرب الى أقاصى الصين والجزائر الاندونيســـية فى الشرق ٠

ولم يحدث فى التاريخ ان اتحدت مصر مثلا مع أندونيســـيا أو نيجيريا فى أى عهد من العهود الاسلامية ، وهى لم تتحد حتى فى العصور التى كان الشعور الدينى يسيطر خلالها على كل شىء ويطغى على السياسة فى كل الاقطار ٠ فكيف بهذا العصر الذى تعقـــدت خلاله العلائق الدولية تعقدا هائلا وتباعدت عن الاعتبارات الدينية تباعدا كبيرا ؟

ويرى ساطع انه حتى فى الامم الاسلامية المتقاربة بعضها لبعض مثل العرب والترك والفرس قد اختلفت فى الماضى وما زالت تختلف

فى الحاضر فى الأمور الثقافية وفى الاتجاهات السياسية .

وأنا أعلم ان هناك من يختلف مع ساطع فى رأيه فى الاسس التى تكون القوميات ، لكنه يجب أن تكون نظرتنا لآرائه نظرة تضع فى حسابها ان ساطع عاش من أجل فكرة واحدة ملكت عليه فؤاده وأمسكت بزمام نفسه ، وعاش مدافعا عنها مناضلا من أجلها ، تلك هى فكرة العروبة ، وأنه بدأ يدعو الاقطار العربية الى أن تؤكد وجهها العربى ، وسياستها العربية ، وايمانها بالكيان العربى فى وقت لم تكن فكرة القومية العربية سوى ضوء خافت باهت فى نفوس أبناء الأمة العربية فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن .

وجاء ساطع يدعو للفكرة القومية العربية وينبه لها ويجسمها ويدعو بها ، وكان تركيزه فى دعوته على مصر التى كانت النزعات المختلفة تتجاذب أبناءها .. هناك من يؤكد أصلهــا الفرعونى ، وهناك من يخرج بفكرة رابطة البحر المتوسط أو الرابطة الاسلامية وغيرها ، بينما الرابطة العربية لا تجد تأييدا قويا بين المصريين .

ومن هنا كان دور ساطع وفضله الكبير وتحمسه لفكرة الرابطة العربية التى تربط مصر بالبلاد العربية .

يرى ساطع ان المصريين بأجمعهم يتكلمون ويتخاطبون ويتفاهمون باللغة العربية ومن ثم فهم (عرب) بهذا الاعتبار .

ولا مبرر للتساؤل عند ساطع فيما اذا كان المصريون عربا جنسا ودما لأنه من الحقائق الثابتة التى يؤكدها انه لا يوجد على الارض أمة ينحدر جميع أفرادها من أصل واحد .

ولما كانت اللغة . أهم الاسس فى تكوين القوميات عنده ولما كانت لغة المصريين هى العربية فجميع المصريين يتكلمون باللغــة ولا يوجد بينهم جماعة تبقى خارج نطاقه هذه الرابطة .

لهذا السبب يترتب على مصر من وجهة نظره « ان تخصص لشئون هذا العالم الموقع الاول في سياستها الخارجية مع العلم أن هذه السياسة يجب أن تتحول بالتدريج من سياسة خارجية الى سياسة داخلية • ويجب على مصر ان تسعى وراء توحيد العالم العربى وان تكون أشد العاملين اندفاعا فى هذا السبيل » •

وينتهى ساطع الى القول ا لىأنه ينبغى التأكيد بأن مصر عربية ومستقبلها مرتبط بمستقبل العروبة أشد الارتباط ، ويترتب على المصريين أن يقولوا نحن المصريين عرب ، مصر وطننا الخاص والعالم العربى وطننا العام مصر وطننا الأصغر والعالم العربى وطننا الأكبر•

على المصريين أن يقولوا ذلك ، ويؤمنوا به ، ويعملوا وفق ما يقتضيه هذا القول وهذا الايمان •

ثم هو لا ينكر على المصريين حقهم فى اعطاء المزيد من الاهتمام لما فيه مصلحة مصر أولا وذلك للرد على القائلين بانكار فكرة العروبة على أساس من زعمهم انه ينبغى الاهتمام بما فيه مصلحة مصر فقط• يرى ساطع ان كل تقدم يحققه القطر المصرى يعود بالنفع على جميع البلاد العربية فهو لا ينكر على المسئولين فى مصر ان يعطوا مزيدا من الاهتمام لما فيه مصلحة مصر فان مصلحة العرب مع مصلحتها وكل ضرر يصيبها يصيب العرب •

أما القائلون بالنزعة الفرعونية فلا يمكن لاحد أن ينكر فضل الحضارة الفرعونية وان افتخار المصريين بهذه الحضارة لا يتعارض مع افتخارهم بحضارتهم العربية ، هذه الحضارة التى يقول عنها ساطع انها لم تكن خاتمة لماض سحيق ، بل هى فاتحة لمستقبل باهر •

وهذا المستقبل الباهر سيشـهد قيام الدولة العربية المتحـدة مع تقدم الآمة العربية الناهضة نحو أعلى مراتب العلم والحضارة .

كان ساطع يقول ذلك للمصريين فى وقت كانت هناك اصوات ترتفع بان المصريين مصريون أولا وأخيرا وكان هناك من يقول نحن مصريون قدماء ولا شيء غير ذلك فانبرى للرد على هؤلاء يقـول لهم أنتم عرب أولا : انا اعرف ان المصريين الذين يقولون ذلك قليلون الآن . ولكنى لا أشك فى أن عدد هؤلاء سيزداد بسرعة . كلما ازداد اتصال مصر بسائر البلاد العربية وكلما تعمق المفكرون والكتاب فى درس (مصالح مصر الحقيقية ، المادية والمعنوية) وفى بحث (تاريخ مصر) بنظرات قومية واعية ، متحررين من الاراء القبلانية المـوروثة من العهـود الماضـــية التى وجهت تلك الابحاث أسوأ الاتجاهات ، وأبعدتها عن جادة الصواب .

وستظل الاجيال فى مصر تذكر بالعرفان والتقدير فضـل ساطع ونضاله وحرصه على تأكيد الوجه العربى لمصر ، وتثبيت دعائم القومية العربية فيها ،. ودعوته المستمرة والمتكررة للمصريين أن يكونوا جنودا لهذه القومية ، ودعاة لها مؤمنين بها مدافعين عنها .

كان ساطع يرى أن فى الشعوب العربية قوى كامنة يمـكن أن تتحول الى قوى فاعلة اذا ما بذل الجهد فى هذا السبيل . ووجه الاهمية فى ذلك انه نادى بالوحدة العربية فى وقت كان اليأس قد بلغ مداه عند الكثيرين من ابناء الأمة العربية .

وحين يبلغه أن البعض يعارض فكرة الوحدة على أساس ان العرب

---

(١) جاء هذا القول على لسان الاستاذ فكرى اباظة فى رده على السؤال الذى وجهته أخبار اليوم والذى سبقت الاشارة اليه ارجع الى كتاب ســاطع الحصرى : العروبة أولا ص ١١٥ .

ضعاف والوحدة لن تفيدهم فى شىء ، ينبرى ساطع لتنفيذ ذلك مؤكدا ان اتحاد شعوب الامة العربية ليس بمثابة ضـــم اعداد الى اعداد بصورة حسابية ، ولا ربط شىء بأشياء بطريقة ميكانيكية ، ولا ضم مساحة الى مساحات بصورة هندسية ، انما يكون بمثابة خلق كائن جديد وعضوية جديدة تصبح فيه الشعوب المتحدة بمثابة الاعضاء فى البدن الواحـــد • ثم يقول ساطع • علينا ان نكف عن اعتبار انفسنا وشعوبنا اصفارا •• وعلينا ان نكف عن تشبيه قضايا اتحاد الأمة بعمليات جمع الاعداد •

ويرد على القائلين بان الوحدة العربية حلم جميل أبعد ما يكون عن التحقيق خصوصا بعد حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ • يقول ساطع: أفلا يحق للقائلين كذلك ان يعكسوا هذه القضايا فيقولون : ان تحقيق الوحدة العربية أصـــبح من أوجب الواجبات علينا ، لأننا خسرنا حرب فلسـطين ولم نحل دون قيام اسرائيـل التى تهـدد مستقبلنا فى عقر دارنا ، فى مسرة حياتنا • يجب أن نسرع فى العمل لتحقيق الوحدة العربية ، لكى نستطيع أن نحارب فى المستقبل صفا واحدا كرجل واحد • وأكرر هنا ما كنت قلته من قبل اننا خسرنا حرب فلسطين لأننا كنا سبع دول واضيف الى ذلك الآن يجب علينا أن نتعظ من دروس حرب فلسطين ، فنسعى لتكوين دولة عربية متحدة لكى لا نخسر فى حروب المستقبل » •

كان ساطع يقول ذلك فى سنة ١٩٥٥ • ولقد مضى على قوله ذلك أربعة عشر عاما ، وما أظن اننا بحاجة لشىء مثل حاجتنا لما قاله ساطع ونادى به • حين يسأل عن سر خسارة العرب لحرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، مع انهم كانوا سبع دول يرد على الفور انهم خسروا الحرب لانهم كانوا سبع دول ولم يكونوا دولة واحدة •

واذا كان ساطع قد غادر هذه الحياة الدنيا فان آراءه وأفكاره

باقية خالدة على مر الزمن ، والوحدة العربية التى نادى بها أصبحت تفرض نفسها هـذه الأيام كضرورة ملحة لا مفر منها فى مواجهة المعركة المصيرية التى تفرض نفسها هذه الايام على الوطن العربى ٠ وما أظن احدا يستطيع ان يقول ان هناك بغير هذه الوحدة سبيلا الى درء الخطر الاستعمارى الصهيونى الذى يبذل هذه الأيام كل جهده ليفرض ارادته على الأمة العربية ٠ لقد رسم الاستعمار والصهيونية سياستهما على أساس أن هناك فرقة تفرق بين العرب ولا سبيل لتحبيط خططهما الا بوحدة تجميع شمل العرب فى معركة المصير ٠

وهذا ما نادى به ساطع وظل يدعو اليه ، يجب على كل فـرد أن يكافح الاقليمية كما كان يكافح الاستعمار ، ثم نجـده يقول : ما اسعد الامم التى حققت وحدتها القومية وما أشقى الامم التى ظلت بعيدة عن تحقيق وحدتها القومية ٠ ، ان أخطر واخطر البذور التى تركها الاستعمار هو تجزئه البلاد (العـربية) الى دول ودويلات عديدة وفصل بعضها عن بعض بحدود مصطنعة ٠

وحين قامت الثورة المصرية فى الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ ، كان ساطع اسعد الناس بقيامها لقد رآها تحرر البلاد من عهود الفساد والخمول والاستسلام ٠ يقول الحصرى : « أما مصر بعد أن كانت بعيدة كل البعد عن التفكير فى سياسة عربية أخذت تشعر بعروبتها بصورة تدريجية ، حتى ان شعورها هذا أخذ يزداد بسرعة ويضطرم اضطراما ، بعد كارثة فسلطين (١٩١٨) التى ايقظت النفوس النائمة من سباتها العميق ــ ولا سيما بعد قيام

(ثورة ١٩٥٢) واعلان الجمهورية التى حررت البلاد من عهود الفساد والخمول والاستسلام وقيضت لها زعيما شابا يتوق الى الاصلاح ويؤمن بالعروبة ويعمل بروح ثورية . وانتهت الجمهورية المصرية الى اعتناق (العروبة) بصورة رسمية وأخذت تعمل فى فى سبيلها على رءوس الاشهاد بحزم وثبات » .

الفصل الخامس

القومية عند ساطع

تعد الدراسة التى قام بها ساطع الحصرى عن القوميـة من أوسع وأعمق وأغزر الأبحاث التى قام بها أى باحث تعرض بالدراسة للحركات القومية ، كذلك تعد هذه الدراسة بالنسبة لساطع محور كل أبحاثه فهى من هذه الناحية اهم وأعظم ما قام به من دراسة ٠

ومرجع اهتمام ساطع بدرسة القومية أنه كان يؤمن ان الايمان بالقـومية العربية مكمل له بل من لوازمه أن يتوسع أبنـاء الأمة العربية فى دراسة الفكر القومى حتى يتحقق هذا الايمان ويرسخ ولا تعصـف به العواصـف فتقتلعه أو تهب عليه الرياح فتلقى به جانبا ٠

وضع ساطع نصب عينيه هدفا ،واعتنق فكرة ، وآمن برسالة ، وأختط لنفسه خطاً ، ووجه مجال نشاطه من أجل أمنية عزيزة غالية عند كل عربى آمن بأمته وبشعبه وببنى قومه ٠

لقد عاش ساطع من أجل خدمة قضية القومية العربية فسعى الى تنشيط الوعى القومى فى العالم العربى مع اشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية عن طريق دراسة أسس هذه الوحدة ٠

ومن هنا جاءت مؤلفاته العديدة التى تناول فى بعضها القومية

والوطنية بصــورة مباشرة مثل كتابه (آراء واحاديث فى الوطنية والقومية) وبحثه الذى اسماه (ماهي القومية ؟) وجمع فيه المحاضرات التى ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية فى هذه الناحية وكتابه الذى خصصه لنقد آراء كثير من الكتاب عن القوميات واسماه (حول القومية العربية) • ولقد توجه الكثيرون بالسؤال لساطع أن يزودهم بقائمة عن مؤلفاته التى تتناول موضوع القومية فرتبها لهم حسب درجة ماجاء فيها من حديث عنها •

يقول ساطع : سألنى البعض ان أزوده بقائمة تامة عن مؤلفاتى التى تحوم حول موضوع القومية العربية وبناء عليه ارتب مؤلفاتى المتعلقة بالقومية على النحو التالى :

اراء واحاديث فى الوطنية والقومية ــ محــاضرات فى نشوء الفكرة القومية ــ ماهى القومية ؟ آراء وأحاديث فى القومية العربية ــ العروبة بين دعاتها ومعارضيها ــ العروبة أولا ــ دفاع عن العروبة ــ صفحات من الماضى القريب ــ آراء واحاديث فى اللغة والأدب ــ آراء واحاديث فى التاريخ والاجتماع ــ حول وحدة الثقافة العربية ــ البلاد العربية والدولة العثمانية ــ يوم يسلون ــ آراء واحاديث فى التربية والتعليم ــ آراء وأحاديث فى العلم والاخلاق حولية الثقافية العربية ــ رسائل الى بول مونرو ــ تقارير عن أحوال المعارف فى سورية ــ واقتراحات فى اصلاحها •

وأهم ما يسجله التاريخ لساطع أنه وضــع للقومية العربية أسسا علمية ووجه الأنظار اليها وأشاع الروح فيها وقوى الايمان بها • كان ذلك خطه الذى رسمه لنفسه ومنهجه فى ابحاثه وكانت تلك عقيدته • حين يعمل فى مجال التربية والتعليم يسعى لبعث العامل القومى وتقويته ويضع المنــاهج الدراسية التى يراها كفيلة بتحقيق ذلك ، وحين يضع تقارير الاصلاح لخطط التعليم يضــع

نصب عينيه الخطط الكفيلة بتقوية الشعور القومي وتغذيته • وحين يعمل في غير ذلك من مجالات فالمهم عنده هو كل ما يعود على الفكر القومي ، وكل ما يقوى دعائمه مثلما رأينا مجهوده في هذه الناحية حين كان يعمل في الآثار في العراق مثلا •

كان ساطع يؤمن بأن القومية العربية ولدت متأخرة بسبب الاحتلال العثماني للبلاد وبما كان للسلطان العثماني خليفة المسلمين من نفوذ معنوى كان كفيلا بتأخير حركة القومية العربية ، وظهور حركات مناوئة للقومية العربية مثل حركة الجامعة الاسلامية فهو يقول :

« لقد اعتدنا أن ننظر الى التاريخ العثماني كامتداد للتاريخ الاسلامي ، وصرنا لا نشعر باننا أبناء أمة مغلوبة على أمرها مستسلمة لسلطان أجنبي عنها • نسينا أن لنا قومية خاصة متحيزة عن الأتراك العثمانيين وعن سائر المسلمين ، حتى اننا لم ننتبه الى ان هذه الأمة أخذت تفقد شخصيتها بسبب اهمال لغتها » •

يبدأ ساطع في دراسة للقومية العربية بتوضيح معنى كلمة قومية وقرينها في اللغات الأجنبية حتى لا يحدث لبس وتشويش على عقول المثقفين العرب كما يقول ساطع — وهم يقرءون عن القومية باللغات الأجنبية •

يوضح ساطع أن الفرنسيين أصبحوا يستعملون كلمة ناسيونالزم بمعنى غير معنى القومية وأصبحوا يقصدون منها الوطنية وصاروا يطلقونها على الأحزاب اليمينية أو صاحبة النزعة الوطنية المتطرفة على الرغم من كون هذه الأحزاب مخالفة لمبدأ القوميات • فاذا ما جاء القراء العرب يقرءون عن القومية قرءوا ما كتب تحت كلمة ناسيونالزم فقد وقعوا في خطأ كبير • ويقترح ساطع لمنع هذا

التشويش على ذهن القارىء ان تسمي النزعات والمذاهب التى تتصل بمبدأن القوميات بما (الناسيونا ليتارزم) على أن نترك كلمة ناسيو نالزم الى المعنى التى اعطتها اياها الأحزاب السياسية فى فرنسا وايطاليا ٠

أسس القومية عند ساطع :

أولا ــ اللغة :

يأخذ ساطع بوجهة النظر القائلة ان أس الاساس فى تكوين الأمة هو وحدة اللغة ، والمعروف ان أشهر من نادى بهذه النظرية المفكر الالمانى هردر Herder الذى عاش ما بين ١٧٤٢ ــ ١٨٠٣م ٠ قال هردر : ان اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذى تتشكل به وتحفظ فيه وتنتقل بواسطة أفكار الشعب ٠ وان قلب الشعب ينبض فى لغته ٠ ويقتبس ساطع فى ابحاثه أقوال هذا الفيلسوف الألمانى ويؤيدها ولا سيما قوله هل لشعب ماثروة أثمن من لغة اجداده ٠ فى تلك اللغة تكمن كل ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين وفيها ينبض كل قلب الشعب ويتحرك كل روحه ٠

كذلك يدرس ساطع آراء واقوال الفيلسوف الألمانى الشهير فيختة Fichte الذى أخذت دراساته اهتماما خاصا باللغة والمعروف ان فيختة أخذ يؤكد على عامل اللغة فى بناء القوميات خلال محاضراته فى جامعة برلين ، كما أخذ يؤكد للالمان تمسكهم بلغتهم كسبيل الى بعثهم أمة ناهضة تنبض فيها روح القوة والنشاط ٠

ويناقش الحصرى فى استفاضة بالغة دور المستعمرين ــ يقينا منهم بأهمية اللغة ــ فى احلال لغاتهم محل لغات البلاد المفتوحة ٠ وابرز مثال على ذلك دور الفرنسيين فى الجزائر حين احلوا اللغة الفرنسية محل اللغة العربية فى المعاملات والتعليم والثقافة ٠٠ فلقد

جاء في احد التعليمات التي صدرت في أوائل الاحتلال الفرنسي ما كتبه مسئول فرنسي : ان ايالة الجزائر لن تصبح حقيقة ممتلكة فرنسية الا عندما تصبح لغتنا هناك قومية : ثم يخلص ساطع الى القول .. لما كانت اللغة بمنزلة القلب والروح من الأمة فان الشعوب التي تتكلم لغة واحدة تكون ذا قلب واحد وروح مشتركة ، ولذلك تكون أمة واحدة ويجب عليها اذا ان تكون دولة واحدة .

وتلك هي القضية التي تبناها ساطع ولم يرض عنها بدلا . يرى ساطع ان اللغة هي أس الاساس في تكوين القوميات ثم هو يرد ردا مستندا الى دراسة علمية على المعارضين لهذا القول . فالمعارضون لساطع في اتخاذه اللغة أساسا للقومية يستندون في قولهم الى ان هناك دولا مثل سويسرة وبلجيكا جمعت بين أبنائها وحدة قومية على اختلاف لغاتهم ، وهناك دول انفصلت بعضها عن بعض على الرغم من وحدة لغاتها ، مثل دول أمريكا الشمالية والجنوبية . ونجد ساطع يناقش حالة كل دولة على حدة ، يتناولها بالدراسة التاريخية والارقام والبيانات والتي يخلص منها جميعا الى أن وجود مثل هذه الدول لا يتعارض مع القول بأن اللغة هي الاساس الاول في الكيان القومي .

ففي سويسرة يتكلم الاهالي اللغة الالمانية والفرنسية والايطالية ولم يحدث ان تجزأت الى دول عديدة حيث تكون كل من هذه الدول وحيدة اللغة والسبب في ذلك كما يوضحه ساطع أن خصائص سويسرة الجغرافية تجعل من المستحيل تجزئتها الى دول عديدة ، وأما اقتسامها بين الدول المجاورة فيصطدم بمشاكل دولية هائلة ، ويخل بالتوازن القائم بينهم اخلالا خطيرا .

وبناء على ذلك اتفقت كلمة الدول على ان بقاء سويسرة على حالها كدولة عازلة ومحايدة أوفق لمصلحة الجميع . وتوصل

السويسريون الى ايجاد نظـام حكم خاص بهم يضمن لجميع طوائف السكان التعايش والتآزر مع المحافظة على ما لكل منها من لغة وثقافة وخصائص تمام المحافظة ، فالاتحاد السويسرى يتألف من عدد من المقاطعات السويسرية (الكانتونات Cantons) حيث تتولى حكومة الاتحـــاد الشئون الخارجية والدفاع الوطنى وبعض الامور المتعلقة بالمواصلات التى تهم جميـع الكانتونات · ويترك للكانتونات ماعدا ذلك من شـــئون حيث أصبح لكل منها شعارها وعلمهـا الخاص ودســـتورها · وممـــا تجب ملاحظته ان تشـــكيلات الكانتونات السويسرية وتقسيماتها راعت مقتضيات اللغة الى أقصى حد فأغلبها وحيد اللغة · ويخلص ساطع من ذلك الى القول ان سويسرا دولة لا أمة ، دولة تضم عدة قوميات وأحوالها لا يمكن أن تتخـــذ ذريعة للتقليل من شأن اللغة فى حياة الامم والدول ·

فاذا ما انتقل ساطع من الحديث عن سويسرة الى بلجيكا ــ التى يتخذها المعارضون لعامل اللغة كأساس فى بنـاء القوميات ــ انها تتكون من شعبين مختلفين الفالونWallons ولفلامان Flamand يتكلم الاول الفرنســـية ويتكلم الثـــانى الجرمانية · ولم ينصهر الشعبان فى قومية واحدة وبرغم الحركات الاجتماعية التى قام بها الفلامان منذ سنة ١٨٤٠ وتذمر الفلامان من الاوضاع المجحفة بهم واحتجاجهم على سياسة تغليب اللغة الفرنسية على لغتهم ، وبرغم ثورة عام ١٨٤٨ مما اضطر الحـكومة الى تأليف لجنة لدرس مطالب الفـــلامان ، وتقديم الاقتراحات اللازمة بشأنها وحركات الاحتجاج والمطالبة التى ازدادت شدة بعد سنة ١٨٧٠ ، واضطرار الحـكومة الى الاعتراف بكثير من الحقوق للفلامان ، برغم هذا كله لم يحدث انصهـــار واندماج بين الشعبين الفالونى والفلمندى اللذين يتكون منهما سكان بلجيكا ·

أما الولايات المتحدة الامريكية والقول بان سكانها يكونون أمة

منفصلة عن انجلترة برغم ان لغة سكان البلدين واحدة فالرد عند ساطع هو الظروف التاريخية التى تكونت فيهـا الولايات المتـحدة الامريكية • فلقد بدأ نزوح المهاجرين الى الولايات المتحدة الامريكية من أوربا وفصل المحيـط الاطلسى بينهم وبين وطنهـم الأم ، وكان هذا المحيط فى وقت قدوم المهاجرين يسبب فاصلا شاسعا بسبب عدم تقدم وسائل المواصلات على النـحو الذى صارت عليه الآن • ولم تصبح اللغة الانجليزية اللغة البيتية عند جماعات كثيرة جدا من الامريكيين الا فى وقت حديث نسبيا •

وبعد أن يناقش ساطع تاريخ الحركة الاســتقلالية الامريكية ويبين احصاءات بالمهاجرين الذين قدموا الى الولايات المتحدة الامريكية قبل اعلان حرب الاستقلال ينتهى الى القول ان هؤلاء المهاجرين لم يتم انصهارهم وتمـــازجهم الا على مراحل طويلة وبصــورة تدريجية ، ويخلص الى القول ان سكان الولايات المتحدة الامريكية انحدروا من مختلف الاقطار الغربية وتكونوا تكونا خاصا خلال مدة قرن وثلاثة أرباع القرن ــ فى ظروف استثنائية لا مثيل لهـا فى سائر أنحاء العالم •

ومن ثم فليس من المعقول على حد قول ساطع أن تعتبر قضية انفصال الولايات المتحدة الامريكية عن المملكة البريطانية دليلا على عدم ارتباط القومية باللغة •

وما دامت اللغة لها هذه الاهمية عند ساطع على اعتبـار انها الاسـاس الاول الذى يسبق ما عداه من أسس فى تكون القوميات ، فلقد صار من المنتظر أن تحظى اللغة العربية باهتمام كبير وواسع من جانبه •

والمعروف ان ساطعا لم يكن من علماء اللغة كمـا قال هو عن نفسه ولا من رجال الادب ولكنه أعد الكثير من الابحاث حول اللغة

العربية على أساس انها العامل الاول والاساس الهام فى كيان القومية العربية • يقول ساطع « : اضطررت الى القيام ببعض الابحاث اللغوية والى اطالة التأمل فى قضاياها — تارة بنظرات تربوية وتعليمية ، وطورا بنظرات علمية واجتماعية وقومية ، وذلك بشتى المناسبات وفى مختلف الاوقات • وقد توصلت بذلك الى طائفة من الآراء والملاحظات نشرت بعضها فى بعض المجلات ، وتركت بعضها الآخر فى حالة مذكرات ومسودات » ، ثم جمع ساطع عددا من هذه الابحاث التى نشرت والتى لم تنشر فى كتابه الذى أسماه (آراء وأحاديث فى اللغة والادب) •

وينبرى للرد على القائلين بأن اللهجات الموجودة فى البلاد العربية دليل على واقع التجزئة بين هذه البلاد • يفند ساطع ذلك ويقول : أنا لا أسلم بوجود لهجة عراقية متجانسة مثلا عند حدود العراق ومختلفة عن لهجة الجيران والاخوان(١) •

ثم تشغله قضية الفصحى والعامية • حين تتحد الدول العربية هل سيتكلم الناس اللغة الفصحى وينبذون العامية • يشعر ساطع بصعوبة ذلك خصوصا وأن قواعد الفصحى فى حالتها الحاضرة معقدة كل التعقيد ، وصعبة أشد الصعوبة ، وبعيدة عن اللهجة الدارجة بعدا كثيرا • فالعرب اليوم بين لغة فصحى يتفاهم بها بعض الناس فى جميع البلاد العربية وبين لغات عامية عديدة يتفاهم بكل منها جميع الناس فى بعض المناطق المحدودة من بعض البلاد العربية• ووضع العرب اليوم على هذا النحو مخالف من وجهة نظره لمقتضيات الحياة القومية السليمة من وجوه عديدة :

فان كل أمة من الامم تحتاج الى لغة موحدة تزيدها تجاوبا وتماسكا فتكون بهذا الشكل لغة موحدة ، لان مهمة اللغة لا تنحصر

---

(١) العروبة بين دعاتها ومعارضيها : ساطع الحصرى ١٠٠

فى ضمان التفاهم بين المتخاطبين الذين يعيشون فى قرية واحدة أو مدينة واحدة ، ولا بين الذين ينتسبون الى اقليم واحد أو قطر واحد ، بل هى ضمان التفاهم ووسيلة المكاتبة والمخاطبة بين جميع أبناء الامة ومن ثم نفتقر نحن العرب اليوم الى (لغة) يتفاهم بها جميع الناس فى جميع الاقطار العربية •

ثم يناقش ساطع السبيل الى ذلك : هل هو نشر لغة من اللغات الدارجة أى لهجة من اللهجات العامية على جميع البلاد العربية ؟ ذلك أمر غير منطقى وغير عملى •

اذا لا مفر من السعى وراء نشر اللغة الفصحى بين جميع طبقات الشعب فى كل قطر من الاقطار العربية •

لكن قواعد اللغة العربية الفصحى فى حالتها الحاضرة وكما يراها ساطع معقدة كل التعقيد فيتساءل : ألا يمكن أن نختصر ونبسط اللغة الفصحى ونشذبها تشذيبا معقولا يكسبها شيئا من السهولة من غير أن يفقدها ميزتها التوحيدية • أفلا نستطيع أن نطعم اللغات الدارجة باللغة الفصحى تطعيما يبعدنا عن حذلقة علماء اللغة ورطانة عوام الناس فيوصلنا الى فصحى متوسطة ومعتدلة •

ويرى ساطع ان السبيل الى ذلك هو أن نبدأ بدراسة للمعاجم العربية • فهو ينظر الى هذه المعاجم على أساس انها تحتوى على كثير من الكلمات المهجورة التى لم يعد أحد يشعر بحاجة الى استعمالها ومقابل ذلك فهى خالية من عدد غير قليل من الكلمات التى استعملها ولا يزال يستعملها أشهر الادباء والعلماء فى أهم آثارهم العلمية والأدبية ، ومع ذلك يرى ان واجب علماء اللغة هو دراسة اللغات العامية واللهجات المحلية المنتشرة فى مختلف البلاد العربية • ما أنواعها ؟ وما هى خصائص كل نوع منها من حيث الكلمات والالفاظ والتعابير ؟ وما هى حدود انتشار كل واحدة من تلك

الكلمات والاساليب والتعابير ؟ وما أسباب اختلاف هذه اللهجات عن الفصحى من ناحية وبعضها عن بعض من ناحية أخرى ؟ لا يوجد بين الكلمات الدارجة فى بعض البلاد ما ينطبق على قواعد الفصاحة كل الانطباق ٠

وفضلا عن ذلك يطالب ساطع علماء اللغة أن يتتبعوا التطورات التاريخية لها ٠ فمن المعلوم ان اللغة كائن حى ، يتطور على الدوام بتطور المجتمع وينمو تبعا لنمو الافكار وتنوع الحاجات ٠ فان نظرة فاحصة سريعة الى ما طرأ من تحولات على اللغة العربية فى مختلف البلاد خلال جيل واحد تقريبا ، منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى — يكفى للتأكد على ان اللغة تتطور ٠ فلقد حدثت تطورات كثيرة فى لغة الدواوين ، لغة الصحف وفى لغة التخاطب ٠ ويخلص من ذلك الى انه لا ينبغى أن تبقى الأبحاث اللغوية محصورة بين صحـــائف الكتب والمعـــاجم المعلومة بل يجب أن تخرج الى ميـــادين الحياة الاجتماعية تدرس وتسجل ما يشاهد وما يلاحظ فى تلك الميـــادين بصورة فعلية ٠ وكان علماء اللغة القدماء على حد قوله يتجولون بين القبائل يدونون ما يسمعونه وما يلاحظونه ، فلا ينبغى لعلماء اليوم أن يتقاعسوا عن العمل فى هـــذا الســـبيل بحجة الاكتفاء باللغة الفصحى فعلينا أن نعلم علم اليقين انتغيير الاشياء وتحسينها يتوقف على معرفة خصائصها ومراعاة نواميســـها ٠ فاذا ما انتهت هـــذه الدراسة النظرية للمعاجم والعملية للحياة الاجتماعية لا بد أن يبدأ على الفور وضع معاجم جديدة مختلفة عن المعاجم القديمة والحالية ٠

ويلاحظ ساطع على المعاجم الحـــالية كثيرا من أوجه النقص ، ومثال ذلك أنها ما زالت تضـــع للاشتقاق الوضع الاول من الاعتبار فتهتم بانساب الكلمات قبل كل شيء وفوق كل شيء فلا تقترن بشيء من حق الاستقلال للكلمات المشتقة ٠ ويورد الامثلة لكثير من الكلمات التى ليس لها كيانها المستقل فى معاجمنا حتى الآن ٠ مثـــال ذلك

كلمة الاستقلال ما زالت المعاجم تعتبرها تابعة لكلمة (قل) . ويتعجب ساطع كيف ان كلمة كهذه لها تأثيرها الكبير فى النفوس وتتكرر مئات المرات فى القصائد الوطنية والأناشيد المدرسية وفى الصحف والاذاعات ليس لها كيان فى قواميسنا ؟ وعلى كل من يريد التعرف اليها فى القاموس أن يطرق باب (قل) . وهناك مئات من الكلمات غيرها مثل كلمة الاقتصاد ، المدرسة ، الاستراحة ، الاستئناف .

يقول ساطع : « أنا لا أدرى بماذا انعت معاجمنا لاتباعها هذه الخطط العوجاء وسكوت علمائنا عن هذه النقائص الفادحة . غير اننى أميل الى تعليل هذا الاستمرار وذلك السكوت بتأثير عاملين أساسيين :

أولا : عمل قانون الالفة الذى يجعل الانسان لا يشعر بأكره الروائح ولا ينتبه الى أفدح النقائص عندما يألفها ألفة طويلة ولاسيما عندما تكون ألفته هذه اجتماعية .

ثانيا : عمل روح المحافظة على القديم والحرص على بقائه على قدمه .

اننى أعتقد ان الخروج على هذه النزعات والعادات بوضع معاجم عصرية بالمعنى المشروح آنفا ـ أصبح من أهم الواجبات التى تجب على رجال العلم والتعليم ، ومحافل اللغة والادب ووزارات التربية والمعارف ـ فى جميع البلاد العربية »

أما الخطة التى ينبغى السير عليها لوضع هذه المعاجم فهى كما يراها :

أولا : وضع معجم مختصر يحتوى على الكلمات التى يستعملها الناس ، ويحتاج اليها طلاب المدارس الابتدائية ، ترتب فيه الكلمات حسب نظام حروفها الهجائية ، ويكتب ازاء كل واحدة منها معناها

الاصطلاحي ، كمـا يشار الى مادتها الاصلية ، والى كيفية اشتقاقها من تلك المادة ٠

ثانيا : تبذل الجهود لتنظيم معجم أكثر تفصيلا من ذلك يكون مرجعا لطلاب المدارس الثانوية والعالمية ، ورجال الطبقة المثقفة بوجه عام على أن يرجع الى المجلات العلمية والادبية عند تعيين كلماته ٠

ثالثا وأخيرا : يجب السعي لوضع معجم مفصل عـام يتضمن جميع الكلمات المستعملة فى الكتب القديمة والحـديثة على اختلاف أنواعها وتواريخها ٠ وأما المعاجم القديمة فتبقى كمراجع أساسية يرجع اليها العلماء والاختصاصيون ٠

وتمنى ساطع أن تظهر هذه المعاجم على وجه السرعة ٠ كتب فى سنة ١٩٥٧ يقول : « أنا لا أدرى كم يكون طول المدة التى ستمضى بين كتابة هذه الاسطر وبين ظهور هذه المعاجم ٠ لا أدرى ماذا يكون مبلغ نوع المساهمة التي يؤديها كل من الكتاب والناشرين والهيئات العلمية والدوائر الرسمية فى تحقيق هذا المشروع عن طريق العمل المباشر أو التشجيع أو المساعدة ٠٠ ومع هذا أتمنى من كل قلبى أن تتضافر جهود الافراد والهيئات والحكومات فى هذا السبيل بكل الوسائل المكنة لكى تقر أعيننا بمعاجم عصرية من هذا القبيل ٠٠ قبل أن يمضى وقت طويل » ٠

لقد كان ساطع فى دعوته الى القومية العربية يرى ان أقـوى رباط وأمتنه بين أبناء الامة العربية هى لغتهم ٠ وكان حريصا ان يظل هذا الرباط قويا متينا لكنه يرى اللهجات المحلية واللغـات العامية تهدد هذا الرباط اذا لم يتحرك علماء اللغة لعمل شيء من شأنه وقف هذا الخطر ٠ ومن ثم أخذ يطالبهم المرة تلو المرة بذلك٠ والعجيب ان ساطعا الذى ذكر فى مقدمة كتابه (آراء وأحاديث فى اللغة والادب) أنه ليس باللغوى ولا بالأديب قد خرج علينا بأبحاث

قيمة فى اللغة والادب معا فى هذا الكتاب اعترف وما زال يعترف بفضلها رجال اللغة والادب • فهو يبحث فى الادب العربى ونظرية الاقليمية فيه وينكر هذه الاقليمية فى الأدب العربى ، وان لم ينف التنوع فى هذا الادب ، كذلك يدرس اللغة اللاتينية دراسة مقارنة باللغة العربية ، ويرد على القائلين أن حالة العربية الفصحى الآن لا تختلف عن حالة اللاتينية الكلاسيكية قديما ومصيرها سيكون شبيها بمصير اللغة المذكورة حتما • ويفند قول القائلين أنه ما دامت اللاتينية الأصلية ماتت واندثرت بعد أن كانت لغة العلم والادب فى معظم بلاد الغرب فلا بد أن يحدث ذلك للغة العربية ، وأنه من الخير أن تتوحد الجهود لجعل العامية لغة الكتابة والعلم والادب • يعقد ساطع المقارنة التاريخية بين العربية واللاتينية •

وبعد بحثه الموسع فى هذه الناحية يجمل الفوارق العظيمة التى ميزت تاريخ اللغة العربية عن تاريخ اللغات اللاتينية ويرجع هذه الفوارق الى عدة عوامل منها ان اللغة العربية لم تتعرض الى هجمات وغزوات لغات جديدة كما تعرضت اليها اللغات الرومانية(١) (وهو المصطلح الذى اتفق عليه الباحثون لتسمية اللغات واللهجات التى نجمت عن اختلاط اللاتينية بلغات البلاد التى فتحتها الامبراطورية

---

(١) يستدرك ساطع ذلك ويخشى ان يرد عليه معترض على هذا القول وعلى ماتبرره من ان البلاد العربية لم تبتل بتفتت سياسى فيفسر ذلك تفسيرا تفصيليا فى كتابه آراء وأحاديث فى اللغة والادب ان اللغة العربية قد تعرضت لغزوات لكنها لم تكن بالدرجة ولابالعنف الذى تعرضت له اللغات الرومانية من جراء استيلاء القبائل الجرمانية على البلاد التى كانت فيها اللغات الرومانية . كذلك ابتليت البلاد العربية بتفتت وانقسام لكن هذا التفتت لم يصل الى درجة التفتت التام الذى حدث فى العالم الغربى حيث أصبحت كل مدينة وكل مقاطعة مستقلة ومنطوية على نفسها (ارجع الى صفحات ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ من كتابه آراء وأحاديث فى اللغة والادب) .

الرومانية) كذلك يرى ساطع ان البلاد العربية لم تبتل بتفتت ساسى واداري واقتصادى مثل الذى ابتليت به البلاد الرومانية فى عصور الاقطاع الطويل · وأهم من هذا كله ان الديانة الاسلامية حفظت اللغة العربية من الاندثار ولم تتخل عنها للهجة من اللهجات ·

ويبدو أن ساطعا أراد أن يضرب المثل لعلماء اللغة على أن فى الامكان عمل شيء كثير مما نادى به ، فهو يسافر الى تونس ويدرس اللهجة التونسية ، ويقارن بينها وبين اللهجة المصرية ومن المعروف أنه سافر الى تونس لدراسة الآثار المتعلقة بابن خلدون كما سبق لنا ذكر ذلك ، لكنه يريد أن ينهز فرصة وجوده فيها نيدرس لهجة البلاد ، ويكتب عنها بحثا تحت عنوان (قطوف لغوية فى تونس ١٩٥٠) سرد فيه ملاحظات حول الأمور اللغوية فى تونس ، ويأتى بنماذج من البيانات والاخبار التى تنشر فى الجريدة الرسمية والصحف اليومية بهدف اعطائنا فكرة واضحة عن الاسلوب الرسمى السائد فى تونس ·

ومن قبل زيارته تونس بسنوات زار ساطع الاندلس سنة ١٩٢٦ وحرص على أن يدخلها من الجنوب من جبل طارق والجزيرة الخضراء متصورا نفسه مرافقا للجيوش العربية ، وهى تتقدم فى غزوها لهذا البلد العريق · ويسعد كل السعادةوهو يلاحظ الاسبانيين ينطقون كثيرا من الكلمات العربية فى كلامهم ، ويبحث فى عدد الكلمات العربية الباقية فى اللغة الاسبانية ويستفسر من أحد مستشرقى الأسبان عن ذلك ويرجع الى القواميس الاسبانية التى تذكر نحو خمسة آلاف كلمة ، وأما الكلمات العربية الاصل الدارجة بين الناس فلا تقل عن الألف ·

كذلك يدرس ساطع أسماء الشهور فى البلاد العربية ويشرح سر اختلافها · هذا كله الى جانب دراسته للنحت فى اللغة العربية والمصطلحات العلمية فى هذه اللغة ·

ونجده يقول : نحن نعتقد أن التوسع فى النحت أصبح من أهم حاجات اللغة العربية ونظن أيضا أنه لا سبيل بدون ذلك الى اغنائها بما تحتاج اليه من الاصطلاحات العلمية • المتنوعة الجديدة • اننا لا نقصد من (النحت) تركيب الكلمات العربية من بعض الجذور الأعجمية — كما يقترحه بعض الكتاب — بل نقصد (النحت الاصولى) الذى آدخل فى اللغة العربية عددا غير قليل من الكلمات والتعبيرات المختزلة مثل بسملة ، حبرمة •• تلك الكلمات والتعبيرات المختصرة التى تفتقر العلوم الحديثة الى أمثالها افتقارا شديدا •

ثم هو يدرس مشكلة كتابة الاعلام الاجنبية بالحروف العربية ويرى أنها تتطلب مزيدا من الاهتمام والعناية ، ذلك أنه اذا جاز لنا ان نتصرف فى الكلمات التى نقتبسها من اللغات الاخرى كما يحلو لنا • فنفرغها فى قالب عربى ، ونلفظها كما نلفظ سائر الكلمات العربية ، الا أنه لا يجوز لنا أن نتصرف فى الاعلام مثل هذا التصرف ، فلا بد من ان نلفظ أسماء الاشخاص والمدن والانهار والجبال •• كما يلفظها أصحابها دون تحريف ، ثم يتساءل ما هى السبيل أن نجعل القارىء العربى يلفظها من غير تحريف أو تغيير ؟ ويرى أن ذلك ينبغى أن يكون مثار اهتمام الباحثين يدرسونها ويعالجونها بعناية بالغة • وفى مجال كتابة هذه الاعلام يرى ساطع أنه من المستحسن المفيد جدا ان تكتب باللغة اللاتينية بجانب كتابتها بالحروف العربية فى جميع الكتب التى تفوق مستوى الدراسة الابتدائية وفى جميع المطبوعات الى تخاطب المثقفين الذين يعرفون الحروف اللاتينية وذلك لضمان لفظ تلك الأعلام وفق ما يلفظها أصحابها •

وما أظن أن أحدا ينكر على ساطع فضله الكبير واهتمامه الواسع باللغة العربية فلقد رأينا عندما درسنا دوره فى مجال التربية والتعليم مدى حرصه على أن ينال تدريس اللغة العربية الحظ

الاوفى والقسط الأكبر بين المواد الدراسية خاصة فى المراحل الاولى من التعليم ورأيناه يجاهد فى سبيل عدم تعليم الطفل فى البلاد العربية لغتين فى وقت واحد حرصا منه على أن يتفرغ اهتمامه الى لغته القومية ، ثم مررنا مرورا سريعا على أبحاثه فى اللغة والادب كما سنرى عند حديثنا عن الثقافة العربية ودوره فيها مدى ما أداه ساطع من خدمة للغة العربية . ومرجع ذلك الاهتمام كما سبق القول انها عنده الرباط الاساسى بين أبناء الامة العربية ، وان هناك من يبذل الجهد فى سبيل أن يكون هذا الرباط واهنا ضعيفا حتى لا يلتئم الشمل وتتم الوحدة العربية المنشودة .

ومن هنا كانت اللغة العربية عند ساطع ـ وهى اللغة القومية للعرب ـ لها كل الاهتمام وفائق العناية ، خاصة وأن لغتنا العربية من وجهة نظره تجتاز طور انتقال وانقلاب بعد عهد ركود وجمود ، فلا يجد ابن اللغة العربية أمورها مهيأة له ، وسبل التعبير معبدة أمامه ، فيضطر الى تولى بعض الابحاث اللغوية بنفسه ، والى التفكير فى الكلمات والتعابير التى يحتاج اليها فى أبحاثه وكتاباته ، ومن ثم كانت اللغة العربية وهى فى حالتها الحاضرة بحاجة الى اهتمام جميع المفكرين والباحثين واللغويين منهم وغير اللغويين .

ثانيا ـ التاريخ :

أما الأساس الثانى فى تكوين الامة وبناء القومية عند ساطع الحصرى فهو وحدة التاريخ بعد وحدة اللغة .. فهو يرى أن الوحدة فى التاريخ واللغة هى التى تؤدى الى وحدة المشاعر والمنازع ، ووحدة الآلام والآمال ، ووحدة الثقافة .. وبكل ذلك يشعر الناس أنهم أبناء أمة واحدة ، متميزة عن الأمم الأخرى .. اللغة عنده تكون روح الأمة وحياتها والتاريخ يكون ذاكرة الامة وشعورها .

واذا كانت اللغة عند الحصرى هى الروح والحياة ، فان التاريخ

هو الوعي والشعور · ويرى أن الأمة التي تحافظ على لغتها وتنسى تاريخها هي بمثابة فرد فاقد الشعور ، بمثابة فرد غاط في نوه ، مريض في حالة اغماء · ان اهمال التاريخ القومي عند ساطع بمثابة الاستسلام للذهول · ونجده يكتب في العدد الثالث من مجـــلة العربي الصـــادر في فبراير عام ١٩٥٩ ، ان الوقائع والانقلابات السياسية التي توالت منذ قرن وصف قرن والأبحاث الاجتماعية التي تناولت تلك الوقائع والانقلابات طول هذه لمدة ، دلت دلالة دلالة ناطقةعلى أن العناصر الاساسية فيتكوين القومية هي وحدة اللغة ووحدة التاريخ وما ينتج عن ذلك من مشاركة في المشاعر والمنازع وفي الآلام والأمال ولا شك في ان جميع الناطقين بالضاد ، جميع أبناء البلاد العربية تتوفر فيهم هذه العناصر والمقومات الأساسية ولذلك فهم يكونون أمة واحدة · وأما الدول والدويلات ، والامارات والمشيخات العديدة التي انقسمت اليهـا البلاد المذكورة ، والحدود التي فصلت بين هذه الأقسام المختلفة ، فليست الا عوارض طارئة، نتجت عن مصالح السياسة الاستعمارية ، فلا بد من أن تتهدم وتتلاشى أمام تيار العروبة الجارف · ومن دواعي الغبطة والابتهاج أن هذه الحقائق الهامة صارت تنتشر خلال السنوات الاخيرة ، بسرعة كبيرة ، في مختلف الاقطار العربية ، وأخذت تتغلغل في نفوس مختلف طبقات شعوبها ، وتتحول الى الايمان بوحدة الامة العربية، على الرغم من تعـدد دولها · « فيحق لنا أن نبتهج أشد الابتهـاج بتطور فكرة القومية العربية بهذه الصورة ، الى عقيدة سياســية واجتماعية تترسخ في النفوس ، وتتغلب فيها على النزعات الاقليمية الناجمة عن الظروف السياسية الماضية » ·

كذلك نجد ساطع يفند قول القائلين المشككين في الفكرة القومية سواء منهم من استخف بالفكرة ذاتها أو حاول زعزعة الأسس التي

تقــوم عليهــا أو طالب بتغيير اتجاهاتها • فهو يناقشهم على ضوء الحقائق التاريخية والاجتماعية •• فاذا كان هنــاك من يقول ان البشرية قد اجتازت مرحلة التنظيم القومى ، ووصلت الى مرحــلة (التكتل الأممي) واذا كان هناك من الكتاب العرب من يقــول انه لا يليق بنا ونحن نعيش في القرن العشرين ان نواصل السير وراء الفكرة القومية ، فكل هذا القول فى غير مصلحة الأمة العربية على الاطلاق •

وكان الرد عند ســاطع على أقوال هؤلاء ان الامم الأوربية اذا كانت حقا قد وصلت الى مرحلة التكتل الاممى ، انما وصلتهــا كل واحدة منها فى حالة (دولة قومية مستقلة وموحدة) ولم تتخل عن شخصيتها المتميزة لغيرها فى أوضاعها الجديدة • فيجب على العرب كذلك أن يحققوا وحدتهم القومية لكى يستطيعوا المحــافظة على شخصيتهم فى التكتلات الامية التى يتكلم عنها هؤلاء الكتاب•

ويشبه ساطع قول القائلين بأن عصر القوميات قد انتهى نظرا لانتهائه فى أوربا ــ بقول من يذهب الى أن موسم الامطار قد انتهى من العالم ــ نظرا لانتهائه فى بعض الاقطار من الكرة الأرضية أو بقول من يظن ان الموسم الذى تنضــج فيه الأثمار قد فات نظرا لانتهاء نضوج الأثمار فى بعض الأشجار ، ويشبه ساطع الشعوب بالأشجار التى لا تثمر كلها فى وقت واحد بعضها يتقدم عن بعض كذلك فان اليقظة القومية ليست من الامور التى تحدث وتتحقق فى عصر معين أو موسم محدد •

ثم هو يناقش من يعارض وحدة التاريخ كأساس للقومية على أساس انه من النظريات البالية وان الأساس الحقيقى للقومية بوجه عام وللقومية العربية بوجه خاص وحدة الصراع أو كما يعبر عنه البعض (هو الحاجة الى توحيد العمل للتغلب على العدو المشــترك الرابض أمام الجميع) •

لا ينكر ساطع أن الوحدة في الصراع في سبيل القضاء على العدو المشترك مما يزيد شعوب الامة وأفرادها تماسكا على تماسكها، ولكن ذلك لا يمكن أن يعتبر أساسا لتكوين القومية بوجه من الوجوه فالصراع ضد العدو المشترك قد يجمع دولا وقوميات مختلفة مع بعضها مثل حركة الكفاح ضد المانيا النازية عندما استلزم اتفاق انجلترة والاتحاد السوفيتي وغيره من الامم والدول ثم ما ان انتهى خطر العدو حتى انتهى التحالف الذى كان قد تولد من وحدة الصراع • ولا يمكن من وجهة نظر ساطع ان يكون الاساس فى تكوين القومية قائما على مواجهة خطر فحسب ، فاذا ما انتهى الخطر تفككت أوصال الامة • لا بد للأمة من روابط أقوى وأمتن باقية أبد الدهر •

يقول ساطع ، وغنى عن البيان أن الوحدة التى تهدف اليها فكرة القومية العربية ، الوحدة التى تنجم عن وحدة اللغة ووحدة التاريخ ، وما ينتج عن ذلك من وحدة المشاعر والمنازع ووحدة الآلام والآمال ، لا يمكن أن تتعرض الى مثل هذه التقلبات ، بل تكون (وحدة طبيعية تستمر مدى الحياة) لأنها تكون فى حقيقة الامر — مظهرا من مظاهر حياة الأمة نفسها •

وليس معنى ذلك أن ساطعا ينكر دور وحدة الصراع وأهميته فى ميدان السياسة العربية لكن الوحدة العربية التى دعا اليها وكان يتوق الى أن يراها قائمة لا تهدف الى توحيد العرب لغاية معينة هى مواجهة خطر صراع قائم فحسب ، وانما وحدة فى جميع الأعمال والمساعى وبتعبير آخر على حد قوله (توحيد الحياة القومية) بكل ما فى هذه الكلمة من معان سامية •

ولما كان ساطع يؤمن على هذا النحو أن وحدة التاريخ هى أحد الاسس الهامة فى التكوين القومى ، فقد عاش طول عمره يدعو العرب الى أن يعرفوا تاريخهم ، وأن يدرسوه ويكتبوه ويعلموه لأطفالهم •

لكن ساطعا يفرق بين تدوين التـاريخ وتدريسه ، عنده أن تدوين التاريخ ينبغى أن يلتزم الانسان فيه معرفة الحقيقة واظهارها بنظرة علمية • وكتب أكثر من مرة يطالب بما أسماه (التـــاريخ القومى) فهو يرى ان كتابة التاريخ العربى ينبغى أن تراعى فيه الدقة العلمية والاعتبارات القومية فى وقت واحد • ولقد تعرض ساطع بسبب ذلك الى هجوم من جانب كثير من أساتذة التـــاريخ والمشتغلين به ظنا منهم لأن فى دعوته الى كتابة التاريخ القومى دعوة الى تحريف أحداث التاريخ أو أخباره • « لكن ذلك لم يدر بخلدى فى وقت من الأوقات ، فضلا عن أنى أعتقد تمام الاعتقاد بأن تاريخنا القومى زاخر بالمفاخر والامجاد الى درجة تغنينا ليس عن الاختلاف فحسب بل حتى عن المغالاة أيضا ، ولا أشك فى أن كل ما يعوزنا فى هذا المضمار ، هو حسن الاختيار واتقان العرض »

أما الذى حمل ساطع على طلب كتابة التاريخ بنظرة علميـة وقومية فى وقت واحد كانت ملاحظاته ان معظم المؤلفات العريقة المتعلقة بالتاريخ العربى بعيدة عن مراعاة مقتضيات البحث العلمى فى سرد الاخبار وتعليلها بقدر ما هى بعيدة عن مراعاة مقتضيات التربية القومية فى انتخاب الأبحاث وابرازها بصورة تساعد على تقوية الروح الوطنية مع التوسع والتعمق فيها اكثر من غيرها • ويرجع ساطع السر فى ذلك الى اعتماد المؤلفات التاريخية باللغة العربية فى التاريخ العربى على المصادر الاجنبية ، دون أن يلاحظ الباحثون العرب شدة اختلاف مصالح الكتاب الغربيين عن المصلحة العربية •• ويرى أن كثيرا من الكتاب العرب الذين يكتبون المؤلفات التاريخية فى تاريخ العرب زاعمين انهم يكتبون بروح علمية مبرزين بذلك عدم التفاهم الى النواحى القومية ، انما ينقلون دون أن يشعروا نتاج النظرات القوميـــة الخاصـــة بالكثيرين من المؤلفين والمؤرخين الغربيين •

ثم نرى ساطع ينقد كثيرا من الكتابات التاريخية لأساتذة عرب ويناقش ما جاء فيها من حقائق مثل كتاب (مؤتمر لوزان وآثاره في البلاد العربية للدكتور فاضل حسين والذى صدر عن معهد الدراسات العربية العالية . وقد ناقش ساطع الحقائق التى أوردها المؤلف المذكور واثبت كثيرا من الأخطاء بشأنها فضلا عن تقصيره فى الناحية القومية(١) . وهو لا يكتفى بمناقشة هذا الكتاب فحسب وانما يناقش الى جانبه عددا من الابحاث التاريخية لمؤلفين عرب ويقول انه اتخذها كمثال لتأييد وجهة نظره .

أما تدريس التاريخ بالنسبة لطلبة المدارس فينبغى أن نستهدف منه على حد قول ساطع تقوية الروح الوطنية والوعى القومى فى نفوس الطلاب . نرى ساطع يؤكد ذلك ويكرره ويطبقه فى المناهج التعليمية التى وضعها فى العراق وفى سورية . فيصدر وهو فى العراق العديد من القواعد التى يطالب المدرسين باتباعها فى تدريسهم لمادة التاريخ منها :

١ ـ تجنب ذكر الوقائع وأسماء وتواريخ كثيرة وتجنب جعل الدروس مجموعة لأسماء وأرقام مسلسلة .

٢ ـ العناية بالمقارنة بين الأحوال الحاضرة والماضية .

٣ ـ الاهتمام بتصوير الوقائع والاحوال على نحو يؤثر على مخيلة التلاميذ وجعلهم يتخيلونها كأنهم يرونها .

٤ ـ يجب الاعتناء فى انتخاب الوقائع التى تؤثر على شعور التلاميذ وتحرك عواطفهم وتبعث فيهم الهمة .

٥ ـ يجب استعمال الخرائط دائما وبيان حدود الممالك ومواقع المدن ومحلات الحروب .

---

(١) ارجع الى كتاب ساطع : حول القومية العربية صفحات ٢١٢ ـ ٢٢٤ .

٦ ـ يجب زيارة الأبنية التاريخية والاطلال القديمة ٠

٧ ـ لفت أنظار التلاميذ الى أسباب الوقائع المهمة ونتائجها لا سيما أسباب انقراض الدول العربية ونتائج الاختلافات الداخلية ٠

ويضح فى مستهل التوجيهات التعليمية ان الغرض الاصلى من تدريس التاريخ فى المدارس على اختلاف مراحلها بما فى ذلك المرحلة الثانوية هو تقوية الشعور الوطنى والقومى فى أفئدة التلاميذ ٠

يرى ساطع ان تعليم التاريخ بصورة علمية بحتة ، وبنظرة موضوعية ذاتية مطلقة مجردة من جميع أنواع التأثيرات الذاتية والقومية ، اذا كان ممكنا فى المدارس العالية ، فهو متعسر جدا فى المدارس الثانوية ، ومتعذر مطلقا فى المدارس الابتدائية ، فهو يرى أن المعلم لا يستطيع أن يدرس الا جزءا صغيرا من التاريخ ولايستطيع أن يتوسع الا فى قسم قليل من الوقائع ، فيضطر لذلك الى انتخاب قسم من الوقائع والابحاث ، وبديهى ان الانتخاب يتضمن بطبيعته التأثير الذاتى والترتيب القصدى ٠٠ وما دام الانتخاب ضروريا ، فمن الطبيعى ان يأخذ الاتجاه الذى تقتضيه التربية الوطنية والقومية ، ولا سيما أنه لا يوجد بين أيدى المعلمين واسطة تربوية أثمن وانجع من دروس التاريخ ، لانماء العواطف الوطنية والقومية وتربيتها ٠

ولهذه الملاحظات السابقة أهميتها الكبيرة عنده خصوصا بالنسبة الى تاريخ الامة العربية فهو يلاحظ أن بعض هذه الكتب المدرسة فى التاريخ كتبت مادتها متأثرة بنزعة دينية أكثر منها قومية ، أو مستوحاة من كتابات غربية ٠ فيترتب علينا نحن العرب من وجهة نظره أن نعيد النظر فى تاريخنا بنزعة تربوية قومية ٠

وينبغى هنا انصافا للحقيقة والتاريخ أن نقرر أن ساطعا الحصرى فى تناوله لبعض الاحداث التاريخية قد جانبه الصواب ،وأنه تناول الحقائق التاريخية فى بعض الأحيان تناول الباحث الذى بعدت

به حماسته لقوميته عن ان ينظر نظرة موضوعية حيادية • فهو فى تناوله لاحداث الحملة الفرنسية فى كتابه (آراء وأحاديث فى التاريخ والاجتماع) يقول : (اننى لم أصادف بين جميع الدلائل والبراهين التى قرأتها فى الكتب المختلفة أى برهان معقول يؤيد بصورة منطقية الرأى القائل بأن الحملة الفرنسية كانت من العوامل الفعالة فى النهضة المصرية • واطلاق القول على عواهنه على هذا النحو شىء غير صحيح وغير دقيق •• هناك من قال ان الحملة الفرنسية حررت المصريين من المظالم ، وهناك من قال ان الفرنسيين حين جاءوا الى مصر حرروا المرأة من الظلم واستدلوا على ذلك بقول الجبرتى انه كانت لهم (للفرنسيين) رغبة فى مطلق الانثى • وهذا فهم خاطىء لعبارة الجبرتى بالطبع • كذلك نجد من قال ان الفرنسيين فى مصر هم أول من أدخلوا النظام الدستورى الحديث فأنشأوا ما يشبه البرلمان (الديوان) • وهذه الاقوال التى أعطيت لنتائج الحملة فى مصر خاطئة شأنها شأن من يغمط دور الحملة فى مصر وهو ما قال به ساطع •

اننا لا يمكن ان ننكر ان الحملة الفرنسية كان لها دورها فى مصر ، وأنها أثرت على المصريين الذين اتصلوا بها (١) لكن تأثير الحملة كان محدودا لأنه لم تكن هناك أرض مشتركة بين المصريين

---

(١) ناقش هذه المسألة وألقى عنها بحثا الاستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم مدير جامعة عين شمس «سابقا» فى الندوة الدولية لألفية القاهرة بتاريخ أول ابريل عام ١٩٦٩ ••

والفرنسيين حتى يكون هناك تأثير فى المصريين • لكننا لا يمكن أن ننكر دور الحملة على حركة التجديد التى شهدها المجتمع المصرى على عصر محمد على •

وليس المجال هنا ليسمح بمناقشة تفصيلية لذلك• لكننا ينبغى ان نقر ان الحملة الفرنسية على مصر برغم فشل السياسة التى رسمها بونابرت ومن تولى أمر الحملة من بعده فى كسب ود المصريين لأسباب لا داعى لسردها هنا ، فان الثابت يقينا ان هذه الحملة برغم الفشل الذى منيت به والثورات التى واجهها بها الشعب المصرى كان لها بعض الأثر فى تلك النهضة المصرية الحديثة ولا نقول : انها كانت الأساس الوحيد للنهضة المصرية الحديثة ، وانما كانت برغم ازدرائها للتقاليد وامتهانها لعادات المصريين قد ربطت الى حد كبير بين الشرق والغرب ، وربطت بين مصر وبين التيارات السياسية العالمية •

موقف ساطع من بعض الآراء والنظريات الخاصة بالقومية :

١ ــ القومية والمشيئة :

يناقش ساطع رأى القائلين بأن أهم عوامل القومية هى المشيئة وكان مبعث هذه النظرية الخلاف الذى ثار بين فرنسا والمانيا بشأن مشكلة الالزاس • كانت الالزاس مقاطعة ألمانية حتى أواسط القرن السابع عشر ، ثم استولت فرنسا عليها فى عهد لويس الرابع عشر وضمتها الى بلادها بموجب معاهدة وستغاليا • ومع هذا كان أهالى الالزاس يتكلمون الألمانية ، ويحتفظون بالكثير من تقاليدهم الخاصة•

ازاء ذلك انبرى جماعة من الفرنسيين يقولون ان القوميــة لا تتبع اللغة وان هناك ما هو أهم منها ، وهى مشيئة السكان ، أو رغبتهم فى الاندماج مع بعضهم وتكوين أمة •

يفند ساطع هذا القول على أساس أنه لا يمكن ان تكون بعض

الأسس المعرضة للتغيير والتحويل كالمشـــيئة ضمن تكوين الامة ويستعين فى ذلك بأقوال المفكرين الذين نادوا بنظرية المشيئة ، وعلى رأسهم ارنست رينان ·· لقد شعر رينان بضعف نظريته حيث قال: قد تقولون ان المشيئة كثيرا ما تكون قليلة التنور وعرضـــــة الى التغير ، ولكن رينان حاول أن يرد على هذا الاعتراض بقوله ، أن كل شيء فى الكون يتغير وهو بالطبع رد ضعيف واه ·· يقول ساطع صحيح ان كل شيء فى هذا الكون يتغير ، ولكن المنطق العلمى يقتضى عند محاولة تعريف وتحديد شيء من الأشياء ، البحث عن الأثبت والأدوم، والأعم من صفات ذلك الشيء، وينتهى الى القول ان تعريف الامة بالاستناد الى عامل المشيئة يخالف مقتضيات البحث العلمى مخالفة تامة · ويرى أن المشيئة المشتركة ليست من عوامل القومية بل هى من نتائجها لأن الافراد يشاءون أن يعيشوا معا عندمـــا ينتسبون الى أمة واحدة · ثم يورد ساطع الامثلة التى تؤيد قوله ومنها الحروب التى قامت بين الولايات الجنوبية فى الولايات المتحدة الامريكية ، والولايات الشمالية خلال القرن الماضى ، ولكن مشيئة الانفصال تلاشت عند الجنوبيين ، لأنها لم تكن تستند الى أســـس ودوافع قومية ·

٢ ـ القومية والحياة الاقتصادية :

لا يؤمن ساطع كذلك بأن لوحدة المصالح الاقتصادية أثر فى تكوين الأمة لأنه يرى أن المنفعة والمال والاقتصاد ليست كل شيء في حياة الانسان ، ويرى أن الاحاسيس الوطنية والقومية لا ترتبط بالمنافع والمصالح الاقتصادية .. ودخل ساطع بسبب هذه المسألة فى خلاف مع القائلين بأن وحدة الحيـــاة الاقتصـــادية من جملة المقومات الأساسية للأمة واعطائها قيمة وقوة تعادل قيمة وحدة اللغة وقوتها فى تكوين الأمة .. ويتساءل ساطع هل كان الطليان .

مثـــلا محرومين من كونهم أمة قبل اتمام وحدتهم لانهم كانوا محرومين اذ ذاك من الحياة الاقتصادية المشتركة ؟ أو أن أهالى منطقة السـار اضاعوا انتســـابهم الى الأمة الألمانية عندما احتل الفرنسيون بلادهم وادخلوها فى نظامهم الاقتصـادى الخاص لانهم فقدوا بذلك (الحياة الاقتصادية المشتركة) التى كانت تربطهم بسائر البلاد الألمانية .

وساطع لا ينكر دور الاقتصاد الهام للغاية فى حياة الامم لكن دور هذا الاقتصـــاد عنده ليس له تأثير فى تكوين الأمة . فالاقتصاديات كما يقول ساطع تقوى الأمة بل توصلها الى ذروة القوة ولكنها لا تخلقها .

كذلك ينكر قول القـــائلين ان القوميـــة وليـــدة العهـود الراسمالية . فلقد أكد ساطع خطأ القائلين بأن الرأسمالية ولدت وسببت قيام الحركات القومية .

يستند القائلون بأن القومية وليدة العهود الرأسمالية الى ان عهد انتصار الرأسمالية على الاقطاعية انتصارا نهائيا قد اقترن فى كل انحاء العالم بحركات قومية ، وان تكوين الدولة القومية التى تضمن متطلبات الرأسمالية العصرية بأحسن الصور صار المنزع الخاص لكل حركة قومية .. ويأتى ساطع بقول ستالين الذى تبنى هذه الفكرة ودافع عنها بكل اهتمام سنة ١٩٢٩ ، والتى قال فيها ان الأمم لم توجد قبل الراسمالية ، وقوله كيف كان يمكن ان تتكون الأمم وأن توجد قبل الرأسمالية فى عهد الاقطاعية عندما كانت البلاد مجزأة الى امارات مستقلة لا يرتبط بعضها ببعض بروابط قومية .. كذلك يناقش ساطع قول لينين ان توحيد البلاد التى يتكلم أهاليها لغة واحدة يؤدى الى توسيع السوق التجارى وتوحيده وفق متطلبات وحاجات الراسمالية .

ثم هو يثبت عدم صحة هذا القول ان كثيرا من الحركات القومية قد ادت الى حواجز تضييق الاسواق التجارية ومن ثم اتجهت هذه الحركات عكس متطلبات الرأسمالية كما يقول لينين ٠ ٠ ٠

ثم يخلص ساطع الى القول ان الحركات القومية فى البلاد العربية أوضح دليل على عدم ارتباط تلك الحركات بقضايا الاقطاعية والرأسمالية ٠ اذ من المعلوم — كما يقول — ان هذه الحركات اشترك فيها جماعات من الأغنياء ومتوسطى الحال الفقراء . كما ان صفوف الذين خالفوا تلك الحركات أيضا كانت تتألف من الاغنياء ومتوسطى الحال والفقراء . (١)

٣ — القومية والدين :

يعارض ساطع النظرية القائلة بأن وحدة الدين تلعب دورها فى تكوين الأمم ٠٠ ويناقش هذه الآراء فى المحاضرات التى القاها على طلبته فى معهد الدراسات العربية العالية مناقشة مستفيضة ٠٠ ويستشهد فى ابحاثه فى هذه الناحية بالاحداث التاريخية .

ومن الأمثلة التى يستشهد بها ساطع على أن الدين لم يلعب دوره فى تكوين الأمم ، حركة الوحدة الالمانية التى جمعت بين دول كاثولكية مثل بافاريا ، ودول بروتستانية مثل بروسيا ، كذلك الحركة القومية اليوغسلافية التى وحدت العرب الارثوذكس مع الكروات الكاثوليك . كذلك يستشهد ساطع بالحروب الدامية التى قامت بين الطليان والنمساويين ، ومع ان كليهما كاثوليكى المذهب ٠ ثم هو يصل الى النتيجة القائلة بأن الوحدة القومية لم تتبع الأديان والمذاهب فلا وحدة الدين والمذهب ضمنت التغلب

---

(١) ساطع الحصرى : حول القومية العربية ص ١٦٠ .

على الفروق القومية ، ولا اختلاف الدين والمذهب استطاع أن يحول دون تحقيق الوحدة القومية .

كذلك نجد الحصرى يعارض بعض الكتاب في البلاد العربية القائلين بأن وحدة الدين لم تلعب دورها فى بناء القوميات فى العالم المسيحى فقط على أساس ان طبيعة تعاليم الانجيل تفرض فصل الدين عن الدولة . ويرى ان ذلك القول يسرى أيضا على الدين الاسلامى .

الدين عند ساطع له تأثيره في القومية عن طريق اللغة التى يتعبد بها الناس . ولما كانت اللغة اس الأساس فى بناء القوميات، فان الأديان لا تخلو من التأثير فى القوميـــات . ويرى أن اللغة اللاتينية انتشرت فى أوربا الغربيـــة ، بفضـــل الديانة المسيحية، والمـذهب الكاثوليكى أكثر بكثير مما انتشرت بفضل الفتوحـــات الرومانية . ولكن المذاهب البروتستانية وضعت حدا لسيطرة اللغة اللاتينية وساعدت على ازدهار اللغات القومية لأنها جعلتها لغة الدين والصلاة .

لقد أفرد ساطع ابحاثا لطلبته فى معهد الدراسات عن القومية والدين في البلاد العربية أكد فيها أن البلاد العربية حين بدأت تتحرر من سلطان الدولة العثمانية لقيت معارضة من رجال الدين على أساس أن السلطان العثمانى هو خليفة المسـلمين ، يجب اطاعته ، وينبغى عدم الخروج عليه ، واعتبروا فكرة القومية العربية نوعا من العصبية التى نهى عنها رسولنا الكريم ثم كان ان رد عليهم آخرون بقولهم ان المقصود بالعصبية المذكورة فى الأحاديث النبوية هو العصبية الجاهلة أى العصبية القبلية .

ثم يبحث ساطع آراء جمال الدين الأفغانى فى العروة الوثقى والتى فهم الناس منها خطأ أنه كان يدعو الى وحدة اسلامية ويرى أن مقالات الافغانى فى العروة الوثقى كانت تدعو للتخلص من الحكم الأجنبى وتستنهض هم الشرقيين عموما والمسلمين خصوصـــا ،

للتخلص من الحكم الأجنبى ، لكنها لا تدعو الى اتحاد بين الدول الاسلامية ، فهى تدعو الى (اتفاق) بين سلطنة ايران وامارة الأفغان من ناحية ، وبين ايران وبين آل عثمان من ناحية ثانية ، وبين جميع هؤلاء وبين الروس من ناحية ثالثة ، لطرد الانجليز من مصر ومن الهند • ويرى أن ما يسميه الكتاب اليوم بالقومية هو ما كان جمال الأفغانى يسميه بالجنسية •

أما أهم ما يركز عليه ساطع الدراسة عند تناوله لنظرية القائلين بوحدة الدين كأساس للقوميات أن تاريخ الأمة العربية خير شاهد على أن الدين الاسلامى لم يكن له كل الدور فى بناء القومية العربية • فالفتوحات الاسلامية لم تكن مرتبطة بالقومية العربية ارتباطا تاما ، لأن بعض الجماعات استعربت دون أن تعتنق الديانة الاسلامية ، وبعكس ذلك فان بعض الجماعات اعتنقت الديانة الاسلامية دون أن تستعرب ، وتكونت بذلك جماعات عربية غير مسلمة من ناحية ، وأمم اسلامية غير عربية من ناحية أخرى •

لكن الذى ينبغى أن نوضحه أنه ليس معنى هذا ان ساطعا قد اهمل دور الدين الاسلامى فى حركة القومية العربية كما انتقده البعض من هذه الناحية ، فهو يرى أن اللغة العربية بعد أن أصبحت لغة الجميع فى هذه البلاد الشاسعة من العالم العربى تعرضت الى محن خطيرة مدة قرون طويلة ، بسبب ما طرأ على العالم العربى من التفكك السياسى والجمود الفكرى والاجتماعى والانحطاط الثقافى •• وأصبحت اللغة العربية معرضة لخطر التفكك التام والتفرع الى لغات عديدة يختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا ، ولو حدث ذلك لأدى حتما الى انشطار الأمة العربية الى أمم مختلفة ، ولما بقى ما يمكن تسميته بالقومية العربية ، ولكن القرآن الكريم وقف سدا منيعا أمام هذه الأخطار الجسيمة ،

وحال دون استشراء هـــذا التفـكك وذلك لكونه عربيا ، ولكون الديانة الاسلامية تفرض على جميع المسلمين حفظ طائفة من آياته لمن لا يستطيع أن يحفظه كلمة وذلك عند تأدية فرائض الصلاة وبذلك صارت اللغة العربية لغة الدين والصلاة عند غير المسلمين أيضا حين ترجم العرب النصارى كتابهم المقدس الى العربية ، وصاروا يتلون الانجيل باللغة العربية ٠

وينتهى ساطع من ذلك الى القول : ان الديانة الاســـلامية لعبت دورا هاما فى تقدم القومية العربية وتوسعها لأنها :

أولا : كانت القوة الدافعة للفتوحات العربية التى نشرت اللغة العربية ووسعت نطاق القومية العربية .

ثانيا : صارت (القوة الواقية) التى اكسبت اللغة المذكورة نوعا من المناعة ضد عوامل التفتت والتفرع ٠٠ وصـــانت بذلك القومية العربية من الانشطار ٠ فى عهد انحطاطها الطويل ٠

ولكن ذلك لا يعنى عند ساطع أن القومية العربية ظلت مرتبطة بالديانة الاسلامية لأنه قد تكونت أمم اسلامية غير عربية من ناحية وجماعات عربية غير مسلمة من ناحية أخرى .

القومية ووحدة الأصل :

ناقش ساطع ما قاله بعض الكتاب وعلى رأسهم ما نشينى الايطالى عن علاقة القومية بوحدة الأصل حيث عرف هذا الكاتب الايطالى الامة بأنها مجتمع طبيعى من البشر يرتبط بعضـه ببعض بوحدة الأرض والأصل والعادات واللغة .. واذا كان تعريف ما نشينى للأمة فى محاضرته لجامعة تورينو فى سنة ١٨٥١ هو أول تعريف يحاول تحديد معنى الأمة بوجه عام بأسلوب علمى صريح ، فان الحصرى يعارضـه فى قوله بأن وحدة الأصل تعتبر من المقومات الأساسية لتكوين الأمم .. والحجة التى يستند

اليها في الرد على مانشيني انه لا توجد أمة من الأمم ينحدر جميع أفرادها من أصل واحد ، بل ان كل أمة من الأمم تتألف من أفراد منحدرين من أصول مختلفة ، حتى ان اعرق واقدم الأمم الحالية فى (الوحدة السياسية والتجانس القومى) بعيدة عن التجانس فى الأصل والدم بعدا كبيرا . اما هذه القرابة التى يشعر بها أبناء الأمة الواحدة فيفسرها ساطع بأنها قرابة معنوية تنشأ من الروابط الاجتماعية المختلفة ، ولا سيما من الاشتراك فى اللغة وفى التاريخ ، فلا تدل بوجه من الوجوه على قرابة الأصل والدم .

رأى ساطع فى الأرض المشتركة كأساس من أسس القومية :

وحين يسأل ساطع لماذا لا تدخل الأرض المشتركة بين مقومات الأمة الأساسية ؟ هل تعيش الأمة دون أرض ؟ يرد على ذلك ببحث يتناول هذا الموضوع من جوانب عديدة .. وينتهى فيه الى القول بأن الأرض المشتركة ليست من مقومات الأمة ، ويستشهد بأحداث التاريخ ، ويضرب مثلا لذلك جزيرة قبرص التى يسكنها الاتراك واليونانيون. فمما لاشك فيه ان الاشتراك فى أرض الجزيرة لم يجعل قاطنيها أمة واحدة ، كما أن عدم الاشتراك فى الأرض لم يحل دون بقاء الاتراك القاطنين فيها أتراكا — يتوجهون بقلوبهم نحو حكومة أنقره .. ونرى ساطع يؤكد على هذه المسألة الخاصة بالأرض المشتركه ويقول : « أود ألا يظن احد انى استبعدت الأرض المشتركة من عداد مقومات الأمة الأساسية مراعاة لتطلبات القومية العربية ، بل أود ان تتأكدوا انى فعلت ذلك مستندا الى كل ما عرفته عن تواريخ الأمم ونواميس الاجتماع » . فاذا ما وجه اليه نقد فى أمر (الأرض المشتركة) على أساس ان ذلك قد يفيد بنى اسرائيل ، بمعنى أنه يجب علينا فى حالة عدم اعترافنا بالأرض المشتركة كعنصر من عناصر تكوين الأمة — ان نعترف بالاسرائيليين كأمة ،

يرد ساطع رد الذى لا ينظر الى المسائل من زاويتها الضيقة فيقول : « ان حقنا فى فلسطين لا يتبع بوجه من الوجوه امر التسليم أو عدم التسليم بأن الأرض من عناصر القومية الاساسية ، ولا يرتبط بصورة من الصور بأمر الاعتراف او عدمه بأن بنى اسرائيل أمة ، بل ان حقنا في فلسطين يستند الى انها (فلسطين) بلد العرب منذ عشرات القرون ، وأنها موطن أبناء أمتنا منذ آلاف السنين » .. ثم يتساءل لنفرض أن فلسطين لم يستول عليها اليهود واستولى عليها وهاجر اليها وطرد سكانها الفرنسيون أو الايطاليون أو غيرهم أو أية جماعة من الجماعات التى لا مجال للشك فى أنها أمة .. فهل كون ذلك لو حدث من جانب الفرنسيين أو الايطاليين مثلا يعطيهم حق البقاء فيها وينزع منها حق العمل لاستردادها ؟

ويرى ساطع ان الربط بين قضية فلسطين وبين النظريات القومية خطأ عظيم يجب تجنبه عند دراسة هذه القضية فلدى العرب من الأسانيد والبراهين ما هو كفيل بتأييد حقهم وتأييد نضالهم ضد الخطر الصهيونى أكثر من كون الاسرائيليين أمة أو غير أمة .

ولقد أكد ساطع أنه يرجو الا يفهم القارىء لآرائه ونظرياته فى القومية أن القصد منها تقرير أن فكرة القومية تجرى فى البلاد المختلفة على نمط واحد ، وانما هى تجرى على أنماط متنوعة ، تختلف باختلاف الأحوال السياسية ، والأطوار الاجتماعية ، والعوامل التاريخية التى كانت قائمة فيها . ولقد كان رأى ساطع فى ذلك واضحا منذ ألقى ابحاثه عن نشوء الفكرة القومية فى قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة بدعوة من كلية الآداب فى أوائل سنة ١٩٤٨ . فلقد استعرض فى هذه المحاضرات تاريخ نشوء الفكرة القومية فى كل من ألمانيا وبلغاريا ويوغسلافيا واليونان ورومانيا

والبانيا وتركيا .. ثم تناول بعد ذلك الفكرة القومية فى البلاد العربية .

والنتيجة التى يصل اليها الحصرى من ابحاثه هذه هى قوله :

« أود الا يفهم من قولى هذا بأنى أعنى وجود عوامل عامة فى شئون القوميات ، وأرى أن أصرح — بعكس ذلك — أنى أعتقد أن لعالم الاجتماعيات قوانين عامة وعوامل أساسية ، مثل ، مالعالم الماديات . كما أن للنزعات القومية أيضا قوانين عامة وعوامل أساسية ، مثل ما لسائر مظاهر الحياة الاجتماعية . انى قلت وكتبت مرارا : ان الأمة كائن اجتماعى ، لها حياة وشعور ، وأن حياتها فى اللغة وشعورها بالتاريخ » .

« فى الواقع ان قولى هذا يتضمن حكما عاما ، غير أن هـذا الحكم لم يكن وليد تفكير منطقى مجرد ، بل هو نتاج مشاهدات وملاحظات عن الحياة النفسية والاجتماعية والوقائع التاريخية كما أنه لا ينفى وجود فوارق بين القوميـات مثل الفروق التى تلاحظ بين مختلف الأحياء » .

ثم هو لا يريد أن يضـفى على القومية العربية من الصفات ما أراده البعض حيث نادوا بتميزها عن القوميات الأخرى من حيث انها (القومية العربية) قومية مسـالمة انسـانية ، وان القوميـات الأخرى كانت ذات نزعة استعلائية استيلائية .. يقول ساطع : انا أسلم بأن القومية العربية ليست ولن تكون استعلائية استيلائية ، بل انها قومية مسالمة تعرف مالها وما عليها من حقوق وواجبات تجاه سائر القوميات .. ولكن لا أسلم بأن القوميات التى ظهرت فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، كانت استعلائيـة واسـتيلائية . ولا أرى من الحق والصـواب أن نربط خفايا

الاستعمار بظهور القوميات ، لأن من الحقـائق التي لا يمكن ولا يجوز تجاهلها أن استعمار الأوربيين لمختلف قارات العـالم واستعبادهم لشعوبها المستضعفة ـ كان قد بدأ قبل القـرن التاسع عشر بكثير .. صحيح ان الايطاليين اقدموا على الاستعمار بعد حركاتهم التحررية ، لكن ذلك كان بعد مرور ثلاثة عقود من السنين على نجاح الحركات بتحقيق الوحدة الايطالية .

ثم يوضح السبب الذى أوقع بعض الكتاب العرب فى هذا القول هو أحد الأمرين التاليين أو كلاهما معا :

١ ـ انهم تأثروا كثيرا بما كتبه الكثيرون من الفرنسيين والبريطانيين ضد الحركات القومية بوجه عام بسبب الخسائر الفادحة التى الحقتها بمصالح بلادهم .

٢ ـ انهم لم يتنبهوا الى التطور الذى حدث فى معنى كلمة (ناسيونا لزم) فى أوربا ، وخلطوا بين مبدأ القوميات ، وبين خطط واعمال الأحزاب اليمنيه المتطرفة التى عرفت نفسها باسم ناسـيونا ليست ، ونراه يؤكد أن دراسة الوقائع دراسة علمية صافية لا تترك أى مجال لربط حركات الاستعمار والاسـتعباد بحركات تحرر القوميات العربية .

وينبغى أن نوضح حقيقة هامة ونحن نتناول الاشارة الى ابحاث ساطع فى القوميات أنه لم يقصد من قوله أن وحدة اللغة والتـاريخ همـا أس الأسـاس فى تكوين الأمم انه ينفى وجود الأسس الأخرى أو دورها وأهميتها .. فحين ينقده البعض على أساس أنه جعل اللغة العربية المقوم الوحيد للقومية ، ينفى ساطع ذلك نفيا باتا ويحيلهم الى آرائه التى نشرها فى كتـابه (آراء وأحاديث فى القومية والوطنية حيث يقول : ان اللغة والتاريخ هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران أشد التأثير فى تكوين القوميات

(ص ٣٠ من كتابه المذكور) كما يقول فى الصحيفة التالية مباشرة من نفس كتابه · ولكن العوامل التى تؤثر فى تدوين لامم وتميز بعضها عن بعض لا تنحصر فى اللغة والتاريخ بل ان هناك عوامل اخرى تؤثر فى ذلك تأثيرا واضحا فتقوى تارة تأثير العاملين الأساسية المذكورين آنفا ، وتضعف ذلك التأثير طورا ·

ولقد استهدف ساطع من دراساته الواسعة العديدة فى موضوع القوميات بصفة عامة والقومية العربية بصفة خاصة الوصول الى الايمان بوحدة الأمة العربية ، ففكرة القومية العربية تعنى عنده هذا الايمان ، وتتطلب العمل بما يستوجبه ، وذلك بالتفانى فى خدمة الأمة العربية للمساهمة فى ضمان تقدمها ووصولها الى أوج الرفعة والقوة والكمال فى ميادين العلم والثقافة والاقتصاد والاجتماع والسياسة ·

ثم يقوم ساطع ببحث التطورات التى لحقت بالقضية العربية خلال العقود الأخيرة من تاريخ العرب المعاصر ، ويحصى الخسائر والمكاسب التى لحقت بالقومية العربية فى بحث له نشرته له مجلة العربى الصادرة فى مارس (آذار) عام ١٩٥٩ ، ويرى أن مكاسب القومية العربية فاقت خسائرها كثيرا فضلا عن أنها زودتنا بالقوى المادية والمعنوية لتلاقى تلك الخسائر والتغلب على تلك المصائب .. انى أعرف ان احدى تلك المصائب (ويقصد بها ساطع حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وان لم يفصح عنها صراحة) كانت أشد هولا وأعظم خطرا من كل مصائبنا الماضية ، وهى لا تزال تدمى قلوبنا وتعرض مستقبلنا الى أشد الأخطار · ومع هذا يلاحظ من ناحية أخرى ان هذه المصيبة الأخيرة فتحت عيون الكثيرين من الغافلين ، وصارت بمثابة(ناقوس الخطر) الذى يدقه بشدة وبدون انقطاع ، فلا يترك مجالا للنوم والغفلة أبدا . انها أظهرت وجسدت أضرار الانقسام السياسى الذى منى به العالم العربى وجعلتها تلمس

لمس اليدين ، وتصدم أنظار كل ذى عينين ، ولا شك فى ان ظهور هذه الأضرار الى العيان ، بهذه الصورة المجسمة من شأنه ان يقوى الوعى القومى ، وأن يرسخ الايمان بوحدة الأمة العربية ، ويدفع جميع أبناء العروبة الى العمل فى سبيل تحقيق الوحدة الشاملة بقوة لا تقهر ، وبايمان لا يتزعزع ، انى لقوى الأمل بل ولشديد الايمان بأن هذه المصيبة ستكون من أقوى العوامل التى ستوحد مشاعرنا وتقوى عزائمنا ، وتجعلنا نسير نحو الوحدة بكل مالدنيا من قوى مادية ومعنوية ومن عزم وايمان ، وأن كنت لا أنكر ان الطريق الباقى أمامنا لا يزال طويلا ومحفوفاً بشتى المهاوى والمخاطر ، ولكنى آمل أملا قويا ، بل اعتقد اعتقادا جازما بأن روح العروبة الحقة ستقتحم كل العراقيل وستنتصر فى آخر الأمر انتصارا حاسما فى كل الميادين . »

وحين نقرأ ماكتبه ساطع فى هذا البحث الذى مضى عليه عشرة أعوام ، ونتأمل الأحداث التى مرت بها الأمة العربية منذ ذلك التاريخ نقول : ياليت الدعوة التى دعا اليها ساطع من وحدة عربية لقيت آذانا صاغية من أبناء الأمة العربية فحركتهم نحو تحقيقها والقوى الاستعمارية ، والخطر الصهيونى يحدق بالأمة العربية ، ولكنى على يقين أن الأحداث المصيرية التى تتعرض لها هذه الأمة والمرحلة الحاسمة التى تمر بها قد أخرجت الى الوجود وحدة عربية ، وان لم تعلن رسميا ، وجسدت فكرة التضامن العربى بصورة لم يسبق لها مثيل ، وأن ما حدث منذ نكسة الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ خير شاهد وأصدق دليل .

لقد انعقد مؤتمر الخرطوم بعد هذه النكسة فأكد وحدة الصف العربى ، وأثبت ان العرب عند مستوى المسئولية وان الوحدة العربية حقيقة قائمة . ثم هناك بالاضافة الى ذلك تنسيق بين السياسة الخارجية للدول العربية تجاه الأزمة ، وبين الأمور العسكرية ،

الأمر الذى نجم عنه انشاء الجبهات العسكرية الموحدة ، ومنهـــا القيادة العسكرية للجبهة الشرقية العربية التى نسقت الخطط العسكرية بين سورية والاردن والعراق .. وأرجو ما يرجوه كل عربى مخلص أن تكون هذه مقدمات على طريق الوحدة الشـــاملة وعندئذ تتحقق أمنية الكثيرين المخلصين من أبناء هذه الأمة وفى مقدمتهم بطبيعة الحـــال أمنية ساطع الحصرى ، ووقتها ستكون روحه سعيدة راضية مطمئنة ، بعد أن يتحقق أعز أمانيه ٠

الفصل السادس

فضل ساطع على الثقافة العربية

مما لا شك فيه أن ساطع الحصرى بذل كل ما فى جهده لتخليص الثقافة العربية من كل شوائب غريبة عليها ، وان مبعث اهتمامه بالأمور الثقافية أنه كان يؤمن بأن الوحدة الثقافية هى السبيل للوحدة العربية .

وليس معنى توحيد الثقافة عنده هو حمل الناس على أن يتعلموا أشياء مماثلة ، أو تعويدهم التفكير على نمط معين ، وانما يعنى تنسيق أفكار الناس وعواطفهم تنسيقا يؤدى الى توليد وحدة معنوية سامية .. ويشبه ساطع الثقافة بالوحدة الموسيقية التى تتكون من توافق وتلاحق عشرات الأصوات والأنغام الصادرة من عشرات الآلات المتنوعة . فهو يرى أن وحدة الثقافة هى وحدة مركبة عالية تتولد من تمازج الكثير من الأمور المختلفة المتنوعة . وأعد ساطع الأبحاث التى تناول فيها مسائل الثقافة بصفة عامة، ثم الثقافة العربية بصفة خاصة . ففى بحث له بعنوان آراء وأحاديث فى العلم والأخلاق والثقافة يفرق ساطع بين الثقافة والحضارة ، ويوضح المعنى المقصود من كل منهما . فهو يبين أن كلمة حضارة Civilization استحدثها الفرنسيون خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، وهى مشتقه من كلمة

بمعنى المدنية عكس البربرية والهمجية · وكان يفهم منها الخصال المتولدة عن المعيشة فى المدينة · ثم رأى المفكرون انه من الضرورى تجريد المعنى من فكرة التقــدم النسبية عمــلا بمقتضيات النزعة العلمية وصاروا يستعملون الكلمة المذكورة للدلالة على الحــالة الاجتماعية بأوسع معانيها وأصبحوا الآن يقصـــدون منها مجموع الخصائص التى تنجم عن الحياة الاجتماعية ، فيشـــمل مفهوم الحضـــارة بهذا الاعتبـــار جميع مآثر الحيـــاة المادية والفكرية والخلقية عند الأقوام ·

كذلك يوضح معنى كلمة الثقافة ويؤكد انها اقدم استعمالا واطول حياة من كلمة حضارة ·· يرى الحصرى أن كلمة الثقافة تدل الآن على أساليب التفكير من جهة ، وعلى الأعمال التى تضمن اصلاح وترقية هذه الأساليب من جهة أخرى ، فهى (الثقـــافة) تنحصر فى الأمور الذهنية والمعنوية بينما يشمل مفهوم الحضارة الأمور والمسائل المادية أيضا ، ومن هذه الناحية فان مفهوم الحضارة وان كان يتصل بمفهوم الثقافة اتصالا وثيقا غير أنه أوسع وأشمل

يريد ساطع من هذه الدراسة ان يخلص الى أن الحضارة تكون قابلة للانتقـــال من أمة الى أخرى ، وأما الثقـــافة فتبقى خاصة بكل أمة على حدة ، وان اثرت ثقافات الأمم المختلفة بعضها في بعض ·· فالثقافة اذا تختص بكل أمة على حدة ، وترتبط قبل كل شىء بلغة الأمة وآدابها ، فاللغة هى واسطة التفكير فضلا عن كونها واسطة لنقل الآراء والأفكار والأحاسيس والانفعالات .

ازاء ذلك كان من الطبيعى ان تختلف ثقافات الأمم باختلاف لغاتها وآدابها . لكن ذلك لا يمنع تأثر الثقافات بعضها ببعض ، كما تتأثر الثقافة بتطور الحضارة ، غير أن ذلك لا يكون عن طريق الانتقال المباشر ، بل يكون عن طريق التأثير فى النفوس تأثيرا باطنيا يؤدى الى شىء من التغيير فى أساليب التفكير والتحسس . فالأمم

من وجهة نظره تتميز عن بعضها بثقافات خاصة ، وتشترك مع بعضها فى حضارات عامة ، فالثقافة فى حد ذاتها قومية والحضارة بطبيعتها اممية ٠

كذلك يرى ساطع أنه ازاء ذلك ليس هناك شيء اسمه ثقافة البحر الأبيض المتوسط ، بل هناك حضارة اسمها حضارة البحر الأبيض المتوسط ، ويوضح ذلك بتناوله لثقافات مدن هذا البحر فمارسيليا وبارشلونة تختلفان فى الثقافة ، الأولى من الثقافة الفرنسية ، والثانية من مدن الثقافة الاسبانية ٠

ولا يحب الحصرى أن يفهم الناس من قوله حضارة البحر الأبيض المتوسط أنه لا زالت هناك حضارة تفهم بهذا الاسم ، وانما كان ذلك فى الماضى ٠ ففى القديم ازدهرت الحضارة اليونانية، ثم الرومانية ، ثم الحضـــارة العربية ، كلهـا فى مناطق البحر المتوسط ، ثم فى عصر النهضة انتقل مركز الحضـــارة الى غرب أوربا والقارة الامريكية ٠

ثم انتشرت الحضارة فى سائر اقطار العالم ، فلم يبق مبرر لنسبة حضارة الى قارة القارات أو بحر من البحار وأصـــبح من الأوفق على حد قوله ان تسمى الحضارة باسم مجرد عن الدلالة المكانية فنقول حضارة القرن العشرين مثلا ٠

يشبه الحصرى الثقافة بالأزهار والأشجار التى تنمو فى البلاد ، واللغة بمثابة التراب الذى يحتضن البذور ٠٠ ولما كانت لغة هذه البلاد عربية فان ثقافتها ستكون عربية وستشترك هذه البلاد فى أمور الثقافة مع سائر البلاد العربية ، لا مع أقطار البحر المتوسط ٠ ويكتب فى سنة ١٩٥١ يقول :

« سيساهم أبناء سائر الأقطار العربية فى تكوين ثقافة عربية راقية تنمو وتزدهر سنة بعد سنة مغمورة بأنوار العلوم العصرية،

وفيوض الحضارة العالمية .. **انني اعتقد أن ذلك سيتم حتما على الرغم من جميع الجهود التي قد يبذلها البعض في سبيل توقيف هذا التيار العام ، ومعاكسة هذا التطور الطبيعي ٠٠ انني أجزم بذلك كما أجزم أن الشمس ستشرق غدا صباحا من هذه المدينة ، وان الطقس سيزداد حرارة في الشهور القادمة »** .

وبسبب ايمانه على هذا النحو بضرورة تنقية الثقافة العربية من كل الشوائب وحرصه على ان تتطور هذه الثقافة وان تنمو وتزدهر ، كان جهاده في العراق وفي سورية ثم في مصر في هذه الناحية ، فهو يحرص في العراق على اصلاح التعليم به وتخليصه من التبعية للنظام الانجليزي ثم يحرص في سورية على اصلاح التعليم السوري وتخليصه من التبعية الفرنسية .. لكنه وهو يفعل ما فعله في العراق ثم ما فعله في سورية يجهر بأنه لا يعادي ثقافة من الثقافات ولا يشغل نفسه بالمفاضلة بين الثقافة الانجلو ساكسونية أو الفرانكو لاتينية ، وانما هو يعارض الخضوع والاستسلام لنظم التعليم الانجليزية أو الفرنسية ، ايمانا منه بأن ظروف التعليم في البلاد العربية تختلف عن ظروف ونظم التعليم في البلاد الاوربية ٠٠ من أجل هذا انتقد بشدة الاقتراحات التي قدمتها لجنة بول منرو الامريكية التي جاءت أثناء وجوده في العراق بهدف دراسة نظم التعليم العراقي ، وتقديم الاقتراحات الكفيلة باصلاحه .

يقول ساطع : اذا ماعارضت النظم الانجليزيةفي الأولى (العراق) والفرنسية في الثانية (سورية) فانما فعلت ذلك لغاية واحدة ، هي ايجاد نظم تعليمية خاصة بالبلاد العربية **وتكوين ثقافة مشتركة بين جميع الأقطار العربية** .

هو يؤمن اذا أن سبيل الثقافة المشتركة هو العمل في المقام الأول على تخليص التعليم في البلاد العربية من تبعيته لنظم التعليم

الأجنبية ، ذلك أنه ليس هناك نظام تعليمي قائم بذاته ، وأنما هذا النظام التعليمي جزء من مجموعة النظم الاجتماعية الخاصة بتلك البيئة وهو يعمل فيها ويؤثر فيهـا ويتأثر بها . ولهذا لاينبغي للتعليم في البلاد العربية أن يكون مقتبســا من غيره من النظم التعليمية .

لذلك يندد ساطع بالفروق بين مدد الدراســة وموادها في مدارس البلاد العربية . وعنده ان هذه الفروق الكبيرة لم تكن وليدة الحاجات التي شعر بها أبناء الأقطار المذكورة من تلقاء أنفسهم والقرارات التي اتخذوها بعد امعان النظر في منافع البلاد بمحض أرادتهم ، بل هي وليدة الظروف السياسية التي سيطرت على مقدرات الاقطار العربية وصنيعة الأيدي الأجنبية التي وجهت سياسة التعليم ، ومرد هذه الاصلاحات الى اختلاف الظروف السياسية . وكان من الطبيعي أن ينبرى المفكرون العرب الى البحث عن الوسائل التي تضمن توثيق الصلات الثقافية .

وعندما اقر مجلس الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ . المعاهدة الثقافة التي تضمنت التعاون في جميع الشئون الثقافية بين البلاد العربية بجميع الوسائل التي تكفل تقدم الثقافة ، وتخدم غايات الجامعة ، ومن ذلك توحيد المصطلحات العلمية بواسطة المجامع والمؤتمرات واللجان وتشــجيع عقد المؤتمرات الثقافية والعلميــة والتعليمية ، سعد ساطع بذلك كل السعادة ورأى فيه خطوة عملية هامة على طريق الوحدة الثقافية . ثم كان ان قرر مجلس جامعة الدول العربية تأليف الجنة ثقافية تضم ممثلين عن جميع البلاد العربية ، ثم انشأت الجامعة الادارة الثقافية التي عهدت اليهـا بمهمة تحضير المشاريع وتنفيذ القرارات بمساعدة مكتب دائم .

عقدت الادارة الثقافية المؤتمر الثقافي العربي الأول في عام ١٩٤٧ في لبنان . في ذلك الحين أخذ ساطع بكل جهده يكتب وينادى

بضرورة مبادرة هذه الادارة بالعمل على توحيد الثقافة العربية ، ويرد فى عنف على القائلين باستحالة هذه الوحدة الثقافية بين البلاد العربية بسبب اختلاف البيئات الطبيعية بالقول أن الأمة العربية شأنها فى ذلك شأن الامم الأخرى ، ويستشهد بقول ميشليه الفرنسى فى وصفه للأقاليم الفرنسية :

« ان هذا الأقاليم المتنوعة (فى فرنسا) كأنها خلقت لكى يتمم بعضها بعضا ، فينشأ من مجموعها كل متناسق يكون وطنا لأمة واحدة قوية غنية » ثم يقول ساطع بعد أن يستعين بكلام ميشليه : «لذلك كله لا أتردد في القول بأن الذين يتخذون اختلاف البيئات والاقاليم الطبيعية دليلا على عدم امكان الوحدة الثقافية بين الاقطار العربية يتباعدون عن مناحى الحق والحقيقة » .

ويرد على القائلين بأن مصالح البلاد العربية تقتضى تنوع الثقافات بقولهم ان التعليم يجب أن يختلف باختلاف البيئات ٠٠ يرد الحصرى عليهم بأنهم يخلطون بين التعليم والثقافة فالتعليم شيء والثقافة شيء آخر ، وان تنوع معاهد التعليم لا يعنى تنوع الثقافة .. ثم يطالب بتوحيد أسس المناهج واتجاهاتها ثم تنوع هذه الدراسة من حيث المفردات ، فساطع يرى أن التعليم ينبغى أن يختلف من قطر الى آخر بل من اقليم الى اقليم داخل القطر الواحد حسب البيئة والظروف الى ما شابهه ، لكنه ينبغى أن يتحد من حيث الأسس والاتجاهات » .

وحين تأسست اليونسكو في السادس عشر من نوفمبر عام ١٩٤٥ كتب ساطع يوضح أن هذه الهيئة انما هى وريثة لهيئة شبيهة بها تأسست عقب الحرب العالمية الأولى عرفت باسم لجنة التعاون الفكرى بين الأمم Commision Internationale de Coopération Intellectuelle التى أنشئت ١٩٢١ .

ويطالب الحصرى بفصل اليونسكو عن الهيئة السياسية في

الامم المتحدة ، ويطالب الدول العربية بالانضمام اليها . ويقول فى مقال له نشرته مجلة العالم العربى فى ١٠ من يناير عام ١٩٤٩ أن اهم الاعمال التى يجب أن تقوم بها داخل اليونسكو هى نشر الحقائق التالية : . .

أن السلام يجب الا يعني — كما هو الحال الآن السلام بين الدول القوية والظافرة وحدها ، بل يجب ان يشمل الأقوياء والضعفاء . والسلام الحقيقي لا يتحقق الا اذا زالت من النفوس شهوة السيطرة والاستعمار ، واذا شاءت اليونسكو خدمة السلام العالمي فعليها أن تشن حربا على فكرة السيطرة والاستعمار .

ثم يكتب رسالة باللغة الفرنسية يرسلها الى جوليان هكسلى الذى كان مديرا لليونسكو ردا على ماكتبه عن البلاد العربية فى تقرير رفعه (هكسلى) الى المؤتمر الثالث لليونسكو ببيروت .

. . ونجد ساطع يهاجم فيما كتبه فكرة انشاء فرع لليونسكو باسم فرع الشرقين الأدنى والأوسط بحيث يشمل تركيا وايران وأفغانستان وبلاد الجامعة العربية . ويقول ساطع : نحن نريد أن نتعاون مع اليونسكو وهى غير منقسمة الى حجر متحاجزة ، وينبغى لهذه المنظمة أن تتجنب معبة الانقسام الى حجرات اقليمية ، ومهما كان الأمر فلا نود أن نحجز فى حجرة خاصة ولا سيما هذه الحجرة التى يسمونها الشرق الأدنى والأوسط . . . نحن نريد أن نتعاون مع جميع أمم العالم داخل منظمة اليونسكو بصفتنا عربا لاشرقيين . . . وأما علاقاتنا الثقافية مع بعض الدول فنحن نريد ان تتم مع هذه الدول باتفاقات مباشرة دون وساطة اليونسكو .

بنى ساطع معارضته لفكرة مركز أقليمى لليونسكو يشمل دول الشرقين الأدنى والأوسط على أن الثقافة لايمكن أن تخضع للأسس الجغرافية ولا لتحديداتها . فالمكسيك والأرجنتين قريبتان جدا من الثقافة الاسبانية برغم عظم المسافة التى تفصل بينهما

وبين اسبانيا ، كذلك مدينة دوفر الانجليزية بعيدة جدا من الوجهة الثقافية عن مدينة كاليه الفرنسية بالرغم من القنال الذى يقربهما. وعلى ذلك يرى ساطع ان سورية اقرب الى تونس منها الى تركيا والعراق أقرب الى مراكش منه الى ايران . فانشاء مثل هذا المركز هو ضد طبيعة الأشياء وضد مصلحة اليونسكو نفسها .

وينفى ساطع أن وراء ذلك تعصبا دينيا لأن تركيا وايران والأفغان التى تريد المنظمة ضمها للبلاد العربية بلاد مسلمة .

وحين يهاجمه هكسلى مدير المؤسسة بالقول بأنه يوجد فى الشرق الأوسط حزب قوى يعارض مشروعات اليونسكو بدافع من القومية السياسية والتعصب الدينى والانحصارية الثقافية التى تغار من كل حركة ترمى الى توسيع المنظمة الثقافية بقبول عناصر من غير المسلمين أو من غير العرب ، وتؤثر الانعزال الثقـــافى المبنى على اساس اقليمى ، يفند ساطع هذا القول بقوله ان انشاء المنظمة لفرع لها فيما تسميه الشرق الأوسط أو الأدنى انما هو الانعزالية الثقـافية بعينها المبنى على أساس اقليمى ، ويدافع عن الاستقلال الثقافى ويقول : اننى لم أكن فى يوم من الأيام نزوعا الى الانعزالية فى ميدان الثقافة (لأنى اعتقد اعتقادا لايتزعزع ان الثقافة العربية العصرية التى نصبو اليها يجب ان تتغذى بجميع مكتبات العلوم الحديثة وتنتعش بأثمن ما فى مختلف الثقافات العصرية) .

وأكد ساطع رأيه فى الاستقلال الثقافى بأنه لا يعنى الانعزال عن الثقافات الأخرى بأن الدول العربية وهى تؤمن بهذا الاستقلال الثقافى قد بذلت جهودا للاستفادة من الثقافة الغربية من ايفاد البعثات الى ترجمة الكثير من امهات الكتب الأجنبية .

ثم ســـعد ساطع حين لم يخرج مشروع هكســـلى الى حيز الوجود فلم ينل وقتها أكثرية الآراء فى مؤتمر اليونســكو الذى انعقد فى بيروت .

ثم نراه وقد حمل حملة شعواء على سياسة الاستعمار تجاه الثقافة العربية وحرصه (الاستعمار) فى كثير من البلاد التى خضعت للنفوذ الاستعمارى الى اتبـــاع السياسة التعليمية للدولة صاحبة الاحتلال . وأما رأى ساطع فى المعــاهد التعليمية التى يسمح بها الاستعمار فهى ذات أنواع ثلاثة :

١ ـ معاهد يؤسسها المستعمرون فى الوطنى الأصلى لخدمة الاستعمار .

٢ ـ معاهد يؤسسها المستعمرون في المســتعمرات لتربية ابنائهم .

٣ ـ معاهد يؤسسها المستعمرون فى المستعمرات لتربية أولاد الأهلين فى القطر المستعمر .

ويتناول فى كتابه آراء فى العلم والأخلاق والثقافة فى استفاضة هذه الأنواع الثلاثة من المعاهد ، ويقول : ان الاستعمار بعد ان كان يتبع سياسة عدم تعليم أحد من أبناء المستعمرات حرصا على نفوذه عاد فوجد أنه من مصلحته تعليم عدد من المستعمرين ولكن فى نطاق ضيق ولغرض محدود . واذا كان الاستعمار قد واجه مشكلة الخوف من تعليم الأهالى فى المستعمرات خشية أن تقوى فى نفوسهم روح الثورة وعملهم على المطالبة بالحرية والاستقلال، فقد اهتدى هذا الاستعمار على حد قول ساطع الى اتباع طريقة التعليم من غير تثقيف أى التعليم لغاية معينة محدودة مجردة من عناصر الثقافة وعواملها . ويحمل ساطع على سياسة الفرنسيين التعليمية فى الجزائر التى تسببت فى اهمال اللغة العربية (١) .

---

(١) المعروف عن الفرنسيين أن استعمارهم اقترن بسياسة ثقافية ترمى الى احلال الثقافة الفرنسية محل الثقافة الافريقية وقد بدأ تطبيق هذه السياسة أولا فى ظل المبدأ الذى عرف الفرنسة الاجماعية أو الاستيعاب .

وهى سياسة تقوم على ترجمة اللغة والمفاهيم والمنظمات الفرنسية ارجع الى كتاب نزيه ضيف ميخائيل : النظم السياسية فى افريقيا ص ٢١ .

كذلك يحمل ساطع على الكتاب العرب الذين ينادون باتباع اللغات العامية ، ويستندون في قولهم هذا انه اذا كان لا بد من نشر التعليم بين جميع طبقات الشعب ، فلماذا لا نعمد الى تعليمه بالعامية .. ويرى أن هذه النزعة عند بعض الكتاب انما هو ترديد لسياسة استعمارية ترى أن اللغة الفصحى هى التى تصل البلاد العربية بعضهـا وهى التى تنقل الأفكار من قطر عربى لآخر . فاذا ماتوقفت حركة نشر اللغة الفصحى فى البلاد العربية وقامت حركة ترمى الى انعاش وتدعيم اللغات العامية ، فلا بد من أن يصبح لكل قطر من الأقطار العربيـة بعد مدة لغة خاصة به ، فيزول بذلك خطر فكرة اتحاد بين الدول العربية . ونجده يحذر من شأن ما تتبعه أجهزة الثقافة ووسائلها من اتباع للعامية كالمسارح والسينما ، والندوات الثقافية ، والتمثيليات الاذاعية ، والأحاديث المختلفة ، وينبه المفكرين القوميين الى هذا الخطر ويرى أن واجبهم هو اتخاذ التدابير اللازمة لوقاية الأمة العربية من شر هذا التيار .

ويرى ساطع الحصرى أن التباعد بين ثقافات البلاد العربية جاء من عدة عوامل : الخضوع للسيطرة العثمانية فكان هناك ما يمكن تسميته تشارك ثقافى حيث التركية هى اللغة الرسمية والعربية اللغة الدينية ، التركية لغة التعليم التى دخلها كثير من كلمات اللغة العربية ، ومن هذه الناحية يصل الى القول بأن الأتراك والعرب أو الثقافة العربية والتركية أثر كل منهما فى الآخر . ثم تناول ما حدث بعد الاستقلال عن الأتراك حيث خضع العرب لسيطرة ثانية ، فتغلبت الثقافة الانجليزية فى بعض البلاد والفرنسية فى بعضها الآخر ، ولقد أدى ذلك من وجهة نظره الى كسب الثقافة العربية منظرا مشوشا الى آخر حدود التشويش لا يكاد يختلف عن الفوضى التامة مما جعل المخلصين من أبناء الأمة

العربية فى جميع بلاد هذه الأمة يدركون الأخطار العظيمة التى تأتى من هذه الفوضى الثقافية ، ورأى ساطع ان علاج ذلك هو بذل الجهود لتخليص الثقافة العربية مما لحق بها من شوائب .

وعندما وافق مجلس جامعة الدول العربية فى جلسته المنعقدة فى السابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٤٥ على المعاهدة الثقافية (وكان ساطع عضوا فى اللجنة الثقافية وهى احدى اللجان التى تألفت وفق احكام ميثاق جامعة الدول العربية وأعدت مشروع هذه المعاهدة الثقافية) كتب بعد توقيع هذه المعاهدة فى حوليته الأولى للثقافة العربية يقول :

« ويجب ان نلاحظ أن الغاية التى ترمى اليها الدول العربية من عقد هذه المعاهدة الثقافية لا تقتصر على تقوية العلاقات الثقافية فيما بينها كما هو المعتاد فى المعاهدات الثقافية التى تعقد بين الدول الأوربية والأمريكية ، بل أنها تتعدى ذلك الى غاية أسمى وأوسع ، وهى تقريب وتوحيد نظم التعليم فى مختلف البلاد العربية وضمان تعاون جميع الدول العربية فى سبيل تكوين (ثقافة عربية موحدة) تستمد قوتها من تاريخ الأمة العربية ، وذلك لأن جميع الشعوب العربية تعتز بتاريخ مشترك طويل وحين يتكلم بلغة واحدة ، كما انها تجابه مشاكل خطيرة متشابهة وتندفع نحو غايات متماثلة يجب أن تعتبر نفسها لذلك كله بمثابة شعوب منتسبة الى أمة واحدة .. ويلاحظ مفكرو هذه الشعوب أن الظروف السياسية التى سيطرت عليها منذ مدة باعدت بين نظمها التعليمية تباعدا غريبا وأوجدت فى شئونها الثقافية الشىء الكثير من البلبلة والفوضى فأصبح من واجب الدول العربية بعد أن نالت استقلالها السياسى وصارت سيدة شئونها العامة أن تعمل عملا متواصلا لازالة هذه الفروق الموروثة من الأوضاع السياسية

الماضية وأن تسعى بكل الوسائل وراء تكوين (ثقافة عربية عصرية موحدة)

ويؤكد ساطع ان هذا هو الهدف الأسمى لما تسعى اليه جامعة الدول العربية فى الشئون الثقافية والغرض من المعاهدة الثقافية .

لكن ساطعا الذى علق الأمل الكبير على جهود جامعة الدول العربية فى سبيل توحيد الثقافة العربية سرعان ما أصيب بخيبة أمل من جراء عدم تحقيق هذه الجامعة للكثير مما ينبغى عليها أن تحققه فى هذه الناحية .. فلا هى أصدرت التقويم الخاص بالبلاد العربية ، هذا التقويم المفروض فيه أن يشتمل على كل المعلومات المختلفة المتصلة بالشئون الثقافية والادارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، ليكون مرجعا يوثق به فى التعرف على شئون هذه البلاد ، ولا هى فهرست للمطبوعات العربية برغم ماقررته اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ، فى دورتها الرابعة التى عقدت فى لبنان . كذلك لم تصدر الجامعة العربية كتابا فى جغرافية البلاد العربية ، برغم ما قرره المؤتمر الثقافى العربى الأول بأنه يوصى الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية أن تتخذ ما يلزم من الاجراء لاعداد اطالس وخرائط جغرافية للبلاد العربية؛ كما قرر المؤتمر أنه نظرا الى الحاجة الماسة الى مؤلف مفصل يتناول جغرافية البلاد العربية جميعا يكون بمثابة مرجع جغرافى يحوى آخر ما وصل اليه العلم .

وتحقيقا لهذه الغاية يوصى المؤتمر ان تتولى جامعة الدول العربية تأليف لجنة فنية لاتخاذ الوسائل اللازمة لتنفيذ هذا الاقتراح . لكن شيئا من ذلك لم يتحقق مما دفع ساطع الى ان ينتقد جامعة الدول العربية من هذه الناحية .

كذلك يلاحظ الحصرى انه كان من مقررات المؤتمر الثقافي العربى الأول المنعقد سنة ١٩٤٧ .. عقد مؤتمرات دورية لمعلمى اللغة

العربية لاهمية هذه اللغة ، فهى كما جاء فى مقررات المؤتمر عماد الثقافة العربية .. لكن شيئا لم يتحقق من ذلك هو الآخر بالاضافة الى قرارات اللجنة الثقافية اتخاذ الاجراءات لمكافحة الأمية ، وتعليم اللغة العربية فى المهاجر وفى البلاد غير العربية . كل هذا بقى كما يقولون حبرا على ورق ومقررات لم تخرج الى خير التنفيذ ، كما أن قرارات اللجنة الثقافية بتوجيه السينما فى البلاد العربية ومراقبة الأفلام التى تعرضها دور اللهو واعداد افلام ثقافية لم يتحقق شيء منه .

أما بخصوص الأذاعة في البلاد العربية ، فقد كان من قرارات اللجنة الثقافية فى دورة انعقادها الثانية العمل على تقوية الاذاعة العربية حتى تسمع فى كل بلد عربى ، وأن تلتزم هذه الاذاعات العربية باستعمال اللغة الفصحى قدر المستطاع .. كذلك تقرر توصية الدول العربية تنظيم اذاعات مدرسية يتولاها رجال التربية والتعليم لتثقيف النشء فى البلاد العربية .. كذلك كان من بين قرارات اللجنة الثقافية سنة ١٩٤٨ قرار بأن يعهد مجلس جامعة الدول العربية الى الأمانة العامة للجامعة انشاء محطة اذاعة كبرى تتضمن نشر الثقافة العربية والتعريف بها داخل البلدان العربية وخارجها . وفى نفس هذه الدورة قررت اللجنة قرارا يصفه الحصرى بأنه هام جدا ينص على أن تتبع الطرق الآتية للاستفادة من الاذاعة فى نشر الثقافة العربية : اذاعة حفلات شهرية مسجلة تشمل أغانى وأناشيد وموسيقى وقصص ومسرحيات تتخللها معلومات ثقافية ، واعداد أحاديث فى الثقافة الدينية يقوم بها كبار المتحدثين .

وحين يستعرض ساطع كل هذه القرارات التى لم تصدر الا بعد دراسة جادة عميقة أثبتت أهمية هذه القرارات وضرورة المبادرة بتنفيذها . يخلص الى انه برغم ذلك فان شيئا منها لم

ينفذ ، وكأن القرارات شيء والتنفيذ شيء آخر أو كأن القول شيء والعمل شيء آخر .

ومن بين مقررات اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية سنة ١٩٤٧ .. تكليف الكتاب بكتابة المقالات التي تعالج القضايا العربية، وبدأ التنفيذ بأن أصدرت الادارة الثقافية سنة ١٩٤٩ .. الجزء الأول من كتاب عنوانه العالم العربي لكنها انقطعت بعد ذلك عن العمل في هذا السبيل .

كذلك فانه بالرغم من أن من بين قرارات مؤتمر الثقافة العربية في سنة ١٩٥٠ الذي انعقد بالاسكندرية قرار بالاعداد لمؤتمر ثقافي عربي ثالث ، وتأليف لجنة برياسة الدكتور طه حسين، وباشتراك ممثلي الحكومات العربية والادارة الثقافية بجامعة الدول العربية للمعاونة للاعداد للمؤتمر المقبل ، كما تقرر أن يكون من أعمال هذه الادارة الثقافية وضع كتاب عن خصائص الثقافة العربية ومقوماتها ، والمشكلات التي تواجهها ، ووضع كتاب في وصف خصائص الثقافات الغربية بهدف عمل المقارنة بينها وبين الثقافات العربية ، وكان من المفروض كذلك ان تقوم الادارة الثقافية بجمع الوثائق والاحصاءات عن حال الثقافة الحاضرة في البلدان العربية .

لكنه حين عقد مؤتمر الثقافة العربية في بغداد سنة ١٩٥٧ لم يبحث أية مسألة من هذه المسائل ، كذلك اتخذت اللجنة الثقافية في تواريخ مختلفة قرارات عدة بشأن الترجمة والتأليف منها نشر صحيفة دورية تعرف بالانتاج في مجال التأليف والترجمة في العالم العربي ، وما قررته اللجنة الثقافية في سنة ١٩٥١ من تخصيص جائزتين الأولى لأحسن كتاب عربي علمي أو أدبي يخدم فكرة تتصل بتحقيق أهداف الجامعة العربية .

ولكن الصحيفة المذكورة لم تصدر ، وأما ترجمة بعض الكتب ففي رأيه إنها خرجت عن خطتها في هذا المجال .

وفي مجال التربية الوطنية كان من قرارات مجلس جامعة الدول العربية سنة ١٩٥٢ بناء على ما عرضته عليه اللجنة الثقافية قرار يتعلق بالتربية الوطنية ، وهو أن تعتني الدول العربية بالقدر المشترك في كتب اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية ، كذلك أوصى المجلس الحكومات العربية ألا تقرر جهات الاختصاص للتدريس الا الكتب التي عني مؤلفوها باستيعاب القدر المشترك من عناصر الثقافة العربية .

ويرى الحصرى أن ذلك ايضا كله قد اهمل تنفيذه .

كذلك يحمل ساطع على أولئك الكتاب الذين يتحدثون عما اسموه امما عربية ، فليس هناك سوى أمة عربية واحدة ، وهو بهذا يشير الى ما جاء في بعض القرارات التي طبعتها الادارة الثقافية سنة ١٩٥٦ وجاء فيها كلمة أمم عربية .

ومن أهم جهود ساطع في المجال الثقافي أثناء توليه منصب المستشار الفني للادارة الثقافية بجامعة الدول العربية هو انشاؤه لمتحف الثقافة الغربية سنة ١٩٤٩ ، وجعله تابعا للادارة الثقافية وعلق ساطع على انشائه أهمية كبيرة . فلقد كان هدفه من هذا المتحف كما سبق لنا القول هو جمع المعلومات والوثائق المتعلقة بالثقافة العربية ونظم المعارف ، واعطاء فكرة واضحة عن الفروق القائمة بين كل قطر عربي في المجال التعليمي والثقافي .

وبعد أن أعدت جامعة الدول العربية مكانا مناسبا لهذا المتحف عادت فنقلته الى مبناها الجديد ولم تعطه المكان المناسب به . وساء ساطع أن المتحف قد تقلص وتوقف عن النمو وانحصر في غرفتين وتحول الى مايشبه المخزن .

وأحب أن أشير هنا الى أمر ينبغى توضيحه ذلك أن ساطعا حين انتقد الجامعة العربية فى بعض جوانب نشاطها لم يقصد أبدا الاساءة الى أحد من العاملين فيها أو المسئولين عنها وانما كان نقده نقدا موضوعيا يهدف منه الى الاصلاح ، ومن أجل هذا ظل يؤثر الكل بحبه وظل الكل يؤثرونه بحبهم . ويوضح سبب نقده بأن المؤسسات التى تنشأ لأغراض خاصة وأهداف معينة يترتب عليها ألا تنفك عن التفكير فى تلك الاغراض ، وعن التوجه نحوها ، والعمل من أجلها مع البحث عن أفضل السبل الى تحقيقها ، ان هذه الابحاث الانتقادية تهدف الى نقد الاعمال والخطط والاتجاهات واظهار ما طرأ عليها من انحرافات ، وتدعو الى الاصلاح وفق ما تقتضيه الرسالة العلمية والقومية السامية التى انشئت من أجلها أجهزة الثقافة التابعة لجامعة الدول العربية .

فهو مثلا يشيد بمعهد المخطوطات العربية الذى أنشىء سنة ١٩٤٦ ، ومهمته جمع فهارس المخطوطات العربية فى دور الكتب العامة والخاصة ، وفهارس المخطوطات التى يمتلكها الأفراد لتوحيدها فى فهرس عام ، وتصوير أكبر عدد ممكن من المخطوطات العربية القيمة لكى توضع هذه المصورات تحت تصرف العلماء ، كذلك من مهمة هذا العهد طبع صور المخطوطات القيمة ذات النص الصحيح والخط المقروء ، والى جانب هذا كله فان من مهمة المعهد تنظيم التعاون بين العلماء والمؤسسات العلمية فى سبيل نشر المخطوطات ، وتزويد الناشرين بالمعلومات اللازمة عن المخطوطات التى يعنون بها .

أشاد ساطع بهذا المعهد فكتب عنه فى الحولية الأولى « واصل المعهد اعماله وفق الخطة المقررة له وبلغ عدد المخطوطات التى صورها ٢٠ ألف مخطوطة » .

أما مفخرة ساطع فى المجال الثقافى فهى بلا شك حولياته

الضخمة الواسعة التى أصدر منها ستة أعداد وتناول فيها الاحوال الثقافية فى البلاد العربية ما بين سنة ١٩٤٥ ، سنة ١٩٦٢ .

صدرت أول حولية لساطع سنة ١٩٥٠ حيث تناول فيها الشئون الثقافية لخمس دول عربية هى مصر والعراق ، وسوريا ، ولبنان والاردن فى الفترة ما بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٥٠ وصدرها بمقدمة وضعها فى صدر باقى حولياته ، وكأنه يريد بذلك أن يركز على الغرض من هذه الحوليات ، والتذكير بذلك دوما .

أما أهم هذه الأغراض التى توخاها ساطع من حولياته الثقافية فهى كما استطعنا أن نلخصها على النحو التالى :

١ ــ اراد ساطع أن يبرر سبب تناوله للاحوال الثقافية فى البلاد العربية فى عدد من السنين فى كتاب يصدر باسم الحولية ــ مع أن المعروف انها (الحولية) تؤلف من حيث الأساس لاستعراض الاحداث فى عام واحد ، أو حول معين ومن أجل هذا تسمى بالحولية ــ فقال ان فهم الأحوال فى عام معين يتوقف على معرفة ما سبقه فى أعوام ، ومن ثم فان مؤلفى الحوليات يضطرون الى أفتتاح مباحثها بمعلومات عامة عن الأحوال الراهنة ، والعوامل التى أثرت فى تلك الأحوال .

ثم هو يوضح مدى ما واجهه من صعوبات فى عمله ، ذلك ان الكتب التى تصف الاحوال الراهنة فى ميادين الثقافة تكاد تكون مفقودة لا بالنسبة الى البلاد العربية بمجموعها فحسب ، بل بالنسبة الى كل قطر من الأقطار العربية بمفرده أيضا ، حتى أصبح من يود الحصول على فكرة واضحة حتى ولو كانت اجمالية عن الأوضاع الثقافية فى أى قطر من الأقطار العربية يضطر الى مراجعة عدد كبير من الكتب والمطبوعات بعضهـا موجود متوافر وبعضها غير موجود ولا متوافر .

٢ ــ هناك غرض أهم من سابقه وهو ان الثقافة العربية لم

تكن من الثقافات المنطوية على نفسها ، بل انهـا من الثقافات الواسعة من الوجهتين المادية والمعنوية ، فلقد لعبت دورا هاما فى تاريخ الحضارة العالمية ، واللغة العربية كانت فى حقبة من الزمن لغة العلم فى كل انحاء العـالم المتمدين ، وهى لا تزال لغة الدين فى عالم فسـيح الأجاء ، والتاريخ العربى يمثـل لذلك عهدا من أهم العهود فى التاريخ العام ، ولهذه الأسباب كلها يرى ساطع أن الشئون العربية تسترعى اهتمام الكثير من الباحثين فى عدد غير قليل من معاهد البحث والتعليم في كثير من البلاد الغربية لغايات علمية تارة وسياسية تارة أخرى ، لذلك كان من الواجب أن تكون هناك هذه الحوليات التى تمثل مصادر للبحث للكثيرين من أبناء الأمة العربية وغيرهم ، فضلا عن أن الكثير من المصـادر التى اعتمدت عليها هذه الحوليات بعضها ضـاع وانقرض وأهمل حفظه ، ومن ثم كانت هذه الحوليات وثائق هامة ليس هناك شىء يقلل من شأنها .

أما المنهج الذى اتبعه سـاطع فى هذه الحوليـات فكانت الدراسة الموضوعية والوصف الحيادى كما قال .. « هذا ولا بد لى من التصريح اننى وصفت الأحوال الراهنة وصفا حياديا ذلك لاعتقادى أن للنقد مجالات أخرى غير صحائف هذه الحوليات التى تصدر باسم الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية .. واذا صادف القراء فى بعض مواضع هذه الحولية ما يشبه نقد هذه الأوضاع أو الدفاع عنها فأرجو ان يلاحظوا فى الوقت نفسه ان تلك الكلمات منقولة عن الوثائق الرسمية بغية اظهار النزعات والاتجاهات التى تحوم حول تلك الأوضاع ، وهى لا تعبر قط عن رايى الشـخصى فى الأمر ، فلا تخـرج لذلك عن نطاق الخطـة الأساسية التى ذكرتها آنفا خطة وصف الاحوال الراهنة . وعلى كل حال استطيع أن أوكد اننى لم أبد رأيا شخصيا الا فى وضـع

واحد من الحولية ، وهذا الموضــع هو قائمة النظريات التاريخية التى تتقدم على المقارنات العامة وقد قلت هناك ما يلى : يظهر من هذه النظريات السريعة التى القيناها على تاريخ المعارف فى مختلف الاقطار العربية أن الفروق التى تشاهد بين هذه الاقطار من حيث نظم التعليم واتجاهات الثقافة لم تكن نتاج طبيعة البلاد الأصلية ؛ وحاجاتها الحقيقيه ؛ انما كانت من نتاج السياسات الأجنبية التى سـيطرت على مقدراتهـا عن طريق الانتداب أو الاحتلال » .

واذا كان ســاطع قد التزم لنفســـه منهجا هو عدم نقد الاوضاع القائمة أو المؤسسات المشرفة على شئون التعليم والثقافة عند كتابته لهذه الحوليات ، فان رأيه الشـخصي كان يبرز فى بعض المواضع من هذه الحوليات ، مثال ذلك ماكتبه فى الحولية السادسة عند حديثه عن العلاقات الثقافية بين الدول العربية والدول الأجنبية ؛ فهو يتحدث عن اليونسكو وعن المشروع الذى كان قد تقدم به مديرها السابق لانشاء مركز اقليمى للثافة فى الشرق الأوسط يتبع ذلك بقوله (ولم يدرك مدير اليونســكو) أن الثقافة لاتتبع الجغرافيا الطبيعية فضلا من أن مفهوم الشرق الأوسط وليد اعتبارات سياسية أكثر مما هو نتيجـة ملاحظـات جغرافية) ولايذكر ساطع أنه هو الذى هاجم هذا المشروع فيقول انه عندما عارضته بعض الجهات تعدلت الفكرة واتجهت الى انشاء مركزين اقليمين يختصان بالعالم العربى وحده :

١ ـ مركز أقليمى للتربية الإساسية فى العالم العربى .

٢ ـ مركز أقليمى لتدريب كبار موظفى التربية فى الدول العربية .

وخصص ساطع حوليته الأولى لدراسة خمس دول من

الدول العربية المستقلة لكنه في الحوليات التى تلت ذلك تناول الدول العربية المستقله وغيرها من الدول التى كانت لاتزال خاضعة للاحتلال الى جانب الامارات والشيخات العربية ٠

ففى الحولية الثانية أضاف الى أبحاثه المملكة العربية السعودية ، وكذلك الأقطار العربية التى كانت خارج الجامعة العربية وهى بلاد المغرب العربى . كذلك درس ساطع فى هذه الحولية الاوضاع التعليمية والثقافية فى ليبيا والامارات العربية بجانبها امارة الكويت والبحرين .

أما فى حوليته الثالثة فقد تناول فى كتابها الأول الأقطار العربية المستقلة ، ثم تناول بالدراسة الاقطار العربية المحرومة من الاستقلال والباقية خارج جامعة الدول العربية ، وخصص الكتاب الثالث للنشاط الثقافى فى جامعة الدول العربية ٠

رأى ساطع أن أبحاث الثقافة العربية يجب أن تشمل الأمور التالية :

١ ـ المعاهد العلمية والمؤسسات الثقافية القائمة فى بلاد الدول العربية المتنقلة والحركات الثقافية التى تتجلى فيها ٠

٢ ـ الأوضاع لثقافية من علمية وتعليمية فى البلاد المختلفة ٠

٣ ـ الدراسات والتدريبات التى تقوم بها معاهد البحث والتعليم في البلاد الغربية والشرقية عن كل ما يتصل بالعرب والعروبة .

لكنه يرى ان استيفاء هذه الأبحاث كلها فى كتاب واحد مع ما تستلزمه من مقدمات من الأمور المتعسرة جدا ، لذلك رأى أن يوزعها على حولتين أو ثلاثة ، وأن يقصر أبحاث الحولية الأولى على الأوضاع الثقافية القائمة فى البلاد العربية المستقلة وحدها ٠٠

كانت تلك خطته التي اوضحها في مقدمة حولتيه الأولى التي جاءت في حوالي ٦٢٣ صحيفة .

ثم رأى أن يتوسع في جولتيه الثانية بعض التوسع في وصف الشئون الثقافية بمعناها العام . لكنه يعتذر للقارىء انه لم يجد من المتسع الضروري ما يسمح له باستيفاء هذه الأبحاث لكثرة المباحث المتعلقة بنظم التعليم ومناهجه .. ورأى انه بقي لاتمام الخطة التي ذكرها والتزم بها أمام القارىء العربي والتي أوضحها في مقدمة حوليته الأولى مهمتان أساسيتان :

١ ـ التوسع في أبحاث المؤسســات الثقافية والحركات الثقافية .

٢ ـ استعراض كل مايتصل بالثقافة العربية في خارج البلاد العربية ولا سيما في المهاجر التي تضم جاليات عربية كبيرة .

ووعد ساطع القارىء بأن يقوم بهذه المهام في حوليته القادمة (الثالثة) .

فاذا ما كتب حوليته الثالثة التي صـــدرت له سنة ١٩٥٣ والتي كتب مقدمتها في برمانا بتاريخ ١٩٥٢/١٠/٣ يعتذر للقارىء أنه لم يف بما وعد بسبب أن الابحاث والوثائق التي تجمعت لديه عند كتابة هذه الحولية كانت كثيرة ومتنــوعة ، ومن ثم فقد راى من الاوفق تأجيل قسم من تلك الأبحاث الى الحولية الرابعة.

ثم اراد ساطع أن تكون الحولية الرابعة هي آخر الحوليات التي يصدرها وخاتمتها فهو يقول في قائمة هذه الحولية : « هذه الحولية الرابعة هي خاتمة حوليات الثقافة العربية التي أخذت على عاتقي مهمة متابعتها قبل نحو خمسة أعوام . انها تتمم الحوليات الثلاث السابقة ، وتؤلف معها شبه موسـوعة تضم

مجموعة من المعلومات والوثائق الأساسية عن أوضاع التعليم واتجاهات الثقافة فى مختلف أقطار العالم العربى فى أواسط القرن العشرين . هذه المعلومات مسرودة على وجه الاجمال حتى السنة الدراسية ٤٧ ، ٤٨ وعلى التفصيل منذ السنة المذكورة حتى السنة الدراسية ٥٢ - ١٩٥٣ .

ثم يتواضع ولا يحب المفاخرة فيقول : « انى لا ادعى الكمال فى هذه الحوليات ، بل بعكس ذلك اعرف وأعترف بأنها فى حاجة الى المزيد من المعلومات فى كثير من فصولها ، ومع هذا أقول ان هذا ما استطعت أن اجمعه بعد بذل جهود عظيمة ومتواصلة ..

« فقد نشرت هذه الحوليات على الرغم من النواقص التى اشرت اليها اعتقادا منى بأنها ستفيد الباحثين وستوفر عليهم كثيرا من المشاق وتركت الى غيرى من الأفراد والهيئات مهمة العمل على اتمام نواقصها من ناحية ، وعلى أصدار أمثالها من ناحية أخرى .

« انى التزمت فى هذه الحوليات الخطة التى صرحت بها فى مقدمة الحولية الأولى . انى وصفت الاحوال الراهنة وصفا علميا حياديا دون ان استسمح لنفسى بابداء رأيى الشخصى فيها لا استحسانا ولا استهجانا ، ذلك لاعتقادى بان للنقد ميادين ومناسبات أخرى غير صحائف هذه الحولية التى تصدر باسم الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، والتى يترتب عليها أن تصف الاحوال الثقافية كما توصف خصائص الأرض والمناخ فى كتب الجغرافيا الطبيعية .

« واذا صادف القراء فى بعض المواضع من هذه الحولية ما يشبه نقد الأوضاع أو الدفاع عنها ، فأرجو ان يلاحظوا فى الوقت نفسه ان تلك الكلمات منقولة عن الوثائق الرسمية بغية

اظهار النزعات والاتجاهات التي تحوم حول تلك الأوضاع ، وهي لا تعبر عن رأيي الشخصي في الأمر ، فلا تخرج لذلك عن نطاق الخطة الأساسية التي ذكرتها آنفا خطة وصف الأحوال الراهنة كما هي وصفا علميا » .

وشعر ساطع ان انتهاءه من هذه الحولية وتوقفه عندها سيعطيه الفرصة لينتقد ما لم يستطيع ان ينقده وهو يكتب هذه الحوليات فنجده يقول :

« غير أني في هذه اللحظة التي أتحرر فيها من أعباء تأليف هذه الحوليات أشعر أنه يترتب علي واجب آخر ، وهو نقد هذه الأوضاع ، وابداء رأيي الشخصي فيها ، مع اقتراح التدابير الكفيلة باصلاحها . اني أشعر بهذا الواجب وأتمنى بكل جوانحي أن أجد في المستقبل متسعا من الوقت بين أشغالي الثقافية الأخرى الى تأدية هذا الواجب » .

ونهج ساطع في هذه الحولية الرابعة النهج الذي سار عليه في سابقاتها فهو يقسمها الى كتب ثلاثة : الكتاب الأول لدراسة الأقطار الداخلة في نطاق جامعة الدول العربية ويسير في ترتيبه لهذه الأطار على الترتيب الهجائي لأول حرف فيها فيما عدا فلسطين فهو يضعها في أول هذه الأقطار ، وكأنه لحرصه على تأكيد بقاء فلسطين برغم احتلال الصهيونيه لأجزاء منها ، ورغبة منه في أن ينقل هذا التأكيد للقارىء قد استثناها من ذلك الترتيب . ويلخص ما سبق ان كتبه عن فلسطين تحت عنوان نظرات عامة .

ان المعلومات الأساسية المتعلقة بتاريخ التعليم وانظمة المعارف وأوضاع المدارس في فلسطين في كل من عهد الحكم العثماني وعهد الانتداب البريطاني ، ومنذ بدء الطغيان الصهيوني

مسطورة فى الحولية الثانية (ص ٣ ــ ٦٣) والمعلومات الاحصائية المتعلقة بتعليم ابناء اللاجئين فى كل من الأردن وسورية ولبنان وقطاع غزه حتى سنة ١٩٥٢ .. مسطورة فى الحولية الثالثة (ص ٦١ ــ ٧٠) ، ونلمرك فيما يلى الاحصاءات المتعلقة بالسنة الدراسية ١٩٥٢ ــ ١٩٥٣ . ثم يتبع ذلك باحصاءات عن عدد اللاجئين ، عدد التلاميذ ابناء اللاجئين .. .

اما الكتاب الثانى من هذه الحولية فتناول فيه الاقطار العربية خارج الجامعة العربية ، وكانت فى الوقت الذى كتب فيه ساطع ذلك هى تونس ثم امارة البحرين وامارة الكويت .. وخصص الحصرى الكتاب الثالث للنشاط الثقافي العام ، ثم النشاط الثقافى العام المستقل عن جامعة الدول العربية ، ثم بحث عن الثقافة العربية خارج البلاد العربية بين الجاليات العربية ــ الثقافة العربية فى البلاد الاسلامية (ايران ــ تركيا ــ باكستان) ــ الثقافة العربية فى البلاد الغربية (فرنسا ، انجلترا ، ايطاليا ، اسبانيا ، البلجيك ، الولايات المتحدة الامريكية) .

أراد ساطع حين تناول هذه الأبحاث الأخيرة أن يكون عند وعده للقارىء فلقد سبق أن وعده فى حولياته السابقة (فى الثانية ثم الثالثة) ان يتناول بالدراسة الثقافة العربية فى خارج البلاد العربية ولا سيما فى المهاجر التى تضم جاليات عربية كبيرة ، كذلك سبق ان وعد بان يتناول بالدراسة ما تقوم به معاهد البحث فى البلاد الغربية والشرقية عن كل ما يتصل بالعرب والعروبة . ولكنه فى هذه الحولية تناول بالدراسة غير الموسعة ، وضع الثقافة العربية فى بعض البلاد الغربية فقط .

ثم توقف ساطع ثلاث سنوات بعد صدور الحولية الرابعة . ثم نراه وقد عدل عما سبق أن قرره من توقفه النهائى عن اصدار

هذه الحوليات فاصـــدر الحولية الخامسة ، وقال في خاتمتها انه وان كان قد سبق ان وعد القارىء بان تكون الحولية السـابقة هي خاتمة الحوليات الا أنه عدل عن قراره ، وان كان قد انقطع بالفعل بعد اتمام الحولية المذكورة عن متابعة تطورات التعليم والثقافة في مختلف البلاد العربية المنتظمة والمستمرة « التي كنت افرضها على نفسى بغية تأليف الحوليات » .

« ولكنى هذه السنة (١٩٥٦) عدلت عن القرار الذى كنت اعلنته عندئذ واقدمت على تأليف حولية خامسـة (يلاحظ انه كتب الحولية الرابعة سنة ١٩٥٣) » .

ثم يوضح ساطع الســـبب الذى من أجله عدل عن قراره ، وبدأ جمع المعلومات والوثائق المتعلقـة بالســـنوات الثلاث التى مضت على صدور الحولية الرابعة .

« أولا : انى تلقيت خلال السنوات المذكورة كثيرا من الاسئلة والخطابات التى تأسف لتوقف الحوليات وتتمنى الاســـتمرار على اصدارها .

« ثانيا : لقد لاحظت انه خلال السنوات الثلاث المذكورة حدثت تغييرات كثيرة وكبيرة فى أوضاع التعليم ونظمه فى مختلف الأقطار العربية ، فكثرت الأوضاع الجديدة التى تحتاج الى جمع وتدوين لاتمام المعلومات المدرجة فى الحوليات السابقة .

« ثالثا : لقد تخلصت هذه السنة من أعباء ادارة معهد الدراسات العربية العالية (فلقد اســـتقال من منصب مدير المعهد وذلك اعطانى مجالا لتخصيص قسم من أوقاتى لتأليف حولية خامسة لاتمام عملى السابق فى هذا المضمار .

« انى اقدمت على تأليف هذه الحولية لهذه الأسباب ، ولقـد

اتبعت فيها الخطة الأساسية التي كنت قد شرحتها فى مقدمة الحولية الأولي : سرد الاوضاع والنظم كما هي دون نقدها بوجه من الوجود . ولا حاجة الي الى البيان أن ذلك لا يعنى انى لم أجد ما يستوجب النقد بل بعكس ذلك ان الاوضاع والنظم المذكورة اثارت في ذهني كثيرا من الملاحظات والانتقادات ، الا أني لم اسمح لنفسى بدرج شيء منها في هذه الحولية ، لأني اعتقد أن ذلك يجب أن يكون موضوع كتاب خاص ، أتمنى أن أجد الفرصة لنشره فى المستقبل ، لذلك تصدر هذه الحولية كسابقاتها متضمنة اتم المعلومات عن الاحوال الراهنة ومجردة عن النقد والتعليق » .

ومضى ساطع فى الحولية الخامسة على نهج سابقاتها من حيث تقسيمها الى كتب ، يتناول فى الأول الأقطار العربية الداخلية في نطاق جامعة الدول العربية ، ويتناول فى الثانى نفس ما تناوله فى الكتاب الثانى من حوليته السابقة وهكذا ... الى آخره ..

وطالت الفترة التى توقف عندها ساطع حتى وصلت الى سبع سنوات ثم عاد فى سنة ١٩٦٣ .. ليصدر الحولية السادسة ، وقال انها عن الاعوام الدراسية ٥٧ ــ ١٩٥٨ ــ ٥٨ ــ ٥٩ ــ ٦٠ ٦١ ــ ١٩٦٢ .

اتبع ساطع فى هذه الحولية منهجا مخالفا لما اتبعه فى الحوليات السابقة .

وتعد هذه الحولية السادسة أضخم حولياته من حيث الحجم والمادة فهى تقع فى ٩٥٦ صحيفة . وكتب فى مقدمتها مبررا الاسباب التى دعته الى ان يعدل قراره بالتوقف للمرة الثانية ..

«أما الاسباب التى دفعتنى الى ذلك فكانت عديدة .

منها طلب الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية والحاحها

في الطلب ، ومنها تعدد الاسئلةوالطلبات التي تلقيتها من المهتمين بشئون التربية والتعليم والتثقيف فى البلاد العربية من ناحية وفى البلاد الغربية من ناحية أخرى . ومنها ملاحظتى بأن السنوات التى مضت على صدور الحولية الخامسة كانت تفيض بالتطورات السياسية التى أثرت تأثيرا واضحا على أوضاع التربية والتعليم، والثقيف فى البلاد العربية وشعورى بأنه أصبح من الواجب على أن أقوم بتأليف هذه الحولية ما دام لم يقل ذلك احد الى الآن ..

« لقد اتخذت قرارى الجديد وباشرت العمل فى تأليف هذه الحولية في أواسط شهر تموز وأنا فى جنيف ولم أنته منه الا اليوم (٦٣/٣/١٨) وانا فى القاهرة .

« لابد لى من التصريح فى هذا المقام اني اتبعت فى هذه الاحوال والأوضاع كما هي وفقا للنصوص والتقارير والاحصاءات الحولية الخطة التي رسمتها وأعلنتها فى الحولية الأولى : السرد الرسمي دون أن ابدى رأيي الشخصى فيها .. لذلك أعيد طبع مقدمة السنة الأولى كما فعلت فى جميع الحوليات السابقة » .

بدأ ساطع دراسته فى هذه الحولية السادسة بنظرات ومقارنات عامة بين المؤسسات التى تتولى مهمة التربية والتعليم والثقافة فى البلاد العربية ، وكذلك لغة التعليم . وكأنه أراد بذلك ان يؤكد على الهدف الذى من أجله بدأ أول حولية ، وهو اظهار الفروق بغرض التقريب والعمل على ازالة هذه الفروق ما امكن بين الدول العربية .

ولم يقتصر فى بحثه على المدارس التابعة لوزارات التربية والتعليم فى البلاد العربية ، بل ادخل ضمنها بعض المدارس والمعاهد التابعة الى وزارات أخرى طالما انها تقوم بمهام تعليمية باستثناء الكليات الحربية التى قال انها خارج نطاق ابحاثه .. ومع هذا ادخل فى نطاق ابحاثه بعض المهام التعليمية التى تتولاها وزارة الدفاع الوطنى فى الأردن لأن الوزارة المذكوره تدير على حد قوله

بعض المدارس العامة التى انشأتها في البيئات البدوية ، ولأن من بين هذه المدارس ما كان فى مستوى التعليم الابتدائى وما كان فى مستوى التعليم الاعـدادي والثانوى وبعضـها من نوع رياض الاطفال ، ولأن وزارة التربية والتعليم فى المملكة الاردنية تدخل هذه المدارس فى الاحصاءات العامة .

قارن ساطع بين البلاد العربية من حيث اختلاف الاسم الذى تطلقه هذه الدول على الوزارات القائمة بالتعليم بعضها تسميها وزارة التربية والتعليم والبعض الآخر يطلق عليها وزارة التربية الوطنية ، كما هو الحال فى الجمهورية اللبنانية والمملكة المغربية والجزائر ، وتسمي عند البعض الآخر بوزارة المعـارف ، وعند البعض بكتابة الدولة للتربية القومية (الجمهورية التونسية) ثم قارن بين النظم التعليمية فى هذه البلاد ولغة التعليم ثم تناول بالمقارنة التعليم المختلط (المدارس التى تتولى تعليم البنين والبنات معا وهى تعرف فى بعض البلاد العربية بالتعليم المختلط وفى بعضها الآخر بالتعليم المشترك) واوضح اختلاف موقف الحكومات العربية من مبدأ الاختلاط وجاء باحصاءات عن عدد الطالبات فى الجامعات العربية .

ثم اتبع ذلك بنظرات احصائية عن العام الدراسى ٦١ ــ ١٩٦٢ (المدارس ــ الجامعات ــ التعليم الفنى ــ البلاد العربية) .

وتناول بعد هذه الاحصاءات العلاقات الثقافية بين الدول العربية والدول الأجنبية (المكتب الدولى للتربية ــ اليونسكو)

كما درس ساطع فى هذه الحولية العلاقات الثقافية بين الدول العربية ، ثم اتبع ذلك بتناول الدول العربية مرتبة حسب حروفها الهجائية ، ويلاحظ انه لم يضع فى مقدمتها هذه المرة فلسطين وانما وضعها فى وضعها الصـحيح من حيث ترتيب أول حروفها هجائيا . وبعدها تنـاول البـلاد العربية المحرومة من الاستقلال

ومما يجدر ذكره انه اشار عند حديثه عن الدول العربية المستقلة ولأول مرة الى الجمهورية العربية اليمنية ، ولكن اشارته اليها جاءت عامة عابرة فى صحيفة واحـدة ولم يأت فيها بأى احصاءات عن المدارس أو غيرها بعد الثورة اليمنية واعتمد فى الاحصاء الذى جاء به على المدارس فى عهد ما قبل الثورة على نشرة للامم المتحدة .. واوضح أنه طلب من المملكة المتوكلية اليمنية مرارا ان تمده بالمعلومات كما طلبت الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية منها البيانات فلم تستجب هذه الحكومة اليمنية .

وسعد ساطع بقيام الثورة اليمنية ، وكان يأمل أن يستطيع فيما بعد الحصول منها على بيانات عن التعليم فى الجمهورية اليمنية .

ولا نجد ساطعا يتناول فى هذه الحولية النشـــاط الثقافى فى غير البلاد العربية أو الثقافة العربية فى البلاد غير العربية ، وانما اقتصر بحثه على النشاط الثقافى العام فى جامعة الدول العربية .

وكانت هذه آخر الحوليات التى أصدرها ســاطع الحصرى ، وأما نقد الأوضـــاع القـــائمة فى البـــلاد العربية من الناحيتين الثقافية والتعليمية ونقد نشـــاط جامعة الدول العربية فى المجال الثقافى فقد بدأه ساطع فصدر له كتابه « ثقافتنا فى جامعة الدول العربية » الذى انتقد فيه الكثير من اعمال الادارة الثقافية ، ومعهد الدراسات العربية العالية » على النحو الذى سبق أن أشرنا اليه.

ولم يستهدف ساطع من نقده عملية الهدم فحسب أو التجريح والتشهير وانما جاء نقده نقدا موضوعيا يستهدف الاشارة الى مواطن الداء بغية تشخصية والمبادرة الى علاجه . كان نقد ساطع نقد الوطنى المخلص الغيور على أمور أمته ، الحريص على أن تتبوأ أرقى مكانة لها بين الامم .

خاتمة

أرى من الواجب على قبل أن أختم هذا البحث أن أضع أمام القارىء العربى بعض الحقائق وأن أعرض عليه بعض ما يعن لى من أفكار وآراء .

أن هذه الدراسة التي قدمتها عن ساطع الحصرى ليست سوى لمس لبعض جوانب هذه الشخصية ، ومن أصعب الامور على الانسان أن يتناول فى بحث واحد مهما بلغ حجمه شخصية كشخصية ساطع الحصرى ، هو اشبه ما يكون بالموسوعة العربية التى جمعت فحوت وتناولت شتى المواضيع وركزت على كل شىء .

درس ساطع علم الاجتماع وألف فيه ، وأفاض ودرس العلوم الطبيعية وكتب عنها الكثير ، وألف فيها عدة كتب كما درس العلوم الرياضية وبانت مقدرته الفائقة فيها .

أما التاريخ والجغرافيا والسياسة فله فى كل من هذه العلوم باع طويل تشهد بذلك كتبه الكثيرة .. والى جانب هذا كله فله دراسته فى اللغات وآدابها والنقد الأدبى والأدباء واللهجات وغيرها من علوم اللغة .

لقد عاش ساطع الحصرى من أجل أمته العربية ، رآها فى

حاجة الى المخلصين من أبنائها والى أجيال تؤمن بها وتعمل من أجلها فكانت دراسته في علوم التربية وآراؤه فى التعليم سليمة صائبة تشهد الأيام بأنه ليس هناك خير منها لأبناء أمتنا العربية ٠

لكن الشيء الذى ينبغى أن يظل يذكره كل عربى بالفضل لساطع ، هو أنه كان على رأس الرعيل الأول الذى دعا الى القومية العربية ، والى تجسيد هذه القومية فى وقت كانت شخصية الأمة العربية قد ذابت فى شخصيات أخرى .. واتجه أبناؤها اتجاهات شتى ٠ هناك من أعتنق فكرة الجامعة الاسلاميه وتحمس لها وآمن بها ، ودعا البعض الآخر الى تحبيذ فكرة الاقليمية وبرزت هذه الفكرة واضحة جلية فى فكر الكثير من الكتاب والمفكرين المصريين فى أوائل هذا القرن ، وفى العشرينات والثلاثينات منه .. لكن ساطعا وقف يحارب كل هذه التيارات ويجند قلمه وفكره من أجل ذلك ، أخذ يبث روح التفاؤل والثقة فى نفوس أبناء الأمة العربية فى وقت انتشر اليأس والقنوط فى النفوس بفعل عوامل عديدة لا مجال لذكرها هنا ، ولكن أهمها وأخطرها كانت جهود الاستعمار فى هذا السبيل ٠

وبدأت من هذه الناحية أبحاث القومية تحتل العديد من كتب ساطع وجاء فيها الكثير المكرر لكنه كان يقصد بالتكرار هدفا ويرمى الى تحقيق غاية من ورائه ٠ كان يذكر ، وكان ينبه ، وكان يعيد على السامع ، لأن الكتاب العرب فى ذلك الحين كانوا قد انصرفوا عن هذه الناحية وأصبح القارىء العربى فى حاجة الى من يعيد اليه ويكرر عليه شيئا هجره الكتاب وخشوا مغبة تناوله حتى لا يتعرضوا لنقد أو تجريح ، أما هذا الشيء وأما تلك الفكرة فهى القومية العربية التى أخلص لها ساطع كل الاخلاص ٠

— وينبغى أن نشير الى حقيقة سبق لنا ذكرها ، وهى ان

ساطعا فيما كتب عن القومية لم يكن من أولئك الكتاب السياسين الذين يسخرون القلم لخدمة حزب بعينه أو سياسة معينة . فالمعروف ان ساطعا لم ينتم لحزب من الأحزاب ، ولم ينتسب لسياسة من السياسيات ، لكنه تبنى فكرة سامية وأعتنق رسالة عليا وهى القومية العربية .

ومات ساطع والأمة العربية أحوج ما تكون اليه ، واشد ما تكون طلبا لأفكاره وآرائه . واقامت الجمهورية العربية المتحدة حفل تأبين له دعا اليه الاتحاد الاشتراكى العربى في الخامس عشر من فبراير عام ١٩٦٩ ، ودعا فيه الاستاذ الدكتور لبيب شقير الجامعة العربية الى تخصيص أسبوع فى الجامعات العربية لدراسة فكر ساطع ودعوة الذين عاصروه وعملوا معه ، وشاركوه فى كثير من مراحل حياته والى أن يكتبوا مذكراتهم وذكرياتهم قبل ان يطويها الزمن في طى النسيان .

وبدات الهيئات العلمية والثقافية فى اقامة الندوات لدراسة فكر ساطع ، وكانت المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر رائدة فى هذه الناحية حيث عقدت ندوة لذلك فى الرابع والعشرين من مارس عام ١٩٦٩ .

وأرى ان ساطعا الحصرى يحتاج الى شىء أكثر من ذلك واعمق ، وهى ان تعتنق الأمة العربية آراءه وأفكاره وتعمل بها ، وتدعو اليها . عندئذ ترضى روحه وتهنأ ، وهذا ما قاله الاستاذ خلدون ساطع الحصرى عندما سئل عن افضل شىء تخلد به الأمة العربية ذكرى ساطع .

لقد أعطى ساطع الحصرى الأمة العربية كل فكره وجند من اجلها قلمه ووهب لها حياته وتعرض فى سبيلها للكثير من التشريد

والحرمان . وتمضى الأيام لتثبت أن الأمة العربية ليست فى حاجة الى شيء مثل حاجتها لفكر ساطع ولآرائه ومبادئه .

وأرى انه قد آن الأوان لأن تخصص لمادة القوميـــة العربية أحد الكراسى فى كل كلية من كليات الجامعات العربية وان كنت أقترح ان يطلق على هذا الكرسى اسم ساطع الحصرى . كذلك فانى أرجو أن تطلق الجامعات العربية اسمه على أحد مدرجاتها . هذا بالاضافة الى أنه ينبغى ان تقف المجالس المحلية فى البـلاد العربية منه موقفها من كل الشـــخصيات العربية الكبرى فتطلق اسمه على أحد شوارع المدن العربية الهامة .

أما وزارات التربية والتعليم فى البلاد العربية فعليها دين ينبغى أن تفي به له ، لقد عمل ساطع فى مجال التربية والتعليم الجزء الأكبر من حياته ، وخرج بالكثير من الآراء فى هذا المجال ، لذلك ينبغى أن تتناوله الكتب المدرسية بالدراســة في المراحل المختلفة من مراحل التعليم .

كذلك أنى على يقين أن الجامعة العربية هى الأخرى لن تبخل فى عمل الشيء الكثير من أجل ساطع الحصرى التى عمل فيها ، وتبنى الكثير من مشروعاتها ، وعلى رأسها معهد الدراسات العربيةالعالية .

كذلك يأمل المخلصون من أبناء هذه الأمة العربية من القائمين على شئون معهد الدراسات العربية العالية الشيء الكثير فى هذه الناحية واذا كان لا يحضرنى شيء محدد فى هذه الناحية فاننى أومن ان ادارة المعهد تفكر فى هذه الناحية ، وانها بسبيل اتخاذ الشيء الكثير فى هذا المجال .

رحم الله ســـاطع الحصرى واجزل له الثواب بقدر ما أدى لأمته وأخلص لها وعمل من أجلها ، لقد ترك من ورائه ذكرى

عطرة ونموذجا ومثلا لكل من يريد أن يكون جنديا من جنود هذه الأمة العربية المحبين لها ، والمتحمسين لكل ما فيه نفع لها .

لقد أرضى ربه وأرضى أمته بجهده الخالص وبنضاله المستمر المتواصل حتى آخر نفس فى حياته الدنيا .

ونحن من ورائه على الدرب نسير ، وبهدى من فكره نهتدى ، لنحقق مالم يشأ الله لسـاطع ان يشهد تحقيقه وهي الوحدة العربية الشاملة ، والله معنا على الطريق مؤيدا وناصرا.

وصدقه الله العظيم اذ يقول :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورســوله والمؤمنون »

فهرس

الهيئة العامة للتأليف والنشر
(دار الكاتب العربى)
١٩٦٩

ملتزم التوزيع
في الجمهورية العربية المتحدة وجميع انحاء العالم
الشركة القومية للتوزيع

مكاتب الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

١ — فرع شريف	٣٦ شارع شريف	تليفون ٤٠٠١٢	القاهرة
٢ — فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣٦	القاهرة
٣ — فرع ميدان عرابي	٥ ميدان عرابي	٤٩٣٨٣	القاهرة
٤ — فرع المبتديان	١٣ شارع محمد عز العرب	٢١١٨٧	القاهرة
٥ — فرع الجمهورية	٢٢ شارع الجمهورية	٩١٠٧١٢	القاهرة
٦ — فرع عابدين	١٤ شارع الجمهورية	٩١٤٢٢٣	القاهرة
٧ — فرع الحسين	ميدان الحسين		القاهرة
٨ — فرع الجيزة	١ ميدان الجيزة	٨٩٨٣١١	القاهرة
٩ — فرع أسوان	السوق السياحي	٢٩٣٠	أسوان
١٠ — فرع الاسكندرية	٤٩ ش سعد زغلول	٢٥٩٢٥	الاسكندرية
١١ — فرع طنطا	ميدان الساعة	٢٥٠٤	طنطا
١٢ — فرع المنصورة	ميدان المحطة		المنصورة
١٣ — فرع أسيوط	شارع الجمهورية		أسيوط

مراكز ووكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

١ — مركز توزيع الجزائر	شارع بن مهيدي العربي رقم ١١ مكرر	الجزائر
٢ — مركز توزيع لبنان	شارع دمشق	بيروت
٣ — مركز توزيع العراق	ميدان التحرير	بغداد
٤ — عبد الرحمن الكيالي	شارع ٢٩ أيار — دمشق	سورية
٥ — الشركة العربية للتوزيع	ص ب رقم ٤٢٢٨ بيروت	لبنان
٦ — قاسم الرجب	مكتبة المثنى — بغداد	العراق
٧ — رجا العيسى	وكالة التوزيع — عمان	الأردن
٨ — عبد العزيز العيسى	دار التوزيع ص ب ١٥٧١	الكويت
٩ — وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ — مكتب الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص — ليبيا	بنغازي
١١ — محمد بشير الفرجاني	٥٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ — الشركة الوطنية للتوزيع		تونس
١٣ — وكالة الأهرام	شارع الرشيد	عدن
١٤ — المكتبة الوطنية	المنامة — الخليج العربي	البحرين
١٥ — مكتبة العروبة	ص ب ٤٢ و ٩٤	الدوحة
١٦ — عبد الله حسين الرستماني	المكتبة الأهلية ص ب ٢٦١	دبي / عمان
١٧ — المكتبة الحديثة	ص ب ٩٧	مسقط
١٨ — أحمد سعيد حداد	المكتبة الوطنية ص ب ٢٥	المكلا
١٩ — مكتبة دار العلم	شارع عبد المغني ميدان التحرير	صنعاء
٢٠ — علي ابراهيم شمر	ص ب ٨٢	أسمرة
٢١ — عبد الله قاسم الحرازي	ص ب ١٧١٤	أديس أبابا
٢٢ — مكتبة مصر	ص ب ٩٣٦	مقديشيو
٢٣ — عبد الله حاتم محمد	ص ب ٨٤٥	ممباسا
٢٤ — مكتب توزيع المطبوعات العربية	لندن	لندن
٢٥ — المكتب التجاري الشرقي	٤٠ ش كمبتار ص ب ٢٠٠٥	سنغافورة
٢٦ — مكتبة مصر		الخرطوم
٢٧ — مكتبة النصر		وادي مدني
٢٨ — زكي جرجس مطيوس	ص ب رقم ١٥٥	الخرطوم
٢٩ — ابراهيم عبد القيوم	مكتبة القيوم ص ب ١٨٠	بور سودان
٣٠ — عوض الله محمود دوره	مكتبة دوره ص ب ٢٤	عطبره
٣١ — عيسى عبد الله	المكتبة الوطنية ص ب ٢١٥	وادي مدني
٣٢ — مصطفى صالح	ص ب ٤٤	كوستي

أسعار البيع للجمهور في الدول العربية

سوريا ٥٠ قرش سوري — لبنان ٥٠ قرش لبناني — الأردن ٥٠ فلس — العراق ٥٠ فلس — الكويت ٧٥ فلس — السودان ٥٠ مليم — ليبيا ٥٠ مليم — قطر ٧٥ درهم — البحرين ٧٥ فلس — عدن ١٠٠ سنت — أديس أبابا ٥٠ سنت — أسمرة ٥٠ سنت — الجزائر ٨٠ سنتيم

الهيئة العامة للتأليف والنشر

تقدم

من الكتب التي صدرت حديثا

اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

جـ ٢

تأليف العلامة : إدوارد جيبون

ترجمة : لويس اسكندر

١٢٠ مـ

وليم فوكنر

تأليف : إرفنج هاو

ترجمة : سعد عبد العزيز

٤٠ مـ

تطلب من مكتبات القومية للتوزيع

الهيئة العامة للتأليف والنشر

دار الكاتب العربي

...ام العرب

٨٧

أحمد شوقي

تأليف: د. ماهر حسن فهمي

اكتوبر ١٩٦٩

دار الكاتب العربي

أعلام العرب

أحمد شوقي

تأليف: د. ماهر حسن فهمي

الهيئة العامة للتأليف والنشر
(دار الكاتب العربى)
١٩٦٩

مقدمة

لو لم تمر مصر بمرحلة الانبعاث واحياء التراث ، ثم تندفع في الصراع الذى دار بين المدنية الشرقية والحضـــــارة الغربية ، وتحاول فى مسيرها أن تعرف ذاتها ، ما وجد الشاعر الذى يعبر عنها ، بل ما كانت فى حاجة اليه . ومن المؤكد أن مصر لو لم تنبت شوقى لأنبتت غيره ، لأن التربة الخصبة كانت فى مرحلة مهيأة ، فلا بد أن تنشق الأرض عن بذرة يعلو ساقها ليصافح النور . فشوقى هو الرمز الذى اتخذته مصر لتعبر عن واقعها فى مرحلة النهضة ، وبداية التجمع العربى ، أو قل هو القيثارة التى عزفت نشيد الألم والأمل فى مرحلة من مراحل البناء .

وعلى الرغم من الدراسات التى ظهرت توازن بين شـــوقى وحافظ أو تعرض ذكريات المؤلف عن حياة شوقى معه ، أو تدرس جانب الدين فى شعره أو جانب الوطنية أو الشعر الاسلامى أو المسرحيات ، فقد كان شوقى بحاجة دائما الى دراسة تحليلية . ومنذ أخرجت المطابع كتابي عن شعر شوقى الاسلامى ، شـــعرت بهذه الحاجة ، وطال الزمن عشر سنوات تقريبا ، ولا يصدنى عن الموضوع الا شهرة شوقى فالأديب المغمور ، كل كلمة تبعث فيـه الحياة ، لأنها جديدة ، ولكن ما الجديد في دراسة شوقي ؟ .. أأقول عاش ، وقال ؟ لا ، فلا بد من جديد في المحتوى وفي الشكل ، وانتاجه كله مطبوع ، ولا بد من جديد ، والدراسات عنه موجودة ، ولا بد من جديد، أن الدوريات هي النبع الذى لا يغيض،فقد شغل الشاعر الناس

طول عمره ، وكتبت عنه الصحف المشهورة والصحف المغمورة ، كتبت عنه دفاعا وكتبت عنه هجوما . ولكن تشكيل هذه المادة الأولية معضلة أقسى ، فلو كان الرجل كثير الحركة على مسرح الحياة مثل البارودى المحارب ، أو الزهاوى رجل النوادى ، لأمكن خلق المادة على المسرح مرة ثانية فى غير عناء كبير ، وهذا ما أحسه هو حين انتهى من مسرحية « مصرع كليوباترا » وبدأ مسرحية « مجنون ليلى » ، فالأولى مليئة بالحركة ، دخلت مواقع عربية وخرجت ، وعرفت النصر والهزيمة ، ولكن « قيس بن الملوح » احتاج الى جهد ضخم لينفخ فيه الحياة . وحياة شوقى خصبة ، ولكنها خصوبة ذهنية ، فليس هناك مجال لدراستها الا عن طريق الذكرى والاستبطان النفسى والحوار . وهو تشكيل فيه خاصية الرواية أكثر مما فيه من خاصية المسرحية ، وقد كنت أفضل التشكيل الثانى ولكن هيهات .

فأنت تعرف من خلال الكتابات ملامحه صغيرا وشابا وشيخا ، وتعيش معه أفراحه وأحزانه ، وتدرك أبسط أحاسيسه وأعمق مشاعره ، وتراه يحاور ويستمع ، في البيت وفى الحياة ، فى المنفى وفى مصر ، ولكنك قلما تراه يخطو خطوة كبيرة أو يتحرك حركة مفاجئة ، وهكذا كان شوقى في الحياة ، يوم عرفه أبناء جيله ومنهم كثيرون يعيشون اليوم ويكتبون . فان رأيت الصورة لم تكتمل أبعادها فما أسهل النقد وما أشق الفن كما يقول « بوالو » .

الباب الأول

البلبل الصغير

المهاجر

عجيب أمر هذا الانسان الضارب فى أعماق الأرض وأطرافها منذ آلاف السنين ، بما يعتور نفسيته من صراع بسيط المظهر ، معقد شديد التركيب فى الواقع . هو عجيب فى طموحه ويأسه وأفراحه وأحزانه وغضبه وحلمه وحله وترحاله وأمسه وغده . غير أن مركزا واحدا يدور حوله ويدور فى أكثر أحواله ، وهو الأمل . فاليأس استقرار وسكون على أية حال ، ولكن الأمل قوة محركة ، مهما اختلفت مظاهر هذه الحركة .

وليس من المهم أن يسأل المرء كيف يبدأ حياته ، ولكن من المهم أن يسأل كيف ينهى حياته . وبين هذين السؤالين مرحلة خصبة مليئة بالطموح والأمل ، عامرة بالجهد والبناء ، وبالهناءة والبقاء . والسعيد من أدمت الأشواك يديه ، وألهبت الصخور قدميه ولكنه شق طريقه فى رحلة الحياة ، الى وادى الأحلام ، فحقق أمله وبلغ مناه . وقد تتطلب الرحلة أن يهجر المرء أهله وذويه ، ويرحل وراء النبع والخصب ، أو وراء الحرية والأمن ، راكبا طموحه ، وتلك قصة موجات الهجرة فى كل زمان ومكان ، وتلك أيضا قصة أحمد شوقى الذى جاء مصر يحمل وصاة من والى عكا الى محمد على ، وطابت له الحياة فاستقر .

أحمد شوقى .. وينقطع النسب ويصمت التاريخ ، ولماذا يهتم التاريخ وهو ليس علما من أعلام السياسة أو الاصلاح أو الفكر أو قواد الجند ؟ .. ولكنه واحد من الأكراد الذين تجرى فى عروقهم الدماء العربية ، فهو يحسن كتابة العربية خطا وانشاء ، وان كان

لا يحسنها نطقا دون شك . هاجر بعد انهيار امارة كردستان ضمن موجة تفرقت هنا وهناك • فقد اســــتمر الصراع على الحكم بين الأشقاء والأقارب حتى افترقت كلمتهم ، بعد أن صمدوا طويلا لايران ولتركيا وطمعوا فى العراق ، ثم أكمل الطاعون من بعد خراب الامارة (١) .

دخل المهاجر فى معية الوالى ، ثم تداولت الأيام وتعاقب الولاة ، وتدرج هو في المناصب الى أن جاء سعيد ، فأقامه أمينا للجمارك المصرية . ولم يكن من النادر أن يصل الاتراك والجراكسة وغيرهم الى المناصب الرفيعة ، وانما كان النادر أن يصل اليها المصريون . ونحن نعرف أن أحد محركات الثورة العرابية فيما بعد ، هو ضيق المصريين بهذا الحرمان من القيادات فى وطنهم • أحس أحمد شوقى اذن أن الوطن هو أرض الطمأنينة والرزق ، ما دامت هناك وشائج قوية بين أرض النشــأة وأرض الهجرة • وتزوج المهاجر من فتاة جركسية ، فرزق منها بعلى شوقى المصرى المولد والنشأة ، ثم تركه شابا صغيرا ومات عن ثروة كبيرة خلفها له•

وكان من هؤلاء المهاجرين أيضا ، شاب تركى هو أحمد حليم النجده لى ، جاء من قرى الأناضول أيام ابراهيم بن محمد على ، واستعمله الوالى فى خاصته • ثم زوجه من أسيرة حرب جلبهــا من « المورة » وأعتقها قبل زواجها ، تلك هى « تمزار » اليونانية ، التى عملت وصيفة فى القصر زمنا ، وكانت مشهورة بذكائها ، كما كانت موضع اعجاب الوالى • وكان اسماعيل دائم الثناء عليهما يردد من حين الى حين ق « لم أر أعف منه ، ولا أقنع من زوجته ، ولو لم يسمه ابى حليما لسميته عفيفا لعفته » ولم يشأ هذا الوالى على

(١) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٤٨ وما بعدها .

جشعه المعروف ، أن يترك الأرملة التى كانت أثيرة عند أبيه ، تتضور جوعا مع ابنتيها ، فمنحها راتب زوجها .

وجمعت الظروف بين على شوقى وابنة « نمزآر » زوجين ، فكلاهما من أبناء المهاجرين المتمصرين ، وقلما كان يتزوج مهاجر من مصرية ، وكلاهما له صلة بالقصر ، وأكثر العاملين بالقصر من هذه الطبقة الوافدة ، بل ان الخديو نفسه وافد هو الآخر .. ومما لا شك فيه أن الغالبية العظمى من المصريات فى ذلك الوقت كن جاهلات محجبات ، ولكن ذلك كان الطابع العام للمرأة المسلمة حتى الربع الأخير من القرن الماضى ، ومهما كان الأمر فان الغريب يحن الى الغريب .

استقر على شوقى مع زوجه فى حى الحنفى ، وبقى ينفق عن سعة من الثروة الموروثة كأن معينها لا يجف . وما هى الا سنوات قلائل حتى تبددت الثروة ، وأحس بالضياع وبالفقر يطرق بابه طرقا عنيفا . لو أحسن على شوقى استغلال ماله فى أحد المشروعات ، أو كان على خبرة بعمل ما ، لاستفاد ونمت ثروته . وأفاد بلده من خبرته ومشروعه ، ولكنه لم يكن على شىء من ذلك ، وانما كان واحدا من أبناء « الذوات » الذين ورثوا الثروة دون تعب فأنفقوها فى سهولة ويسر وعاشوا من بعد يشكون الحرمان .

وفى السادس عشر من أكتوبر عام ١٨٧٠ ولد له طفل ملأ جنبات الليل بصراخه ، ولكن الليل لم يلتفت اليه ، فقد اعتاد هذه الصرخات كلما جاء الى الدنيا وليد جديد ولم يكن يدرى أنه سوف يملأ الدنيا نغما بعد حين . وأسماه أبوه أحمد شوقى تيمنا باسم جده ، عله يحظى بما حظى به من جاه فى حياته ، أو يدرك بعض أسرار نجاحه .

وكان على شوقى قد رأى منذ شهور حلما غريبا ، وعلى عادة

أهل العصر حاول تأويل الحلم . وسأل صديقه الشاعر على الليثى سمير الخديو . فى شأن هذا الحلم . فقال له على الليثى وهو يمازحه : « ليولدن لك ولد يخرق كما تقول العـــامة خرقا فى الاسلام » (١) . وها هو ذا الوليد قد خرج الى النور (٢) ، ولكن ماذا يصنع هذا الوالد المكدود بولده ؟ انه لا يستطيع أن يجد عملا في القصر ، خلال تلك الأيام العصيبة ، وأكبر الظن انه لا يقوى على عمل خارج القصر ، وكأنما العمل هو لعنة الانسان فى هذه الأرض ، ولكنها لعنة لا تزول الا بالعمل . وتلك أيام عصيبة حقا ، فالأحداث

---

(١) الشوقيات القديمة ص ١٥ .

(٢) اختلف مؤرخو الادب فى مولد ســـوقى ، فجلهم ذكر أن ميلاده كان عام ١٨٦٨ م وجاء ذلك نقلا عن الشوقيات القديمة حين ذكر شوقى فى مقدمتها انه يحبو الى الثلاثين ، ولما كان تاريخ طبعها هو ١٨٩٨ م ، فان تاريخ ميلاده على هذا الأساس المذكور يكون صحيحا . ولكن كاتبا واحدا عنى نفســـه بتحقيق تاريخ صدور الشوقيات القديمة وهو الدكتور محمد صبرى ، فوجد أن التقاريظ المذكورة آخر الديوان تؤرخ عام ١٣١٧ وهو يقابل سنة ١٩٠٠ أو النصف الأول منها على وجه الدقة ، ورغم ذلك تابع غيره من الكتاب وذكر أن تاريخ ميلاد شوقى هو عام ١٨٦٨ م ، وكل ما استنتجه هو أن شوقى كان قد بلغ الثانية والثلاثين حين خرج الكتاب من المطبعة بغض النظر عن التاريخ الخاطىء المكتوب على غلاف الديوان . ومن الغريب أن سكرتير الشاعر نفســـه قرر فى كتابه عن شوقى أنه من مواليـــد عام ١٨٦٨ ولعـــل ذلك يرجع الى أن صاحب الترجمة قلما كان يعرض لسنه بل انه كان يتحاشى ذلك مع جلسائه . ومن الغريب ايضا ان حسين شوقى نجل الشاعر ذكر أن أباه حين مات عام ١٩٣٢ كان فى الثانية والستين ، ولكن أحدا لم يلتفت الى هذا التاريخ الذى ضاع فى زحمة الاحداث ، باستثناء الدكتور احمد الحوفى فقد تنبه الى ذلك وحقق تاريخ مولده الصحيح . والواقع أن شـــهادة ميلاد الشـــاعر نفســـها موجودة لدى ابنه حسين شوقى وفيها ان الشاعر من مواليد عام ١٨٧٠ وقد اطلع عليها بعض البـــاحثين ومنهم صـــديقى لطف الله أيوب الذى يبحث في مسرحياته .

تسرع منذرة بالخطر ، حتى لتكاد تسلم الوطن الى نهاية مفزعة من الافلاس والوقوع فى أغلال النفوذ الأجنبى .

وانتشلته « نمزار » من دوامة الفكر ، فقد كانت موسرة منعمة ، وعرضت عليه أن تحتضن الوليد وتكفله ، حتى يفرج الله أزمته ، ولعلها سمعت تفسير الحلم الذى قاله على الليثى ورddه على شوقى ، ورأت فى الطفل مخايل نبوغ تخبئه له الأيام . ولم يكن أمام الوالد الا أن يقبل ، وهكذا انتقل أحمد شوقى من بيت أبيه الى بيت جدته التى رعته فوق رعاية الوالدين .

تتابعت الأيام ، ونما الوليد ، وتحددت ملامحه ، وكانت الجدة كلما نظرت اليه ازدادت حنوا وعطفا ، فهو بادى الضعف ، حلو القسمات ، لا ينزل بصره عن السماء من اختلال أعصابه ، شديد الهدوء رغم أن سنه هى سن الحركة والتدمير ، ولعلها كانت تدرك ان الدماء التى تجرى فى عروقه لها أثرها فى قدرات الطفل بعد حين ، وبلغ من حنوها أن تحمل الطفل معها الى القصر الذى كانت تعمل وصيفة فيه .

« نمزار ... نمزار » ..

بهذا الاسم الاجنبى ، دعا ذلك الرجل البدين القصير ، الذى أغرق مصر فى الديون ، ومكن للأجانب فى التسلط على البلاد ، وشاد القصور ، واقتنى أجمل الجوارى ، وأنفق على حفل واحد مليونا من الجنيهات ، وقتل وزراءه غيلة ، وكان يتشبه بلويس الرابع عشر فى بذخه وأسرافه . ودخلت تتعثر رهبة من هذا الجالس فى ذلك « الصالون » الفخم الرائع الأثاث ، وقد أعجلها الصوت الرهيب عن أن تنزل صغيرها الطفل المضعوف عن كتفيها ... فلم يستنكر اسماعيل حمل الطفل ، فقد كانت جارية أبيه وأثيرة عنده ،

وليس من آداب الملوك أن يدخل عليهم الخدم حاملين أطفالا ، ولو كانوا أطفال الملوك أنفسهم ، ولكنه تغاضى .

ونظر فى عطف الى الطفل الرافع عينيه الى السماء ، وسألها عن علة عينى صغيرها فلما قالت انه يا مولاى لا يزال هكذا أبدا ناظرا الى السماء ، أخرج هذا الرجل المسرف السفيه قبضة من الذهب من جيبه المملوء به ، والذى امتصه من دماء الشعب وتقاضاه ضرائب فادحة سلبها بالسوط والسيف . فلما رأى الطفل ذلك المعـــدن الوهاج يتناثر أمامه على البساط الثمين ، لفته البريق الأخـــاذ فخفض عينيه المرتفعتين . وضحك هذا الجبار وقال لها وهى ماثلة أمامه : كلما رفع عينيه انثرى له ذهبــا حتى يتعـــود النظر الى أسفل . فابتسمت قائلة : هذا دواء لا يخرج الا من صيدليتـــك يامولاى . قال : جيئى به الى متى شئت ، انى آخر من ينثر الذهب فى مصر (1) .

---

(1) راجع الشوقيات القديمة ص ١٦ ، حيــاة شوقى لاحمــد محفوظ ص ٥/٦ .

الصبى الموعود

ـ لقد عاد شوقى باكيا اليوم ، مثل كل يوم ، أما آن لك يا على أن تنقله الى مدرسة أخرى ؟ .

ـ وماذا أنا صانع . انه ولدى كما هو ولدك ، وأنا أعرف أن الأطفال فى عمر الزهور يدخلون المدارس النظامية فيحسون الرعاية السليمة فى كل خطوة يخطونها ، وهناك الأناشيد الجماعية والصور والرسوم ، والحدائق والموسيقى واللهو الذى لا ينتهى . ولكن ما أبعد الفارق بين هذه الصورة المشرقة ، التى ترقى الأذواق وتنميها ، وبين صورة أخرى داكنة لا اشراق فيها ، الكتاب والعريف والفقيه . يجلس الصبية على الأرض وأمامهم شيخ الكتاب يجلس على كرسى خشبى يقرأ جزءا من القرآن ، والصبية يرددون وراءه آية اية ، ويتكرر ذلك مرة ومرات ، حتى اذا أنس منهم حفظ ماردده ، بدأ يستمع اليهم ، ولا بد أن يرفع عصاه من حين الى حين فتتذوقها أيديهم وأرجلهم الضعيفة . والصـبية لا يجرأون على سؤاله فى شىء عن معنى الآيات وما أكثر ما يغمض عليهـم . من أجل ذلك يشقون حين يبدأ الدرس ، ويتنفسون احساسا بالراحة حين ينتهى ، ويتمارضون كثيرا ، ويكرهون أيامهم لأنها سوداء .

ـ انه لم يشك من الفقيه وعصاه ، وانما شكا من شراسة الصبية هناك ، وهو رقيق كما تعلم ، يحتمل العذاب ولا يملك الا البكاء .

ـ أعلم أنها جناية جنتيها عليه ، ولكنى لا أملك نفقات المدارس الابتدائية كما تعلمون .

ـ انه الآن فى السادسة من عمره وقد أمضى عامين فى الكتاب لم يستفد الا الآلام التى لا طاقة له بها .

ـ أن « نمزار » هي ملجؤنا ، ولن تبخل على الصبى اذا عرفت فحدثيها علنى أستطيع نقله الى مدرسة المبتديان ، فالوسط التعليمى فيها أخف على حسه المرهف ، لأن الصغار هناك أميل الى النظام ، وسوف تنتعش نفسه ويميل الى الدراسة .

ـ سوف أفعل .

ـ وحين ينتهى من دراسته الابتدائية ، سوف نلتقى بنفس المشكلة ، ولن يكون من حظه دخول المدرسة التجهيزية ما لم ينل مجانية التفوق .

ـ عسى أن يفرج الله كربنا وأما الصبى ففيه ذكاء يعرفه الجميع .

كان يستمع الى هـذا الحوار بين أمه وأبيه ، فيشعر بالراحة والسعادة .. مدرسة المبتديان .. لا شك أنها صورة أخرى ، سوف يتخذ من تلاميذها أصدقاء لا يجدهم فى الكتاب ، وسوف تطمئن به الحياة ويطمئن بها كثيرا .

واذا كانت مجانية التفوق هى وسيلة دخول المدرسة التجهيزية بعد ذلك ، فسوف يفنى فى القراءة ، انه يتطلع الى المعرفة ، وكم حاول أن يسأل الفقيه فى الكتاب عن معنى الآيات « مالك يوم الدين ... الصراط المستقيم ... ولا الضالين » ولكنه فى كل مرة كان يحجم حين يجد عصا الفقيه تبحث عن فريسة . أن مدرسة « المبتديان » بعيدة عن حى الحنفى ، وسوف يقطع الطريق كل يوم ماشيا ، ولكن ما أهون ألم الجسم الى جانب ألم النفس ، وهو

لم يعد طفلا ، سوف يعرف الطريق ؛ وسوف يجد فيه لذة وهو يشاهد أحياء جديدة وحياة جديدة .

لقد تحقق ما كان يحلم به ، فلم يعد يعبأ بطول الطريق فى الذهاب والعودة وانما أصبح يعيش الحلم ؛ فقد حوله الى واقع سعيد ، ترى ايحقق حلمه الجديد فيتفوق لينتقل الى المدرسة التجهيزية ؟ ان زملاءه يتحدثون عنها حديثهم عن أمل كبير ، وهو يبذل كل جهد ليمسك بهذا الأمل . وتلاميذها فتيان لهم شوارب ولحى ،تخطوا هذه المرحلة التى لا يبين فيها الصبى من الصبية ، وابتسم لهذا الخاطر .

كان يقرأ شــــعر البارودى فيحس بانفعالات غريبة وطرب عجيب ، ولكنه لا يقدر على الاستمرار فى تتبع شعر البارودى ؛ فأمامه الامتحان الذى سوف يحدد مصيره ويسير به الى الطريق التى رسمها لنفسه أو الى طريق غامضة كل الغموض لا يعرف معالمها ولا يتبينها . وانكب على القراءة انكبابا ، فالعمل وسيلة تحقيق الأمل . انه على موعد مع القدر خلال الأيام القادمة ، نقطة تحول ، نعم نقطة تحول .

وعندما هنأه أبوه بالنجاح وبالتفوق ، لم يكن هناك أسعد منه ، بل لم يكن بيت فى الحى أسعد من بيته ، لقد آن لجدته أن تستريح من عبئه . انه يعيش مرحلة تفتح حقيقية ، ألم يقل انها نقطة تحول ؟ لقد زادت فرحته بهذه الهدية التى تلقاها من جاره وصــديق والده ، مجموعة قيمة من الكتب بينها كتــاب رائع التصوير . وهذا والده دائم الحديث عن هذه الأسرة « حسيب بك » وشقيقه « عطا » ، وهما في الواقع كما يصفهما أبوه سماحة وكرم أخلاق . لحظات مرت سعد فيها بالهدية ، ثم اقبل والده يخبره أن « حسيب » بعث يسترد الكتاب المصور لحاجته اليــه ، فخمدت نشوته ، ثم سالت دمعة أججت انفعاله ، فأخذ يردد :

حسبت حسيبا زاده الله رفعــــة

لمـــا نظــرت عينـــاى منه أخا عطا

فخالف ظنى ما رأيت فانـــه

لكالدهر ســلاب من الناس ما عطـا

وانقلب حزنه فرحا بالبيتين ، وتناقلتهما ألسن الجيران من مندرة الى مندرة على ما فيهما من خطأ (١) . وشـــجعه ما قوبل به البيتان من الاعجاب على الاستمرار فى محاولة النظم ليظفر بمزيد من الاعجاب . لقد التقى بملكة الشعر على أجنحة الخيال ، فمنحته كل شيء ، وشغف بها حبا من ذلك الحين . الشعر ، انه موهبة وملكة يلتقى بها الموعود ، مثل موهبة الصوت الجميل ، وان كان كلاهما يحتاج الى طويل صقل وطول تمرس ورعاية ، حتى لا تشيخ الملكة قبل الأوان ولا تزور عن الشاعر الى غيره ، وطول الصقل يعنى ادمان القراءة فى الشعر خاصة ، والتجارب فى الحياة عامة .

وبدأ يقرأ الأدب بشراهة ، ويحيا فى أودية عبقريته « يأسر الطير ويطلقه ، ويكلم الجماد وينطقه ، ويقف على النبات وقفة الطل ، ويمر بالعراء مرور الوبل » (٢) . ان فخر أبى فراس يزيده حمية ، وحكم أبى العلاء تأسر لبه ، ومواعظ أبى العتاهية تبكيه ، وهو يحب فى ابن خفاجة وصفه الدقيق للطبيعة الثرية ، وفى البهاء زهير تدفقه المعجز ، ولكن أبا الطيب هو نبي الشعر وحده ، وأكثر ما يجذبه اليه ويشده شدا لا سبيل الى الفكاك السريع منه ، هو طموحه الغلاب ، الذى دفعه الى اقتحام الصعاب متنقلا من بيئة الى بيئة وراء أمانيه التى لم يجد سبيلا الى تحقيقها فتغنى بها

---

(١) الشوقيات المجهولة لمحمد صبرى حـ أ ص ٢٥ .

(٢) الشوقيات القديمة ص ٦ .

وهو يشقى ، وذلك الغناء العـــذب الحزين ، ثم قدرتـه القـــادرة لا على أن يصف الحزن والألم ، ولكن على أن يجرع قارئه الألم والعذاب معه .

لماذا لا يجرب القول فى زملائه وفى مواد الدراسة ؟ .. ان رفقاءه يستشفون من وراء أبياته هنا وهناك نبوءة صغرى ويدفعونه الى مزيد من القول . وأساتذته يتغاضون عنه اذا حضر متأخرا لأنهم يغفرون لكل تلميذ متفوق ، ولكنهم لا يعلمون أن أكثر سهرة فى قول الشعر . وعندما يذهب فى الغد ، فسوف يفاجيء الجميع بقصيدته الجديدة .

واعترضه تلميذ منتفخ الوجه بادى الثراء والزهو فى فناء المدرسة ، بينما التف جمع من التلاميذ حوله وهم يتمازحون ، وابتدره هذا الزميل كأنما كان ينتظر قدومه :

ـ ماذا أعددت لامتحان اليوم ؟

ـ سوف أجيب شعرا .

ـ أنسيت أنه درس في الجغرافيا لا فى الشعر ؟

ـ بل أذكر .

ـ بالأمس سألتك أن تبدل ساعتك المستهلكة لتكون أهلا لصداقتنا فقلت شعرا أغاظنى :

لى ســـاعة من معـــدن   لا يقتنيهـــا مقتنـــن
تعجـــل دقـــا وتنى   مثـــل فـــؤاد المدمـــن

فهل نظمت الأطلس اليوم ؟

ـ نعم :

افريقيا قســم من الوجود   فى شـــكله أشـــبه بالعنقود

وذلك العنقود فى الماء انغمر ... ما أملح الماء وما أحلى الثمر
مدت اليه يدها أوربا ... من فوقه كمن يريد الحبا
وآسيا بالجنب كالمحتال ... تنقضه* من جنبه الشمالى
وبين هذين ترى القنالا ... يتصل الماء به اتصالا
أنشاه اسماعيل عنوان الظفر ... فوقع الحافر فيما قد حفر

ـ وماذا تقصد بالحافر ؟ بمن تعرض ؟

ـ بك !!

وضج التلاميذ بالضحك ، بينما سار شوقى وهو يكتم ضحكته ، ويسمعه سخرية التلاميذ بزميلهم الذى احمر وجهه المنتفخ خجلا . وعندما انفض الجمع ، تبعه زميله وقد زالت عن وجهه حمرة الغيظ ، فتلقاه شوقى باسما متسائلا :

ـ انك تحاول قول الشعر مثلى ، فلماذا لا تقول فى كما اقول فيك ؟

ـ أعترف لك بالتفوق ، ولكن أصدقنى القول ، الا يوجهك أحد ؟

ـ الحقيقة ان الاستاذ الشيخ حسين المرصفى يقرأ معى كتاب « الكشكول » ويحاول أن ينمى ذوقى . بالأمس كنت أقرأ عليه صفحات من الكتاب ، فلما بلغت هذين البيتين :

ومخرق عنه القميص تخاله ... بين البيوت من الحياء سقيما
حتى اذا حمى الوطيس رأيته ... عند اللواء على الخميس زعيما

استخف الشيخ الطرب ، وهو ناقد ذواقة ، وطلب منى أن أشطرهما ، فقلت :

ومخرق عنه القميص تخاله
ملكا تنم به السماء كريما

يحمى الحمى عف اللواحظ والخطا
بين البيوت من الحيـــاء سـقيما
حتى اذا حمى الوطيس رأيتـــه
نارا عـلى نــار الوغى وجحيمـا
واذا القبـــائل أطبقت ألفيتـــه
عنـد اللواء على الخميس زعيمـــا

فاستحسن البيتين الأول والثانى ، وارشدنى الى مواضع التكلف من الثالث والرابع ، ثم اقترح على ان اجرب القول فى الحكمة ففكرت فى أبى العلاء وحكمه ، ثم قلت :

قصـــارى العيش أن يذهب ان حـــلوا وان مــــرا
فان شــئت فمت عبـــدا وان شـــئت فمت حـــرا

فأعجب بهما الشيخ ، وحثنى على قول الشعر في بعـــض الأغراض ، ثم أطلعنى على الشعر الذى تضمن هذه المعانى ، ولفتنى الى ما أحسنت فيه وما قصرت فيه ايضا .

اللحن القديم

قطع شوقي الطريق من حي الحنفي حيث يسكن الى درب الشعرية بعد ان انتقلت مدرسة الحقوق من مقرها بسراى مصطفى فاضل بدرب الجماميز الى المقر الجديد بدر البدراوى الكائنة بشارع سوق الزلط . وكان يفكر في نصيحة استاذه « يحيى ابراهيم » أن ينتقل الى القسم الجديد الذى أنشىء للترجمة . لقد دخل مدرسة الحقوق ، لأن رجل القانون الناجح، ينبغى أن يكون بليغ الكلمة ، وبلاغة الكلمة فيها قوة الحجة ، فليست مواد القانون وحدها هى القادرة على الاقناع ، ولكن ماله ولهذا ، وهو حيى ، فكيف يجابه الجمهور فى قاعات الدفاع ؟ .. ورجل القانون اجتماعى بطبيعة عمله ، وهو أكثر ميلا الى الانطواء، وربما كان أكثر الفنانين على هذا النحو ، كأنما خصصتهم الطبيعة للتأمل والبحث عن ذواتهم . ان ناظر المدرسة نفسه قد رفضه لصغر سنه ، لولا تدخل الوكيل « يحيى ابراهيم » الذى أقنعه بتشجيع صغار السن . أما قسم الترجمة ، فيكاد يضمن العمل لطلابه بعد التخرج ، لأن الحكومة تحتاج الى موظفين تخاطب بهم قناصل الدول الأجنبية وتكاتيبهم ، ومن أجل ذلك أنشىء هذا القسم ، فالأفضل اذن أن ينتقل اليه .

ودخل فناء المدرسة الذى يموج بالطلبة ، ولكنه وحده الفتى النحيل الهزيل ، القصير القامة ، وان كان وسيم الطلعة ، بعيون متألقة ولكنها متنقلة دائما ... اذا نظر الى الأرض دقيقة واحدة ، فللسماء منه دقائق متمادية ، واذا تلفت صوب اليمين،

فلا يلبث أن يرمى ببصره نحو الشمال . وهو مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة ، هادىء ساكن وادع ، كأنما يتحدث بنفسه الى نفسه ، أو يتلاغى مع عالم الخيال ، لا يعبث مع العابثين ، ولا يلهو مع اللاهين . اذا مشى سمعت لنعله احتكاكا بالأرض يدل عليه ؛ قصير الطربوش ضيق بعض الشيء ، كبير الرأس صغير القدمين صغر اقدام الأطفال ، مستقيم الأنف مرتفع الأرنبة تخاله أنف أرمنى ، دقيق أصابع اليدين دقة مرهفة تكاد تلحقها بأيدى الصغار (١) . وما أن تقدم فى الفناء خطوات حتى أقبل صديقه « أحمد زكى » ومعه جريدة « الوقائع المصرية » قائلا :

ـ لقد نشرت الوقائع قصيدتك ياشوقى ، وكنا نحسبها للشيخ محمد البسيونى .

ـ وما رأيك فيها ؟

ـ الحقيقة أنها من روح البارودى ، انظر الى قولك فى مقدمتها :

هى الجزيرة فاحذر فتنة النظر
وكيف والحب يأتى غير منتظر
أرض ترى الأسد صرعى فى ملاعبها
فكل ماش عليها راكب الخطر
أمسى وأصبح مشغوفا بروضتها
مقيد القلب فيها مطلق البصر
ما كنت أدرى وأسد الغاب ترهبنى
بأن سكنى الردى في أعين البقر

---

(١) ابولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٢٨٢ ، حياة شوقى لاحمد محفوظ ص ٢٠/٢٢ .

وقد سمعت من قرأها يكبرها ، وكأن الناس قد عادوا بذاكرتهم الى الحان البارودى وأناشيده التى كان يعزفها لهم منذ سنوات ، فكم تغنى بالجزيرة وملاعبها ، قبل ان تطوح به النوى الى المنفى فى أرض سرنديب بعد الثورة ، ليعيش فى موكب الأحزان على أمل العودة .

ـ ان صاحب الفضل فى نشرها هو الأستاذ البسيونى .

ـ انه معجب بك اعجابا لا حد له ، يرى فيك بوادر مواهب ، وقد أخبرنا كما أخبر كل الفرق المتقدمة انه يعرض قصائده عليك قبل ان يرسلها الى الوقائع المصرية ، وانك تشير عليه بمحو هذه الكلمة وتصحيح تلك القافية ، وحذف هذا البيت وتعديل ذياك الشطر ، وهو يغتبط بقولك ، وينزل على رأيك ، دون أن تأخذه العزة بالاثم ، أو تغريه الكبرياء بانكار الفضل الذى منحه الله للطالب . وأنت تعرف انه يدرس لنا فنون البلاغة فى كتاب من تصنيفه ، أما خارج المدرسة فهو مشهور بقصائده فى الخديو كلما حل موسم أو أطل عيد ، وهو أمام له فى الصلوات الا صلاة الفجر . وقد سمعنا انه تحدث بنبوغك المبكر الى الخديو ، وأفهمه أنك خليق بالرعاية .

ـ نعم ، وقد دعانى الخديو وهنانى بثقة الاستاذ ووعدنى أن يجد لى عملا فى السراى بعد الانتهاء من دراستى ، كما وعدنى أن يجد عملا لأبى . ومنذ أيام خرجت راكبا حمارا أبيض الى وجهة أبغيها ، وقد هطل المطر ، فلما عدت قافلا الى بيتى سلكت ميدان عابدين ، فأبصرنى الخديو ، وهو فى شرفته بالقصر ، فنزلت عن الدابة وترجلت فأرسل فى استدعائى ، فلما وصلت تظاهر بالغضب قائلا : « أليس لى أن أنظر من شرفة دارى حتى تترجل عن حمارك وتضطرنى أن أنزوى ؟ » قلت : عفوا ، هكذا أدبنا الأوائل حيث قال قائلهم :

واذا المطى بنـــا بلغــن محمــــدا
فظهورهن عــلى الرجــال حـــرام

فقال : انكم معشر الشعراء تتفاءلون بالغيوم ، وهذا اليوم من أيامكم ، ثم أبلغنى تعيين أبى مفتشا فى الخاصة .

ــ ان الخديو فى حاجة الى كل صوت ، بعد المؤامرة التى تزعمها وراحت مصر ضحيتها .

ــ ضلة زانها الشقاء لمصر .

ــ ولكنه قد يحاول ان يستغل قلمك .

ــ أنا لا أبيع قلمى .

ــ فكيف ترى العرابيين اذن ؟

ــ لا يلم بعضنا بعضا، ولو لم يستمع عرابى الى رأى ديلسبس، ما تمكن القوم من احتلال مصر ، فان للجيش أمجادا في حرب المورة وكريت وغيرهما ، ولو صنع ذلك لاستحق الحمد والثناء .

ــ هذا صحيح ، ولكن قل لى ، ما سر هذا الغزل ، هل احببت ؟

ــ قط .

ــ اذن فهو لحن قديم ، الم ينهكم المتنبى عن الغزل فى مطالع القصائد حين قال :

اذا كان مدح فالنســيب المقـــدم
أكل فصـــيح قال شــعرا متيــم

ــ ومع ذلك فهو يبدأ كثيرا من قصــائده بالغزل ، وقد ترسمت خطاه ، أليس نبى الشعر ؟

ــ ان ألسنة الخلق اقلام الحق ، ولو صدقت نبوءة الاستاذ البسيونى ، لكنت نبيا جديدا للشعر .

فى فرنسا

عوت الباخرة ، وتكاثر الموج الصاخب ، ثم أقلعت ، وبدأ على ظهرها شاب غارق فى ذكرياته سابح فى تأملاته ، بين أمسه وغده ، وكلما فكر فى الأمس احس بشيء من الغبطة ولكنها لا تخلو من الحزن الشاحب ، وكلما فكر فى الغد ، أحس بالرهبة مشوبة بالأمل . انه يسترجع ذكرى الأيام الأخيرة ، فيمر أمامه شريط من الاحداث ، يبدأ يوم عرف البطالة عقب تخرجه ، ثم وعد الخديو له بارساله إلى فرنسا لاستكمال دراسته ، فتخير القانون الذى درسه عامين من قبل ولكنه قرر أن يجمع بين القانون والأدب على قدر ما يحتمل ويطيق .

ويلح يوم الرحيل على ذاكرته الحاحا ، فيذكر والده ووالدته واخته الكبرى التى تزوجت حديثا ، ويذكر جدته التى أحبها وأحبته وخيل اليه أنها أكثر الجميع احساسا بالفراق كأنها تتذكر يوم فراقها لأهلها ، فتفجرت كوامن مشاعرها بالغربة ، ولكنه يرتد فى لحظة الى حاضره والى غده ، والتعرف عن قرب على الحضارة الغربية أمل كبير ، ولكن هذه أول مرة يركب البحر فيها .

ثم رست السفينة فى ميناء « مارسيليا » فأنتشلته من ذكرياته . وخلع الشاب طربوشه ولبس القبعة ، فهو لا يتمسك بالموروث ، ويبقى القديم على قدمه ، ولكنه مستعد لكل ما هو عصرى ، ما دام لا يتنافى مع قيمه ومبادئه .

وهناك على الشاطىء ، كان فى انتظاره مدير الارسالية ، فرحب به ، وصحبه الى « مونبلييه » وهى مدينة صغيرة حالية

بأشجارها ومبانيها الجميلة ، وكثرة الدعة في أفيائها وهوائها الطيب ، ورروحها المفراح ، وما أكثر ما تمنى الهدوء والجمال ، لقد صافته الأيام .

ودخل مدرسة الحقوق بجامعة مونبلييه ، وكان العام الدراسى قد بدأ منذ فترة ، ولكنه كان قادرا على استرجاع ما فات بجهده، وهو يعرف ان « قاسم أمين » كان هنا من سنوات قليلة وكان موضع اعجاب أساتذته ، وأن غيره من المصريين ، لم يصرفهم اللهو وبهرجة الحياة عن واجبهم المقدس ، وها هو ذا يضع لبنة أخرى في بناء الجسر الذى يصل بين الحضارتين الشرقية والغربية، حيث تنصهر المدنية انصهارا قويا فى بوتقة الزمن وتتمخض عن مستقبل اكثر اشراقا للانسانية كلها .

طالما أحب العزلة ، وقد حسب أنه سوف يستمتع بعزلة يبحث خلالها عن نفسه الخصبة التى لم تنبت بعد كل زهورها، ولكنه أحس بلذعة الحرمان ،فهو ها هنا محروم من الصلات الأسرية ، يحس بالوحدة الموحشة ، فلا بد أن يخرج من عزلته ويختلط بالطلبة الفرنسيين ، يتخذ منهم الخلان والأصحاب ، وما يكاد يلمح طالبا مصريا ، حتى يدفعه الحنين اليه ، وهكذا أصبح على أبو الفتوح (١) أخا له فتجاورا فى المسكن ، وطاب له الصاحب والصحبة ، كما طابت الأيام .

ويمر العام ويقبل الصيف ، فيشتاق الى أبيه وأمه ، ويرغب فى العودة الى مصر ، فهو كالطائر يحن الى وكره ، ولكن طلبه يجابه بالرفض ، ، ويتحير قليلا ، ويتملكه السأم من كل شيء حوله ، غير أن الدعوات ما لبثت أن توالت عليه من رفقائه الفرنسيين ليقضى أياما من العطلة فى ضيافتهم ، ولم يكن أمامه

---

(١) أصبح وكيلا لوزارة المعارف ، ومات شابا عام ١٩١٤ ورثاه شوقى .

الا أن يستجيب لدعواتهم ، فماذا يصنع بأيامه ؟ انها فرصة على أية حال يشاهد فيها مدن الجنوب وقراه ، ويتعرف على جوانب من الحياة الغربية لم يسعفه وقته من قبل حتى يراها . وأكثر ما شاقه فى تجواله الممتع ، جمال الريف الفرنسى ومعالم الحضارة التى وصلت الى أقصى القرى ، والفلاح الفرنسى فى داره ومزرعته. شتان ما بينه وبين الفلاح المصرى .. خاطر خطر بباله ، ورغم ذلك فهو فى فرنسا يشكو نصيبه من الحياة ، ليته رأى الفلاح المصرى ، اذن لأطبق فمه على شكواه .

وأقبل عام جديد وهو نضو فراق ، ولكن الأحداث تشـــده شدا ، فما لبث الخديو توفيق أن مات ، وتولى الحكم ولده الشاب عباس حلمى ، وبدأ أنه واسع الأمل يريد أن يكون ملكا حقيقيا لا دمية فى يد الاحتلال ، ومن هنا بدأت الأمة تتجرأ على مناهضة الاحتلال ، كما بدأ أن الحركة الوطنية التى تبناها « على يوسف » فى جريدة « المؤيد » قد لقيت الرعاية ، وبدأت فى الانطلاق .

والتقى بصديقه على أبو الفتوح فوجده أشد تحمسا منه ، يريد أن يصنع شيئا ، وأن يرتفع الى مستوى الاحداث ، يشاركه رأيه فى ضرورة العمل الوطنى . وفكر على أبو الفتوح في انشاء جمعية تجمع كلمة المصريين ، وتعرض وجهة نظرهم أمـام المجتمع الفرنسى ، ورآها خطوة هامة فى الطريق الصحيح . فوافقه على تفكيره ورشحه لرآستها ، وهكذا تكونت « جمعية التقدم المصرى » بمدينة مونبلييه في شهر مايو عام ١٨٩٢ . واستمر أعضـــاؤها يزاولون نشاطهم الى أن نما عددهم ، فطلبوا التصريح الرسمى بوجودها ، وتم ذلك .

ثم أقبل الصيف وتفرق الصحاب ، فسافر على أبو الفتوح

الى مصر ليقضي العطلة ، ورحل هو الى انجلترا فى سياحة نظمتها ادارة البعثات فى باريس . وتنقــل بين مدنها ، فرأى التطور الصناعى الهائل ، والحركة التجارية الضخمة فى لندن ، وهو لم يعش الا فى « مونبلييه » ، فأحس ان علامات الدهشـــة قد طبعت ملامح وجهه فى هذا التجوال . ولكن جو لندن المتقلب ، والمليء بدخان المصانع كان باعثا للضيق ، فلم يلبثوا أن رحلوا الى الشمال حيث قضوا بقية الصيف ، ولم تبق فى ذاكرته صورة أشد انطباعا من قصر « وندسور » الذى هجرته الملكة فكتوريا ، فحمله الخيـال الى مراقد الفراعنة وقد نقل ما فيها الى المتاحف ، وتساءل عن البنيان الكبير ــ رمز الماضى ــ كيف مآله ؟ (١)

ثم يعود الى باريس ، فيستقر بها ، بعد أن انتهت دراسته فى مونبلييه ، ولا بد أن يستكملها فى العاصمة الفرنسية . الا أن وباء الكوليرا الذى انتشر هنــاك في ذلك الوقت ، افزعه وأطفأ ابتسـامة الرضا التى علت شفتيه . . وكيف يحذر المرء فى كل خطوة يخطوها وكل شربة ماء يشربها وكل فنجان قهوة يذوقه ، بل كل شيء فى كل وقت . واشتد الوباء ، وأصبح الحذر لا يغنى عن القدر ، كل يوم يسقط من حوله الكثيرون ،وينفض الطب يديه منهم ، وتحملهم عربات الموت دون عزاء . وزحف الوباء ، فســـقط صريعه بين الحياة وبين الموت .(٢)

انها لحظات يعود اليه وعيه فيها ، فيدرك كم هى حلوة هذه الحياة ، وكم هو بغيض هذا الموت . وتتوالى على مخيلته صور شديدة للتشاؤم ، فهو يدرك ان الموت نهايته ولكن مـــاذا وراء النهاية ؟ أين ذهب الذين ماتوا منذ بدء الخليقه ، ثم ماذا عن كأس المنية نفسها أمرة هى ؟ ولم يخافها الناس ؟ أحبـــا فى

---

(١) مذكرات بنتاءور ص ١٧ .

(٢) الشوقيات المجهولة جـ ١ ص ١١ .

الحياة أم خوفا من المجهول الذى وراء العدم ؟ ثم تصفو نفسه بعد ركودها فيتذكر قول المتنبى وهو محموم « تمتع من سهاء أو رقاد » .

يقول لى الطبيب أكلت شيئا وداؤك فى شرابك الطعام
وما فى طبه انى جواد أضر بجسمه طول الجمام

وتزداد أوقات اليقظة ، ثم تنقشع الحمى ، فيقوم ضعيفا مهزولا ، ولكن الطبيب هذه المرة كان أكثر ادراكا لنفسية مريضه فنصحه بالرحيل الى أفريقيا ، ليشغله عن نفسه وعن احساسه بالغربة ، فوقع اختياره على الجزائر . وهناك ضمه الجو الشرقى بين ذراعيه ، فاحس بالسكينة خاصة حين رأى اصحاب المقاهى وعمالها هناك من المصريين . واسعده ان يجد حركة عمرانية كبيرة وآثار التمدن والرقى ، بقدر ما ساءه ان يجد مظاهر التفرنج تسرى هنا وهناك ، والاعراض عن اللغة العربية فى البلد العربى . ولكن حظ مصر لا يقل عن حظ الجزائر من تلك السوآت ، ألسنا كلنا فى الهم شرق ؟ ان أربعين يوما قد مرت مسرعة عجلة لا تتأنى ولا تتوقف فى مسيرها ، وآن له أن يعود الى باريس بعد ان أسترد عافيته ، فما ينبغى له أن يتخلف أكثر من ذلك ، خصوصا وانه فى السنة النهائية ، وليشغل نفسه كلما احس بشيء من الفراغ ، فهو فى باريس المدينة الصاخبة ومركز الحياة الفكرية ، وهو الى اليوم لم يتحرك الا فى دائرة ضيقة ، فلتتسع الدائرة حتى تشمل الحياة .

يبدو أن رد الفعل كان قويا ، لقد كان على شفا الهاوية وها هوذا يعود الى الدنيا ، اليس من حقه ان يترع الكأس ويشربها مع الشاربين ، بدلا من أن يغنى للناس بشعره ويظل وحده خاوى الكأس وهم يملأون ؟ ان اللذات تعرض عليه عرضا شديد الاغراء

فى هذا المجتمع البارىسى الصاخب ، وهو شاعر فنان رقيق الاحساس مرهف الشعور ، لا يقوى على ضبط نفسه أمام المغريات ، فى « غاب بولون » وفى غيرها ، ولكن ضميره الدينى ، لا يدعه أبدا يهنأ باللذة الخالصة ؛ فهو دائم الحيرة ، موزع النفس (١) ..

ويسوقه وجدانه المصرى الى المتاحف ومناطق الآثار ، هنا متحف اللوفر ، وهناك البانتايون حيث يرقد نابليون ، وهذا هو قصر فرساى بتماثيله العديدة وحدائقه الضخمة ، ولكن أروع ما فيه هو رواق المرايا ، فرسوم السقف تحكى فى اسلوب ملحمى سنوات الانتصار أيام لويس الرابع عشر . ما أجدرنا اذن أن نسجل انتصارات المصريين فى هذا النفس الملحمى . ان آثار مصر لا تفارق ناظريه ويلح عليه نفس السؤال لا يبرح مخيلته ، ماذا بقى لنا فى حاضرنا من هذا الماضى العجيب ؟

ان الامير الشاب يبدو وطنيا متحمسا ، ولكن العمل السياسى ينبغى أن يسهم فيه كل فرد على قدر ما يستطيع ، فهو مثلا يستطيع عن طريق الكلمة أن يؤدى دوره وقد يكون هذا الدور مباشرا فى اثارة انفعالات الجماهير ، وقد يكون غير مباشر فى عرض الماضى المجيد الذى نسيه الناس بأسلوب جديد ؛ أو غير ذلك من ضروب التعبير وحمل أمانة الكلمة ، وهو هنا فى فرنسا لا يقوى على اثارة الجماهير حتى لو حاول ، فليس أمامه الا الطريق الثانى .

وانتشلته من هذا التفكير كله ، دعوة صديقه على أبو الفتوح الى مواصلة الكفاح فى « جمعية التقدم المصرى » ، والعمل على انشاء فروع لها فى باريس وفرساليا وجنيف وغيرها ، حتى تضم

---

(١) شوقى وشعره الاسلامى (راجع الفصل الثانى) .

كافة القوى الوطنية ، والتفكير فى اخراج صحيفة باسم الجمعية تعبر عن أفكار الاعضاء وتكون لسان حالهم ، وعقد الاجتماعات الدورية لتبادل الآراء . انه تفكير واع من هذا الشاب الصاعد والوطنى المتحمس الغيور .

وصـــدر العدد الأول من مجلة « التقدم المصرى » فى ١٩ مارس سنة ١٨٩٣ يصـــور الخطوات الأولى للجهـــد الكبير ، تحت عنوان « جمعية التقدم المصرى » : (اسم جمعية تأسست بمدينة مونبلييه من أعمال فرنسا في شهر مايو سنة ١٨٩٢ بهمة الوطنى المناضـــل على أبو الفتـــوح أحد طلبـــة الحقـــوق بتلك المدينـــة .. آلى على نفســـه أن يعمم هـــذا المشروع الجليـــل بين جميـــع المصريين بفرنسا ، فتشعبت هذه الجمعية فى أهم نقط فرنسا . فانشىء لهـــا فروع بباريس ، تحت رئاســـة رب القريض وأخى الأدب سحبان الفصاحة وقس البلاغة أحمد افندى شوقى المصرى « أحد موظفى السكرتارية ـ ادارة التحريات الخديوية ـ ونزيل باريس الآن » . ووكالة اللوذعى الاديب الشيخ محمود أبو النصر المصرى من متخرجى مدرسة دار العلوم الخديوية ، ومدرس العلوم العربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس الآن ، وكلاهما من الوطنيين المشهود لهم بقوة الباع ، وسعة الاطلاع ، وآخـــر بفرساليا وثالث بجنيف وهلم جرا) . وتوالت اعداد المجلة ، تحكى قصة نجاح الجمعية وأعضائها فى المجال الوطنى وفى مجال الدراسة ، وتحكى عن اجتماعات الجمعية المركزية ، وحضور مصطفى كامل بعض هذه الاجتماعات أثناء وجوده بفرنسا ذلك العام . لقد لفت الانظار اليه بكلمته النارية وتوطدت صداقته بشوقى منذ ذلك الحين .

ولكن البلابل لا تكتفى ببناء أعشاشها ، فلا بد لها أن تصدح بالنشيد ، وهكذا أرسل شـــوقى الى « الأهرام » قصيدة بعنوان : تهنئة بشهر الصيام « مليئة بالمغامز ارتفع فيها صـــوته الى

السماكين ، كأنما يدرك إن بينه وبين قرائه مدى شاسعا ، فلن يستمعوا اليه اذا ما انطلق صدره بكلماته الحائرة ، ولكنهم يصغون اليه اذا ما طغى صوته على صرير الاقلام ، وأصوات السمار ، وملق المنافقين • ان الكلمة القوية المتفجرة تطرد اغراء النوم ، فلتكن كلماته باعثة لليقظة ، وتلك رسالة القلم فى يده .

هذه مصر جاءها الدهر يسعى
وهو يا طالما جفاها وصدا
ليس للدهر من وفاء ولكن
هاب فيها العباس أن يستبدا
صاحب النيل للبريه أيه
حرر النيل للبرية وردا
وارفع الصوت ان عصرك حر
لن يرى من سماع صوتك بدا
انما الملك ان تكون بلاد
وتصيب البلاد بالملك مجدا
ومر السلم ان يزور بلادا
عهدتها له الخلائق مهدا
قل لراج ان يسترق يراعى
انا لا اشترى بذا التاج قيدا
نومة السيف قد تكون حياة
ورأيت اليراع إن نام أردى (١)

وتتنوع أنغام أناشيده ومعزوفاته من القوة الخطابية الى الهمس التصويرى ، ومن مجال السياسة والآثارة الى مجال

---

(١) الاهرام ١٨/٣/١٨٩٣ .

المجتمع والتنبيه ، فالقضية ليست قضية جلاء وحسب وانما هى اضخم بكثير ، أنها قضية الشعب كله وتحرره من الاستبداد والفقر والجهل ، وليس فى مصر من اعطى كل شيء وفقد كل شيء سوى الفلاح الذى روى الأرض بعرقه ودموعه ، فيغنى له :

قد مثلوا فى صـورة مزوقة ... كأنهـا قصـيدة منمقـة
رسـم مليك محـكم التمثيل ... بصـولجان المجد والاكليـل
وتحته فى سـلم المقـام ... شريف قـوم شـاكى الحسام
وكاهـن يليـه اسرائيـلى ... أمامه الأمـوال فى زنبيـل
وعسـكرى شـاهر الحسـام ... وسـائل منحـدب القـوام
وتحتهم جميعهـم فـلاح ... فى كيسـه محصـوله المباح
ودون كل صـورة عبـارة ... تفيد ما تعني بهـا الاشـارة
يقول فيها الملك انى السـائد ... فيكم ، والشريف انى القـائد
والكاهن الثـانى انا اصـلى ... لاجلكم فريضـتى ونفلـى
والاسرائيلى يقـول الراجـح ... انا عليكم حيث انى الرابـح
والعسـكرى انى أحميـكم ... والسائل المكدود اسـتعطيكم
ويضرع الفـلاح حسبى ربى ... اطعمكم جميعكم من حـسبى
ينهكنى حولكـم الثقيـل ... وليس عندى لكم جميل (١)

انها ملكة الشعر التى أسرت لبـه وآن له أن يفرغ لهـا بعد أن كان موزع النفس في كل اتجاه ، فقد انقضى العام الدراسى ، وظفر باجازته الدراسية ، وأبى عليه الخديو الجديد ان يعود الا بعد ستة أشهر يفرغ فيها لدراسة الحياة الأدبية فى فرنسا . وقد تفرق رفقاؤه فى الجهاد فمن راحل الى أوروبا ومن ذاهب الى مصر فليس أمامه اذن الا الشعر .

---

(١) الشوقيات المجهولة ص ١٤/١٥ .

كان مقهى داركور فى ميـــدان الســـوربون بالحى اللاتينى ، هو مكانه المفضل ، حيث يقرأ دائما جريدة « الطان » وفى هذا المقهى التقى مرات بالشاعر الفرنسى الشهير « فرلين » الذى كان لا يكف عن الشراب لحظة ، وكانت الخمر تتساقط على ذقنه فلا يعنى بمسحها ، ويمر به طلبة السربون فيحيونه برفع قبعاتهم ولكنه لا يشعر بهم فهو دائما مستغرق فى ذهوله سابح فى خياله . أنه شاعر رمزى غارق فى الذهول وفى الغموض معا . أليس شعر الفرددى موسيه الرومانسى الحالم أكثر تأثيرا فى نفـوس الشرقيين ومع كل هذا فهو لا يستطيع ان يكون نسخة من غيره أنه يستطيع التجديد ولكن فى تؤدة فالطفرة غير مستحبة وقد سبق له آن حاول ذلك حين ارسل قصيدته « خدعوها بقولهم حسناء » فلم تنشر . فتأكد لديه ان المجابهة بالجديد لا يطاق لقاؤها وتؤخذ باطراف البنان . ان الجديد فى الموضوع ممكن بل واجب أما فى الاطار وفى الاتجاه فتلك مسألة اخرى . ومن أجل ذلك تقبل الناس الحكايات على ألسن الحيوان ، التى نظمها للاطفال فقد اهمل الشعراء العرب باب الأطفال اهمالا ، بل لقد تركه كل الأدباء فى وطننا مغلقا . ان « لافونتين » هو أستاذه فى هذه الخرافات الرمزية ، ولكن رمزيتها من لون كليلة ودمنه ، ولهذا تقبلها القراء . فالأطفال يرونها قصصا ممتعة والعارفون يدركون مغزاها السياسى . فحكاية « الهنــــدى والدجاج البلدى » التى نشرت بالأهرام من الناس لم يدرك ان الهندى هو الاحتلال أو هو المستعمر الذى تذرع بنشر رسالة المدنية ليستولى على « بلدى » ثم يضحك من سخف الذريعة وتصديق بعض الناس .

أنه يشعر ان الطبيعة قد حبته مواهب لا تقل عن مواهب الكثيرين من شعراء فرنسا وهو يستطيع ان يطرق بهذه الموهبة

بابا آخر أكثر اتساعا وأشد أغراء . لم تخف عليه مكانة المسرح وشعرائه قديما وحديثا أمثال عباقرة اليونان سوفوكليس واريستوفان ويوريبيدس ، وعباقرة فرنسا المعاصرين له : اسكندر ديماس الابن (٢٤ ـ ١٨٩٥) واميل أوجييه (٢٠ ـ ١٨٩٩) وكلاهما من كتاب الرواية الموضوعية ، ثم عاهل المسرح الفرنسى فكتوريان ساردو (١٨٣١ ـ ١٩٠٨) وهنرى بك (٣٧ ـ ١٨٩٩) زعيم المدرسة الواقعية فى المسرح الفرنسى واميل زولا (١٨٤٠ ـ ١٩٠٣) زعيم القصاصين الطبيعيين وغيرهم . وهو يذكر أن صديقه عثمان جلال ترجم ونشر أربع روايات من نوع الكوميدى عن موليير الى الرجل المصرى ، ولكن الترجمة فى الفن لا توافق مزاجه الخلاق ، فهو لم يترجم بعد قصيدة البحيرة للامرتين ، الا أبياتا قليلة ، وأكبر همه بعد ان شاهد من مسارح فرنسا الاوديون واللوفر والكوميدى فرانسيز وغيرها ان يكون لمصر مسرحها .

ان كتابة المسرحية ليست عملا هينا ، ولولا ان موهبته تسعفه لما استطاع بعد قراءته الطويلة فى تاريخ المماليك ان يعرض عرضا مسرحيا ، للأخلاق الانسانية فى أوقات المحن عندما اختار « على بك » موضوعا . لقد حاول ان يوفر للمسرحية بواعث الصراع الداخلى حين جعل « مراد بك » يتدله بحب « اقبال » زوجة أميره ، ثم يكتشف فى النهاية انها أخته ، بيعت فى سوق الرقيق مثلما بيع هو من قبل . غير ان توالى الاحداث يكاد يفقده القدرة على الالتفات للشخصيات كما ينبغى ، لكنه على أية حال ، قال ما يمكن أن يقوله . واستعان بعنصر السخرية المسرحية ليضفى على الاحداث الجادة لونا من الطرافة والتشويق ، وذلك بادخال شخصية « عثمان بك » الذى كان عينا للدولة العلية يتآمر مع الباشا ضد محمد بك وعلى بك ومراد بك ، وهم

لا يعلمون · ان ذلك يجعل الجمهور يشارك في صنع مصير الأبطال ، أو يشعر بهذا الشعور ، لأنه يعلم الحقيقة بينما الابطال يجهلونها. ثم استغل موسيقى البحور العربية فتخير البحور الطويلة لتصوير العواطف وسرد الحوادث ، والخفيفة السريعة فى المواقف المرحة .

ماذا أخذت منه فرنسا وماذا أخذ منها ؟ .. لقد أخذت أحلى أيام شبابه ، ولكنه أخذ منها علما وفنا · واذا كانت أيامه هناك قد آذنت بالغروب وآن له أن يرحل فهو لم يعد فى حاجة ملحة الى البقاء ، والحنين الحنين أنشودة رائعة تلهب حنـــاياه · ليس عليه الا أن يودع صـــديقيه « شكيب راسلان » و « على أبو الفتوح » ، قبل أن يحزم أمتعتـــه ثم يلقى على باريس نظرة الوداع ، ويستقل الباخرة فى رحلة العودة · ان أنين البـــاخرة وصراخ المودعين لا يبعث الشجى الى نفسه هذه المرة ، بل يرده ردا الى وطنه ، وعندما صافح وجهه نسيم الاسكندرية ، أحس بسعادة غامرة .

الباب الثانى

القفص الذهبى

فى القصر

رجع شوقى الى مصر ، ليعيش فى القصر معيشة رتيبة « بقلم الترجمة » فلم ترج سوقه لدى الخديو عباس لأنه كان يعتقد أن رجال السياسة ألزم له فى فترة الصراع التى بدأها مع كرومر ، وشوقى شاعر ، فبالله ماذا يستطيع ؟ ألم يكتب محمد عثمان جلال على باب غرفة على الليثى شاعر جده اسماعيل منذ سنوات قليلة : « انما نطعمكم لوجه الله ؟ » ٠

ومما يزيد فى قنوطه أن كثيرين من الأزهريين الذين لا يتصورون عائدا من أوربا يقوى على ابداع ذلك المستوى من الشعر ، يلغطون بأن الشيخ زكى سند هو الذى يعينه على النظم ٠ ولكن لماذا هذا الزعم ؟ ألأنه يسكن بدار أبيه فى حى الحنفى ، والى جواره يقيم الشيخ زكى مؤسس جماعة مكارم الأخلاق ؟ انه يلتقى به كل صباح حيث يذهب الى عمله بسراى عابدين ، ويتجه الشيخ الى مدرسة اليسوعيين ، ولكنهما قلما التقيا بقية اليوم لأن دنيا الشيخ غير دنياه (١) ٠

انقضى عام أو كاد ، ولا جديد ، اللهم الا قرار الحكومة بايفاده الى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى مدينة جنيف ، مندوبا عنها ٠ انها على أية حال فرصة يخرج فيها من الركود ، ثم أسعفته بديهته فى القيام بعمل كبير ٠ ألم تتضح الشخصية المصرية من خلال الأحداث على مدى القرن كله ؟ ان جذورها ممتدة فى أعماق التاريخ الفرعونى

---

(١) أبولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٦٤ ، ٣٨٣ ٠

والعربى معا • ترى هل تقوى كلمة نثرية على التعبير عن كل هذه المشاعر ؟ فلتكن مطولة شعرية تحكى مسيرة التاريخ فى مصر • أليس تاريخ الأمم هو الدعامة التى تستند اليها فى أيام المحن ؟ أليس مجدها الغابر باعثا لها من غفلتها ؟ من هذه الزاوية ينبغى أن ينطلق فىمطولة فيواكب الأيام منذ الفراعنة •

وبدأ يقرأ الكتب العربية والأوربية التى درست هذه الأزمان • ومن الطبيعى ألا يكون الأمر هنا أمر موهبة شعرية وحسب ، فهو دراسة تاريخية قبل كل شىء ، يلم بسير الأحداث وانطباعاتها التى تركتها من قصص شعبى ، حتى لا تكون القصيدة منظومة تاريخية ، فهى تحليل يستند الى روح التاريخ ، أما قبل ذلك أو بعد ذلك فهو لا يستطيع أن يخلصها ولا ينبغى من بصمات شخصيته ، وهكذا يأخذ الفن من التاريخ ويعطيه أيضا :

همت الفلك واحتواها الماء • وحداها بمن تقل الرجاء

هكذا بدأ يترنم وهو منفعل بعالم البحر الذى يراه بلا نهاية ، والأمواج عالية صاخبة ، ترفع السفينة كأنها تسير فى السماء ، وتتصل اللجج كالهضاب فى رمال الصحراء المنبسطة ، تتبدل وتتغير كل حين وكل صباح •

وعندما وصل خاطره الى الصحراء توقف ، أليس فى صعود السفينة وهبوطها ما يذكر بالناقة وحداء العربى ؟

ضرب البحر ذو العباب حوا
ليها سماء قد أكبرتها سماء

لجة عنـــد لجة عنـــد أخرى
كهضـــاب ماجت بهـــا البيداء
نازلات فى ســيرها صـاعدات
كالهوادى يهزهن الحـــداء

وتوالت على خياله الصـور ، يزحم بعضها بعضا ٠٠ عبقرية الفراعنة وما شيدوه ، وما علموه للدنيـــا ، فاذا كان هنـــاك من المؤرخين من يهـــاجم هــذه الصفحة المشرقة ، فما أجدره أن يقف موقف المنصف ٠ ولكن تاريخ الفراعنة لا يخلو من صفحة عرفوا فيها مرارة الهزيمة وان كان الى جوارها صفحات ذاقوا فيها حلاوة النصر ، وما أشبه ذلك ، بالاحتلال البريطانى ، انها فرصة ينفذ منها :

ان ملكت النفوس فابغ رضاها
فلهـــا ثورة وفيهـــا مضاء
يســـكن الوحش للوثوب من الاسر
فكيف الخـــلائق العقـــلاء ؟

الواقع أن موضوع «قمبيز» الفارسى يصلح قصة قائمة بذاتها، فيهـــا روعة الاباء ، وفيهـــا جلال المواقف ، وفيها القـــوة الانسانية والضعف الانسانى ٠ وأى شىء أجل من أن يرى فرعون ابنته تمشى فى السلاسل وقد أزعج الدهر عريها وهى أسيرة ، فلا يبكى وانما هو أبى اباء ابنته ، وانما يبكى ريجمه بصديقه وقـد رآه بعد العز يستجدى ٠

ويتوقف التاريخ ، وينطلق مـع أحاسيسه ، فاذا موجة أثر

أخرى تطفو حاملة معها قبسا من روحه الدينى العميق فى حناياه ، ذلك طابعه ، لا بد أن يثبت وجوده ، كلما جاء ذكر الله فى خاطره ، فما عبادة الفراعنة وغير الفراعنة الا الرموز التى اتخذتها العقول فى صباها ، وهى تبحث عن الحقيقة الكبرى ، عن الرب ، قبل أن يهديها الانبياء ٠

وتتواكب صور التاريخ مرة أخرى ، انه تاريخ الاسلام واعلامه، من عمرو بن العاص الى صلاح الدين الايوبى ، بل هو تاريخ الفداء ، واذا استوى الموت والحياة ، فليس للذل حيلة فى تلك النفوس ٠ وأحس ان القصيدة طالت ، فثلثمائة بيت تبعث الملل الى السامع فى المؤتمر ، فلتكن اذن لمسات خاطفة يعرض فيها لنابليون وطيشه ، واستهزاء الاهرام بجنوده كأنما تدرك نهايته القريبة فى «واترلو»٠ حتى اذا وصل الى قناة السويس هزته النكبة ، انها ضلة زانها الشقاء المصر ، وليس من ملوم «أيها القوم كلكم أبرياء» ٠ وتنتهى القصيدة بصورة للخديو الشاب والشاعر الشاب الى جواره :

يا عزيز الانام والعصر سمعا
فلقد شاق منطقى الاصغاء

ان عصرا مولاى فيه المرجى
انا فيه القريض والشعراء

ان أحدا لم يلتفت اليه ، وبقى اللغط ، كما هو ٠ ما أشقى الفنان وما أتعس حياته ، انه يغنى للناس منذ سنوات ، فيسمع الناس الغناء ولا يكلف أحد نفسه بأن يرفع بصره الى المغنى ، حتى

اذا ما احترق تمـــاما بدأوا يبصرونه ، ولكنه كالبلبل لا يملك الا التغريد فى أفراحه وأحزانه • ولو التفت اليه الخديو لصفق الناس له ، فليس أمامه اذن الا المديح ، وهكذا يعيد التاريخ نفسه ؛ تاريخ المتبنى والبحترى وغيرهما ، ومع ذلك فالنقاد يلومون شعراء المديح، ماذا يصنعون اذن ؟ يتضورون جوعا ، ويقبرون فنهـم ؟ ان الناس لا تكاد تلتفت الا الى شعراء الملوك والامراء ، والنقاد أنفسهم قلما التفتوا الى غيرهم ومع كل هذا يلومونهم • « كم خلت الجيوب ، وكم شكوت المر » ومع ذلك فالناس يحسبون شـوقى قد ولد وفى فمه ملعقة من ذهب • لولا نمزار لعرف شوقى البؤس والشـقاء ، ان رحمة الله هى التى قيضت له هذه الحاضنه ، فعاش أشبه باليتيم وأبوه ما يزال على قيد الحياة • لماذا يا أبى اسرفت على نفسك وعلى ولدك ، لمـاذا بددت ثروة أبيك فى طيش الشباب ، ولكن الحسرة لا تنفـــع ، أحقا أردت لولدك أن يعيش من عرقه وألا يرتزق من الموتى ؟ هاهو ذا ولدك يعيش فى خط الحنفى ، ويذهب كل صباح الى عمله ، فلا يكاد يكفيه راتبه ، ثم ينظم كل مساء للناس وللخديو، ويقبض على الهواء ، فماذا يصنع ان تزوج ؟

أنا لم أغنـــم من النا س ســـوى فنجان قهـوة
أنا لم أجـــز عن المـــد ح من الامـــلاك فروه
أنا لم أجز عن الكتب مــ ـــن القـــراء حظوه
ضـــيع الكل حيـــاتى وعفـــافى والمـــروه (١)

ولكن ما له ولهذه الاشجان ؟ ألم يقرر أنه سـوف يركز على

(١) الشوقيات القديمة ص ٢٠٥ •

المديح ؟ لقد كانت قصيدته الماضية وصفيه ، عرض فيها صورا من «المنتزه» قصر العباس بالاسكندرية وما فيه من ألوان الابهة ، غاباته التى تهزأ بغابات البوسفور وبحيرته التى تنسى «لامرتين» البحيرة الشهيرة ، والطيور والحيوان التى تطوف بالبحيرة وتمرح فى الغاب والجوارى والمبانى .. فلتكن قصيدته هذه فى العام الهجرى الجديد بعيدة عن الوصف ، عامرة بالمديح الخالص ، ولكنه لا يملك الا أن يعرض لحقوق وطنه :

أبا الحيارى ألا رأى فيعصمهم
فليس الا الى أرائك الهـــرب
باتوا يرجون لمـــا طـــال بؤسهمو
والنفس عند اشـــتداد الخطب ترتقب
هيهات يبصر ملك لا منار له
ولا منـــار اذا لم يرفـــع الادب(١)

يبدو أن الانظار قد بدأت تلتفت اليه فعلا ، فالشعر السياسى ينبغى أن يواكب المعركة ويقوم بدوره فيهـــا ، وقـــد يفشل الرجل السياسى فيما ينجح فيه الشاعر خاصة فيما يتصل بمشاعر الجماهير وعواطفهم . ان بطرس غالى وبشاره تقلا ومصطفى كامل ، قد نبهوا الخديو الى ذلك ، بل لقد عرض بطرس غالى على الخديو أن يسمح له بتوظيف الشاعر فى الخارجية بضعف مرتبه الذى يتنـــاوله من قلم الترجمة فى السراى ، وعرض بشاره تقلا عليه مثل هذا العرض ليقوم بتحرير الاهرام .

هكذا بدأ الخـــديو يدرك قيمته ، ولو لم يصنع لكان له فى جريدة الاهرام متسع ، ولكن الخديو قد أولاه كثيرا من المهام التى

---

(١) الشوقيات القديمة ص ٥٨ .

قام بها خير قيام ، فمنـــحه ثقته ، وبدأ يقدمه على كل رجاله ٠ فما أعجب الأيام ، لقد كان منذ حين يوسط صديقه أحمد زكى عند رئيسه حمزه فهمى ، وتدور الايام ، وها هو ذا حمزه فهمى يوسط أحمد زكى عنده (١) ٠

بل ان الاعيان يوسطونه كما يوسطون على يوسف أو مصطفى كامل ، للحصول على الرتب والنياشين ، وهى فى واقع الأمر تجارة (٢) فاذا كانت تجـــارة شائنة ، ففيها ربح عظيم للجمعيـــات الخيرية والملاجىء وكل المؤسسات المقامة للرحمة بالانســـان ٠ فلولا الاموال المأخوذة من هذه التجارة ، ما تبرع الخديو لمحتاج بقرش واحد ، ولمـــا قرأ القارىء فى صحيفة ســـيارة « تبرعت الحضرة الفخيمة الخديوية بمبلغ مائة جنيه للجمعية الخيرية الاسلامية أو لغيرها من مؤسسات البر » ٠ فأى ضير فى أن يأخذ شاعر الامير من الخديو بعض أموال الاقطاعيين المتهافتين على الالقاب ؟ انه ينفق أكثرها على نفسه يعوض أيام الحرمان والباقى على المعوزين ٠ وعلى يوسف ألا يأخذ بعضا من تلك الاموال ثم يطلب المزيد ؟ لقد كلفه الخديو أن يطلب معونة لصحيفة المؤيد من أحد أعيـــان المنوفية ، وهو رجل يتحرق بخلا ، يعطى القليل بعـد مشقه وجهد ، بينما يعطى عمر طوسون لصحيفة اللواء فى سخـــاء ٠ لعل ذلك هو الذى دفع على يوسف الى احتضان الشاعر حافظ ابراهيم نكاية فى شـــاعر الأمير ظنا منه أن شوقى هو الذى يقترح أسماء المتبرعين (٣) ٠

لقد أصبح صديق الخـديو ونجيه ، ومكانته فى هـذا المقام لا تختلف عن مكانة المتنبى لدى سيف الدولة والبحترى لدى المتوكل

---

(١) أبولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٦٤ ومابعدها ٠

(٢) أعمالى بعد مذكراتى لأحمد شفيق ص ٤١١ ٠

(٣) حياة شوقى لأحمد محفوظ ص ١٤٩ ٠

وأبى نواس لدى الامين ، بل ربما تزيد . ألم يعلم بأن شاعره لايدع الكأس فارغة ولا يطيق أن يراها مليئة ، فتغاضى عن ذلك ، ولم يزد على أن قال «أبو قارورة» ؟ ألم يتبسط معه ويعاتبه لانه جلس فى المقعد الامامى بعربته وكان ينبغى أن يجلس فى المقعد الخلفى الى جوار ولده حسين لانه شاعر الامير ؟ بل ألم يزره فى بيته ، وكان فى ذلك الوقت يحاول نظم احدى قصائده فى مدح الرسول ؟ انه يذكر هذا اليوم جيدا ، ويذكر انه أحس بقوة عليا تؤيده بعد مدحه للرسول ، فقال على الفور :

يا ليلة القــدر التى بلغتهــا
ما فيك بعد اليوم من مرتاب

ما كنت أهـــلا للنوال وانمــا
نفحات أحمد فوق كل حساب

لما بلغت الســـؤل ليــلة مدحــه
بعث الملوك يعظمون جنابى

بل ان منزلته شفعت له عنده ، عندما تخلى عن الحج معه ، واختبأ فى منزل أحد أصدقائه « ببنها » ، فبحث عنه الخديو دون جدوى ، ثم اعتذر له حين عودته بأنه لا يقوى على ركوب الابل . ومن الحق انه قد ندم واستغفر الله كثيرا ، ولكن صحته لا تتحمل مشقة الرحله، انه يضحك ويأسف كثيرا عندما يذكر هذا الموقف(١)، ثم كتب قصيدته «الى عرفات» وهو منفعل بكل هذه الاحاسيس .

ولكن هل سكت الناس عنه ؟ لا ، فهم يقولون ان البلبل قد احتواه القفص الذهبى ، ويذكرون مدائحه ، ثم شعره فى الحفلات الراقصة التى يقيمها الخديو فى قصره . هم يطربون حقا ، ولكنهم

---

(١) أبى شوقى ص ١١ .

يأسفون ويمطون شفاههم ثم يرددون « شاعر النيل غوى » ، لقد أطربتهم دون شك أبياته التى قالها فى حفل عابدين على الوزن الذى اخترعه البارودى :

مـــال	واحتـــجب	وادعـــى	الغضـــب

واطربته كما أطربتهم منظومه حافظ والبشرى الفكاهية من نفس الوزن التى داعبا بها قصـــيدته ، فكان أحدهما ينظم شطرا والآخر يكمله وهما يسيران ذات يوم على النيل ، حتى أتما نظم ستين بيتا من هذا اللون الشعبى المحبب :

شـــال	وانخبـــط	وادعـــى	العبـــط
ليـــت	هاجـــرى	يبلـــع	الزلـــط
عتبـــه	شـــجى	حبـــه	غلـــط
كلمـــا	مشـــى	خطـــوة	ســـقط
ان	أمـــره	فى	الهـــوى شـطط (١)

والنقاد يطربون أيضا ، ولكنهم يشيرون بأصابع الريبة لشعره فى السلطان ، كأنه وحده الذى مدحه ، أو كأن الدماء التركية التى تجرى فى عروقه مختلطة بالدماء العربية ، هى الدافـع الاول له ، وينســون أن «عبد الحميد» هو خليفة المسلمين ، والداعى للوحدة الاسلامية ، والواقف كالصخرة أمام مطامع الدول الاجنبية ٠ ومن الغريب أن كل الاحداث والقضايا الاجتماعية تهزه وينفعل بها ويقول فيها ، فأقل شعره فى المديح وأكثره فى مواقف الحياة ٠ ألم يكتب فى حريق ميت غمر ، بل ســـافر الى ميت غمر ليرى بنفسه آثار الدمار ؟ ألم يكتب فى انتحـــار الطلبة وفى الوئام بين عنصرى الامه

(١) شوقى وحافظ لطاهر الطناحى ص ٩٢ ٠

المسلمين والمسيحيين ؟ ألم يكتب فى المدائح النبوية مهـاجما مزاعم المبشرين ومن يسيرون فى فلكهم وموضحا مواقف الاسـلام المشرقة فى جوانب الحيـاة كافة ؟ ألم يغن لنفسة ولهم فيصـور الطبيعة المصرية السـمحة ، ويردد أناشيد الغزل ؟ ألم يكتب فى التاريخ والآثار فيحـكى مجد الماضى ويجلو روعته ؟ بل ألم يكتب فى كل موقف سياسى ؟ انهم يشيرون دائما الى حادثة دنشواى وكيف صمت عاما كاملا حتى قال فى ذكرى الحادثة • ولكنهم ينسون أنه كان فى الخارج مع الخديو(١) ، فلم تصله أنباء الحادثة الا مشوهة موجزة، لا تثير انفعال شاعر ، فلما عاد كان الكاتب القصصى طاهر حقى قد بدأ ينشر رواية « عذراء دنشواى » فى حلقـات متتـابعة بجريدة المنبر ، ابتداء من ٦ يوليو ١٩٠٦ ، وأهدى المؤلف روايته الى أمير الشـعراء ، فماذا صنع أمير الشعراء ؟ لقد كتب الى الاديب خطابا مفتوحا يعبر فيه عن موقفه •

« اطلعت فى المنبر المتصل ان شاء الله تعالى بالجوزاء ، على فاتحة رواية باسم (عذراء دنشواى) ، رأى حضرة واضعها الفاضل تلطفا منه واحسانا أن يهديها الى ، ورأيت أن أعتذر على أعواد المنبر من قبول الهدية ، وأن أنفض يدى من عـذراء نشأت بين حمام كم جلب من حمام • وبين اجران كم جرت من أحزان • ولو سألنى حضرة المؤلف رأيى قبل أن ينشر ما نشر كما هو مألوف فى مثل هذا المقام لدللته على من هو أحق منى بحسن ظنه كعشماوى ، أو نابغة المحامين الهلباوى أو غيرهما من جنود الحادثة وشهود الكارثة ، والسلام»(٢)

ثم ألم يقل بعد شهور أبياته العنيفة ، حين رقى أحمد فتحى زغلول الى وكالة وزارة الحقانية بتوجيه اللورد كرومر ، وهو أحد

---

(١) وطنية شوقى للحوفى ص ١٤٣ •

(٢) الشوقيات المجهولة جـ ٢ لمحمد صبرى ص ٤٣ •

القضاة فى المحكمة المخصوصة التى شكلت لمحاكمة أهل دنشواى . فلم يعبأ بالصلة التى بينه وبين سعد زغلول ، وأرسل هذه الابيات الى الحفل الذى أقيم لتكريم وكيل الحقانية ، بعـد أن ألح منظمو الحفل عليه أن يشاركهم بقصيدة :

اذا ما جمعتم أمركـم وهممتم
بتقـديم شيء للوكيل ثمين

خذوا حبل مشنوق بغير جريرة
وسروال مجلود وقيـد سجين

ولا تقرأوا شعرى عليه فحسبه
فى الشـعر حكم خطه بيمين

ولا تنشروه فى (شبرد) بل انشروا
على ملأ فى دنشواى حزين(١)

---

(١) وطنية شوقى للحوفى ص ١٤٥

كرمة ابن هانىء

عندما يفكر الشاعر فى الزواج يحلم بالربيع الدائم ، انه فى عينه الخضرة الممتدة مهما تساقطت الاوراق فى الخريف ، والدفء ان عز فى قسوة الشتاء ، والنسيم اذا توقد لفح الهجير • ما أعجب أن يفكر الرجل فى المرأة على أنها شيطان ، ويفهم أن الزواج شر لا بد منه ، وبهذه المفاهيم يبـدأ حياته الزوجية • وما أعجب أن يصور آخرون يدعون أنهم فهموا الحياة ــ الرباط المقدس على أنه صفقة تجارية لا أكثر ولا أقل • ولكنه فنان والفنان لا يبيع حريته مقابل شىء حتى ولو كان السكن والطمأنينة والاستقرار • ان الامر هنا يرجع الى تربية المرأة وفهمها لوظيفتها المثلى فى الحياة ، فليبحث عن النشأة والاسرة قبل أن يفتش عن المرأة •

وماله ولكل هذا وأمامه جاره حسين شاهين التركى الاصل ، الذى يتلهف الشباب على الزواج من بناته وهو يتأبى ، لانه يدرك انهم يخطبون الثروة ، أتراه يردوه لو تقدم ؟ انه ليس عاطلا بالوراثة حتى يصمه بما وصمهم به ، وليس نكرة حتى يتعالى عليه ، وليس محتاجا حتى يطمع هو فى مال غيره •

ان أحمد عمر المهندس يسعى للزواج من احدى بنات الرجل، ولن يكون هو أقل جرأة منه • وعندما يتم ذلك ، فســوف ينتقل بزوجه الى «حلوان» ، فهى ضاحية هادئة وما أحب الهدوء الى نفسه، خاصة وأن النيل يحدها ، وهل هناك شاعر مصرى لم يتغن بالنيل؟!

وهكذا أقبل عام ١٨٩٥ ، وقد تزوج شوقى وانتقل الى حلوان. وهو سعيد بحياته الجديدة ، فالقطة التركية(١) لم تتعود حتى أن تموء ، وانما تعودت أن تهيىء كل أسباب الهناءة لزوجها رغم مايصدر منه أحيانا من تصرفات فيها كثير من الشذوذ ، فمعه أصدقاؤه دائما على الغداء ، بينما تأكل هى وحدها ، ومعه أصدقاؤه دائما على العشاء ولكن خارج البيت • وهو يجلس معها ولكنه دائمـــا ســابح فى خيالاته ، ثم لا يلبث أن يندفع خارجا دون أن ينبس بكلمة ، هكذا اعتاد وهكذا اعتادت ، وما ينبغى لها أن تحمل هذه التصرفات فوق ما تحتمل ، فهو شاعر • ولكن السعادة لم تكتمل ، وهل تمنح الدنيا أحدا بغير حساب ؟ لقد مرض والده ، وحير مرضه الاطباء ، كما حير ولده الرقيق المرهف الاعصاب ، انه لا يدخر وسعا فى سبيل رد العافية الى أبيه ، حتى لو جمع أطباء مصر كلهم ، وقد طلبوا اليه أن ينقله الى ضاحية جافة كالزيتون ، فأثث له بيتا ونقله اليه • أتراه يحتمل الصدمة لو لحق نمرار » ؟ أن زوجه المسكينة على وشــك الوضع ، وهو مشتت الفكر حائر اللب بينهما • أيضحك أم يبكى؟ أيهش لاستقبال المولود ، أم يجهش لوداع الراحل ؟ فى نفس اللحظة التى وارى فيها والده التراب ، وضعت زوجه ابنته أمينة ، فجمدت عينه عن البكاء وتوقف ثغره عن البسمة ، وعجب لتصاريف القدر التى تخرج الحى من الميت •

المــوت عجــلان الى والدى
والوضع مستعص على زوجتى
والقلب ما بينهما حائر
من بــلدة أسرى الى بــلدة

---

(١) كان يحلو له أن يطلق هذا اللقب على زوجه لوداعتها ورقتها .

حتى بدا الصبح فولى أبى
وأقبلت بعد العناء ابنتى(١)

وانقطعت بعد ذلك صلة الشاعر بحى الحنفى، فقد نقل والدته الى بيته بحلوان لتعيش معه . ومرت الايام مسرعة ، وغسل الشاعر أحزانه ، وأسدلت ستور من النسيان بينه وبين جراحات الماضى ، وبدا له ان حياته قد عادت سيرتها ، وأن الايام التى ازعجته قد كفت يدها عنه .

وكان البارودى قد عاد من منفاه ، وجاور شوقى فى سكناه بحلوان ، « فاذا الجار كريم والشاعر عظيم (٢) » ولكن عودته لم تثر ضجة أدبية ، فقد احتل شاعر الامير زعامة الشعر ، ومن الحق انه كان قد تأثر به ونسج على منواله أول عهده بالشعر ولكنه اليوم يختط طريقا جديدة ، فالبارودى فارس فى حياته وفى شعره ، جهير الصوت جزل الكلمات ، أما هو فرقة طبعه ، غلبت على نتاجه ، حتى استحالت قصائده أنغاما ، تصلح للغناء فى أفراح مصر وفى أحزانها. والبارودى يمثل فترة الاحياء للتراث والرجعة الى زمان الفحول بما فيه من نقاء وقوة ، اما هو فقد تجاوز هذه المرحلة ، أو بمعنى آخر هو التطور الطبيعى للبيئة والزمان . ان شخصية مصر لم تكن قد اكتملت ونضجت أيام البارودى ، وانما كانت كل الاحداث ارهاصا. وهل كان البارودى يستطيع أن يقول فى ابنته «سميرة» الا ما قال؟ أما هو فابنته « أمينة » تمثل الجيل الجديد ، والشخصية الجديدة النامية ، ومن أجل ذلك كان شعره فيها مصبوغا بهذه الصبغة ، مصورا لآمال الكبار فى الناشئة الجديدة ، عندما تكبر ، وتبنى مصر بسواعدها القوية ، ان الجيل الصاعد لا يعرف العبرات ولا اليأس،

---

(١) الشوقيات القديمة ص ٢٠٠

(٢) الشوقيات المجهولة ص ١١٨ .

وانما يعرف المدافعة والمزاحمة وأخذ العيش بقوة ونيل الدنيا غلابا · انه يحب أبناءه ، عليا ، وأمينة ، وحسينا ، واذا كان على هو ولى عهده كما يحلو له دائما أن يسميه ، فان حسينا لا يطيق فراقه ، ولكن أمينة وحدها هى التى استأثرت بأكثر شعره فى الاسرة لانها تمثل الحنان ، تمثل أمومة مصر ·

ولى طفـلة جازت السنتين
كبعض الملائك أو أطهر

بعينين فى مثل لون السماء
وسنين ياحبـذا الجـوهر

فقلت لهـا أيهذا الملاك
تحب السـلام ولا أنكر

ولكن قبلك خاب المسـيح
وبـاء بمنشـورة القيصر

ومن يعدم الظفر بين الذئاب
فان الذئـاب به تظفر

فخـذ هاك « بندقة » نارها
سلام عليـك اذا تسعر

ففيها الحيـاة لمن حازها
وفيها السعادة والمفخر ··(١)

كم طابت له الاقامة فى هذه الاشـهر الاخيرة التى جاور فيها البارودى ، وشهد بعض ندواته التى كان يحضرها الادباء ، ولكنه

---

(١) الشوقيات القديمة ص ٤٠ ·

مضطر للانتقال الى داره الجـديدة بالمطرية ، ليكون على مقربة من عمله بقصر القبة • « ان كرمه ابن هانىء » هى بيت الاحلام بناها على نسق قصر المنتزه ، فحديقتها مليئة بالحيـوانات الاليفة وغير الاليفة ، الغزلان والسلاحف والقرده والطواويس والببغاوات ومئات العصافير الملونة ، والتمســاح الذى أتى به من السودان بنى له حوضا خاصا وسط الحديقة •

ألم يشاهد كل هذا من قبل فى قصر الخديو ، ويحلم باليوم الذى يكون له فيه مثـله ؟ وغرف الصـالون الخضراء والحمراء والبيضاء ، واحدة على طراز عربى وأخرى طراز لويس الخامس عشر والثالثة طراز لويس السادس عشر واللوحات التى تزينها ، أغلبها لوحات نادرة ، اشـتراها من المزادات التى أغرم بهـا فى الايام الاخيرة • ولكن غرفة المـكتبة هى التى نالت أكبر اهتمامه ، حتى تتسع لانف مجلد عربى وخمسـمائة مجلد فرنسى وتركى • فهو يقرأ فى كل اتجاه «وخير جليس فى الزمان كتاب» ، يقرأ فى الطب والفقه والعلوم والجغرافيا والتاريخ والادب ، بل كل كتاب يقع فى يده أو يقرأ عنه فى الدوريات ولكن أحب الكتب الى نفسه ما زالت هى كتب الادب والتاريخ وعلى الاخص الاغانى والامالى والدواوين وابن الاثير والجبرتى •

ان هذا البيت الضخم يحتـاج بطبيعة الحال الى خدم كثيرين والى من تديره ولكنه ينبغى أن يعاملهم معاملة الانسان للانسان ، معاملة السيد للسيد ، حتى لا يشعروا بمرارة الحاجة أو ذل الخدمة، ثم يمنحهم الوقت الذى يستمتعون فيه بحياتهم بعيدا عن العمل ، ويمنحهم المال ليستمتعوا بوقتهم كما ينبغى •

وأبغض شىء لديه أن يضطر لاخراج واحد منهم حين يستحيل اصلاح ما أعوج من أمره • وهو لم يعتد فرض شخصيته عن طريق

الاوامر يلقيها بصوت خشن وقد رسم على وجهه قناعا من التجهم ، وانما اعتاد دائما أن يكون سمحا وأن يرعى الجميع ، وألا يجرح واحدا منهم سواء أكان خادمه أم ولده الا اذا كان الامر يمس الدين من قريب أو بعيد ، فهو حريص على أن تكون للدين قدسيته • فقد عنف حسينا مره على مزحة مزحها وقد مست الدين ، عنفه رغم صغر سنه ، ورغم حنانه وحبه الشديد له • وقد دفعه هذا الحنان الشديد الى تدليل أبنـــائه وممازحتهم في كل حين فعلي « لولو » وحسين «سيسى» ، حتى بعد أن كبروا وبدأوا يملون تقبيلهم من والدهم • وهو يردد دائما : اثنان لاغنى لى عنهما ، «حسين ومبسم سيجارتى»• وهذا الحنان نفسه هو الذى جعله يفكر فى البيت المجاور لكرمته ، يشتريه ويزيل الجدار بينهما لتقيم فيه ابنته أمينة يوم تتزوج • ولكن هذا التعلق الشديد بأبنـــائه كثيرا ما دفعه الى مزالق ، ألم يحاول أن يستبقي ولده «حسين» ليستمتع بمداعبته ، فيعطل ذهابه الى المدرســة ؟ ولولا حزم المربية التركية واصرارها لجنى المر بعد حين • ألم يسمح لولده على بالتـــدخين فى حضرته حتى استـنكر الناس خروجه على التقاليد ؟ انه يعيش الحياة طولا وعرضا فليدع الآخرين يعيشون ، فهو لا ينسى أيام كان يضـطر أحيانا الى رهن ساعته فى سبيل كأس من الشراب • لقد استطاع أن يبدل حياته ، واذا كان فنه قد دفع الجميع الى تقديره ورفعه ، فقد دفع الثمن من أعصابه وصحته حتى وصل الى ما وصل اليه ، واعتاد حياة فيها شيء من الرتابة ولكن فيهـا كثيرا من الخصوبة • فهو لا يستيقظ مبكرا أبدا منذ أيام التلمذة ، وانما بعد العـاشرة بقليل ، حيث يستقبله خادم يغســـل وجهـه ورأسه وذراعيه وقدميه بالمـــاء الفاتر ثـم «بالكولونيا» ، حتى اذا ما تناول طعـام افطاره وغالبا ما يتكون من القهوة والبيض ، ساعده الخادم فى تناول ملابسه ، ثم يأخذ عربته فى طريقه الى القصر • ما أعجب حياة القصر ، وما أكثر الدسائس

التى تحاك لهذا أو لذاك ، ان آخر الضحايا هو السيد محمد توفيق البكرى الذى أصيب بالجنون • وهكذا تاريخ القصور من قديم وهو تاريخ بشار وأبى نواس والمتنبى وغيرهم ، ولكنه استطاع أن يحتفظ وسط هذه التيارات بالحياد التام ، خاصة بعد أن اضطرب تفكير عباس وراح يتخبط فى تصرفاته ، فهو تارة يفر من الانجليز الى تركيا ، وهو تارة أخرى ينصرف عن السلطان محتميا منه بالانجليز، وهو كاره لكليهما فى الحالين ، لا تطمئن نفسه الى هذا ولا الى ذاك• وبينما يشجع أعضاء تركيا الفتاة الفارين الى مصر ، اذا به ينقلب الى محاربتهم وبينما هو مقبل على الشعب يحتضن مطالبه التماسا للحد من نفوذ كرومر ، اذا به يتنكر للشعب ويزج بالاحرار فى السجون حين يرى اقبال جورست عليه ، مهما يكن من دخيلة أمره فقد انتهى الى اليأس والانحلال(١) •

هذه هى حياة القصور ، ويا لها من حياة داخل هذا القفص الذهبى ، ولكنه استطاع أن يتسلل منه ، فلا يحس ضيق القضبان وألم القيد • على انه ينسى كل هذا اذا ما عاد الى بيته ، فهو يخلع رداء السياسة ليلبس رداء الفن • فكم شهدت الكرمة من احتفالات وامسيات بهيجة ، خاصة أيام شم النسيم حين يجتمع الادباء والشعراء ، وعلى رأسهم حافظ ابراهيم وخليل مطران ينشدان وسط طرب الحاضرين • واذا ما تصادف وجود لأديب كبير من أدباء الغرب أو الشرق دعى الى الكرمة ، مثلما دعى «هول كين» الكاتب الانجليزى عام ١٩٠٨ ، وأنشدت قصيدته هو هذه المرة :

أيها الكاتب المصور صور
مصر بالمنظر الانيق الخليق .

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ص ١٧٠/١٧١ •

ان مصرا رواية الدهر فاقـــرأ
عبرة الدهر فى الكتاب العتيق

وهو يحب الافتتـــان فى كل شيء ، فى كل لمسة من لمسات البيت ، وفى كل طبق من أطباق الطعام • فكم دعا صديقه الطبيب التمساوى لاجادته طبقا فرنسيا وهو «حساء السمك» ، وكم أرهق صديقه الزعيم التونسى السيد الثعـــالبى بتكليفه صنع أطباق من الطعام التونسى • ولكنه غير أكول ، وحتى الاطبـاق التى يهواها ، قـــد يعزف عنها بقية عمره ان رأى من يأكل منهـــا بطريقة تثير اشمئزازه •

ولكن أحب الاوقات الى نفسه ، هى ما بعد الغداء حين يفرغ للقراءة ، انها تبعده عن كل صراع الا صراع الفكر • أما وقته فى المســـاء فموزع ما بين زياراته لشـــقيقته أو زياراته لاصدقائه من أصحاب الصحف ، ثم العودة الى «جروبى أو صولت».وهو فى أكثر تنقلاته يحاول أن يختلط.بالناس فيركب الترام ويستمع الى أحاديث العامة ، ويفهم ما يصدرون عنه • حتى اذا ما جاوز الليل منتصفه ، آن له أن يعود الى بيته ، فيتخفف من ملابسه ، ثم يلبس جلبابا من الصوف الرقيق ، ويبقى بغرفته يسجل مانظمه طول يومه ، أو يكمل قصـــيدة بدأها ، فاذا أتم ذلك ، استغرق فى القراءة الى منتصف الرابعة ، وحده فى هدأة الليـل • حتى اذا أذن الديك الصدوح ، ترك القلم والكتاب ، وأسلم جفنيه للنعاس •

حيرة

كانت حركة الاحياء آخذة فى المسير ، وأخذ الشعراء ينسجون على نمط فحول الشعر العربى ، ولكن الشعر بقى بحاجة الى خطوة أخرى ، بل خطوات . ومنذ أواخر القرن الماضى بدأت الدعوة الى تمثل الشعر العربي تتخذ طريقها ، ونشر المقتطف عام ١٨٩٢ توجيهه يقوم على هذا التمثل ، حين كان المثقفون يقرأون الشعر الغربى ، فيجدون فيه انطلاقا من كثير من القيود ، ويجدون فيه تعبيراً عن تجربة ويجدون فيه اتجاهات أرحب ، ثم يقرأون الشعر العربى فيرون الشاعر مازال يبكى الاطلال ، ومازال يرتدى أثوابا بعضها صالح للبقاء وبعضها قد اباته الأيام . قال المقتطف : « أما المحدثون فقد اتبع أكثرهم خطة واحدة فى الغزل والمدح والرثاء ، فيبتدىء الشاعر بوصف غادة ، فيشبه شعرها بالليل وجبينها بالصبح وحاجبها بالسيف وعينها بالنرجس ووجنتها بالورد وثغرها باللؤلؤ ، وريقها بالعسل وقوامها بالبان ، وينتقل الى الممدوح فيدعى أنه أسد فى الشجاعة وحاتم فى الكرم وبحر فى الجود ، وانه جمع علوم الورى فى صدره ، ثم يدعو له بطول البقاء . هذا وقد استشارنا بعض النابغين من شعراء عصرنا فى طريقة لفك الشعر العربى من ربقة القيود التى يتقيد بها ، فأشرنا عليهم بترجمة أشعار هوميروس وملتون وغيرهما من فحول الشعراء فعملوا بمشورتنا ، فاذا أتيح لهم أن ينظموا هذه الاشعار ولا يضيعوا شيئا من بلاغتها ، رأى فيها أدباؤنا ما يغير رأيهم فى

الشعر والشعراء ، فيغادرون الطريقة التى اتبعوها حتى الآن » (١) .

هذه الدعوة كانت بمثابة البذرة ، ألقيت في التربة المصرية الخصبة ، فلم تمض سنوات حتى ترجم سليمان البستانى الياذة هوميروس عام ١٩٠٤ ، وتناول في مقدمته التى تقع فى مائتى صفحة الترجمة الشعرية وعلاقة الاوزان والقوانى بالمعانى . ولم تكد تظهر الالياذة ، حتى شغلت الجرائد والمجلات وقال الهلال :

« ان الالياذة العربية بما فيها من الأبحاث الشعرية المبتكرة جديرة أن تكون بدء نهضة جديدة فى الشعر العربى ، فتتجه عناية شعرائنا الى نظم الشعر القصصى أو الوصفى بعد أن تبين من نظم الالياذة ان اللغة العربية متسعة لذلك والنهضة العمومية تستلزم هذا الاصلاح ، وان تصرف القرائح فى الشعر الموسيقى عن الأساليب القديمة كالاستهلال بالتشبيب أو ذكر الخمر أو الزهر والتخلص الى المدح أو غيره فيسير الناس على ما يقتضيه نور العلم فى تحدى العقول والاقتراب من الحقيقة بقدر الامكان » (٢) .

وتستمر الدعوة الى التجديد ، فيدعو النقاد الى التجديد فى المحتوى ، بعد أن أصبح شعرنا مكررا ، فليس الشعر غزلا ورثاء ومدحا وحسب . حتى لو جمعنا ما قاله الشعراء فى هذه الموضوعات التى احترقت لم نر أدنى فرق بين الواحد منهم والآخر ولأمكننا — كما قال النقاد — أن نختصر تلك المجلدات الضخمة الى صفحات « فالشعر عندنا عود ليس فيه الا وتر واحد يضرب عليه الكل فيختلف الصوت تبعا لقوة الضربة وحركة

---

(١) المقتطف ص ١٥٠ (١٨٩٢) .

(٢) الهلال يوليو ١٩٠٤ ص ٥٧٥ .

الأنامل ، والغريب ان أكثر شعرائنا وكتابنا لا يريدون تغيير القديم، بل ولا يقبلون الجـديد ، فان سمع الواحد منهم بيتا جـديدا أو معنى جديدا ، قال هـذه تصورات افرنجيـة ، كأن الفكـر العربى قاصر على الاختراع وليست له قدرة الابداع (١) . »

ما زلنا فى العـام الأول من القرن العشرين والدعـوة الى التجديد تأخذ طريقها ، فيطالب النقاد بالصدق الفنى ، صدق الاحساس ، فلا حاجة بالشاعر الى أن يصف أماكن لم يرها ، ولكنه محتاج الى أن يعبر عما تجيش به نفسه حقيقة . ولا معنى لحداء الابل وهبوب ريح الحجاز وذكر الرقمتين ، ولا معنى لأن تبدو له المركبات الحديثة فى صورة هوادج البدو ويرى فى الأهرام أطلالا ، كأنما وضعنا للشعر قالبا من الحديد ضمناه قرائحنا كما يفعل أهل الصين بأقدام بناتهم ، فلا القالب يتسع ولا الرجل تنمو . « فاتهم أن الشعر يتغيير بتغير البلدان واختلاف طبائع الأمم ، ويرافقها فى أحوالها المتباينة ، فهو طورا في مقام واصف ابهة الملك وعزة البلاد ، وتارة فى مقام المفاخر بما خلفه الاباء والأجداد ، وآونة يمثل عظمة الطبيعـة وجمالها ، وحينـا يعكس فى عين المرء أو الشعب صوره أخلاقه وآرائه » .(٢)

ثم انتقل الأمر الى زاوية أخرى شديدة الأهمية عظيمة الخطر ، وهى الصنعة والترصـيع والاكثـار من التشبـيهات والاستعارات والكنايات ، حتى تصبح القصيدة كالثوب المبرقش ، تختفى خلف زخارفه قيمته ، وتتشتت فى نقشها الأحاسيس وكأنما يستعذب ادباء العرب هذا الكلام المرصع مثلما يستحسنون النقش

---

(١) المقتطف ١٩٠٠ ص ٢٦٣ (بلاغة العرب والافرنج للدكتور نقولا فياض).

(٢) المصدر السابق .

على اليد والصبغ الأحمر على البنيان والاثمد على الشفاه . والفرق بين اليد البيضاء الطبيعية وبين اليد المنقوش عليها ذلك النقش الوحشي والأنامل المخضبة بالحناء ، واضح لأصحاب الاذواق السليمة . وفي ذلك قال روحي الخالدي : « ففكتور هوجو وأهل طريقه لا يرون شيئا من الحسن في هذه التشابيه والاستعارات المدرسية ولا يستعذبون معنى من تلك المعاني التي ليست بطبيعية ، بل يجدونها من المعاني السخيفة خرج بها أصحابها عن الذوق ... ثم جاءوا يقولون : نالت على يدها ما لم تنله يدي » . (١)

انه عصر الاحتكاك بين الحضارتين ، والدعوات الى التجديد تظهر على أشدها دائما في مثل تلك الأوقات ، هكذا أدرك شوقي ، وكان له موقف . فيهاجم الاستغراق في القديم كما يهاجم الاستغراق في الجديد . يهاجم شعراء الصناعة ، ويهاجم الشعراء الذين اتخذوا المديح حرفة وقصروا الشعر على هذا الميدان وحده ، ويهاجم كذلك الشعراء الذين يعيشون في غير زمانهم ، وأولئك الذين ابتعدوا بالشعر عن وادي الحقيقة ، ولكنه بعد ذلك لا يستغرق في الاتجاهات الغربية ، فالعداء للشعر العربي سببه الجهل به ، لأن به روائع ومعجزات أمثال المتنبي ، وانما السبيل أمام هذين التيارين هو أن نأخذ من صالح الموروث وصالح العصري ونمخضهما معا ليخرج مركب أساسه الماضي وبناؤه الحاضر .

تلك هي الأسس التي كانت أمامه وهو يكتب مقدمة الديوان وهو يعلم أن القراء سوف يهاجمونه لأنه اتجه الى المديح كما اتجه الشعراء العرب بينما هو لا يجله ، ومن أجل ذلك يدافع عن نفسه ، لأنه قال الشعر ولم يكن أمامه الا النماذج الموروثة

---

(١) الهلال ١٩٠٤ ص ٥٦٨ .

يحتذيها ، ثم طلب العلم فى أوربا ، وهناك اصطدم بالاتجاهات الغربية فحاول التجديد وبعث بقصيدته «خدعوها بقولهم حسناء» فكانت النتيجة أنها لم تنشر لأن الاذواق لم تتطور بعد ، ولم تتقبل هذا الجديد ، أو بمعنى آخر لم تتقبل الجديد طفرة ، وها هـو ذا « مطران » صديقه يحاول بعض الاتجاهات الرومانسية فيما ينشر من قصائد فلا يكاد يحفل النـــاس بمحاولاته ، بل لعلهم أدنى الى الارتياب منهم الى التقبل . ولكنه ســـوف يحاول التجديد فى تؤده لا تؤذى الاذواق ، وســـوف يبدأ بتوسيع دائرة انتاجه ، ولكن أمـــامه قاعدة ينبغى الا ينطلق الا منها ، وهى التراث العـــربى ، كلما كان أمر الجديد يتعلق بالشعر . أما النثر فتلك قضية أخرى ، لأنه من العسير أن نرى فى الأدب العربى قصصا بالمعنى الغربى فليحاول اذن أن ينفذ الى هذا المجال الجديد عله أن يوفق .

ان هواه وغرامه بالتاريخ المصرى القديم ، يدفعه الى التقاط هيكل قصصه من ذلك التاريخ ، وليس هذا الغرام وليد أعجاب وحسب ، ولكنه وليد أحساس أصيل بالشخصية المصرية ، مصر للمصريين ، أنها دعوة جديرة بطول الالتفات من جانب الكتـــاب والشعراء والمؤرخين والباحثين .

وهكذا اســتغرقته الأعوام وهو يقرأ التــاريخ الفرعونى ، ويكتب قصصه « عذراء الهند » التى استمد حوادثها من أيام رمسيس الثانى ثم دل وتيمان أو آخر الفراعنة « ولا دياس » . لقد احتفل بهذه القصة الأخيرة أكثر مما احتفل بغيرها فاختار المغامرة البطولية بما فيها من عناصر التشويق ، ركيزة للقصة تلتف حولها الاحداث الفرعية كلها ، انها قصة « أحمس » المصرى « ولا دياس » الاميرة اليـونانية بنت الملك بوليقراط صـــاحب « ساموس » احدى ممالك اليونان . واطار القصـــة تاريخى ولكن

أحداث الحب فيها روائية أشبه بقصص ألف ليلة وليلة . لم يكن للاميرة كفء من أبناء جنسها للزواج بها ، حتى ابن عمها الامير « بيروس » الذى شغفته حبا ، فاستحال غرامه الى سخط ورغبة فى الانتقام . واشترط أبوها أن يكون صهره ملكا مثله ، سواء نال الملك بكده أم توارثه عن أجداده . فتوافد الأمراء من مصر وفارس والهند لخطبة الأميرة التى سترث عرش ساموس

ولو اقتصرت القصة على هذا الحد ما نجحت ، ولكن الأحداث التى جرت بعد ذلك هى التى نمت رسم الشخصيات وتطور العقدة . فقد أسرتها عصبة بايعاز من ابن عمها « بيروس » . وهنا يظهر أحمس بطلا فى البحر كما كان فى مصر بطلا فى البر ، وهو فتى له همم لا منتهى لكبارها ، تعينها حظوظ مقبلة . فينقذ الأميرة من أسرها ، بعد أهوال جسام . ثم تقع مرة أخرى فى يد « بهرام » الفارسى الذى كان أحد خطابها ، فيوهمها أنه منقذها ، وبينه وبين أحمس شبه وملامح ، فلا تصدق عيناها ولا يطمئن قلبها .

ويصر الأمير الفارسى أمام أبيها الملك وأمام بطانته أنه منقذها ومخلصها من الأسر ، وأنها أصبحت له زوجا بحق الشرط الذى اشترطه أبوها ، فتأبى الاميرة ، ولا تزال الحوادث تتوالى حتى يظهر « أحمس » من جديد ، فيكشف عن خدعة الامير الفارسى ويثبت للملك أنه هو الذى أنقذها ، وأنه احق الناس بها . ويعود « احمس » الى وطنه بعد أن سبقته اليها أنباء شجاعته الخارقة وبطولته النادرة ، ويعد العدة لانتزاع الملك من الملك « ابرياس » الذى كان « ساقط الشأن فى الداخل ، ميت الذكر فى الخارج » . وانتصر عليه بالحيلة ، ثم بعث فى طلب الأميرة اليونانية لتكون ملكة في عرشه الجديد .

ومن الطبيعى أن تكون الرواية نثرية ، ولكنه لم يستطع أن

يتغلب على روح الشعر فيه ، فظهرت أبيات هنا وهناك ، حين يتأزم موقف ، أو يحتـــاج الى الخيال كالمواقف العاطفيـــة ، ولم يستطع ، بل لم يحاول أن يتخلص من روح العصر فى الـكتابة ، فالسجع هو أسلوب الرواية من أولهـا الى آخرها ، فاذا كان بعض الكتاب المعاصرين يرون « السجع للمؤلف كالرجل من الخشب للماشى ، فينبغى لى ألا أتوكا عليه مثلا تضـــيق بى مذاهبه » فان مذاهبه لم تضق ، واذا جاز هذا القول فى المقالات الصحفية التى تتبع الحاجات اليومية أو فى المقـالات العلمية ، فهل يجوز فى المجالات الأدبية ؟ موضع نظر (١) .

وهو لا يستطيع ان يخلص من حياته فى مثل هذا المجال ، فهو أدرى بحياة القصور ودسـائس الاتباع ، ومن أجل ذلك صورها بجدها ولهوها فيما كتب من قصص • وأظهـــر فى نفس الوقت النزعات الوطنية مرددا فى ذلك اصداء الحركة الوطنية فى مصر ، وهذا هو الرباط بين الماضى والحاضر فى قصصه • ان ثقافته المسرحية التى استفادها من المسرح الفرنسى وغيرها ، شجعته على ادخال الشخصيات الثانوية المرحة حتى فى المآسى ، لان الحيـــاة لا يمكن أن تكون مأساة على طول الخط ، ثم ايضاح ملامحها والقاء الضوء عليها والاهتمام بها ، لأن صراع الأبطال دائما وراء هـــذه

---

(١) كتب شـــوقى غير هذا قصة « ورقة الآس » وتدور حوادثهـــا حول «النضيرة بنت الضيزن ملك الحضر حينما دخلت تلك البقعة فى ملك سابور الفـــارسى • ثم كتب بعد ذلك شيطان بنتاءور وهى محادثات ومحـــاورات بين الشاعر المصرى القديم بنتاءور والشاعر المصرى الحديث أحمد شـــوقى ؛ وتقارن بين حال مصر أيام مجد الفراعنة وحالها زمن الاحتلال ، وبها نظرات اجتمـــاعية صـــائبة ، ومن أجل ذلك كانت هذه المحاولة تمهيدا لظهور حديث عيسى بن هشام للمويلحى التى ظهرت بعدها بست سنوات .

الشخصيات التى تقوم بدورها فى التنافس ، وعلى قدر جهده حاول تطوير هذا الصراع الى العقدة فالحل .

والتقى بصديقه شكيب ارسلان على غير موعد ففاجأه بقوله :

ــ لقد قرأت قصتك ياشوقى عن عذراء الهند ، وهى قصة جيدة .

ــ ولكن ترى كيف يستقبل النقاد هذه المحاولات الجديدة ؟ أن أغلبيتهم من اللغويين الذين يقدسون القديم ، ويهاجمون كل جديد لأنه في نظرهم خارج على المألوف . وهل نسيت كيف استقبل المويلحى الطبقة الأولى من الشوقيات فى صحيفة « مصباح الشرق » ؟ ان المقدمة نفسها كانت فى نظره بدعة .

ــ بل أذكر ، ولعلك تذكر أنى لم أستطع صبرا ، فرددت عليه بمقالتى فى جريدة المؤيد متعجبا من مكابرته ، لأن كثيرين من فحول المؤلفين قد ترجموا أنفسهم مثل لسان الدين بن الخطيب فى الاحاطة والسيوطى فى حسن المحاضرة .

ــ نعم ، فقد قطعت حجته ، وبعد أن كانوا يرمونه بالحسد والتحامل ، جعلوا يرمونه بالجهل والتطاول ، فسبحان من جعلك جلاد لأعدائي .

ــ وقد تشفيت فيه انت بعد ذلك حين صفعه « محمد نشأت » ، ووالله ما ذكرت مقطوعاتك الساخرة فيه الا انفجرت ضاحكا ، دون أن يدرك من معى لذلك سببا ، انى احفظها جميعا، ولكن أشدها استثارة قولك :

ورثت الحـــلم عن فحـــل كريم
ففيك الحـــلم عنـــد الصـــفع عـــادة
وشــــــأنك بيننــــا فى أرض مصر
كشــــأن أبيك فى دار الســـعادة

***

لقـــد نقـــل الراوون عنى حـــكاية
وقالوا كلامـــا ما أشـــد وأشـــأما
ايصـــفع مثـــلى ناشىء ويراعتى
أسالت دموع القوم فى مصر عنـــدما
ألا اعتذروا لى عنـــده فأنا الذى
صـــفعت بصـــدغى كفـــه فتألمـــا

ـ يا أخي كأنما النقاد قد شـغلوا بى ، فلم أكد أفرغ من المويلحى حتى ظهر « داود عمون » .

ـ أذكر انه ضايقك بنقده حين نشرت قصيدتك « بات المعنى والدجى يتبلى » (١) ، فقد توقف عند جزئيات ، فأخذ عليك قولك « اللابس التاجين في المحفل » ولم يستطع الا أن يقول انه لا معنى للبيت في الحقيقة ـ ولا فى المجاز ولكنها القافية قضت فأطاع . ووقف عند شطر البيت « ما أنت يا أسود الاخلى » فاتهمه بالركاكة ولم يوضح ولم يأت بالدليل ، ثم عند شطر آخر تقول فيه :

« والكأس لا تغنى ولا تمتلى » فلم يفهم مغزاها وعلق قائلا : ما ضره لو امتلأت الكأس التى يسقى بها والجوى مديرها، ولما لم يجد شيئا مقنعا فيما قال وقف عند ملاحظة نحويه غير

---

(١) المقطم ١٨٩٦/١١/٧ .

مقنعة هى الأخرى فقال ان عطف « الفضل » على « عدله » من محال الضعيف ولكنه موجود .

غير أنك ياشوقى لم تسكت فقد هاجمته فى احدى قصائدك، وما زلت احفظ أبياتك :

ويمنعنى من حاسـدى ابن محمـد
خلاف وشعب بيننا الدهر منسـد

فلا حكمتى دعـوى ولا منطقى هـوى
ولا مبـتغى لؤم ولا قلمى وغـد

قواف لرب الشـعر لا النظم طائل
اذا هى سارت فى البلاد ولا النقد

وسكت شكيب فسكت شوقى ولكن كلا منهما كان يعلم ما يجول بذهن الآخر ، فقد رد « داود عمون » بأبيات عنوانهـا « داء ودواء » جاء فيها (٢) .

اجب قلمى داعى الخصام فلا بـد
فقد بدت البغضاء وانكشف الحقـد

واشرع قـوم للبـنـاء وشـيجهم
سراعا الى العـوراء تعدو بهم جرد

على غـير ذنب غـير انى مدحتهم
بنقـدى والجهـلان يؤلمهـا الرد

انابغـة العصرين لا العصر وحـده
أمن ذاك هاج الضغن وارتحل الرشد

---

(٢) الشوقيات المجهولة ص ٨٥ .

أكل الذى خطت يمينك منزل
وكل الذى يلقيه فوك لنا الشهد

جموع لاشتات العلوم مفوه
(فلا مبدئى لؤم ولا قلمى وغد)

على أنه لو كان خصمى منصفى
لكان جزائى عنده الشكر والحمد

فانى قد داويته من غروره
ولولاى كان الداء ينمو ويشتد

وقطع شكيب هذا الصمت الذى دام لحظات ، وهو يطمئن شوقى لأنه سوف يرد ان وجد شيئا من التحامل فى نقد ناقد .
ولم تكد تمضى أيام ، حتى نشر ابراهيم اليازجى نقدا لرواية « عذراء الهند » فى مجلة « البيان » يقول فيه : « والذى تبين لنا بعد تصفح جانب منها ان مؤلفها لم يقصد من صنعها الا تمثيل ما كان عليه اهل ذلك العصر من الخرافات والترهات ، ولذلك اكثر فيها من ذكر الجن والعفاريت والسحرة والكهان والمنجمين والرقى والطلاسم ... لم نجد شيئا مما يتوخاه واضعو الروايات فى هذه الأيام من المغازى الحكيمة أو الأغراض الأبية أو الحقائق التاريخية ، ولذا فاننا نتخطى موضوع الرواية الى ما ألبسته من العبارة العربية .. » (٢)

والقى بالجريدة الى جانبه ، وقد استبد به الضيق الشديد .
ويل للكتاب من النقاد ، يفنى الكتاب أيامهم ولياليهم فى القراءة والبحث وعناء التأليف شهورا طويلة او سنين ثم يأتى ناقد يقرأ

---

(١) الشوقيات المجهولة ص ٨٥ .
(٢) «البيان» عدد ١٦/١٢/١٨٩٧ .

العمل الفنى فى ساعات وهو مسترخ ، ويخط انطباعاته بعد ذلك، ولا بد أن يجسم عيوبا حتى يكون ناقدا . اهذا هو النقد الأدبى فى عرفهم ؟

لماذا لا يعنى الناقد نفســه بالبحث والتقصى وراء المؤلف ليتبين تزييف التاريخ أو حسن الادراك والفهم الصائب ؟ لماذا لا يقدر جهد الأديب الى جانب اظهاره لبراعته فى اقتناص الأخطـاء اللغوية • لقد هدأت الرغبة فى التجديد وانطفـأت الحماســة • سوف يقولون ان حياته فى القصر لوته عن رسالته ، ولكن الأديب لا يعينه في الواقع قديم ولا جـديد فهو ابن الماضى والحاضر والمستقبل ، وليس اختلاف الشعراء فى الواقع الا صورة لاختلاف نفوســهم فى الحس والاهواء والنزعــات ، ان الأدب المصرى والبغدادى والأندلسى ليست الا صفات لزمان الشاعر العربى وبيئته .

تسعة يام مضت ، ثم وجد شكيبا يرد على اليازجى مفندا مزاعمه ، ناشرا تعليقه فى كبرى الصحف « الاهرام » . (١) واحس بالراحة وهو يقرأ التعليق : « وأما اعتراض البيان على (أحب أخوته الكثيرين الى الأمم) بأنه من التراكيب التى منعها أهل العربية حسبما نص على ذلك الحريرى فى درة الغواص وأن رد الخفاجى عليه لا يسلم من الرد ، فأقول فيه : ان الرد على الخفاجى لا يسلم من الرد أيضا . كقولهم : ان أفعل التفضيل قد يكون للدلالة على زيادة مطلقة لا مقيدة نحو يوسف أحسن أخوته . وناهيك ان نحويا كابن خالويه أجاز هذه العبـارة • وأخذ البيان عليه قوله : (وامتنهم اعلاقا فى القلوب) وذلك بأن الاعلاق جمع علق بالكسر وهو الشيء النفيس وان حقها ان تكون علائق . وقد

---

(١) الاهرام ٢٥/١٢/١٨٦٧ .

استغربنا وأيم الله صدور ذلك عن لغوى ثقة مثل الشيخ . والاعلاق تأتى جمعا لغير العلق بالكسر فتأتى جمعا للعلق بالتحريك وهى بمعنى الحبل المعلق بالبكرة ... واظن أن فى ذلك من معنى العلاقة والتعليق ما يسوغ لشوقى أن يقرنها بالمتانه فى معنى ارتباط القلوب . وأما كون « الرأى العام » من المواضعات الافرنجية ، درجت عليها الجرائد فى هذه الأيام وليس كل ما تأتى به يجوز اتباعه ، ومعناها (اهواء النفوس) ، فانها لا تؤدى حقيقة المقصود من قولهم (الرأى العام) . ومن العجب ان يعترض على مثلها البيان وهو الذى يكتب فى « اللغة والعصر » . تصل الى قول شوقى فى التاريخ المصرى « إن الحقيقة معه لا يستقر بها خبر ، فهى عين تارة وأثر تموت بحجر وتحيى بحجر) ومعناها ظاهر اذ لا يخفى أن التاريخ المصرى القديم مبنى على الآثار الحجرية ، ولا أرى هذه الجملة فى شىء من الطلاسم والرقى كما قال البيان » .

وذهب الأثر السيىء الذى خلفه نقد « البيان » في نفسه ، ولكنه فتح عينه معا على أمر مهم ، فالنهضة الأدبية التى يبغيها جزء من كل ، هى جزء من النهضة الوطنية ضد الاستعمار ، ولذا ينبغى أن تستوحى النهضة الأدبية التراث العربي وتتخذ منه قاعدة انطلاق فى تطور أشد اتزانا ، وليس من الممكن أن يتخطى هذا الدور فى النهضات والا اقتلعنا جذورنا بأيدينا . وادراك هذه المسئولية شىء خطير ، وعلى أكتافه سوف ترسخ قاعدة الانطلاق . ان جمهوره الكبير سيهتم بكل شاعر يعارضه ويعود الى قراءته ، ومن هنا ينبغي ان ينطلق فيعارض الفحول أبا تمام والمتبنى

والبحترى والمعرى والحصرى والبوصيرى وغيرهم . ولكن المهم ألا تفنى شخصيته فى هذه المعارضات ، وانما ينبغى أن يحـــاول الوصول الى ذلك المستوى الرفيع مقابلا الصورة الموروثة بصـــورة عصرية والمعنى المكرر بمعنى مبتـــدع والصـــياغة الجيدة بصياغـة لا تقل جودة . وعندها قد لا يستطيع ناقد ان ينفذ بسهامه وهو فى نفس الوقت لن يتخلى عن السير فى موكب التطور فتلك طبيعة العصر لا خـــلاص له ولا لغيره منهـــا ، وفرق بين التطور الذى تمليه الحياة وبين التطور عن قسر ، أما الحيرة بين القديم تارة والجديد تارة أخرى فلن تضىء له الطريق ، ولن تزيده الا احساسا بالقلق وبالتردد ، فوداعا للحيرة اذن ، ووداعا للتردد .

مع الكروان

دخل الحفل ، فتهامس الحاضرون وقد عرفوه : حافظ ابراهيم !! طويل ضخم ، عظيم الأنف ، خفيف الشارب ، كأنه خيط ملتصق بشفته العليا ، فهو بشارب الصينيين ألصق . يمشي كأنه مقيد فى انحناءة يسيرة ، تخاله اسيرا فى روما القديمة ، اثقلت رجليه القيود وبهظه حارس بثقل من الحديد فوق كاهله . اتسعت عليه ثيابه ، فلاح فيها كتلك الشخوص التى تنصب على الكروم أو على البيادر لافزاع الطير ، بعيدة من الاناقة بعد وجهه عن الوسامة ، يتوكأ على عصا من الخيزران غليظة ، انثنى راسها انثناءة واسعة ، وقد تطوقت بطوق من ألعاج المنقوش ، وتقدم من المنصة ثم انشد بصوت قوى رخيم :

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا
واقضوا هنالك ما تقضى به الذمم

وسكت الجمع كأن على رءوسهم الطير ، أو كأنهم يستمعون الى لحن منسجم رائع ، وارتفع الصوت قليلا قليلا حتى تحول الى ايقاع شديد النبرات ، وضج الحاضرون من الانفعال ، وماجت حناجرهم ثم غضوا عيونهم الدامعة مع خفوت الصوت مرة آخرى، وقد سلبت ألبابهم وانتزعت قلوبهم من عنف الوجيب عندما وصل الى قوله :

انى أرى ، وفـؤادى ليس يكذبنى
روحا يحف به الاكبـار والعظـم

ازى جـــلالا ارى نـورا ارى ملكا
اری محیــا یحییـنــا ویبتسم

الله أكبر هـــذا الوجــه اعــرفه
هذا فتى النيــل هذا المفرد العـلم

غضوا العيـــون وحيـــوه تحيتـه
من القــلوب اذا لم يســـعد الكلم

واستمرت القصيدة متماوجة النغمات ودميت الاكف من التصـــفيق وانتشت الارواح ، وارتعشـــت الشفاه كأنما تفيض بحماسة الافئدة ، ثم اذكى جنة الناس فى ختام القصيدة وترك مكانه وهو يهتف :

يا أيها النشء ســيروا فى طريقتـه
وثابروا رضى الاعــــداء أو نقموا

فكلكم « مصطفى » لو ســـار سيرته
وكلكم ((كامل)) لو جازه الســـام

وخرج الجمع ، وخرج شوقى مع الخارجين وعلى وجهـه علامات الانفعال . أتراه انفعل مع القصيدة كما انفعل الناس ، أم تراه انفعل لهذا النجاح الكبير الذى لقيته القصيدة .. انه لا يقوى على الالقاء ولم يلق قصيدة قط فى حياته ، وها هو ذا منافســـه يجيد الالقاء ويتفوق فيـه دون منازع له ، فينتزع الاعجاب انتزاعا مهما كان مستوى القصـــيدة الفنى ، ومع ذلك فالقصـــيدة ثرية بالأحاسيس ، يزيد من ثرائهـــا هـــذا التوزيع الموسيقى الرائع . وحين ركب شوقى عربته وغاب عن الانظار انفجر أمام العبد بالضحك ، فقد كان يلحظ انفعالاته وهو يسير الى جوار المنفلوطى ، وابتدره قائلا ،

ـ لقد تفوق حافظ فى الوطنيات على شوقى ، فشوقى لم يقل اليوم في ذكرى مصطفى كامل ، وحتى قصيدته التى قالها فى العام الماضى ، حين مات مصطفى ، لم تكن أكثر من آهة حزن يطلقها صديق لوفاة صديقه ، كأنه لم يكن زعيما وطنيا ، انه القفص الذهبى ، فبعد ان اختلف الخديو مع مصطفى كامل لم يستطع شوقى أن يقول الا ما قال ، وهذا ما جعله يضيق به ويحقد عليه .

ـ يا أخى .. ما أطول لسانك ، ان شوقى لا يحقد على أحد ، فهو الذى سعى لدى جريدة «الأهرام» يوم عاد «حافظ» من السودان مطرودا من الجيش ، ولكن صاحب «الاهرام» هو الذى رفض تعيين «حافظ» خشية «كرومر» واليوم .. بعد عشر سنوات يسعى له مرة ثانية فى الحصول على رتبة الباكوية.

ـ ان التنافس وضح بينهما فى اللقب ، فشوقى كان شاعر الأمير ، فأسرع « على يوسف » وأطلق على « حافظ » شاعر النيل وشتان بينهما ، فشاعر الامير انما ينسب الى واحد ، وشاعر النيل ينسب الى المجموع الذى يستقى من هذا النهر الخالد ومنهم الامير نفسه ، ولم يعوز شوقى السعى الى صحف أخرى ، فلقبوه أمير الشعراء ، فأصبح شاعر النيل رعية لامير الشعراء ، ولكن المسألة ليست مسألة ألقاب، فانت ترى الجماهير وكيف تتعلق بوطنيات حافظ .

ـ أى وطنية يا أمام ؟ ان حافظا مذعور القلب فى غير ذعر ، وقلما تغفل لطائر الذعر عين الا فى الأحيان النادرة . وهل نسيت قصيدته فى حادثة دنشواى ؟ كلها استخذاء ، «جاء جهالنا بأمر» وجهـا لنا هم المواطنـون الابرياء من تهم الانجليز وتهم حافظ نفسه ، وماذا يعنى حافظ بقوله « من ضعيف ألقى اليك القيادا»؟

فهل ارتضينا أن نسلم قيادنا الى المستعمر ؟ ان حافظا علم من أعلام الشعر الذين ينتظر منهم التوجيه السليم والقدوة الحسنة، وهو ليس صاحب ذرية فنعتذر له بالخشية عليهم . ثم تلومون شوقى لانه لم يعرض لهذه الحادثة الا بعد مرور سنة ، وهو فى نظرى قد سلك مسلكا اكرم من مسلك حافظ ، لانه لاذ بالصمت حتى تحين فرصة القول . لقد كان الاخلق بحافظ ان يشجع مواطنيه ويستحثهم على استنفاذ وطنهم من الاحتلال ، مذكرا أياهم بمجدهم الغابر كما يصنع شوقى . شوقى يصور لنا من حياننا ناحية الكبرياء الجريحة ، أما حافظ فيصور ناحية الثورة الهزيمة. وهل نسيت قصيدته فى « وداع كرومر » ؟ لقد عود فيها اياديه البيضاء بينما ندد شوقى بسياسته وشهر بأعمال الانجليز . ومهما قيل من تبرير لجراة شوقى على كرومر ، فقد كان حافظ يستطيع ان يصمت كما صمت شوقى فى دنشواى . وحتى قصائد المديح عند شوقى ، تمور بنغمات الوطنية المتوثبة ، حين يردد عن ثقة أمله فى استعادة الاستقلال ويذكر بالماضى المجيد . وربما كان بؤس حافظ هو الذى صبغ شعره جميعا بألوان التشاؤم . ولا اشك فى وطنيته وحبه لبلده ، ولكنه شاعر لا نهج له ووطنياته تقال فى فورة الأمر فلا تخطىء هدفها في وقتها أما بعد ذلك فلا (١) .

— مهما قلتم يا أصحاب شوقى ، ومهما تعصبتم له ، فان روائح العثمانية تفوح منه قوية نفاذة ، هو شـــاعر الجامعة العثمانية ، أما حافظ فهو شاعر القومية المصرية ، وكثيرا ما يردد ان حياة الأمم كحياة الافراد تبدأ من الداخل وتقوى وتشتد من الداخل ايضا ، فاذا توافرت فيها أسباب القوة استطاعت ان

---

(١) راجع حافظ ابراهيم لعبد الحميد الجندى (فصل الوطنية) .

تنهض وتحافظ على استقلالها وتدافع عن حريتها ، ومن أجل ذلك فهو يصب سهامه على كل مصرى مارق أكثر مما يصب سهامه على كل مستعمر ، لأن من الطبيعى ان يكون المستعمر بهذه الجبلة. وحافظ لا يعترف بتفوق شوقى وقد اظهر كل عيوبه الفنية فى كتابه « ليالى سطيح » حيث قال : « وهو فارغ للشعر غير مشغول بغيره ، فالعجب ألا يجيد ، واعجب منه ان يقال انه مكثار وقصائده فى العام معدودة وقوافيها مقدرة محدودة .. ولو منح دقة المبانى ما منح من رقة المعانى فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذى اخلق ديباجته لكان شاعركم غير مدافع ، ولكنه لم يغادر معنى من معانى العرب والفرنجة الاسلخه ومسخه فما عسى ان يكون فخره علينا ؟ (١) وغمزه فى بعض شعره ذاكرا أنه أشعر منه ، مثل قوله :

كم رام شاوى فلم يدرك سوى صدف
سامحت فيه لنظام ووزان

عابوا سكوتى ولولاه لما نطقوا
ولا جرت خيلهم شوطا بميدان

اليوم أنشدهم شعرا يعيد لهم
عهد النواسى أو ايام حسان

من الاوانس جلاها يراع فتى
صافى القريحة صاح غير نشوان (٢)

ـ يا أمام أنت تعرف كما يعرف كل أديب أن حافظا حاول

---

(١) ليالى سطيح ص ٤٧ .

(٢) ديون حافظ جـ ١ ص ٢٤

مرات أن يكون شيئا عند الامير أو عند الخليفة ، وقد كانت أبواب الخلفاء فى العصور الماضية تتسع لكل الشعراء ، ولكنها ضاقت فلم تعد تتسع ، فحسد شوقى ، وظن انه يكيد له ، والواقع ان ثقافة شوقى الواسعة وتفرغه لفنه كما يقول حافظ ، قد وصلا به الى سمو لا يدانيه حافظ ولا غيره من شعراء العصر ، واذا حاولنا أن توازن بين قصيدتين لهما من الناحية الفنية الخالصة ، لم نجد مجالا للموازنة . وهل نسيت ، قصيدة شوقى فى « عيد الفداء » التى قالها منذ أشهر وكيف أثارت ابياته ضجة أدبية هائلة : (١)

قلبى ادكرت اليوم غير موفق
أيام انت مع الشباب موفق

فخفقت من ذكرى الشباب وعهده
لهفى عليك لكل ذكرى تخفق

كم ذبت من حرق الجوى واليوم من
أسف عليه وحسرة تتحرق

ولم يستطع حافظ أن يقول شيئا أمام غزل شوقى ومديحه، فاعترف له بالتفوق فيهما واراح نفسه من المنافسة فى قصيدته التى قالها فى نفس المناسبة ومن نفس البحر والروى ، فلم تثر فى القراء الا الاشفاق .

ــ لا تظن انى أهون من شأن شوقى أو أبغضه ، فالواقع

(٢) حاشية الشوقيات جـ ١ ص ١٩٢/١٩٣ .

انى احبه وأحب شعره كما أحب مداعبـاته . فقـد كنت أجلس بالأمس مع حافظ ومر بنا شوقى ، فانفجر ضاحكا وهو يقول : « انتم قاعدين زى الملاحة ـ أبيض واسود » . ومهما يكن من أمر فهما اكبر شاعرين فى الوطن العربى ، ملآ الدنيا وشغلا الناس . وأنا أعرف مدى اعجابك بشعر شوقى ، فاعلم اذن كى تستريح ، أنى اعتبرهما قريبا من قريب .

ساقى الطلا

كان يسير متجها صوب حانة « سان جيمس » ، يده فى عروة الصدرية ، تلك عادته ، وبنيقته المنشاة يتعلق بها « ببيونه » ، كبير الرأس صلت الجبين ، تظهر صلعته من تحت طربوشه الذى انزاح قليـلا الى الوراء ، لا تحس بأناقتـه رغم أنه يتحلى بأفخر الثياب • واذا دققت النظر لمحت ارتعاشة يده ، خاصة حين يمسح بها على جبينه من حين الى حين ، تتجول عيناه فى كل اتجاه كأنه يبحث عن شيء ، بينما استقر شاربه الكث الذى ظهرت به شعرات بيضاء فوق شفتين منطبقتين ، لا تعبران عن شيء • لقـد تخطى الأربعين ، وسرى الشيب متئدا فى فوديه ، وها هو ذا يستقر فوق مقعده المرتفع أمام الساقي ، ثم يتمتم كأنما يفهم عنه الساقى ما يقول من شعر :

لا تسقنى الا دهاقـا اننى اسقى بكأس فى الهموم دهاق

نعم ، فشاربها يفر من هموم الحياة ، ويغرق أشـجانه فى الكئوس ، ويحلق بعيدا بعيدا الى حيث عالم الرؤى ، يطلق العقل الباطن من عقاله ، لسان الحقيقة بلا زيف ولا رياء • أليس من الحق الصراح ان الموت غاية كل حى ، ومآل كل حسن ؟ لقد ملك هـذا الشعور مذاهب التفكير عليه ، فتهافت على اغتنام فرص الحياة • انه محب للحياة ، مقبل عليها ، ولكن تفاؤله تحجبه بعض صـور الوجود الداكنة ، فيشفق من النهاية المأساوية الكبرى • وهـو فى هذا شبيه بالحسن بن هانيء عاشق الطلا ، فى كثير من المواقف الحسية والنفسية ، قلق دائب بين الحياة وبين الموت ، وتردد أبدا

بين متاع الدنيا وبين رحاب الدين · الم يسرف أبو نواس على نفسه حين فر من الحج ثم قدم الأعذار ؟ وحين كان ينتهى شهر الصوم فيستقبل هذا العطشان الى الخمر أيام العيد بقوله : « ولى الصيام وجاء الفطر بالفرح ، وابدت الكأس ألوانا من الملح » ألم يبرر شربه للخمر بنفس الأعذار ؟ ثم ألم يلذعه الندم فيصرخ مستجيرا برحاب الله ، هذه الصرخة المدوية «يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر»، انه حين يحـــاول فهم ابن هانىء ، يشرح نفســـيته هو ، فى القلق النافر أبدا ، والتردد الدائب بين اللذة وبين الندم ، حتى فى القصيدة الواحدة ، أعنى فى اللحظة الوحدة ، ألم يقل مثـل قوله ابن هانىء :

رمضان ولى هاتهـا يا سـاقى مشتاقة تسـعى الى مشتـاق
الله غفار الذنوب جميعها ان كان ثم من الذنوب بواق
ما كان أكثـره على الافهــا واقله فى طاعـة الخــلاق

أكبر الظن ان عصور النقلات الاجتماعية مسئولة الى حد كبير عن كل هذا ، حين تمتزج الحضارة العربية الاسلامية بحضارات أخرى طابعها الاقبال على الملذات ، فتختل الموازين والتقاليد وتتزعزع القيم ، أو حين يتجاور القديم والجديد ، والموروث والعصرى ، فى الفكر وفى الحياة الاجتماعية . أهو مجرد تبرير ؟ ليكن ، غير ان النفس تستريح اليه .

ودخل اسعاف النشاشيبى ، فاستقبله فى غير ترحيب كبير ، كأنه يفضل الوحدة التي قطعها عليه هذا النديم ، فلم يدعه يسترسل فى أفكاره ، وأحس النشاشيبى بذلك ، فبادره قائلا :

ـ اعرف انك ضيق الصدر هذه الأيام .

ـ ولماذا لا يضيق صدرى وقد مات عمر لطفى وطوى السرور

كله ، ولم يبق من الصحاب الا من انعدم الوفاء بينهم حتى أصبحت أوثر الوحدة •

– أليس الوفاء من رابع المستحيلات كما يقول المثل ؟

– ولكن كرم الأخلاق ليس من رابع المستحيلات ، ان الصداقة مشتقة من صدق المودة فأين المودة بين الدسائس والغيبة والاثرة والنفاق ، وكل هذه اللا اخلاقيـــات ؟ قارن بين موقفين ، أتذكر الصحب الذى اعتدت الاجتماع بهم فى محل « صولت » ؟ لم ترتح أنت ولم أرتح أنا لما يدور ، ولكنك غير مقيم فى القاهرة فلا يهمك الأمر ، أما أنا فقد همست لأحد الصحاب وقد رأيت فيه الخير فقلت : عندى موعد ويسرنى لو كنت معى قال : كما تحب واستأذنا ثـم خرجنا ، فلما سألته عن رأيه فيما يدور من أحاديث أجاب : ليس فيها الا الاذى • قلت : ما رأيك اذا تغيبت انا غدا وتسمع انت كل ما يقال عنى وتقابلنى بعد ذلك على أن تصدقنى فوافق ، وتم ذلك وجاءنى فى اليوم التالى ذاكرا ان السهرة انتهت بسيرتى وعلى غير ما أحب • ثم حضرت وغاب فكان الحديث كله حول الغائب • واتفقنا بعد ذلك على ان أبقى ويخرج صاحبى بواحد من الجمع كل يوم لسبب يختلقه ، وهكذا حتى أتينا على أكثرهم فى بضعة أيام ، آخرهم بالأمس ، فكان نصيب كل غائب القدح ، وما وجدنا لسوء الحظ وفيا أو مدافعا عن صاحبه فى غيبته . قارن بين ما حدث هنا ، وماحدث بين النوبيين الذين يعملون عندى ، حين اختلفوا لبضعة أيام لسبب لا أذكره ثم جاءنى بعضهم ذات يوم يطلبون راتب شهر مقدما فلما سألت عن السبب ، عرفت ان زميلهم الذى اختلفوا معه قد أصـــيب ولده فى حادث وهو محتاج الى عونهم ، قالوا ذلك ، وهم يجهشون بالبكاء . أترانى أقوى بعد ذلك على الوثوق بالصحاب والجلوس اليهم ؟

ـ لقد زادك هذا الحادث احساسا بالملل وبالضيق وانت ملول بطبعك تمل قميصك نافر ?أبدا ولو كان فى الاستقرار والصبر نفعك • ومن أجل ذلك تفر من القاهرة الى الهرم ومن الهرم الى مصر الجديدة ومرة تتجه الى الحسين خاصة أيام الموالد ومرة أخرى تترك من تجلس اليهم من أجل تجوالك فى الأحياء الشعبية ، وأحيانا تحير من يبحث عنك فلا يعثر عليك أبدا •

أتذكر قصة الشارى الذى عقدت معه صفقة رابحة ، ولكنه تأخر عن موعده بضع دقائق ، فاعتراك الضيق ولعنت الصفقة وهممت بترك المكان معلنا فسخها لولا ان حضر الشارى فى نفس اللحظة معتذرا فلم تكلمه حتى وصلتما الى كاتب البيوع ؟ ثم قصة الأساتذة الفرنسيين الذين حضروا لامتحان طلبة مدرسة الحقوق فدعوتهم الى جولة فى القاهرة ثم أحسست بالاختناق وانت تمر بهم فى قاعات دار الكتب وكدت تتركهم لولا خشيتك على مستقبل ولدك الطالب بمدرسة الحقوق •

ماذا أقول لك هل نسيت قصة الشاعر العجوز الذى لقيك في « جروبى » ؟ فابتسم شوقى حتى ظهرت سن له من البلاتين ـ ومن الحق انه كان ركيك الشعر قبيح الوجه ، هجم عليك بسبعين بيتا ، فضقت حتى كدت تنفجر وانهلت عليه تقريعا فشجع تقريعك أحد الجالسين وانطلق كالثور الهائج يجر الرجل بعيدا •

ـ ولكنى أنبته على هذا التصرف وبقيت واجما ، ألوم نفسى على مجالسة هذه الجماعة من العاطلين لأنهم لا يحترمون الا أمثالهم من الفارغين فأنا لا أحب التعالى على انسان مهما صغر شأنه وكثيرا ما قابلت صغار الطلبة مرحبا ولكن سبعين بيتا من الحجر كانت كفيلة بأن تصيبنى بالدوار •

ـ الحق انك تأثرت لأنك تقدس الرحمة فى كل مظاهرهـا وتكره عنف هؤلاء الفارغين ·

ـ بل أكره شح النفس وشح اليد ·

ـ نعم وهذا مما نحمده لك جميعا فانت لا تبخل بمالك قط بل لعلك تمل حمل المال نفسه فتتركه هنا أو هناك حتى تفرغ من شرابك · ولكنك لا تستطيع أن تسحب انطباعاتك هذه على الجميع ولا يمكن أن تمل خليل مطران مثلا ·

ـ الواقع انه رجل « صالون » مهذب رقيق رقة شعره ولكن يغيظنى منه أحيانا تصابيه فهو دائما مع فتاة جميلة ·

ـ ولكنه رحب الصدر يقابل النكات باسما حتى عندما احرجته حين دخل ، « لاباس » فى صحبة غانية فقلت له « يا خليل انت لسه ما همدتش ؟ » وحتى عندما يسخر حافظ من قبح أنفه ·

ـ الحق ان حافظا لطيف المعشر ، يعجبنى فيه سرعة بديهيتـه فى النكتة فيحيل الجو حوله الى مسرح خالص لذا أحرص على صحبته دائما فى رحلاتى الاسبوعية الى الهرم ·

ـ ويطيب لك ان تغيظه وتستثيره لترى سرعة بديهتـــه فى النكتة مثلما حدث عندما قلت :

وأودعت انسانا وكلبا وديعـة ⠀⠀⠀ فضيعها الانسان والكلب حافظ

فرد على توريتك الساخرة بتورية من نوعها وهو يقول :

يقولون ان الشـــوق نار ولوعـــة
فما بال شوقى أصبح اليوم باردا (١)

---

(١) شوقى وحافظ لطاهر الطناحى ص ١٤٦ ·

ـ واذا كنت تستطيب صـــحبة حافظ فقد أولعت بالدكتـور محجوب ثابت ، ولا يمكن ان يغير ذلك الحادث من حبك له على ماأظن٠

ـ انه وحده الذى لا تنتهى طرائفه مع الناس ٠

ـ ولذا فقد أغرمت به فى شعرك وفى ليالى الكرمة فكل يوم له طريفة جديدة ٠

ـ حاول منذ أيام أن يظهر شجاعته فكلفت أحد الجالسين أن ينتظر ضابطا من أصحابنا حتى اذا حضر مثل دور واحد من القلم السياسى حضر للقبض على الدكتور محجوب ٠ وكان محجوب قـد أخذ يصول ويجول ويسب الانجليز ، ويكشف عن ساعديه عـــلامة الجهاد وبينما هو كذلك دخل الضابط وقد اصطنع وجهه الصرامة وتقدم رافعا يده بالتحية العسكرية واعتذر لأنه حضر فى مهمة ثقيلة وهى القبض على الدكتور فلم يكد يسمع كلمة القبض حتى زاغ بصره ورفت لحيته واصفر لونه وتراخت أوصاله ونظر الى الجميع ثم تظاهر بالشجاعة ووجد القول لا يضيره بعد أن نزل البلاد ٠ فصاح : «انظروا الى القوة الغاشمة » ٠ فلم يستطع الحاضرون حبس قهقهاتهم من هذه الكوميديا وانفجروا ضاحكين ففطن الى السر وكان فرحه قهقهته أقوى من الجميع وأسرع الى الضابط بحركة من اصبعه ولقبه « بالعيهور » مثنى وثلاث ورباع ٠ وبرغم هذا فقد ضقت به يوما حين استأذنت فى الانصراف فتشبث بى ولو تشبث بى حافظ أو مطران لضقت بهمـا أيضا ٠

ونبهه الساقى الى أنه قد أكمل الكأس الثلاثين ، فتوقف لحظات

ان كل ندمائه قد ماتوا صرعى الخمر ، حسن رضا ، وعمر لطفى ، وقبلهما المطرب المشهور عبد الحى حلمى • وهذه الارتعاشة فى يده ٠٠ اليست من اثر الخمر ؟ انه يعرف الكثير من سيئاتها ، وهل هناك أسوأ مما يرى ؟ ولكنه أسير العادة ٠٠ ، والنفس بما اعتادت منقادة غير انه يأخذ منها لطربه ، ولا يعطيها من عقله وأدبه •

زحلة

كان يقطع الطريق الضيقة الممتدة فى بطن الجبل متجهـا صوب المقاهى المتناثرة فى نهايته ، ونظر الى الجبل وقد كسته الزهور والاعشاب وأشجار التفاح كأنها ثياب مزركشة بعضها فوق بعض يظهر ذيل كل منها ، وعجب لثياب الفتاة الجبلية التى تحاكى اردية الجبل نفسه ، ووجهها الذى يحاكي نضرة البيئة وزهو الوادى المفراح. وترامت الوديان على مدى النظر خضراء كاسية أو عارية الا من الوان الصخور ، وكان المساء قد أقبل فعربدت الانوار على سفوح الجبل ، وبعث المنظر فى خياله نشاطا غريبا ، فأكمل أبياتا من قصيدته التى يعدها لتلقى فى اليوم التالى بدمشق :

وربوة الواد فى جلباب راقصة — الساق كاسية والنحر عريـان
واقبلت بالنبات الأرض مختلفا — افوافه فهو أصـبـاغ والوان
والطير تصدح من خلف العيون بها — وللعيون كما للطير الحـان
وقد صفى «بردى» للريح فابتردت — لدى ستور حواشيهن افنـان

وهبت نسمة محملة برذاذ النبع المتدفق على يساره ، وتضاحك الناس وهم يجرون مبتعدين فابتسم ثم أكمل :

ثم انثنت لم يزل عنها البلال ولا — جفت من الماء أذيال وأردان
خلفت لبنان جنات النعيم وما — نبئت ان طريق الخلد لبنـان

أى والله انها لفردوس الأرض ، ولكن « زحلة » وحدها هى التى استأثرت بأكثر الحب . كأن الزمن قد غفل عنها فتركها صورة من الجنة الموعودة . ومن العجيب ان سلسلة الجبال تمتد من لبنان

الى سوريا ، ولكنها لا تلبث أن تتوقف لتفسح مكانا للوادى الخصيب فتهدأ الطبيعة ويجرى نهر « بردى » وادعا حالما ٠

حقا ان الشعر ابن الطبيعة والتاريخ (١) ، فالطبيعة هى أم الفن ، فى أحضانها تتفتق المواهب وينمو الخيال الخصيب ٠ ورؤية ما أبدعته الطبيعة هنا ، وما أبدعه الانسان هناك ، يشحذ البصيرة ، ويمنح ذخيرة من الخبرات ، ويعصف بالقلق الذى يلاحق الفنان فى كل حين ٠ وأراحته الفكرة ، فكرة القلق يقذف به من حالق ، فيهوى الى الوادى وتسحقه الصخور ٠ أما التاريخ فهو ابو الفن ، لأن الماضى مسرى الخيال ، وهو أشبه بهذا النبع الذى لا يجف ولا ينضب ، تنطلق منه الأساطير والحوادث الجليلة والشخصيات صانعة البطولة ٠ وهكذا فعل « فكتور هوجو » قبل أن يكتب « أساطير القرون » ، وهـــكذا هو أيضا ، فقد أغرم بمخلفات الطبيعة والتاريخ فى نتوء بارز من جبل ، وفى مئذنة قديمة أو حتى ضريح مشهور ، ولا يغيظه شيء أكثر من أن يرى الناس تسكن الى جوار أثر قديم ثم لا تعرف عنه شيئا ٠٠ انه اهدار لجهود الآباء ورموزهم ٠ وتذكر يوم كان مدعوا الى الغداء عند زوج شقيقته ورأى مسجدا أثريا فكفت يده عن الطعام وتعلق بصره بالمسجد وسأل مضيفه عنه ، فلم يجد عنده جوابا ، وانهال عليه تقريعا ولوما ٠ لقد كان جديرا بالتقريع ، ناظر مدرسة تقع مدرسته ويقع بيته الى جوار أثر قديم يراه كل يوم ولا يسأل عنه ؛ ما هذه الجهالة ؟

لولا هذا الالتفات ما استطاع أن ينظم قصائده التاريخية أو بمعنى آخر ، التى امتزج فيها التاريخ بالطبيعة عبر الزمن ٠ فقد قرأ الكثير قبل أن يكتب فى النيل قصيدته « من أى عهد فى القرى

---

(١) راجع مقدمة الشوقيات القديمة : ولا شك ان هـذه الفـكرة قد تعدلت بعد ذلك حين وجه فنه للمجتمع ٠

تتدفق » . ثم زار أسوان من أجل أن يرى القصور فى اليم غرقى، ويشاهد النقوش الباقية على الأيام ، قبل أن يكتب قصيدته فى قصر « أنس الوجود » .

ان الشاعر يطوى السنين القهقرى ، وينفض عن كل أثر غبار الدهر ، فيعيش بين الاحراش وفوق الجبال وعلى رمال الصحراء فى ذلك العالم المسحور لحظات يتوقف فيها الزمن . وترامى الى سمعه صوت المغنية ينساب عذبا رقيقا بأبياته فى « زحلة » :

يا جارة الوادى طربت وعادنى ... ما يشبه الاحلام من ذكراك
قسما لو انتمت الجداول والربى ... لتهلل الفردوس ثم نماك
مرآك مرآه وعينك عينه ... لم يا زحيلة لا يكون أباك
ضمت ذراعيها الطبيعة رقة ... صنين والحرمون فاحتضناك
سكنت نواحى الليل الا أنة ... فى الايك أو وتراشجى حراك

وعندما جلس الى رفيقه الذى كان بانتظاره ، حياه الجالسون وقد عرفوه ، وسرت همهمة بينهم تفصح عنه لمن لم يعرفه ، ثم لم يلبثوا ان استغرقوا فى السماع ، ولم تعد هناك الا آهات تسمع من حين الى حين تقطع سكون الليل . ومال عليه رفيقه هامسا :

ـ ترى من جارة الوادى ؟

ـ انها أمامك .

ـ ليس أمامى الا هذا الفحل ، زوج المغنية .

ـ أقصد المغنية نفسها ، فما جئت هنا الا واحببت ان أستمع اليها ، فصوتها حنون رغم ان أفقها ضيق .

ـ وهل لك جارة فى كل واد ؟

ـ الحق أني انفعل بالحب لكل بلد اسلامى حبته الطبيعة جمالا، وحياه التاريخ آثارا ، مثل الآستانة التى اغرمت بها حتى اشتريت هناك منزلا •

ـ أظن ان الخديو هو الذى اغراك بهذه الرحلات الى الاستانة ، فهو يذهب اليها كل عام •

ـ كنت أستطيع الاعتذار لو أردت ، وقد اعتذرت عن السفر فيما هو أخطر ولكن الدافع كان قويا ، والاغراء جاء من كل اتجاه ، خاصة حين احتفى الخليفة بى وأنعم علي وقربنى •

ـ وهل كان « عبد الحميد » يهتم بشيء ؟

ـ الواقع انه كان رجلا متواضعا مثقفا عكس ما يشيعه الاستعماريون عنه ، فقد أرادوا تحطيمه ليرتعوا فى ممالكه • الم يدع الى جمع الشمل ؟ ألم يقل لهرتزل الصهيونى عام ١٨٩٦ « لا أقدر أن أبيع قدما واحدا من البلاد لأنها ليست لى بل لشعبى • وسوف نغطى الارض بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا » ؟

ـ ربما كانت قطرات الدم التركى هى التى ربطتك عاطفيا بدولة الخلافة •

ـ ربما ، ولكن الرابطة الدينية هى الدافع الاقوى كما تدفعنى وطنيتى الى الاشادة بمصر ، ولا تعارض بين العاطفتين ، فتلك فلسفه الحزب الوطنى ، ولا تنس انى أحب لبنان وسوريا نفس الحب •

ـ وجارة الوادى ؟

ـ نعم ، وجارة الوادى •

وكانت المغنية قد انتهت من اللحن ، فتعالى التصفيق ، وتقدم رفيق شوقى يسألها عن الشاعر الذى نظم هذه الأغنية الجميلة ،

فأشارت بكل زهو ناحية الفحل الجالس ، وقالت : زوجي ، وضج الحاضرون بالضحك (١) ٠

وقام يقطع الطريق مع رفيقه الى دمشق تلبية لدعوة « محمد العابد (٢) » ، وانطلقت السيارة بهما فى سرعة جنونية ، تلتـوى التواء الجبل ، وهمس شوقى لرفيقه : اقرأ سورة « يس » فهـكذا السواق فى لبنان ٠ وقبل أن يتم كلمته كانت السيارة تتلوى مرة أخرى لكن حول نفسها ثم توقفت ٠ وقاما فى أسوأ حال ، ولكنهما نظرا فوجدا الهاوية السحيقة على بعد أقدام قليلة فاجفلا واستهانا بالرضوض وألمها الطفيف ٠

وفى صباح اليوم التالى كانا فى طريقهما الى صـلاح الدين يقطعان الصباح فى الزيارة قبل تلبية الدعوة ٠ والتفت شـوقى الى رفيقه متسائلا :

ـ ألم تقرأ شيئا عن صلاح الدين ؟

ـ بلى ٠

ـ اذن تفخر بهذه الزيارة التى نقوم بها ٠

ـ لا شك ٠

وعندما وقفا أمام الضريح أخذ ينقل الطرف حوله وينظر الى ما سطر بالحوائط وهو يهمس : « هذا هو الخلود ٠ هذا همه ، هذا أمه ، هذا مجد ، هذا فخر ، أنظر كيف طوته الأرض وهى أبدا تطوى ، ولكن ذكره باق حتى تطوى الأرض السماء (٣) ثم أغرورقت عيناه بالدموع ٠

---

(١) اثنا عشر عاما لاحمد عبد الوهاب ص ٦٠ ٠
(٢) رئيس الجمهورية فيما بعد
(٣) اثنا عشر عاما ص ٥٦

ان الرواية لم تتم فصولا

كان صيف عام ١٩١٤ حارا ملتهبا ، فقد دخلت انجلترا الحرب ضد المانيا فى أوائل أغسطس لذلك شرعت منذ اللحظة الاولى تمهد الأذهان وتهيىء الظروف لاحداث التغيير المنتظر فى مركز مصر القانونى ، وكانت انجلترا علم تعلم اليقين أن الدولة العثمانية ستحارب الى جانب المانيا ، ولم يمض قليل حتى كان الاتحاديون فى تركيا يحالفون الألمان فى سبيل ما يحلمون به من سيادة الطورانية، فزجوا بتركيا فى حرب لا مصلحة لها فيها ، على الرغم من معارضة الخليفة «محمد رشاد» وأعلن الخليفة الجهاد مضطرا ، ودعا اليه المسلمين فى أقطار الأرض ، ولكن دعوته لم تثمر الا قليلا • فالذين تأثروا بها من مسلمى الهند ومصر لم يكونوا فى واقع الأمر يملكون سوى العطف عليها بقلوبهم . وأما الشريف حسين فلم يكن رجال تركيا الفتاة فى نظره الا مجموعة من الملاحدة ، ولم يستطع أن يستسيغ هذه الدعوة العجيبة الى الجهاد الاسلامى مع اشتراك دولة مسيحية فيه وهى المانيا ، ولذلك أخذ يماطل فى دعوة الاتحاديين أياه الى تأييدهم •

وكانت الغيوم قد تلبدت قبل ذلك فى سماء السياسة العربية التركية ، والصراع يحتدم بين فكرة العروبة وفكرة التتريك، ويئس العرب من الاتحاديين ، وبدأوا ينفضون ايديهم من الآمال التى علقوها عليهم ، ورأوا ان العمل الايجابى قد حان وقته ، وهكذا اكتسبت « القومية العربية » أنصارا عديدين فى وقت سريع ، وأصبحت عاطفة تملأ القلوب (١) •

(١) القومية العربية والشعر المعاصر للمؤلف ص ٢٨ وما بعدها .

ومن الطبيعى ان يفكر القوميون العرب فى مصيرهم بعد أن اتضحت خطة الحكومة التركية ، وان يوازنوا بين خطة الدوام على السكوت وخطة الانقضاض على الدولة الى جانب الحلفاء • فالسكوت نهايته مرة على أى الحالين ، اذا انتصر الاتراك ، فالتتريك هـــو النهاية المحتومة للبلاد العربية، واذا انتصرالحلفاء فالعرب أعداء حرب• أما خطة الثورة على الأتراك ، فان نهايتها أحد أمرين ، أما أن ينتصر الأتراك فتكون النهاية السابقة وهى التتريك ، وأمـــا أن ينتصر الحلفاء ، وفى هذه الحالة تبقى البـــلاد محتفظة بكيانها القومى ، وبلغتها العربية • ويخطىء من يظن ان الثورة العربية قامت على أكتاف الحسين بن على وآله وحدهم . فالحقيقة ان تلك الثورة كانت ثورة الشعوب العربية التابعة للدولة العثمانية •

واسرعت الاحداث فى مصر ، فقد أعلنت الاحكام العرفيـــة ، وفرضت الرقابة على ما ينشر من الصحف المحلية وقبضت ســلطات الاحتلال على جميع أعضاء الحزب الوطنى كما قبضت على الكثيرين لمجرد الشبهات وتبع ذلك نفى وتشريد وتحديد اقامة وطلبت من هيئة كبار العلماء ان تصدر منشورا تنصح فيه الناس بالتزام الهدوء والسكينة • ثم أقدمت على خطوة أخرى فخلعت الخديو عباس الذى لم يخف عواطفه وميوله الودية نحو العثمانيين ، وكان فى ذلك الوقت مريضا بتركيا • وقبل السلطان حسين كامل العرش ، ولكن الشعب قابل الموكب السلطانى بالوجوم وارتسم الحزن على الوجوه نتيجـة كل تلك الاحداث ، وتوالت بعد ذلك الاغتيالات السياسية •

فى ذلك الصيف الحار ، كان شوقى فى الاستانة عندمـــا أعلنت الحرب في شهر أغسطس ، وقد رغب فى البقاء الى جـــانب الخديو عباس الذى كان طريح الفراش بعد اطلاق الرصاص عليه ،

ولكن الخديو الح عليه فى العودة لأن الحرب سوف تطول خاصة وقد كانت الأخبار الأكيدة تتواتر فى ذلك الوقت عن قرب دخول تركيا الى جانب المانيا ، فاذا ما انقطعت المواصلات فسوف يكون من العسير عليه بأسرته الكبيرة أن يبقى دون مشقة ، وهكذا عاد على ظهر آخر سفينة متجهة من تركيا الى مصر ٠

ولكنه لم يكد يصل ثم يعزل الخديو ، حتى أخذ عدد زوار « الكرمة » يتناقص يوما بعد يوم ، بل صار الأصحاب يخشون لقاءه وفتشت « الكرمة » من قبل سلطات الاحتلال وأحس ان أياما عسيرة تنتظره خاصة بعد ان قال قصيدته فى السلطان الجديد ، مشيرا الى أن الحوادث لم تنته وان الرواية لها بقية ، فتولية حسين مؤقتة ، ومن يدرى ماذا تلد الليالى ؟ ومن أجل ذلك قدم استقالته من القصر ، وقبع فى بيته بالمطرية حتى استدعى للمحاكمة.

وتوالت على ذهنه مشاهد متتابعة ترى من أين يؤخذ ؟ ان له شعرا كثيرا فى ضروب الوطنية منذ أكثر من خمسة عشر عاما ٠ انه يذكر قصيدته التى نشرها المؤيد فى ١٨٩٩/٢/١٨ بمناسبة الاحتفال باقامة تمثال « دلسبس » ، يوم اقامته شركة القناة الأجنبية ، ثم دعت الخديو إلى الاحتفال ، فقال أبياته التى تصور مصر طاهية للدنيا ، ولكنها لا تنال شيئا من الطعام الذى طهته :

كم مثلت بمجاليها ورونقها … جد الشعوب واقدام الحكومات
والقوم فى مصر ماطافوا بملعبها … الا كما شهد أنغر الروايات
حتى جرى الماء فى اثنائها ذهبا … يسقى ممالك لا تروى ودولات
فكل مائدة بالخلق حافلة … ومصر من خلفهم طاهى الوليمات

وهو يبغض الاحتلال ويحتقر من يتملقه ويتقبله مهما كان مركزه ، تعود به الذاكرة الى شهر مايو عام ١٩٠٤ ، حين أقامت

جمعية العروة الوثقى بالاسكندرية احتفالا لوضع الحجر الاساسى لمدرسة محمد على الصناعية ورأس الخديو هذا الاحتفال واعتذر لورد كرومر . والقى « رياض باشا » كلمة امتدح فيها الاحتلال فقوبلت بالسخط ، وحمل عليها مصطفى كامل ، واتهم رياضا بالتملق على حساب الوطن من أجل الوزارة (١) .

ويومها قال قصيدة نارية ، صب فيها جام غضبه على رياض واتهمه بالذلة والجحود وبلادة الحس لأن الوطنية كانت تقتضيه أن يهيب بالشباب لينهضوا خفافا الى مقاومة الاحتلال :

عمرت القوم اطراء وحمـــدا	وهم غمروك بالنعم الجســـام
رأوا بالأمس انفك فى الثريا	فكيف اليوم أصبح فى الرغام
نهجت بالاحتلال وما أتـــاه	وجرحك منه لو احسست دام
فهلا قلت للشبان قــــولا	يليق بحافل الماضى الهمـام
يبث تجارب الأيـام فيهـم	ويدعـو الرابضـين الى القيـام
أراعك مقتل من مصر بـاق	فقمت تزيد سهمـا فى السهام
فياتلك الليـالى لا تعـودى	ويا زمن النفاق بلا سـلام
أحبك مصر من أعماق قلبى	وحبك فى صميم القلب نامى
وانظر جنة جمعت ذئـابا	فيصرفنى الاباء عن الزحـام
وهبتك غير هيـاب يراعـا	أشد على العدو من الحسـام

واذا كان الاغضاء ممكنا عن هذا .. فهل يمكن أن يكون يوم هاجم كرومر بقصيدته اللامية التى رد فيها على ما اتهم به المصريين من العقوق وما أنذرهم به من دوام الاحتلال البريطانى وما وصف به حركتهم الوطنية بأنها حركة مفتعلة كاذبة ، وما رمى به مصر والمصريين من تفكير غريب غامض ، كل ذلك فى غطرسة شديدة ؟ ان كرومر قبل ذلك كان قد نصح الخديو بالابتعاد عن على يوسف

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ قسم ٢ ص ١٢٠

ومصطفى كامل وأحمد شوقى (١) ، لقد كان ممثل الاحتلال يخشى من خطب مصطفى كامل النارية ومن شعره البعيد الاثر ، ويدرك ان الصلة بين الزعيم وبين الشاعر لا يمكن أن يقطعها الا الموت ، فهى قديمة منذ أيام طلب العلم بفرنسا وتكوين الجمعية الوطنية هناك ، ومن أجل ذلك اهدى مصطفى كامل مسرحيته الى عمه « على شوقى » والد صديقه ، والشاعر والزعيم كلاهما متعصب لمبادىء الحزب الوطنى بل أكمل كل منهما شعار الحزب ، فعندما قال مصطفى كامل « لا حياة مع اليأس » اكمل له الشاعر ولا يأس مع الحياة » . وعندما انقطعت الصلة بين الخديو وبين مصطفى كامل لم تنقطع بينه وبين صديقه الشاعر . واذا كان بعض الكتاب يتهمه بأنه تأخر كثيرا فى رثاءصديقه حين مات ، فانه فى الواقع قد بدأ نظمه فى نفس اليوم الذى ودع فيه مصطفى كامل الحياة (٢) ، ولكنه اتمها بعد أيام ونشرها بعد وفاة مصطفى باثنى عشر يوما (٣) ، حين بدأ يزول أثر الصدمة التى جمدت القلم فى يده والدمعة فى عينه ولكنه حقيقة لم يرث زعيما وطنيا وانما رثى صديقا .

وهو لا يمكن أن يتنكر لرجال الحزب الوطنى أو لمبادئه مهما عصفت العواصف فعندما هاجمه محمد فريد عقب الجفوة العابرة التى وقعت بينهما بعث اليه بخطاب نارى يرد به هجوم « اللواء » فى كل ما ذكرته الجريدة ، انه خطاب نارى حقا ، قال فيه يومئذ :

عزيزى محمد بك فريد

أراك أيها الرئيس الكريم قد خفى عليك مكان وطنيتى ، فهل تأذن لى أن أدلك عليه ، ولا فخر ، فقد أحرجتنى احراجا ، وأخرجتنى

---

(١) مصطفى كامل للرافعى ص ١٧٨/١٧٥ .
(٢) أبولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٦٥
(٣) اللواء ١٩٠٨/٢/٢٣

من خلقي اخراجا ، فاذا زهوت واستكبرت مرة في العمر ، فأنت كريم والكريم يغفر . وطنيتي أيها الرئيس هي في فؤاد ولدك الصغير ، فاذا انقلب اليك من المدرسة فادعه يتل عليك من آياتها ما يخفق له فؤادك ، وتهتز له جوانحك اهتزازا ، لأن فريقا يهزون الرضيع في مهده ، وفريقا آخر يوحون الوطنية الى الناشيء في درسه ، أولئك هم المفلحون .

وطنيتي تطيف بكل حجر القي أساسا للعلم في هذا القطر ، من الجامعة الى النادى الى أمثالهما من مصادر الحياة الحقيقية للأمم والشعوب ، يعرف ذلك ويذكره المؤسسون . وطنيتي هتف بهـــا البدو وتغنى بها الحضر ، وجاوزت الاعاجم من ترك وفرس ، فهي معلقة على جدران قصورهم ودورهم ، يقرأها هنالك القارئون .

وطنيتي في الاهرام ، كان قلمي في قمتـه وكانت هممي في خدمته وكان صاحبه بشاره تقلا يحبني كمـا يحب واحده جبرائيل تقـــلا ، وليس وراء الحب غاية في الاحترام . وطنيتي في المؤيد مدرسة الوطنيين الاولى . وطنيتي في اللواء الذى كان صاحبه الوفي الكريم يتلقى الكلمة منى كمـــا يتلقى سنة تقـوم لجريدته عرفانا بالفضل ، والفضل يتذكره الخيرون .

وطنيتي مخبأة في مقبرة سلفك العظيم مصطفى كامل ، فطف بهـــا وناجه ، يخرج اليك من جانب القبر صدى الصدق ، صدق للحق ، صدى الحياة التى لم يتغلب عليها الموت ولا تمكن منها البلى صدى الشباب الذى نصفه في الجنة ونصفه لا يزال في هذه الدنيا يملؤها ويسرى فيها ـ هذا الصدى يقول : شوقي هو همزة اللواء طالما تباهى به وافتخر واعتز به وانتصر وهو أصدق من نظم فيه ونثر في وقت عز فيه الصادقون .

وطنيتى فى الشوقيات قليلهـا الذى ظهر وكثيرها المستتر ، وفى «عذراء الهند» و «دل ويتمان» و «لادياس» و «بنتـــاءور» ولو اطلعت على واحد من هذه الآثار التى تقتنيها ربات الجمال ، ويفهمها الرجال والاطفال ، لعلمت ـ كما علم كثير من العقلاء قبلك ـ اننى كما وصفنى المرحوم مصطفى كامل ذلك الغدير الصافى فى لفائف الغاب يسقى الارض ولا يبصره الناظرون(١)» •

والحقيقة ان هناك هفوة ، كلما ذكرها أحس بالندم وبالضيق يستبدان به ، لقد كانت تلك السقطة مع أحمد عرابى عندما عاد من منفاه عام ١٩٠١ وكان أشد الناس قدحا له مصطفى كامل وجريدة اللواء والحزب الوطنى .وقد جاراهم فكتب ثلاث قصائد هاجم فيها عرابى ولكن ألم يكن لعرابى روحه الوطنية الطموحة ؟ لذلك قرر ألا ينشر هذه القصـــائد فى ديوانه عندما يطبعه • وقد تهيأت له فرصة الاعتذار عندما كان قادما من الاسكندرية الى القاهرة ، فقد وجد عرابى يدخل عليه «الصالون» فى القطار راكبا من طنطا ولكن عرابى لم يكد يراه حتى تجهم له ثم ترك المكان خارجا •

ولكن ترى ماذا يأخذون عليه ؟ انه متعاطف مع الحركة العربية، فليست للمسلمين ناقة ولا جمل فى دخول الحرب ، وقد ذكر ذلك كله فى قصيدته التى نشرها المؤيد فى ١٨ نوفمبر ، حيث قال :

نزل البلاء وحل طوفان دم
بالمسلمين سماؤه لا تقلع

ماذا اندفاع المسلمين بموقف
الغالب المنصور فيه مضعضع

ولـكن ذلك ليس موضع مؤاخذة ، أغلب الظن انهم يأخذون

---

(١) شوقى وحافظ لطاهر الطناحى ص ٢١ •

عليه شيئا من قصيدته فى السلطان الجديد «حسين كامل» ، ولعله بيته الذى يذكر فيه «ان الرواية لم تتم فصولا» • فقد كثر اللغط حوله وحول ما يحمل من مغامز سياسية ، هذا علاوة على ان القصيدة برمتها يشـيع فيهـا الحزن مما لا يتناسب مع موقف التهنئة • والعلاقات نفسها بينه وبين «حسين كامل» ليست على ما يرام ، لانه سبق ان عرض به فى قصيدته التى قالها فى « كرومر » فقد كان «حسين كامل» رئيسا لحفل الوداع الذى أقيم لكرومر ، وسمع باذنيه غطرسة كرومر وهجومه • فقال فيه يومئذ «شهد الحسين عليه لعن اصوله» • مهما يكن من أمر ، فان الغد قريب ، وسوف تتكشف الامور فيه •

ولم تطل حيرته فلم يدم التحقيق طويلا ، وكان كما قدر من قبل حول البيت السابق ، ثم افرج عنه ، فالبيت يلمح ولا يصرح ويرمز ولا يقول فى وضوح ، فماذا يستطيع المحقق أن يقول فيه ؟ على أية حال •• لقد قرر أن يبقى فى بيته بالمطرية الى حين ، والا يقول شيئا حتى ولو كان نجاة السلطان من الاغتيالات • فلا يمدح ولا يهنىء ولا يجامل ولا حتى يرثى ، ان كان هناك مجال لشىء من كل هذا ، انه اعتكاف وصمت •

الباب الثالث

الغريب

في برشلونة

ما أكثر الأوقات التى احس فيها بانقباض قلبه ، ولكنه اليوم شديد الانقباض أكثر من أى يوم مر به خــلال الشــهور الماضية الكئيبة • لقد اشتطت حكومة «حسين رشدى» فى القاء القبض على الناس والتحقيق معهم بعد القاء القنبلة على السلطان «حسين كامل» فى الاسكندرية • انه يعلم ان سلطات الاحتلال تنتهز هذه الفرص للتخلص من كل من كانت له صلة بالخديو ، ويعلم ثورة السلطان ورغبته فى الانتقام من كل فرد يشك فيه ، ترى كيف تكون وسيلة انتقام السلطتين ؟ •• مهما توالت الاحداث فقد ضاق به الانتظار ومل هو الترقب فى كل حين • وذكر صديقه الذى رآه فى الطريق فانحرف الى الجانب الآخر من الطريق ، متجنبا اياه ، فكادت تفر من عينه الدمعة ، أهكذا بلغ به الامر أن يفر منه الاصحاب وكانوا لا يتركون له لحظة يستريح فيها ؟•• أهكذا بلغ به الهوان أن يتوقع التفتيش والاعتقال وما هو فوق ذلك فى كل حين أكل هذا من أجل قصيدته ؟ انه غير نادم على قولها ما دامت قيمة الكلمة قد بلغت هذا الحد • وانتشلته من غمرة الانفعــالات طرقات عنيفة متوالية ، لقد صدق حدسه ؟ انه أمر من السلطة العسكرية بمغادرة الوطن •

ان شتى الأحاسيس تثور فى وجدانه ، أهو النفى أخيرا ؟ انه أقسى أنواع العذاب ، ثم يهدأ قليلا فيرى أن النفى سوف يخلصه على أية حال من القلق الطويل الذى عاناه ، ومن أمثال هذه الوجوه التى ضحت بالصداقة على مذبح الخوف ، ورمت النقاب دون حياء • ولكن أى البلاد يختار ؟ انه يستطيع أن يتخذ بلدا أوربيا ، ولكن حنينه

سوف يضنيه ، ان روائح الشرق لا تفوح الا من أسبانيا ، فلتكن منفاه وملجأه ٠

الخامس من أغسطس عام ١٩١٥ ، تاريخ لا ينساه ، لقد اعتاد صيف كل عام أن يرحل الى أوروبا أو تركيا ، وأن يترك القاهرة مبتهجا برحلته ، ولكنه اليوم يركب القطار الى السويس وهو أشقى الناس ٠ انه طائر اللب زائغ البصر يستمع الى والد زوجه وهو يحاول أن يبعث الطمأنينة الى نفسه ولكنه غائب عنه فى الحقيقة ، ليت نبوءته تصدق فلا تطول الحرب . وأشد ما يعذبه أن يترك أمه المريضة بحلوان ويرحل دونها ، وهو لا يدرى ماذا تخبئه الايام ٠

كانت سفينة بضاعة صغيرة قديمة ، والمضطر يركب الصعب، فلم يكن لديه الخيار ، حمل اليها كتبه وأبناءه جميعا وزوجه ثم بعض خدمه ٠ وصعد اليها معه أربعة من الرعايا الالمان والنمساويين أمروا بمغادرة مصر أيضا ، وكان بالسفينة شحنة كبيرة من الثيران ذاهبة الى حفلات المصارعة فى أسبانيا ٠ وعوت الباخرة ثم انطلقت فى القناة متجهة الى بورسعيد ٠ وانتبذ الشاعر مكانا قصيا ، ثم جلس وحيدا ، واحترم الجميع وحدته ، فلم يقطعها عليه أحد ٠

« ان للنفى لروعة ، وان للنأى للوعة ، وقد جرت أحكام القضاء ، بأن نعبر هذا الماء ، حين الشر مضطرم ، واليأس محتدم ، والعدو منتقم ، والخصم محتكم ، وحين الشامت جذلان مبتسم ، يهزأ بالدمع وان لم ينسجم ، نفانا حكام عجم ، أعوان العدوان والظلم ، خلفناهم يفرحون بذهب اللجم ، ويمرحون فى أرسان يسمونها الحكم ٠ ضربونا بسيف لم يطبعوه ، ولم يملكوا أن يرفعوه أو يضعوه ، سامحهم فى حقوق الافراد ، وسامحوه في حقوق البلاد، وما ذنب السيف اذا لم يستح الجلاد ٠٠»(١)

---

(١) أسواق الذهب ص ٢٩٠٠

وتتوالى على مخيلته مواكب التاريخ الحافلة تعبر منطقة القناة أو تقيم فى مصر منذ يوسف عليه السلام الى عمرو بن العاص ومن صلاح الدين الى الاحتلال البريطـانى ، ما أكثر عبر التاريخ ، وما أعجب ما آل اليه أمر مصر ! لو تدبر المصريون تاريخهم المجيد لثاروا مرة ومرات • وطوى أوراقه بعد أن رأى ولديه يقبـــلان ، فأضاف جملته الاخيرة « ثم انظروا اليوم ، تريا القناة فى يد القوم ، ان أمنوا ركزوها ، وان خافوا هزوها » وكانت الباخرة قد عبرت بورسعيد وانطلقت الى البحر المتوسط ، ثم غابت الارض من كل جانب •

لحظات مرت •• نعم لحظات •• فقد كان الوقت عصرا ، ثـم هبت عاصفة هوجاء ، وأصبحت السفينة ارجوحة فى أيدى الامواج• وأصاب الركاب جميعا دوار البحر ، ولكن الطبيب التمساوى الذى كان بالسفينة حاول بكل جهده أن يخفف من وطأته • وتعالت تراتيل الرهبان ، واستبد الرعب بالجميع • وأقبل الليل فلم يغمض لواحد جفن ، فضربات الموج على جانبى السفينة ، وزمجرة الريح، وتراقص السفينة بمن فيها ، منع النوم عن العيون، وأصاب الجميع بوسواس كئيب ، وتوهموا النهاية المفجعة ، والموت من حولهم يسبح • وعندما طلع النهار كئيبا غاضبا ، وازداد هدير الامواج وارتفاعها كالجبال ، رأى القبطان ازاء خطورة الامر ، أن يخفف من عبء السفينة فيلقى فى البحر كل الحمولة من الثيران • وتوسل اليه الشاعر الرقيق أن يتريث حينا ، عل الغمة تنقشع ، فلم يعبأ بتوسلاته ، وبدأ يلقيها جماعة اثر أخرى ، فتحاول العـــوم حتى اذا كلت أسلمت نفسها للقضـــاء وهى تخور خوارا مؤثرا • وبعد يومين عاصفين ، هدأت غضبة البحر ، فهدأت الامواج ، وسكنت الريح ، وأشرقت السماء ، وسأل الشـــاعر ابنه : أدعاء الرهبـــان يا أبى هو الذى أنقذنا من

الغرق ؟ فأجاب : بل دعوات جدتك الطيبة يابني وبركاتها (١) ٠ ومن بعيد تراءت طيور الماء البيضاء محومة في الجو ، وشقت السفينة طريقها الى ميناء برشلونة ٠

أقام الشاعر عدة أسابيع في فندق بقلب المدينة ، ولكن نفقاته كانت باهظة وعلى الأخص بالنسبة لأسرة كبيرة مثل أسرته ، كما أن ما يرسل اليه من مال كان محددا بأمر السلطة العسكرية ، حتي لا يستطيع على حد زعمها ، أن يساعد به أعداء بريطانيا لذلك لم يلبث أن استأجر منزلا في ضاحية من ضواحي المدينة تدعى « فلفدريرا » وهي مرتفعة كثيرا عن قلب المدينة ، ومن هنا كان باستطاعته أن يشهد بسهولة ميناء المدينة والبحر المتوسط ٠

كان في « برشلونة » مصري واحد يعرفه شوقي من مصر ، وهو غريب الأطوار ، شاذ التصرفات ، يعيش سنة كاملة في تقتير ، ثم لا يلبث أن ينفق ما أدخره في لحظة واحدة ٠ وكان هناك تاجر سوري من المهجر ، جمع ثروته الكبيرة وأراد العودة الى وطنه فاحتجزته الحرب ، وأخذ يقضي وقته في المضاربات المالية ، حتى فقد ثروته كلها وقرر العودة الى المهجر ثانية ليبدأ من جديد ، ولعل الشخصية الوحيدة التي ارتاح اليها هي شخصية الطبيب النمساوي ٠ وهو رجل بوهيمي لا يحفل بالمظاهر ولا يتقيد بموعد كان لا يمكث في عيادته الا المدة الكافية لجمع نفقات سهرته ، ففلسفته قائمة على اقتناص الفرص ، لأن الحياة قصيرة ٠ وهكذا وجد شوقي نفسه وحيدا غريبا ٠

ولأول مرة يمنح نفسه كلها لأسرته وأبنائه ، وبدأ يتذوق طعم الحياة الأسرية ، بعد أن كان مستوفزا كالطير ، نافرا أبدا ٠

---

(١) أبي شوقي ص ٣٤ ٠

بدأ يعطى أبناءه دروسا فى اللغة العربية فارتبط بالبيت وبالأبناء ، بعد أن كان يكلف من يقضى لأبنائه حاجاتهم ، فكيف اتسع صدره ووجد الصبر الذى يدفعه الى قضاء الساعات فى تلك الدروس دون ملل ؟ انه النفى والغربة والوحدة • ثم شرع فى تعلم اللغة الأسبانية ، وقد تعلمها فعلا ، ولكن نطقه لها لم يكن سليما ، لذلك كان يثير ضحك أبنائه كلما أخطأ فى النطق أمامهم ، مما يدفعه الى الغضب والى الصياح بهم لزجرهم • والواقع انه لم يكن متحمسا لتعلم الأسبانية ، فكثيرا ما كان يمسك كتب النحو الأسبانى ، بينما هو سابح فى أودية الخيال مع ربة الشعر ، فيغطى غلافه باشعاره • ولكن لا النظم ولا الدروس يمكن أن تستغرق أكثر من وقته ، فالقراء وحدها هى القادرة على التهام أوقات الفراغ ، وهكذا عكف على قراءة كتب الادب العربى التى كان قد حملها معه ، واستوعب منها ما لم يكن قد استوعبه من قبل ، حتى أحس انه ليس فى الادب العربى كتاب لكبار الادباء لم يقرأه قراءة واعية(١) •

ثم أرسل الى صديقه أحمد زكى بمصر كى يبعث اليه بمجموعة أخرى من الكتب يود قراءتها ولكن السلطات فى مصر لم توافق ، وأعادت الكتب الى مرسلها مرة ثانية •

ولأول مرة يصطحب أسرته فى نزهاته ، فتخرج معه زوجه وابنته وولداه ، وهو أمر لم يكن متيسرا فى مصر بسبب الحجاب ، الذى لم يقض عليه الا فى خلال الثورة المصرية • فيقومون برحلات فى ضواحى «برشلونة» الفاتنة ، التى جمعت بين الجبل وبين البحر• كانوا يؤثرون النزهة فى الاودية والجبال خاصة فى فصل الربيع ، فللغابات رائحة الجنة ، مصدرها أشجار الصنوبر ، ويصعدون

---

(١) شوقى وحافظ للطناحى ص ٨٦ •

أحيانا الى قمم الجبال حيث يصبح السحاب فى متناول الايدى ، ثم حيث يتقاذف الصغار قطع الثلج فيحماسة ومرح • وكثيرا مايتجهون الى الغابات وهى مناظر غير مألوفة لديهم ، فهناك تتكاثف الاشجار وتتضخم ويحس المرء بوحشية الطبيعة البدائية ، ولكن هذه البدائية نفسها مبعث راحة لانسان المدينة الذى ضاق بالآلة •

لقد تحمل أيامه فى المنفى ، ومضت لياليه هادئة حينا ، أرقة تجتر أحزانها حينا آخر ، حقا ان للنفى لروعة ، وأعز شىء أضناه فراقه بعـــد الوطن هو أمه المريضة • لقد كان يحسب ان الحرب شهور قصيرة الامد ، بل كان يمنى نفسه بأحلام العودة ، وهاهى ذى الايام تمضى والسنوات تمر وتتبدد الاحلام ، ويعانى انقلابا نفسيا، دفعه الى رفض دعوة «عباس حلمى» للحاق به فى «النمسا» على ظهر غواصة ، فهو لم يعد عند نفسه شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية • ومما يزيده احساسا بالشقاء ، انقطاع المال عن الوصول اليه ، على اثر ما نشرته احدى الصحف الانجليزية التى تصدر فى لندن حول شاعر عربى كبير يقيم فى أسبانيا يحرض عرب مراكش على محاربة الحلفاء (١) فمن أين أتت الصحيفة بهذا الخبر الذى أثار سلطات الاحتلال وأقعدها ، فقررت الانتقـــام منه ؟ وماذا يصنع ان طالت الحرب وطال انقطاع المال عنه ؟ ستة أشهر كاملة لم يصله شىء ، حتى باع حلى زوجه وابنته ، وأوشك ما معه من مال قليل على النفاد، هل يتضور أبناؤه جوعا فى المنفى ؟ هل يستجدى ؟ لقد بدأ يعرف كيف ينفق بحساب وتلك ميزة كسبها من المنفى ، حتى الخمر التى كان لا يصبر على فراقها ، كف عن شربها ، فلعل الله أراد به خيرا، ولكن ماذا بعد ذلك ؟ ان حيرته تطول وليس هناك من حلول •

---

(١) ابى شوقى ص ٥٢ •

وسط هذا الجو الخانق الذى عاشه فى هـذه الفترة ، رأى يوما وهو يركب احدى السيارات العامة رجلا قبيحا ضخما عجوزا، عليه آثار النعمة والثراء يتـحلى بسلسلة ذهبية ، يجلس أمامه ، وما لبث هـذا الرجل ان غط فى النـوم ، وجلس يتأمله ويعجب للاقدار التى منحت مثل هذا المسخ العجوز كل هذه النعمة البادية، بينما هو وأبناؤه غرباء يكادون أن يتضـوروا جوعا ، مفارقة من مفارقات الاقدار أوحت بها المقارنة ، وأوحت بها حالته النفسية ، بل هناك آلاف الشباب فى مقتبل العمر يحاولون بناء حياتهم ، وهم أشد بؤسا ، وأكثر فقرا ، ضنت عليهم الدنيا حتى بالكفاف · وفى هذه اللحظة صعد الى السيارة شاب نحيـل وسيم الطلعة ، أبرقت عينه حين رأى السلسـلة الذهبية ، ومد يده ولـكنه رأى شوقى يراقبه ، فأشار اليه مستأذنا ، فأومأ اليه بالموافقة فنشلها ونزل من السيارة · ان المجتمع هو المسئول عن كل انحراف ، ترى أيكون المجتمع مسئولا عنه أيضـا ، ان ساءت حاله ، أكثر مما هو فيه ؟ وأجفل من مجرد التصور · وتذكر ان السفير البريطانى فى مدريد يستطيع أن يتدخل فى الامر ، فهو شاعر ، ويذكر جيدا أنه التقى به فى «برشلونة» من قبل ، ولا شك انه لن يرفض مطلبه ·

الحنين

يا ساكنى مصر انا لانزال على
عهد الوفاء وان غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم
شيئا نبل به أحشاء صادينا

كل المناهل بعد النيل آسنة
ما أبعد النيل الا عن أمانينا

غناء حزين ونفس حزينة ، وهل يملك الا الحزن، لقد استحال ذوبا من الحنين الخالص ، وأضناه الشوق ، وفاحت أبياته بزفراته الحارة · لقد أرسل هذه الابيات الى صديقه الشاعر حافظ ابراهيم «شاعر النيل» ، والنيل يذكره بوطنه الذى افتقده ويذكره بصديقه وبأحبابه وبأمه وبكل مكان كانت له فيه ذكريات · وأتته أبيات حافظ بلسما لجراحه :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله
صاد ويسقى ربى مصر ويسقينا

والله ما طاب للاصحاب مورده
ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا

لم تنأ عنه وان فارقت شاطئه
وقد نأينا وان كنا مقيمينا

نعم ان بلبل مصر صاد أحرقه الظمأ ، يتلهف على قطرات ماء النيل فيدفع عنها ، بينما الأجنبى يعب منه مرة ومرة ومرات ·

ولكنهم يحسون في مصر بظمئه وهذا ما يسكت أنين جراحه الى حين.
غير أن القلق يعاوده ثانية فيبعث الى اسماعيل صبرى « شيخ الشعراء » بأبيات انداحت فوقها عبراته ، ويجيبه صبرى ولكنه لا يهدأ • ومن أين له الهدوء ، وهو في كل يوم يشاهد السفن في الميناء ، طويل أنينها ، طول لوعته ، فلم يعد قادرا على الانفعال الهادر ، وانما أصبح صوته أشبه بالناى رمز الحزن الابدى ، والعذاب الذى لا نهاية له ، عذاب الجريح وأحزان الغريب ، وأنات المشوق ، وتمتمت شفتاه تعبر عن كل هذا :

وسلا مصر هل سلا القلب عنها
أو أسا جرحه الزمان المؤسى
مستطار اذا البواخر رنت
أول الليل أو عوت بعد جرس
يا ابنة اليم ما أبوك بخيل
ماله مولعا بمنع وحبس
أحرام على بلابله الدو
ح حلال للطير من كل جنس
نفسى مرجل وقلبى شراع
بهما في الدموع سيرى وأرسى
وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى اليه في الخلد نفسى
شهد الله لم يغب عن جفونى
شخصه ساعة ولم يخل حسى

كل شيء يثير أشجانه ، وكل شيء يذكره بوطنه وبغربته • حتى نونية « ابن زيدون » ، يجد فيها صورة من آلامه ، فيفيض أساه ، فالشاعر الاندلسى كان بعيدا عن قرطبة مسقط رأسه وملعب

صباه ، وقد خلف فيها صاحبته الاميرة الشاعرة الظريفة ولادة بنت المستكفى ، وترك هناك مجده السياسى العريض وقلبه الجريح ، وهو بعيد عن وطنه مثل ابن زيدون ، حيث خلف هناك أمه وأحبابه. «ياناتح الطلح أشباه عوادينا» ، نعم أيها الطائر الجريح كلانا عبثت به الايام . انها صورة قديمة كان يقرأها فى شعر جرير وفى شعر أبى فراس الحمدانى ، وما كان يحسب انها ستصبح جديدة وانه سيقف داخل نفس الاطار . لقد ذهب خياله الى وادى الطلح باشبيلية وهو مازال بعد فى برشلونة لم يبرحها ؛ انه على أية حال يفكر فى أسبانيا أقل مما يفكر فى مصر . وما أكثر التفاته الى مصر والى البلاد الاسلامية . ان أيام المسلمين فى تلك الديار أصبحت حلما من الاحلام ومرتعا للذكرى ، وآثارا تبعث فى النفس الاسى ، واذا ما امتد ببصره الى الشرق ، رأى ما يزيده احساسا بهذا الاسى. أفلا يستطيع أن يخلد ذكر البطولة الاسلامية ، ويعرض على أفئدة المسلمين صورا من مجد الاجداد ، عل فيها لهم العزاء عن الحاضر ، والامل فى المستقبل ؟ .. انه فى الواقع يتعزى عن حاضره ، وينظر بعين الأمل الى غده . وهكذا كانت أرجوزة « رقم الحلل فى نظم الدول » التى كتبها الشاعر لسان الدين بن الخطيب ، هادية له فى مسيره خلال الارجوزة الطويلة التى نظمها ، وخرجت فى أكثر من مائة صفحة وأسماها « دول العرب وعظماء الاسلام » .

ومرت ثلاث سنوات كأنها الدهر ، وهو فى المنفى ، ثم أعلنت الهدنة بين الدول المتحاربة فى نوفمبر عام ١٩١٨ . فأى سعادة غامرة هذه التى ازاحت عن صدره كل الأشجان وضمدت كل الجراح . لقد غفر للدنيا كل ذنوبها . انه شديد اللهفة الى العودة .. لا يدرى أى هوى الأمين يدفعه ، الوطن والوالدة . ولكن السلطات فى مصر لم تسمح له بعد بالعودة ، وان كانت القيود المالية قد ازيلت تماما . وانطفأت البسمة على شفتيه ، ان أمه المريضة التى عاشت

على أمل انتهاء الحرب ليعود اليها ولدها ، لم تقو على احتمال فرحتها الكبرى ، فحمت وماتت قبل ان تملأ عينيها برؤياه • وهزته الصدمة هزا عنيفا ، ثم أجهش بالبكاء حتى جفت مآقيه • وأحس بالشبه الكبير بين حاله وحال المتنبى يوم خلف فى الكوفة جدة عجوزا يئست من حفيدها لطول غيبته فلما هم بالعودة كان فرحها أكبر من أن تحتمله أعصابها الخوارة فحمت وماتت •

ماله وللبقاء فى « برشلونة » الآن ؟ ان التجوال خير له من الانتظار والترقب على أمل السماح له بالعودة • فليحزم حقائبه ثم يرحل الى «جزر البليار» فهى على بعد ليلة من مدينته • أما روادها فأكثرهم من الفنانين لمناظرها الطبيعية الساحرة وجوها الصحو • لقد كانت تلك الجزيرة مسرحا لحب الكاتبة الفرنسية «جورج صاند» والموسيقار البولونى «شوبان» • وهكذا ذهب الى الجزيرة مصطحبا صديقه الطبيب النمساوى فكانت فترة استجمام مسحت دموعه ووارت أحزانه •

وانطلق الى «مدريد» العاصمة وهى أكثر المدن التى شاهدها ارستقراطية فبينما كانت برشلونة مجدة كلها مصانع ومعامل كانت مدريد تحيا عالة على سائر المدن كأميرة من أميرات ألف ليلة وليلة• وفى «مدريد» متاحف ثمينة ، أهمها « البرادو » الذى يضم صورا زيتية رائعة للمصورين الاسبان المشهورين وللمصورين الهولنديين النابغين • وهناك قضى مع أبنائه وقتا ممتعا ، رأوا فيه أحفل متاحف أوروبا بلا نزاع • ولكن أروع ما شاهدوه فى « مدريد » هو قصر الاسكوريال ، الذى شيده فيليب الثانى واستغرق بناؤه أعواما طويلة • وبه سرداب يضم رفات ملوك أسبانيا ، وقد وضعت فى توابيت من المرمر ، وللاسكوريال مكتبة عظيمة ، تحوى بعض

المخطوطات العربيـة ، التى أثارت ذكرياتهم وأثرت فى نفوسـهم وعجلت برحيلهم الى أرض الاندلس(١) ٠

كان السفر سريعا ، حتى ان قطار الليل لم يسمح للمسافرين برؤية المدن التى يمرون بها ، فكان مروره خاطفا بطليطلة وليس فى ذاكرته منها غير الجسر البالى القائم على نهر «تاجه» المحيط بالمدينة كالسوار ، مع ان فيها من الآثار العربية بابا قديما من أبواب المدينة يسمونه (باب الشمس) ، والى جانبه أثر عربى آخر ، لايزال يناضل الدمار ويستعصى على الفنـاء ، وهو مسجد صغير يحمل الى اليوم اسمه العربى يكتب El-Mezquita ، وعلى جوانب من أقواسه تلك الكلمات التى تمثل شعار أجدادنا «لا غالب الا الله» بلونها الاحمر القاتم كما تركوها ٠ وطليطلة اليوم مدينة صغيرة وأهاليها لايزيدون على ثلاثين ألفا(٢) ٠ ولو أن الشاعر طاف بأحياء المدينة القديمة ، لمرت أمام عينيه مواكب التاريخ ، تحدوها ذكريات المجد العربى ٠ فقد كانت أيام الحكم العربى تتسع لربع مليون من المسلمين « بها بساتين محدقة ، وانهار مخترقة ، ورياض وجنان وفواكه حسان ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وضياع بديعة وقلاع منيعة» كما يروى المقرى فى نفح الطيب ٠ غير أن قطار الليل لم يكن يهتم بشىء من ذلك ، فأمامه رحلة طويلة تمتد اربعمائة وخمسين كيلومترا ، مسافة ما بين مدريد وقرطبة ، يطوى فيها السهول الخضر والجبال الصلدة قبل أن يصل الى عاصمة الامويين ٠

وعنـدما وصل الى « قرطبة » فى ربيع عام ١٩١٩ ، وضع أقدامه لاول مرة على أرض الاندلس ٠ وكان يرسم لها فى مخيلته صورة زاهية جمع خطوطها من كتاب نفح الطيب الذى حمله معه من

---

(١) ابى شوقى ٥٦ ٠

(٢) اندلسيات شوقى ٣٢ وما بعدها ٠

مصر .. « هی أعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب لها عندی شبيه فی كثرة أهل وسعة محل وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق »(١) ولكن يالخيبة الامل ، انها قرية كبيرة ، ضيقة الطرقات لا يتجاوز عدد سكانها خمسين ألفا . رب أهذه قرطبة التی كانت عروس الاندلس فی العهد العربی الزاخر ؟ أهذه حاضرة الاسلام التی كانت تضم مئات المساجد والمدارس ، وقد بلغ عدد سكانها اذ ذاك المليون ؟ أهذه كعبة العلماء والفقهاء التی كانوا يحجون اليها من جميع أنحاء العالم ؟ كل شیء ضاع واندثر ، ولم يبق منه سوى المسجد بروعة عمده ورشاقتها . وتفجرت أحاسيسه كلها لحنا حزينا يرثی الماضی ويهيم فی اوديته العبقرية ثم يصحو علی واقعه المر فيردد :

قرية لا تعد فی الأرض كانت
تمسك الأرض أن تميد وترسی
ركب الدهر خاطری فی ثراها
فأتی ذلك الحمي بعد حدس
سنة من كرى وطيف أمان
وصحا القلب من ضلال وهجس
واذا الدار ما بها من أنيس
واذا القوم ما لهم من محس

ثم يطوف فی أرجاء المسجد حتی يبلغ المحراب وهناك يبحث عن منبر المسجد فلا يجده ، لقد اختفی منذ العصور الوسطی ، ولكنه يستطيع أن يجده فی كتب التاريخ وان يصوره فی شعره ، ويبحث عن مصحف عثمان فلا يجده أيضا ، لأن الموحدين حملوه معهم الی

---

(١) نفح الطيب جـ ٢ ص ٨٠ .

مراكش منذ القرن السادس • وهذه هى المرة الاولى التى تستطيع فيها الاندلس زحزحة صورة مصر قليلا عن خاطره ، وأن تبرز على المسرح • أتراه منعطفا جديدا عميق الدلالة فى شخصيته يؤكد بروز الفكرة العربية ؟

ولكن هل أنساه التجوال نفسه ، وهل شغل بالآثار العربية عن التفكير فى أشجانه ؟ ان كل شىء حوله يرده الى واقعه ، فالآثار العربية غريبة غربته ، نالت منها الأيام كما نالت منه ، وهكذا يرتفع من جديد أنين الناى ، حين يتذكر «عبد الرحمن الداخل» فهو شاعر مثله ، وهو غريب كثير الحنين الى المشرق ، نفس الموقف ونفس الاحاسيس ، فيهتف فى موشحة « صقر قريش » :

ناح اذ جفناى فى أسر النجوم
رسفا فى السهد والدمع طليق

أيها الصارخ من بحر الهموم
ما عسى يغنى غريق عن غريق

ان هذا السهم لى منه كلوم
كلنا نازح أيك وفريق

قلب الدنيا تجدها قسما
صرفت من أنعم أو أبؤس

وانظر الناس تجد من سلما
من سهام الدهر شجته القسى

وغادر قرطبه الى «اشبيليه» ، انها أكبر مدن الاندلس دون شك ، ومن أجمل مدنه أيضا ذات صبغة شرقية فى بيوتها وطابعها العام • وشوارعها مغطاة بالخيام كى تحول دون حرارة الشمس فى أيام الصيف • والعجب الذى يشهده السائح هناك هو فى هذين

الاثرين العربيين العجيبين الباقيين الصامدين في وجه الفناء، وأولهما القصر وثانيهما الجيرالدا (البرج الدوار) ، اذ ليس فى اشبيليه ما يثير العجب غيرهما اللهم الا المتنزه الممتد على ضفاف النهر الشهير (الوادى الـــكبير) فكثيرا ما ذهب اليه شوقى مصطحبا أسرته فى أوقات الاصيل كما اصطحبها الى حفلات مصارعة الثيران حيث تذهب سيدات اشبيليه وهن مرتديات ثيابهن الوطنية ذات الالوان الزاهية ولكنه لم يكن يميل بطبيعته الرقيقة الى مشاهدة هذه الحفلات التى تصرع فيها الثيران بعد عذاب طويل .

أما الجيرالدا فهى منارة المسجد الجامع ، وقـــد هدم الاسبان المسجد ، وأقاموا مكانه كاتدرائية ضـــخمة ، ولكنهم تركوا المنـــارة العظيمة قائمة بجانبها ، فهى اعجوبة فى الفن الاسلامى ، ترتفع أكثر من تسعين مترا ، وليس لها درج وانما يصعد الى رأســـها سيرا فى طريق منحدرة ملتفة وفى استطاعة الفارس أن يصـــعد بفرسه الى قمتها . هذه المنارة العربية الشامخة الرأس لا تزال الى اليوم مصدر وحى والهام لكثير من أدباء الاسبان وشعرائهم ومن أعلاها تبدو المدينة لعين الناظر بلدة كبيرة نظيفة بمبانيها البيض والاحواض التى تتوسط افنية الدور لترطيب الجو ، مثل دور دمشق العربية ثـــم السقوف القرميدية الحمر ، وأروع ما يسحر العين منظر « القصر » العربى ومن ورائه يمتـــد مثلث أخضر هو حدائق القصر الكبرى ، ومن خلفها نهر الوادى الكبير يحف بها كالهلال . وفى هذا القصر قضى شوقى فترات طويلة يطوف فى ابهائه ويرى القسم الذى أضافه الاسبان اليه فشوهوا جماله الخالص . كان يبحث هناك عن الملك الشاعر « المعتمد بن عباد » وزوجه الشاعرة الجميلة « الرميكية » وابنتها «بثينة» وجدتها العبادية ، ولكنه لم يجد سوى أطيافهم، ابطال مسرحيته «أميرة الاندلس» تعبق بها أجواء القصر الخالى وتموج بها ظلال الحدائق العربية وراء القصر الحزين .

وكانت آخر مدينة زارها هى غرناطة التي خرج منها العرب ـ وكانت آخر معاقلهم ـ بتسليم أبى عبد الله الصغير آخر ملوك بنى الاحمر ، الى فرديناند وايزابيلا مفاتيحها ، وخلفوا فى هذه المدينة أضخم أثر عربى تزهو اليوم به الاندلس ، وتهفو اليه قلوب السياح من كل مكان فى الارض ليروا احــدى معجزات الانسانية ومفخرة الحضارة العربية والفن الاسلامى فى أسبانيا • انه قصر الحمراء ، حصن غرناطة ودار بنى الاحمر ولا يزال الى اليوم كما تركه بناته اعجوبة وفتنه • ويقع القصر فوق آكام عالية تطل على المدينة تحيط به جنات من حدائق القصر ويشرف على هــذه الآكام جبل « شييرا نيفادا » الذى لا تفارقه الثلوج صيفا وشتاء • وقبل أن يصل شوقى الى القصر صعد متمهلا ، ذلك الطريق المظلل بأشجــار كثيفة لان السنين الخمسين التى بدأ ينوء بها تدفعه دفعا الى الصعود المتمهل، ولكن ذلك أتاح له أن يتوقف عند الباب الكبير المسمى بباب العدل ليرى على قوسه تلك اليد الهائلة المنقوشة بأصابعها الخمس • انها فيما يقال رمز للعقيدة الاسلامية بأركانها الخمسة • وعندما اسلم نفسه الى أحد الادلة الاسبان المتسكعين حول الباب وسأله عن تلك اليد المنقوشة ، سمع فيضا من الاساطير • ثم اجتــاز باب العدل وسار فى طريق ضيق متعرج بين التلال حتى بلغ ساحة الآبار حيث صهاريج المياه محفورة فى الصخر الصلد لتزويد القلعة بالماء وفى آخر الســاحة رأى قصر شارل الخامس الذى بدأه ولم يتمه فظل جدرانا قائمة ، تخطاها ليجد نفسه داخل قصر الحمراء • وهو آية فى الروعة بحجراته الرحبة ونقوشه الدقيقة وفسيفسائه الملون ، وأجملها تلك الحجرة التى كان ملوك بنى الاحمر يقابلون فيها الرسل والسفراء فهى مفروشة بالرخام مزينة بأبدع الخطوط ، ومن نوافذها يطل الناظر على حى «البيازين» من ثلاث جهات والجهة الرابعة تفضى الى قاعة البركة • ويصل الشاعر الى ســاحة السباع ويقف أمام

الحوض المرمرى الذى تحيط به سبعة أســـود توليه ظهرها والماء يتدفق من أفواهها . وينتهى تجواله ، ثم يعود الى فندق « واشنطون ايرفنـــج » حيث يقيم مع أسرته فى قلب الغـابة المحيط بالحمراء فيتوقف طويلا أمام اللوحة الزيتية الكبيرة المعلقة فى بهو الفندق التى تمثل الملك العربى أبا عبد الله آخر ملوك غرناطة وهو يسلم مفاتيح المدينة الى ملوك الاسبان . ويتمثله عندما اجهش بالبكاء وهو يغادر الاندلس فقالت له أمه عائشة التى كانت فى صحبته : « ابك الآن بكاء النساء ، الملك الذى لم تحسن المدافعة عنه دفاع الرجال » . فيتأثر تأثرا بالغا ، ثم يردد هامسا :

خرج القـــوم فى كتـائب صم عن حفاظ كموكب الدفن خرس

العودة

كان من عادة السلطان حسين كامل ان يدعو من حين الى حين بعض الشخصيات لتناول الغـــداء بقصر عابدين • وفى أواخـــر سبتمبر عام ١٩١٩ كان بين المدعوين أحمد زكى باشا • وبعد أن فرغ الجميع من تناول الطعام ، دعاهم الى تناول القهوة بالبهو الكبير، وجلس السلطان والى جواره أحمد زكى باشا ومحمود شكرى باشا • ودار الحديث فى هذه الجلسة عن النهضة العلمية والتطور فى الحركة الأدبية ورقى الصحافة والأغانى القومية تطرق الى الشاعر اسماعيل صبرى ومستواه الفنى الرفيع الذى جعله شيخ الشعراء • وهنا التفت السلطان الى أحمد زكى باشا متسائلا :

ـ كيف تترجمون فى العربية كلمة Mentalite

ـ هذه الصيغة استحدثت لمعنى خاص يقاربه فى العربيـــة قولنا « ذهنية » و « عقلية » •

ـ أيوجد بين العرب الآن من فى قدرته ان يماشى شـــعراء الافرنج ، مع هذه العقلية الجديدة والذهنية الحديثة ؟

ـ ان هذه المزية تفرقت فى كثير من شعراء العصر ، ولكنهـا اجتمعت كلها في شاعر واحد •

ـ ومن يكون ؟

ـ انه أحمد شوقى ٠

وهنا أشار له محمود شكرى باشا فأحس انه يشجعه على المضى فى الحديث ، فاسترسل قائلا : ان شوقى ممن تزدان بهم الدول ، ولو كان فى زمن الخلفاء لتخاطفته دمشق وبغداد وقرطبه ٠ لقد أفاض على العروبة من نفثاته ومنح الشعر والادب من نفحاته ،حسنات باقية ، وآثارا خالدة ٠ وآنس من السلطان ما يشعر بالرضى فقد التزم الاطراق والصمت فتمادى فى حديثه موجها كلامه اليه هذه المرة فى صيغة تساؤل :

ـ أيصح أن تبقى مصر محرومة من بلبلها الفريد ، وان يرفرف هذا الطائر الغريد بجناحيه على قرطبة وطليطلة وعلى اشبيليه وغرناطة بعد أن خرجت منها العروبة خروج الأرواح من الأبدان ؟ ان الذى نرمقه هو أن تعيد الى القاهرة رونقها المجتمع في أثواب شوقى ٠

ووقف السلطان فوقف الحاضرون ، ثم بدأوا فى الانصراف ٠ وهنا أسرع محمود شكرى باشا مهرولا وراء أحمد زكي ، وأخذ يعنفه على اندفاعه في هذا الحديث عن شوقى فاعتذر بأن السلطان كان مصغيا اليه ، وانه تصور اشارته تشجيعا له ، ولم يخطر على باله أن يتحرج من الحديث عن بلبل مصر ، وما فعله ليس سوى نصح السلطان بما ينبغى أن يكون ٠ وكان السلطان فعلا قد اقتنع بما سمع فطلب من رئيس الوزراء أن يعمل على عودة شوقى من المنفى (١) ٠

بلغت شوقى أنباء السماح له بالعودة الى مصر ٠ فلم يكن

---

(١) ابولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٨٦/٣٨٨ ٠

هناك من هو أشد منه طربا فى ذلك اليوم . العودة .. انها حلم جميل يتحقق ، فقد آن للغريب ان يرى حماه وان يؤوب من تجواله ويلقى عصا الشريد ويحتضن الدنيا كلها ويغفر لها كل ذنوبها . انه لم يعد يستطيع الانتظار لحظة واحدة وأول سفينة تغادر أوروبا الى مصر سوف تبحرِ من « البندقية » فليرحل اذن « الى جنوا » بحرا ، ثم يركب القطار الى « البندقية » ومن ثم يستقل الباخرة فى طريقه الى ثغر الاسكندرية .

لا يعرف الشوق الا من يكابده ، ان حنينه الدفاق الى تقبيل ثرى مصر أعنف من حنين محب مجنون بحبيبه . ما أعذب ان يتحقق الامل بعد اليأس ، وان يرتمى الابن في حضن أمه بعد فراق ولوعة طالت بهما الايام . وعندما اقتربت السفينة من الميناء ولاحت أنواره من بعيد وأحس بنسمات الثغر تداعبه طفرت الدموع من عينيه ، وهتف بأبيات الحنين كزفرة طويلة لا نهاية لها :

ويا وطنى لقيتــك بعد يأس — كأنى قد لقيت بك الشــبابا
ولو انى دعيت لكنت دينى — عليه أقابل الحتم المجــابا
أدير اليك قبل البيت وجهى — اذا فهت الشــهادة والمتــابا

ووصل القاهرة نبأ عودة شوقى فاستعدت جماهير من الطلبة وغيرها للاحتفاء به انهم جماهير ثورة ١٩١٩ التى كانت قد اندلعت منذ شهور واشتركت فيها كل طوائف الشعب ، وكان للطلبة فضل المبادرة ثم انضم اليهم العمال والفلاحون والتجار والموظفون والنساء ، وهى قفزة كبرى فى تاريخ الحركة الوطنية اذا ما قورنت بأيام مصطفى كامل فقد كانت فى أيامه حركة مثقفين أساسا . أما اليوم فقيادة الثورة سياسيا فى يد الوفد ، ولكنه تردد فكانت التحركات الثورية الفعلية فى يد الطلبة والعمال وصغار التجار

والمحامين ومتوسطي الملاك في الريف ، واستمرت تشتعل ثم تهدأ لتنفجر من جديد • واستمع شوقي في الاسكندرية الى أناشيدهم ، أناشيد البطولة والفداء « لا سجون ومدافع رشاشة ، ولا خفنـــا عذاب في جهاد باهر ، ننصاب برصاص نربط شاشـــه ، عالجرح ونرجع نتظاهر » ، فأحس بدماء الشباب حارة تسرى في جسده وتخلقه خلقا جديدا •

احتشدت تلك الجماهير على أفريز المحطة في أمسية شـــديدة البرودة من أمسيات الشتاء في انتظار القطار الذى يقل شاعر مصر الكبير •• وجاء رجل ضخم يشق الطريق بعناء ، كان حافظ ابراهيم وأهاب الرجل الضخم بالناس ان تحمله حتى يستشرف على هـذا الزحام ليطالع القادم • ومرت لحظات وصل بعدها القطار ، ونزل منة رجل قصير يمسك بنيقة معطفه بيده خشـية البرد ، وهتفت الآلاف بحياة شوقى فى حماسة بالغة ، ثم حملوه على الأعناق ، وحياه حافظ بأبياته التى يقول فيها :

الحمد لله الذى قـــد رده — من بعد غربته الى أوطـــانه
فتنظـروا آياتـــه وتســـمعوا — قد قام بلبلكم على أغصـــانه

ثم خرجت الصحف ترحب بمقدمه بعد طول غيـــاب • قالت جريدة الثمرات : « أهلا بسيد الأدباء ، أهلا بأمير الشعراء ، أهلا بأحمد شوقى » •

« غبت عنا فغابت معك شمس الفضل واحتجب بدر النبـل وأظلمت سماء العرفان وأصابنا الوقر في الآذان ، بصرير أولئك المتشاعرين الذين يزجون بأنفسهم فى غمار الشعراء ، وما هم الا جنادب تتنازى من حولنا ، وضفادع تتجاوب بيننا • فأفســدوا علينا القول حتى أحمدنا الصمم ، وآثرنا العدم • فاذا رحبنا بك ،

وأفسحنا من صدورنا لاستقبالك ، وفتحنا قلوبنـــا لانزالك خير منزل ، فانما ترحب فيك بشاعر مصر ، المخلد لآثارها على وجـه الدهر ، ونستقبل فيك شاعرا جاد الزمان به على لغة الكتاب الكريم، بعد أن ضن بمثله منذ عدة أجيال .. فاصدع بوحى الشعر اليك ، واشع فى النـــاس آياتك البينـات ، وافض عليهم من معجزاتك الخالدات ، وجدد للعربية عهدها ، واحى الآداب بعد مواتها ، وقل نسمع شدوك ، ونقف عند حكمك » (١)

وانفعل انفعالا شديدا ، وهو يسمع ويرى هذا الفيض من المشاعر ، فأحس انه يخلق من جديد ، كما خلق هذا الشعب من جديد ، وانه يستقبل مصر الثورة ، التي أفاقت من ذهول الصدمة، فليخفض بصره اليها ، وليحتضن قضاياها ، ذلك دين فى عنقه ، فلا أمير الا الشعب ، والا هذه القلوب الشابة ، التى يتطلع اليها بعين المستقبل فيرى وجها فتيا . لم يقو الزمن على ان يعبث به .

---

(١) العدد الصادر فى ١٤ مارس سنة ١٩٢١ .

الباب الرابع

انطلاقه جديدة

أوطان

كل شيء آخذ في التبدل من حوله ، ولكن الانتفاضة القومية هي أشد الظواهر عمقا ووضوحا ، ان الدائرة تنداع أمام عينيه ، حتى لا يعود يرى الا الجماهير في حركتها ونضالها • انها في حاجة الى الصوت القوى الذى ينطق باسمها ويعبر عن قضاياها ، ويصور آمالها ، وهو صاحب هذا الصوت ، صوت النفير المدوى الغلاب •

وهكذا ألقى بالناى الحزين بعيدا • ليته شهد الثـــورة واشتعالها ، اذن لصورها كما لم يصورها أحد من قبل ، ولنفخ فيها من روحه الشابه ، وكلماته النارية :

يوم البطولة لو شهدت نهــاره	لنظمت للأجيـــال ما لم ينظم
غبنت حقيقته وفات جمالهـــا	باع الخيال العبقرى الملهـــم
سالت من الغاب الشبول غلابها	لبن اللباة وهاج عرق الضيغم
يوم النضال كستك لون جمالها	حرية صـبغت أديمك بالدم

لقد أتاح له النفى أن يعود الى نفسه ، فتغيم رؤيا الفرد أمـام ناظريه حتى تتلاشى ، انه تحول فى مفهوم البطل فالشعب هـــو صانع التاريخ ، هو البطل الحقيقى الخالد ، واذا كان التاريخ الماضى هو تاريخ أفراد ، فالتاريخ الحاضر تاريخ شعوب • ان احرار التفكير الذين تعالوا على مظالم المستبد وآثروا الهلاك ، واستعذبوا الموت على

الخضوع ، هم فرسان الحقيقة التى غابت عنه حينا ، ولكنه اليوم على يقين منها .

هذا التحول فى التفكير هو قمة الايمان الذى لم يتزعزع بالشعب بالدستور وبزوال حكم الفرد . انه لن يكف منذ اليوم عن الدعوة الى الدستور والمطالبة به حتى يبح صوته ، وأمامه الصحف التى تتسابق على نشر أناشيده ، فهو يحمل أمانة الكلمة ، ويدرك قيمتها حين نفى بسببها ، وحين قدستها الجماهير بعد عودته . وتتوالى القصائد ، وتطلع الصحف مشيدة بشعره ، أكتوبر عام ١٩٢١ :

نطالب بالحق فى أمة جرى دمها دونه وانتشر
ولم تفتخر بأساطيلها ولكن بدستورها تفتخر

مارس عام ١٩٢٢ :

ان سرك الملك تبنيه على أسس
فاستنهض البانيين العلم والأدبا
وارفع له من جبال الحق قاعدة
ومد من سبب الشورى له سببا

يناير عام ١٩٢٣ :

زمان الفرد يا فرعون ولى ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينا

لقد قال عبد العزيز فهمي في خطاب مفتوح له ، وموجه الى رئيس الوزراء يوم ١٥ ابريل عام ١٩٢٢ : « ان سيادة الامة وكونها مصدر كل سلطة ، هي أهم ما تسعى الشعوب لحمل أمرائها على الاقرار به لها • وهي التي تقوم الثورات وتثل العروش لاستنقاذها من براثن هؤلاء الأمراء •• ان السيادة آتية لمصر من تحت أنياب الانجليز بعد الجهود والتصميمات الكبرى التي قام بها المصريون في وجه الانجليز • ثم يأتي أناس من المصريين أنفسهم ، فيهبونها غنيمة باردة لأمراء البيت المالك • فالشعب المصري سيد صاحب حق أصيل في الدستور ، ومتعاقد أصيل فيه ، ومن ثم فلا يملك أحد كائنا من كان ، اصدار الدستور بدون اشتراك هذا الشعب رجالا ونساء ، كهولا وفتيانا » • (١)

غير أن الدستور وضع وسعد زغلول معتقل في « سيشل » مع ذلك فلم يكن « فؤاد » راضيا عنه ، كان ناقما على ما أسماه انتقاصا لسلطة الملك • وكم حبك من مؤامرات ، ولكن الضغط الشعبي ، أرغمه على اقراره • وعلى الرغم من ان الشعب لم يؤخذ رأيه فيه بطريقة جدية ، فقد تمسك به وأصر عليه ، وأصبحت السراي ومحترفو السياسة من الاقطاعيين والرأسماليين من أعدى أعدائه ، ولم يتأخروا عن محاولات تعطيله في أكثر من مناسبة •

---

(١) تطور الحركة الوطنية لشهدى عطية ص ٥٥

وافتتح البرلمان وسط هذه التيارات فى ١٥ مارس عام ١٩٢٤، انه ثمرة كفاح مر طويل ، منذ الثورة العرابية ، الى انبعاث الحركة الوطنية على يد مصطفى كامل صاحب الكلمة المشهورة « أين ذلك الدستور الذى يلجم الحكومة بلجام من حديد ؟ أين مجلس النواب المصرى الذى يقف فى وجه كل طامع ؟ » (١) الى ثورة سنة ١٩١٩ :

بنيان أقوام مشوا بسلاحهم — وبنين لم يجدوا السلاح فثاروا
فيه من التل المضرج حائط — ومن المشانق والسجون جدار

فليس هناك الا الحرص الشديد عليه ، حرص الضنين ، والا التنبيه الدائم ، تنبه النواب الى رسالتهم .. وتتابع القصائد ، كأنها دقات ناقوس لا يهدأ حتى يصحو كل نائم وينتبه كل غافل ويتجمع كل شارد ويتحرك كل ساكن :

دار النيابة هيئت درجاتها — فليرق فى الدرج النوائب والذرا
الصارخون اذا أسيء الى الحمى — والزائرون اذ أغير على الشرى
لا الجاهلون العاجزون ولا الألى — يمشون فى ذهب القيود تبخترا

ان دوامة الاحداث تستغرقه تماما فلا يفيق منها أبدا ، وليته لا يفيق فهى دليل حيوية ، وعجب لنفسه كيف كان يتصور دوره ، هو دور صانع النغم وصاحب الناى ، أليس فى زئير الجموع لحن أحلى من كل الأنغام ؟

ثم أليس فى حشد الجموع من أجل الحفاظ على مكاسبها رسالة مقدسة ؟ ينبغى اذن أن تبقى العيون يقظى كل العيون ، ولكن التطاحن من أجل التسلط والسيطرة اشتعل أواره منذ

---

(١) اللواء ٢١ مايو سنة ١٩٠٢

سنة ١٩٢٤ وأصبح تراشقا بالتهم منذ انتخابات سنة ١٩٢٥ التى عمل زيور على تزويرها بكل جهده ورغم ذلك أسقطه الشعب وجاء الوفد وبرلمانه لمدة تسع ساعات حل بعدها البرلمان .

وها هو ذا الصراع يندلع عنيفا بين الوفد وبين الدستوريين من أجل التهافت على الحكم ، لا من أجل الصالح العام .

هل ينبغى له اذن وهو شاعر مصر ان يكون شاعر حزب من الأحزاب ؟ انه يحس بالألم يجتاحه ويتحرك لسانه بالعذاب الذى تتجرعه آلامه من جراء هذا الانقسام ، وفى ذكرى من أعز ذكرياتها ، ذكرى مصطفى كامل ، الذى احترق شــابا ليضىء للناس طريق الجهاد :

الام الخلف بينــكم الامــا ... وهذى الضجة الكبرى علاما ؟
شببتم بينكم فى القطـر نـارا ... على محتله كانت ســلاما
وكانت مصر أول من أصبتـم ... فلم تحص الجراح ولا الكلامــا
ولينا الأمر حزبا بعد حــزب ... فلم نك مصلحين ولا كرامـا
شهيد الحق قم تره . يتيمـا ... بأرض ضيعت فيها اليتامى

ويكر عليهم ثانية فى نفس العام ، ويقرأ الناس شعره ، ويزداد توزيع الصحيفة التى تنشر قصيدته ، ويهز الناس رءوسهم أسفا على هذه الفرقة ، ثم يزداد الأسف ويثور الغضب ، ويضغط الشعب بكل قــواه ، ويتحدثون فى الشــارع وفى المقهى وفى البيت وفى النادى وفى كل مكان ، ويحسون ان الالتئام خطوة مرحلية لا بد منها لانقاذ الدستور ، ولكن الأمل فى الجيل الجــديد الذى ازداد وعيا ، وصقلته التجارب ، وينعقد المؤتمر الســياسى الذى اجتمعت فيه كلمة الأحزاب على انقــاذ الدستور فى ١٩ فبـراير ســنة ١٩٢٦ ، وتصــافح المتلاحون واتحــدت كلمتهـم ــ الى حين ــ وتوحدت غايتهم ، وتناقل المجتمعون عبارات العتاب ، ومحا

الود ضغائن الصدور ، وانفعلت الجماهير ، وانتشت بالفرحة ، وهنأ الناس بعضهم بعضا ، واستبشروا بالغد ، وسجل شاعر الشعب بشراه مرة ومرة ومرات (١)

التاقت الأحزاب بعد تصدع وتصافت الاقلام بعد تلاح
سحبت على الأحقاد أذيال الهوى ومشى على الضغن الوداد الماحى
الله ألف للبلاد صدورها من كل داهية وكل صراع
انتم بنو اليوم العصيب نشأتم فى قصف أنواء وعصف رياح
صوت الشعوب من الزئير مجمعا فاذا تفرق كان بعض نباح

ولقد أحس مخلصا ، أنه عاشق الحرية ، حرية سياسة أكثر من التفكير فيها والدوران حولها ليله ونهاره ، وحرية اقتصادية ، تهدف الى تحرير الاقتصاد المصرى من قبضة السيطرة الاجنبية، وتشجيع الصناعات الوطنية ، وحرية ثقافية عن طريق نشر العلم على كل المستويات ، وهكذا ينبغى أن تكون عملية البناء فى كل اتجاه ٠ انه يسمع الشباب يرددون أبياته :

العصر حر والشعوب طليقة ما لم يجزها الجهل فى ارسانه
أين التجارة وهى مضمار الغنى أين الصناعة وهى وجه عنانه
ملك من الأخلاق كان بناؤه من نحت أو لكم ومن صوانه

كما يسمعهم فى كل حقل ، ووسط كل طرب مهما يلغ مداه ، يحسون بشىء من الحزن الشاحب ٠ ولكنه الحزن المصفى للملكات والأرواح ، الحزن الدافع لا المعوق ، يحسون أن الفرحة لن تكتمل ما لم تتم الفرحة الكبرى ، انه يسمعهم يرددون بيته الذى جاب البلاد ، وانشده الزارع في حقله ، والعامل فى مصنعه ، والتاجر فى متجره ، ورجل الشارع فى أطماره ، يلملمها ولكنه يتغنى :

والله مادون الجلاء ويومه يوم تسميه الكنانة عيدا

(١) قال قصيدتين اخريين فى نفس العام ، أولاهما فى ذكرى مصطفى كامل ، والثانية فى رثائه لعبد الحميد أبى هيف ٠

فيحس بسعادة غامرة ، ويدرك ان هذا الشعب قد وصل الى النضج الكافى وان شخصيته قد بدأت تكتمل ، ولا سبيل الى تزييف الرؤى أمامه ، او الحجر عليه ،أو كبح جماح انطلاقته لتجميده ، فهل أدى الرسالة ؟

لقد كان قبل النفى شاعر الخلافة الدينية ، ولكنه لم يكن شاعر الخليفة ، الم يقل له :

زهدت الذى فى راحتيك وشاقنى
جـوائز عنـد الله مبتغيـات

انه يحس برسالته احساسا قويا من ذلك العهد ، ولكن الخليفة عزل والخلافة نفسها ألغيت ، وفى الاندلس كانت عظمة ما تركه العرب تنبىء عن أمجادهم القاهرة ، وتلك كانت بداية التحول ، بداية الغذاء بالروح العربية الجديدة ، فتحول شاعر العثمانية الى شاعر العروبة ، كما تحول شاعر الخلافة الدينية الى شاعر الوطنية المصرية .

كان يهاجم الحسين الثائر العربى ضد الدولة الثمانية ، ولا يرى فيه الا عاجزا يريد الخلافة لنفسه ، عاقا خرج على ظل الله فى الأرض ، أما اليوم ، فقد أدرك أن الانطلاقة العربية كانت بداية وعى جديد ، ويخطىء من يظن ان الثورة قامت على أكتاف الحسين وآله ، فالحقيقة انها كانت ثورة الشعوب العربية التابعة للدولة العثمانية وما من عربى استطاع أن يؤازرها أو يلحق بها ، الا أقدم على ذلك عن طيب خاطر ان الذين لاموا الحسين قد نظروا الى المسألة نظرة اسلامية عاطفية ، مع ان تركيا كانت ستلغى الخلافة بعد سنوات . وهكذا أصبحت القومية العربية عاطفة جامحة فى الصدور والقلوب ، واختمرت هذه الحقيقة التى كانت متوارية خلف حجاب كثيف من التيارات السياسية فتوالت الثورات فى البلاد

العربية ، ثورة ١٩١٩ فى مصر ، وثورة ١٩٢٠ فى العراق ، وثورة ١٩٢٥ فى الشام ، وربما لم تنجح هذه الثورات نجاحا مطلقا ، ولكنها أكدت قدرة العربى على مجابهة الاستعمار .

ويفتح ذراعيه ليحتضن القضية العربية ، فالوطن العربى جسم واحد ، وان فرق الاستعمار أشـلاءه ، ولن تمر مناسبة دون أن يسلط الأضواء على هذه الوحدة النفسية . الساسة مشغولون بالاسلاب ، ولكن الفن يستطيع أن يلعب دوره وان يقوم بدور الحادى — وذلك أضعف الايمان — فى ريادة الجماهـير وطرد اغراء النوم عن عيونهم .

يا نجم سوريا ولست بأول	ماذا نمت من نير وقـاد
أطلع على يمن بيمنك فى غد	وتجل بعد غد على بغـداد
سترى الديار على اختلاف ربوعها	نطق البعير بها وعى الحـادى

وتتوالى المكائد ، وتتابع المحاولات الاستعمارية الخبيثة للايقاع بين الاشقاء . انها قصة الاستعمار الازلية « فرق تسد » ولكنه لن يقوى لأن وعى الشعوب قد وصل الى درجة النضج وهو يستطيع أن يريق سم الأفعى بكشفه ، وباثارة عواطف الاخوة :

فمصر الريـاض وسودانهـا	عيـون الرياض وخلجانهـا
تتمـم مصر ينابيعـه	كما تمم العين انسانهـا
وأهلوه منـذ جرى عـذبه	عشيرة مصر وجيرانهـا
ولكن رءوس لأموالهـم	يحرك قرنيه شيطانهـا

ويتزيى بزى العصر ، ويتجه الى دفع الجموع من أجـل استكمال أسباب القوة ، فالدعاء لا يحقق أملا ولا يجلب الحرية ، ومواقف الاحرار من حوله مصبوغة بالدماء :

بنى سورية اطرحوا الأمــانى والقوا عنكم الأحلام ألقــوا
وقفتم بين موت أو حيـــاة فان شئتم نعيم الدهر فاشقوا
وللأوطان فى دم كل حــر يد سلفت ودين مســتحق
ولا يبنى الممالك كالضــحايا ولا يدنى الحقــوق ولا يحق
والحــرية الحمــراء بــاب بكل يد مضرجــة يدق

ويعبر شعره الحدود الاقليمية المصطنعة ، وتحلق جناحاه هنا وهناك ، ويصل صوت البلبل الى كل بيت عربى ، يزغرد تارة ويبكى تارة أخرى ، انه يعيش أروع أيامه ، ويحقق أحلى أمانيه ، وهل هناك أمنية أعز من أن تغنى الجماهير العربية من المحيط الى الخليج أغانيه أو تهدر بأناشيده ، أو تردد كلما التقت فى مناسبة :

ونحن فى الشرق والفصحى بنورحم
ونحن فى الجــرح والآلام اخــوان

ـ هل وصلتك يا « حافظ بك » الدعوة لحضور الحفل النسائى الذى سيقام بمسرح حديقة الأزبكية ؟

ـ طبعا ، وقد نظمت الابيات الاولى من القصيدة التى سوف القيها . وكما تعودت يا شوقى بك ، تريد ان تعرف ماذا قلت دون ان تقول انت شيئا ، على أية حال لم أعرض الا لموضوع البر :

أى ذوات الحجال عشتن للبر ودمتن قدوة للرجال
قمن علمننا المروءة والعطف على البائسين والسؤال (١)

ـ الحقيقة انى أتابع نشاط المرأة فى هذه الأيام بشىء من الرضا ومن الاعجاب . فقد تطورت المرأة المصرية كما يتطور كل شىء فى المجتمع منذ نهاية الحرب وقيام ثورة ١٩١٩ .

ـ ولكن النساء يعلمن موقفك منذ أخرج قاسم أمين رحمه الله كتابه « تحرير المرأة » عام ١٨٩٩ .

ـ لقد كان قاسم نفسه يعلم أن الناس لن تتقبل آراءه ببساطة وهو يعرض للتقاليد الموروثة بعقلية المثقف ثقافة غربية ، ثم وهو يعرض لرأى الدين فى المرأة ، بينما هو مجرد باحث وليس من رجال الدين . ومع ذلك يجتهد فى هذه القضية الشائكة محاولا دفع المرأة نفسها الى اتخاذ موقف ، ودفع الرجل الى اعادة التفكير .

---

(١) ديوان حافظ جـ ١ ص ٢٩٩ .

ـ رأى قاسم ان الغربيين قد غالوا فى السفور الى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة ونحن غالينا فى الحجاب حتى صيرنا المرأة متاعا ، وحرمناها نعمة الحياة . وقد كان رحمه الله على حق حين رأى أن أسباب الفتنة ليست فيما ظهر من أعضائها وما خفى ، بل فيما يصدر عنها من أفاعيل أثناء سيرها ، والنقاب من أشد أعوان المرأة على ذلك ، لأنه يخفى شخصيتها . والحجاب على ما ألفناه مانع عظيم بين المرأة وبين ارتقائها وبذلك يحول بالتالى بين الأمة وبين تقدمها .

ـ يا أخى لقد تدرجت اليابان في الرقى السريع بينما لم تنل نساؤها شيئا مما يسمى بالحرية الغربية ، والمرأة هناك تنشأ لتكون زوجة واما .

ـ على أية حال ان قاسما نفسه يقول ان رفع الحجاب دفعة واحدة والنساء على ما هن عليه انقلاب فجائى ربما نشأت عنه مفاسد كثيرة ولكن قصده اعداد نفوس البنات زمن الصبا لهذا التغيير .

ـ لقد كان من الواجب ان يتوقف عند تربية النساء ، كما رأى مصطفى كامل رحمه الله (١) ، فهى دعوة يوافق عليها كل مثقفى الأمة ، اما الحرية للمرأة فلم يكن هناك محل للحديث عنها لأن عملية التطور تسير سيرها المحتوم ، وفرق بين التطور والتطوير القسرى .

ـ ان قاسما التفت الى ذلك وقارن مقارنة سريعة بين المراة الغربية التى دخلت الوظائف العامة ، وبين الشرقية التى تستطيع

---

(١) اللواء ٣١ يناير سنة ١٩٠١ .

متى ترقت أن تخدم بلدها على الأقل عن طريق الجمعيـــات الخيرية وما أكثر حاجتنا اليها.

ــ يا أخى لقد زرت بلادا أوربية كثيرة فوجدت الحرية قد افسدت على المرأة آدابها ومحت كثيرا من الاخلاق الفاضلة حتى عمت الشكوى هناك ، وما وافق تلك البلاد غير ما يوافق البلاد الاسلامية لأن التقاليد مختلفة .

ــ ولكنك أبديت اعجابك بالمرأة العثمانية التى أسـفرت وخرجت الى الاسواق والى المتنزهات وقلت فى مقالتك النثرية التى نشرتها فى المؤيد بامضاء « سائح » (٢) يوم اخرج قاسم كتابه : « ثم كان منى التفات الى النسوة المصليات والآخريات التاليات فرأيت لهن فى الاسفار جمال الاقمار وجلال الابرار ، أو هن لحور العين فى هذه الدار ، قد أخذن ما أمرت به الشريعة الطاهرة فلم تبد الا وجوه ناضرة الى ربها ناظرة ليس بحسـنها تطريه ولا بلونها تطلية تنبىء عن صحة كاملة وقوة للجسـم شاملة ، فلما فرغن من صـلاتهن وانتهين من تلاوتهن ، خففن للذهاب وابتدرن الابواب ، فرأيت الرجال ينتحون حتى تعبر النسـاء وقد ملئوا وقارا كأنهم جند والمرأة بينهم لواء ، فعلمت حينئذ أن سعة الآداب اغنت المرأة العثمانية عن الحجاب ، وان اغضاء الرجال قد ناب لها عن النقاب فقلت فى نفسى ياعجبا ، خرجت من الصدف الجمانة ، الى أصداف من التكريم والصيانة».

ــ لابد انك تحفظ باقى القطعـة ، وهأنذا اكملهـا لك ·

« سبحانك ربى جعلت مضار الحجاب فى الاستانة ، منافع فى مصر الكنانة ... فطالما جنت فيها الموالد على المسـاجد ، وضاقت

---

(٢) المؤيد ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٩٩ « بضعة أيام فى عاصمة الاسلام » .

الزوايا عن الخبايا ، وانقلبت الخلوات فصارت الشهوات ، وعدى الله جهرة فى الحضرة ، واصبحت الزيارة حيلة مختارة وحلة مستعارة وآفة البيوت ، توهنها كالعنكبوت ، فكم شقاق أوجبت، وطلاق سببت » .

ــ ولكن ذلك الذى دعا اليه قاسم أمين ، لم يعد شغل الناس بعد الحرب فقد أخذت الأمور تتطور تطورا سريعا حتى اصبحت دعوته وقد استنفدت أغراضها فى وقت وجيز ، واندفع الناس الى ما بعدها في سرعة غير منتظرة . فقد خلعت المرأة النقاب ثم استبدلت المعطف الأسود بالحبرة ثم لم تلبث أن نبذت المعطف ، وانتشرت العاملات فى المتاجر . تتابعت هذه التطورات ولم تدع فرصة للمعارضة ، فقد أعان على اندفاعها جو الثورة التى تلت الحرب وما كان يوحى به من جراة ومن تمرد على كل قديم . وقد ظهرت طلائع ذلك في مظاهرة النساء سنة ١٩١٩ التى طافت بشوارع القاهرة هاتفة بالحرية فى طريقها الى دار المعتمد البريطانى لتقدم اليه احتجاجا مكتوبا على تعسف سلطان الاحتلال وكان عدد المتظاهرات فيها يربو على الثلاثمائة ، وعلى راسهن صفية زغلول حرم سعد زغلول وهدى شعراوى حرم على شعراوى . وقد قلت فى هذا الموقف قصيدتى التى سخرت فيها من سلطات الاحتلال حين تعرضت لهن ، ثم شاركت المرأة منذ ذلك الوقت فى القضايا الوطنية وفى مختلف الميادين الاجتماعية . وغفلت عين المعارضين عن هذه الخطوات التى أضفى عليها جو الثورة لونا من القداسة حفظها من أن تمس . فلما تنبه المعارضون وجدوا المرأة ماضية فى استئناف الطريق الذى وضعت قدمها على أوله باشتراكها فى ثورة ١٩١٩ ، فأخذت تؤسس الجماعات وتقيم الحفلات وتزعمت هذه الحركة النسوية هدى شعراوى . وربما جزع بعض المحافظين لما صحب هذه الحركة من ميل

بعضهن الى التبرج أو نزوع الى الانطلاق وراحوا يتابعون فى ذهول تطور الزى • ولكن تيار الحياة كان يكتسح المعارضين اذ يصبحون وقد احاط بهم ما يكرهون وما يحاربون فى أشخاص بنـاتهم وزوجاتهم وأخواتهم حتى بدا التناقض واضحا بين ما يقولون وما يجرى فى بيوتهم •

ـ لقد ذكرنى نقاشنا اليوم بخلافى مع قاسم أمين منـذ ربع قرن • وكنا نحتد احيانا فى النقاش ثم لا نلبث ان نتصافى •

ـ اتراك لم تغير رايك فى المرأة • ان الذين استمعوا الى قصيدتك الأخيرة حاروا معك ، فأنت تؤيد ثم تعود فتسحب تأييدك ، فاذا قلت :

قل للرجال طغى الاسـير طير الحجـال متى يطـير
أوهى جنـاحيه الحـديـد وحز سـاقيه الحـرير
حـرية خـلق الانـاث لها كما خلق الذكور

صفقت المرأة ، ولكنها لا تلبث فى الأبيات التالية أن تفاجأ ، فتتهاوى يدها الى جانبها عندما تسمع تسجيلك لازمتها وترددها فيما تأخذ وما تدع أمام سيل البدع الذى يتدفق فى غير توقف :

فى ذمـة الفضـلى هـدى جيـل الى هـاد فقـير
اقبلن يسـألن الحضـارة ما يفيد وما يضـير
ما السـبل بينـة ولا كل الهـداة بهـا بصـير

واذا سمعن ثناءك وهتافك لقاسم أمين رحمه الله قلن نصير قوى للمرأة يخلد ذكرى الرائد فى قوله :

يا قاسـم أنظر كيف سـار الفكر وانتقل الشعـور
جـابت قضـيتك البـلاد كأنهـا مثـل يسـير

ثم تموت الابتسامة على شفاههن فى اللحظة التالية مباشرة

حين تقرر خلافك معه وحيرتك فى معرفة حقيقة مقصده وسر دعوته ، ثم تتركهن حيارى دون ان تريح أحدا فى نهاية القصيدة :

لقـــد اختلفنـــا والمعــــا	شر قد يخـــالفه العشـــير
فى الرأى ثـم اهــــاب بى	وبك المنـــادم والسـمير
ومحــا الرواح الى مغـــــا	نى الود ما اقترف البكــور
فى الرأى تضطغن العقـــو	ل وليس تضطغن الصـدور

ــ لقد غيرت رأيى فى المرأة التركية ، كما غيرته فى المرأة المصرية ، أما التركية فقد سارت الى ما يشبه التسيب ، وقد قرأت فى الصحف تصريحات لفتيات تركيات يفخرن فيها بأنهن يرقصن ويدخن ويسافرن بغير أزواجهن ، وبعض الاصوات هناك ترتفع محرضة المرأة على ان تعيش على هواها مع من تشاء من الرجال (١) . وأما المصرية فقد وصلت الى المرحلة التى كانت تعجبنى فى المرأة التركية من قبل ، ولكنى مازلت اخشى عليها تقليد الأجنبية والاندفاع المدمر وراءها ، وقد نقلت هذه الأحاسـيس الى قصيدتى التى سوف تلقى فى الحفل القادم .

وفى الأمسية التالية ، اشرأبت الأعناق وتطلعت العيـون وأرهفت الأسماع ، بينما كان المنشد يلقى أبياته :

اذكر لهـــا اليـــابان لا	أمم الهـــوى المتهتـكات
ماذا لقيت من الحضـــــا	رة يـا أخى الترهـــــات
خذ بالكتـــاب وبالحـديـــ	ـث وســيرة السلف الثقات
وارجع الى ســنن الخليــ	ـقة واتبع نظـم الحيـــاة

ثم لم يلبث الهتاف ان تعالى يشق صمت الليل حين قاربت القصيدة نهايتها ، واستعيدت الأبيات مرارا :

---

(١) السياسة الاسبوعية ١٧ يوليو ١٩٢٦ ، المنار ٢١ يوليو ١٩٢٥ .

مصر تجـــدد مجـــدها بنســـائها المتجـــددات
النافـــرات من الجمـــــو د كأنه شـــبح الممـــات
لمـــا حضـــن لنـــا القضية كن خـــير الحاضنـــات
ينفثـــن فى الفتيــــان من روح الشـــجاعة والثبـــات
يهـــوين تقبيـــل المهنـــد أو معانقـــة القنـــاة
ويـــرين حتى فى الكـــرى قبـــل الرجال محـــرمات

الحكيم

دلف « العاصي (١) » الشاعر الشاب الى القاعة الخضراء الكبيرة ، فوجد جمعا من الشباب وتصفحته العيون فانتحى ناحية ثم جلس . لا شك أنهم مثله من طلاب الجامعات وشباب الشعراء والمعجبين بشعره وحكمته ، يأتون من حين الى حين ، ويلتقون به التقاء التلاميذ بالاستاذ ، يستمعون اليه ويأخذون عنه ويسيرون على دربه . لقد ارتبط به من زمن ، منذ قرأ شعره ونثره فأحبه ، وقدم اليه مجموعته الشعرية الصغيرة التى صور فيها فيضا من الاحزان يغوص فيها الى الاعماق ، فربت الحكيم على كتفه ، وقال بيته الذى يوحى بالسلوى والعزاء والأمل جميعا:

ولتعلمن اذا السنون تطاولت　　ان التشكى كان قبل أوانه

أحقا هذا ؟ .. ما أصغر همومه اذن ، ولكن هناك وجها آخر لهذه الحقيقة فاذا كانت بداية الحياة كما يحسها ونهايتها كما يسمع غارقة فى الهموم ، فما أتفه الحياة . وانتشله همهمة سرت حوله وصوت يهمس : وصل بنتاءور ، فتطلع الى حيث اتجهت الانظار ، ورأى شوقى يدخل بخطوات وانية ، مرفوع الرأس ، مبتسم الأسارير فحيا الجميع وتصدر المجلس . وأخذ يسأل عمن غاب ذاكرا كلا باسمه . لا شك انه يحتفظ بذاكرة قوية ، فبعضهم لم يحضر سوى مرة أو مرتين ، وهم مع كثرتهم يتجددون دائما .

واستمع الجمع الى بعض المنشدين ، قرأوا شعرهم ،

---

(١) انتحر بعد طبع ديوانه الذى قدمه شوقى .

فأخذ بنتاءور ـ كما اطلقوا عليه ـ يشجع هذا ، وينبه ذاك الى ضعف تراكيبه أو تكلفه ، حتى انتهى الشعراء من شعرهم . فأخرج سيجارة وضعها في مبسمها ، ثم وضع ساقه اليمنى تحت فخذه اليسرى ، وتطلع الى الافق . لا شك أنهم يدركون أنه تهيأ لأسئلتهم ، فقد طووا أوراقهم ، وانبروا للمحاورة . قال واحد من الجمع :

ـ من العالم أيها الاستاذ ومن الحكيم ومن الطبيب ؟

ـ العالم من لا ينام والحكيم من لا يطعم والطبيب من لا يموت .

ـ هذا هو المستحيل أيها الاستاذ .. فماذا تعنى ؟

ـ اردت ان العالم من علم بالنهار وتعام بالليل ، والحكيم من زهد فى هذه الدنيا وقنع منها بكسرة ، والطبيب من ترك طبا يعيش به الناس بعد موته .

ـ درست الفلسفة أيها الأستاذ ولكنى لم أصبح فيلسوفا فكيف تؤخذ ؟

ـ من التجربة ومن الطباع أكثر مما تؤخذ من الرقاع . والعاقل من له على كل أرض مدرسة ، وعلى كل طريق أستاذ ، المدرسة تقيم العقل فى طريق العلم ولا تتكفل بوصوله ، كالمعبد يمد السريرة في الاعتقاد ولا يتكفل لها بكشف الغطاء ، فرب عابد من نفسه وصل ، ومتعلم من نفسه حصل . عرفت صفوف العلم فلم أر كالفلسفة يأخذها المرء من نفسه ، ثم من حيث التفت فرأى ، وكلما قيل له فسمع . من حديث المتكلم ان صدقا وان كذبا ، وصموت الصامت ان بكامة وان بكما ، ونعيم المنعم وبؤس البئيس ومشية المستكبر وهذيان المهوس وعربدة السكران . ومن النمل

فى مشاغلها والنحل فى معاملها ، والذر فى مستثاره ، والبرق فى مستطاره ، والزهو اقباله وادباره ، والفلك ليله ونهاره ، والبحر مضطربه وقراره ، ومن النفس اذا اعتلت واذا صحت ، واذا طمعت واذا قنعت ، واذا رغبت واذا تسلت ، واذا شكرت واذا جحدت • ومن الطباع اذا امتحنت والسرائر اذا بليت والأهـواء اذا اختبرت • مدارس لا يفرغ اللبيب منهـا ، ودروس لا يصبر الحكيم عنها •

قال التلميذ الفتى لأسـتاذه الشيخ : سمعنا فى سياسة الأمم عن الشيخ محمد عبده ، أنه قال معبرا عن رأيه ورأى جمال الدين الأفغانى « لا يصلح الشرق الا مستبد عادل » فكيف نجده ؟

ــ جئنى بالنمر العاقل ، اجئك بالمستبد العادل • هلكت يا بنى أمة تحيا بفرد وتموت بفرد • كان الانسان فى شبيبة الدهر يؤله الجبابرة من البشر أمثاله ويحكمهم فى عرضه ودمه وماله • ولا يزال معظم الخلق حتى الآن عبادا للملوك يأتونهم طائعين ، غرهم التاج ، وخدعهم العرش ، وغشهم الحجاب ، وضـللهم الاستبداد • اسـمع يا بنى ، شورى من الحجاج وزياد ، خـير من الفرد ولو كان عمر •

ــ وكيف تكون الشورى أيها الاستاذ ، وقد قال « جمال الدين » فينا : اتفقوا على أن لا يتفقوا ؟

ــ ما هذا السم فى الدسم ، ومن ذاك الذى يثبط الهمم ؛ هذا ومثله من الأوهام ، وانها لتخامر العقول فتعقلها ، وتداخل النفوس فتقتلها • الأوهام داء الأمم ومنية الشعوب اذا تمكنت من قوم كانت كالفأس فى الأساس وكالنار فى الشعار وكالحبل فى الخناق وكالعلة في القلب لا يخفق الا الى حين • قال لكم رجل قولا فوهمتم فمتم أحياء ، ليس مع السلوة عيش ولا مع القنوط

عمل ولا مع اليأس حياة ، وليس أجلب للشر والضر من الدعوة الى الربوض وتوهية العزائم وامـــاتة القلوب واخراج النفوس من الرجاء الى اليأس الذى هو الموت فى اشنع صوره واقبح أحواله. أليس من الوهم القاتل للأنفس المميت للقلوب ، ان يصح فى أذهان خاصة المصريين ، أنهم أمة ليس فيهم فلاح ، ولا يرجى فى أمرهم صلاح ، وان اتفاقهم سـابع الجهـات ورابع المســتحيلات ، الأمم يابنى لا تموت ولئن بدت عليها دلائل الموت فى أزمنة الاضمحلال فما تلك الا بؤس تزول وحال ستحول . الأمة تصح ثم تعتل ثم تصح ، تتجدد من حيث تبلى وتقوم من حيث تسقط . ومن هذا تعلم ان العلم والبيان خلقا ليكونا حرب الأوهام ، ونورا يخرج اليه الأمم من الظلمات ، وان حاملهما مطالب بالعمل ، والدعوة الى العمل حتى النفس الأخير من الحيـــاة ، فمن ثبط هممكم عن علمائكم وعظمائكم ، فالووا الوجوه عنه ، وانفروا بالاسماع منه ومن دعاكم الى حياة فذلك داعى الخير فاستمعوا له وانصتوا وأولى بالذين يتصدون لفك الأمم وتحرير الشعوب ان يعلموها ان قيود الحديد لا تعالج الا بمبارد الحـــديد والعقل لا يقاوم الا بالعقل والقوة لا تستدفع الا بالقوة .

ـ وكيف تستدفع القوة والاحتلال رابض ؟

ـ علل الأمم يابنى باطنية لا يرجى فيها الشفاء حتى تعالج فى مواطنها ، وكل ضعيف الركن مضطهد وهذه سنة تسرى على الجماد والنبات والانسان والحيوان . فالجبل يجذب اليه الذر ولا يجذب هذا اليه الجبل والسرحة تزهق الحشائش ولا تزهقها هذه والذئب يفترس الحمل ولن يكون له فريسة وكذلك الناس ، وهب ان الملك ادوارد وقيصر والآخرين ملكوا علينـــا البحـــر بالاساطيل ثم ملكوا البر بالجيوش الزاحفة ، أكانوا قادرين على تفريق كلمتنا ان كان لها منا جامع أو تضييع حقنا ان كان له منا

طالب ، أم كانوا ضاربين على أيدينا ان لا تتداول أشياءنا فيما بيننا ؟ ننشط الصانع منا بالاقبال ونشجع التاجر بالتهافت على بضاعته . ان علمنا على أهل الصناعات منا نقصا ، تجملنا بنقصهم حتى يزول فتجملنا بكمالهم فانا لا نزال عراة حتى نلبس مما حكنا ولا نزال حفاة حتى تنعل أيدينا أرجلنا ولا نزال مشاة حتى نركب فيما صنعنا ولا نزال نتوسد الثرى حتى نسكن ما بنينا فان لم نفعل كنا أمة عارية كل أشيائها عارية وأعلم ان الاحتلال الذى تستعظم أمره لا يشقى بمعاكس فعال عشر معشار مايقيمه ويقعده ويضايقه ويحرجه أخذنا بالصناعة والتجارة أخذ الأمم الناهضة الراقية ، لأن الاستعمار يدخل اليوم كما يدخل التجار فكل بلاد يحكمها الأجنبى فى هذا الزمن انما يحكمها فى الحقيقة بذراع مرتفعة من الصناعة ويد قوية من التجارة .

ـ ما رأس مال الأمة اذن أيها الأستاذ ؟

ـ اللغة رأس مال الأمة فى العلم والعرفان والدين رأس مالها فى التربية والأخلاق فاجعلوا المحل الأول فى مدارسكم لهذين فالثمرات انما تأتى بقدرهما ، والانسان اذا علم كان انسان العين واذا جهل كان انسان الغابة ، والعلم ان لم يؤسس بالتربية كان لحامله محنة وللناس فتنة ، فاجمعوا بينهما في الدار ثم فى المدرسة ثم فى الحياة ، تلك المدارس الثلاث الكبر . فاما الدار فالأستاذ فيها المرأة ، وأما المدرسة فالمعلم فيها الرجل وأما الحياة فالمربى فيها الزمن . فابدأوا بالنساء فعلموهن فى الصغر يعلمنكم فى الكبر ، وربوهن فى الطفولة ، يربينكم فى الكهولة ، فالسقى بعد الغرس والتربية قبل الدرس .

ـ وما الغاية التى نسعى اليها من طلب العلم ؟

ـ محب العلم يطلبه لذاته ، وهذا أول التوفيق فى طريق

التحصيل وسبب النجاح الأوثق لأن النفس حيث رضاها وحيث يجعلها هواها ، ومن رضيت نفسه بالعلم قسما من أول يوم وامتلأ فؤاده من حبه اقبل عليه وضن به وانقطع له وألفى التعب راحة فى تحصيله واستوى عنده السلامة والعطب فى سبيله ثم لا يلبث العلم أن يعرفه قدر نفسه وأنه ما خلق فى هـــدا التقويم ســـدى ولا ساد نوعه على هذا الوجود عبثا ، فتأخذه من ذلك عزة بالحق وتنزل نفسه فى عينه منزلتها الحقيقية ، فيطلب العلم لهـــا ، ويستكثر منه لأجلها ، ويجرى فيه الى الغايات فى سبيلها ، لما استقر عنده من أن العلم يحيى النفوس ويهـــذبها ويطلعها على الحياة وأسرارها ويوصلها الى كنز أغوارها ويسهل لها محياهـــا ويهون عليها الفواجع في دنياها ، وهذه هى المنزلة الثانية فى العلم يقف عندها سواد العلماء ولا يجاوزها الا أحاد ، فيعملون العمل العظيم ، ثم يموتون عن تراث فى الفضل جسيم ، من بنيان يخلدون أو حكمة يؤيدون ، أو مجد يشيدون أو فن يجددون وهذه هى رتبة الامتياز بالاختراع ، ولا يقال عن أمة أنها حية حتى يبلغ أفراد من بنيها هذه الرتبة • فليس العلم لك بسفر ، حتى يكون لك فيه سطر وليس الأدب لك كتابا حتى تزيد فيه بابا •

ـ وانبرى طالب آخر يسأل / ما هى الفضيلة أيها الاستاذ؟

ـ ترك الرذيلة •

ـ وما الرذيلة ؟

ـ السكنى فى دار الجهل والبطالة فى الشباب •

ـ فما الحق وما الباطل ؟

ـ الحق نبى قليل التبع والباطل مشعوذ كثير الشبع •

ـ والقضاء ؟

ـ محكمة ظاهرية ألجأ اليها فساد المحكمة الباطنية .

ـ والصالحون والمصلحون ؟

ـ الصالحون يبنون أنفسهم والمصلحون يبنون الجماعات .

ـ وما قيمة الشهرة ؟

ـ تغطى الشهرة على العيوب ، كالشمس غطى نورها على نارها .

ـ فما الشباب وما المشيب ؟

ـ الشباب أعراس الجمال والمشيب مآتمه .

ـ انى أحب العزلة كما أحبها البعض فهل هل فضيلة أم رذيلة ؟

ـ يا أخا العزلة .. انت لو طرت عن الناس ما وقعت الا عليهم .

ـ وما الحكمة ؟

ـ الحكمة مصباح ، يهديك حتى فى وضح الصباح .

ـ وتشجع « العاصى » ثم سأل : من طريد الحياة ؟

ـ من خطبها بلا عمل وصحبها بلا أمل .

ـ فما الموت ؟

ـ أول الخوف وآخره (١) .

---

(١) بعض هذا الحوار كتبه فى شيطان بنتاعور وبعض من حكمه التى سجلها فى كتابه اسواق الذهب .

بداية ونهاية

كان يوم الخميس الموافق ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٤ يوما مشهودا ، فقد أقام أعضاء البرلمان احتفالا بكازينو سان استيفانو وذلك لتكريم سعد زغلول بمناسبة نجاته من حادث الاعتداء عليه وتقدم حافظ ابراهيم يلقى قصيدته واستعان بيديه ورأسه فى الالقاء :

الشعب يدعو الله يازغلول	**ان يستقل على يديك النيل**
ان الذى اندس الأثيم لقتله	**قد كان يحرسه لنا جبريل**
النسر يطمع ان يصيد بأرضنا	**سنريه كيف يصيده زغلول**
فاوض فخلفك أمة قد أقسمت	**الا تنام وفى البلاد دخيل**
النيل منبعه لنا ومصبه	**ما ان له عن أرضها تحويل**

فلم يصنع شيئا ، ولم تنفعل الجماهير ، ولم تتحمس حتى للالقاء ، لا شيء أبدا اللهم الا ابتسامة علت الشفاه وغابت سريعا عندما قال « سنريه كيف يصيده زغلول » تورية لطيفة ولكن أين حافظ الذى كانوا يستمعون اليه منذ أكثر من عشر سنوات فيلهب أكفهم بالتصفيق ؟ وتقدم على الجارم يلقى قصيده شوقى، وتدفق الصوت هازجا :

نجا وتماثل ربانها	**ودق البشائر ركبانها**
تحول عنها الأذى وانثنى	**عباب الخطوب وطوفانها**
فيا سعد جرحك ساء الرجال	**فلا جرحت فيك أوطانها**

فسرت النشوة الى الحاضرين .. نشوة ركاب السفينة التى اصطدمت بالأمواج المتلاطمة ثم تحول عنها الأذى ونجت ونجا ربانها

فتعالت أنغام البشائر ، وطبول الافراح . ان الصورة والموسيقى المصاحبة لها بلغت حد الروعة وتصايح الناس أعجابا بينما استمر المنشد :

ارى مصر تلهو بحد السلاح	ويلعب بالنار ولدانها
وما الحكم ان تنقضى دولة	وتقبل أخرى وأعوانها
ولكن على الجيش تقوى البلاد	وبالعلم تشتد أركانها
الى الخلق انثر فيما أقول	وتأخذ نفسى أشجانها

واشتد التصفيق ، واستعيدت الأبيات فقد مست مكان الداء ، وأخذ الناس ينظر بعضهم الى بعض وقد اهتزت رءوسهم بالموافقة على كل كلمة وزموا شفاههم كأنما امتدت اشجان شوقى اليهم وهو ينظر الى الجيل الجديد ، الأمل الجديد ، البناء الجديد فيجد جانب الاخلاق وشيك التصدع وتعالى صوت الجارم :

ولن نرتضى ان تقد القناة	ويبتر من مصر سودانها
وحجتنا فيهما كالصباح	وليس بمعييك تبيانها
فمصر الرياض وسودانها	عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه	وريد الحياة وشريانها
تتمم مصر ينابيعه	كما تمم العين انسانها
واهلوه منذ جرى عذبه	عشيرة مصر وجيرانها
وكم من أناك بمجوعة	من الباطل الحق عنوانها
ولكن رءوس لأموالهم	يحرك قرنيه شيطانها

أحمد الزين ـ ما رأيك يا بشرى ؟

عبد العزيز البشرى ـ الحقيقة ان حافظا قد انتهى من زمن ، انتهى منذ عين بدار الكتب ، فقيدته الوظيفة بقيود غليظة حتى ماتت ثورته وحماسته ، كان شعلة فانطفأت ، اطفأها بيده .

لقد كانت أمامه فرصة ذهبية حين نفى شوقى ، كان يستطيع ان يكسب جمهوره فقد أصبح الصوت الوحيد القوى فى مصر ولكنه صمت حتى مل الناس صمته وانصرفوا عنه ، آثر الكسل على النشاط . حتى اذا ارسل شوقى أبياته من وراء البحر فى الحنين الى مصر ، هب الشعراء يلوذون بأميرهم ويتوجعون له ، ومن ورائهم الجماهير تحلم بإيابه .

ـ أتعرف يا بشرى أنه لم يقرأ كتابا واحدا منذ عمل فى دار الكتب ، فكأن الأسفار الكثيرة العدد وراء الزجاج السميك فى مخازن لا أول لها ولا آخر قد ألقت في نفسه السأم ، ولولا ذاكرته العجيبة لما استطاع ان يجتر من محصوله الذى طال به العهد . والله لو حكمونى فى مليون جنيه لاعطيت « شوقى » تسعمائة الف منها واعطيت « حافظ » ما بقى .

ـ مسكين حافظ ، ان نفسه تهفو الى تلك المنافسة القديمة، كان يأتى احيانا ، حاملا قصيدة ليقرأها لنا ثم يعقب قائلا : لا يستطيع شوقى ان يقول مثل هذا ، ولا يعدم واحدا من الحاضرين يوافقه على قوله .

/ ـ كلما فرق بينهما أصحاب الصحف الصفراء بما يلمزون به حافظا فى شعره ، وهم يدركون ان حافظا سوف يشير الى شوقى بأصابع الاتهام ، حاول زميلنا فى دار الكتب «أحمد محفوظ» ان يستل ضغينة حافظ ، فيختلق له الأحاديث فى تكريم شوقى له وحبه اياه ، وهو طيب القلب يصدق كل ما يقال له كأنه طفل صغير ، ويحمل هذا الاختلاق نفسه الى شوقى ، ولكن سرعان ما يتغير حافظ . تغيره هذه الكلاب النابحة فى أوراقها الصفراء ، فيعود حافظ الى ذم شوقى وشعر شوقى . والحقيقة ان شوقى لم يذكره بسوء قط ، وحافظ على النقيض من ذلك ، فهو اذا غضب من وشاية مسموعة أو مكتوبة ، انهال عليه بألفاظ كالحجارة . ومن

ومن العجيب أن حافظا اذا جلس الى شوقى لوح له فى حديثه أنه من رعاياه ، ولكنه اذا خلا الى نفسه أو الى جماعة أنكر هذا وقال : منه أمير ومنى أمير ، كما قالت الانصار للمهاجرين يوم سقيفة بنى ساعدة .

واذكر مرة أنا كنا فى حجرة التدخين بدار الكتب ، نستمع الى حافظ وهو ينشدنا قصيدة جديدة فما كاد يلمح احمد محفوظ داخلا حتى قطع انشاده وصاح مزمجرا : أخرج ياجاسوس تريد ان تسرق معنى أو معنيين لتذهب بهما الى شوقى ؟ فخجل محفوظ ، ولكن سوء الموقف دفعه الى القحة فقال : يسرق منك أنت ؟ فعاد الطوبجى القديم الى قذائفه ، فقال له محفوظ : على أية حال ان شوقى يدعوك الى مائدته اليوم للغداء ، فلعن شوقى ومائدة شوقى وقال محتدم السباب . والله لو مت من الجوع ما ذهبت ، ولم نلبث حتى دخل حسين شوقى يحيى حافظا فتأمله ببصره الكليل المحتجب بالمنظار ثم تبينه فاهوى الى خديه الناحلين ورحب به ترحيبا صادقا فدعاه الى الغداء ، فما أسرع ما وافق متهللا فلما انصرف حسين شوقى برر حافظ تناقضه بقوله : انى احب أولاده ، واتصلت بينهما المودة (١) .

ـ ولكن شوقى أيضا له فصول باردة ، اتذكر يوم كتب أحد الأدباء مقاله عنهما بعنوان « شوقى وحافظ » فبلغ حافظا ان شوقى غضب لذكره معه فى مقال واحد ، لأنه لا يرى حافظا ندا له ، فقال حافظ يومها : لماذا يغضب ؟ اننا متلازمان ، أما سمع الناس يقولون « زفتى وميت غمر » فهل غضبت من ذلك زفتى أو غضبت ميت غمر ؟ ويقولون « سميط وجبنه » و « خيار

---

(١) حياة شوقى لاحمد محفوظ ص ١٦٠/١٦٣ .

وفقوس » و « عسل وبصل » ثم يعقب على ذلك بقوله : « أما من يكون العسل ومن يكون البصل فهذه مسألة أخرى (٢) » .

وقد تجنى على حافظ مرة أخرى عندما تقدم رئيس تحرير احدى المجـــلات الى شوقى وطلب اليـــه أن يختص المجلة دون الصحف المصرية بنشر قصيدة على ان تمنحه المجلة مبلغـــا من المال يوجهه الى ما يشاء ، فقبل شوقى ، ونشرت المجلة هذا الخبر وذكرت ان شوقى تبرع بالمبلغ لجهة خيرية ، وقرأ حافظ الخبر فاشتعلت الغيرة فى صدره وأسرع يهرول بعصـاه الى « محمد محمود » وهو صديقه ، فتأثر « محمد محمود » ووعده بأنه سـيسعى لدى المجلة لتشـترى قصـيدته مثلما اشترت قصيدة شوقى . وسمع شوقى فغضب وذهب الى المجلة لسحب القصيدة بعد الاعلان عنها ، فاضطرت المجلة الى تنحية قصيدة حافظ عن النشر ، وساء ما بين الرجلين ولكن نفس حافظ الطيبة ما لبثت أن غفرت .

ــ على كل حال ، لقد استكان حافظ اخيرا الى حظه ، وأخذ يترنم بشعر شوقى ، وكثيرا ما قال لنا : أنا أحسد هذا الرجل على أبيات فى سينية الاندلس ، وعلى أبيات فى ذكرى كارنارفون ، واعترف له بالتفوق فى قصيدته التى قالها في حفل « عكاظ » ، ومن قبل اعترف شعرهما .

ــ صدقت .

---

(٢) الفكاهة في مصر لشوقى ضيف ص ٧١ .

كالصخرة لا تحطمها الوعول ، وانما تحطم قرونها ، يحاول شباب النقاد أن يصعدوا على أكتافه الى دنيا الشهرة ، ولو سلكوا طريقا أخرى لمد لهم يد العون ، ولكنهم تخيروا سبيلا كثيرة المزالق، انها أخلاقيات النقاد المعاصرين كما قال له صديقه زكى مبارك . ولكنه هو الذى عود أكثرهم التطلـــع الى موائده وجيبه ، وكلما احتاجوا طافوا حول شعره يتلمسون ما فيه . لقد صدق الرافعى حين وصفه بانه أصبح كالجواد الاصيل ينافس حتى ظله ، انه يغار حقيقة على شعره ، غيرة الكريم على عرضه ولذلك يخرس ألسنتهم ويقصف أقلامهم بالهدايا والهبات مع انه يعلم ان أولئك المرتزقة قد شوهوا النقد الأدبى أبشع تشويه وقلبوا الحقـــائق الأدبية قلبـــة كريها ، بمعاولهم الصغيرة التى يحاولون بها الهدم لا البناء(١) .

نعم أخلاقيات النقاد ، أيبلغ ببعضهم الزيف الى هذا الحد ؟ ثم يخجل أن يكون شـــجاعا فلا يعلن اســـمه ؟ ان ادعاءه مضحك مكشوف ولكنه مكشوف للخاصة فقط ، أما العامة فسوف يصدقون ان شوقى قد سرق بيته الشهير : « وانما الامم الاخلاق مابقيت... فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا » وسرقه ممن ؟ من شاعر اسمه «ابن رعلاء العنانى» حيث يقول :

وانما الامم الاخلاق ما صلحت   فان هم فسدت أخلاقهم فسدوا

والرعلاء مؤنث الارعل والارعل هو الاحمق والرعـلاء الحمقاء

---

(١) ابولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٧٠

وابن الحمقاء لا يعظ الناس في الأخلاق ولكن من من العامة سوف يكلف نفسه السؤال أو البحث عن شاعر مزعوم يدعى ابن رعلاء (١)٠

لقد تألقت في الآونة الاخيرة جماعة من هؤلاء الشباب تآمرت على شيوخ الادب فقسموا أنفسهم واختص كل شاب بشيخ ليبنوا على أنقاضهم أمجادهم ولكنهم لن يصنعوا شيئا، وحين يدركهم اليأس سوف ينصرفون الى تشييد أنفسهم فيفلحون في الظهـور ٠ وهذه شنشنة قديمة ، فقد قال بشار : لقد هجـوت جريرا فلو أجابني لكنت أشعر الناس وهذا بالضبط ما ينبغي أن يصنعه ، فلن يجيب واحدا منهم ولكنه سوف يطلق أصحاب الصحف الصفراء مثل «فؤاد الصاعقة» فهو لا يجاري في سلاطة لسانه ، يختار كلاما مسجوعا مسموما ينهال به على الضـــحايا ، في براعة فنية ، والشيخ فهيم صاحب صحيفة عكاظ ، فهو دائم الاحتفاء بقصائده ينشرها متوجة بهالات من الثناء عليه واللعنة على أعدائه ، أو غير هذين فكلهم يحوم حوله اما رغبة واما اعجابا (٢) ، وان كانوا أحيانا يجرون البلاء عليه، فهو لا ينسى يوم هاجمت «عكاظ» العقـــاد وزميله المازني وعيرتهما بالتخلف والتقصير ، ثم أشادت بشعره فكانت النتيجة ان الف العقاد والمازني كتيبهما «الديوان» ٠ الواقع ان للعقاد عقلية ناضجة ولكن طموحه المبكر هو السر وراء كل اندفاعاته وتحامله ، مـع انه يعلم جيدا ان الميدان سيخلو له يوما ٠ لقد جاوز في تحامله كل حد في ذلك الكتيب ، وانصب سوط عـذاب ، يتهمه بالتفـــكك والاحالة والتقليد والولوع بالاعراض دون الجواهر ٠ وهو محق في جـانب ، مخطىء في جانب آخر ، أليس يقول : « أما التفـكك فهو أن تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيات متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقـــافية وليست هذه الوحدة المعنوية الصحيحة اذ كانت

(١) شوقي وحافظ لطاهر الطناحي ص ٢٠

(٢) حياة شوقي لاحمد محفوظ ص ٦٨ ٠

القصائد ذات الاوزان والقوافي المتشابهة أكثر من أن تحصى ، فاذا اعتبرنا التشابه في الاعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية جاز اذن أن ننقل البيت من قصيدة الى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضـــوع ، وهو ما لا يجوز · ولتوفية البيان نقول ان القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه أو الصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث اذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخـل ذلك بوحدة القصيدة وأفسدها فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقـام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره في موضعه الا كما تغنى الاذن عن العين ··· » (١)

كل هذا حق ولكنه عند التطبيق يتخـــير قصـــيدته في رثاء مصطفى كامل « المشرقان عليك ينتحبان » فيجرى عليها تغييرا في ترتيبها ويخرج بنتيجة يبغيها ، وهي فقدان الوحدة الفنية فهو يريد أن يشيع الخاطر في القصيدة ، فلا ينفرد كل بيت بخاطر فتكون كالاشلاء كما يقـــول · ولكن أليس من تحامله الفاضح أن يتخير قصيدة من قصائد الرثاء المليئة بأبيات الحكمة ؟ ومن طبيعة بيت الحكمة أن يستقل بمعناه وأن يستشهد الناس به منفردا · والواقع ان القصيدة العربية عموما تميل الى وحدة البيت الذى ينفرد بافادته حتى كانه كلام مستقل كما يقول ابن خلدون · ولعل ذلك يرجع الى طبيعة القافية نفسها ، لان السامع أو القارىء يحتاج الى الوقوف عند آخر كل بيت ، فلماذا يتوقف عنده ولا يعرض للشعر العربي عامة ؟ ثم هل يطبق العقاد هذه الوحدة في شعره ؟ ان شعره لايجمعه الا وحدة الموضوع ، فهو يقرأ النظريات النقدية الغربية التى تلائم الشعر الغربي ثم يحاول تطبيقها على الشعر العربي ، ويفشل هو نفسه لان طبيعة الشعر العربي الغنائية تجذبه جذبا لا فكاك منه ·

---

(١) الديوان جـ ٢ ص ٤٥ ·

ثم ينتقل العقاد بعد ذلك الى الاحالة فيقول : « أما الاحالة فهى فساد المعنى ، وهى ضروب فمنها الاعتساف والشطط ، ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ، ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه وخلو مغزاه » •

كلام جميل ، ولكن كيف يطبقه العقاد ؟

يزجون نعشك في السناء وفى السنى فكأنما فى نعشك القمران

« وزعيمنا الفقيد كان فردا والقمران اثنان فمن كان الثانى فى النعش ؟ وما هذا الرثاء الذى لا يتم الا بالقاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التى تزلزل الافلاك ، فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم فى كل حالة بانه كالشمس والقمر وبين الطفل الذى يمدح كل ما يعرفه بانه سكر » •• ما هذا التعنت ، وما تحكيم المنطق العلمى فى نقد الشعر واتخاذ السخرية وسيلة للنقد ؟ وهل يفهم من البيت ان فردا آخر كان الى جوار مصطفى كامل ؟ المفهوم دون شك أن الظلام الذى ضل فيه الناس وحاروا بعد موت الزعيم الوطنى يجعل الناس تتشك فى أن كل نور كان يضىء لهم الحياة قد انطفأ بانطفاء حياة مصطفى كامل حتى نور الشمس الذى يضىء نهار حياتهم وحتى نور القمر الذى يضىء لياليهم • على أن هذه النظرية النقدية قديمة نظرها النقاد العرب ، وهى نظرة عقيمة الى الشعر تهمل العاطفة والمجاز » وعندما سئل أبو تمام أن يملأ للناقد كأسه من ماء الملام بعد قوله « لا تسقنى ماء الملام ، أجاب ، اذن فاعطنى ريشة من جناح الذل ، يشير الى قوله تعالى « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » •

وينتقل العقاد بعد ذلك الى التقليد أو السرقة ، فينظر نفس النظرة النقدية القديمة ، ويحاول أن يثبت أن كثيرا من أبيات القصيدة مسروق من الشعراء العرب القدماء • وليت العقاد جارى

النقاد العرب فى قضية السرقات اذن لأدرك تقسيمهم لتوارد الخواطر والتأثر والسلخ والسرقة وغير ذلك • والسرقة فى عرفهم هى أخذ المعنى بلفظه أو ببعض لفظه وفرقوا بينهما وبين التأثر لأن الاطار الثقافى ومحصول الشعراء من الثقافة الشعرية لابد أن يسمح بتسرب بعض الصور المخزونة أثناء عملية الابداع ، والفضل بعد ذلك لمن يبدع فى الصياغة • ومن المؤكد أن بعض الفنون كالمديح مثلا قد احترقت من زمن فلم يعد أمام الشاعر المتأخر الا أن يعيد عرض المضامين القديمة فى شكل جديد وقد صنع ذلك المتنبى وغير المتنبى ، ولكنه التحامل من العقاد •

وأخيرا يتناول الناقد بعد ذلك الولع بالاعراض دون الجواهر ، ويقصد به التفاهة فى المعنى غير انه يعود فيحكم المقاييس العقلية فى أحاسيس الشاعر ، فيخرج الأمر فى الحقيقة من النقد المنصف الى التعسف المقيت ، فهذا البيت الذى استحسنه كل النقاد وسار مسرى الأمثال على ألسنة الناس جميعا :

دقات قلب المرء قائلة له
ان الحياة دقائق وثوان

« معناه فى نظره أن السنة أو مائة السنة التى قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق وثوان وهذا هو جوهر البيت فهل اذا قال قائل اليوم أربع وعشرون ساعة والساعة ستون دقيقة يكون فى عرف قراء شوقى قد أتى بالحكمة الرائعة ؟ » أليس فى اقتران دقات القلب بدقات الساعة براعة تهدينا الى واجب الضن بالحياة ، وتذكرنا ان كل دقة تعنى قدرا من حياتنا قد وضع خلفنا بعيدا عنا ؟

واذا كان هذا التعسف واضحا فانه أوضح فى مقالاته فهو يهاجم شعر الأحداث أو شعر المناسبات كما يسميه ويهاجم كل شعر قيل فى كل مخترع حديث فهو فى نظره تجديد قاصر لانه

شعراء أوروبا وأمريكا لم يجتمع ممـا نظموه فى وصف المخترعات ما يملأ كراسة صغيرة ولان «جوته» لم يكتب بيتا فى وصف الزلازل السياسية التى أحاقت بألمانيا فى عصره • فهـو يستلهم فى حكمه الصورة الادبية الاوربية وربط الشعر العربى بعجلة الشعر الغربى تحكم وهو بالضبط ما يعيبه عندما يقلد شاعر معاصر شاعرا عربيا قديما ؛ فهو تقليد على أية حال • ولكن تقليد الشعراء العرب أقرب الى نفسيات الناس ان كان لا بد من التقليد وهذا ما اسقط شعر شكرى والمازنى •

ان الشباب من النقاد يتتبعون شعره ، كل قصيدة ينتظرونها ليكتبوا مقالة عنها ، ميخائيل نعيمه يكتب عن قصيدة العودة من المنفى وطه حسين يكتب عن شـيكسبير وشـبان آخرون يكتبون عن أم المحسنين ويتوقفون عند قوله « وقفى الهودج فينا ساعة » فيقولون انها لم تعد فى هودج وانما عادت فى سيارة ، فلا زمام ولا ستر ولا شيء ، فلماذا الارتداد الى الوراء ، الى الجاهلية وعصر الناقة والجمل ؟ عجيب أمرهم هل على الشاعر من بأس فى استخدام ذلك كله ؟ انها رموز منبعثة من الماضى السحيق تكسب الموقف جلالا ، واعجب مافى الامر ان الشعراء الغربيين أنفسهم يستخدمون أشياء يونانية ولاتينية كثيرة ولا يلومهم أحد من النقاد لانهم يعرفون قيمة تلك الرموز فى اضفاء جو خيالى فيه القديم والجديد وفيه الماضى والحاضر •

وشعر المناسبات الذى كثر الحديث حوله ، ما خطبه ، ألم يكتب ميخائيل نعيمه فى « الحرب العالمية » ؟ ومع ان القصيدة من شعر المناسبات فقد لقيت استحسانا من النقـاد لان العاطفة فيها دفاقة ، فهل من الممكن أن تحـدث الاحداث الضخام وعلى الاخص الاحداث الوطنية فلا ينفعل الشاعر بها ولا يعبر عنهـا لان شاعرا ألمانيا لم ينفعل باحداث قومه ؟ ان الامر كله لا يعدو أن يكون صراعا بين شيوخ الادباء وبين شبابه • ولـكن الغريب أن ينبعث صوت

شاحب من شيخ مهدم في العراق • فقد سمع ان الشاعر الزهاوي كتب سلسلة مقالات ينقد فيها قصيدته في رثاء «اسماعيل صبري» حين يقول :

أجل وان طال الزمان موافي
اخلى يديك من الخليل الوافي

ما انت ياديننا ارؤيا نائم
ام ليل عرس ام بساط سلاف

وترى الجماجم في التراب تماثلت
بعد العقول تماثل الاصداف

فالبيت الاول فيه ابتداء بالنكرة لا يجوزه النحويون، والثاني فيه من الحشو البارد مالا يتجرع حتى في حمارة الصيف ، والثالث فيه مفارقات عجيبة ، وهكذا بقية الابيات ولكنه لحسن الحظ قد حاول أن يعارضها فانكشف وسقط •وتصدى له طالب اسمه «بهجت الأثري» على صفحات نفس الجريدة التي نشرت نقده ، بل لقد نشرت الجريدة نقد الطالب لقصيدة الزهاوي ورده عليه تحت عنوان « بين اديبين » فرفعت الطالب الى مستوى الشاعر وهبطت به الى مستوى الطالب ، والحقيقة انه طالب ألمعي ، فقد نبهه الى ان النحويين يجوزون الابتداء بالنكرة اذا كانت هناك فائدة ، وصحح له أخطاءه فقال ان هدف شوقي من رؤيا النائم وليل العرس هو اسراع الزمن وليست اللذة كما وهم ، ثم انقض على قصيدة الزهاوي يبين مافيها من سخف ، ووقف طويلا عند قوله معارضا البيت الثالث : «والقحف بعد المخ غيبه الثرى» متقززا من عبارته ، ثم القمه حجرا فلم يستطع ردا(١) •

---

(١) جريدة العراق ١١ حزيران ، ٩ آب ١٩٢٣ •

واذا كان بهجت الاثرى قد تكفل بالزهاوى ، فقد تصدى مصطفى صادق الرافعى لمن أسموا أنفسهم بالمجددين ، الذين يحاولون الثورة على الادب العربى . وقد وقف كتابه « على السفود » ونذره للسخرية من العقاد ، فتقده نقدا جارحا ، وأظهر زيف ادعاءاته في نظرياته النقدية ، وفشله فى تطبيقها عمليا فى شعره ، ففى شعره من السرقات والاحالة والاخطاء اللغوية والانهيار والبرود ما يفوق كل حد ، أما كتابه « تحت راية القرآن » أو « المعركة بين القديم والجديد » فقد ركز فيه الهجوم على طه حسين وان لم يعف العقاد ولا غيره من المخدوعين والمغرورين من بطشه . فهو يشبه انصار الجديد برجل اسمه « أبو خالد النميرى » تروى كتب الادب انه ولد فى البصرة ونشأ بها ثم خرج الى البادية فأقام أياما يسيرة وعاد بعد ذلك يتكلف لغة الاعراب ، حتى لقد روى انه رأى الميازيب على سطوح الدور فأنكرها وقال : ما هذه الخراطيم التى لا نعرفها فى بلادنا ؟ وهكذا ترى أنصار الجديد فتعرف منهم اباخالد الفرنسى واباخالد الانجليزى وغيرهم ممن ينكرون الميراث العربى بجملته فى لغته وعلومه وآدابه وهم على ذلك أعجز الناس عن أن يضعوا جديدا. وهكذا رد الرافعى سهام النقاد الى نحورهم أما هو فليس ناقدا حتى يدخل المعركة انه شاعر وحسب وسوف يصنع ما صنع جرير ولكنه سوف يغيظهم دائما بانتشار شعره وعجزهم عن اللحاق بغباره والفخر بتلك المكانة المقدسة فى قلوب الجماهير :

رواة قصائدى فاعجب لشعر
بكل محلة يرويه خلق

تتويج

كان يحس بغبطة شديدة فى ذلك اليـوم وكأنما سرت دماء الحياة فى جسده فتية ترد اليه شـبابه من جديد • وهو يعلم ان الاديب قلما كرمه الناس فى حياته مهما احترق من أجلهم حتى اذا مات أوقدوا الشـموع له ، وحجوا اليه فى ذكراه ، ولكن صديقه أحمد شفيق أنبأه ان كثرة من أدباء مصر قد اعتزموا اقامة احتفال كبير على نطاق عربى تكريما له ، انه أبلغ رد على أولئك المتعسفين من النقاد ، وأروع جزاء يناله •

كان ذلك فى أواخر اكتوبر عام ١٩٢٦ حين اجتمعت نخبة من المفكرين فى دار الرابطة الشرقية ، وقررت تأليف لجنة باسم «اللجنة العامة لتكريم شوقى» ضمت طه حسين وأحمد أمين ومحجوب ثابت والآنسة مى زيادة وفارس نمر وعبد العزيز البشرى وأحمد حافظ عوض وأنطون الجميل وغيرهم ، وانبثقت منها لجنة تنفيذية قامت بتوجيه نداء الى أبناء الوطن العربى كله حددت فيه يوم ٢٩ ابريل عام ١٩٢٧ موعدا للاحتفال الذى يستمر أسبوعا كاملا ، وطلبت فى ندائها أن تصلها الابحاث التى سوف تلقى فى المهرجان • ولم تمض أيام على هذا النداء حتى وصلت اللجنة أنباء عن تأليف وفود رسمية وشـعبية من أبناء الاقطار العربية وأدبائها ، من فلسطين ولبنان وسوريا والاردن والبحرين وعدن ولحج والمهجر والمغرب وقرر منتدى التهذيب فى بغداد اقامة حفلة تكريم لشوقى فى نفس اليوم الذى يحتفل به فى القاهرة ، وارسال ما يلقى من كلمات للجنة التكريم العامة ، كما قرر المستشرقون البلجيك ايفاد الاديب فندنبرج نائبا

عن شعراء بلده ، ثم تألفت لجنة من الجمعيات النسائية لتمثيل المرأة في المهرجان(١) .

وتوالت الهدايا تعبر عن العرفان بالجميل ، وتقدير المواهب الفنية ، فأرسل أمير البحرين نخلة من الذهب وجناها من اللؤلؤ ، وبعث الاتحاد النسائي كأسا ذهبية ، كما قدم النادي العربي بعدن قلما من الذهب ، وقدم النادي العربي في بمباي ، علبة من الفضة داخلها اطار فضي حول قصيدة « قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا» ولكن أروعها جميعا وأكثرها دلالة ، كتاب تكريم من المجـــاهدين السوريين ممهور بدم الابطال(٢) .

وفي ١٥ فبراير عام ١٩٢٧ تشكلت لجنة مالية وأخرى تنظيمية وثالثة للحفاوة ورابعة لدراسة الابحاث والقصائد واختيار ما يلقى منها في المهرجان ، وقبل «سعد زغلول» رئاسة شرف الحفل ـ وكان الرئيس الفعلي هو «أحمد شفيق» ، ثم وافق مدير الجامعة « أحمد لطفي السيد » على اقامة تمثال لشوقي من البرونز يزاح عنه الستار في المهرجان (٣) .

وجاء يوم الافتتاح ، واجتمعت الوفود بدار الاوبرا ، وصدحت الموسيقى ، وكان يوم عيد كبير . وتقدم الاستاذ الجديلي نائبا عن سعد زغلول في القاء كلمته نظرا لمرضه ، فحيا الوفود الذين جاءوا معبرين عن أوثق الروابط الاخوية ، لتكريم الشاعر العظيم » وتمنى للمهرجان النجاح . واعقبه أحمد شفيق رئيس الحفل ، فألقى كلمة قال فيهـــا : « السلام عليكم يا امة العرب والسلام عليكم ياحماة

---

(١) ابى شوقي لحسين شوقي ص ١٤٤ ومابعدها .

(٢) اثنا عشر عاما فى صحبة أمير الشعراء لاحمد عبد الوهاب ص ٤٠ ومابعدها .

(٣) أعمالي بعد مذكراتي لأحمد شفيق ص ٥٦ .

الادب ، ها انتم أولاء قد اجتمعتم من مختلف الاقطار لتكرموا شوقي، وبعبارة أصح لتكرموا العبقرية في شخص رجل منكم يعود الى لغتكم بكل ما أحرز من فضل ، ويعود على أقوامكم كل ما أحرز من فخار . ليست الامم أيها السادة بكثرة عددها ، انما الامم بمن تخرج من رجال عظام وأولئكم ثروتها وأولئكم عزها وأولئكم ذكرها الخالد على التاريخ . فاذا اجتمعتم اليوم لتكرموا شوقي ، فان هـذا التـكريم ينطوي على معان عدة كلها سام وكلها نبيل : منها عرفان الجميل ، وان الامة تقدر عظماءها وتنزلهم من الاكرام منازلهم الحقيقة بالاعظام. ومنها تشجيع النابغين على العمل ، فان فتـــور الامم عن تشجيع عبقريتها من شأنه أن يدب الفتـــور الى هممهم ، والخطب في هذا عليهم دون الخطب على الامة جمعاء . ومنهـــا استدراج العبقريات الناشئة في نفوس الناشئين الى الظهور ، وهيهات أن يغريها شيء على التجلي والتدفق كما يغريها اكرام من تمت عبقرياتهم من العاملين . واننا اذا كنا في العالم الشرقي بوجه عام ، وفي العالم العربي بوجه خاص ، في حاجة الى الاستمساك بأسباب القوة فأشد حاجتنا في ذلك الى الاستكثار من عظماء الرجال .

وهذا شوقي عظيم من يوم ظهر ــ وهنا أزاح الستار عن تمثال ــ شوقي ــ عبقري من يوم نجم ، ولكم دوى صوته المرن بأغلى الشـــعر وأزكى الكلام ، ولكم جدد في لغة العرب وفسيح مجالها من بيان وأدب ، ولكم رقي بها مرقى كريما بين لغات العالم » .

كلام جميل يزيده احساسا بالسعادة ، انه يومه دون شك ولكنه لا يبغي كلمة تقليدية ، انه يبغي اعتراف الأدباء والشـــعراء بامارته للشعر ووضع تاج القصيد على رأسه ، وبذلك يتم لأول مرة في تاريخ الأدب العربي الاجماع على ريادة شاعر واحد للوطن العربي كله . ومن العجيب أن يكتفي العراق باقامة حفل في بغداد ولا يرسل وفدا يمثله في المهرجان ، ولعل الرصافي الضـحل الثقـافة ، أو

الزهاوى الشاعر التعليمى يطمع فيما يطمع فيه العقاد ، وترامى الى سمعه صوت « حافظ عوض » سكرتير المهرجان يردد :

« لقد وضع شوقى « مصر » فى موضع الزعامة الأدبية على كافة البلاد العربية ، وهو ما تغتبط به مصر الناهضة وتقدم من أجله لابنها « شوقى » شكرها وتكريمها ، ان معرفتنا هذه المنزلة لشوقى فى العالم العربى بأسره من مراكش غربا الى البحرين وما بين النهرين شرقا هى التى دعتنا الى أن ننتهز هذه الفرصة ، فنجعل من تكريمه مؤتمرا عربيا أدبيا ، تعد أيامه أعيادا للعلم والأدب » ٠

لقد اعترف حافظ عوض بالزعامة الادبية ، ولكنه مصرى ثم هو كاتب ، ليت هـذا الاعتراف كان من شـاعر عربى ، ولكن من ينافس شوقى من الشعراء العرب ؟ ليت هذا الاعتراف اذن كان من النقاد العرب ٠ لو اعترف محمد كرد على وهو النـاقد الفذ لتمت البيعة ، واصاخ السمع الى كلمات الناقد بينما كان صوته الخفيض يردد : « يحق لمصر اليوم أن تبالغ بالحفاوة بشوقى لنفوذ شعره الى أعماق قلوب العرب على اختلاف الاقطار والامصار ، فالشعر كما تعلمون ، ما برح منـذ الزمن الاطول يثير نفوسا ويهذب عواطف ويجمع الاهواء الممزقة ويثقف عقولا ويلطف أذواقا ٠ والحق يتقاضانا دينا أسلفه بعض الشـعراء لنهضتنـا الأخيرة ، وأن نذكر لهم محامدهم وننوه ببعض مآثرهم ، وفى طليعتهم حامل لوائهم المجدد، عزيزنا وعزيز العرب : شوقى » انه اقرار صريح من الناقد العربى الكبير ، فلم يبق اذن الا الشعراء ، وعلى رأسهم دون شـك حافظ منافسه القديم ، أما مطران فقد تخلف عن السباق ، ولماذا نسبق الاحداث ، انه ينشد أبياته :

يا باعث المجد القديم بشعره
ومجـدد العربية العرباء

انت الامير ومن يكنه بالحجى
فله به تيه على الامراء
اليوم عيدك وهو عيد شامل
للضاد فى متباين الارجاء
فى مصر ينشد من بنيها منشد
وصداه فى البحرين والزوراء

ووقف حافظ فتطلعت اليه الانظار ، ان الناس جميعا يعرفون تاريخ المنافسة بينهما ، فقد كانا دائما جوادين أصيلين ، والوفود العربية مشوقة الى ما يقوله حافظ ، فهم يحبونه كما يحبون شوقى، وهو لا ينسى يوم ذكرت الصحف احتفاء لأهل فلسطين بحافظ حين زارها ، فاقبل عليه شيخ مهدم يقبله ويبكى ثم يردد : الحمد لله الذى رأيتك ياحافظ قبل أن أموت · وانساب صوب حافظ كما ينساب النغم من أوتار الكمان :

بلابل وادى النيل بالمشرق اسجعى
بشعر أمير الدولتين ورجعى
أعيدى على الاسماع ما غردت به
يراعة شوقى فى ابتداء ومقطع
براها له البارى فلم ينب سنها
اذا ما نبا العسال فى كف أروع
تملكت من ملك القريض فسيحه
فلم تبق ياشوقى لنا قيد اصبع ··
أمير القوافى قد أتيت مبايعا
وهذى وفود الشرق قد بايعت معى
فغن ربوع النيل واعطف بنظرة
على ساكنى النهرين وأصدح وأبدع

وتوقف عن الانشاد وتقدم من شوقى الذى كان يجلس قريبا منه ، ومد يده مبايعا ، فعانقه شوقى وأخذ الموقف الناس فصمتت حينا ، ولكنها لم تلبث ان أفاقت فدوت القاعة بالتصفيق والهتاف، حتى اذا سكت الهتاف كانت الدموع تترقرق فى عينى شوقى ، وهو يدفع قصيدته الى الاستاذ محمد توفيق دياب ٠

مرحبا بالربيع فى ريعـانه
وبأنـواره وطيب زمـانه

رفت الارض فى مواكب آذا
ر وشب الزمان فى مهرجانه ٠٠

أين نور الربيـع من زهر الشعـر
اذا ما اسـتوى على افنـانه

لم تثر امة الى الحـق الا
بهدى الشعر أو خطا شيطانه

ليس عزف النحـاس أوقع منه
فى شجاع الفؤاد أو فى جبـانه ٠٠

وهلل الحاضرون للابيات ، واستعادوها مرة ومرات ، انه أمير الشعراء ، ولا بد أن تكون قصيدته ذات مستوى فنى رفيع ٠ وأذا كان قد تحدث عن قيمة الشعر فى هذه المقدمة ، فالابيات التالية وصفية تنقل صورا سريعة لما حظى به من هدايا :

قلدتنى الملوك من لؤلؤ البحرين
آلاءهـا ومن مرجـانه

نخلة لا تزال فى الشرق معنى
من بداواته ومن عمـرانه

حن للشـام حقبة واليهـا
فاتـح الغـرب من بنى مروانه(١)

وحبتنى بمبـاى نصل يراع
افـرغ الود فيه من عقيـانه

انتضيه انقضـاء موسى عصـاه
يفرق المستبد من ثعبانه ..

ان حياءه يمنعه من المباهاة بامارة الشـعر ، فهو فى موقف يحلو فيه التواضع ، فلا فضل له فيما يقول لانه كالمغنى الذى وهبه الله الصوت الجميل وهو يدرك أن حافظا وغيره من الشعراء الكبار قد اعترفوا بانهم منذ اليوم أصبحوا من رعاياه ، ولكنه يجل قدرهم ويعرف ان الحظ كان يمكن أن يكون هنا أو هناك :

شرفت مصر بالشمـــوس من الشر
ق نجـوم البيـان من أعيانه

لست أنسى يداً لاخوان صـدق
منحونى جـزاء ما لم أعانه

رب سامى البيان نبه شـانى
أنا أسـمو الى نبـاهة شانه

كان بالسبق والميـادين اولى
لو جرى الحظ فى سـواء عنـانه

وتر فى اللهـاة ما للمغنى
من يد فى صفائه وليـانه

---

(١) اشارة الى أبيات الامير الشاعر عبد الرحمن الداخل فى النخيل الذى ذكره بوطنه .

ولكن قيمة فنه الحقيقية تتركز عند الجماهير فى تعبيره عن آلام وآمال الشعوب العربية التى ألفتها الجراح فراحت تبحث عن الصوت المعبر حتى وجدته فى شعره فهتفت له قبل أن يهتف له المؤتمرون :

كان شعرى الغناء فى فرح الشرق وكان العزاء فى أحزانه

وتتابعت الاحتفالات فى الايام التالية فى مسرح الازبكية وفى كازينو الجزيرة وفى غيرها وغنى عبد الوهاب وغنت أم كلثوم وتوالت البحوث والقصائد ولكنه كان فى نشوة عجيبة فهو مع الوفود بجسمه ولكن روحه وخياله كانا يهيمان فى اودية عبقريته، ويستعيدان لذة التتويج مرة ومرة ومرات ٠

فى الليل لما خلى

كانت « الكرمة » قد احتشدت بالزوار وازينت كعادتها أيام شم النسيم ، وفرقعت الضحكات حين قص عليهم شوقى ما صنعه حفنى محمود فى عبد الستار الباسل فالاثنان عضوان فى البرلمان وكانا يجلسان متجاورين حين احتدمت المناقشة فى أمر من الأمور وحدثت ضجة عالية هب على أثرها عبد الستار الباسل من نوم كان مستغرقا فيه وسأل جاره عن السبب فقال له حفنى محمود : « بعض الأعضاء تقدموا باقتراح الى المجلس يطلبون فيه تحريم ذبح الجمال » فغضب النائب الذى الف هذا اللحم هو وأجداده فى القبائل وطلب الكلمة من سعد زغلول ، ثم وقف يحتج على هذا الاقتراح . ففطن سعد الى مكيدة حفنى وأجاب عبد الستار قائلا : « نم يا عبد الستار فان الجمال ستبقى فى خير » .

وتوقف الضحك وسكتت الأصوات حين بدأ عبد الوهاب يداعب عوده ، فسرت الأنغام عذبة ثم انساب صوته يحكى أن العيون النائمة التى لم تعرف الشجن ، والعيون اليقظى التى تشتهى النوم « فى الليل لما خلى » ثم انسجمت الموسيقى مع الصوت :

الفجر شأشأ وفاض
على سواد الخميلة .
لمح كلمح البياض
من العيون الكحيلة

واستخف الطرب بشوقى حتى ألقى طربوشه على ركبته فهذا اللحن أسمعه اياه عبد الوهاب بتوزيع مختلف حتى تخير هذا الأخير

بعد مراجعته فيه مرات • لقد التقى الشـاعر بمغنيه أخيرا ولكنه ما زال يعتمد على التنغيم والتصوير وانتخاب الألفاظ ، ولكن صوت عبد الوهاب هو الذى أخرجها فى هذا الاطار البديع • لقد استطاع « عبد العزيز البشرى » ان يقـدم اليـه المطرب الموهوب الذى كان يبحث عنه • والتفت البشرى الى شوقى يسأله وقد أخذته نشـوة الطرب :

ـ لماذا لم تنظم من قبل هذه الأدوار ؟

ـ لأنى لم أجـد المطرب فلما وجدته نظمت له بالفصحى ثم بالعامية ، حين وجدت الأغنية العامية أكثر انتشارا على ألسن الناس ثم وجدت فى أغانينا ابتذالا مروعا مثل « ارخى الستارة اللى فى ريحنا أحسن جيرانا تجرحنا » ، بربك ما هذا السخف ؟

ـ ولكن لماذا اخترت جانب الفراق واللوعة ؟

ـ لا يمكن أن تمتد الحماسة الى مالا نهاية والأعصاب المشدودة بحاجة الى شيء من الراحة فاذا كان الجانب الوطنى قد سيطر أو كاد على شعرنا الفصيح ، فمن الطبيعى أن تسيطر العاطفة على الأغنية • وقد نظمت فى الفراق واللوعة أغنية «بلبل حيران » و « فى الليل لما خلى » ، لأن الحرمان يصفى الأرواح والنفوس ،وهو الطابع العام للمواقف العـاطفية فى مصر ومع ذلـك فقد نظمت فى اللقيا أغنية « النيل نجاشى » ثم وصلت بها الى نهايتها فى أغنية «ليلة الزفاف » •

ـ مع اعجابى بمثل هذه الأغنيات العامية فان أخشى ما أخشاه ان يتأثر بك شباب الشعراء •

ـ ان « رامى » قد تأثر فعلا بهذا الاتجاه ولكنه لا ينظم بالعامية الا الأغنية مثل أغنيته الجميلة « ان كنت أسامح » لأن الأغنية شعبية يرددها الجاهل والمثقف والفلاح والموظف والصغير والكبير فاذا كان

لابد أن تكون بلغة هؤلاء الناس ، فينبغي أن نرتفع بهـا ولكن في اطارها العامي ، بمعنى أن تكون في ألفاظها بعيدة عن السوقية وفي معناها بعيدة عن الابتذال ، أما الشعر فهو ليس فن الجاهل ولا فن الطفل ـ وان كان للاخير منظوماته الخاصة ـ وأنا أخشى فعلا على العربية من «بيرم» فان قدرته الهـائلة على التعبير بالعامية عن كل مواقف الحياة في مرونة ساحرة قد دفعت الناس الى ترديد ازجاله وقد تدفع بعض شباب الشعراء الى الاقتداء به ونحن في حاجة الى الحفاظ على اللغة العربية •

ـ هذا ما نشعر به لان الفصحى هي الجامعة اللغوية للشعوب العربية وهي لغة القرآن ، ويكفي كما يقول الرافعي أن ينشأ جيل واحد لا يقوى على قراءة القرآن حتى يقوم سد منيع بين العرب وبين دينهم • ولكن القضية هي ما يثيره المستشرقون ويغرون به الناس من أجـل صرفهم عن تعلم العربية حين يشبهونها باللاتينية التي هجرتها البلاد الاوروبية واستخدمت بدلا منها العاميات التي كانت موجودة •

ـ لا يجوز القياس على اللغة اللاتينية لان العامي الفرنسي مثلا ينظر الى اللاتينية نظرته الى لغة غريبة • أما العـامي العربي فاذا فاته بعض الالفاظ ، فان المعنى الاجمالي يندر أن يفوته • وأما الزعم بان اللغة العربية بدع في اللغات بامتياز اللغة المكتوبة فيها عن لغة الحديث فزعم باطل • فلغة الادب لابد فيها من اختيار حتى بالقياس الى العـامية نفسها والانجليزي العامي لا يفهم سبنسر في فلسفة العمران والفرنسي العامي لا يفهم أبحاث رينان في فلسفة التاريخ •

ـ ان الاتهام الموجود للعربية دائما هو انها عسيرة التعلم ، وان العامية يمكن أن تحل محلها وهي لغة الشعب • وقد برز هذا الاتجاه بعد ثورة ١٩١٩ ، التي أثارت الروح الشعبية ، مع أن العامية مختلفة من بيئة الى بيئة اختلافا شديدا ، ثم ليست لها قواعد عامة ،

ومن أجل ذلك فهى سريعة التطور حتى لا تستطيع أن تفهم عامية القرن الثامن عشر مثلا ٠

يا أخى ان الذين يثيرون قضية صعوبة العربية ويتشاكون ، يتقنون ما هو أكثر منها تعقيدا ، بل أن منهم من يتقن لغتين أو ثلاثا معقدة فى بعض الأحيان ويخجلون أن يخطئوا فيها ، حين لا يقيمون لغتهم وربما فاخروا بذلك وقالوا ساخرين (نحن لا نتكلم لغة سيبويه) ولعل كثيرين منهم لا يعلمون أن (سيبويه) كان فارسى الأصل ٠"

ـ الأعجب من كل هذا أن يثير « سلامة موسى » فى عدد يوليو ١٩٢٦ موضوع المسرحية وخلو الأدب العربى منها وقد قيلت آراء مختلفة فى هذا ، ولكنه ادعى أن الفصحى هى السبب ولن تنشأ مسرحيات ما لم تكن العامية هى الاداه واستشهد باراء المستشرقين فى ذلك ٠

وغاب فى تيار من الأفكار ، أخذه بعيدا بعيدا ، أحق هذا الذى يسمعه ؟ لا شك أنه غير صحيح وربما أثبتت الأيام ذلك ، وتنبه على صوت عبد الوهاب يردد « كان مين مفارق وجيعته » وتصفيق الحاضرين ، وانفض السمار ٠

فى المسرح

لماذا لا يعرف العرب المسرح ؟ لا شك ان المسرح يحتاج الى الاستقرار فى بيئة متحضرة وكان العرب فى جاهليتهم يعيشون على هيئة قبائل رحل فمن العسير ان ينشأ المسرح بينهم لأن الفرد لم يحس مأساته الخاصة • ولكنهم استقروا فى العصور التالية ، وكانت لهم حضارات ، وترجموا عن اليونانية الفلسفة والمنطق ، فلماذا يفهموا المسرحية • وربما كانت هناك اسباب اخرى فالمسرح اليونانى كان قد اختفى حين ترجم العرب الثقافة اليونانية لان المسيحية فى ذلك الوقت كانت تراه مغرقا فى الوثنية ولكن السبب لن يكون على أية حال قصورا فى اداة التعبير فقد عبرت اللغة عن كل متطلبات الحياة الاجتماعية والحياة الفكرية فى عصور التطور دون قصور • ولكن الدليل العملى هو وسيلة الاقناع وقد انتهت امارة الشعر اليه بالأمس ومن حق الأدب العربى عليه أن يسد هذه الثغرة ، وان يتجه بكل طاقته الى المسرح •

انه معجب بالمسرح الكلاسيكى فى فرنسا ، مسرح كورنى وراسين وأمثالهما ممن استمدوا أصول مسرحهم الشعرى من التاريخ ومن أعمال البطولة وصاغوها صياغة أسلوبية ممتازة • وقد كان هذا التأثر واضحا يوم كتب « على بك الكبير » منذ ثلث قرن ، ولكنه اليوم أكثر نضجا وأعمق ادراكا لأصول الفن المسرحى خاصة بعد ان قرأ هنرى الرابع وهنرى الخامس والملك لير لشيكسبير •

كان يشهد رواية فى احدى دور السينما عن ملكة فرنسية

صورها المؤلف السينمائي في صورة امرأة داعرة ، لا تتورع عن شيء ، فأخذه العجب للمبالغات والاكاذيب التي تدخل التاريخ على أنها وقائع نتيجة هوى الكاتب السياسي أو ميوله الدينية أو رغبته في الاتيان بما يثير الجماهير ، وهنا برزت « كليوباترا » أمام مخيلته بما يحيطها من اطار سودته الشهوات • ودفعه هذا الموقف الى مراجعة التاريخ نفسه والاستعانة بعد ذلك بأســاتذة التاريخ القديم في الجامعة وتجلى له ما اقتنع بانه الحقيقة فمنشأ التشويه اتى مما كتبه « بلوتارك » وهو من صنائع حكام الرومان ، وعنه أخذ غيره من المؤرخين الذين بالغوا في الحملة عليها ولكن بعض المؤرخين قد وقفوا موقف المدافع لا موقف المنصف ، فصوروهـــا متعمقة في الديانة المصرية ومتضلعة في العلم والفلسفة ، بل حكيمة وفيلسوفة، وبرأوها من كل عيب ، وهو موقف لا يحتمله التاريخ ، ومن الانصاف لها وللتاريخ ان تعرض حياتها كما عاشتها فهى انسانة فاتنة لها ما للفاتنات من غي وهى ملكة لأمة عظيمة لها ما للعظمـــاء من طموح وكبرياء ، وقد دفعتها هذه الكبرياء الى التضحية بالذات في سبيل الكرامة (١) •

وهو قد شاهد في فرنسا مسرحية « كليوباترا » التى الفها أميل مورو (٢) ومثلت عام ١٨٩٠ ثم اطلع على مسرحية شكسبير (٣) ، واعجب يوم قرأها بعبقرية المؤلف التى تجلت في نمو البناء الدرامى فلم يبق أمامه الا أن يكتب المسرحية حتى اذا ما انتهى منها عرضها على صديقه « عزيز عيد » رجل المسرح المشهور ليناقشه فيها قبل عرضها على المسرح •

---

(١) شوقى وحافظ لطاهر الطناحى ص ٤٠ •

(٢) مجلة الكتاب عدد اكتوبر ١٩٤٧ « فوق جبال الاولمب » لدرينى خشبه

(٣) مسرحيات شوقى لمندور ص ٤٠ •

وهكذا انكب على العمل أياما طويلة كانت المسرحية فيها هي شغله الشاغل ليلا ونهارا وحين تمت طلب « عزيز عيد » ، فقرأها قراءة متأنية ، حتى اذا ما طوى الأوراق ، سأله شوقي :

ـ لقد شكلت مادة المسرحية في حدود الاطار العام للتاريخ ، ولكنى استعنت بطبيعة الحال ـ بشخصيات ثانوية تلقى ظلالا على الابطال لتكشف عن بعض جوانبهم ، وغيرت فى الدوافع النفسية والاخلاقية للوقائع لتخدم الخط العام للمسرحية كما رسمته ، واعتقد ان هذا كله من حق الكاتب المسرحي .

ـ هذا صحيح .. ولكن لاحظت انك تهدف الى أغراض وطنية وقومية ، ولعل هذا هو الخط العام للمسرحية الذى رسمته ، فلماذا اخترت فترة ضعف فى تاريخ مصر ؟

ـ ان الكوارث هى التى تظهر معدن الناس ولكن هل نجحت المسرحية فى حدود مادتها من حيث البناء ؟

ـ من المعلوم ان الكلاسيكية قد تعصبت لما يسمونه « الوحدات الثلاث » والملاحظ انك لم تتقيد بهذا القانون . ففى المسرحية نرى حبا آخر بين هيلانه وحابى . وقد اثبت الادب المسرحي الخالد أنه لا ضير من الخروج على المعنى الضيق لهذه الوحدة على شرط أن تكون الموضوعات الثانوية وثيقة الصلة بالموضوع الاصلى موضحة لبعض الجوانب النفسية أو الاخلاقية لابطال المسرحية . أما عن وحدتى الزمان والمكان فقد تحطمتا في المسرحية ولا ضير فى ذلك اطلاقا ، وانما الضير فى تفكك المسرحية نتيجة ذلك وهذا لم يحدث فى المسرحية ولكن المهم هو ان تنتهى المأساة نهاية طبيعية بانتحار البطلين ، فما الحكمة فى ان تصحب تلك الخاتمة المؤثرة خاتمة أخرى سعيدة هى زواج هيلانه من حابى وانطلاقهما الى حياة سعيدة ؟ اخشى أن يكون فى ذلك ما يبلبل احساس المشاهد .

ـ الحق ان الاتجاه الاصيل فى المسرح الكلاسيكى ، بل وفى غيره ، ان تنتهى التراجيديا بخاتمة محزنة كما تنتهى الكوميديا بخاتمة مضحكة أو سـارة ، ولكن هذه القاعدة غير مطلقة ففى الكثير من كوميديات موليير تأتي الخاتمة محزنة وان يكن من النادر الا تنتهى التراجيديا بمأسـاة • وربما أدت هذه المحاولة الى تخفيف قوة الانفعالات •

ـ من الاصول المتفق عليها مبدأ فصـل الانواع بمعنى ان التراجيديا يجب أن تكون أحداثها مأساة متتابعة الحلقات لا يتخللها أى مشهد مضحك ولا أية فكاهة ، كما أن الكوميديا يجب أن تكون مهزلة خالصة لا تجرى المأساة فى أى عرق من عروقها ، والحق ان الرومانسية سخرت من هذه القاعدة مستشهدة بمآسي شكسبير التى لا تخلو من مناظر ضاحكة ومن شخصيات هزلية رائعة ، وقد وجدت فى هذه المسرحية مثل ذلك ، وكانت فلسفة شكسبير والرومانتيكيين فى هذا الخلط تقوم على ان المسرح عرض للحياة وما دامت الحياة لا تتورع عن ان تجمع بين المضحك والمبكى فليس هناك مايدعو المسرح الى ذلك التورع ، والحجة سـليمة ولكن هناك فرقا بين مضحكات شكسبير وبين « انشو » فى مصرع كليوباترا ، فالمهرج «اوفولستاف» عند شكسبير فيلسوف لاذع تقطر سخريته أسى ، أما هنا فالفكاهة لفظية •

ـ الحقيقة انى لم أقم بذلك ، الا مجاراة للروح المصرية المولعة بالنكتة المصرية والمرح الخفيف ، وان كان لشخصية « انشو » دور هام فى تخفيف حدة التوتر المستمرة فى المسرحية •

ـ انك شاعر غنائى لم تسـتطع أن تتخلص من غنائيتك ، والواقع أن المصريين شعب طروب بفطرته أو محب للغناء ، وأنت طموح الى ارضاء الجمهور ، ونحن نعرف الى أى حد بلغ المسرح

الغنائي في مصر عند سلامة حجازي وسيد درويش • وليت عندنا من الموسيقيين من يستطيعون تلحين المسرحية تلحينا كاملا ، على نحو ما فعل « ماستيه » الموسيقي الكبير عندما لحن سنة ١٩١٩ مأساة غنائيه عن كليو باترا • وعبد الوهاب يستطيع تلحين بعض المقطوعات الغنائية في المسرحية ، ومن المؤكد انها سوف تلقى نجاحا عظيما - ولكن لو أنها لحنت ومثلت كأوبرا لنجحت أكبر النجاح أمسا الآن فان هذه المقطوعات الغنائية رغم نجاحها ، فأنها دخيلة أحيانا على بناء المسرحية ، غير مجدية في سير الاحداث وتطورها (١) •

ـ هذا صحيح ، فكثيرا ما نظمت القطعة بنفس الصورة المعروفة في الشعر الغنائي ، ثم قمت بتوزيعها على المتحاورين وقد يزاد هنا أو يضاف هناك (٢) •

ـ الذى أخشاه أن يكون ذلك قد أدى الى أن تفقد الشخصيات كثيرا من حيويتها ، وهي تتكلم بشكل خطابي يقص أكثر مما يمثل ، فالاسترسال الغنائي يفكك الشخصية ، فهي لا تتضح بطول الحوار وانما تتضح بالصراع أولا :

ـ ان الصراع موجود في المسرحية بين أنطونيو واكتافيو على سبيل المثال •

ـ ان مناظر الصراع الحسي موجودة ، ولكن الصراع النفسي هو المقصود ، وهو لا ينعدم ولكنه لا يتضح تماما ، ومن أجل ذلك فان الشخصيات بسيطة التركيب قليلة التعقيد •

ـ يا أخي ان شخصية كليو باترا على سبيل المثال أيضا واضحة تماما في قوتها وخطها الوطني •

---

(١) راجع مسرحيات شوقي لمندور ص ١٦/٢٠ـ •
(٢) شوقي شاعر العصر الحديث لشوقي ضيف ص ٧١ •

ـ هذا صحيح ولكن الشخصية تحيا بنواحي الضعف كما تحيا بنواحي القوة وربما كان تحليل نواحي الضعف أكثر قدرة على احيائها واكسابها أبعادا انسانية ، ومن هنا كانت الشخصيات الثانوية أكثر وضوحا فلا شك أن شخصية هيلانة متكاملة (١) .

ـ ربما .

ـ بل هذا صحيح ، فشكسبير قد قرر لمسرحيته عالما منسجما يدور حول فكرة وفلسفة واحدة هو الهوى والتضحية في سبيله ، لم يختلف في ذلك انطونيو أو كليوباترا ، وبذلك وضع لها قاعدة تتصل بنفوس الناس وتهوى الى أعماقهم ، وصور الموضوع تصويرا انسانيا شمل الكون . فانطونيو يضحي بمجده وهو يعلم بضعفه ويهجر اكتافيا الى كليوباترا وهو يعلم ان ذلك سيثير عليه سخط الرومان ، وتظهر كليوباترا بمظهر المرأة التى تجمع فى ذاتها حواء المعقدة الغامضة . وواضح انك جعلت كليوباترا متعددة الجوانب ، ولكنك ابقيت الصفات الطيبة وحدها والانسان مزيج من الخير والشر .

ـ قلت ربما

ـ ان هذه الملاحظات لا تنقص من قيمة المسرحية كثيرا فهى فتح جديد فى الأدب العربى ونجاحها أكيد .

ـ لو نجحت النجاح الذى تتوقعه ، فسوف يدفعنى ذلك الى مزيد من العمل فى مجال المسرح .

ـ وماذا تنوى ان تعمل ؟

ـ أمامى من التاريخ العربى « مجنون ليلى » و « عنترة » .

---

(١) المسرحية فى شعر شوقى لمحمود حامد شوكت ص ٤٤ .

ـ هل قرأت « روميو وجولييت » لشكسبير ؟

ـ نعم · ولعل هذا ما يدفعني الى كتابة هذه المسرحية ، كما شاهدت في باريس مسرحية شكري غانم الاديب اللبناني عن عنترة ، وقد كتبها بالفرنسية ومثلت هناك ولكنها لم تعجبني وان كانت قد لفتت نظري الى الموضوع الذي ينبغي أن تعاد كتابته من جديد ·

ـ الحقيقة انك موفق في هذا الاختيار لانهما شاعران ومن أجل ذلك فسيندمج الغناء في القالب المسرحي نفسه ، دون أن يظهر بارزا يعوق سير المسرحية ·

ـ وعندما كنت في باريس عام ١٨٩٠ شاهدت «سارة برنرد» تمثل دور جان دارك ومازالت تلح على فكرة كتابة جان دارك مصرية ، هي « ناتيتاس » بطلة قمبيز التي أفكر في كتابتها من التاريخ المصري القديم وانت تعرف انني أستطيع الكتابة في أكثر من مسرحية في وقت واحد دون أن يؤدي ذلك الى خلل في واحدة ، أو اضطراب في أخرى ·

ـ ولماذا لا تفكر في مسرحيتك القديمة « علي بك الكبير » ؟

ـ انها جديرة بالتفكير فعلا ·

ـ ولكني أتساءل عن قيمة الصياغة الشعرية في مثل هـذه المسرحية ، فهي حديثة تحتاج الى صياغة تقربها من الواقع ولغـة الواقع هي النثر ·

ـ اذا كان المقصود من المسرحية نقل الواقع كما هو ، فان آلة التصوير أقدر من الكاتب المسرحي ولكني أرى الشعر وسيلة ناجحة للتصوير العاطفي خاصة في المسرحيات التاريخية والفن على العموم يجذب حواسنا بما يلون به الواقع من الخيال والشعر أقدر على ذلك من النثر ·

ـ ولكن للشعر قيودا قد تحد من حرية المؤلف المسرحى ٠

ـ هذا صحيح ٠ وربما كتبت مسرحية نثرية لأن حياتى فى الاندلس ســنوات أيام النفى جعلتنى أعيش واقع الاندلسـيين وتاريخهم ، وقد جمعت مادة عن المعتمد بن عباد تصلح لمثل هذه المسرحية ٠

ـ ولماذا تفكر في المآسى دائما ؟ لماذا لا تحاول كتابة ملهاة ؟

ـ ان الضحك له مغزاه الاخلاقى والاجتماعى لانه يعالج بعض عيوب المجتمع ، وفي حياتنا عيوب تستحق أن تعالج بالســخرية والضحك فعلا ، مثل البخل ومثل المرأة المزواج العجوز التى يطمع فيها الشاب من أجل مالها ولكنها حريصة كل الحرص على ألا تفقده فتفقد قيمتها نفســها فى أعين المتطلعين اليها ٠ وملاحظتك جديرة بالالتفات فعلا ، ان كان فى العمر بقية ٠

ـ أبقاك الله وقواك ٠

وعندما ارتفعت الستار عن المنظر الاول من المسرحية ، أحس بقلق غامض فهو موقف جديد عليه على الرغم من حضوره التجارب أكثر من مرة ، ولفته أنظار الممثلين الى اخطائهم ورضاه عن قدرتهم ٠٠٠ ودخل « ديون » فرحا يبلغ حابى احساسه بالنصر :

يومنــــا فى اكتيومـــــا ❊ يومــه فى الارض ســـار
اســألوا اســطول رومــا ❊ هــل اذقنــاه الدمــار
احــرز الاســطول نصــرا ❊ هــز اعطــاف الديــار
شــرقا اســطول مصــرا ❊ حــزت غايــات الفخــار
صــــازت الاســـكندرية ❊ هى فى البحــر المنــار
ولهــا تــاج البريــه ❊ ولهــا عرش البحــار

وأحس الجمهور بشيء من الحماسة وهو يرى أمله يتحقق على المسرح ، فضج بالتصفيق وأحس الشاعر بالطمأنينة تسرى الى فؤاده وبلذة النجاح فى هذا العمل الكبير ، فتابع المسرحية بشوق كأنما يشهدها لاول مرة حتى اذا ما أسدل الستار ، شعر شعور الوالد يعرف روعة الابوة للمرة الأولى *

الباب الخامس

اللحن الباكى

دموع البلبل

شــيعت احلامى بقلب باك ... ولممت من طرق الملاح شباكى
ورجعت ادراج الشباب ووِرده ... امشى مكانهما على الاشواك
وبجانبى واه كان خفـوقه ... لمـا تلفت جهشـة المتباكى
كنا اذا صفقت نستبق الهوى ... ونشد شد العصبة الفتـاك
واليوم تبعث فى حـين تهزنى ... ما يبعث الناقوس فى النسـاك

كان دائم الترديد لهذه الأبيات التى يبكى فيها القلب وتجمد العين ، وهو عذاب يحسه يتسرب الى أعمـــاقه بعد أن أشرف على الستين وعاش حياة عريضة خصبة انتزع كأسه فيها من اللذات حتى اذا جفت الكأس ولم يعد قادرا على ان يملأها ، هم بتحطيمها على شفتيه . وماذا يبغى من الحياة اليوم بعد ان افلتت من بين ذراعيه الواهيتين أو كادت . ان صديقه « شكيب ارسلان » يعجب لهذا الهرم الذى أسرع اليه اسراعا قبل غيره (١) ، يعجب لهذه الانحناءه التى كادت تثقل ظهره ، لولا بقية من العافية لم تستنفد يتكىء اليها ، ويعجب لهذه الغضون التى ملأت جبينه كأنها خطوات الأيام على درب الحياة ويراه زكى مبارك أشبه بالقديسين فى هذا الشحوب الذى اعتراه وذاك الشيب الذى غـزا حاجبيـه وشاربه بعد أن انتهى من فوديه ، وتلك الخطوات الوانيـــة التى يسير بها (٢) .. ولكن الأصدقاء قد نسوا أن الماضى العـابث المهلك

---

(١) شوقى أو صداقة اربعين سنة ص ٩٤

(٢) ابولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٧٠

للعافية السالب للقوة حتى في ابان الشباب وعنفوانه قد غفل طويلا ، فهل يغفل الى مالا نهاية عن الشيخ الذى يأكل كما يأكل الشباب ويسهر أكثر مما يسهر الشباب ويجول كما يجول الشباب وهل تجدى مقويات الأدوية فى دفع الماضى عن أن يفعل فعله بهذه الانسجة العتيقة وتلك الأعصاب المرضوضة المتوترة دائما ؟ كلا ، فقد استيقظ الماضى ليهزم الحاضر ويثبت وجوده .

لقد كانت ليلة قاسية ، فقد كان الألم لا يحتمل ، ومر بخاطره شبح الموت رهيبا قاسيا ، ولكن الله فرج الأزمة ، وقد طمأنه الطبيب ولكنه لم يطمئن ، ان اخشى ما يخشاه ان يكون المرض تصلبا فى الشرايين ويلح الماضى المنتقم على هـــذا الجســد الواهن . واذا كان الألم قد زال ، فان آلامه كثيرة لا تنتهى بعد أن ترك التدخين وترك الشراب وترك القهوة وسجن فى حجرته . ولكن العجيب أن يبقى ذهنه شابا متوقد النشاط لم تنل العلة منه ، فليس أمامه الا أن ينكب انكبابا على القراءة والنظم لينسى مرضه فى هذين .

لقد عرف سهر المنازل التى لم يألف السهر فيها قط ، لم يعد يقوى على التنقل بين المقاهى والأماكن المطروقة من غرباء لا يعرف بعضهم بعضا ، حتى يوشك الفجر على البزوغ ، فليس أمامه الا دار اسماعيل شيرين فهى من تلك الدور التى ألفت غشيان الأدباء والظرفاء من عهد بعيد ، كانت منتدى من تلك المنتديات التى عرفتها القاهرة لأجدادنا الذين لم يعرفوا مشارب القهوات ونوادى السمر المفتوحة للهو ، ولا صـــالات الرقص ولا بارات الشراب ، وانما كانوا يتزاورون فى بيوتهم . واغلقت البيوت أبوابها ، بعد ان هجرها الناس الى الاماكن العامة الا بيت اسماعيل شيرين الذى حافظ على هذا الطراز القديم فى التزاور، فهى تستقبل فلولا من الذين يحنون الى هذا السمر .

ودخل عليه كاتبه « أحمد عبد الوهاب أبو العز » وبيده كتاب « المختصر من مكاشفة القلوب للغزالى » و « صحيح البخارى» ، أنه يعرف كم أصبح مولعا بكتب التصوف عموما والقرآن والحديث خصوصا ، فابتسم ابتسامة هادئة وطلب اليه ان يقرأ في الكتاب الأول . حتى اذا انتهى الى وفاة الرسول لم يملك نفسه فأخذ يبكى ، وبكى كاتبه معه تأثرا ، وما هى الا لحظات حتى بلغهما نعى والد كاتبه .

ياللشيخ العظيم المسكين ، شوقى الذى كان لا يزور سرادق الأموات أبدا ولا يعرفها ، ولم يطرقها للمجاملة ولو كانت لأصدق الأصدقاء وأعظم العظماء ، يذهب الى سرادق متواضع فى حى السيدة زينب ، ينتظر فى ركن فيه ساهما ساكنا ، يتغير القراء فى تلاوتهم للقرآن ، وتنفض جماعة وتدخل أخرى وهو جالس فى هذا السرادق الذى تفوح منه رائحة الموت ، وهو الذى يهرب من أحاديث الموت . أنه المرض وثقله وشبحه المقيت الذى يرفع يده فى الظلام ويشير الى الموت ليقترب ، وهو الذى جعله يقف فى حديقة داره الواسعة يتمل تلك المساحة ويقيسها فيخطىء فى التقدير فيسأل كتابه :

ــ هل تستطيع أن تذكر لى مساحة القبر ؟

ــ لا قدر الله ، اظنها عشرين مترا .

ــ وما مقدار مساحة حديقتنا ؟

ــ اظنها ثلاثة آلاف متر .

ــ قسمها على عشرين .

ــ تساوى مائة وخمسين .

ـ سبحان الله .. ان ثلاثة آلاف متر لا تكفينا فنفكر فى ضم قطعة الأرض الفضاء المجاورة وعشرين مترا فيها أعظم الكفاية لتضم العظام ما ابعد طمع الانسان !! وسكت هنيهة ثم استطرد قائلا : لقد اوصيت الجميع بك خيرا فكن مطمئنا ، ولكن مازلت أفكر فيما يضمن لك تربية ابنائك فى المستقبل . وان عشت قمت لك بتكاليف الحج وان كان غير ذلك فسيقوم ولدى على بذلك عنى فلا تنس الفاتحة لى بأرض الحجاز · وشكره كاتبه ثم انصرف .
ودخل هو الى فراشه لينام ، ولكن النوم جفاه ، ومرت به صور اجفل لها ، ما ابشع الموت وما اقساه نهاية للحياة ، ان البحث عن الخلود مشكلة الانسان الأولى فمنذ العصور البدائية والأنسان يفكر فى هزيمة الموت ، تارة عن طريق الاسطورة ، أيزيس وأوزوريس ، الربيع المتجدد الخالد ، وطورا عن طريق الفلسفة وتناسخ الارواح حتى اذا دهمته الحقيقة المرة في عصر الحضارة ، لم يبق أمامه الا خلود الذكر والأثر والتاريخ . أما أن ننتهب الحياة لأنها قصيرة فنزيد فى قصرها ، أو نعتزلها فنزيد فى طولها ، فتلك فلسفة قصيرة النظر . وكأنما ارتاح الى هذه النتيجة فارعوى الوسن ثم اغفى .

ــ لقد فحصت اباك بالأمس ياحسين ، ووجدت الوهم يسيطر عليه أكثر مما يسيطر عليه المرض ، وذلك هو السر البعيد وراء كثير من الظواهر المتناقضة في تصرفاته ، تلك التى تبـــدو للمحيطين به شاذة فيفسرونها بأن الرجل ذا شخصية مزدوجة . ألم يقل الدكتور محمد حسين هيكل انك أمام رجلين مختلفين جد الاختلاف لا صلة بين احدهما والآخر ؟ أحدهما مؤمن عامر النفس بالايمان والآخر رجل دنيا يرى فى المتاع بالحياة ونعيمها خير آمال الحياة . وانت لا تشعر فى أى الحالين بضعف نفسانى دفع به الى لبوس روح غير روحه .

ــ ولكن هذا يكاد يبدو صحيحا فأنت تراه فى الحياة اللاهية فتحس أنه ينغمس فى ملاذ دنياه ولا يعيش الا من أجلها ، ولعل هذا واضح فى شعره مثل قصـــيدته « حف كأسهـــا الحبب » ثم تراه فى مواقف أخرى وقد استبد به الشعور الدينى فقد عنفنى مرة فى غضب شديد ــ وكنت صغيرا ــ لأنى مسست دون قصد جانبا من جوانب الدين على حبه الشديد لى ، وعندما عدنا من المنفى وجدنا منزلنا سليما لم يمس بسوء فارجع ذلك الى بركة لوحة معلقة على المدخل مكتوب عليها « لا اله الا الله محمد رسول الله » وشعره ناطق بهذه المشاعر العميقة وعلى الأخص فى مدائحه النبوية ففيها الضراعة والندم . وحتى في لذته فان ضميره الدينى لا يدعه يهنأ باللذة الخالصة فعندما يقول « رمضان ولى هاتها ياساقى » ، « ما كان أكثره على الافها » يقول « واقله فى طاعة الخلاق » .

ـ أنه يخاف الله بدلا من أن يحبه ، ويخاف فقدان اللذات فيفنى فيها ، ولو احب الله بدلا من ان يخافه لاحب الحياة بدلا من ان يخاف فقدانها ، وأنت اذا خفت فقدان غانية تفانيت حتى امللت ففقدتها ولكنك لو احببتها لاحتفظت بها اطول مدة دون اسراف . من أجل ذلك خاف الموت وكره أن يتحدث عنه في مجالسه كما كره أن يتحدث غيره عنه أمامه ، ونحن نعلم هذا فنتحاشى ذكره فى وجوده ، فلا ننعى ميتا ولا نخوض فى حديث الموت ولا فلسفته ولا فى أية ناحية من نواحيه ، وتستطيع أن تتبين حيرته الدائرة فى الخوف من الموت بكل مراثيه ونحن نذكر له دائما قصيدته في رثاء « رياض » والاستفهامات المتلاحقة التى تنبىء عن فزع شديد .

سألتك ما المنية أى كأس	وكيف مذاقها ومن السقاة
وماذا يوجس الانسان منها	اذا غصت بعلقمها اللهاة
وهل تقع النفوس على أمان	كما وقعت على الحرم القطاة

ـ هذا حق ولعله سبب تشاؤمه وتفاؤله فى كثير من الاحيان، فهو يستبشر خيرا اذا سمع ثناء على صحته ، وقد عرف « محفوظ » عنه هذا ، فاذا عاده مريضا فى داره أو سمعه يشكو وجعا في مكتبه أسرع قائلا : والله ان وجهك ينبىء عن صحة وشباب ، فيطير فرحا ويلتفت الى والى أخى على ويقول : أما فيكما من يقول لى مثل هذا ، ويسر بقية يومه . واذا اخطأ احمق وصدقه القول فى شحوب وجهه وأثر علته فالويل له وعليه اللعنة . حدث أن قريبا لنا عاده يوما وكان ملازما للفراش ، فلما دخل اليه صاح فى لهفة وكان جهورى الصوت : مسكين ياعمى سلامتك . فما كاد يسمع هذا الصائح حتى أخذته رعدة وانتفض من الغضب وصاح فيه : اخرج ، اخرج ، أنا عمك من أين ، ياحمار،

وكرر هذا مرارا . ولم يكن هذا العائد طفلا بل كان موظفا له مكانة مرموقة . واذا فاه أحد جلسائه بكلمة تحمل معنى الشؤم، وجم ، وقطع حديثه وترك المجلس . ويذكر « محفوظ » أنه لقيه مرة أمام دار السينما ، وكان مستغرقا فى قراءة اعلان الرواية فباغته بالتحية فما كاد يسمعها حتى ارتعد وخاف وزجره قائلا : يا أخى أنا ظننتك فوضويا قاتلا يريد بى شرا . فقال محفوظ : وهل القاتل يحيى مقتوله قبل القتل ؟ فتشاءم وتركه مسرعا .

ـ ثم هرب من الخوف الى الخوف ، فعندما خاف الموت أكثر من التفكير فيه وحيدا ، فأصبحت الوحدة نفسها مخيفة فهرب منها . من كان يظن ان شوقى يحضر العزاء فى وفاة والد كاتبه ثم يخرج ثم يعود كل ذلك من أجل أن يصطحب كاتبه معه ، فلا يشعر بالوحدة ؟

ـ وهل خوفه الدائم من المرض يرجع الى ذلك أيضا ؟ فأنت تعرف أنه يتعاطى الدواء حتى ولو لم يكن مريضا ، فى صورة اقراص وسوائل ، متوهما أن هـذا عـدة لدفع الأمراض التى يخشاها ، واذا جلست معه الى المائدة وجـدت زجاجة اليود موضوعة والى جوارها كوبة فارغة ، فاذا جاء الى منتصف طعامه افرغ قليلا من الماء ومزجه بخمس نقاط من اليـود وشرب ذلك جميعا ، ثم شرب سيجارة وادعى أن فى هذا تطهيرا للحلق من الميكروب الذى ربما يغلق ببعض طعامه أثناء تناوله ، ثم استأنف تناول الطعام . وتذكر حين استدعاك مرة ، يوم كان معه كاتبه يملى عليه أبياتا فاحتاج الى دواء فى لون الماء لشربه ، فطلب من كاتبه أن يحضره له ، فأخطأ الكاتب واحضر زجاجة البوريك لأن غرفته تشبه صيدلية لكثرة الادوية المنتشرة فوق الرفوف فما كاد يعب منها قليلا حتى أحس بالبوريك فتفله مرتاعا وصاح بالكاتب مهددا متوعدا وقد ظهر عليه هول الموت فما كان من الكاتب المسكين الا أن عمد الى الزجاجة فأفرغها كلها فى جوفه رعبا منه ليموتا

معا فى زعمه ، ولكنك هونت عليه الأمر حين ذكرت ان البوريك مطهر ولا ضرر منه .

وأنت تعرف أنه يلبس الصوف شتاء وصيفا ، يلبسه خفيفا في الصيف ثقيلا فى الشتاء ، وينتقل بالجورب فى قدميه داخل البيت لم يتركه قط فى نوم ولا يقظة ، ويخاف البرد خوفا قاتلا ، ويتقى حتى نسمات الخريف . فكنا اذا جلسنا فى الحديقة معا حتى فى أكتوبر وهبت رياح الخريف فى بواكيرها ، هب واقفا وهو يقول : هيا الى الداخل ، فاذا احتججنا بأن الطقس لطيف قال : من اللطيف يخاف على كل حال . ثم هو يزورك فى العيادة أو يستدعيك بالمنزل صباحا ومساء دون مرض ولكن ليطمئن قلبه . حتى سجائره يدخنها فى مبسم ذى انبوبه يغسل دائما بالكحول ، وله عدة مباسم ، يأمر بتنظيفها دائما خشية الميكروب وخوف العدوى ، وما صافحه انسان الا وكانت له فى هذا الشأن تصرفات تخجلنا أحيانا . حدث مرة أن اصبت فى حادث سيارة وجاء « محفوظ » لزيارتى ، فلما صعد الى الغرفة استوقفه أبى على بابها ، وأمر بزجاجة « كولونيا » صبها كلها على رأسه وثيابه، فلما احتج غاضبا وهو يقول : انى لست قذرا ولا حامل عدوى، سمعته يقول وهو يضحك : هذا شأنى مع كل من يزور مريضا عندى . فأجابه محفوظ : ولكن هذا يكلفك كثيرا ، وينفر عواد مرضاك ، قال : لا يهم مادمت استريح الى ارضاء هواجسى فى دفع العدوى .

— الحقيقة انى اعزو هذا الى ماضيه البعيد ، يوم كان فى فرنسا ، فأنت تعرف أنه أصيب بالكوليرا وأشرف على الموت ولو كان هذا الحرص ملازما له فى تلك الأيام ما أصيب بالكوليرا فعندما استقر في عقله الباطن ان الأهمال فى النظافة قد يودى بحياة الانسان جن بها جنونا ، وحاول ان يتقى المرض بكل

وسيلة . ولا شك ان الخوف انطلق من قمقم فى نفسه فطبع جوانب حياته .

ـ هذا حق فهو يفزع فزعا شديدا من النفى مثلا بعد ان مر بتجربته القاسية فقد عرفه محفوظ بعد عودته من المنفى بشهر واحد ، ثم تأكدت المودة تأكدا متينا وقد كان « محفوظ » مفتونا بصحبته سعيدا فأراد أن يظهر هذا الافتنان وتلك السعادة وذلك الفخر ، فاعتزم أن ينظم قصيدة تشمل حياته كلها ، فلما أتم قصيدته وكانت تتضمن تاريخ حياته كلها وبلغ عدد أبياتها مائة وعشرين بيتا ، حملها الى رجل أديب هو « محمد صدقى » فقال الرجل : انى أود اقامة حفل بهذه المناسبة تلقى فيه قصيدتك تكريما لشوقى ، فقال محفوظ : انى لم أعلمه بهذا ، واحب ان يكون مفاجأة له ، فضحك الرجل قائلا : اتكرم رجلا مقيما بمصر فى حفل يغيب عنه ؟ فخجل محفوظ وعزم على ان يبلغ أبى ، وحمل القصيدة وتوجه بها الى « جروبى » حيث كان يجلس بين جماعة من العلماء والوجهاء واصحاب الاعمال : فلما ابصره أبى دعاه الى الجلوس وسأله عن الاوراق التى يحملها ، فقال : هذه قصيدة نظمتها فى تاريخ حياتك ، وأنا الآن راجع من بيت « محمد صدقى » ، وقد اتفقنا على ان نكرمك فى حفل مشهود ، وأنا حاضر الآن للاتفاق على تشريفك الحفل . فاذا به يتحول من رجل باسم ظريف ، الى نمر غاضب وصاح في رعب عاصف وبصوت مرتفع قرع كل اسماع الجلوس : أنت تريد ان ترجعنى الى المنفى ، أنت مدسوس على من الانجليز ، سأبلغ الشرطة فوجم محفوظ واصابه شلل عطل لسانه وتفكيره وشمل كل حواسه واحدقت به العيون المتطفلة الفاحصة ، ودار الهمس بينهم واصبح لا يستطيع البقاء ولا يستطيع الانصراف ووقع فى بلاء عظيم ، وبعد فترة رجع الى نفسه الجريح فقال : أهذا جزائى ؟ شكرا ، ثم

انصرف تشيعه العيون الهازئة . فلما كان فى الشارع أبصر صاحبا كان يجالس الجماعة ، يجرى وراءه ثم امسك به وهو يقول : يا شيخ ، لا تغضب ، انه متأسف . فصب عليه محفوظ غضبه المكتوم فى قذائف كلها سباب . وانصرف الى بيته وهو فى أسوأ حال من الخجل والاضطراب . حتى اذا كان مساء اليوم نفسه طرق بابه طارق ، فلم ينصرف خاطر « محفوظ » اليه قط فقد باعد الغضب بينه وبينه ، فلما بلغ الحديقة الفاه وقد أخذ بعروة سترته العليا كعادته وهو يرفع عينيه الى تعريشة استراحت عليها الكروم . فلما ابصر به قال : يبدو ان هذا العنب من النوع الممتاز ، اذهب فالبس وأنا منتظرك هنا ، ثم اركبه سيارته ، فرأى محفوظ فى زيارته له ترضية كافية .

ـ ومن العجيب أنه كان كريما فى شبابه بل متلافا ، ولكن انتشار الخوف من داخل القمقم في شيخوخته جعله يخاف الفقر أيضا ، فقد رأيت العفاة والقصاد يتجمعون عليه مرة فاعتذر اليهم وهو غاضب ، ثم التفت الى قائلا : لو اعطيت كل انسان كل يوم، لأصبحت محتاجا استجدى . ولكنه والحق يقال ما زال سمحا اذا تحقق من نازلة نزلت بصديق أو محتاج . فقد بعث اليه مرة الشاعر العراقى الكفيف عبد المحسن الكاظمى بكتاب يشكو فيه فقرا ومرضا طرحه الفراش ، فلما تحقق من الأمر ، بعث اليه قدرا طيبا من المال . وقد ذكر لى « محفوظ » انه كان فى ضائقة مالية يوم وفاة ابيه وقد لاح الضيق بوجهه فادرك حين رآه حاجته ، فلم يشأ ان يحرجه أو يؤلمه حين يقدم اليه هبة ، فتلطف وقدم له مالا دعاه قرضا . وحاول محفوظ بعد ذلك أن يرده اليه فأبى أن يأخذه وقال له : أنت ابنى ، فليس لك ان ترد مالا تأخذه من رجل كأبيك ، وكثيرا ما رأيته يعطى بعض الأدباء .

ـ غير أنه برغم هذا ، جرىء جراة نادرة فى أدبه ، شعره

ونثره . فعندما وصلت « أم المحسنين » وتجمعت الشرطة لتفريق المرحبين بها بايعاز من الملك قال فى قصيدته :

برىء الرفق من السيف الذى   منــــع الأم ملاقاة البنـــين

ولم تعوزه الشجاعة حين قال فى رثائها مشيرا الى شماتة الملك ، وقرب شماتة الناس به :

واسخرى من شانىء أو شامت   ليس بالمخطىء يوم الشــامتين

وقد كان أخى على فى أول عهده بالوظائف يعمل فى وزارة المعارف ، وقد التحق بالوظيفة بعد عناء شديد ، لأن الملك كان معارضا فى تعيين ابن شوقى ، ثم سعى له طاهر حقى فى الالتحاق بوزارة الخارجية ، وحدث بين السعى وبين اتمامه ، ان أبى زار حديقة الحيوان ورأى الأسد فى القفص ، وأراد ان يكتب مقالا حوله ، فلما كان المساء جاء طاهر حقى وجلسنا نتحدث فى أمر هذا المقال ، فقال طاهر : ان الملك سيحسب أنه المقصود بالأسد الحبيس وأنه تعريض خفى ، ولهذا اخشى ان تخفق مسألة وزارة الخارجية ، وقررنا ان نكلمه فى الموضوع ، لأن حذف مقـــال من انتاجه لن يضره . فلما حضر دعا « محفوظ » ليملى عليه المقال، وبدأ محفوظ يكتب :

« ياجار الجيزة وأسير الحديقة ، سرت هموم فلم تنم ، ارقتنى شجون وشجون وذكريات مما تركت السنون ، وأرقك حز القيد ، وضغط الحديد ، واثارك ذكرى الصيد ، والحنين للبيد ، سبحان المعز بالحرية المذل بالرق ، ما أرقك بالأســـحار ، وكان غطيطك أرق الصحار ، وفرق السمار ، ما بال زئيرك ينام عليـــه الطير ملء جفونه ، ولا يتحرك له ليل الجيزة من سكونه ، أصـــبح أقل من النجاح واذل من النباح ، وكان بالامس يرعد البطاح . وأين إبالبدة طلعة كانت تعقل الفرس والفارس ، فأصبحت يدعو

العيون اليها الحارس يطيف بها النشـأ ولا تخفيف الرشـأ ...
وما اسفى والله على ظفرك القلوم ولا على نابك المحطوم ، فانى وجدت البغى ليس يدوم ، وانما اسفى أبا الاشبال على تلك الشخصية المتظاهرة وتلك الروحية القاهرة .. فاسترحت من الرأى وصراحته ، والفكر وشجاعته ، والمبدأ وصلابته ، وكفيت سيوفا بيننا هى لك ، اذا هى عليك ، واقلاما مأجورها أسيرك ، وطليقها أنت أسيره » .

وحاولنا جهدنا ان نقنعه بوجهة نظرنا ، فلم يقبل مهما كانت العواقب ، ونظر الى محفوظ الذى توقف فنهره ، فقال محفوظ : لم تقدر على الحمار ، قدرت على البردعة ، فضحكنا .

ـ ومن أجل ذلك يخاف الصحافة ويجزع من النقد جزعا شديدا ، فلا يطيق ان يقرأ سطرا واحدا في الحط من شعره كما لو كان شعره هو عرضه ، ويغضب على من ينبهه الى نقد لشعره في صحيفة من الصحف ، على الرغم من حرصه على قراءة كل نقد وجده ، ولم يجزع يوما كما جزع يوم ظهور كتاب الديوان للعقاد .
هؤلاء الصحفيون أشبه بوحوش السرك ، اذا غفل شـوقى عن احدهم واسترخى ، وثب وثبة خدشه فيها بمقال مضاد فيثور ويسميها الصحافة الساقطة . وهو على عظم مكانته وعلى قدمه الراسخة فى الفن ، متعب منهوك لا يستقر عن الدوران بين دور الصحف ، فهو فى الاهرام والبلاغ والسياسة والاخبار والجهاد .
كذلك مائدته لا ترفع أطباقها ولا يطوى غطاؤها فهى دائما محفوفة بالصحفيين وغيرهم ممن يخشى اقلامهم ويخاف نقدهم . وفى الحق أنه هو الذى صب على نفسه هذا البلاء ، فقد اغرى به جزعه الشديد من النقد كل هؤلاء ، عرفوا ضعفه فاستغلوه .
ولو تماسك واظهر قلة مبالاة بمدح أو بذم ، لسلم من كثير من الآلام النفسية ، التى كانت تعتريه حين يقرأ نقدا قاسيا ، فشعره غنى عن هؤلاء وأولئك ، ولكنها طبيعته ، أو قل انهـا عقدة الخوف .

النهاية

قد كنت آوثر ان تقول رثائى · يامنصف الموتى من الأحيـــاء
لكن سبقت وكل طول ســلامة · قدر وكل منيــة بقضـــــاء
وأتيت صحراء الامام تذوب من · طول الحنين لساكن الصــحراء
كم ضقت ذرعا بالحياة وكيدها · وهتفت بالشكوى من الضراء
فهلم فارق يأس نفسك ساعة · واطلع على الوادى شعاع رجـاء

كان يخاف الموت ويفزع من حديثه ، فكيف قالها ؟ لقد فزع كل من قرأها ، ولكنه قالها يوم وفاة حافظ واتبعها بكلمة جرير يوم مات الفرزدق : « والله ان بقائى بعده لقليل » . وذهب الصيف الذى اخترم حافظا ثم اقبل الخريف الموحش بكآبته التى يرتجف منها الشجر حين يتعرى من أوراقه ، ويسرى حزن غامض الى الارواح المرهفة فتحس بانقباض ، كانت لا تحسه فى ليالى الصيف الرقيقة ، المليئة بالحركة وبالسمر . وكان يوم ١٣ أكتوبر عام ١٩٣٢ ، احس فيه بنشاط غير عادى ، وضحك فيه كما لم يضحك من قبل . انه يحتفظ بالحلوى دائما فى مكتبه ليستدرج بها حفيديه ، وهكذا أخذ يداعبهما وهو يردد : « أو تظنون أن هذين الشـــيطانين يجيئان لزيارتى لولاهـــا ؟ بالله ما نفعهما فى ممازحة شيخ مهدم مثلى ؟ »

انه سعيد اليوم يحس أن أوصـــابه وآلامه قد انتهت ، فانهى هذه البشرى الى كاتبه ، وخرجا مساء اليوم لتناول العشـــاء وزيارة الاصدقاء . ثم أخذ يفكر فى وفد من شباب أعضاء جمعية القرش سألوه ان ينظم قصيدة فى أول نتاج المشروع ، ويستعد

للقائهم فى الغد ، فيحلم بالغد • وأحس بسعال ينتابه من أثر برد الليل ، فاستقل عربة الى داره المطلة على النيل الخالد الذى أحبه وتغنى به • وجاء الخادم فنضا عنه ثيابه ، وأرخى عليه الكلة فى فراشه ثم حيا وانصرف . وخفق البلبل خفقة ، ثم أخذته سنة متقطعة ، فلما كانت الساعة الثانية صباحا ، جاء ذلك الذى طالما ملأ قلبه رعبا ، فهب مذعورا ، ولكن الطارق أناخ على صـــدره ، وأخذ عليه أنفاسه ، فجمع كل ما تبقى له من قوة واهنة وقرع الجرس يدعو الخادم ليسعفه بالكافور ، عله يرخى من قبضته ذلك الآخذ بخناقة ، ولم يكن يدرى أنه الموت • وهرول الخادم ، ولكن البلبل المحتضر رأى شبح المنية يقهقه ، فاســـتدعاه مرة ثانية وقال فى كلمات متقطعة « لا تحضر شيئا ، فانها النهاية ، ولكن استدع السيدة والأبناء لأودعهم • »

وهبت السيدة الكريمة مذعورة على هول النبأ ، وأسرعت الى غرفة الزوج الذى لم تغاضبه يوما قط . فســمعت ذلك الشخير الذى يخرج بآخر أنفاس المحتضر ويدع العينين مفتوحتين والفم فاغـــرا فزعا ، فأغمضت العينين وأقفلت الفم وأســـندت الرأس الى القبلة ، ذلك الرأس الذى طاقت به معجزات الفن الخالد ، ومات شوقى ••

فى غمرة الاسى والدموع شيعت مصر أمير الشعراء الى مقر الأبدية ، فما انتصفت الساعة الخامسة من مساء ١٤ اكتوبر ١٩٣٢ ، حتى غص السرادق الفسيح الذى اقيم فى ناحية من ميدان التحرير أمام قصر النيل بفحول الأدب ورجال الصحافة وطلاب العلم • ثم وصل جثمان الشـــاعر على ســيارة فانتظم الموكب تتقدمه طلبة المدارس فى صفين على جانبى الطريق ، تتوسطهم الاعلام وقد ارتسمت عليها امارات الحدود ، وتبع الطلبة جنـــود الشرطة من راكبى الخيل ثم المشاة فنعش الفقيد محمولا على أعناق

أعضـــاء من جمعيتي « أبولو » و « رابطة الأدب الحـديث » فطلاب الجامعتين المصرية والأمريكية • وسار خلف النعش نجلا الفقيــد فوزير المعارف مندوبا عن الحكومة فجمع من الصحفيين والشــعراء والأدباء وأعضاء الجمعيات العلمية والخيرية ، فكثير من اساتذة الجامعة والمدارس ، فالطلاب والتجار والعمال •

واجتاز موكب الجنازة شارع قصر النيل بين صفين من جموع الشعب المحتشدة ، وتضاعف عدد المشيعين فى أثناء الطريق، وكان المصورون قد تخللوا هذا الشارع ، فأخذوا فى التقاط منظر المشهد الذى تمثل فيه حزن مصر وحزن الوطن العربى • ثم وصل الموكب قبالة جامع الكخيا قرب ميدان الأوبرا ، حيث أديت صلاة الجنازة • ولما جىء بالجثمان ، التف بالنعش طلاب الجامعــة وهتفوا « فى ذمة الله يا أمير الشعراء » وكان كثير من الشعب قد سبق الى مدفن الأسرة ، فلما وصل الجثمان امتلأ الجو بالهتاف، وتقدم فريق من الطلبة وبعض الرياضيين فحملوا النعش الى مقر اللحد ، فدبت لوعة الاسى فى قلوب الحاضرين وكأنهم لم يعلموا الا هذه اللحظة أن مصر فقدت أمير بيانها وشعرها ، فما شهدوا الجثمان محمولا الى مقره الأخير ، حتى علت الاصوات بكاء ونحيبا تتخللها عبارات حبسها الحزن ودفعت بها حرارة الألم •

وفيما كان العمال يودعون الفقيد لحده ، وبينا جموع الشعب تتنفس تحسرا وألما ، علا صوت أديب فاضت عيناه بالدموع «الى أين يا أبا الشعر والحكمة » فحركت هذهالكلمة ساكن الاحزان ، فامتلأ المساء الشاحب بالانين والتوجع ، حتى وجد الناس انفسهم فى مناحة استفحل فيها الخطب وعز فيها العزاء ، وكانت الشمس قد آذنت بالغروب (١) •

---

(١) البلاغ فى ١٥ اكتوبر ١٩٣٢ •

وطلعت الصحف سوداء حزينة ، فى يوم حزين لم تطرب فيه نفس . وتوالت طبعات الصحف فى مصر ، فى لبنان ، في سوريا ، فى الاردن ، فى السودان ، فى العراق فى لندن وفى باريس تنعى أمير الشعراء وتمتلىء برسوم الجنازة ، وتتساءل عمن كان يملأ الدنيا حياة • كيف غاله العدم ؟ وتوالت قصائد الشعراء الذين فقـدوا رائدهم ، فاعترف الزهاوى والرصافى بامارته ، وما كانا فى حاجة الى الاعتراف ، وفى كل بقعة من أرجاء الوطن العربى هتف الشعراء باسمه ، أو رددوا أبياته الخالدة فى الرثاء :

اخ كان يملأ أمس الهـواء ... ويحيا الحياة ويجرى العمر
نزيل لعمرى غـريب الفطاء ... غريب الوطاء غريب الحجـر
يزار كثيرا فدون الكثيـر ... ففبافينسى كان لـم يـزر
تلفت وراءك اين الغـرور ... واين السرور واين الاشر
فنق سنة لا ككل السـنات ... ونم ليلة ما لها من سـحر
وقل للصديق طوينا الحـديث ... وقل للعـدو دفنـا الخبـر
وهيىء مكانيهمـا في التراب ... فان ركابيهمـا منتظـر

وعلى ذرا لبنان التى عشقها البلبل وصدح لها وهام فى رباها ، وقف شاعرها الأخطل الصغير ، وقد جاء الخريف وافتقـد البلبل ، فتطلع الى الأفق ، عله يرى عله يسمع ، ثم هتف من من أعماقه :

قف فى ربا الخلد واهتف باسم شاعره
فسـدرة المنتهى أدنى منـابره

ولكن الرياح لم تردد الا الصدى ، فقد رحل رحلته الأبدية وزوبعت الأركان بريش جناحيه •

وجاء يوم الاربعين فرفعت الستار بمسرح الازبكية (١) ، عن جوقة كبيرة من الموسيقيين يتوسطهم الموسيقار محمد عبد الوهاب ، واهتزت الأوتار جميعا بنغم حنون من « الصبا » الشجى الحزين الى قراره ، وتهدج صوت عبد الوهاب وهو يردد:

حطموا الاقداح مثلما حطمت حزنا قدحى
ودعوا الأفراح طوى اليوم بساط الفرح
خلدوا ذكراه فى كل القلوب خلدوها
مجدوا ذكراه شبانا وشيب مجدوها
عاش كالزهرة عطرا وندى وكسا الفن جلالا خالدا
لن تردوا بعض ما أسداكم ابدا مهما فعلتم ابدا

واذا ما ذهبت اليوم الى قبر البلبل ، ترد بعض الدين الذى اسداه الى الوطن العربى ، الى المسرح ، الى الاغانى ، الى الأطفال ، الى الفن الخالد ، اليك والى كل فرد ، وجدت على قبره بيتين ينطقان بالزهو وبالأمل :

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى
وكيف لا يتسامى بالرسول سمى

ان جل ذنبى عن الغفران لى أمل
فى الله يجعلنى فى خير معتصم

---

(١) ابولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ١٢٥

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

الباب الخامس :

الهيئة العامة للتأليف والنشر
(دار الكاتب العربى)

ملتزم التوزيع
في الجمهورية العربية المتحدة وجميع أنحاء العالم
الشركة القومية للتوزيع

مكاتب الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

١ ــ فرع شريف	٣٦ شارع شريف	تليفون ٤٠٠١٢ القاهرة
٢ ــ فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣٩ القاهرة
٣ ــ فرع ميدان عرابي	٥ ميدان عرابي	٤٦٣٨٣ القاهرة
٤ ــ فرع المنيل	١٣ ش محمد عز العرب	٢١١٨٧ القاهرة
٥ ــ فرع الجمهورية	٢٣ شارع الجمهورية	٩١٠٧٤٢ القاهرة
٦ ــ فرع عابدين	١٤ شارع الجمهورية	٩١٤٢٢٣ القاهرة
٧ ــ فرع الحسين	ميدان الحسين	القاهرة
٨ ــ فرع الجيزة	١ ميدان الجيزة	٨٩٨٣١١ القاهرة
٩ ــ فرع أسوان	السوق السياحي	٢٩٣٠ أسوان
١٠ ــ فرع الإسكندرية	٤٩ ش سعد زغلول	٢٥٩٢٨ الإسكندرية
١١ ــ فرع طنطا	ميدان الساعة	٢٠٥٤ طنطا
١٢ ــ فرع المنصورة	ميدان المحطة	المنصورة
١٣ ــ فرع أسيوط	شارع الجمهورية	أسيوط

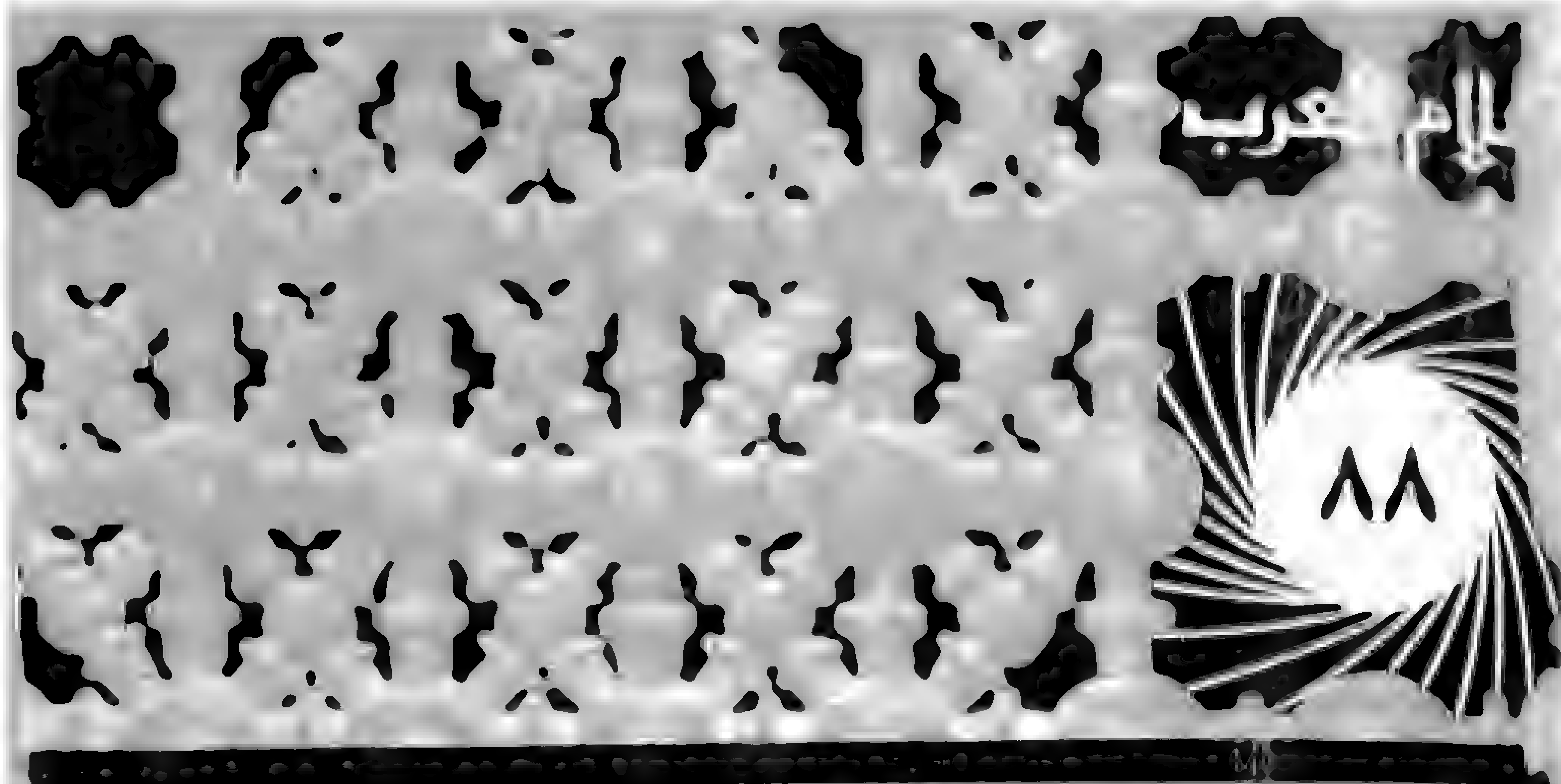
مراكز ووكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

١ ــ مركز توزيع الجزائر	شارع بن مهيدي العربي، رقم ١١ مكرر	الجزائر
٢ ــ مركز توزيع لبنان	شارع دمشق	بيروت
٣ ــ مركز توزيع العراق	ميدان التحرير	بغداد
٤ ــ عبد الرحمن الكيالي	شارع ٢٩ أيار ــ دمشق	سوريا
٥ ــ الشركة العربية للتوزيع	ص. ب رقم ٤٢٢٨ بيروت	لبنان
٦ ــ قاسم الرجب	مكتبة المثنى ــ بغداد	العراق
٧ ــ رجا العيسى	وكالة التوزيع ــ عمان	الأردن
٨ ــ عبد العزيز العيسى	دار التوزيع ص.ب ١٥٧١	الكويت
٩ ــ وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ ــ مكتب الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص ــ ليبيا	بنغازي
١١ ــ محمد بشير الفرجاني	٥٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ ــ الشركة الوطنية للتوزيع		تونس
١٣ ــ وكالة الأهرام	شارع الرشيد	عدن
١٤ ــ المكتبة الوطنية	الشارقة ــ الخليج العربي	البحرين
١٥ ــ مكتبة العروبة	ص.ب ٤٢ و ٦٤	الدوحة
١٦ ــ عبد الله حسين الرستماني	المكتبة الأهلية ص.ب ٢٦١	دبي/عمان
١٧ ــ المكتبة الحديثة	ص. ب ٢٢	مسقط
١٨ ــ أحمد سعيد حداد	المكتبة الوطنية ص.ب ٢٥	المكلا
١٩ ــ مكتبة دار العلم	شارع عبد المغني ميدان التحرير	صنعاء
٢٠ ــ علي إبراهيم شبير	ص. ب ٨٢	أسمرة
٢١ ــ عبد الله قاسم الحراري	ص. ب ١٧١١	أديس أبابا
٢٢ ــ مكتبة سنتر	ص. ب ٩٣٩	مقديشيو
٢٣ ــ عبد الله عامر محمد	ص. ب ٨٤٥	ممباسا
٢٤ ــ مكتب توزيع المطبوعات العربية	لندن	لندن
٢٥ ــ المكتب التجاري الشرقي	٤٥ ش كمبطار ص. ب ٥٠٠٥	سنغافورة
٢٦ ــ مكتبة مصر		الخرطوم
٢٧ ــ مكتبة الفجر		وادي مدني
٢٨ ــ زكي جرجس طليوس	ص. ب رقم ١٥٥	الخرطوم
٢٩ ــ إبراهيم عبد القيوم	مكتبة القيوم ص. ب ٤٨٠	بور سودان
٣٠ ــ عوض الله محمود دبورة	مكتبة دبورة ص. ب ٢٤	عطبرة
٣١ ــ عيسى عبد الله	المكتبة الوطنية ص. ب ٢٤٥	وادي مدني
٣٢ ــ مصطفى صالح	ص. ب ٤٤	كوستي

أسعار البيع للجمهور في الدول العربية

سوريا ٥٠ قرش سوري ــ لبنان ٥٠ قرش لبناني ــ الأردن ٥٠ فلس ــ العراق ٥٠ فلس ــ الكويت ٧٠ فلس ــ السودان ٥٠ مليم ــ ليبيا ٥٠ مليم ــ قطر ٧٥ درهم ــ البحرين ٧٥ فلس ــ عدن ١٠٠ سنت ــ أديس أبابا ٥٠ سنت ــ أسمرة ٥٠ سنت ــ الجزائر ٨٠ سنتيم

الهيئة العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي



محمد عبده

تأليف: عباس محمود العقاد

نوفمبر ١٩٦٩

محمد عبده

(الطبعة الثالثة)

أعلام العرب
٨٨

عبقري الإصلاح والتعليم
الأستاذ الإمام محمد عبده

للأستاذ
عباس محمود العقاد

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
(دار الكاتب العربي)

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

نبدأ هذا الكتاب بفصل عن عصر اليقظة ، يليه فصل عن حياة القرية المصرية فى ذلك العصر ، يليه فصل عن الجامع الازهر فيما اتصلت به حياة القرية من رسالته الفكرية والاجتماعية . لأننا نفضى من كل تاريخ من هذه التواريخ الثلاثة الى تاريخ صاحب السيرة : أعظم من أنجبته القرية ونهض برسالة الازهر فى عصره ، عبقرى الاصلاح والهداية محمد عبده ، قدس الله روحه وأعاننا على التعريف بفضله والتعريف بواجبنا من بعده .

تمهيد نفتتح به هذه السيرة العطرة ، لنبسطها على ما نتحراه فى سير العظماء جميعا ، صورة نفسية تعنينا منها حوادث الزمن ومواقع الامكنة وأرقام السنين بمقدار ما تمثله لنا من ملامح الصورة ومعالم الحياة التى تصورها ، وكل ما فى هذه الصفحات من أحاديث التاريخ والرواية عن محمد عبده فى نشأته وأسرته وصحبته وعوارض أوقاته من مولده الى وفاته، فالذى نتحراه منه أن يكون عضوا من أعضاء قوة حية ، قبل أن نتحراه جزءا من فترات التاريخ أو جزءا من الخريطة الجغرافية ، ويملى لنا فى مقصدنا أن صاحب هذه السيرة —

خاصة ـ ينبوع قوة روحانيــة تطوى عوارض الزمن وصــغائر الدنيا فيما تفيض به من حياة انسانية ، يخلص لنا منها بعـد تمحيص الجوهر عن نفــايات الاوشــاب والاخلاط ، اشرف ما تتحلى به نفس الانسان ، فى العالم الخالد الذى يذهب بالزبد ويبقى ما ينفع الناس .

وسنبلغ مقصدنا من هذه الصفحات اذا جلونا بها صورة يلتفت اليها طلاب القدوة الحسنة من ابناء هذا الجيل فيجدون أمام أعينهم ـ محمــد عبده ـ اماما هو أولى أئمــة العصر ان يأتم به المقتدى فيما اضطلع به من أمانة العقيدة ، وامانة الفكر ، وأمانة الخير ، وأمانة الحق ، وأمانة الاخلاص للخلق والخالق ، فى كل ما يتولاه الانسان ـ الجدير باسم الانسان ـ من نية وعمل ، ومن سر وعلانية .

عباس محمود العقاد

العصر

قيل أن أحلك ساعات الظلام هي ساعة الهزيع الاخير من الليل قبل مطلع الفجر الصادق بلحظات .

ويصدق ذلك على أوقات الظلام فى عصور التاريخ ، فان أظلم أوقاته لهو الوقت الذى يسبق فجر اليقظة بقليل من السنوات ، ثم تأتى اليقظة فى حينها فاذا هى بصيص النور الاول ، قبل تباشير الصباح .

وعلى هذه الوتيرة كان القرن الثامن عشر فى الشرق العربى أحلك ساعات ليله الطويل : ليل الجهالة والجمود ، ولم تكن بين العصور نسبة متصاعدة فى ترتيب الزمن كتصاعد الارقام فى حساب القرون ، فلم يكن القرن الثامن عشر — مثلا — أعرق فى النكسة و « الرجعية » من القرون التى تليه الى أواخر القرن السابع عشر الذى بدأت به نهضة العالم العربى فى العصر الحديث . بل كان القرن الثامن عشر أسوأ — ولا ريب — من أسوأ القرون التى تقدمته فى أيام الجهالة والجمود ، لأنه القرن الذى انبعثت فيه المسألة الشرقية من بقايا الحروب الصليبية، فكان نذير الخطر الاكبر ، اذ كان الخطر قد تفاقم وتراكم ، وتجمع وتوسع ، حتى لا مزيد .

وكانت المسألة الشرقية قد تمخضت عن دور آخر وراء دور الحروب الصليبية وهو دور التفاهم بين دول الاستعمار على تركة الرجل المريض . فبعد أن كان الغرض من المسألة الشرقية

انتزاع الاقطار المسيحية من أملاك الدولة العثمانية أصبح هذا الغرض ـ كما قلنـا فى كتاب ضرب الاسـكندرية « هو تقسيم أقطارها جميعا من مسيحية واسلامية وتبادل الاغضاء عن كل نصيب متفق عليه يقع فى قبضة الطامعين فيه من المتنازعين على التركة وصاحبها بقيد الحياة .

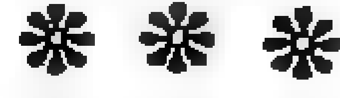
الا أن المسألة الشرقيـة صنعت من المعجزات في ايقـاظ الشرق ما لم تصنعه الحروب الصليبية .

لأن الشرق العربى انتصر على الغرب فى تلك الحروب ورد عادية الدول الأوربية عن ذماره فقنع بما انتهى اليه وبقى على حاله التى هو فيها ، وهبط من بعدها دركة تحت دركة ، حتى اصبحت أممه بين موروث بقيد الحياه ، وبين ميراث كأسـلاب الغنيمة مقسم فى من يقدرون على السلب والاقتسام .

لـكن المسألة الشرقية جاءت فى أوانها هـذا فصنعت من المعجزات ما لم تصنعه تلك الحروب ، وكان سر هـذه المعجزة أنها فتحت أعين الشرق على مواطن عجزه ونقصه ، وعلمته قهرا ما كان يأبى أن يتعلمه باختيـاره ، فأدرك حاجتـه الى التغيير العاجل ، وادرك ما هو ألزم له من ذلك وهو حاجته الى علم يجهله ، واعتقاده أن أمم الغرب قد انتصرت بذلك العلم عليه ، وانه لا غنى له عن ذلك العلم ليستعيد القوة التى انتصر بهـا على أعدائه ، قبل أن ينتصروا عليه ويأخذوا عليه كل طريق غير طريق الفناء أو التغيير ، ومن لم يطلب التغيير بعلم يتعلمه من المنتصرين عليـه فقد آمن بأن الله لا يغير ما بقـوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وآمن بأن قومه غيروا دينهم فتخاذلوا وانخذلوا ، فلا نجاة لهم بغير الرجوع الى الدين الصحيح ، مبرءا من لوثة البدعة والخرافة ، سليما من شبهة الدجل والغفلة .

فاذا كانت قارة الاستعمار قد حصرت خطتها حيال الشرق فى سياسة واحدة تريدها وتتعمدها ، فهناك كما قلنا فى كتابنا عن الكواكبى « سياسة أخرى لم تردها ولم تتعمدها تلقاها الشرق منها فهب لمقاومتها ، وتيقظ لمطامعها ، ونزل معها فى ميدانها الذى استفزته له باختيارها وبغير اختيارها ... ونقصر القول على الشرق العربى كما كان فى أواسط القرن التاسع عشر .. ففى تلك الفترة كانت مصر قد ظفرت بحصة كبيرة من الحكومة الذاتية ، وكانت لبنان قد خرجت بعد الفتن والازمات بنصيبها المقرر من الامتيازات الداخلية ، وكادت جزيرة العرب أن تنعزل بالدعوة الوهابية وتوشك أن تمتد منها الى العراق ، وكانت العراق فى صراعها مع حكم المماليك تتقدم فى خطى سراع الى الخلاص من ذلك الحكم المضطرب بين الكساد والوباء .. ولعلنا ندرك حقيقة الحال ونعلم أن وعود الاصلاح كانت ضرورة لازمة ولم تكن انعاما ولا احسانا من ولاة الامور اذا نظرنا الى بقاع العالم العربى فلم نجد فيه بقعة واحدة رضيت بما هى فيه ولم ينهض أهلها للمطالبة بنوع من الاصلاح على نحو من الانحاء ، فتحرك السودان وتحركت الصحراء وتحركت قبائل المغرب في ثورتها بل فى ثوراتها التى تكررت ولا تزال تتكرر الى اليوم وصدق على العالم العربى بين أطرافه المترامية قول القائلين فى الغرب : انه مارد خرج من القمقم ولن يعود اليه ، وكان فى الحق ماردا هائلا يتململ فى الأسر ليخرج من قمقمه المظلم المحصور ، ولكنه لم يكن ماردا معصوب العينين كما صوره أولئك الراصدون للقمقم أو كما أرادوا أن يتصوروه اذ كان للمارد زمامه فى أيدى الهداة من القادة الملهمين ومن رواد الثقافة الاولين ، وكان لهذه الهداية بين المسلمين وغير المسلمين طابع الشرق الخالد منذ الأزل ، طابع العقيدة والايمان .

وربما قال الجامدون قبل المجددين أن الاوربيين عملوا بأدب الاسلام فأعدوا العدة ونظروا الى حكمة الله فى خلقه فتقدموا وتأخر المسلمون .. »



ونحن الآن نغتبط بالمصير الذى انتهت اليه المسألة الشرقية بعد منتصف القرن العشرين ، ولكن واجب العظة الصادقة يتقاضانا أن نذكر فى كل حين أن الشرق لم يكن سريع الخطى فى انتقاله من دور الجمود الى دور الخلاص ، لأنه قضى نحو قرن كامل يجاذب بعضه بعضا عن الطريق القويم بين من يحسبون أن الخلاص كله فى اتباع الجديد على علاته ومن يحسبون أن هذا الخلاص مطلب بعيد المنال علينا اذا نحن لم ننبذ الجديد بقضه وقضيضه ، وكأنما خرج المارد من القمقم الى فضاء الارض والسماء ولكنه خرج اليه مكبلا بالأغلال والأعباء التى تثقل الرءوس قبل أن تثقل الاقدام ، ولبثت كل امة من أمم الشرق الأدنى تنتظر القارعة التى تخصها بالعظة بين جاراتها واخواتها التى تشبهها في المصاب وتشبهها فى المصير ، فلم تتعظ أمة من هذه الامم بمصاب غيرها على النحو الرشيد الذى يعفيها من تكرار الجهود وابتداء المسير من جديد، وكأنما كانت أثقال الماضى أكبر وأخطر من دواعى اليقظة والحركة فى الحاضر والمستقبل ، فبقيت هذه الامم المتيقظة تجرجر وراءها تلك الاثقال شوطا بعيدا بعد استقامتها على منهج الاصلاح المحتوم .

وفى مصر كانت حملة نابليون هى الصدمة الكبرى التى خصتها بدروسها العاجلة ، وكانت دروسا محتومة لا تمهل المتعلم أن يتردد بين الجمود والحركة .

وربما كانت الغلبة العسكرية أضعف تلك الدروس أثرا ، لأن هزيمة المماليك لم تقع من الأمة موقع الدهشة ولم يصعب على الذين كلفوا انفسهم تدبر عواقبها وأسبابها أن يردوها الى غضب الله وأن يعتبروا بعبرتهـا عقابا للقوم على الظلم والطمع وسوء السيرة وغلبة الترف والنعومة فى الكثيرين منهم على صفات البأس والنخوة كما قال شاعر الجبرتى :

انما هذه البلاد لأقوا
م حموها بالصارم المسلول

وأرى دولة المماليك مالت
لضروب اللذات (كل مميل) (١)

واغتنوا عن تجريد سيف ورمح
بقوام لدن وطرف كحيل .

ولكنهم علموا أن ظلم المماليك قد يسوق اليهم من يغلبهم ويقهرهم ، ولكنه لا يضع فى يد الغالب القاهر سلاحه الذى يصول به على عدوه فيقهره ويستذله وان لم يكن أحمد منه سيرة وأقل منه فسادا كما شهدوا بعد ذلك من سيرة « الفرنساوية » فى هذه الديار ، ثم نظروا فعلموا أن نابليون لم يزحف على المماليك بجيش واحد بل بجيشين : جيش يحمل السلاح وجيش آخر من جماعة العلوم والفنون يحمل الكتب والأوراق وهو الجيش الذى حشده الفرنساوية فى المدينة . « وأفردوا للمدبرين منهم والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية حيث الدرب .

---

(١) فى نسخ الجبرتى روايات لهذا الشطر صححناها بالظن هذا التصحيح.

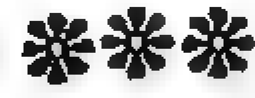
الجديد وما به من البيوت ، وفيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة ، وكان فى تلك المكتبة زيادة عن الكتب العلمية والتاريخيه أطالس فيها صور من سلف وصور الاماكن التاريخية وخرط البلاد والمدن والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم ، وعند توت الفلكي وتلامذته فى مكانه المختص بعلم الآلات الفلكية ، وافردوا لجماعة منهم بيت ابراهيم كتخدا السفارى وهم المصورون لكل شيء ، ومنهم اريجو الذى ابدع تصوير المشايخ المعينين بالمجلس ، وفريق منهم يحنطون الحيوانات والاسماك ، وأفردوا اماكن للمهندسين وسكن الحكيم (رويا) ببيت ذى الفقار كتخدا ونظم دار الادوية به ومعه عدة من الأطباء والجراحين ، وأفردوا مكانا فى بيت حسن كاشف شركس لعمل التحليلات الكميائية والظواهر الطبيعية ، وأفردوا أيضا مكانا للنجارين وصناع الآلات والأخشاب (١) » ..

وربما كان من بواعث احياء الثقة بعد موتها ، ومن بواعث الاقبال على هذه العلوم الغريبة بعد النفور منها والاعراض عنها ، ان أذكياء البلد فهموا أنها « بضاعتنا ردت الينا » وان الفرنسيين انما اخذوا من علومنا فى المشرق ما أهملناه وضيعناه فبلغوا به من القوة حديثا مثل ما بلغناه قديما ، ولا يزالون يبحثون عن المزيد ليبلغوا فوق ما بلغوه ، ومكن لأذكياء البلد من هذا الاعتقاد أنهم نظروا الى الجلة المختارة من علماء القوم فرأوهم يجدون فى البحث ولا يترفعون عن التمرغ بالأتربة والخرائب ليكشفوا بين ودائعها عن أسرار الكيمياء والفلك

---

(١) الجبرتى وتقويم النيل وغيرهما ..

وأخبار الرى والزراعة . ولم يتورعوا عند سفرهم عن حمل ودائع المساجد وخزائن الكتب بما اشتملت عليه من المخطوطات المطلوبة والنسخ النادرة ، تنفيذا للمادة الحادية عشرة من شروط الصلح الأخير التى تنص على : « أن أرباب العلوم والصنائع يأخذون معهم جميع الأوراق والكتب مما لا يخصهم فقط ، بل كل ما يرونه نافعا لهم » .



وقد فارقت الحملة الفرنسية مصر ولم تفارقها فكرة التقدم العصرى الذى سبق اليه القوم بعلوم ابتكروها أو بعلوم اقتبسوها منا ، وآن لنا أن نردها الينا .

ولكنها كانت فكرة تحوم بين بعض الرءوس ولا يظهر لها اثر في الحياة العامة ، لاختلاف وجهات النظر بين طلاب الجديد على علاته واعداء الجديد بحذافيره ، ولأن التجديد فى الحياة العامة مطلب تتولاه الهيئات المنظمة والحكومات المطاعة ولا يستقل به الأفراد فى جهود مبعثرة وآراء متضاربة . فلما قامت فى مصر أول حكومة ذاتية بعد حملة نابليون لم تلبث أن أحست وطأة الضرورات العملية والحاح المطالب الموقوتة ، ولم تكن هذه الضرورات مما يحتمل التسويف بين الآراء المتشعبة والوجهات المتعارضة ، ووجب على ولاة الأمر أن يوطنوا أنفسهم على مصير كمصير المماليك أو يبتدروا الزمن الى الانتفاع العاجل بتجديد التعليم والتصنيع ، فأخذوا فى بناء المدارس وارسال البعوث وانشاء المصانع وتنظيم الدواوين وضبط موارد الثروة ، وعملت المطبعة عملها فى نقل المؤلفات النافعة واحياء الذخائر السلفية ، وتداولت أيدى المثقفين القلائل كتب الأجانب فى علوم التاريخ والفلك والجغرافية والطبيعة والكيمياء وشئون الحكم والاجتماع.

كما تداولت كتب الأدب والثقافة من آثار السلف المهجورة ، واتجهت الهمم الى جمع هذه الآثار من مظانها فى المساجد والزوايا وخزائن القصور ، فلم يمض جيل واحد بعد الحملة الفرنسية حتى ظهر « الرجل المثقف » فى البيئة المصرية ولم تخل منه بيئة من بيئات التقليد والرجعة الى القديم وهى على عادتها فى الأزمنة المختلفة أعدى أعداء التحول والتجديد .

وشرط الرجل المثقف فى كل عصر أنه « ابن عصره » وان طابع عصره يلازمه في تفكيره وعمله كما يلازمه فى نظرته الى العالم من حوله ، فلا يعيش فى الزمن الحاضر بعقل الزمن الماضى ، ولا يترجم الواقع والحقيقة بلغة الوهم والخرافة ، وقد وجد هذا الرجل المثقف فى كل بيئة من بيئات التقليد والتجديد، فثبت طابع العصر على أبناء القرن التاسع عشر قبل انتصافه ، ولا نعنى بثبوت طابع العصر فى تلك الفترة انها أخذت كل ما يعطيه العصر من علومه وفنونه وأفكاره وخواطره ، ولا أن المثقفين فى الأمة غلبوا على أفكارها وخواطرها أو غلبوا على كل ما بقى فى رءوسهم وصدورهم من ميراث ماضيهم ، ولكنما نعنى أنهم استطاعوا أن يفتحوا أعينهم على النور بعد الظلمة ، فأبصروا غاية ما تمتد اليه تلك الاعين من منظور معروض بين أيديهم تحت أضواء النهار ، ولم يزل فيهم بعد ذلك حديد النظر وكليلة ، بل لم يزل فيهم من هو طويل النظر ينظر الى البعيد ولا ينظر الى القريب بين يديه ، أو ينظر الى القريب اللاصق به ولا يعدوه الى ما وراءه .

كان القرن الثامن عشر أحلك ساعات الليل قبل مطلع الفجر ، فلما طلع الفجر وأشرق من بعده النهار تيسرت الرؤية لمن يستطيعها كما تستطيع عيناه ، وهذا هو الفارق بين المثقف

ابن عصره فى منتصف القرن التاسع عشر وبين الجامد على قديمه قبل ذلك بخمسين أو ستين سنة . فارق بين من ينظر بعينه وبين من يتخبط فى الظلمة أو يقاد .

من هؤلاء الناظرين بأعينهم الى النور بعد منتصف القرن التاسع عشر ، بل فى الطليعة من أولئك الناظرين البصراء الى حقائق زمانهم ، نابغتنا الريفى الازهرى الذى علم علم اليقين ، بل آمن ايمان الدين المتين ، أن « التقدم العصرى » رهين بعلوم لنا أهملناها وهجرناها ، وعلوم للمعتدين علينا سبقونا اليها ولم نلحقهم فى غير القليل منها ، وهى حقيقة من « بديهيات » أيامنا هذه بعد منتصف القرن العشرين ، ولكن نابغتنا الريفى الأزهرى — محمد عبده — كان يقررها بعد منتصف القرن التاسع عشر فيجد أمامه من يخاطبهم بمثل ذلك المقال الذى كتبه فى صحيفة الاهرام الاسبوعية وتحرى فيه أن يكتبه بأسلوبه المخضرم بين القديم والحديث فقال :

« ليت شعرى اذا كان هذا حالنا بالنسبة الى علوم قد ارضعت ثدى الاسلام وغذيت بلبانه وتربت في حجره وتقلدت فى ايوانه منذ زمن يزيد على ألف سنة .. فما حالنا بالنسبة الى علوم جديدة مفيدة هى من لوازم حياتنا فى هذه الأزمان .. لابد لنا من اكتسابها وبذل المجهود فى طلابها ؟ .. كنا نؤمل أن المبنج يفيق بشم روح النوشادر .. فى زمان جرى فيه سيل العلوم حتى عم أنحاء الكرة على العموم .. وظهر فيه التوازن بينها وبين أحوالنا المهجنة ، كثروتهم وفاقتنا ، وعزتهم وذلتنا ، وقوتهم وضعفنا ، وقدرتهم وعجزنا ، وصولتهم وانهزامنا . وغير ذلك من المزايا والرزايا التى لا تعد .. لكن

صمت الآذان وعميت الأبصار ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (١) »

***

وقد كان الشـــاب محمد عبده يدعو هـــذه الدعوة وهو فى الطليعة من أبناء جيله ، ولكنه ســجل بها طابع العصر كله من منتصف القرن الثامن عشر الى منتصف القرن التاسع عشر ، ومن هزيع الليل الأخير ، الى مطلع النهار .

---

(١) أحد فصول كثيرة كتبها سنة ١٢٩٣ هـ .

القرية

اذا أحاطت ألفاف الظلام ببقعة من الأرض خفيت معالمها ولم يتبين منها موضع من موضع ، وخيل الى الناظر اليها على البعد أنها خلاء بلقع أو أنها مسكن مهجور لا يأوى اليـه ديار ، ولا ينبعث منه بصيص نور .

ويقترب السالك اليه فلا تنمحى أمام عينيه آية الظلام ، ولـكنه يرى معها شيئا غير الظلمات التى اطبق بعضها على بعض ، شيئا من النور هنا وهناك ، بين سراج ضئيل على باب دار ، أو فتيلة خافتة عند زاوية جدار ، أو نار تشب للهداية ، أو موقد يضرم للطعام : شيئا آخر من بصيص النور غير ألفاف الظلام .

على حالة مثل هذه الحالة كانت صورة القرية المصرية فى العصر المخضرم بين أواسط القرن الثامن عشر واواسط القرن التاسع عشر :

صورتها من خلال التاريخ العام ظلام وموات ، وصورتها من قريب تنجلى عن شىء غير الظلام والموات ، بصيص من النور ورمق من الحياة .

ينظر القارىء فى صفحات التاريخ العام منذ قرون ترجع الى ما قبل الميلاد ، فلا يفرغ من قصة دولة طاغية الا ليبدأ بعدها فى قصة دولة باغية ، ولا ينتهى من حكم دخيل الا لينتقل الى حكم أصيل يضطرب بين الضعف والشقاق وبين العسف

والجمود . وينطمس فى أثناء ذلك كل ما تخلله من بريق هنــا ووميض هناك ، فلا تنطبق الصفحات آخر الأمر الا على ألفاف من الظلمات كتلك الألفاف التى تحيط بالسـالك فى غياهب الليل فلا يبصر وراءها غير ظلام مطبق على ظلام .

وينتقل قارىء التاريخ العام من تاريخ القرية على حـدة فيرى شيئا آخر الى جانب الطغيان والمذلة : شيئا من العزة هنا ومن السخط هناك ، وشيئا من الشعور بغير التسليم وراء كل تسليم ، ولكنه متفرق متقطع يراه الناظر اذا تبينه وفتش عنه ، ولا يكاد ينكشف له من النظرة الأولى فى نطاق أوسع من نطاق الآحاد منفردين متفرقين .

ومن الحق الا يعجب قارىء التاريخ العام من هذه الصورة المختلفــة للقرية المصرية فى تلك الفترة ، فانه كان أحـرى ان يعجب لتلك القرية أن تبقى فيها بقية من التربة المخصبة بعـد جوائح القحط والجدب والاغتصاب والانتهاب وعوارض الجفاف من سوء الزرع وسوء الرى أو سوء توزيع الماء ان فاضت به مجارى ، فاذا كان هذا كله لم يستنفد ذخيرة الخصب فى هذه الأرض العتيقــة فلا عجب أن تبقى للنفس البشرية ذخيرة من قوة الحياة بعد ان أصابها من غوائل الزمن ما أصاب أرضها من خراب وجدب واغتصاب .

وواقع التاريخ العام ، عند التأمل فيه ، أنه لم يخل قط من دلائل القوة الـكامنة وراء ظواهر التسليم والجمود ، وان طال بها الكمون والجمود احيانا الى أجيال وراء أجيال .

فالتاريخ العام لم يخل من ثورة المقاومة بعـد مظالم بناة الأهرام ، ولم يخل منهـا فى ابان دولة الرومان ، وربمـا كانت المسيحية المصرية شعلة من شعل هذه الثورة بما شرعته لأهلها

من عقيدة تنكر عقيدة الدولة الحاكمة، وبما ساقت اليه العازفين عن الطاعة العمياء من عزلة الدير ووحدة الرهبانية .. ومن أبى تلك الطاعة العمياء من غير أهل الخير والتقوى فلعله لم يحمل سلاح العصيان ولم يذهب مع العصب والمناسر الا استباحة لعصيان الحاكم الظالم ، قبل استباحته للحرام من الأنفس والأموال .

وينبغي أن نذكر أن الحاكم الظالم لم يكن في وسعه أن يستأصل جذور الحياة فى القرية لو أراد ، وانه لم يكن له مأرب فى استئصالها ولم تكن له خبرة بوسائل استئصالها لو كان له من بعد النظر ما يخفيه من عواقبها فى الزمن البعيد . فأما مأربه منها فى حاضر وقته فكل همه منه محصول الزرع الذى يحمل اليه وهو قابع فى قصور المدينة ، ومن حمله اليه من أعوانه فهو في تسخيره للحارثين والكادحين لا يستغنى عن مسألة فريق منهم ومداراة آخرين ، بل عن بذل الرشوة لمن يعرفون فى القرية من لا يعرفهم من العاملين والمتمردين .

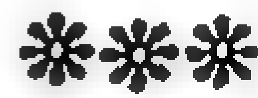
وكان ملتزم الزرع والضريبة لأصحاب السلطان فى دولة المماليك أحوج ما يكون الى تلك المداراة ، سواء فى القرى التى يملكها أبناؤها أو فى القرى التى تزرع على « الروك » كما كانوا يسمون الزرع المشاع بعد أيام الأيوبيين .

فالمالكون لأرضهم على قلتهم كانوا أرسخ فى بلادهم قدما، وأعصى مقادا على الملتزم ، من أن يسوقهم جميعا بعصا الاكراه والتسخير ، وقد يرضى فريقا منهم بالتزامات صغيرة الى جانب التزامه الكبير .

والزارعون فى أرض « الروك » غرباء عن الملتزم فى كل قرية غير قريته التى ولد فيها ان كان من أهل القرى ، أو هم

غرباء عن مدينته ان كان من أهل العواصم البعيدين عن الريف. فسبيله اليهم ان يرضى من يعرفهم وأن يحسب لهؤلاء حسابهم، لأنهم ان كانوا أضعف بأسا من أن يقدروا عليه فهو أقصر يدا وأعجز وسيلة من أن يقدر عليهم أجمعين ، وأن يستفيد شيئا من قدرته عليهم كارهين مضربين .

وقد كانت لموارد القطر كله حصيلة يحسبونها بالقراريط أربعة وعشرين قيراطا موزعة بين الأمراء والجند ومرافق الدواوين وأعمال القناطر والجسور والأحواض ، وكانت من هذه القراريط حصة محجوزة لأولئك الرؤساء المقدمين بين أبناء الريف ، يسمونهم فى سجلات الدولة بالعلماء أو مشايخ العربان، ويسمون « بأبناء العرب » كل من لم يكن من أبناء الترك والجراكسة وأعاجم الجند من كل قبيل ، فلم يكن « مشايخ العربان » كلهم بدوا يعيشون فى مضارب الخيام ، بل كان اكثرهم من الفلاحين والقرويين .



ان منفذ الحرية ، أو منفذ المقاومة ، أو منفذ الشكاية الذى بقى لأبناء القرى فى أواخر عهد المماليك ، قد يتمثل لنا فى حادث من حوادث كثيرة رواها المؤرخون لتلك الفترة ، ولكن هذا الحادث قد جمع من مراجع السلطة وأساليب المقاومة واشترك فيه الأمراء والعلماء وجمهرة الشعب على مثال يستحق ان نفرده بالذكر في هذا المقام .

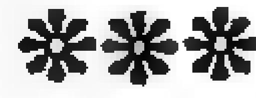
روى الجبرتى فى الجزء الثانى أن الفلاحين فى قرية من قرى مركز بلبيس شكوا فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٠٩ هجرية (١٧٩٥ ميلادية) الى الشيخ عبد الله الشرقاوى كبير علماء الأزهر ظلما لحق بهم من أتباع محمد بك الألفى أمير المماليك المشهور ، فأبلغ الشيخ شكواهم الى كل من مراد بك وابراهيم

بك ليخاطبا الألفى بك فى هـذه الشـكوى ويطلبا اليه أن يكف أتباعه عما يوجبها ، وانقضى زمن على هذا البلاغ بغير جدوى ؛ فجمع الشيخ الشرقاوى علماء الأزهر وتشاوروا فى الأمر مليـا فانتهوا الى انذار الأمـراء جهرة بالمقـاومة واتفقوا على اغلاق أبواب الجـامع ودعوة التجـار وأصـحاب الاعمـال الى اغلاق الدكاكين وحوانيت التجارة واعلان ما نسميه اليـوم بالاضراب العام ، ثم ركب الشيخ الشرقاوى والعلمـاء فى اليـوم التـالى وتبعتهم جمـاهير الشعب الى منزل شـيخ السادات لاشراكه واشراك أتباعه معهم فى مقـاومة الأمراء حتى يسـتجيبوا الى مطالبهم ، وكان لابراهيم بك قصر بجوار بيت شيخ السـادات فرأى هذه الجموع التى لا يكف عنها المدد مما حوله ، وهالته كثرتها فأرسل من يسأل عن سبب اجتماعها ، ثم علم بالسبب فلم يجسر على الذهاب بنفسـه الى مكان الاجتمـاع وأناب عنـه الدفتردار ايوب بك لاستماع أقوال العلماء والسعى فى تحقيق ما طلبوه ، فعلم منهم أنهم يريدون كف المظالم وصيانة الأموال والارواح ورفع المـكوس والضرائب الا ما يرتضـيه الرعيـة ، فخـاطبهم أيوب بك فى تخفيف بعض هـذه المطالب والاكتفـاء بتعجيـل بعضها مما يسـتطاع انجازه لوقته ، وقال : ان رفع المكوس والضرائب دفعة واحدة متعذر ، وانه قد يرفع شـيئا فشيئا والا « ضاقت علينا المعايش والارزاق » فصارحه العلماء قائلين : ان الامراء ينفقون الاموال فيمـا لا حاجة به ولا خير فيه ، وما الحاجة الى انفاق المال فى البذخ والترف والاستكثار من الجوارى والمماليك ؟ ان الامير يعطى ولا يأخـذ ما فى أيدى الناس ، وان الانفاق على اللذات وضروب الزينة الخاوية اسراف وفضول .

ولم يستمع العلماء جوابا شافيا في ذلك المجلس فباتوا ليلتهم فى حرم المسجد على أن يخرجوا فى الصباح الى الميادين والساحات العامة معلنين الامراء بخلع الطاعة والاستجابة الى أحكام الشريعة ، فبادر ابراهيم بك الى طلب المعذرة منهم واحال التبعة فى رفض مطالبهم الى اصرار المخالفين له من أمراء المماليك ، وعلى رأسهم صاحبه مراد بك ، وابلغهم أنه يؤيدهم ويحارب فى صفوفهم اذا أصر المخالفون على الرفض والمراوغة ، وكاشف مراد بك فى الامر مستحثا له على عمل شيء عاجل لتهدئة المدينة قبل انفجار الشعب كله بالعصيان .

وكان الوالى الأكبر يرقب الحالة لينظر ما يصنعه امراء المماليك لتدارك الخطر قبل استفحاله ، فلما كان اليوم الثالث ولم يصنعوا شيئا قصد الى قصر ابراهيم بك وجمع هناك كبار الجند وأصحاب الكلمة النافذة فى عساكر المماليك وأرسلوا الى العلماء والرؤساء يدعونهم للمشاورة ويعدونهم بابرام الأمر على ما يحبون ، فحضر من رؤسائهم كل من الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ البكرى ، وهم نواب الأمة المختارون لهذه الملمات : وانفض الاجتماع بعد طول الأخذ والرد بقبول ما طلبه العلماء وكتابة موثق بذلك على الأمراء أن يتبعوه ولا يخالفوه ، ووقعوا جميعا على الحجة الشرعية ، التى تسجل هذا الموثق وخلاصتها : ان يدين الأمراء بقضاء المحاكم فى قضايا الحقوق ، وأن تفرض الضرائب بموافقة الرعية على حسب الأحكام الشرعية ، وأن يمتنع عدوان الحاكم بغير جريرة من المحكومين . وسميت هذه الوثيقة بالحجة الشرعية على عادة قضاة الشريعة فى تسمية هذه العقود ، ولو أنها كتبت فى بعض البلاد الأوربية لجاءنا خبرها مع كتب القوم فى علوم السياسة الحديثة بعنوان من تلك العناوين الكثيرة عن حقوق الشعب أو الدستور

الاكبر أو « الماجنا كارتا » وما اليها من مصطلحاتهم التاريخية ، ولكن العلماء الذين دعوا أمراء العصر الى توقيع ذلك العهد لم يحسبوا أنهم جاءوا الى الناس بعهد جديد غير التذكير بعهد كتاب الله وسنة رسول الله التى نسيها أولئك الأمراء ، وكتب الموثق « حجة » عليهم بشهادة الرعية وشهادة « الأمة » التى تأمر بالمعروف من عباده العلماء .



وقد بقيت للقرية هذه البقية الصالحة من القدرة على المطالبة بالحق والشكوى من الظالم الى ما بعد عهد المماليك بزمن طويل ؛ ولم تكن فى كثير من الأوقات كافية لرفع المظالم وكف يد الظالم ، ولكنها كانت في أحلك الأوقات كافية لتحريك القوة الكامنة فى قلب انسان مؤمن بالعدل والخير متحفز للجهر بما يؤمن به حيث يجدى الجهر بالايمان أو يجد له مستمعا من القلوب والآذان .

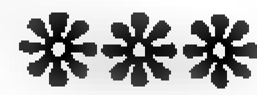
وقد أرخ أمامنا صاحب هذه السيرة لهذه الظاهرة الاجتماعية فى تلك الفترة بعينها فقال رحمه الله فى مقاله عن محمد على رأس الأسرة الخديوية أن الأمراء « اضطروا أن يخففوا من ظلمهم وأن يتخذوا لهم من الأهلين أنصارا يؤازرونهم عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم . فلما أحس الأهلون بحاجة الأمراء اليهم زادوا فى الدالة عليهم واضطروهم الى قبول مطالبهم ، فعظمت قوة الارادة الشعبية عند أولئك الذين كانوا عبيدا بمقتضى الحكومة وانتهى بهم الأمر أن قيدوا الأمراء والملوك معا ... نعم كانت الحكومة فى مصر على نوع تخالف به الحكومات الشرقية ، وكانت البلاد موزعة بين أمراء كل منهم يستغل قسما منها ويتصرف فيه كما يهوى ، وكان كل منهم يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده الى ما في يد الآخر أو يدفع به صولته ، فالخصام كان دأبهم

والحرب كانت أهم عملهم ،لذلك كان كل منهم يستكثر من المماليك ما استطاع ليعد منهم جنده ، وكانت تعوزهم مؤنتهم اذا كثروا فاضطروا الى اتخاذ أعوان من أهالى البلاد ، فوجدوا من العرب احزابا كما وجدوا منهم خصوما ، ثم رجعوا الى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون اليه ، فاتخذوا بيوتا منها أنصارا لهم عند الحاجة ، وعرف هؤلاء حاجة الأمراء اليهم فارتفعوا فى أعينهم وصار لهم من الأمر مثل ما لهم أو ما يقرب من ذلك . لهذا كنت ترى فى البيوت المصرية بيوتا كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم ... وذلك كان يقضى على كل أمير من أولئك الأمراء أن يصرف زمنه فى التدبير واستجلاب النصير ، واعداد ما يستطيع من قوة لحفظ ما فى يده والتمكن من اخضاع غيره ، وكان أنصاره من الأهالى يجارونه فى ذلك خوفا من تعدى أعوان خصمه عليهم ... وهذا يحدث بطبعه فى النفوس شمما وفي العزائم قوة ، ويكسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية مهما احتقرت نوعها . فكانت العناصر جميعها فى استعداد لأن يتكون منها جسم حى واحد يحفظ كونه ويعرف العالم مكانته » .

ثم انتقل الى عصر محمد على فقال ما فحواه انه خاف على سلطانه من أبناء البلاد « فوجه عنايته الى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأسا يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهلين ، وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الأهالى وزالت ملكة الشجاعة منهم ، وأجهز على ما بقى فى البلاد من حياة فى انفس بعض أفرادها فلم يبق فى البلاد رأسا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده الى السودان فهلك فيه . وأخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام ، ولم يبق فى البلاد الا آلات له يستعملها فى جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى اى وجه ...

فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفسى ليصير البلاد جميعها اقطاعا واحدا له ولأولاده ، على أثر اقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة » .

ثم قال : « أين البيوت المصرية التى أقيمت فى عهده على قواعد التربية الحسنة ؟ أين البيوت المصرية التى كانت لها القدم السابقة فى ادارة حكومة أو سياستها أو سياسة جندها مع كثرة ما كان فى مصر من البيوت الرفيعة العماد ، الثابتة الأوتاد ؟ ... انه ارسل جماعة من طلاب العلم الى أوربا ليتعلموا فيها فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا في البلاد ما استفادوا ؟ كلا . ولكنه اتخذهم آلات تصنع له ما يريد ... وظهر بعض الأطباء المتازين وهم قليل ، وظهر بعض المهندسين الماهرين وهم ليسوا بكثير . والسبب فى ذلك أن محمد على ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس ... فاحتاجوا الى بعض المصريين ولم يكن احد من الأعوان مسلطا على المهندس عند رسم ما يلزم له من الأعمال ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج ، فظهر أثر استقلال الارادة فى الصناعة عند أولئك النفر القليل من النابغين ، وكان ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين » .



ومن المحقق ان الخطة التى نسبها الأستاذ الامام الى محمد على انما كانت احدى خططه المرسومة فى سياسته العامة التى أراد بها أن يحصر الأمر كله بين يديه وأن يجرد البلد من كل قوة تحدث نفسها بمقاومته أو الانتقاض على حكمه أو منازعته فى شأن من شئون الدولة سواء بدرت هذه المنازعة من جانب ابناء الترك كما كانوا يسمون المماليك عامة أو من جانب أبناء العزب كما كانوا يسمون الفلاحين عامة بغير تفرقة بين أبناء البادية وأبناء الريف ، وكان همه الأكبر أن يتخلص من أولئك السادة الذين رشحوه للولاية

وتقدموا مرة بعد مرة لمحاسبة الأمراء من قبله ، لأنه علم أنهم قادرون على ترشيح غيره كما رشحوه وعلى محاسبته كما حاسبوا غيره ، وخشى من جانب الريف أن يدين أبناؤه لصاحب جاه أو صاحب « عزوة » من أهله ، وبخاصة بعد التحالف بين بعض أبناء الريف وبعض خصومه الذين هجروا العاصمة فرارا من القتل والغيلة ، ولم ينس محمد على أن قبائل الأطراف ربما استقلت بالحكم زمنا وامتنعت عن أداء الخراج لولاة الأمر فى القاهرة كلما اتهمتهم بالمروق من سلطان الدولة أو بالجور على حقوق الرعية ، فلم يكفه أن يجرد أصحاب الجاه من قدرتهم على العصيان والانشقاق ، بل حرص على تجريدهم جميعا من كل جاه لا يستمدونه منه ولا يرجعون به اليه .

الا أن الحاكم المستبد قد يستطيع أن يستأصل الفروس النامية ولكنه لا يستطيع — مهما بلغ من طغيانه وحرصه — أن يستأصل الجذور الكامنة فى أعماق أرضها ، ولا البذور المدفونة فى انتظار نبع يسرى اليها أو سحابة تهطل عليها ، وتتركها لما قسم لها من الحياة فى تربتها .

ويظهر من سياسة الولاة بعد محمد على أن سياسة التجريد والاستئصال لم تجرد الريف من تلك العناصر التى يحسب الوالى حسابها ويشفق من عواقب اهمالها كما يشفق من عواقب استئصالها . فان الوالى محمد سعيد لم يلبث أن شعر بسوء المغبة من هذا الاهمال وأدرك ضرورة الاستعانة فى حكم الريف ، فكتب الى الأقاليم قبل انقضاء جيل محمد على مراسيمه التى يقول فى احدها بعد تمهيد وجيز : « وقد سنح لخاطرنا أن اجعل الحكام ممن يوثق باعتمادهم فى الأمور الدينية والمدنية من عمد أبناء العرب بنواحى المديريات مع أبناء الترك على سبيل التجربة وابرار ما انطووا عليه من الثمرات المقصودة بالذات أو ضدها ، وهناك

يكون الاقدام على تقدمهم أو بتعيين تأخرهم عن برهان واضح .
فابتدأنا بتنصيب اثنين من عمد نواحى مديرية المنيا وبنى مزار نظار أقسام وجعلناهما موقعا للتجربة وأمرنا مدير الجهة المذكورة بتنصيب جانب من العمد حكام أخطاط . والآن تعلقت ارادتنا ان يكون حصول ذلك بسائر الأقاليم فأصدرنا أوامرنا الى المديرين عموما وهذا اليكم لتنتخبوا من عمد أبناء العرب المجربين الاطوار المتصفين بحسن الاستقامة والسياسة من يليق بالتقدم لمناصب الحكومة وترتبوا نظار أقسام مديريتكم على الثلث منهم ، بأن يكون اثنان ـ هكذا ـ نظار أقسام من أبناء الترك وواحد من أبناء العرب ، كما أن حكام الأخطاط يكون منهم ثلاثة من أبناء الترك وواحد من أبناء العرب ، وقبل أن ترتبوهم أعرضوا علينا بيان أسمائهم وأسماء بلادهم وأقسامهم وأخطاطهم ... » .

وازداد شعور الولاة بضرورة المعاونة بينهم وبين أبناء القرى على حكمها وولاية شئونها ، فشاعت الدعوة الى الحكم النيابى في عهد اسماعيل ، وكان من أغراض اسماعيل فى مجاراته لهذه الدعوة أن يستخلص بعض السلطة من الرقابة الأجنبية باسم الأمة ليتصرف به ما استطاع على أيدى أعوانه وأوليائه من الوجهاء وعمد الأقاليم ، ولكنه ـ ولا ريب ـ كان يعمد الى هذه الحيلة لأنه يدرك أن مشاركة هؤلاء الريفيين فى حصة من الحكم وسيلة لا غنى عنها لتوطيد سلطان الحاكم وضمان البقاء لصاحب الولاية الكبرى فى العاصمة ، ولم تكن ثورة عرابى فى عصر خليفته توفيق الا أثرا من آثار التهاون فى اتباع هذه السياسة ، أو أثرا من آثار العدول عنها لتغليب عنصر « أبناء الترك » على عنصر « أبناء العرب » فى وظائف الجيش والحكومة .

على أن ودائع الخير فى القرية لم تكن فى عصر من العصور محصورة فى أبناء « البيوتات » التى تتميز بالجاه والمال وسعة الثراء من الأرض والعتاد ، فان هذه البيوت نفسها لم تكن لتستقر فى مكانها لو لم يكن قرارها على أساس آخر مكين هو أساس الاسرة أو اساس « البيت » على الاجمال ، وليس بالنادر أن يكون البيت الصغير دعامة للبيوتات العالية تعزها وتعتز بها وتتصل جميعا بوشيجة جامعة من النسب والمصاهرة ، وربما تعرضت البيوتات العالية لسطوة الحاكم المستبد اذا وقفت منه موقف المناجزة أو وقف منها موقف الحذر والريبة ، لأنه أقوى من كل بيت منها على حدة وأقدر على أن يأخذها متفرقة واحدة بعد واحدة قبل أن تأخذه دفعة واحدة وهى متفقة عليه . أما البيوت الصغيرة التى تتوارى عن بصر الحاكم الكبير وتغلب الظلم بالكثرة فهى الذخيرة الخالدة التى لا تفنى مواردها ولا يتأتى للطغيان أن يجردها من مروءة العرف التى تتوشج مع الشعور بحقوق القرابة والمصاهرة وحياء النسيب من النسيب ودالة الصغيرة على الكبير وكرامة الكبير على الصغير ، وليس من شأن القروى الذى ينتمى الى قرابة واسعة موفورة العدد من هذه القرابات المعروفة فى بلاد الريف أن يستكين الى حاكمه الصغير فى القرية الى غير نهاية ، وليس من شأنه أن يعجز عن النجاة بنفسه من جوار الى جوار بين عشيرته وذوى قرباه ، كلما ضاقت به الحال وبلغ به الجور والنكاية غاية الاحتمال .

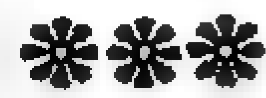
والأسرة على أوضاعها العريقة هى عصمة القروى من جور حكامه وعوارض زمانه سواء منها ما يتوطد بالجاه والعصبة القوية وما يتوطدبالعدد الكثير والنسب المتشعب، والصهر المتجدد والعرف الموروث ، متلاحقا متمكنا على مدى الأسلاف والأعقاب .

وقد صادقتنا هذه الحقيقة فى ترجمتنا لسعد زغلول كما

نصادفنا الآن فى ترجمتنا لأستاذه وزميله محمد عبده . فقلنا فى فصولها الأولى ان « الآسرة عظيمة الشـــأن فى آداب المصريين من اقدم عصور التاريخ ولم يتجرد المصرى من عواطف الأرحام بين ابوة وأمومة وبنوة وقرابة وآصرة دانيه أو قاصية » . وذلك هو قوام العرف الاجتماعى فى أخلاقه وعلاقاته . وهو أيضا قوام المحافظة المصرية التى تحب الألفة وتعرض عن البدع والخوارق . والوصـــايا باتخاذ الأسرة معروفة فى الأدب المصرى منذ آلاف الســنين ، ففى وصايا فتاح حوتب التى كتبت قبل اكثر من ستة واربعين قرنا يقول الوزير لتلميذه : اذا كنت رجلا ذا منزلة فاتخذ لك منزلا وأحبب قرينتك الحب الجميل وأطعمها وأكسها وطيب أوصالها وأدخل السرور على قلبها طول حياتها ... ولم تنس الوصية بتوقير الأسرة وصلة الأرحام بعد ذلك كلما كتبت الوصايا فى العهد القديم ، ففى نسخة من وصية عانى محفوظة فى مخطوطات الأسرة الثانية والعشرين يقول الحكيم : اتخذ لك زوجة فى شبابك لتنجب لك ولدا تربيه وأنت فى صباك وتعيش حتى تراه فى عداد الرجال . وما أسعد الرجل الذى له عشيرة كبيرة . ان الناس يوقرونه من أجل بنيه .

« وفى هذه الوصايا يقول الحكيم ، ضاعف لأمك خبزها واحملها كمـــا حملتك . لقد أثقلتها وما نبذتك وظلت تحملك حول عنقها بعد ميلادك وظل ثديها ثلاث سنوات فى فمك ولم تأنف من تنظيفك ولم تقل قط : ماذا أصنع بهذا ؟ وأرسلتك الى المدرســة تتعلم الكتابة ووقفت لك بالخبز والشراب كل يوم تنتظرك . واذكر اذا تزوجت وانفردت بمنزلك كيف ولدتك أمك وكيف ربتك وتعهدتك بكل ما عندها من وسيلة عسى ألا تصيبك بضرر ولا ترفع يديها الى الله بالدعاء عليك ولا يستمع الله منها الى شكاية » .

« فهذه الرحمة البيتية قديمة لم تتغير فى الزمن الحديث ، ومن عظم الرأفة بالبنين أن يمتد زمن الرضاع لهم الى ثلاث سنوات كما يفهم من هذه الوصية ، وأن الرافة فى تلك الأجيال السحيقة الغربية ولو كانت رأفة الآباء بالبنين ... فالمصرى اجتماعى من ناحية الأسرة وعراقة المعيشة الحضرية ، أو اجتماعى من ناحية انتظام العادات والعلاقات منذ أجيال مديدة على نظام الأسر والبيوت ، وهذا هو أقوى ما يربطه بالمجتمع أو يربطه بالأمة والحياة القومية » .



ان العصور المتطاولة قد استنزفت من ثروة القرية ـ أنفسا وأموالا ـ غاية ما استطاعت أن تسلبه أو تفنيه مما لا يحصره الاحصاء ، وقد نحصره بتقدير الحساب فيكفينا أن نعلم أن تعداد أبناء مصر هبط الى مادون الملايين الثلاثة فى أخريات عهد المماليك بعد أن أربى على الثلاثين فى بعض عصور الفراعنة على تقدير بعض المؤرخين !

وربما هبط سكان القرى الى نحو الثلثين على الأكثر من هذه الملايين الثلاثة التى بقيت فى القرن السابع عشر بعد الهجرة الى المدن والفرار على غير قرار .

وجاء عصر الاقطاع بعد الدولة الأيوبية فصفى هذا العدد تصفيته الأخيرة حين قسم أبناء القرى الى فريق ملازم للقرية سماهم بالقراريين ، وفريق متردد بين القرى لا ينتسب الى مكان معلوم منها سماهم بالفراريين . ومن ذلك الحين أصبحت صفة « القرارى » عنوانا على العمل المتقن والصنعة المحكمة وقيل عن كل صانع يحسن عمله ويبالى أن يحمد عليه أنه قرارى فى هذه الصناعة ، حتى بلغ من سوء استخدام هذه الكلمة فى غير موضعها

أن وصف بها « اللص القرارى » والمحتال القرارى ، بعد أن كانت وصفا للزارع الخبير بشئون السقى والبذر والحرث والحصاد ، لاستقراره فى القرية وعلمه بطبيعة الأرض والجو وتقليات الأهوية وعوارض الآفات ، خلافا للزارع القرارى الذى لا يعرف من كل قرية غير موسمه فيها وأجرته من محصولها .

هؤلاء الفلاحون « القراريون » حملوا أوزار المظالم من قديمها ولكنهم احتفظوا كذلك بذخيرة العرف وشريعة الحياء من أصولها ، وحسبهم من هذه الذخيرة أن يأنف أحدهم أن يخزى هذا القريب أو ذاك النسيب بالعار الموروث ، وكل عار فى القرى موروث الى الأعقاب وأبناء الأعقاب ... أو حسبهم أن يقف بهم الاحتمال عند الحد الذى لا يحمد بعده احتمال ، ثم ينقلب بعد ذلك من الصبر الى الثأر أو يتحول من هذا الجوار الى ذلك الجوار . فإن عم البلاء كل جوار حوله فى حقبة من الزمن فهو البلاء الذى يعم عاره ولا تلصق وصمته بهذا الجبين دون ذلك الجبين ، بين آلاف ومئين .

وفى هذا القرار من القرية نشأ فى القرن التاسع عشر رفاعة الطهطاوى ، وعلى مبارك ، وعبد الله فكرى ، وحسن الطويل ، وأحمد عـــرابى ، ومحمد عبده ... وكلهم بعثت به القرية الى الجامع الأزهر ، وبعث به الجامع الأزهر الى ميدان الكفـاح والاصلاح .

الأزهـــر

فى منتصف القرن الثامن عشر (١٧٤٨) أسندت ولاية مصر الى الوزير العالم أحمد باشا كور ، وكان من المشتغلين بعلوم الهيئة والرياضة ، فرغب فى مذاكرة علماء الأزهر الذين يدرسون تلك العلوم فى حلقاتهم بالمسجد الجامع ، وخاطب مقدم العلماء الشيخ عبد الله الشبراوى فى ذلك ومعه عالمان من كبار علماء العصر هما الشيخ سالم النفراوى والشيخ سليمان المنصورى ، فسكتوا ثم صارحوه بأنهم يجهلون تلك العلوم ولا يشتغلون بتدريسها وانصرفوا بعد أول لقاء بينهم وبين الوالى وهم يحسبون انها مسألة فرغ الحديث منها ، ولكن الوالى عاد الى الحديث مع الشيخ الشبراوى فى جلسة من جلساته معه بعد صلاة الجمعة بمسجد القلعة ، وكانت الخطبة فى ذلك المسجد من عمل الشيخ الشبراوى ، يؤم المصلين ومنهم الوالى ويتناول الغداء على مائدته بعد الصلاة ، ويجرى الحديث بينهما أحياناً على شئون الأزهر وشئون الدين على العموم ، ثم ينصرف الى موعده من الأسبوع الذى يليه .

قال الوالى ذات مرة ما فحواه : كنت احسب مصر كما نسمع فى بلادنا منبع العلوم والفضائل ، فلما جئتها أخلفت ظنى وذكرت المثل القائل : « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » !

قال الشيخ الشبراوى : بل هى كما سمعتم معدن العلوم والمعارف .

قال الوالى : وكيف ؟ وأنتم أعظم علمائها ولم أجد عندكم شيئا من العلوم التى سألت عنها ، وغـــاية تحصيلكم المنطق والتوحيد ونبذتم علوم المقاصد من هيئة ورياضة ٠

قال الشيخ : نحن لسنا أعظم علمائنا وانما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشىء من العلوم الرياضية الا بقدر الحاجة الموصلة الى علم الفرائض والمواريث٠

فعاد الباشا يقول : وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية ، بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت وتحــرير القبلة ومواعيد الأهلة وعدد السنين ٠

فأجابه الشيخ موافقا ، ولكنه قال : ان معرفة ذلك من فروض الكفاية ، اذا قام به البعض سقط عن الآخرين ٠ وهـــذه العلوم تحتاج الى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية ، كرقــة الطبع وحســن الوضــع والخط والرســم والتشــكيل والأمور العطاردية ، وأهل الأزهر بخلاف ذلك ، أخلاط من القرى والآفاق.

فسأل الوالى : وأين البعض القائم بهذه الفريضة ؟

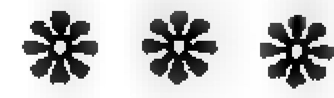
فقال الشيخ : انهم موجودون فى بيوتهم يسعى اليهم ، ودله على الشيخ حسن الجبرتى والد الشيخ عبد الرحمن المؤرخ المشهور ، مطنبا فى تزكية علمه وفضله ٠

فسألهم الوالى أن يدعوه الى لقائه ، فقال الشيخ : انه أعظم قدرا من أن يستدعيه مثلى ، ولكنكم تكتبون اليه مع بعض خواصكم فيحضر اليكم ، فكتب اليه الوالى واحتفى بلقائه عند حضوره ووجده على ما وصف من الدراية بتلك العلوم التى يدرسها الباشا، فأكثر من الاجتماع به بعد ذلك للمذاكرة فيها ٠

ونحن نعرف هذه القصة من رواية الجبرتى فى تاريخه ، كما نعرف من قصص التاريخ الأخرى شيئا كثيرا عن حقيقة العلوم الفلكية التى تلقى بعضها عن أبيه ؛ فاذا هى على صحتها وأشتمالها على أدق المعارف الفلكية التى حصلها علماء الحضارة الاسلامية تجمع بين العلم الرياضى الصحيح واخلاط من التنجيم وقراءة الطوالع وارصاد السعود والنحوس ،ومن ذاك قول الشيخ عبدالرحمن فى مقدمة كتابه عن الحملة الفرنسية : « ان وقائع الأيام وخطوبها وحوادث الحادثات وكروبها .. داخلة فى حيز الابداع والاختراع بما أودعه الله من الخصائص في الآثار العلوية عند اقتران بعضها ببعض ، وارتباط المناسبات الخفية بينها وبين ما على وجه الأرض. وذلك بحسب جرى العادة الالهية له مسببات وحوادث يستدل عليها بتلك القرانات والمناظرات ، وقد أودع الله فى بعض خالص النفوس البشرية والأرواح المجردة عن العلائق الجسمية والشهوات النفسية معرفة بعض تلك الحوادث ، اما بالهام أو باكتساب ونظر فى علم الأحكام . فبالنجم هم يهتدون ، وبالنظر فى ملكوت السماوات والأرض يستدلون فيعرفون ، من غير أن ينسب لتلك الآثار تأثيرات ، وانما هى أسباب عادية وعلامات ، وان من أعظم الدلائل على ما رميت به مصر ، وحل به لأهلها تنوع البؤس والأصر ، بحلول كفرة الفرنسيس ، ووقوع هذا العذاب البئيس ، حصول الكسوف الكلى فى شهر ذى الحجة بطالع مشرق الجوزاء المنسوب اليه اقليم مصر .. » .

ولكن هذا الخلط بين علم الهيئة والتنجيم لم يكن وقفا على الفلكيين بالمشرق أو البلاد العربية ، بل كان النظر فى الكواكب لاستطلاع السعود والنحوس دراسة مقررة فى الجامعات الاوربية وكان أكبر الفلكيين فى عصر – جوهان كبلر – المتوفى قبل منتصف القرن السابع عشر يدرس الفلك والرياضة بجامعة جراز ويصدر بأمر الجامعة تقويمها السنوى مشتملا على أرصاد العالم كله . منبئا

بطوالع البروج التى تشرف على مواليد الامراء والملوك وتقبض على أعنة الحوادث من سلم وحرب وخصب وقحط وزواج وكساد، وكان العالم الكبير يؤمن بأسرار تلك الطوالع والأرصاد ، ويعزو مخالفة النبوءات أحيانا الى خطأ الحساب أو الى شوائب النفوس التى تتولى الرصد وتتلقى منه النبوءة . كما قال المؤرخ العربى فيما تقدم . وقد كان أسحق نيوتن يضبط حركات الافلاك بقانون الجاذبية وهو يدون مئات الصفحات فى مباحث الطوالع والأرصاد وطلاسم السحر والزايرجة السوداء .



ونمضى مع الجبرتى فى حديثه عن نذير النجوم ببلاء الفرنسيس، فنقول ان هذا المؤرخ الأمين قد شهد حلول البلاء فى القاهرة ووصف أعمال المقاومة فى خارجها وداخلها بين كفاح المحاربين ودعاء المسالمين فقال انه « لم تكن الا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه ولم يقع قتال صحيح وانما هى مناوشة من طلائع العسكرين بحيث لم يقتل الا القليل جدا من الفريقين ، واحترقت مركب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية ، واحترق بها رئيس الطبجية خليل الجردلى وكان قد قاتل في البحر قتالا عجيبا هو ومن انضم اليه من الغليونجية وبقية العسكر والمشاة الذين فى المراكب مع مراكب الفرنسيس . وأقدم اقدام الأسد . فقدر الله أن علقت نار بالقلع فنزل البعض منها الى البارود الذى فى المركب فاحترقت ومات هو ومن بالمركب من المحاربين ، فلما عاين ذلك مراد بك ولى منهزما وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره ، والمشاة نزلت فى المراكب وانفصل الفريقان بدون طائل » .

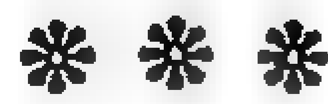
قال : « وقد كانت العلماء عند توجه مراد بك للقتال تجتمع فى الأزهر كل يوم لقراءة البخارى وغيره من الدعوات ، وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والسعدية والرفاعية وغيرهم من طوائف الفقراء

وأرباب الأشاير كل يوم يذهبون للأزهر فيجلسون للأذكار وتجتمع أطفال الكتاتيب للدعاء وتلاوة اسمه تعالى لطيف ، وكل هذا حصل بسببه النفع العظيم . فهو - وان لم يدفع دخول الفرنسيس مصر لكونه أمرا مقضيا محتما لا يرد بالدعاء لكن وقع اللطف بسبب هذه الدعوات - واجتماع القلوب بمجالس الذكر والاستغفار وآثار اللطف التى حصلت مشاهدة ، ولا تنكر ولله الحمد » .

ثم قال : « ولما أصبح يوم الأحد المذكور والمقيمون لا يدرون ما يفعل بهم ويتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ورجع الكثيرون من الفارين وهم بأسوأ حال من العرى والفزع ، فتبين أن الفرنج لم يعدوا الى البر الشرقى وان الحريق كان فى المراكب المتقدم ذكرها ، فاجتمع فى الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة الى الفرنج وينظروا ما يكون من جوابهم ، ففعلوا ذلك وأرسلوها صحبة شخص مغربى يعرف لغتهم وآخر صحبته . فغابا وعادا وأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة فقرأها عليه ترجمانه ، ومضمونها الاستفهام عن قصدهم ، فقال على لسان الترجمان : وأين عظماؤكم ومشايخكم ؟ لم تأخروا عن الحضور الينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة ؟ وطمنهم وبش فى وجوههم .. ثم قال لهم : لازم المشايخ والشرباجية يأتون الينا لنرتب منهم ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور . ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس ، وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى وآخرون الى الجيزة ، فتلقاهم وضحك لهم وقال : أنتم المشايخ الكبار ؟ فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا . فقال : لأى شىء يخافون ؟ اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانا لأجل الراحة .. »

ولا بد أن نذكر ونحن بصدد الأزهر والحملة الفرنسية أن دعوات الأذكار كانت في حينها « قوة عملية » من جانب واحد على الأقل ، وهو جانب اليقين بنفاذها فيعقيدة الرعاة والرعية، لايشكون في أثرها اذا خلصت النية وصدقت الشكوى ولا يأمن الحاكم الظالم أن تستجاب من المظلوم في شدة البلاء وانقطاع الرجاء في غير الله • وقد مضى على حملة نابليون نحو مائة وسبعين سنة ونشبت الحرب بين مصر والحبشة وتوالت الهزيمة بعد الهزيمة فاعتصم الخديو اسماعيل يومئذ بتلك القوة ـ قوة التلاوة في البخاري والتماس الدعوات من العلماء ـ فلم يخامره الشك في أثرها ولكنه قال للعلماء بعد اتصال الهزيمة : اما انكم لا تقرءون البخاري واما انكم لستم بعلماء •• فردها اليه عالم جرىء وذكره بالحديث النبوي اذ يقول عليه السلام : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لكم •• » •

وقد ركب الفرنسيون رءوسهم بمصر واقتحموا الجامع الأزهر ودنسوا محاريبه وربطوا فيه الخيل والدواب فلم ينقض غير قليل حتى خرجوا من مصر مدحورين بعد أن خيل اليهم والى الناس أنهم لن يرحلوا عنها مكرهين ، ولم ينس أبناء البلد أن يربطوا بين جلائهم السريع وبين عدوانهم على ذلك الحرم المقدس ودعوات علمائه عليهم بالخذلان والنكال .



هذه نبذة موجزة من تاريخ الأزهر خلال فترة من فترات ذلك العهد الذي كان كما تقدم أحلك ساعات الظلام قبل مطلع النهار ، ويكفي تاريخ كل فترة من حياة هذا المعهد الخالد للتعريف بوظيفته التي استقر عليها وبيان مكانته التي تبوأها من الأمة في أيام خضوعها لسلطان الدخلاء الواغلين عليها • فقد تقرر بحكم العرف والتقليد

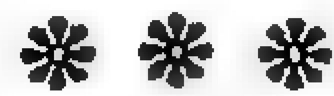
وحكم العقيدة والسمعة انه صوت الأمة الذى يسمعه الحاكم الدخيل من المحكومين ، وانه ملاذ القوة الروحية فى نفوس أبناء الأمة وفى نفوس الحاكمين الذين يدينون بعقيدتها ، ومن لم يكن من أهل تلك العقيدة فقد يحسب لها حسابها الذى ينساه اخوانها فى الدين مع الجهالة المطبقة أو مع هوى الساعة ، وقد حسب له الفرنسيون هذا الحساب ونسيه أناس من أمراء المسلمين ، ولكنه لم يضع قط كل الضياع فى وقت من الأوقات .

ومن فهم الواقع على جليته أن نذكر أن أهل البلد قد حددوا وظيفة الأزهر ووظائف علمائه تحديدا يعز أحيانا على الدستور المكتوب ، فكان منهم من يتولى الصدارة فى شئون السياسة ومخاطبة الحكام لأنه أقدر على هذا العمل وأصلح له من زملائه ، وان كان فيهم من هو أوسع علما وأشهر بالتقوى ، وكان منهم من يثق الناس بتقواه ويطمئنون الى نزاهته فى أمور الدين والرئاسة ، وهكذا كان منهم من يفاوض الوالى التركى وليس هو بأعظم علماء البلد ، وكان منهم من يفاوض القائد الفرنسى وليس هو بمكان الرئاسة العلمية ، ولكنهم كانوا مرشحين لوظيفة السفارة بين الأمة والحكومة بما لهم من خبرة فى سياسة الناس وأساليب الاقناع وعلاج المشكلات ، ولغيرهم سمعته فى هداية القلوب والبصائر والتماس الوسيلة عند الله اذا خابت الوسائل عند العباد .

ولم تنقطع الصلة زمنا طويلا بين هذه الرئاسة القوية الروحية وبين القرية المصرية من قرى الريف أو قرى الصعيد ، وقد يغنينا عرض أسماء الشيوخ والرؤساء الذين اختارهم نابليون وألف منهم الديوان الكبير للتعلم بمبلغ هذه الصلة بين الأزهر والقرية ، فقد تألف هذا الديوان من عشرة ندر منهم من لم ينسب الى قرية يعرف بنسبته اليها كما يعرف باسمه ولقبه ، وهم عبد الله الشرقاوى

والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى والشيخ موسى الرسى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد الويشى والشيخ يوسف الشبراخيتى والشيخ محمد الدواخلى ، وقبل ذلك كان الشيخ « الشبراوى » يقول للوالى العثمانى أن الغالب على أبناء الازهر انهم أبناء القرية والريف .

وقد تقدم فى الكلام على القرية خبر الثورة التى أثارتها شكاية أهل بلبيس لابن اقليمهم الشيخ الشرقاوى الكبير ، فلا يفوتنا أن نذكر أن شكاية الأقاليم كانت تصل الى قادة الأزهر من كل طائفة معتدى عليها ولو وقع العدوان عليها فى رحلة الطريق ، وحدث أن سليمان بك أغا نهب سفينة لبعض أبناء الصعيد تحمل التمر والميرة وشيئا من الأزواد والأطعمة ، وزعم الأغا أنه استخلص بما نهبه ديونا له على أولاد وافى من أهل الصعيد ، فغضب المجاورون من الصعايدة وابلغوا مشايخ الأزهر أن السفينة انما كانت تحمل رزقا مرسلا اليهم من عشائرهم فى قراهم ، فركب الشيخ الدردير والشيخ العروسى والشيخ المصيلحى الى الأمير ابراهيم بك وواجهوا سليمان أغا في حضرته بكلام شديد ، ولم يرجعوا الا على وعد برد ما استلبه كله ، مع البقية التى فضلت عنده مما استولى عليه .



ومن الواضح أن الجامع الأزهر انما استقرت له هذه المكانة فى العالم كله لأنه المدرسة الجامعة فى الرقعة الوسطى من العالم الاسلامى الفسيح من المشرق الى المغرب ، بين مدارس بغداد فى المشرق ومدارس قرطبة فى المغرب ، وقد أفلت هذه المدارس حينا مع أفول الدولة العباسية وأفول الدولة الأموية وسائر الدول الأندلسية وورثت الجامعة الأزهرية شهرتها جميعا كما ورثت فى القاهرة شهرة

مصر القديمة بالعلوم والمعارف التى حسبت من السحر انباح زمنـا عند كثير من حكماء الاسلام ، وتلك هى العلوم والمعارف التى كان « ذو النون » المصرى يبحث عنها فى نقوش البــرابى وتحت ركام الكنوز المدفونة فى الرغام . وانما كان الوزير العثمانى « أحمد باشا » يقول عن مصر انها اشتهرت فى العالم كله بأنها « معدن العلوم والمعارف » ، وهو يعنى تلك الشهرة العريقة التى ذاعت عنها قديما ثم اتصلت بها بعد الاسلام شهرة الجامع العتيق تم شهرة الأزهــر بعد انفراده بامامة العلم فى بلاد الاسلام ·

والمأثور عن الفاطميين أنهم كانوا يشتغلون بالنجوم والكيمياء والعلوم الكونية التى نسميها اليــوم بالعلوم الطبيعية أو العلوم الحديثة ، وكان الامام جعفر الصادق ـ وهو امام رفيع القدر بين علماءالاسلام من جميع المذاهب ـ حجة فى علوم الدين والدنيا ؛ يعلم أبا حنيفة الفقه ويعلم جابر بن حيان الكيمياء ، وكان علماء الفاطميين ودعاتهم يقتدون به فى الجمع بين هذه العلوم ويستعينون بالمنطق والفلسفة على نشر دعوتهم بين أهلها من طلاب الدنيا والدين ، وليس فى أوراق المحفوظات الباقية سجل ثابت لتدوين أسماء العلماء وأسماء الكتب التى درسوها بالأزهر من هذه العلوم؛ ولكن أجازات العلماء بعد انشاء الأزهر بأكثر من ثمانية قرون كانت تحتوى أسماء العلوم التى أجيز لهم أن يلقنوها الطلاب فى حلقاتهم، ومنها سند العالم الكبير الشيخ أحمد عبد المنعم الدمنهورى المتوفى قبل نهاية القرن الثانى عشر للهجرة (١١٩٢ هـ) وفيها بيان الدروس التى حضرهاوأجادها وألف فيها وهى عدا علوم الفقه واللغة دروس « الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرفات ، وأسباب الأمراض وعلاماتها ، وعلم الاسطرلاب والزيج والهندسة والهيئة وعلم الأرثماطيقى وعلم المزاول وعلم الاعمال الرصدية وعلم المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن وعلم استنباط المياه

وعلاج البواسير وعلم التشريح وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والعجم .. »

وهذه العلوم المتفرقة تجمع فى ذلك العصر صفوة المعارف الانسانية التى تدرس فى معاهد الثقافة العليا ، وكانت — على ما يظهر — تباح لمن يستعد لها من الطلاب المتقدمين الذين يختارهم أساتذتهم ويأنسون فيهم القدرة على النقل عنهم ، ولعل هذا ما عناه الشيخ الشبراوى بقوله عن هذه العلوم انها « فروض كفاية » يتخصص لها من يطلبها ولا تفرض على الذين يحضرون دروس العلماء الآخرين ولا يقبلون عليها ، ولعل الأساتذة الذين يبلغون فيها مبلغ التعليم والافادة يعتزلون الحلقات العامة بطلابهم ومريديهم كما فعل الشيخ الجبرتى الكبير ، وهو على الأرجح قد تلقى مبادئها عن شيوخ من قبله تعلموها وعلموها على طريقته فى أخريات أيامه ، وعلى هذه الطريقة بعينها تعلم الشيخ الدمنهورى كما سيرد فى الصفحات التالية .

واذا بدا من هذه الطريقة أن « العلوم الكونية » كانت من الدراسات « المخصوصة » أو الدراسات التى لا تباح على عواهنها ، فمن جزاف القول أن ينسب ذلك كله الى الجمود وضيق الافق وقلة الاكتراث بالحجر على العقول أو الحجر — كما نقول فى عصرنا الحديث — على حرية التفكير .

فقد يقع الذنب على شيء غير الجمود والحجر على الحرية الفكرية .

نعم . قد يقع ذنب « التقييد » الذى أحيطت به دراسة العلوم الكونية على طريقة تدريسها أو طريقة اعداد الطلاب للتقدم فيها ، وما من علم من تلك العلوم سلم من الخلط بينه وبين علم زائف

يشبهه ويحمل عنوانه وليس هو بذلك العلم الأصيل فى حقيقته ونفعه .

فعلم الفلك قد اختلط بعلم التنجيم وانتقل من ثقاته وأمنائه الى المحتـــالين والملفقين لأكاذيب الطوالع وعلاقات الألفـة والزواج والمشاركة في أعمال الكسب والارتزاق .

وعلم الكيمياء قد اختلط بتحضير الذهب وسحر المعادن وصناعة السموم بغير رقابة عليها وعلى الجرائم الخفية التى تستخدم فيها .

وعلم المنطق قد اختلط بالسفسطة والجدل ، وظهر من طريقـة تعليمه فى الأمم القديمة من عهد الاغريق الى عهـــد البيزنطيين أنه مفسدة للعقول ومدرجة للعبث بالعقائد وقواعد التفكير الصـــادق والبحث المفيد .

وليس من الاغراب فى الظن البعيد أن نعتقد أن أصحاب الرأى وذوى البصر بالتربية فى العصر الحديث كانوا يحيطون تلك العلوم بمثل ما أحيطت به من القيود بالأمس لو أنها بقيت الى اليوم بأضرارها وشوائبها ودامت على حالها من اختلاط الصحيح بالزائف واختلاط المتعلمين بين طلابها على استعداد وعلى غير استعداد ، وبين المشتغلين بها للعلم والفائدة والمشتغلين بها للاحتيال والشعوذة ، فليس الجمود وحده علة تقييدها بالأمس وليست حرية الفكر وحدها هى التى رفعت عنها قيودها اليوم ، ولكنها حكمة بصيرة دعت اليها أسبابها فى حينها وأوجبتها أمانة الفكر وسلامة المجتمع على المسئولين عنها من أهل العلم والسياسة .

الا أن الحكمة البصيرة اذا حاف عليها الجمود ، واصطلحت عليها الأثرة مع الجمود ، ذهبت أسبابها وبقيت قيودها وتحولت من الرقابة البصيرة الى الحجر الأعمى والعداء اللجوج ، وكان فعل الاثرة هنـــا أشد من فعل الجمود فى كراهة المزايا العلمية التى يمتاز بها العارفون

ويحرمها أصحاب الظهور بالمعرفة وهم يكرهونهـــا مخلصين لجهلهم بحقيقتها ، ان لم يكرهوها مغرضين لخوفهم من مزاحمتها ، وقد أوشك الحذر من تلك العلوم أن ينقلب فى أوائل القرن السابع عشر من الحكمة البصيرة الى الجمود المعيب والغرض المريب ، وضعف الغيورون عليها من حمايتها واحتمال تبعاتها ومصاعبها ، ولكنهم استفادوا من قوارع الهزيمة بعد الحملة الفرنسية شيئا واحدا على الأقل وهو الشعور بالأسف عليها والجرأة على بث هذا الأسف فى كتبهم المتداولة ومنها كتبهم التى ألفوها فى صميم علوم الدين والشريعة ، فلم ينس الشيخ حسن العطار وهو يبسط القول فى أصول الفقه فى حاشيته على شرح الجلال المحلى على جمع الجوامع أن يصرح بأسفه لاهمال علوم الحكمة واللغة ، فيقول فى كلامه على القياس من الجزء الثانى : « من تأمل ما سطرناه وماذكر من التصدى لتراجم الأئمة الاعلام علم أنهم كانوا مع رسـوخ قدمهم فى العلوم الشرعية والأحكام الدينية لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم واحاطة تامة بكلياتها وجزئياتها حتى فى كتب المخالفين فى العقائد والفروع ، يدل على ذلك النقل عنهم فى كتبهم والتصدى لدفع شبههم ، وأعجب من ذلك تجاوزهم الى النظر فى كتب غير أهل الاسلام ، فانى وقفت على مؤلف للقرافى رد فيه على اليهود شبها أوردوها على الملة الاسلامية لم يأت فى الرد عليهم الا بنصـــوص من التـوراة وبقية الكتب السـماوية حتى يظن النـاظر فى كتـابه أنه كان يحفظها على ظهر قلب ، ثم هم مع ذلك ما أخلوا فى تثقيف ألســنتهم وترقيق طباعهـــم من رقائق الأشـــعار ولطائف المحـــاضرات ، ومن نظـر مادار بين المصنف رحمـه الله وبين عصريه الأديب الصـــلاح الصفدى من المراسلات البليغة والاشعار الرقيقة علم أنه رحمه الله ممن تخضع له رقاب البلغاء وتجرى فى مضماره سوابق الادباء ، وكذا ما دار بين سلطان المحدثين الحافظ بن حجر العســقلانى ومن عاصره من فحول الادباء من لطائف الأشعار والنكات الأدبية ، وكذا العـــلامة

الدماميني . بل وبين الحافظ السيوطي والسخاوى من المناقضـــات وما ألفه من المقامات ، وفيما انتهى اليه الحال فى زمن وقعنا فيه علم أن نسبتنا اليهم كنسبة عامة زمانهم ، فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون ان نخترع شيئا من عند انفسنا ، وليتنا وصلنا الى هذه المرتبة بل اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم نكررها طول العمر ولا تطمح نفوسنا الى النظر فى غيرها ، حتى كأن العلم انحصر فى هذه الكتب ، فلزم من ذلك أنه اذا ورد علينا سؤال من غوامض علم الكلام تخلصنا منه بأن هذا كلام الفلاسفة ولا ننظر فيه ، أو مسألة أصولية قلنا لم نرها فى جمع الجوامع فلا أصـــل لهـــا ، أو نكتة أدبية قلنـــا هـــذا من عـــلوم أهـــل البطالة ، وهـــكذا . فصـــار العـــذر أقبح من الذنب . واذا اجتمع جمـــاعة منـــا فى مجلس فالمخاطبـــات مخاطبات العامة والحديث حديثهم ، فاذا جرى فى المجلس نكتة أدبية ربما لا نتفطن لها ، وان تفطنا لها بالغنا فى انكارها والاغماض عن قائلها ان كان مساويا وايذائه بشناعة القول ان كان أدنى ، ونسبناه الى عدم الحشمة وقلة الأدب ، وأما اذا وقعت مسألة غامضة من أى علم كان ، عند ذلك تقوم القيامة وتكثر القالة ويتكدر المجلس وتمتلىء القلوب بالشحناء وتغمض العيون على القذى ، فالمرموق بنظر العامة الموسوم بما يسمى العلم اما أن يتستر بالسكوت حتى يقال ان الشيخ مستغرق أو يهذر بما تمجه الاسماع وتنفر منه الطباع .

وقـــالوا ســـــكرنا بحب الاله
وما أســـكر القوم الا القصـــع

فحالنا الآن كما قال ابن الجوزى فى مجلس وعظ ببغداد :

ما فى الديار أخو وجد تطارحه
حـــديث نجد ولا خـــل تجـــاريه

وهذه نفثة مصدور فنسأل الله السلامة واللطف » .

ثم عاد الشيخ الى بث هذا الأسف بعد ذكر العلوم العصريه والالمام بمؤلفاتها المترجمة عن اللغات الاوربية فقال فى عرض الكلام على الخلاء والملاء وضغط الهواء : « أنا لو وضعنا خشبه مستويه أو أنبوبة مسدودة الرأس فى قارورة بحيث يكون بعض الانبوبة داخل القارورة وبعضها خارج عنها وسددنا رأس القارورة بحيث لا يسعها هواء ولا يخرج ، وذلك بأن نسد الخلل بين عنق القارورة والانبوبه سدا محكما لا يمكن نفوذ الهواء فيها ، فاذا أدخلنا الأنبوبة فيها أكثر مما كانت بحيث لا يخرج شيء من الهواء عنها انكسرت القارورة الى خارج ، واذا أخرجناها عنها بحيث لا يدخل فيها شيء من الهواء انكسرت الى داخل ؛ ولولا أنها مملوءة بالهواء وما فيها من الأنبوبة بحيث لا تحتمل شيئا آخر لم يكن كذلك . فدل ذلك على امتناع الخـــلاء • وقـــد قال شـــارح حكمة العين : ان هذه اقناعيات لا برهانيات ، وأقول ان مسألة الخلاء ومســـألة اثبات الميل فى الأجســـام من مســـائل العلم الطبيعى وبتحقيقها ينكشـــف للفطن أسرار غريبة وعليها ينبنى كثير من مسائل علم جر الأثقال وعلم الحيل واستحداث الآلات العجيبة ، ووقع فى زماننا أن جلبت كتب من بلاد الافرنج وترجمت باللغة التركية والعربية وفيها أعمال كثيرة وأفعال دقيقة اطلعنا على بعضها ، وقد تتحول تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية من القوة الى الفعل ، وتكلموا فى الصناعات الحربية والآلات النارية ومهدوا فيها قواعد وأصولا حتى صار ذلك علما مستقلا مدونا فى الكتب وفرعوه الى فروع كثيرة ، ومن سمت به همته الى الاطلاع على غرائب المؤلفات وعجائب المصنفات انكشـــفت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم وتنزهت فكرته ــ ان كانت سليمة ــ فى رياض الفهوم :

فكن رجلا رجله فى الثرى

وهـــامة همتـــه فى الثـــريا

فالنفس الانسانية بالاطلاع على حقائق المعارف تتكمل ، والفاضل الكامل بأنواع العلوم يتفوق ويتفضل • لا بتحسين هيئة اللباس والمزاحمة على التصدر في مجالس الناس • قال الحكيم الفارابى :

أخى خل حيز ذى باطل وكن والحقائق فى حيز
فما الدار دار مقام لنا وما المرء فى الأرض بالمعجز
ينافس هذا لذاك على أقل من الكلم الموجز
محيط السماوات أولى بنا فماذا التنافس في المركز

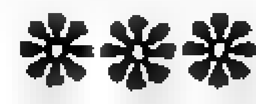
فلا تجعل سعيك لغير تحصيل الكمالات العرفانية مصروفا ولا تتخذ غير نفائس الكتب أليفا ومألوفا •

ولاتك من قوم يديمون سعيهم
لتحصيل أنواع المآكل والشرب
فهذى اذا عدت طباع بهائم
وشتان ما بين البهيم وذى اللب

وهذه نفثة مصدور ، ولله عاقبة الأمور ، لعمرى لقد تساوى الفطن والأبله الأفن ، واستنسر البغاث وسد طريق النظر على الناظر البحاث ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » •

والشيخ حسن العطار ـ نافث هذه الشكوى ـ قد كان مثلا للعالم المثقف بثقافة عصره قبل نحو القرن ونصف القرن • ولد بالقاهرة سنة ١١٩٠ وتوفى بها سنة ١٢٥٠ هجرية (١٧٧٦ ـ ١٨٣٥م) وشهد حملة نابليون وعاشر علماءها واستفاد من زيارة معاملها ، وعاش زمنا فى دمشق وزمنا فى أشقودرة بالبلاد الألبانية، واجتهد لنفسه فى تحصيل المعارف الحديثة فدرس الطبيعة والفلك والهندسة والمنطق وطرفا من علم الميكانيكا الذى كان يسمى بعلم الحيل • وألف الرسائل فى العمل بالاسطرلاب ، والربعين المقنطر

والمجيب والبسائط . وأدمن الاطلاع على كتب الأدب فنظم الشعر وأجاد كتابة الرسائل ، وأسند اليه تحرير الوقائع المصرية عند انشائها لاشتهاره بجودة الاسلوب والتمكن من صناعة القلم مع حسن الاطلاع على المعارف الحديثة وحسن الفهم للعلاقة بين قواعدها النظرية ونتائجها العملية فى المخترعات وعجائب الفنون ، ثم تولى مشيخة الجامع الأزهر بعد أن قارب الخامسة والخمسين فبقى فيها الى سنة وفاته .



ولقد تولى هذا العالم الفاضل مشيخة الجامع الأزهر وهو — كما نرى — لا تعوزه الغيرة على العلم الحديث ولا الرغبة فى تعميمه واجتذاب العقول الناشئة اليه ، ولكنه كان ، رحمه الله ، رجلا من رجال الفطنة والكياسة ولم يكن على غرار ذوى البأس الصارم والعزيمة الغلابة من أولئك المصلحين النوادر الذين يناط بهم افتتاح العهود وهدم العوائق الراسخة فى سبيل الاصلاح ، ولا سيما الاصلاح الذى يعارضه أعداؤه باسم الدين ويعتصمون منه بالحصون المنيعة من العادات المتأصلة والمصالح المتأشبة وصغائر الغرور والادعاء ووجاهة المظاهر والألقاب ، ونحسبه — لو كان من أولئك المصلحين النوادر — لما تسنى له فى مدى السنوات القلائل التى تولى فيها مشيخة الجامع أن يقوم بعمل ذى بال لتجديد نظام التعليم واتمام العدة اللازمة لابتداء ذلك النظام : فان العزيمة الغلابة لا تكفى وحدها للغلبة على معارضة الشيوخ واعراض الطلاب وتبديل مصالح هؤلاء وهؤلاء فى النظام القديم بمصالح مثلها أو أكبر منها تعوض عنها العلماء المعارضين والطلاب المعرضين . وقد تكفى عزيمة الشيخ للابتداء فى العمل ، ان لم تكف للتقدم البعيد فى طريقه ، لو أنه وجد من ولاة الأمر معونة صادقة تفعل بالسلطان ما لا يفعله البرهان،

ولكن ولاة الأمر فى عهده كانوا يؤثرون سكوت العلماء عنهم على اثارتهم بالشكوى والاتهام من أجل عمل يغضبهم ولا يرضى أحدا غيرهم ، وليس هو — بعد — من الأعمـــال الذى تلجئهم الضرورة العاجلة اليه ·

على أننا قد نبالغ فى تهوين أثر القدوة الحية اذا خطر لنا ان نفثة المصدور ذهبت فى الهواء ، فانها نفثة عالم كبير يسمعها منه العاقل والغافل ويقرؤها فى كتبه مئات الطلاب من مريديه ومريدى غيره من العلماء الموافقين والمعــارضين ، وتأتى فى أوانها الذى مهدت له الحوادث وتهيأت له النفوس المتطلعة والآمال المتوثبة ، فهى من طلائع الجو الذى يتفتح له الأفق وان لم يمتلىء به لأول وهلة ، وعلى هذه السـنة من سنن التجديد تبتدىء طلائع الأجواء فى جميع الآفاق ·

ثم تعمل الضرورة الواقعة عملها غير مدفوعة بحيل المحتالين وتعلات الكسالى المتعنتين · فقد نفث الشيخ نفثته فى مفتتح القرن التاسع عشر والمدارس الحديثة تتوالى عاما اثر عام ، بين مدرسة للهندسة ومدرسة للطب ، ومدرسة للألسن ومدرسة للعلوم الطبيعية ، ويتوالى معها بناء المعامل لصناعات السلم والحرب ، ويختار لها الطلاب والمحترفون من أبناء الأزهر الناشــئين ، كما تختار منهم البعوث الى البلاد الأوربية فيقضون فيها الأعوام المعدودة ويعودون الى مناصب الرئاسة أو مناصب الأستاذية ، ويصعدون من تلك المناصب الى أرفع مراتب الدولة وتتهيأ لهم وسائل التنفيذ التى لم تكن مهيأة لشيخهم فى منصبه ، فلم يمض جيل واحد حتى كان فى القاهرة من تلاميذ العلوم الحديثة حزب كبير يفهم ما ينبغى عمله للمضى بالنهضة العلمية فى ســبيلها ويملك من الرأى والمشورة المسموعة ما يعينه على خصومها ...

ويتفق أن يكون أكبر دعاة هذه النهضة تلميذا للشيخ العطار اختاره للسفر الى الغرب ونصح له قبل سفره « أن ينبه على ما يقع فى هذه السفرة ، وعلى ما يراه وما يصـــادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة ، وأن يقيده ليكون نافعا فى كشف القناع عن محيا تلك البقاع » . [1]

ذلك التلميذ النـــاجح هو نابغة جيله (رفاعة بدوى رافع الطهطاوى) رحمه الله ، وهو القائل فى فضـــل العلوم الحديثة ، بعد أن نبه بغاية ما يستطاع من الصراحة فى ذلك الزمن الى اهمال محمد على الكبير لتعميم تلك العلوم فى الجامع الأزهر : « ... ولو أنه أعلى منار الوطن ورقاه لم يستطع الى الآن أن يعمم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور ، ولم يجذب طلابه الى تكميل عقولهم بالعلوم الحكمية التى كبير نفعها فى الوطن ليس ينكر ، نعم ان لهم اليد البيضاء فى اتقان الأحكام الشرعية العملية والاعتقادية وما يجب من العلوم الآلية كعلوم العربية الاثنى عشر ، وكالمنطق والوضع وآداب البحث والمقولات وعلم الأصول المعتبر ، ولمثل هذا فليعمل العاملون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، غير أن هذا وحده لا يفى للوطن بقضاء الوطر ، والكامل يقبل الكمال كما هو متعارف عند أهل النظر ، ومدار سلوك جادة الرشاد والاصابة ، منوط بعد ولى الأمر بهذه العصابة ، التى ينبغى أن تضيف الى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة ، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية ، التى لها مدخل فى تقدم الوطنية ، من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية . فانه بانضمامه الى علوم الشريعة والأحكام يكون من الأعمال الباقية على الدوام ، ويقتدى بهم فى اتباعه الخاص والعام ، حتى اذا دخلوا فى أمور الدولة يحسن كل منهم فى ابداء المحاسن المدنية قوله . فان سلوك طريق العلم النافع من حيث هو مستقيم ، ومنهجه الأبهج هو القويم ،

يكون بالنسبة للعلماء سلوكه أقوم وتلقيه من أفواههم أتم وأنظم . لا سيما وأن هذه العلوم الحكمية العلمية التى يظهر الآن أنها أجنبيه، هى علوم اسلامية نقلها الأجانب الى لغاتهم من الكتب العربيه ، ولم تزل كتبها الى الآن فى خزائن ملوك الاسلام كالذخيرة ، بل لازال يتشبث بقراءتها ودراستها من أهل أوربة حكماء الأزمنه الأخيرة ، فان من اطلع على سند شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد الدمنهورى الذى كانت مشيختة قبل شيخ الاسلام الشيخ أحمد العروسى الكبير، جد شيخ شيوخ الجامع الأزهر الآن السيد المصطفوى العالم الشهير، رأى أنه قد أحاط من دوائر هذه العلوم بكثير ، وانه له فيها المؤلفات الجمة وان تلقيها الى أيامه كان عند أهل الجامع الأزهر من الأمور المحلية ، فانه يقول فيه بعد سرد ما تلقاه من العلوم الشرعية وآلاتها معقولا ومنقولا — أخذت عن أستاذنا الشيخ المعمر الشـــيخ على الزعترى خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج المجهولات ، وبما توقف عليها كالفرائض والميقات ، وسيلة ابن الهائم ومعونته كلاهما فى الحساب ، والمقنع لابن الهائم ، ومنظومة الياسمينى فى الجبر والمقابلة ودقائق الحقائق فى حساب الدرج والدقائق لسبط المارديني فى علم حساب الأزياج ، ورسالتين احداهما على ربع المقنطرات والأخرى على ربع المجيب ، كلاهما للشيخ عبد الله الماردينى جد السبط ، ونتيجة الشيخ اللدائقى المحسوبة لعرض مصر ، والمنحرفات للسبط الماردينى فى علم وضع المزاول ، وبعض اللمعة فى التقويم . وأخذت عن سيدى أحمد القرافى الحكيم بدار الشفاء بالقراءة عليه كتاب الموجز واللمحة العفيفية فى أسباب الأمراض وعلاماتها بشرح الامشاطى وبعضا من قانون ابن سينا وبعضا من كامل الصناعة ، وبعضا من منظومة ابن سينا الكبرى ، والجميع فى الطب . وقرأت على أستاذنا الشـــيخ عبد الفتاح الدمياطى كتاب لقط الجواهر فى معرفة الحدود والدوائر للسبط الماردينى فى الهيئة السماوية ورسالة

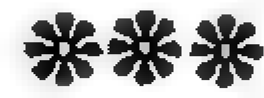
ابن الشاط في علم الاسطرلاب ورسالة قسطا بن لوقا في العمل بالكرة وكيفيه أخذ الوقت منها ، والدرر لابن المجدى فى علم الزيج ، وقرأت على أستاذنا الشيخ سلامة الفيومي اشكال التأسيس فى الهندسة وبعضا من الجغميني في علم الهيئة ، وبعضا من رفع الأشكال عن مساحة الأشكال فى علم المساحة ، وقرأت على شيخنا الشيخ عبد الجواد المرحومى جملة كتب ، منها رسالة فى علم الأرتماتيقى للشيخ سلطان المزاحى ، وقرأت على الشيخ محمد الشهير بالسحيمى منظومة الحكيم درمقاش المشتملة على علم التكسير وعلم الاوفاق وعلم الاستنطاقات وعلم التكعيب ، ورسالة أخرى فى رسم ربع المقنطرات والمنحرفات لسبط المارديني وعلم المزاول ومنظومة فى علم الأعمال الرصدية ، وروضة العلوم وبهجة المنطوق والمفهوم ، لمحمد بن ساعد الأنصارى ، وهى كتاب يشتمل على سبعة وسبعين علما : أولها علم الحرف وآخرها علم الطلاسم ، ورسالة للاسرائيلي ، ورسالة للسيد الطحان ، كلاهما فى علم الطالع ، ورسالة للخازن فى علم المواليد ، أعنى الممالك الطبيعية : وهى الحيوانات والنباتات والمعادن . وأخذت عن شيخنا الشيخ حسام الدين الهندى شرح الهداية فى علم الحكمة ومتن الجغميني فى علم الهيئة بمراجعة قاضى زادة ومطالعة السيد عليه ، وأخذت عن سيدى أحمد الشرفى شيخ المغاربة بالجامع الأزهر كتاب اللمعة فى تقويم الكواكب السبعة ...

« ولما ذكر ما تلقاه من هذه العلوم أعقبه بما طالعه بنفسه بدون الأخذ عن شيخ . فقال : طالعت كتاب احياء الفؤاد بمعرفة خواص الاعداد فى علم الأرثماتيقى فى نحو كراسين ، وكتاب عين الحياة فى علم استنباط المياه ، فى نحو كراسين ، والرسالة فى الكلام اليسير فى علاج البواسير فى نحو كراسين ، ورسالة التصريح بخلاصة القول الصريح فى علم التشريح فى نحو كراسين ، ومنها

كتاب اتحاف البرية بمعرفة الأمور الضرورية فى علم الطب فى نحو خمسة كراريس ، ومنها رسالة القول الاقرب فى علاج سع العقرب فى نحو كراس ، ومنها منهج السلوك فى نصيحة الملوك فى نحو عشرة كراريس ، ومنها كتاب بلوغ الأرب فى أسماء سلاطين العجم والعرب ، معنونا باسم السلطان مصطفى خان ابن السلطان أحمد خان المولود فى رابع عشر شهر صفر سنة تسع وعشرين ومائة وألف يوم الأربعاء أول النهار فى الساعة الأولى بعد الشمس ، الجالس على سرير الملك فى سابع عشر شهر صفر الخير سنة احدى وسبعين ومائة وألف ، يوم الأحد قبل الشمس • انتهى كلامه ، ملخصا بتصرف •

« وانظر الى هذا الامام الذى كان شيخ مشايخ الجامع الأزهر ، وكان له فى العلوم الطبية والرياضية وعلم الهيئة الحظ الأوفر ، مما تلقاه عن أشياخه الأعلام فضلا عن كون أشياخه كانوا أزهرية، ولم يفتهم الوقوف على حقائق هذه العلوم النافعة فى الوطنيـــة ، وفضل العلامة الجبرتى المتوفى فى أثناء هذا القرن فى هذه العلوم وفى فن التاريخ أمر معلوم ، وكذلك العلامة الشيخ عثمان الوردانى الفلكى ، وكان للمرحوم العلامة الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر أيضا مشاركة فى كثير من هذه العلوم ، حتى فى العلوم الجغرافية ، فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لاسماعيل أبى الفداء سلطان حماة المشهور أيضا بالملك المؤيد ، وللشـــيخ المذكور هوامش أيضا وجدتها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطلع دائما على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعـارف البشرية ، مع غاية الديانة والصـــيانة ، وله بعض تآليف فى الطب وغيرها زيادة عن تآليفه المشهورة ، فلو تشبث من الآن فصاعدا نجباء علماء الأزهر [illegible] بالعلوم العصرية التى جددها الخديو الأكرم بمصر بانفاقه عليها أوفر

أموال مملكته لفازوا بدرجة الكمال وانتظموا في سلك الأقدمين من فحول الرجال • وربما يتعللون بالاحتياج الى مساعدة الحكومة ، والحال أن الحكومة انما تساعد من يلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد . فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر ،وترجع المسألة دورية ، والجواب عنها أن الحكومة قد ساعدت بتسهيل الوسائط والوسائل ليغتنم فرصة ذلك كل طالب وسائل ، وكل من سار على الدرب وصل ، وانما تكون المكافأة على تمام العمل .. فهذا مايتعلق بطبقة العلماء ، وقد ذكرنا ما يتعلق بالعلم فى الفصل الأول من الباب الأول من هذا الكتاب مبسوطا بما فيه الكفاية » •



وهذا الفصل من كتاب « مناهج الألبــاب » يعتبر وثيقة « رسمية » من أهم الوثائق فى تاريخ التعليم بالجامع الأزهر ، لأنه يشتمل على ثبت صحيح بأسماء المؤلفات الكثيرة التى كانت تؤلف فى علوم الطب والرياضة والطبيعة وغيرها من العلوم التى تسمى بالعلوم الكونية تمييزا لها من العلوم الالهية أو الشرعية ، ويشتمل كذلك على أسماء مؤلفيها والعلماء الذين يدرسونها وطريقتهم فى تحصيلها ، اما بالقراءة على أصحابها أو بالمطالعة فى مراجعها ، ومن هذا الثبت الصحيح يتبين لنا أنها كانت تحيط بصفوة المعارف البشرية كما عرفها الناس إلى نهاية العصور الوسطى فى بداية القرن السابع عشر ، وأنها كانت دراسات « موسوعية » جامعية من طراز مناهجها فى أنحاء العالم كله على عهدها •

ويدل هذا الفصل على موقف الحكومة يومئذ من مسألة التعليم بالجامع الأزهر ، فانها كانت على موقف الحذر من تقرير علوم تدرس فيه بغير طلب من أهله ، هيبة لعلمائه وخوفا من تهمة المساس بالدين والاجتراء على سنن السلف ومجاراة البدع المستحدثة : بدع الفرنجة

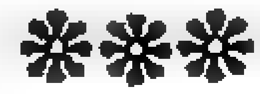
أو بدع الفلاسفة كما قال الشيخ العطار بألسنتهم حين نتلى عليهم مسألة من مسائل المعرفة لم ترد فى كتاب من كتب المتآخرين .
وكأنما كان النابغة الأزهرى ــ رفاعة ــ يلوح لشيوخ العلماء بالخطة التى يسلكونها اذا ترقبوا من الحكومة ان تغير مسلكها « فان الحكومة انما تساعد من يلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد . فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر ، وترجع المسألة دورية ...» ان لم يبدأ علماء الأزهر من قبلهم بمسلك جديد .

وقد دل رفاعة بما كتبه عن مســـألة التعليم الأزهرى على صراحة الرائد المجدد وحصافته فى وقت واحد ، فكان صريحا فى تنبيهه الى اهمال محمد على الكبير لتلك المسألة ، وكان صريحا فى تنبيهه العلماء الى موضع تقصيرهم أو موضع مشاركتهم فى تبعة ذلك الاهمال ، وكان حصيفا فى عنايته بسرد أسماء العلوم والمؤلفات التى سبق اليها العلماء الأسبقون ، فانه ــ ولا شك ــ قد فطن للوجهة التى اتجه اليها تيار الفكر الحديث فى البلاد وكشفت عن الموطن الحساس الذى لمسته هذه المسألة من جانب العاطفة القومية ، فمنذ الحملة الفرنسية وقعت الصدمة فى ذلك الجانب من العاطفة القومية موقعين متناقضين متلازمين : موقع اليقين بغلبة القوم وفيه من دواعى الوجوم والانكسار ما فيه ، وموقف العزاء بسبق الشرق الى تلك العلوم والايمان بأنها عند القوم عارية مستعارة نستردها لنقول لأنفســـنا وللعالم انها بضاعتنا ردت الينا ، وفى ذلك من تجديد الثقة ما فيه .

ورفاعة فى دعوته نجباء الأزهر الى العلم العصرى باسم السلف انما تسلم هذه العاطفة من حيث تركها رواد الفكر الحديث ، ولعله تعمد أن يسوق الكلام فيها بذلك الأسلوب التقليدى المســجوع ليدخل فى روع قرائه أن الكاتب العصرى لا يعجز عن مثل ذلك

الأســـلوب ، أو أنه لا ينقضه ولا يخلعه عن قلمه ، لأن المعرفة العصرية لا تنقطع بكاتبها عن ماضيه •

ولم يتمكن رفاعة من تقرير النظام الذى كان يؤثره لتعليم طلاب الأزهر ، لأنه أبعد الى الســـودان فى أخريات أيامه لتنظيم التعليم فيه ، وتوفى ســـنة ١٨٧١ والأزهريون لا يحفزون لتلك الخطوة التى كان ينتظر منهم أن يخطوها تشـــجيعا للحكومة على استخدام سلطانها فى تقرير نظامه اعتمادا على دعوة أهله ، ولكن شيخ الجـامع لعهده ـ الشيخ مصطفى العروسى ـ خطا فى داخل الأزهر خطوة حسنة بالرقابة على علمائه وطلابه وانتقاء الصالحين منهم للتعليم والتعلم ومتابعة الدرس فى العلوم التى يتطلبها العمل الجديد فى دواوين القضاء ومدارس الحكومة العصرية ، وأهمها علوم الحديث والتفسير والأصول والتوحيد والفقه والنحو والصرف والمعانى والبديع والمنطق ، ثم جاء خليفته الشـــيخ محمد المهدى العباسى فأسس نظام الامتحان لشهادة العالمية على نظامها الحديث بعد استئذان الحكومة لاعتبار هذه الشـــهادة فى ولاية الوظائف العامة غير التدريس بالجامعة الأزهرية ، وجعل هذه الشهادة على درجات : أولى وثانية وثالثة ، على حسب اجابة الطالب وطبقة الكتب التى يجرى الامتحان فى مادتها •



على هذه الحالة كان الجامع الأزهر حين وصل الشاب محمد عبده الى القاهرة لينتظم فى سلك طلابه :

المفروض فيه بحكم الشهرة الموروثة أنه جامعة عالمية تزود طلابها بكل ما وسعته العقول البشرية من معارف الماضى والحاضر وعلوم الدين والدنيا •

والحقيقة الواقعة أن دروسه يومئذ كانت مقصورة على قشور من علوم الفقه واللغة يتلقاها الطالب عن أستاذه ويعول فى تحصيلها على حفظ الذاكرة وقلما يطالبه أحد من أساتذته أو يطالب هو نفسه بوعيها والتصرف فى لفظها ومعناها •

وكان التعلم والتعليم كلاهما فوضى مهملة لا رقابة عليها لأحد، فلما دعا الأمر الى اختيار طائفة من خريجي الأزهر لوظائف القضاء والتعليم رسمت لهم شروط الامتحان ودرجات الاجازة على مثـــال الشهادات المدرسية التى كانت ترشح الحاصلين عليها من خريجي المدارس العصرية لوظائف الدولة .

وقد كان الراغبون فى تغيير هذه الحالة غير قليلين ، ولكنهم كانوا لا يملكون سلطة التغيير ، أو يملكونها ويؤثرون أن يتمهلوا حتى يجيء طلب التغيير من أهله ، تجنبا لاثارة الشبهات بابتداع البدع واتباع دعاة الزندقة ــ أو الفرنجة ــ فى أمر المعهد الاكبر من معاهد الدين •

محلة نصر

ولد أستاذنا الامام بحصة شبشير من قرى اقليم الغربية ، ولكنه نشأ بقرية «محلة نصر» من قرى مركز شبراخيت باقليم البحيرة ، حيث نشأ والده ونشأت أسرته من قبله ·

وقرية « محلة نصر » هذه احدى القرى الصغيرة فى أقاليم الريف ، ولكنها ـ على صغرها ـ كانت من تلك القرى التى يصح أن يقال فيها انها موصولة التاريخ بتاريخ القطر كله ، ذات كيان اجتماعى مكين ، تتمثل فيه أحداث العهود ويحس أهله فيه طوارىء الزمن من عهد الى عهد ، بل من ولاية الى ولاية ، لانهم يعيشون فى ظل كيان غير منقطع عن مجرى الحوادث الكبرى فى الاقليم ، وفيما حول الاقليم من ميادين الحياة فى أنحاء البلاد ·

ولا يخطرن لنا أن هذا شأن عام مشترك بين جميع القرى فى هذه الأنحاء ، فان من هذه القرى ما يبلغ من عزلته أن يتغير الوالى فى القطر كله ولا يدركون تغيره بعمل ظاهر فى القرية ، بل منها ما يعم الوباء وينتشر بين أقاليم شتى ولا يصل اليها ، لقيام العلاقة بينها وبين ما حولها على المعاملات البعيدة ، وقد تكون منها معاملات «حولية» تعود مع المواسم والمحاصيل ، ولا تخرج من نطاقها المحدود بقية أيام الحول ·

أما هذه القرية الصغيرة فى اقليم البحيرة ـ محلة نصر ـ فكانت من تلك القرى الممتازة بدوام اتصالها بالحياة الاجتماعية والحياة السياسية فى سائر أنحاء البلاد ، وتاريخها فى خلال القرن

الذى ولد فيه الاستاذ الامام شاهد على هذه الصلة الدائمة بينها وبين كل حادث خطير من الحوادث القهرية التى سجلت لنا أدوار التاريخ فى الوطن المصرى بحذافيره ٠

مارست العيش فى ظل نظام الاقطاع ، وسميت باسم محلة « نصر » لأنها كانت اقطاعا لرجل بهذا الاسم لم يبق من تاريخه ما يعرف غير هذه النسبة ٠

ولما نشأت أنظمة «التفاتيش» الزراعية التى خلفت عهد الاقطاع كان أكبر هذه التفاتيش من أملاك الخديو اسماعيل على مقربة منها، أو على علاقة بأهلها ، والى جوار هذا التفتيش بمركز السنطة هاجر أبو الأستاذ وعمه ، وكان معهم ـ كما قال الاستاذ فى تاريخه ـ قدر من المال يسمح لهم باستئجار أطيان يعملون فيها بأيديهم ومعونة شركائهم ، فاشتهر والده بين أهلها « بالفتوة والبراعة فى الصيد بالسلاح فأحبه لذلك مصطفى أفندى المنشاوى ومحمد أخوه ، وكانا موظفين فى دائرة اسماعيل باشا الخديو : أولهما فى وظيفة مفتش زراعة والثانى فى وظيفة ناظر ، وطابت له صحبتهما فعدوه كأنه واحد من أهلها ، ودام ذلك مدة سنين » ٠

وقد كان أهل محلة نصر يشعرون بتقلب الاحوال بين وال ووال من أبناء الأسرة الخديوية ، فاعتقل بعض أهلها فى زمن عباس الأول ثم أفرج عنهم فى عهد خلفه محمد سعيد ، ومنهم والده وبعض رؤساء أسرة المنشاوى ، لاتهامهم بحمل السلاح وايواء بعض المطلوبين للخدمة العسكرية ، فى أشد أيام النقمة عليها ٠

ولم تنج المحلة الصغيرة من وباء الطاعون الذى فتك بكثير من سكان القطر فى منتصف القرن التاسع عشر ، فمات به جده « حسن خير الله » عن ولدين هما ابوه وعمه ٠

وكان للقرية مقامها الدينى ، أو كان هذا المقام هو نواتها الذى التفت به سائر مساكنها ، وذلك أن أجداد محمد عبده كانوا يسكنون الخيام مدة من الزمن ، ثم اتفق أن اتصل بهم شيخ يسمى عبد الملك لا يعرف نسبه ، وكان معتقدا ينسبون اليه الكرامات ، فاتخذ له خلوة يتعبد فيها بالمحل الذى قامت عليه بعد ذلك محلة نصر ، ثم توفى فنهض جدهم — وكان من بيت الشيخ — ببناء قبة له جعلوا لهم مساكن من حولها ، وانضمت اليها بيوت كثيرة تألفت القرية من مجموعها بعد فترة وجيزة .

ولم تخل القرية من «قوتها الحيوية» التى أسلفنا فى الكلام على القرية المصرية أنها كانت عدة الريفيين فى مقاومة سلطان الطغاة الكبار ومقاومة أعوانهم من الطغاة الصغار أصحاب الاقطاع أو أصحاب الالتزام . اذ كان هؤلاء الطغاة أعجز من أن يسوقوا الزارعين جميعا بعصا الاكراه ، ولم يكن لهم بد من مداراة العلية البارزين منهم ومصانعة الأسر التى تمكنت من مقاد أهل القرية بجاه الثروة أو بجاه الكثرة .

روى المؤرخ المشهور على مبارك باشا أنه اطلع بين مراجعه المخطوطة على رحلة لعبد اللطيف البغدادى تعرف بالرحلة الكبرى ، رأى فيها اسم محلتى نصر ومسروق ، وقال انه نزل ضيفا فى بيت خير الله التركمانى ، وان البيوت الكبيرة فى البلدة كانت ثلاثة : بيت الشيخ ، وبيت خير الله ، وبيت الفرنوانى .

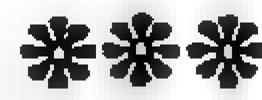
ويظهر أن بيت التركمانى من هذه البيوت — وهم أجداد محمد عبده — كان أقواهم شكيمة وأعصاهم مقادا على سادة القرية من أصحاب الاقطاع والالتزام ، فحاربوه وطاردوه ولم يكفوا عن متابعته بالمطاردة والاضطهاد كأنهم أيقنوا أنهم لا يأمنون مقاومته وتمرده عليهم أو يستأصلوه ، فلم يزالوا بعصبة جده لأبيه حتى

اعتقلوا منهم نحو اثنى عشر رجلا ، وسعوا بهم لأنهم ممن يحمل السلاح ويقف في وجوه أعوان «السلطة» عند تنفيذ المظالم ، ثم جاء دور أبيه بعد حين فحورب في رزقه وعمله حتى هاجر القرية وقضى بعيدا منها نحو خمس عشرة سنة ٠

وليس فى أخبار هذه الأسرة ما يدل على ثراء كبير فى ماضيها البعيد أو القريب ، ولكن كل خبر من أخبارها التى بقيت لنا يدل على كثرتها وسعة انتشارها فى اقليم البحيرة وما جاوره من بلاد اقليم الغربية ٠

فأخوال أبيه كانوا أكثر سكان القرية التى عرفت باسم كنيسة أورين ، ومنهم ـ الحاج محمد خضر ـ عمدة القرية ، وأخواله هو كانوا معظم سكان الحصة التى اشتهرت بحصة شبشير، وجده لأمه هو عميد أكبر بيوتها بيت عثمان الكبير ٠

وكان له أقارب بمنية طوخ فى مركز السنطة ، وأقارب فى بعض القرى بين الاقليمين ٠ أما أقاربه فى محلة نصر فهم كما جاء فى ترجمته «كثيرون يتصلون بهم من جهة الناس» أى بالنسب والمصاهرة ، ولم يكن فى القرية عند تأسيسها سكان غير أهله بيت التركمانى ، وغير بيتين آخرين هما بيت الفرنوانى وله بهم صلة كما يظهر من سيرة صاحب الضريح المدفون فى محلة نصر ، والبيت الثالث هو بيت الشيخ الذى أشار اليه الرحالة البغدادى ، وربما كانت عصبته من الأقارب والأصهار أكبر هذه العصب عددا وأصعبها مقادا ، لأنها كانت ـ كما تقدم ـ هدف المقاومة والاضطهاد من أعوان الحكام ، وكان مصابها بالمظالم يكشفها لتلك المقاومة كلما حلت المظلمة بواحد من المنتسبين اليها واللاجئين الى جوارها ٠



ولا يخفى أن قيام «دستور الأسرة» أدل على كيانها الاجتماعى

من مجرد الكثرة العددية أو سعة الجاه المكتسب بالوفرة والثروة ٠ لأن الكثرة والوفرة قد تدلان على وجود الاسرة ولا تدلان على رعاية آدابها وحماية حوزتها والتزام سمتها وسمعتها ٠ ونحن فى العصر الحاضر نذكر دستور الاسرة فى قرى الريف ونسمع من يسميه تارة بسبر البلد أو سبر العائلة ، قبل أن تسرى على الألسنة كلمة التقاليد العائلية أو كلمة العرف الاجتماعى ، وكان هذا « السبر » ولا يزال أقوى سلطانا بين أهل البلد من سلطان الحكم والشريعة فى كثير من الأحوال ٠٠٠

ومن الأخبار القليلة التى رويت لنا عن محلة نصر نعلم أنها ـ على صغرها ـ قرية ذات أسر مسماة وبيوت منسوبة ، وأن أسرة التركمانى من أسرها الثلاث المعدودة كان لها بيت كبير فيها بغير باب تعيش فيه أكثر من «عائلة» واحدة من عائلات الاسرة الكبيرة ٠ وترك الدار الكبيرة بغير باب فى الريف علامة فى وقت واحد على الكرم المقصود والجوار المرهوب ، فلا تقام السدود فى وجه الضيف الغريب ولا يجترىء المعتدى على اقتحام الدار على كره من أهلها ، وتلك هى آية الكرم والمنعة فى كل عرف وكل بيئة ، فليس للبيت مكانة وراء مكانة الموئل الذى لا يغلق ولا يستباح ٠

ويروى الأستاذ الامام من ذكريات طفولته أنه كان قبل أن يدرك معنى الكرم والمنعة يرى أن الكبراء من زوار القرية ينزلون فى بيته ضيوفا على أبيه ولا يذهبون الى بيت العمدة وهو أغنى من أبيه وأقرب الى مقام الرئاسة فى الحكومة ، وكان أبوه يأكل مع الضيوف ولا يأكل مع أهله فى الدار ، فاذا خلا البيت من الضيوف تناول طعامه وحده على حكم هذه العادة ، فكان الطفل الصغير يضيف هذا الانفراد الى سمت الوقار الذى يرعاه لأبيه ، ويحسبه أكبر رجل فى الدنيا ، لأنه لا يعرف من الدنيا غير محلة نصر وما جاورها من شبيهاتها فى الاقليم المحدود ٠

وكل أنباء القرية تروى لنا عن هذه الأسرة أنها كانت تنشأ على الفروسية وتحمل السلاح وتتعرض للشبهة والمطاردة ، بل للسجن والمصادرة من جراء هذه الخصلة المتأصلة فيها ، ومن أنباء الأسرة في جيلين قريبين نعلم أنها لم تكن قط تستكين الى المقام فى موطنها على كره ومهانة ٠٠ فلا يزال البارزون من أبنائها بين مقام مرضى فى ديارهم أو ايثار للهجرة والاغتراب ، ان لم يقعدهم عنها السجن والاعتقال ٠

ولا ينبئنا صاحب الترجمة بأصل هذه النسبة ـ نسبة التركماني ـ التي اشتهر بها بيته وسمع «المزاحين» من أهل البلدة يلقبونه بها وهو لا يفقه معناها ، ولكنه سأل عنها كما نسأل عنها اليوم فقال له والده : « ان نسبنا ينتهى الى جد تركمانى جاء من بلاده فى جماعة من أهله وسكنوا فى الخيام مدة من الزمن ٠٠»

ويلفت النظر فى هذه الرواية أن اللقب كان مما سمعه الطفل الصغير من «المزاحين» فى القرية ولم يسمعه من أبيه ولا أحد من ذوى قرابته ، فليس هو باللقب الذى تتحدث به الأسرة وتدعيه لنفسها مفاخرة به كما كان يفعل بعض المنتسبين الى غير هذا البلد فى عهود الطغيان الأجنبى ، بل لعله كان مما يقال على سبيل المغايظة والاستثارة للأطفال الصغار ، فاذا جاء اللقب بغير دعوى فقد يكون له مرجع من التاريخ نهتدى اليه من مراجعة أخبار التركمان فى هذه البلاد ، منذ كانت لهم أخبار مترددة بهذا الاسم فى التاريخ الحديث ٠

فاذا قدرنا أن بيت التركمانى عرف بهذا الاسم قبل وفود عبد اللطيف البغدادى الى محلة نصر بنحو خمسين سنة فقد مضى عليه فى مصر نحو ثمانية قرون ، وهى مدة كافية لاعراقه فى هذا الوطن بالنسبة الى الوافدين اليه من أبناء الأمم التى اختارته

لسكناها بعد زوال الدولة الرومانية ، على تفاوت فى الأزمنة من فتح العرب الى أيام المماليك ٠

ويرد ذكر التركمان كثيرا فى أخبار القرون الأولى من تلك الفترة ، فيقول المقريزى وقد ذكر أنه أدرك عهد الظاهر برقوق : « ان جيوش الدولة التركية كانت بديار مصر على قسمين : منهم من هو بحضرة السلطان ومنهم من هو فى أقطار المملكة وبلادها وسكان بادية كالعرب والتركمان ، وجندها مختلط من أتراك وجركس وروم وأكراد وتركمان ، وغالبهم من المماليك المبتاعين ، وهم طبقات: أكابرهم من له امرة مائة فارس وتقدمة ألف فارس » ٠

ومن هذا السياق العابر نعلم أن التركمان كانوا بين فرق الجيش ، وانهم لم يكونوا من المماليك المبتاعين لأنهم كانوا سكان خيام ولم تجر العادة بشراء الأسرة بخيامها من أهل البادية ، ويوافق هذا الخبر ما رواه صاحب الترجمة عن أبيه من سكنى أجدادهم فى الخيام قبل انتقالهم الى البيوت حول مقام الشيخ «عبد الملك» الذى سبقت الاشارة اليه ، ولابد أن يكون هذا قد حدث قبل عهد الظاهر برقوق ٠

ونحن اذن بين فرضين : أحدهما أن هذا اللقب المتواتر قد لقبت به الأسرة عدة قرون بغير معنى ولغير سبب ، والفرض الآخر أن الاتفاق بين التسمية وبين المذكور من سكناها الخيام ومن نشأتها على الفروسية وحمل السلاح لم يكن بعض عوارض المصادفة أو الاختلاق ، بل كان بقية منقولة بين التذكر والنسيان ، يجوز لنا أن نفهم منها أن جدا قديما للأسرة وفد الى مصر قبل نحو ثمانية قرون واختار المقام فى اقليم البحيرة لموافقته فى ذلك العهد على الخصوص لسكنى البادية ، ويرجح أن مقدم هذا الجد الى مصر كان على أيام صلاح الدين لأنه كان يستكثر من جنود الأكراد وجيرانهم التركمان ، وكان شديد العناية باقليم البحيرة وكل ما جاور ميناء

الاسكندرية الى الغرب أو طريق الصـــحراء الغربية من حيث وفد الفاطميون أسلافه فى حكم مصر ، ولم يزل على حذر من جانب هذا الطريق بعد اسقاط الدولة الفاطمية بعدة سنين ، فلا جرم يختص باقطـــاعه أقرب الناس اليه وينشر فيه جنـــده التركمان والأكراد ليقيموا فيه مقام الأهل ويحرسوه حراسة العسكر مع مقامهم فيه .

أما نسب صاحب الترجمة لأمه فجملة ما نعلمه عنه أنها كانت تنسب الى بنى عدى بالصعيد وهم منتسبون الى القبيلة القرشية قبيلة عمر بن الخطاب كما هو معلوم ، ولكن الاستاذ الامام يقول ان « ذلك كله روايات متوارثة لايمكن اقامة الدليل عليها » .

وقد كانت مع أهلها من البيت الذى عرف فى قرية حصـــة شبشير باسم بيت عثمان الكبير ، وتزوج منها والده أثناء هجرته الى اقليم الغربية ، واسمها « جنينة » بنت عثمان ، ويصفها ولدها الأمين فيقول « انها كانت ترحم المساكين وتعطف على الضعفاء ، وتعد ذلك مجدا وطاعة لله وحمدا .. » ويقول ان منزلتها بين نساء القرية لم تكن تقل عن منزلة أبيه بين رجالها .

والذى نراه أن انتساب هذه الأم الى بنى عدى باقليم أسيوط ، وانتساب بنى عدى الى القبيلة القرشية المعروفة ، أمر لا داعية للشك فيه ، لأن هجرة القبائل القرشية الى اقليمى المنيا وأسيوط خبر من أخبار الفتح العربى المتواترة ، ولزوم هذا الاسم للقبيلة المعروفة به عند منفلوط لا يتسلسل مع الزمن اختلاقا بغير سند أصيل ، وقد ينتسب رجل أو امرأة الى احدى القبائل دعيا فيها بغير سند ، ولكن انتساب قرية كاملة الى القبيلة أمر نحسب أن تكذيبه أصعب من تصديقه ، ولا موجب لتكذيبه على أية حال بغير دليل .

وانما تحتاج الرواية الى دليل راجح اذا ارتفعت النسبة الى رجل معلوم ، اذ لا يلزم من صحة النسب الى قبيلة عمر بن الخطاب أن

يكون العدوى المنســـوب من ذريته ، ولا يثبت ذلك الا بسلسلة النسب المحدود ومتابعة أخبار الأبناء والأجداد ما بين الموطن الاول فى الحجاز وموطن فروعه فى هذه الديار ٠

على أن الأخبـــار المتقدمة جميعا لا تتناقض فى اختلافها ولا تتباعد كثيرا فى جوهرها . فكلها تنتهى الى نتيجة واحدة لا غرابة فيها ، وهى ان هذا المصلح الغيور قد أنبتته قرية موصولة بالتاريخ ترشحه لرسالته التاريخية ، ونمته أسرة أبية تورثه ما قد ورث عنها من عزة وعزيمة ٠

محمد بن عبده بن حسن خير الله

نشأ الطفل «محمد عبده» فى بيت من بيوت القرية المتوسطة، لا يحسب من أفقرها لأن الفقير فى القرية الصغيرة لا يقتنى الخيل ولا يفرغ لرياضة الفروسية وما اليها ، ولا يملك من موارد الكسب ما يعينه على فتح بيته للضيافة وايواء الضيوف من علية الزائرين فى نظر أبناء القرية .

ولا يحسب من أغناها ، لأن القرية كان فيها من هو أغنى من أرباب ذلك البيت ولم تكن من السعة بحيث يتسع زمامها كما يقول أبناء الريف لبيوت كثيرة من أصحاب الثراء ، وعدة سكانها فى أيام نشأة الطفل الصغير لم تزد على ألف نسمة عند نهاية القرن التاسع عشر ، كما جاء فى احصاء سنة ١٨٩٧ ميلادية .

والمعلوم من شأن هذا البيت فى تلك الفترة أن أبناءه كانوا يزرعون أرضهم بأيديهم ويستأجرون معها أرضا من ملك غيرهم يتعاونون على زرعها مع جيرانهم ، ويكفل لهم ما عرف عنهم من الجد والاستقامة وصلابة العود أن يزيدوا موردهم بين عام وآخر فى حدود طاقتهم ، فقد بلغ ما ملكوه من الارض عند نشوب الثورة العرابية نحو أربعين فدانا فى خبر رواه الدكتور عثمان أمين عن صحيفة انجليزية ، ولم نطلع على مرجع آخر يحدده بهذا المقدار . ولكنه لا يجاوز حده المعقول اذا نظرنا الى الأسرة التى كان يعولها والد الطفل الصغير على حالة بعيدة من حالة الفاقة والاضطرار .

ونحن نعرف أفرادا من تلك الأسرة قليلين ممن وردت أسماؤهم في تراجم الاستاذ الامام أثناء حياته وبعد مماته .

فمنهم جده حسن خير الله ، وعمه بهنس حسن خير الله ، وابن عمه ابراهيم ، وأخواه من أبيه علي ومحروس، وأختاه شقيقتاه: زمزم ومريم . وأخوه من أمه مجاهد ، لأن أباه تزوج من أمه وهي أيم تقيم مع أبيها عثمان الكبير بقرية حصة شبشير على مقربة من طنطا . وهؤلاء غير أفراد أسرته من أخوال أبيه أو أخواله في غير المحلة ، وكلهم من رجال الأسرة عملوا في الزراعة ولم يعرف لهم عمل من أعمال كسب المعيشة في غيرها .

ويتقاضانا البحث عن كل ما له دلالة خاصة من شأن هذه الأسرة أن نلتفت الى «سبرها» أو عادتها في التسمية . فانها تختار الأسماء لمعانيها ومناسباتها ، فاذا اختارت اسما من غير أسماء الأنبياء وأعلام الصحابة لم يكن هذا الاختيار جزافا لغير معنى مقصود . فمن أسمائهم محمد وابراهيم وعلي وحسن وعثمان وحمودة ، ومنها بهنس ودرويش ومجاهد ومحروس . ومعنى بهنس أنه يمشي مشية الأسد أو مشية الفارس المتبهنس ، وهو اسم ينم على عراقة في حب الفروسية بين أجيال هذه الأسرة ، ودرويش لم تكن من الأسماء التي تطلق على المولودين حيثما اتفق ، لأن صاحبه كان من أهل التصوف وكانت له رحلات الى شيوخ الطريق في المغرب كرحلات السياح المتنسكين ، وقد سماه به والد اسمه «خضر» وهو اسم الامام الذي نعلم من القرآن الكريم أنه كان يجوب الآفاق ويعلم موسى عليه السلام معرفة أهل الباطن وأسرار الشريعة الخفية .. واسم محروس غير عجيب أن يكون مقصودا بمعناه من حراسة الله في بيت مرزأ مضطهد ، قد ابتلى العشرات من أبنائه بالنفي والسجن والمصادرة ، وقضى منهم من قضى بالطاعون ، ومن بقي بعده لم يزل بين خصومه الألداء عرضة للوشاية والخراب .

واسم مجاهد ظاهر الدلالة على حب العمل فى سبيل الله ، وتظهر العاطفة الدينية فى تسمية البنات باسم زمزم ومريم ، فانها تسمية أناس مشتغلين بأمر الدين · واسم عبده مضافا الى الضمير الذى ينوب عن جميع الأسماء الحسنى معناه أن المتسمى به (عبده) هو سبحانه وتعالى وليس بعبد أحد من خلقه · وقد يطلق هذا الاسم بغير نظر الى هذا المعنى ، ولكنه اذا أطلق على المولود فى زمن يسام فيه أهله الذل والعنت ويرفعون فيه الرأس بالتحدى والمناجزة فليس هو من الأسماء التى تطلق جزافا ولا تراد لمعنى ، وكذلك اسم خير الله كبير الأسرة : انه خير الخالق وليس بخير أحد سواه ، وأصغر أبناء الاسرة «حمودة» هو اسم محمد للتحبيب ، سمى به لأن له أخا أكبر منه يسمى محمدا وينادى أخوه الأصغر باسم حمودة كأنه ينادى باسم محمد الصغير ·

ونحن نلتفت الى هذه العادة فى التسمية ونرجح القصد فيها لأنها مناسبة لحالة الأسرة غير منقطعة عن معانيها كما تنقطع معانى الأسماء فى كثير من الأسر التى تجرى فى اختيار الأسماء لأبنائها وبناتها مجرى التقليد الذى تتساوى فيه ظروفها وظروف غيرها · فاذا صح ما ذهبنا اليه فهو آية أخرى من آيات الاستقلال بالرأى فى هذا البيت . وعادة من عادات أناس يريدون لأنفسهم ولا يراد لهم فيما يعنيهم من شئون الآباء والأبناء .

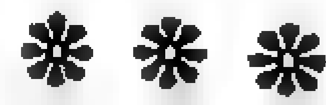
واسم صاحب الترجمة « محمد » هو الاسم الذى يقترن باسم أبيه فيساوق لفظ التحية الاسلامية كلما ذكر النبى « محمد عبده» ورسوله ·

فمحمد عبده اسم للوليد وذكرى محبوبة لنبى الاسلام عليه السلام ·

وأغلب الظن أن « محمدا » نذر من يوم مولده لطلب العلم ،

لانه ولد بجوار مدينة طنطا فى أواخر سنة ١٢٦٥ هجرية أو أوائل السنة التى تليها • وهو موعد من السنة يحتفل فيه باحياء ليلة جامعة يشهدها المريدون من أنحاء الاقليم وتتلى فيها سور القرآن الكريم يرتلها أشهر القراء بالمسجد الأحمدى ، وهو مشهور منذ بنائه بعلوم القرآن حفظا وتجويدا وتفسيرا ، وله فى كل ليلة من ليالى الأسبوع مقرأة باسم أحد المحسنين من أصحاب الوقوف عليه، ومن عادة قرائه الكبار أن يجلسوا بعد صـــلاة الجمعة ، أو بين العشائين ، كل ليلة من ليالى المقارىء لاستماع سور القرآن من المبتدئين بحفظه وتجويد تلاوته ، وهم الذين يخلفون كبار القراء بعد اتمام الحفظواحكام التلاوة والالمام بما يتيسر لهم فى سنهم من تفسير آيات الفرائض والعبادات •

فاذا كان الوالدالمغترب قد شهد بالمسجد ليلة الختام وشهد معها تسابق الفتية الصغار الى تجويد القراءة والاســـتعداد لطلب العلم بمعهده الذى كان يسمى بالأزهر الصغير ، أو الأزهر الثانى ، فليس أقرب الى الذهن من أن يخطر له أن ينذر وليده فى هذا الجوار لمثل هذه الكرامة ، وهو على ما طبع عليه من التدين والتطلع الى عظائم الأمور ، ولم يكن لابن القرية يومئذ من مستقبل أعظم من مستقبل العالم الذى يقود الأمة فى شئون الدين والدنيا ، ويحاسب ولاة الأمر على ظلم أهل القرى ، وهو فى اغتـــرابه لا ينسى ذلك الظلم ولا يتمني لولده مقاما أكبر من مقام ذلك الحسيب المهيب •



لذلك بقى الطفل الصغير بعد عودة أبيه الى محلة نصر معفى من تكاليف العمل فى الحقل مع أخويه وذوى قرباه ، وتعلم الكتابة والقراءة فى منزل والده ثم وكل الى حافظ معتقد لتحفيظه القرآن ، ثم أرسل فى سن طلب العلم الى طنطا لتلقى علومه تمهيدا للترقى منه الى الجامعة الأزهرية ، ولم يقبل منه أبوه عذرا للتخلف عن

المسجد بعد تزويجه المبكر فى نحو السادسة عشرة . ولعله حسب أن احجامه عن متابعة الدرس كان عرضا من أعراض سن المراهقة ، وانه مع ذكائه الذى ظهر منه فى تعلم الكتابة وحفظه للقرآن فى نحو سنتين خليق أن يعدل عن المعاندة فى طلب العلم الذى نذره له منذ ولادته ، وتفصيل ما بعد ذلك من مراحل تعليمه مبسوط فى سيرته التى كتبها بقلمه ، ننقله بنصه ولا نرى لنا مرجعا أولى بالاعتماد عليه وأوفى منه فى بابه ، وهذا ما كتبه بعنوان لنشأتى وتربيتى من تلك السيرة التى نشرت بعد وفاته . قال رضوان الله عليه :

« تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والدى ، ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدى جميع القرآن أول مرة . ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه فى مدة سنتين ، أدركنى فى ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاءوا من مكتب آخر ليقرءوا القرآن عند هذا الحافظ ، ظنا منهم أن نجاحى فى حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ . وبعد ذلك حملنى والدى الى طنطا ، حيث كان أخى لأبى الشيخ مجاهد رحمه الله ، لأجود القرآن فى المسجد الأحمدى لشهرة قرائه بفنون التجويد ، وكان ذلك فى سنة ١٢٧٩ هجرية .

« وفى سنة مائتين واحدى وثمانين هجرية جلست فى دروس العلم وبدأت بتلقى شرح الكفراوى على الأجرومية فى المسجد الأحمدى بطنطا ، وقضيت سنة ونصفا لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم ، فان المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ، ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لم يعرفها فأدركنى اليأس من النجاح وهربت من الدروس ، واختفيت عند أخوالى مدة ثلاثة أشهر ، ثم عثر على أخى فأخذنى الى المسجد الأحمدى ، وأراد اكراهى على طلب العلم ، ولم يبق على الا آن أعود الى بلدى وأشتغل بملاحظة

الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربى : وانتهى الجدال بتغلبى عليه، فأخذت ما كان لى من ثياب ومتاع ، ورجعت الى محله تصر على نية الا أعود الى طلب اعلم ، وتزوجت فى سنة ١٢٨٢ على هذه النية ٠

« فهذا أول أثر وجدت فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا وهى بعينها طريقته فى الأزهر ٠٠ وهو الاثر الذى يجده خمسة وتسعون فى المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لايلتزمون هذه السبيل فى التعليم ٠٠ سبيل القاء المعلم ما يعرفه أو مالا يعرفه بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم ، غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون تغشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئا فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال ، وهم فى أحلام الاطفال ، ثم يبتلى بهم الناس وتصاب بهم العامة ، فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ، ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ، ويؤذون بدعاويهم من يكون على شىء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعمله .

عودة الى طلب العلم

« بعد أن تزوجت بأربعين يوما ، جاءنى والدى صحوة نهار وألزمنى بالذهاب الى طنطا لطلب العلم ٠٠ وبعد احتجاج وتمنع واباء ، لم أجد مندوحة عن اطاعة الأمر ، ووجدت فرسا أحضره فركبته وأصحبنى والدى بأحد أقاربى ٠٠ وكان قوى البنية شديد البأس ليشيعنى الى محطة (ايتاى البارود) التى أركب منها قطار السكة الحديدية الى طنطا .

« كان اليوم شديد الحر ، والريح عاصفة ملتهبة ، تحصب الوجه بشبه الرمضاء ٠٠ فلم أستطع الاستمرار فى السير فقلت لصاحبى : أما مداومة المسير فلا طاقة لى بها مع هذه الحرارة ، ولا بد

من التعريج على قرية أنتظر فيها حتى يخف الحر ٠٠ فأبى على ذلك فتركته ،وأجريت الفرس هاربا من مشادته ، وقلت :نى ذاهب الى (كنيسة أورين) بلدة غالب سكانها من خئولة أبى ٠ وقد فرح بى شبان القرية لأننى كنت معروفا بالفروسية واللعب بالسلاح وأملوا أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه ٠٠ أدركنى صاحبى وبقى معى الى العصر ، وأرادنى على السفر فقلت له خذ الفرس وارجع وسأذهب صباح الغد وان شئت قلت لوالدى اننى سافرت الى طنطا ٠٠ فانصرف وأخبر ما أخبر ، وبقيت فى هذه القرية خمسة عشر يوما تحولت فيها حالتي ، وبدلت فيها رغبة غير رغبتى ٠

مع الشيخ درويش

« ذلك أن أحد أخوال أبى ، واسمه الشيخ درويش سبقت له أسفار الى صحراء ليبيا .. ووصل فى أسفاره الى طرابلس الغرب ، وجلس الى السيد محمد المدنى والد الشيخ ظافر المشهور الذى كان قد سكن الاستانة وتوفى بها وتعلم عنده شيئا من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية ، وكان يحفظ « الموطأ » وبعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه ، ثم رجع من أسفاره الى قريته هذه ، واشتغل بما يشتغل به الناس من فلاحة الأرض وكسب الرزق بالزراعة .

« جاءنى هذا الشيخ صبيحة الليلة التى بتها فى الكنيسة ، وبيده كتاب يحتوى على رسالة كتبها السيد محمد المدنى الى بعض مريديه بالأطراف بخط مغربى دقيق ، وسألنى أن أقرأ له فيها شيئا لضعف بصره ٠٠ فدفعت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ، ونفرت منه أشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدى رميته الى بعيد ، ولكن الشيخ تبسم وتجلى فى الطف مظاهر الحلم ، ولم يزل بى حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لى معانى

ما قرأت بعبارة واضحة تغالب اعراضي فتغلبه وتسبق الى نفسي وبعد قليل جاء الشبان يدعونني الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة في نهر قريب من القرية ، فرميت الكتاب وانصرفت اليهم .

« بعد العصر جاءني الشيخ بكتابه ، وألح على فى قراءة شيء منه قرأت ثم تركته الى اللعب ، وفعل فى اليوم الثانى كما فعل فى الأول ، أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه ، وهو يشرح لى معانى ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها ، فقال لى انه فى حاجة الى الذهاب الى المزرعة ليعمل فيها فطلبت منه ابقاء الكتاب معى فتركه ، ومضيت أقراه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء وقت الظهر ، وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبة فى اللعب ، وكل هوى ينازعنى الى البطالة .. وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه ، فأبان معناه على عادته ، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندى من الرغبة في المطالعة والميل الى الفهم .

مفتاح سعادتي

« كانت هذه الرسائل تحتوى على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا .

« لم يأت على اليوم الخامس الا وقد صار أبغض شيء الى ما كنت أحبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شيء الى ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم . وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعوننى الى ما كنت أحب ويزهدوننى فى عشرة الشيخ رحمه الله ، فكنت لا أحتمل أن أرى واحدا منهم ، بل أفر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الأجرب .

« وفى اليوم السابع سألت الشيخ : ما هى طريقتكم ؟ فقال : طريقتنا الاسلام ، فقلت : أو ليس كل هؤلاء الناس بمسلمين ؟ قال : ولو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب .

« هذه الكلمات كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندى من المتاع القديم .. متاع تلك الدعاوى الباطلة ، والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون ، وان كنا فى غمرة ساهية .

« سألته ما وردكم الذى يتلى فى الخلوات أو عقب الصلوات ؟ فقال : لا ورد لنا سوى القرآن ، تقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر ، قلت : أنى لى أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا ؟ قال : أقرأ معك ، ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك التفصيل ، واذا خلوت فاذكر الله — على طريقة بينها لى . وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن ، فلم تمض على بضعة أيام الا وقد رأيتنى أطير بنفسى فى عالم آخر غير الذى كنت أعهد ، واتسع لى ما كان ضيقا ، وصغر عندى من الدنيا ما كان كبيرا ، وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيرا .. وتفرقت عنى جميع الهموم ، ولم يبق لى الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ، ولم أجد اماما يرشدنى الى ما وجهت اليه نفسى الا ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد ، الى اطلاق التوحيد .. هذا هو الأثر الذى وجدته فى نفسى من صحبة أحد أقاربى ، وهو الشيخ درويش خضر من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرة . وهو مفتاح سعادتى أن كانت لى سعادة فى هذه الحياة الدنيا ، وهو الذى رد لى ما كان غاب من غريزتى ، وكشف لى ما كان خفى عنى مما ودع فى فطرتى .

« وفى اليوم الخامس عشر ، مر بى أحد سكان بلدتنا (محلة نصر) فأخبرنى أن والدتى ذهبت الى طنطا لترانى ، فعلمت أنها

ستقول لوالدى اننى لا أزال فى بلدة الكنيسة ، فأصبحت مبكرا الى طنطا خوف عتاب الوالد واشتداده فى اللوم ، لأننى لو كنت أقمت له ألف دليل على أننى وجدت فى مهربى مطلبه ومطلبى لما اقتنع .

فى ساحة الدرس

« ذهبت الى طنطا ، وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية فى شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ الهجرية ، فاتفق أن بعض المشايخ كانت ماتت بنته ، فعاقه الحزن عليها من اتمام شرح الزرقانى على العزية ، وآخر عرض له عارض منعه عن اتمام شرح الشيخ خالد على الأجرومية فأدركت كلا منهما فى أوائل الكتاب الذى كان يدرس وجلست فى الدرسين فوجدت نفسى أفهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله . وعرف ذلك منى بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولى لأطالع معهم قبل الدرس ما سنتلقاه .

وفى يوم من شهر رجب من تلك السنة ، كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم معانى شرح الزرقانى ، فرأيت أمامى شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب .. فلما رفعت رأسى اليه قال ما معناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء ، فقلت له : وأين الحلوى التى معك ؟ فقال : سبحان الله من جد وجد .. ثم انصرف فعددت ذلك القول منه الهاما ساقه الله الى ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا .

« وفى منتصف شوال من تلك السنة ذهبت الى الأزهر وداومت على طلب العلم على شيوخه مع محافظتى على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت أستغفر الله اذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة .. وفى أواخر كل سنة دراسية ، كنت أذهب الى (محلة نصر) لأقيم بها شهرين من منتصف شعبان الى منتصف شوال

وكنت عند وصولى الى البلد أجد خال والدى الشيخ درويشا قد سبقني اليه فكان يستمر معي يدارسني القرآن والعلم الى يوم سفرى وكل سنة كان يسألنى ماذا قرأت ، فأذكر له ما درست فيقول : ما درست المنطق ، ما درست الحساب ، ما درست شيئا من مبادىء الهندسة .. وهكذا كنت أقول له : بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة في الازهر ، فيقول : طالب العلم لايعجز عن تحصيله فى أى مكان .. فكنت اذا رجعت القاهرة ، ألتمس هذه العلوم عند من يعرفها ، فتارة كنت أخطىء فى الطلب ، وأخرى أصيب ، الى أن جاء المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر أواخر سنة ١٢٨٦ هـ .

لقاء بالسيد جمال الدين

« وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ هـ ، وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية وأدعو الناس الى التلقى عنه كذلك .

« وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل ، ويزعمون أن تلقى تلك العلوم قد يفضى الى زعزعة العقائد الصحيحة . وقد يهوى بالنفس فى ضلالات تحرمها خيرى الدنيا والآخرة ، فكنت اذا رجعت الى بلدى عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لى : « ان الله هو العليم الحكيم ، ولا علم يفوق علمه وحكمته ، وان أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه ، وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة ، فلا شيء من العلم بممقوت عند الله ، ، ولا شيء من الجهل بمحمود لديه الا ما يسميه بعض الناس علما . وليس فى الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلهما الاضرار بالناس » .

محور حياة

صحبنا الفتى الناشىء فى مراحل التعليم الى نحو الثانية والعشرين من عمره ، فلو أننا أردنا أن نلتمس لحياته فى هذا الدور محورا تدور عليه يجتمع لنا فى كلمة واحدة ، لما كانت هـــذه الكلمة أصدق ولا أوفى من كلمة التعليم .

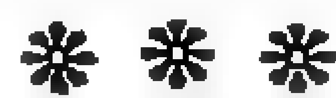
صحبناه الى أول لقاء له بأستاذه العظيم جمال الدين الافغانى وسنصحبه بعد ذلك ردحا من العمر فى الصفحات التالية ، ولا نرانا نعرف لحياته المباركة محورا غير ذلك المحور الذى دارت عليه كل ادوار حياته ، على تعدد جوانبها واتساع ميادينها .

بل نحسب أننا لو صحبناه فى كل صفحة من الصفحات التى عنيت بأخباره وآثاره لما ابتعدنا من ذلك المحور المكين ، وان ذهبنا الى غاية الأمد الذى أحاطت به حياته الحافلة بجلائل أعماله ، متعلما ومعلما وعاملا على نشر العلم النافع حيث استطاع ، وقد استطاع ما لم تستطعه العصـــبة أولو العزم فى جيل واحد ، من الثانية والعشرين الى السادسة والخمسين .

اننا نصاحب الطفل محمد عبده كما نصاحب الفتى محمـــد عبده ، والشيخ محمد عبده ، فلا نراه أبدا الا على مفترق طريقين من طرق التعليم ، أصلحهما هو الذى يختاره له القدر أو يختاره لنفسه ؛ منذ تعلم الكتابة فى بيته الى أن فارق دنياه وهو يناضل نضاله الدائم فى سبيل أصلح الثقافتين وألزم التعليمين .

كان فى نحو السابعة حين ابتدأ بتعلم الكتابة والقراءة ، فكان فى قريته الصغيرة أمام طريقتين فى هذه المرحلة الأولى من مراحل التعليم : طريقة السوط والفلقة وصياح العشرات من الصبية بين جدران المكتب العتيق ، وطريقة التعلم فى البيت بين يدى أستاذ واحد من أهله يفهمه ويعني بتفهيمه ويعز عليه أن يعنته بالسوط والفلقة وجلبة الصياح فى مكان كالمكان الذى يختار للمكتب فى ذلك الزمن ، فكان من حظه أن يتعلم حروفه الأولى على أفضل الطريقتين .

وارتقى الى المرحلة الثانية من مراحل التعليم فى القرية ، وهى حفظ القرآن ، فلم يتعلمه فى المكتب العتيق مأخوذا بقسوة الضرب والشتم ، مرتاضا على الترديد مع زملاء له يحفظون غير حفظه ويرددون غير ترديده ، ويستعينون بالحركة الآلية على هذا الحفظ الآلى الذى لا يعقله الأستاذ ولا التلاميذ ، بل هو قد حفظ منه ما استطاع أهله أن يعلموه فى البيت ، ثم أسلموه الى الحافظ المعتقد الذى يقرأ الكتاب مع تلميذه الوحيد قراءة بعد قراءة ، قبل أن يأخذه باستظهاره من فاتحته الى ختامه مقروءا أو غير مقروء ، لا فرق بين تعليم الضرير وهو لا ينظر الى الصفحة وتعليم البصير الذى ينظر الى الكلمات والآيات فيدرك جهده من الادراك معنى الانتقال من آية الى آية ، ويستعيده للفهم جهده قبل أن يستعيده للحفظ والاستظهار .. فكان فى هذه أيضا مجدودا موفقا الى أمثل الطريقتين ، وفضله في مثل هذه السن أنه وافق هذه الطريقة باستعداده للمضى فيها الى غايتها ، ولم ينفر منها كما نفر من التعليم ــ وهو أكبر من ذلك سنا ــ لأنه تعليم معيب .



ثم ألفى نفسه مترددا عند مفترق الطريقين أيضا على فجوة

أوسع من كل فجوة مرت به منذ اختبر التعليم فى البيت أو عند حافظ القرآن ٠

ألفى نفسه على مفترق الطريقين بين دروس المسجد الاحمدى يوم ذاك ودروس قريبه الصوفى الحكيم الشيخ درويش بكنيسة أورين ٠

ألفى نفسه بين طريقة الأذن والذاكرة ، وطريقة الذهن والوجدان :

فى الطريقة الأولى يبتدىء المعلم بتدريس النحو لجمع من التلاميذ الذين يجهلون كل شىء عنه ، فيلقى عليهم فى أول درس ومن أول صفحة اعراب : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويحدثهم عن حرف الجر وعن الاسم المجرور وعن المضاف والمضاف اليه وعن النعت ومطابقة الوصف للموصوف ، كأنهم قد فرغوا من دروس العربية كلها قبل أن يقرءوا البسملة على بابها الأول ٠٠ فمن وعى ما سمع فقد أدركته بركة العلم والمسجد ، ومن لم يع شيئا مما سمع فذلك عندهم مطموس محجوب عن البركة والفائدة ٠

وهذه هى الطريقة التى سميناها بطريقة الاذن والذاكرة ، لأن أساتذتها يخاطبون فى تلميذهم أذنا تسمع الكلمات وذاكرة تثبتها كما هى وتعيدها كما سمعتها ، ولا يعنيهم منه بعد ذلك أن يكون له ذهن يفهم ويتصرف فيما يفهم ، أو وجدان يستضىء بنور المعرفة المفهومة ويستلذ الشعور بما وعاه منها ٠

وقد عاف الفتى الناشىء هذه الطريقة ولم يستطع أن يغالط نفسه فى حقيقتها ٠

وانما يفعل ذلك أحد اثنين من الطلاب : طالب مغلق الذهن عن كل معرفة مفهومة أو غير مفهومة ، فهو عاجز عن الاستماع الى

ما يفهم وما لايفهم ممايلقى على أذنيه ، فلا يلبث بعد معالجة الحفظ والمراجعة زمنا أن يسلم الامر تسليم اليائس لأنه من أولئك المطموسين الذين « لم يفتح عليهم » وليس لهم من العلم تصيب مقدور .

والطالب الآخر الذى يزهد فى تلك الطريقة ولا يغالط نفسه فى حقيقتها هو صاحب الذهن الذى يتطلب الفهم والوجدان الذى يلمح النور اذا رآه . فان لم يجدهما فى ساحة الدرس لم يبال أن يتركه لما هو أقدر عليه من شواغل حياته ، وبخاصة حين تكون هذه الشواغل رياضة كرياضة الفروسية تستريح اليها كل نفس حية وكل طبع سليم ، وعملا كعمل الزراعة يقوى عليه صاحب الجد فى العمل وصاحب البنية التى تحتمل الجهد ولا تعييها المشقة .

ولعمرى ان من بواكير العظمة المستقلة فى هذا الفتى الناشىء أن يركن الى عقله فى الحكم على هذه الطريقة بالعقم ولا يستسهل قبل ذلك أن يتهم عقله وأن يصنع ما صنع المألوف من قبله فى مثل بدايته ، فانهم كانوا يكبرون أن يعيبوا هذا التعليم وهو محفوف بتلك الهالة المرهوبة التى تحف باسم المعهد الاحمدى وأسماء العلماء الذين يجلسون للتعليم فيه ، ومن اسم السيد البدوى تستعيد تلك الطريقة هيبتها وهو ثاو فى ضريحه براء منها ، وانه كما قال الشيخ مصطفى عبد الرازق فى ترجمته للأستاذ الامام : « أشهر أولياء القطر المصرى ، وصيته وكراماته ذائعة في أنحاء وادى النيل ، وللناس فيه اعتقاد ، ولزائريه من صـــور التوسل والزلفى مالا يخلو من اسراف » .

ولا شك أن الشيخ « عبده حسن خير الله » قد تلقاها خيبـــة أمل مرة فى وليده المنذور للعلم والرئاسة الدينية الدنيوية ، ولولا رجاء الأب الذى يأبى أن تزعزعه صدمة أو صدمتان لما عاود الكرة على الفتى المتمرد ولا حال بينه وبين البقاء فى القرية كما أراد ، ولكنه لو كشف له حجاب الغيب لعلم أنه يشاهد من فتاه الصغير أنضر بواكير

العقل المستقل والمعارضة القوية التى صار بها الطالب « الحائب » استاذ الشرق الناهض بعد سنين •

أما الطريقة الأخرى ، طريقة العقل والوجدان ، فلم يكن بينه وبينها غير اشارة لطيفة من أستاذه الفلاح البسيط درويش خضر ، وغير كتاب مخطوط يلقى بين يديه ليقرأه ويستقل بفهمه ويسأل عما يغمض عليه من كلماته ، ان شاء •

فلم تكن لهذه الطريقة مهابة المعهد الكبير أو الاساتذة الكبراء، ولم يكن لذلك الكتاب اسم يروع بالتواتر والتقليد ، أو شكل يعجب بصنيع الطبع والتجليد ، ولكنه كان بصفحاته المشوشة المبعثرة ، وخطه الساذج الممسوح ، كافيا لاجتذاب الطالب المتمرد على العلم وانصرافه عن لهو الفتوة فى ملاعب الخيل وحلبات السباق ، لأنه خاطب منه الذهن المتفتح والوجدان المتطلع الى النور •

ولسنا نعلم اليوم شيئا عما احتوته تلك الصفحات المخطوطة الا أنها نخبة من حكم الصوفية وجوامع النوادر والأمثال •

ولكننا نستطيع أن نعلم عن تلك « الصوفية » أنها شىء غير الجذاب والتواكل وغير الكسل والزهد فى أعمال المعيشة ، لأن أستاذه الذى هداه الى ذلك الكتاب كان فلاحا يعمل فى الزراعة ، وكان يحضه على تعلم الحساب والهندسة والمنطق وعلوم الحياة ، وينهاه عن العزلة واجتناب الناس ، ولو كانوا على غير ما يرضاه من خلق وسيرة ، لأنهم بذلك أحوج الى الهداية ومصاحبة العقلاء •

ولا يخلو مذهب صوفى قط من التفرقة بين الظاهر والباطن وبين شواغل الجسد وشواغل الروح ، ولكن هذه التفرقة قد تتباعد بالفوارق كما يتباعد النقيضان ، وقد تتباعد بها كما يتباعد اللباب والقشور • ومثل هذه الصوفية هى التى تعقلها من مزاج رجل كالشيخ محمد عبده له بنية الفلاح السليم ونشاط الرياضى

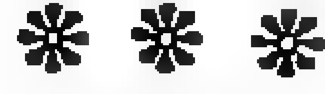
المقـــدام وثقة العقل المستقل وهمة الكفاح الذى يأبى أن يستكين لمغالبة الأحداث ، أو مغالبة الخصوم ٠

وفى الأسرة كلها على ما يظهر نفحة من هذه الصوفية العاملة التى تؤمن بحقيقة لهذه الدنيا وراء قشورها الظاهرة ، فمن أجداد محمد عبده أولئك الفلاحون الذين أقاموا مســـاكنهم حول ضريح «عبد الملك» وقامت المحلة كلها ـ من ثم ـ على أساس ذلك الضريح ٠

ومن خئولة أبيه الشيخ « خضر » الذى تدل تسميته على هذه النزعة فى أبيه ، ومنهم الشيخ «درويش بن خضر» الذى وضع بين يدي تلميذه ذلك الكتاب وهو لا ينسى أن يحثـه على العمل والعلم فى كل لقاء ، ومنهم أبوه «عبده» وأخوه «مجاهد» فيما تخلقا به من خلق وما عرفنا عنهما من غيرة على العلم ، مـع اشتغالهما بالفلاحة وكفاح الحياة ، وهذه الطبائع التى تهديها الفطرة السليمة الى الايمان بشيء وراء القشور وسر وراء الكلمات ، قـــد تهديها هـذه الفطرة السليمة بعينها الى العصمة من أكاذيب الأدعيــاء وأباطيل اللصقاء بالصوفية ، لأن طبيعة العمل والجـــد فى فطرتهم تأبى عليهم أن ينخدعوا بما ينخدع به الكسالى الذين ينفرون من الجـــد الصادق بمقدار ارتياحهم الى الأوهام الباطلة ، ويرحبون بمـــا يحبب اليهم التواكل والاستنامة الى أحلام اليقظة وتعلات الغرور بمقدار اعراضهم عن الواقـــع الصادع والبرهان الدامـغ ، ان كان وراءهمـــا جهد واجتهاد ٠

وغاية ما تســـيغه الفطرة السليمة من استطلاع الأسرار أن تتفاءل بها لتمضى فى عملها ، ولكنها لا تتفـاءل أو تتشـــاءم منها لتعرض عن العمل أو تركن الى الكسل ، وكذلك كانت فطرة هذه الأسرة فى « صوفيتها » البريئة ، فاننـــا سمعنا عن عقائدهم فى الأولياء وأبنـــاء الطريق ، ولكننا لم نسمع عن واحد منهـم ساقه

اعتقاده الى اهمال حقله أو القاء فأسه والتخلى عن كفاحه للعيش ، أو كفاحه للخصوم .



ومن هذا التفاؤل اصغاء الطالب المتبرم بدروس المعهد الى الكلمة التى لوح بها من قال عنه « انه يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب » .. وقد سمعها منه يوم كان يحدث نفسه بالانتقال من طنطا الى القاهرة ، عسى أن يجد فى الأزهر الاول ما لم يجده فى الازهر الثانى أو الازهر الصغير .

ولم يلبث أن أقام بالقاهرة أياما حتى ألفى نفسه فى الازهر كما ألفى نفسه من قبل مرة بعد مرة على مفترق الطريقين : طريق الأذن والذاكرة ، وطريق الذهن والوجدان ، وقد سميتا يومئذ بين طلاب العلوم الدينية بطريقة التقليد وطريقة التجديد .

وحسبنا من تلخيص واف لصلابة المقلدين على جمودهم أن نعلم أن رئيسهم عليشا خرج يسعى بخنجره الى مجلس الشيخ السنوسى ليقتله لأنه كتب فى مؤلف له أنه يجتهد بعلمه فى فهم الشريعة من كتاب الله ، غير متقيد بما كتبه الفقهاء من المتأخرين أو المتقدمين ، ولولا سفر الشيخ السنوسى من القاهرة لما برح الشيخ يتعقبه حيث كان ليقضى عليه .

وقد كانت لأنصار التجديد مدرسة مستقلة يقصدها من يريدها وقلما يبحث عنها من كان يطلب العلم على من يفتتحون كتاب النحو باعراب البسملة ، ويختمون الكتب كلها بخاتم الذاكرة . فبحث الطالب الأزهرى الغريب عن أساتذته المختارين من علماء التجديد ، وحضر على عالمين جليلين من أشهرهم وأقدرهم هما حسن الطويل والشيخ محمد البسيونى ، وكلاهما من تلاميذ الشيخ حسن رضوان الذى تفرغ لحكمة التصوف بعد أن استوفى

حظه من العلوم العقلية والشرعية ، ثم يئس من الدرس والتدريس فى الجامع الكبير فتركه ليلحق بأستاذه الذى كان يلقى دروسه فى غير حلقاته ، ونظم وهو يودع حلقاته ارجوزة يقول فيها عن جماعة المقلدين :

لو كان هـذا وصفهم ما شنعوا
بل وقتهم فى « جاء زيد » ضيعوا

ظنوا بأن العـلم علم القـول لا
والله بل علم القلوب فضلا

وعلم القلوب هذا هو العلم الذى ميزه الطالب الناشيء فى قريته وجاء الى العـاصمة الكبرى ينشده فيجده على تلك الحال : امامه العارف بفضله يبحث عن تمامه بعيدا من حلقـات الجامع ، وخليفتاه النابغتان بعده يقنعان من درسه وتدريسه بالجانب المأمون من خنجر الشيخ عليش !

قال صاحب المنار نقلا عن الاستاذ الامام :

« ... كان الشيخ حسن الطويل ممتـازا فى الازهر بعلم المنطق وحضره عليه ولم يكن يشفى ما فى نفسه ، بل كانت تتشوف دائما الى علم غير موجود ، فكان يبحث فى خزائن الكتب الأزهرية عن طلبته المجهولة فيظفر ببعض الشيء . ومما ظفر به كتاب القطب على الشمسية ناقصا » .

قال : « وقرأ الشيخ حسن الطويل لهم شـيئا من الفلسفة ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا ، بل كان الدرس احتمالات أو شبهات الحذر فيما بينها ، حتى جاء السيد جمـال الدين فسكنت اليه نفسه من اضـطرابها ووجدت عنده جميـع طلبتها وأقصى أمنيتها .. » .

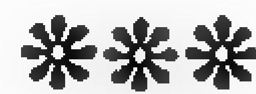
أهو مفترق الطريق مرة أخرى ؟

نعم ، ولكنه فى هذه المرة مفترق طريق فى مدرسة واحدة : مدرسة علم القلوب والعقول • وبديهة التلميذ الصادقة هى هاديه الأمين الى أقوم الطريقين وأفضل الغايتين ، بين تعليم الشيخ حسن الطويل وتعليم السيد جمال الدين •

وانما افترق التعليمان هنا بين طريق النظريات وطريق العمليات •

وكلاهما يخاطب الذهن والوجدان ، ولكن النظريات لا تذهب بعيدا وراء الفهم والمناقشة ، ولاتستريح النفوس المطبوعة على الحركة زمنا طويلا الى بحث من بحوث الذهن قصاراه ترجيح نظرية على نظرية وتوضيح شبهة واردة أو تصحيح غلطة خفية ، لأنها تفهم لتعرف كيف تعمل ، وتهتدى لتسلك الى الغاية التى تتحراها ولا تستريح الى السكون دونها •

وغير هذه الطريق : طريق النظريات ، كانت طريق جمال الدين الى « العمليات » التى تعيش مع صاحبها فى معترك الحياة ، وتعقب لها أثرا فى نفسه وفيما يحيط به من أحوال قومه ، وخلاصة الفارق بين الطريقتين هى خلاصة الفارق بين صاحب درس وصاحب رسالة ، وقد يلتقيان ولكنهما لا يتساويان •



وبعد ، فاننا فى صفحات هذه السيرة لا نتوخى ترتيبا يقيدنا بترتيب أرقام السنين فى التقويم ، لأننا نتكلم عن نفحة من نفحات الحياة العالية بأوصافها وملامحها ، ولا نتكلم عن نبذة من الزمن بترتيب حوادثه وأرقامه • فمكان الحادث من هذه السيرة هو مكانه فى موضع الدلالة على جوانب تلك الشخصية الحية ، ولا سيما جوانبها البارزة التى تنتظم من مبدأ العمر الى نهايته، وأولها وأهمها هذا الجانب الذى نراه على الدوام كأنه يوحد بين مسألة التعليم

ومسألة العمر كله فى سيرة هذا المصلح العظيم الذى سمى بحق بالأستاذ الامام .

ولهذا نتناول فى هذا الفصل جملة من الحوادث التى تتابعت بعد لقاء الطالب محمد عبده بأستاذه جمال الدين ، ومنه ما كان الخلاف فيه بين التلميذ والأستاذ بعد ملازمة السنوات الطوال .

***

تولى التحرير فى الصحف فكان مدار مقالاته التى كتبها فيها جميعا على الدعوة الى التعليم ، والتمييز بين التعليم النافع والتعليم العقيم الذى أدرك عقمه بالتجربة بعد التجربة من بواكير صباه .

ولم تمض سنوات بعد أول لقاء له بالسيد جمال الدين حتى جاشت البلاد بقلاقل الثورة الاولى ، وكان الطالب الذى تخرج يومئذ من معهده للتدريس يلقى دروسه ويكتب مقالاته ويشارك زعماء الثورة فيوافقهم على أمور ويخالفهم على غيرها ، ومن أهم ما خالفهم عليه أن يهتموا بتعليم الأمة لتوكل اليها حقوقها وهى أمينة عليها فان ما يمنحه سلطان الحاكم بأمره يسلبه سلطان الحاكم بأمره « وانما علينا — كما قال للزعيم عرابى — أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين ، وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها فى استشارة الأهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيدا لما يراد من تقييد الحكومة ، وليس من المصلحة أن نفاجىء البلاد بأمر قبل أن نستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المال للناشىء قبل بلوغ سن الرشد ، فيفسد المال ويفضى الى الهلكة » .

وانتهت الثورة العرابية بنفيه الى بيروت فكان عمله فيها التعليم بالمدرسة السلطانية ومحاضرة الطلاب والمريدين فى منزله وفى المساجد المشهورة ، وكان الاستاذ الشرتونى صاحب المعجم

الكبير المسمى بأقرب الموارد يقول عن دروسه هنـاك : انه يتكلم فيخرج النور من فيه ٠

وأذن له بالعودة الى مصر فلم يفارق بيروت الا بعد أن أودع آراءه في اصلاح الامة الاسـلامية بالتعليم والتربية فى رسالتين أو « لائحتين » أرسل احداهما الى شيخ الاسلام بالآستانة ، وأرسل الثانية الى والى بيروت ليشرح فيها ما اهتدى اليه أثناء مقـامة من وسائل اصلاح البلاد من طريق التعليم والتربية ٠

وقد اتبع أستاذه جمال الدين فى حملات الاصلاح من طريق السياسة وعلى أيدى الأمراء والملوك الذين توسما فيهما صدق الرغبة فى استجابة الدعوة ، فلما بلغا بهذه الحملات المتداركة غاية مطافها، عاد التلميذ يراجع أستاذه فيما هو أقوم وأجدى وقال له كما روى صاحب المنار :

« أرى أن نترك السياسة ونذهب الى مجهل من مجاهل الارض لا يعرفنا فيه أحد ، نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الاذكياء السليمى الفطرة ، فنربيهم على منهجنا ونوجه وجوههم الى مقصدنا، فاذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمضى بضع سنين أخرى الا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد فى سبيل الاصلاح ، ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح » ٠

قال السيد لتلميذه فى رواية صاحب المنار : « انما أنت مثبط ٠ نحن قد شرعنا فى العمل ولا بد من المضى فيه ، مادمنا نرى منفذا » ٠

ولكنه اختلاف الفطرة والاستعداد بين هذين الامامين العظيمين: أحدهما خلق للتعليم والتهـذيب والآخر خلق للدعوة والحركة فى مجال العمل السياسى والثورة «الأممية» ٠ وظل المعلم المهذب على

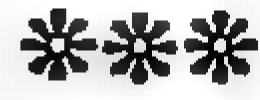
رأيه وعلى فطرته فى انتظار الفرصة الملائمة لأداء رسالته على حسب استعداده ٠

فلما عاد الى مصر كان فى مرجوه أن يسند اليه عمل من أعمال التدريس فى معاهده العليا التى لا يعوقه فيها عائق من التقاليد الموروثة عن الانتفاع ببرنامج الثقافة العصرية ، وأقرب هذه المعاهد اليه وأشبهها بعمله وبالرسالة التى أجمع العزم على أدائها هو معهد دار العلوم ، لأنه يجمع بين ثقافة الأزهر وثقافة العصر الحديث ٠

الا أن ولاة الأمر أوجسوا ــ على ما يظهر ــ من اسناد وظيفة التدريس فى دار العلوم الى رجل مثله فى ايمانه بقوة التعليم واقتداره على بث هذه القوة فى نفوس الناشئة من معلمى المستقبل، ومنهم مئات يتولون تعليم أبناء القطر كله بعد سنوات وينشرون فى أنحائه بذور نهضة متشعبة الأطراف ، هى أخطر على ولاة الأمر من الثورة العرابية التى أخمدوها وخيل اليهم أنهم استراحوا منها ٠

فأبعدوه عن وظائف التعليم واختاروا له وظيفة القضاء ، وهى وظيفة لوحظ فيها علمه بالشريعة ونزاهته فى الحكم وكفايته لتوجيه المحاكم الجديدة الى وجهتها الصالحة فى أوائل نشأتها ، ولكن لم تلاحظ فيها رغبته ولا كفايته للاصلاح من طريق التربية والتعليم، وكان خليقا أن يقبلها لو أنه نظر الى مستقبله ولم ينظر الى مستقبل رسالته فى الاصلاح ، لأن درجات الارتقاء فيها ممهدة الى أرفعها وأعلاها فى مناصب الدولة ، ولم يكن للمعلم فى ذلك الحين مستقبل أرفع من مستقبل النظارة على مدرسة من المدارس الصغيرة ، لأن نظارة المدارس الثانوية والمدارس العليا كانت موقوفة يومئذ على الانجليز والأجانب ، ولم يكن ناظر المدرسة الابتدائية يرتقى الى درجته الا وهو على باب الاحالة الى المعاش ٠ فلما حيل بينه وبين

معاهد التعليم أسف لذلك وأوشك أن يستعفى ولاة الامر من وظيفته القضائية ، لأنه ــ كما قال ــ جرب عمله فى التعليم وعلم أنه خلق له ولم يخلق «ليقول حكمت على هذا وحكمت لذاك ..» .

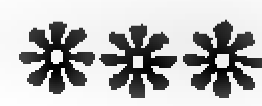


ان الذى خلق للتعليم يعلم حيث شاء ، ويتعلم ما استطاع . وقد كان القاضى (محمد عبده) معلما فى أحكامه كما روى عنه الذين شهدوا جلساته وسمعوا كلماته التى كان يلقيها على المتهمين وعلى الحاضرين فى الجلسة قبل النطق بحكم الادانة ، وكانت له لازمة اشتهرت عنه بين زوار المحاكم قبل تلاوة الحكم ، زعم بعضهم يومئذ أنها كانت خاصة بالاحكام المشددة ، ونرى فيما نظن أنها من لوازم التأمل ومراجعة الفكر عند كثير من المعممين أو المطربشين ، وهى زحزحة العمامة أو الطربوش الى الأمام بحركة لدنية تنم على الاستغراق فى التفكير ، وكانت تلازم القاضى محمد عبده ثم ظلت ملازمة له بعد الانتقال من وظائف القضاء كما سمعت من أصحابه وعشرائه ، ولانظنها كانت خاصة بالاحكام المشددة دون غيرها ، الا أن يكون تشديد الحكم مستدعيا للأناة والتأمل قبل النطق به مراجعة للفكر وابراء للذمة ، ولا نخالها على أية حال ــ الا علامة من علامات التفكير واعادة النظر فيما يلقيه من النصائح ويمليه من الأحكام .

وقد نظر فيما يتعلمه لوظيفته فعلم أنه بحاجة الى التوسع فى مبادىء القانون الجنائى الذى تعمل به المحاكم ، لأن القانون المدنى يجرى على أحكام الشريعةفى مسائل المواريث وحقوق المال والمعاملة، وعلم أن المراجع العربية لهذه القوانين لا تعطيه كفايته من الاحاطة الواجبة بتلك المبادىء فى أصولها المأثورة عند فلاسفة التشريع الغربيين ، فشرع فى تعلم اللغة الفرنسية وثابر على تعلمها بعد انتقاله من وظائف القضاء ، ولم يسبق له درس هذه اللغة فى غير

كتب الهجاء التى ألم بهـا وهو فى الرابعة والأربعين من عمره ثم شغلته عنها شواغل الثورة العرابية ، فلما عاد الى تعلمها لم يقنع بما وعاه منهـا للقراءة والفهـم ولم تقعده صـعوبة الكلام بلفظها الصحيح عن متابعة الدرس فى القـاهرة وفى رحـلاته الى البلاد الاوربية فحرص على حضور دروس العطلة الصيفية بجامعة جنيف أثنـاء رحلته الى سويسرة ، وكان يعنى على الخصـوص باستماع محاضرات العلماء فى الآداب الاوربية وفلسفة التـاريخ ، ولم يزل يقرأ ويستمع حتى جاوز فى اللغة مرتبة الفهم والمطالعة الى مرتبة الافهام والكتابة ٠

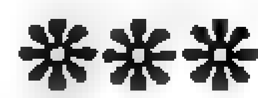
قال الدكتور عثمان أمين فى كتـابه عن الأستاذ الامام من سلسلة أعلام الاسلام : « لقد أجمع أصحاب الاستاذ الامام وخاصته على أنه أتقن اللغة الفرنساوية تحـدثا وقراءة وفهما على الرغم من قرب عهده بتعلمها ٠ وهذا ما شهد به أخيرا الاستاذ لطفى السيد (باشا) حين ذكر أن الشيخ محمد عبده هو الذى كان يجلو لاخوانه المصريين ما غمض من عبارات الفيلسوف الفرنساوى « تين » ، فى كتابه المشهور عن الذهن ، ونحن نعلم من جهة أخرى أن الأستاذ الامام قد أملى فى مرض موته فصـلا بالفرنساوية نشره المسـيو دى جرفيل فى كتابه عن مصر الحديثة بعنوان ، وصية سياسية للمرحوم المفتى الشيخ محمد عبده ، كما نعلم أن الشيخ قد ترجم عن الفرنساوية كتاب التربية للفيلسوف الانجليزى هربرت سبنسر ترجمة تدل على تمكنه من تلك اللغة .. » ٠



وتأبى ملكة التعليم اذا تمكنت من صاحبها أن تتوارى ولها مندوحة للبروز فى حركة من حركات ذهنه أو شاغل من شواغل حياته ٠ فقد كان القـاضى التلميذ يتلقى دروسه الاولى فى اللغة

الفرنسية وكأنه يعلم أستاذه فيها كيف يعلمه تلك الدروس وكيف يختار له أوجزها وأنفعها لمثله ، وهداه الهام البديهة الى منهج فى تعليم اللغات للكبار على الخصـــوص لم يكن معلوما فى ذلك الحين ولم ينتشر قط فى البلاد الغربية أو الشرقية قبل وفاته ، ونعنى به منهج التعليم الذى أطلقوا عليه بعد ذلك اسم المنهج الكلى أو منهج الابتداء بالكلام المجمل والانتهاء الى التفاصيل المتفرعة عليه ، ويؤثر المعلمون على هذا المنهج أن يبدأ قارىء اللغة بقراءة الجملة ثم يتعلم تفسيرها بفهم مفرداتها على حدة ، ثم يلم بقواعدها الضرورية ، أو بأجروميتها ونحوها وصرفها وبلاغتها ، من توضيح موقع الكلمة بالنسبة الى الكلمات الاخرى والى التراكيب التى تحتويها .

جاءه المعلم وفى يده كتاب من كتب الأجرومية الأولية ، فقال للمعلم : لا وقت عندى للابتداء من البداية فلنبدأ من حيث ننتهى، وتناول قصة من قصص اسكندر توماس ليقرأ عبـــارتها ويستمع تصحيح المعلم لنطقه وتفسيره لمعانيها ... قال : أما ما عدا ذلك فهو عملى ، والنحو يأتى فى أثناء العمل ، وعلى هذا المنهج أتم الكتاب وأتبعه بكتابين آخرين ، وتعود بعد الدرس أن يطالع ما قرأه على المعلم منفردا بصوت مرتفـع ، ليسمع نطقه ويتذكر مواضع خطئه وتصحيح معلمه ، واختبر فى نفسه نجاح هذا المنهج فأوصى به من كان يعرفهم من طلاب اللغة الفرنسية ، ومنه استفاد الشاعر حافظ ابراهيم فوائد حسنة فى هذا الباب ، كما سمعت منه وهو يحدثنا عن محاولته الأولى لترجمة كتاب « البؤساء » .

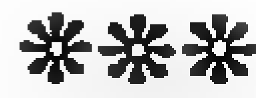


ومثل هـذا التمكن فى ملكة التعليم خليق أن يزيدنا بصرا بطبيعة هذه الملكة حيثما برزت لنا فى أعمال ذوى الاستعداد الفطرى لتعليم الناس أفرادا كانوا أو جماعات ، فضلا عن نفعهـا لنا فى

التبصير بترجمة الأستاذ الامام ، أو بما سميناه محور حياته وأردنا به ذلك المرجع النفساني الذى نرجع اليه لنهتدى به الى بواعث نفسه ومقاصد سعيه واجتهاده· ويبدو من بروز هذه الملكة والحاحها على خواطر المستعدين لهـا وبوادر نفوسهم وأذهانهم أنها عبقرية خاصة من تلك العبقريات الروحية التى تخلق فى الانسان ومعهـا حافز لا يستريح من حوافز الغيرةعلى انجاز عملها والحماسة لتحقيق مقاصدها ، وشأنها فى ذلك شأن كل عبقرية موهوبة تطبع على أداء رسالتها فى عالم العقيدة والايمـان أو فى عالم الفن والجمال · فلا يهدأ صاحب هذه العبقرية أو يبلغ رسالته ولو صدت الأسماع عنه أو حالت الحوائل القاسرة بينه وبين من يستمع اليه · ومن كان مطبوعا على عبقرية التعليم فليس قصاراه من الافضاء بعلمه أن ينقل طائفة من المعلومات المحفوظة من رأسه الى رءوس غيره : تلك رسالة لا نفحة فيها من الروح ولا مدد لها من السليقة ، وهى أشبه بنقل الصفحات من نسخة الى نسخة تمر بالسمع أو تمر بالفكر على الأكثر ـ ولا تسرى منه الى سرائر النفس ولا تتخطاه الى بواعث الحياة ، وهو عمل كعمل المأجور المسخر لارادة غيره ولا ارادة له ولا غيرة عنده ولا اخـلاص فى تفهيم ما يلقيه فى آذان مستمعيه ، وسواء عنده عملوا بما يعلمون أو لم يكن لهم عمل قط بعد فراغه من القاء تلك المعلومات وتقاضيه الأجر الذى سـخروه له ، كأنه مجبر عليه ·

وعلى غير هذا من النقيض الى النقيض يعمل صاحب العبقرية المطبوعة على التعليم ، فانه يعلم ليدفع المتعلمين الى عمل ويستنيرهم الى غاية ، ويبث فى نفوسهم من الحماسة مثل ما انطوى عليه فى أعماق ضميره من الحماسة لعمله وغايته ، ولا مطمع له فى أجر يناله منهم أو من سواهم بل هو يعطى الأجر ويجزله لو استطاع ، وليس بالسائغ فى طبعه أن يتحمل العلل لاعفاء نفسه من عناء عمله اذا

توانى المتعلمون على يديه ولم يستجيبوا لدعوته بمثل حميته واخلاصه ، لأنه يحسب استجابتهم غاية له تعنيه قبل أن تعنيهم ، وان كان فيها غاية النفع لأولئك المتعلمين عليه ٠



وأكثر ما يكون هذا الباعث الوجدانى فى نفوس المعلمين المطبوعين خصلة من خصال النخوة الانسانية فى كل ما تمثلت فيه من غوث الضعيف والرثاء للذليل وكراهة الجهل المذل للمبتلين به من ضحايا الغفلة والغباء وصرعى الظلم والخديعة ، ولا يثير هذه النخوة شىء كما تثيرها عزة الظالم الخادع واستكانة الجاهل الغافل، ولكنها نخوة ترتفع مع ارتفاع الهمم وتقوى مع قوة الطباع ، فلا تقنع بمحاربة الجهل فى واحد وآحاد وهى قادرة على محاربته فى جماعات وأقوام ، ولا تقصر الغوث على الدرس وهى قادرة على غوث للضعيف المفتقر اليه كيفما كان ٠

وأعمق ما تكون النخوة اذا كانت سجية موروثة تتنقل من الأجداد الى الآباء والأبناء ، كما رأيناها فى أسرة أستاذنا الامام منذ عرفت لهم أعمال ورويت عنهم أخبار ٠

فهم فى قريتهم الصغيرة كرام يجودون بما عندهم ، ويأبون الضيم لأنفسهم ولمن يلوذ بهم من جيرتهم ، وقد كان أكبر ذنوبهم عند الأقوياء أنهم يأوون اليهم طرداءهم المطلوبين ويشدون أزرهم بمعونة رجالهم وبقوة السلاح اذا وجدوا السلاح الذى ينفعهم فى مقاومتهم ، ومن لم يستطع منهم أن يقاوم القوة بالقوة لم يصبر على الضيم فى بلده ، وآثر أن ينجو منه بكرامته وان ضيع بعده كل تراثه من آبائه ، غير هذا التراث المضنون به على الضياع ٠

قيل ان العبقرى يستنزف من أسرته صفوة اللباب من خلائقها الحيوية أو ملكاتها الذهنية . وقيل انه من اجل ذلك قلما ينجب الذرية من العباقرة أمثاله . وان ذريته لا تزال عرضة لنقص العمر أو نقص التكوين . وكل ما قيل من هذا القبيل فهو تشبيه على المجاز لا يخلو من المبالغة التى تعرض لكل تشبيه ، ولكنه كذلك لا يخلو من الصحة التي تؤيدها مشاهدات الواقع . ومن هذه المشاهدات أن طابع الأسرة المأثور عنها كثيرا ما يتجلى فى عبقريها مكبرا مهيمنا منبعثا على جادته فى غير هوادة ، وانه فى انبعاثه عصى على الكبح والتوقف دون قبلته التى ينساق اليها ، وكأنما هو غريزة من الغرائز النوعية يخلق للفرد ارادة نوع كامل ، يوشك ألا يملك معه ارادته الفردية فى سبيل بقاء النوع وارتقائه .

وأحرى الخصال أن يورث فى أسرة صاحب الترجمة هو تلك النخوة الانسانية فى كل ما تمثلت فيه — كما أسلفنا — من غوث الضعيف والرثاء للدليل وكراهة الجهل المذل للمبتلين به من ضحايا الغفلة والغباء : ورثها نخوة انسان واصبحت فيه نخوة معلم مطبوع على التعليم ، لأنه لم يملك سلاحا للنخوة أقوى من تعليم المغلوبين المستضعفين ، ولكنه لم يكن بالبداهة معطل النخوة فيما يملكه من أسبابها غير هذا السلاح الذى كان أنفذ سلاح فى يديه ، لأن أعماله فى اغاثة الملهوفين وانصاف المظلومين كادت أن تكون وحدها وظيفة حياة عامرة بالمآثر حافلة بالحسنات ، وسيأتى من بيان هذه المآثر والحسنات ما يتسع له موضعه من هذا الكتاب ، ولكننا نوجزه اذا قلنا انه لم تسمع فى حياته دعوة الى الغوث والاحسان تنفسيا عن المكروبين فى فواجع هذا البلد أو اعانة للمعوزين من ضعفائه الا كان هو صاحب الدعوة أو كان فى مقدمة الملبين لها والعاملين على نجاحها ودوام أثرها .

وكاتب هذه السطور قد سمع بمحمد عبده نصير المظلوم قبل أن يسمع بمحمد عبده المصلح العظيم .

سمعت فى بلدتى بأقصى الصعيد ، وفى باكورة صباى ، بمأثرة من مآثر هذا القلب الكبير ، لم تكن الا مثلا واحدا من مئات المآثر التى سمعنا بها بعد ذلك حيث نزلنا من أقاليم هذا البلد ، ولا يزال الكثير منه معروفا مرويا فى اقليمه ، وان لم يصل نبأه الى غير أهله .

شغلت بلدتى ــ أسوان ــ قضية كبيرة تقلبت بين محاكم الصعيد والعاصمة أكثر من عشر سنوات ، وأوشك الخصم القوى فيها أن يظفر بالحكم الأخير وأن يجرد خصمه الضعيف من حقه ، مستعزا عليه بقوة المال والجاه وسعه الحول والحيلة ، وقد شاعت الاشاعات التى تحققت بعد ذلك عن الرشوة المبذولة ، بألوف الجنيهات ، ثمنا لذلك الحكم الأخير الذى ينقضى به الأمر ولا يقبل المراجعة والاستئناف .

وقبل صدور الحكم بأيام يلتقى الخصم الضعيف بنائب بلدته فى مجلس الشورى ، فيستمع منه لاشاعة الرشوة ويرجحها له بما علمه من توكيد أنصار الخصم القوى ومن قسم مغلظ أقسمه أمامه أقربهم اليه : ليصدرن الحكم كما أملاه صاحبهم على ــ فلان باشا ــ وليسمعن نبأه بعد أيام !

وكان نائب البلدة فى مجلس الشورى يعرف الأستاذ الامام من زمالته له فى المجلس ، فاصطحب المسكين الى عين شمس ، وترك صاحب القضية يبسطها للأستاذ الامام بسذاجته التى تنم على الصدق الأليم والحسرة البالغة ، فلم يكد هذا الرجل المثقل بشواغل وطنه الكبار يستمع الى كلمة المظلمة والرشوة حتى اعتذر لضيوفه جميعا وأفرغ من وقته زهاء ساعتين للأصغاء الى

قصة هذه القضية منذ نشأت قبل عشرة أعوام ، وترك الرجل يقول ويعيد كما يشاء على ديدن المظلوم الملهوف فى سذاجته وابتهاله واضطراب نفسه بين خوفه وآمله ، فلم يتعجله ولم يقتضب عليه لجاجة شرحه وتكراره ، ولم يدعه تلك الليلة الا على وعد بأن يلقاه عند باب وزارة العدل ، فى موعد افتتاح الدواوين .

وفى اليوم التالى لم يذهب المفتى الى دار الافتاء ، بل توجه توا الى دار وزارة العدل وكلف الرئيس المسئول ان يبعث فى طلب « ملف القضية » من المحكمة ، فقضى اليوم يراجع أوراق الملف مراجعة القاضى الخبير بأصالة الأسانيد وأساليب المراوغة وعلامات الغرض والتمحل فى التأجيل والتعجيل ، وأيقن بصدق الدعوى وخطر الحكم المنتظر فيها ، فصنع ما لا يقوى على صنعه غيره ، واستصدر الأمر باسناد رئاسة الدائرة الى قاض آخر لا ترتقى الشبهة الى ذمته وعلمه ، وصدر الحكم الأخير بالحق الذى يعرفه أهل البلدة جميعا ، فظل أبناؤها يتحدثون بهذه القضية كما يتحدث المؤمنون بكرامة القديسين ، وكان يوم وفاته رحمه الله مأتما فى البلدة تبادل فيه الناس العزاء فى المساجد ، ونودى بنعيه على المآذن ، وتقرب فيه المحسنون بالذبائح والصدقات على جوانب الطرقات .

كتب قاسم أمين عن مروءة الأستاذ الامام بأسلوب القاضى الذى تعود أن يزن كلامه كما يزن أحكامه ، فقال فى رثائه يوم الأربعين :

« بلغت فيه طيبة النفس الى درجة تكاد تكون غير محدودة . كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد ، فيندفع اليه ويسعى الى كل نفع للغير عام أو خاص . كان ملجأ الفقراء واليتامى

والمظلومين ، والمرفوتين والمصابيين بأى مصيبة كانت ، وأهل الأزهر الذين هم أكثر الناس احتياجا الى المساعدة لأنهم فى وسط المدنية الحاضرة المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم فى ميدان حياتنا الجديدة ، يبذل اليهم ماله ويسعى لهم عند ولاة الأمور بهمة لا تعرف الملل ، كأنما كان يسعى لأعز انسان لديه : يسعى مرة ومرتين وثلاثا الى أن يقضى حاجتهم وهم جميعهم فى نظره مستحقون ، سواء كانوا كذلك فى الحقيقة أم لا . بل كان يسعى الى صاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء اليه وقدح فيه وتحالف مع خصومه فى ترويج عبارات القذف والنميمة التى لم تنقطع عنه مدة حياته . ولا يصل الانسان الى هذا الخلق العظيم الا اذا ربى نفســـه على أن تتغلب على الغرائز القبيحة اللازمة للطبيعة البشرية وصار حاكما عليها يحاسبها على كل عمل أو نزعة أو فكرة أو خاطر مما يرد عليها . كان الأستاذ يرى أن الشر لا فائدة له مطلقا وأن التســـامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد فى اصلاح فاعله ..» .

وفى هذا التأبين يقول قاسم : « من يرى أن الحياة لهو وزين له أن يعيش ليأكل ويشرب ويسافر وينتقد أفكار الباحثين وعمل العاملين ، أولئك لا يعلمون أن امام مصر كان محركا بقوة فوق الاعتيادية وأن عقله كان ملآنا بالفكر الى حد انه كان لا يسعه كله ، الى حد أنه كان يفيض منه بالرغم ، وأن قلبه كان ملتهبا بحب وطنه فلا يستريح الا وهو مشغول به وبسعادته وبمستقبله وانه كان مثل جميع نوابغ الرجال لا يبالى بالألم الذى يأتيه بسبب أمنيته التى كان يعزها ، بل كان يجد الألم فيها لذيذا كما يلتذ العاشق بما يقاسيه من العذاب فى هوى من يحبه ، وكم من مرة سمعته يؤكد بأنه صمم على أن لا يتدخل فى شيء من هذا القبيل ثم رأيته في الغد منغمسا فيه أكثر مما كان . ذلك لأنه كان بعكس

ما يراه عموم المصريين فى أنفسهم عنده أمل لا يزعزعه شىء فى اصلاح أمته .. » .

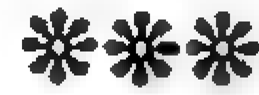
يقول قاسم هذا وربما كان هو ــ رحمه الله ــ أحد أصدقائه المشفقين الذين كانوا يكفكفونه احيانا عن ارهاق نفسه بالجهد والمجاهدة كلما شعروا بحاجته الى الراحة والدعة وأوجسوا خيفة على صحته ، بل على حياته ، من عنت خصومه ومصاعب الاصلاح فى بيئته ، مع فساد الزمن وغلبة الجهل والهوى على نفوس الغافلين المتهاونين ، فضلا عن المغرضين المتعمدين للاحباط والايذاء ، وهم فى ذلك الزمن وفى تلك البيئة كثيرون .

وسمعت من زعيمين عاصراه وعاشراه كلاما كالذى قاله قاسم فى تأبينه وذكر فيه وعده بالكف عن الجهد فيما يحاول من السعى العقيم والكفاح المعقد المقيم ثم عودته بعد قليل الى مثل ما كان فيه ، بل اشد مما كان فيه ... وأحد الزعيمين كانت له عليه جرأة الصديق الند وهو الزعيم سعد زغلول ، والآخر كان منه بمثابة الأخ الصغير فى بيت يحبه ويرعى له قدره وفضله ، وهو الزعيم محمد محمود ، وكلاهما اشترك معه فى بعض أعمال الاصلاح وأعمال الخير والاحسان ، وكان أولهما يصرفه صرفا عن بعض محاولاته التى كانت ديدنه الشاغل له فى أخريات عمله بوظيفة الافتاء ، فقال له من حوار مطول لا نثبته هنا بتفصيلاته : «أخشى أن يفسدك هؤلاء القوم قبل أن تصلحهم» ... وكان الآخر ــ محمد محمود رحمه الله ــ يعيد عليه قوله مشيرا الى الخديو عباس الثانى : « ان هذا القولى » يريد أن يقتلك ، فلا تمكنه من بغيته ، ويريد بالقولى نسبة الخديو عباس الى قولة موطن جده محمد على الكبير .

وموضع النظر فى كلام قاسم وصاحبيه أن الاصلاح لم يكن فى حياة هذا المصلح الغيور عملا من أعمال الارادة يدبره لنفسه

كتدبير المرء لما ينفعه ويريحه أو يعفيه من التعب والمشقة ، ولكنه كان باعثا نفسانيا مستحكما فى ذلك القلب الكبير يغلبه على ارادته ويخلق له ارادة نوع كامل فى بنية انسان واحد ، وان يكن من أعظم بنى الانسان ... وذلك ما عناه قاسم بشغف العاشق بما يؤلمه ويضنيه وعنيناه بالعبقرية المطبوعة التى تلخصها كلمة « النخوة » وتدل سيرته وسيرة أهله على أنها خليقة موروثة فيه ، وأنها أقوى بواعثه الى رسالة حياته ، وهى رسالة التعليم .

ولنا أن نقول ان النخوة الانسانية فى نطاقها الواسع هى محور هذه الحياة فى نواحيها الكثيرة ، وان رسالة التعليم عنده انما كانت فى صميمها رسالة خلقية قبل أن تتجه الى وجهتها الفكرية ، فلم يكن يعنيه أن يعلم لينقل الى الناس « معلومات » يجهلونها وكفى ، ولكنه كان يعلم ليحفز الناس الى عمل يتوانون عنه ، ويحملهم على خلق يحبب اليهم ذلك العمل ويسعدهم عليه.



ولعلنا لم نخطىء اذ بدأنا السيرة كلها بهذا التمهيد عن هذه العبقرية من ناحيتيها الخلقية والفكرية ، فانها بمثابة الأساس الذى تقوم عليه حوادث الترجمة منذ بدأ الأستاذ الامام حياته العاملة فى نحو العشرين الى أن فارق الحياة فى نحو السادسة والخمسين ، فأيما حادث تردد فيه رأى المؤرخ وحكم الناقد فانما تقوم أصالته فى هذه الحياة بمقدار ثبوته على ذلك الأساس .

مع جمال الدين

كان لقاء السيد جمال الدين الأفغاني أهم حادث فى تربية الفتى الناشيء محمد عبده ، لأنه رده الى سجيته وأقامه على جادة العلم والعمل التى استقام عليها بعد ذلك طول حياته ، واستقل بها حسب استعداده وفطرته حتى استقل بها آخر الأمر عن طريق أستاذه ، بعد أن فرقتهما الحوادث اضطرارا ووجب أن يعمل كل منهما على جادته ومنهاجه .

كان الفتى الناشيء (محمد عبده) قبل لقاء جمال الدين أشبه شيء بالطائر المغمى عليه قبل امتحان المدربين له فى ضوء النهار للتثبت من سلوك مطاره الى غايته القصوى .

ويقال ان هذا الطائر لا يزال بعد خروجه من الظلام يتلمس طريقه ارتفاعا وانحدارا ويستقبل الوجهة ثم ينحرف عنها حتى ينطلق من حيرته على ثقة ، فيعتدل الى الغاية التى ينويها ، فلا حيرة بعد ذلك ولا احجام عن تلك الغاية الى أقصاها .

وكذلك كان محمد عبده بين الحيرة والاحجام قبل التقائه بجمال الدين :

صدمته الحياة العامة كما يصطدم بها كل شاب يخرج من معيشته في الأسرة على المودة والعطف الى معيشة الكفاح بين الناس على سنتها من الرياء والأثرة وتنازع البقاء ، وكان يشكو هذه الحال الى شيخه القروى من أخوال أبيه كما قال فى ترجمته : « فذكرت له اشمئزازى من الناس وزهادتى فى معاشرتهم وثقلهم

على نفسى اذا لقيتهم ، وبعدهم عن الحق ونفرتهم منه اذا عرض عليهم ، فقال لى : هذا من أقوى الدواعى الى ما حثثتك عليه ، فلو كانوا جميعا هداة مهديين لما كانوا فى حاجة اليك ، ثم اخذ يستصحبنى فى مجالس العامة ويفتح الكلام فى الشئون المختلفة ويوجه الى الخطاب لاتكلم فيتكلم الحاضرون فأجيبهم ، وانطلق فى القول على وجل فى الأمر ، وما زال بى حتى وجد عندى شيء من الألفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم ، وفى شوال من تلك السنة ودعنى وبكى بكاء شديدا ومات فى السنة التالية » .

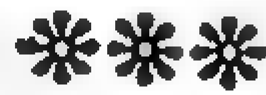
وفى هذه السنة — سنة ١٨٧١ — وفد السيد جمال الدين الى القاهرة قادما من الآستانة ، فوجد الفتى الناشىء حيث تركه شيخه القروى بين طريق العزلة وطريق العمل مع الناس ، ولكنه حين مضى في هذا الطريق يخطو خطواته الأولى فقد شيخه الصوفى ولم يجد لعقله هاديا يعمل أمامه ويتجه ببصره المتطلع الى غاية مداه ، لأنه كان يدرس علوم العقل على أساتذة يحسنون شرح النظريات ويبسطون القول فى الشكوك والموانع ثم لا ينتهون منها الى قبلة يستقيم عليها السالك على قدر جهده فى طريقه المرسوم .

وكان جمال الدين قد مر بمثل هذا الدور فى مثل سنه : كان قد زهد فى صحبة الناس فاعتزلهم وخرج من طريق العزلة الى طريق العمل ، وكان يفهم أن الفناء فى الله اعتزال للعالم فعاد يفهم أن الفناء فى الله انما هو فناء فى خلقه ، أو كما كان يقول لتلاميذه فى رواية الشيخ عبد القادر المغربى : « أنا لا أفهم معنى لقولهم الفناء فى الله ... وانما الفناء يكون في خلق الله : تعليمهم وتنبيههم الى وسائل سعادتهم وما فيه خيرهم » .

وقد كتب عنه تلميذه المسيحى أديب اسحاق وهو فى هذا

الدور بين العزلة والعمل فقال : « انه تبحر فى المنقول والمعقول وغلبت عليه مذاهب قدماء الحكماء فداخله من ذلك بداءة بدء شيء من التصوف فانقطع حينا بمنزله يطلب الخلوة لكشف الطريقة وادراك الحقيقة حتى صار له فى القوم كثير من الأتباع والمريدين ، كل ذلك وهو دون العشرين » .

ولم يكن لجمال الدين أستاذ يجتذبه من حياة الخلوة والعزلة الى حياة العمل والجهاد ، ولكن الحوادث كانت لها صيحة في مسمعه أقوى من صيحة الامام المرشد ، فاقتحم معركة الحياة لينصر فريقا على فريق من اولياء الأمر فى وطنه ، وانتصر جمال الدين للامير محمد أعظم خان : « فشهد الحروب وحضر الوقائع فازداد جرأة واستخفافا بالموت وأقام فى ذلك تسعة أعوام لا يرى الراحة ولا يستقر بمكان حتى دارت الدائرة على محمد أعظم خان فانصرف الأولياء عنه الا جمال الدين .. »



حضر التلميذ على أستاذه دروسا نافعة في كتب المنطق والحكمة والتصوف وأصول الدين ، ولكن الدروس الروحية التى كانت تسرى من أحاديث هذا المصلح العظيم كانت أعظم وقعا وأعمق أثرا من دروس الأوراق والأسفار ، ولم تكن شروحه للكتب التى كان يقرأها على تلاميذه معانى « فكرية » تستخرج من ألفاظها « القاموسية » على عادة الشراح الذين يقفون بالعبارات عند الفاظها ومعانيها ، ولكنه ــ كما سمعنا من مريديه الذين عرفناهم ــ كان يشرح العبارة ليستخرج منها قوة حية تسرى الى النفس فتحركها الى العمل ، وكأنما الكلمات المشروحة على لسانه تلك المفاتيح الصغيرة التى تدار فتنبعث منها قوى من الكهرباء لا يستقر عليها قرار .

وخير الأساتذة ، على ما نعلم ، هو الأستاذ الذى ينبه فى التلميذ ملكات ذهنه وضميره ويستجيش فى قرارة طبعه غاية وسعه من الاجتهاد والهمة على حسب فطرته واستعداده ، فليس بخير الأساتذة من يجعل تلاميذه نسخا منه تحكيه ولا تزيد من عندها شيئا غير الاقتداء به والعمل على غراره ، فهذه هى تربية التقليد والمحاكاة تصلح للذين خلقوا للاتباع ولا تصلح للذين خلقوا على نصيب من قدرة الاستقلال والاجتهاد .

وهكذا كانت تربية جمال الدين لمحمد عبده وهو يخطو خطواته الأولى على طريق العمل والاصلاح : انه لم يخلق فيه ملكة كانت معدومة فيه ، ولكنه رده الى طبيعته العملية وعزز فيه تلك الثقة التى لا غنى عنها لمن يتولى عظائم الأمور وينهض الى الغاية العصية والمطلب البعيد .

ولم تكن الطبيعة العملية طارئا جديدا على سليقة الفتى الذى شب عن الطوق وهو يركب الخيل ويحمل السلاح ويتمرس برياضة الفروسية .

ولم تكن الثقة بالنفس طارئا جديدا على سليقة الطالب الناشىء الذى استقل برأيه في الحكم على تعليم زمنه بالعقم والجمود ، ومن حوله ألوف المتعلمين والعلماء يتهمون أنفسهم ولا تهجس فى قلوبهم هاجسة من الشك فى صلاح ذلك التعليم ووجوب الصبر على مصاعبه وألغازه .

وقد لمح الأستاذ البصير ملامح تلك الثقة المكينة فى نفس ذلك الطالب الصغير ، وكان يعجب لتلك الثقة المطبوعة التى لا تكلف فيها فيسأله مغتبطا راضيا : قل لى بالله . أى أبناء الملوك أنت ؟

ولكن تربية جمال الدين وزنت تلك الثقة بمقدار رسالتها الكبرى التى تهيأت لها بنزعاتها وآمالها واقتدرت عليها بطموحها واستعدادها ، فلم تتهيبها ولم تنكص عنها حين علمت مداها ، وعلمت أنه المدى الذى لا سبيل الى الوفاء فيه قبل بلوغه ، وهو نهضة العالم الاسلامى بين مشارق الأرض ومغاربها ، نهضة العالم الاسلامى فى وجه الدول العظمى ، بل فى وجه ملوكه وأمرائه المتألبين عليه ، بل فى وجه أبنائه الكارهين للاصلاح كراهة الطفل المريض لمذاق الدواء .

وكانت خطة جمال الدين للاصلاح أن يبدأ بتأسيس دولة واحدة على الأقل صالحة لقيادة العالم الاسلامى كله فى معترك السياسة الدولية وفى تنفيذ برامج النهضة والهداية العملية .

وكانت هذه الخطة تتمة معقولة للفاتحة التى افتتح بها جمال الدين حياته وهو فى نحو العشرين ، لأنه افتتحها بالجهاد فى سبيل امارة يقيمها للأمير الذى آمن بصلاحه وحسن الرجاء فى ولايته ، فاذا خطر له أنه قادر على أعباء هذه الخطة حيث كان فى وطنه أو غير وطنه فهو خاطر ليس بالغريب على الرجل الذى بدأ بتلك الفاتحة فى مطلع شبابه .

ولكن الفتى الفلاح لم يستهول الغاية التى طمح اليها ربيب بيت الوزارة ، كيفما كانت الخطة التى تنتهى اليها .

ونرجع هنا الى سليقة التصوف عند الرجلين لنعرف منها سر هذا الاقدام فى أمور الممالك والعروش ، فان التصوف فى لبابه كفء — بل أكبر من كفء — لمواجهة سلطان المالكين وأرباب التيجان المتحكمين .

همـا طرفان من ملك ونسـك
ينيلان الفتى الشرف الرفيعـا

فان لم تملك الدنيـــا جميعـــا
كما تهـــواه فاتركهـــا جميعـــا

وألزم خلائق الصوفى المطبوع أنه يستخف بعظمة الدنيا وأن تهون عليه رهبتها ورغبتها فلا يهابها ولا يتهالك عليها ، وأزهد من الصوفى الذى لا يملك الدنيا ذلك الصوفى الذى لا تملكه الدنيا ولا يدخله الوجل ممن يملكونها .

وقد ثبت هذا الخلق من هذين الرجلين ثبات السليقة المتأصلة فيهما فلم يكن من عمل عادة متبوعة ولا من عمل تربية مكسوبة ، وكان جمال الدين يعبث بحبات سبحته فى حضرة السلطان عبد الحميد وينبه رئيس الديوان الى قواعد التشريفة ، فيجيبه ساخرا : « مه يا هذا .. ان السلطان يلعب بحياة ثلاثين مليونا من بنى آدم ، أفلا يلعب جمال الدين بثلاثين حبة من حبات الكهرمان » .

وكان الخديو عباس الثانى يشكو من مسلك محمد عبده فى حضرته ويقول : انه يدخل على كأنه فرعون ! .. ويستمع محمد عبده الى هذه الشكوى فلا يزيد على أن يقول : وأينا فرعون ؟

وقد نزل جمال الدين بمصر وهى على حال كتلك الحال التى أخرجته من عزلته لينصر أحد الأميرين على أخيه : اذ كان الغيورون على البلد يخشون العواقب عليه اذا طال فيه حكم اسماعيل ويفكرون فى خلعه باغراء الدول أو اغراء السلطان واسناد العرش الى خليفته محمد توفيق ، ولم يلبث جمال الدين أن تقدم الدعاة الى هذا الانقلاب فجمع الأنصار من مريديه والمعجبين به لمخاطبة وكلاء الدول باسم الأمة ، وصارحهم بذلك فاتخذوا من موافقته على خلع اسماعيل حجة عند حكوماتهم على موافقة الحزب المستنير فى مصر لهذه السياسة التى كانت تتردد فيها بين الوعيد والتنفيذ .

أما محمد عبده فقد كان عمله فى هذه الحركة أوفق لسنه

وأقرب الى مزاجه الرياضى فى شبابه : كان على عزيمة صـــادقة أن يزيل اسماعيل بيده ، ان لم يتزل عن العرش باختياره أو يصدر الأمر من السلطان بعزله ٠

وكانت خديعة الخديو توفيق — مع ضعفه عن انجاز وعوده — أول خيبة منى بها جمال الدين فى خطته مع الأمراء والملوك ، فانــه ظل يتودد الى جمال الدين وأنصاره بعد ارتقائه العرش ويؤكد له كلما لقيه أنه يعتمد عليه وأنه « كل أمله فى مصر » لتحقيق برامج الاصلاح ، ولكنه ضعف عن مقاومة الدول ، وبلغ من مطاوعته لهم أنه كان يطلعهم على مطالب زعماء البلد منهم قبل النظر فيها ٠٠٠ ومن كلام اخصائه الانجليز — وبينهم المؤرخ المشهور ألفريد بتلر — أنـه كان يحتفل بمجاملتهم بين كبار موظفيه ، فيقضى الســاعات يتكلم معهم باللغة الانجليزية التى لا يعرفها أولئك الموظفون ويذكر الأسماء بالحروف الهجائية في سياق أحاديثه ليخفى موضــوع الكلام عن سامعيه الذين يعرفون أصحاب تلك الأسماء ، ويفضى فى هـــذه الأحاديث بأخبار من المعلومات الخـــاصة والأوراق المحفوظة تتعلق بالأسرة وعظماء البلاد » ٠

واذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه كما يقول أبو الطيب ، فلا جرم يساوره الشك من جانب جمال الدين ويتوقع منه أن يأتمر به كما ائتمر بأبيه ، ويغتنم الفرصة من حذر وكلاء الدول من دعوة جمال الدين الى اعلان الحقوق الوطنية ورفع الرقابة الاجنبية ، فيتفق معهم على اقصائه والاعراض عن حزبه ، ويمالئه على ذلك رجال الحاشية الخديوية على ســنة الحواشي فى كل بلاط يكره النصحاء ويحب الاستئثار بمسمع الأمير وهواه ، وينتهى الأمر بنفيـــه والتشـــهير به تســويغا لتلك الفعلة — فى منشــــور بذىء لم يصـــب جمـــال الدين بمســـبة ، ولـــكنه ارتد على توفيق وحاشـــيته بالمســـبة التى لا تمحى ، وغير عليهم قلوب المخلصين

من طلاب الاصلاح فداخلهم الشك الشديد فى امكان الاصلاح على عهده بغير الثورة عليه .

وهذا بعض ما جاء في ذلك المنشور البذيء « انه لما كان الأمن والأمان والراحة والاطمئنان يتوقف عليها تمام العمران فى جميع الممالك والبلدان ، ومن أنجح الأبواب وأصلح الاسباب التى بها نجاح الممالك ، وسلوكها فى أقوم المسالك ، قطع دابر المفسدين الساعين فيما يضر بالدنيا والدين ، ويكون ذريعة للطائشين المتظاهرين بين الناس ، بمظهر الحرية بدون أساس » .

ويتلو هذا كلام عن جماعة جمال الدين السرية يقولون فيه انها جماعة « رئيسها شخص يدعى جمال الدين الافغانى مطرود من بلاده ثم من الآستانة العلية لما ارتكبه من أمثال هذه المفسدة فى ديارنا المصرية ، وهذا من أكبر ما يغير الأفكار ، ويجب أن يعامل مرتكبه بالتشديد والانكار ، فالتزمت هذه الحكومة الحازمة أن تتخذ الطرق اللازمة ، وتستعمل السداد فى قطع عرق هذا الفساد ، فأبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية ، ووجهته من طريق السويس الى الأقطار الحجازية » .

ولم يذع خبر هذا المنشور الا بعد سفر جمال الدين على غير علم من أكثر أصحابه ومريديه ، وانما علموا به بعد اعلانه فى الوقائع المصرية (عدد الحادى والثلاثين من شهر أغسطس سنة ١٨٧٩) .

وكان السيد جمال الدين قد مكث بمصر فى هذه الزيارة الثانية نحو ثمانى سنوات ، غرس فيها بذور نهضة مثمرة لم يشهد من ثمراتها الجنية ثمرة أنضج وأبقى من عزيمة تلميذه وخليفته « محمد عبده » ففارق هذه الديار وهو يقول لمن يسألونه عن وصيته عليها :

« حسبكم محمد عبده : حسبكم محمد عبده من وصى أمين » وطفق يذكره فى رحلاته بعد ذلك فيكتفى من الدلالة عليه بوصف الاخ الصديق ؛ فيعلم المستمعون اليه من يعنيه .

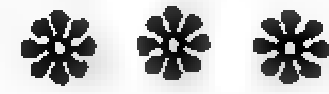
ولم يتصل السيد بأحد من أصدقائه وأصحابه بمصر الى ما بعد انتهاء الثورة العرابية ، ومنهم خادمه الأمين العارف ابو تراب الذى كان يلازم السيد فى حله وترحاله ملازمة ظله ، لأن السيد قضى تلك الفترة فى رقابة الحكومة الهندية تارة ، وفى التنقل على غير قرار تارة أخرى . فلما رفعت عنه الرقابة شخص الى أوربة فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢ وكتب من بورت سعيد الى الشيخ محمد عبده خطابا يشكر له فيه رعايته لخادمه ويحمده « على البر والمعروف » ويطلب اليه ابلاغ سلامه وشكره لتلميذيه ابراهيم اللقانى وسعد زغلول ويذكر له عنوانه بالعاصمة الانجليزية فى ادارة جريدة الشرق والغرب ، أو عند الشاعر المستشرق مستر « بلنت » صديق العرابيين .

وكان الشيخ محمد عبده يومئذ قد نفى الى بيروت فبادر بالجواب على السيد وكتب اليه كتابا نستغربه ، كما استغربه تلميذ الأستاذ الامام السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار ، لأنه لهج فيه بالتعظيم والتقديس لهجا لم نعهده فى أسلوبه منذ صباه الى ختام حياته ، وغلا في اتضاعه والارتفاع بأستاذه غلوا يخالف المعهود من عرفانه لنفسه مع عرفانه لأعظم الناس قدرا عليه ، وفيه كما قال السيد رشيد « من الاغراق والغلو فى السيد ما يستغرب صدوره عنه وان كان من قبيل الشعريات ، ويصف نفسه بالتبع لأستاذه من الدعوى التى لم تعهد منه البتة » .

الا أن الأسلوب هنا هو الأسلوب الذى لم يتكرر فى خطاب أو مقال للأستاذ الامام ، لأنه أسلوب الساعة التى لم تتكرر فى حياته وليست هى مما يتكرر فى حياة أحد ، اذ كان كل ما يستوحيه فى

تلك الساعة شعورا مشبوبا يتوقد بحماسة الشباب وحماسة الثقة التي بقيت له في منفـاه بعد ضياع الثقـة بأقرب الأقربين وأولى الاخصاء بالصدق والوفاء ، ويذكيها من وجدانه الحى ذلك الشـوق المتجدد الى أستاذه بعد انقطاع العهد وجلاء الغمة في أعقاب الثـورة عن ذلك المصير الذى له ما بعده وقد يكون ما بعده جهادا آخر يرجى له من الفلاح ما لم يكتب للأسـتاذ ولا لتلميذه في جهادهمـا الأول . فان تكن في الأسلوب غرابة تلحظ في سائر الاحوال فقد كان الأغرب أن يجرى به القلم في تلك الحال مجرى المتكرر المألوف.

ومن عبارات الخطاب التى لم تتكرر ولم تؤلف في سواه قوله عن نفسه وأستاذه : « .. كنت أظن أن قدرتي غير محدودة ، ومكنتي لا مبتوتة ولا مقدورة ، فاذا أنا من الأيام كل يوم في شأن جديد : تناولت القلم لأقدم اليك من روحى ما أنت به أعلم فلم أجد من نفسي سوى الأفكل (١) والقلب الأشل ، واليد المرتعشة والفرائص المرتعدة والفكر الذاهب والعقل الغائب ، كأنك يا مولاى منحتنى نوع القدرة للدلالة على قوة سلطانك فاستثنيت منه ما يتعلق بالخطاب معـك والتقدم الى مقامك الجليل .



وفي هذا الخطاب تحدث التلميذ الى أستاذه عن مصير الجماعة التي تركها بمصر واستخلفه عليها في غيابه ، وأفاض في بيان ما يعنيه من أمر أصحابه ومريديه ولم يتحدث عن أمر نفسه لأنه اكتفى فيـه بما كتبه زميله ابراهيم اللقاني الى السيد كما علم منه . قال « انى يا مولاى لا أحدثك عن شيء مما أصابنا بعد فراقك . فقد تكفل ببيانه أخى العزيز ابراهيم أفندى اللقاني سوى ما تركه في كتابه من انقلاب بعض القلوب من خاصتك وتحول أحوالهم بعد نزول ما نزل بك ،

---

(١) الأفكل : الرعدة ـ يقال اخذه أفكل ، اذا ارتعد من خوف .

فقد تغلب أعوان الشر وأنصار السوء بقوة جاههم وشدة بأسهم ، وأرغموا العقول على اعتقاد بالمحال ، وألجئوها الى التصـــديق بما لا يقال ، حتى أنهم غيروا قلب دولتلو رياض باشا عليك وعلى تلامذتك الصادقين أياما معدودة ركن فيها للعمل بالشدة والأخذ ببادرة الحدة، لكن لم يلبث أن وصـــلنا اليه وجلوت الأمر عليك ، وكشفت له ما أغمض من الحقيقة حتى زال ما لبس المبطلون ٠٠ وهكذا ضممت الى كل من كان ينتسب اليك صادقا فى الانتساب أو كاذبا ، حتى أنى لم أتأخر عن مساعدة أولئك الأشقياء الأدنياء ٠٠ وأمثالهم من اللئام ، تحسينا للظن وايثارا لجانب العفو ، فأصلحت لهم القلوب ، وفسحت لهم من الصدور ، وفتحت لهم أبواب التقدم الى المنافع الغزيرة لكنهم لم يرعوا ودا ولم يحفظوا عهدا ، ولا حاجة الآن الى ايضـــاح ما صدر عنهم خيانة ولؤما ، وألفت لحبك ممن حرم التشرف بلقائك قبيلا ليس بالقليل ، يجلون قدرك ويعرفون لك فضلك ، وكنـــا واخواننا كما شرح لك ابراهيم افندى اللقانى ٠٠ ولسيرنا فى تلك الحوادث نبأ طويل اذا أردت يا مولاى أن أقدم اليك به تاريخا ربمـا يكون مفيدا فأنا رهين الاشارة ، ونحن الآن فى مدينة بيروت نقضى بها مدة ثلاث سنوات، لا لذنب جنيناه ولا جرم اقترفناه٠٠فها نحن سالكون فى سنتك وعلى سنتك ولا نزال الى انقضاء الآجال ، ولولا أطفال لنا رضع ، ونساء لنا طوع ، أبينا لهم الذل ، وأنفنا لهم الضيم، فأتينا بهم هنا الى حيث أقمنا ٠ لكنت أول من تلقاك فى مدينة باريس لأسعد بالاقامة فى خدمتك ٠٠ ولا أتكدر مما أشرت اليه فى كتابك الى أبى تراب حيث طعنت فى ثقتك بالناس أجمعين وبالغت حتى سحبت الطعن الى والى ابراهيم افندى ٠٠ أما اختلال ثقتك بالدواهى والبلايا فقد صادف محلا لمن نقضوا عهدك وحالفوا عدوك ، فاستبقوه للوجود وأنت موجود ٠٠ » ٠

ولا نزيد في الاقتباس من هذا الخطاب على ما أوردناه من هذه الفقرات الضرورية لجلاء الموقف كله وجلاء الموقف ــ خاصة ــ بين هذه الرجلين في أعقاب الثورة العرابية ، فجملة ما يقال في هــــذا الموقف أنه موقف فتنة عمياء تلتبس خفاياها على المقيم بين ظهرانيها فضلا عن المغترب البعيد عن ظواهرها وبواطنها ، محجوبا بحجاب الرقابة الكثيف عن المباح والمحظور من اخبارها ، ولولا ذلك لمــا التبست الحقائق على قلب ذلك المصلح العظيم ، فأوشك أن ييأس من الناس كافة على غير المعهود من شيمته وشيم الدعاة المصلحين أجمعين .

ونحن لا نعرف الآن بيانا وافيــا عن أسماء أولئك الأصحاب والأنصار الذين تركهم جمال الدين بعده في الديار المصرية ، فانه كان ــ أثناء مقامه بها ــ قد برىء من طائفة منهم دخلوا معه في المحفل الماسوني الذى انضوى اليه السيد على أمل في مناصرة أعضائه الشرقيين والأوربيين على دعوته العامة، تصديقا لما شاع عن مزاعم الماسون أنهم ينتصرون للحرية الانســانية ، ولا ينقــــادون لدولهم وحكوماتهم في سياستها الشرقية ، فلما تبين بطلان هذه المزاعم نفض يديه من المحافل عامة وممن بقى على الولاء لها في ذلك المحفل وفي غـــيره ، ولم يزل يحتفظ بأسماء زملائه الباقين على ولائه ، وهم الذين سماهم ولاة الامر بجماعته السرية في منشور نفيه ، ونحسبه لم يكتم أسماءهم الا حماية لهم من كيد وكلاء الدول وجواسيس الحكومة ، وتمكينا لهم من العمل مع اخوانهم بمأمن من أعين الرقابة وحبائل الاغراء والدسيسة . وقد بقيت من هؤلاء الأولياء المخلصين بقية لم تعلن أسماؤهم لذلك السبب ولكنهم على الأرجح هم الفئة التي تألف منها فرع جماعـــة « العروة الوثقى » بالديار المصرية ، وهى الجماعة التى أصدرت صحيفتها في باريس بعد انتقال الشيخ محمد عبده اليها .

فان الشيخ قد عول على اللحاق بأستاذه في باريس بعد أن أقام

بمدينة بيروت عاما أو أكثر من عام ، ولحق بأستاذه لاصدار صحيفة سياسية تشن الحملة على الاستعمار وتعمل لاثارة الشعوب المغلوبة عليه ، وكانت مجازفة من الشيخ لم يكترث لعواقبها الوبيلة عليه وعلى ذويه ، ومنها فراق أطفاله اصغار واطالة أجل النفي عن بلاده من ثلاث سنوات كادت تنقضي الى غير نهاية موقوتة ، مع المعيشة المهددة بغوائل الفاقة والمكيدة في ديار الغربة التي تجمعها عصبية المنفعة على كل من يكافح الاستعمار ولو في بلاد غير بلاده ·

ويتلخص برنامج العروة الوثقى في مبدأ عام ينطوى على مبادىء كثيرة : وهو حرب الاستعمار بكل وسيلة مستطاعة ، ومن تلك الوسائل تحريض المحكومين على حكوماتهم الاجنبية ، وازالة أسباب الخلاف بين الدول الاسلامية لسد الثغرات التي يتسلل منها المستعمر بين تلك الدول لتأليب بعضها على بعض وتسخيرها جميعا لخدمته كما حدث غير مرة في طريق الهند على علم من جمال الدين بدخائل هذه السياسة التقليدية ، ومنها ضم الصفوف الوطنية حيث يعيش المسلمون مع غير المسلمين ، وهو مبدأ تأسست عليه دعوة جمال الدين قبل نفيه ، ومن أجله أنشأ المحفل الماسوني الذى أنشأه بمصر للاشتراك بين أتباع الديانات جميعا في قضية الحرية ، ولم يزل لسان حاله في الصحافة قبل النفي وبعده أديبا مسيحيا كاثوليكي المذهب هو أديب اسحق الذى ثبت على هذا المبدأ الى يوم وفاته ·

وقد كانت صحيفة « العروة الوثقى » احدى وسائل الجماعة ولم تكن هى وسيلتها الوحيدة ولا وسيلتها الكبرى ، لأن الحكيمين لم ينقطعا أثناء مقامهما بباريس عن الاتصال سرا وجهرا بأنحاء العالم الاسلامي ولا بمراجع السياسة الفعالة في عواصمها المشهورة ومن ذلك أن الجماعة أوفدت الشيخ محمد عبده الى لندن لاثارة المسألة المصرية بحذافيرها أثناء قيام المهدى بثورته في السودان،

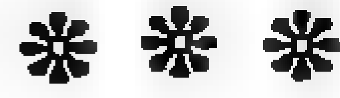
وكان زبانية الاستعمار ــ كعادتهم ــ يخيفون المصريين من مقاصد المهدى ويشيعون عن « مخابراتهم السرية » أنه ينوى غزو وادى النيل كله وأن الحكومة المصرية لا تقوى على صده بغير المعونة البريطانية ، فلما سئل الشيخ محمد عبده فى حديث جرى بينه وبين مندوب صحيفة البال مال غازيت عن هذا الخطر المزعوم قال : « لا خطر على مصر من حركة المهدى · انما الخطر على مصر من وجودكم أنتم فيها ، والانكم اذا غادرتم مصر فالمهدى لن يرغب فى الهجوم عليها ، ولن يكون فى هجومه أدنى خطر ، وهو الآن محبوب من الشعب لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوربى ، وسينضمون اليه عند قدومه » ·

وقد نجحت دعاية الشيخ فى العاصمة الانجليزية ورجحت هناك جانب الحزب الذى كان يدعو الى اخلاء السودان ، وتقرر هذا الاخلاء ، بل أعدت المعاهدة التى يتفق عليها الطرفان لتسوية هذه القضية ، وأوشكت أن تبرم وتوضع موضع التنفيذ لولا ورود الأنباء بموت المهدى واستعداد خلفائه للهجوم على الحدود المصرية ·

ولقد جرى هذا الحديث فى خريف سنة ١٨٨٤ ولم يبق من المدة الموقوتة لنفيه غير شهور ، ولكنه سئل عن الخديو توفيق فى مطلع الحديث فلم يبال أن ينحى عليه وأن يصرح برأى الوطنيين فيه، وقال فى غير مواربة : « ان توفيق باشا أساء الينا أبلغ اساءة ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله انضم الى أعدائنا فى قتالنا لا نشعر ازاءه بأقل احترام · لكنه اذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم فربما غفرنا له سيئاته ·· اننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم انجليزية » ·

وتبدو من هذا التصريح القاطع نية البقاء حيث كان خارج

القطر لمواصلة الجهاد مع أستاذه ، لأنه قطع بيده كل أمل له عند صاحب السلطة الشرعية وهو الخديو ، وأصحاب السلطة الفعلية وهم المحتلون .



على أن الحكيمين قد بقيا معا فى القارة الأوربية زمنا يسيرا يعملان بين باريس ولندن فى مراقبة المسائل الشرقية عند نظرها فى دوائر العاصمتين أو الكتابة عنها فى الصحف السياسية ، وكانا قد اضطرا الى تعطيل صحيفة العروة الوثقى ولما ينقض على صدورها أكثر من ثمانية شهور خلال سنة (١٣٠١ هجرية و ١٨٨٤ ميلادية) ظهر فى أثنائها ثمانية عشر عددا ثم احتجبت على كره من الأستاذين لأنها صودرت فى جميع البلاد الاسلامية واتفقت على مصادرتها حكومات الدول الاجنبية وحكومات الملوك والامراء الشرقيين لأنها كانت تحارب الحكم الاجنبى بجميع مساوئه كما كانت تحارب استبداد الحاكم الوطنى وفساد أعوانه ورجاله ، وكانت تبدىء القول وتعيده فى الانحاء على رؤساء الأمم المستعبدة من أبنائها لأن استعباد هذه الأمم انما يكون بقوة رؤسائها ، وربما كان من أسباب تعطيل الصحيفة أنها كانت تتخذ فى البلاد التى تصل اليها دليلا على أعضاء الجمعية الذين يتلقون أعدادها ويتولون توزيعها ، فحيثما وصلت الأعداد مجموعة الى جهة من الجهات فهناك الشبهة فيمن تصل اليه ومن وراء الشبهة مصادرة الدولة ومتابعة التضييق والارهاق حيث لا عاصم من القانون ولا حماية من سلطان الرأى العام المكبوت ، ان لم يكن محجوبا عن الأخبار العامة بالكتمان والسكوت .

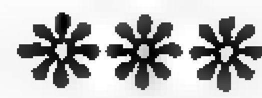
ولبث جمال الدين قليلا يحاول فى عواصم الغرب محاولاته السياسية على خطته المعهودة بغير كبير جدوى ، ثم بدا له أن يجرب هذه المحاولات من غير هذه الناحية ، فأزمع الرحلة الى عاصمة

القياصرة وهو ينوى أن يستخدم مقامه فيها لأغراض ثلاثة : أولها رفع الظلم عن الرعايا المسلمين وتمكينهم من حريتهم الدينية على قدر المستطاع ، والغرض الثانى أن يكف من عداوة الدولة الروسية التقليدية لدولة الخلافة ويرجو ألا يقع منها عدوان جديد فى أثناء مقامه بعاصمتها ، والغرض الثالث هو الانتفاع بالمنافسة القديمة بين الروس والانجليز فى تحريك المسائل الشرقية بجملتها ، ولا سيما مسائل الأمم التى على طريق الهند من مصر الى فارس الى بلاده الأفغانية .

أما الشيخ محمد عبده فقد عاد الى بيروت وهو يزداد ايمانا بعقم المحاولات السياسية وضعف الامل فى الملوك والأمراء ووجوب التعويل بعد هذه المحاولات العقيمة على الأمم دون غيرها ، وحصر الأمل كله فى اعداد هذه الأمم للنهضة والمقاومة بعدة العلم الصحيح والتربية الاجتماعية الصالحة ، وقد أبرأ ذمته وأعطى سياسة أستاذه كل حقها من الرعاية والاخلاص ، ولكنه اتخذ من الأرزاء التى ابتلى بها أستاذه على أيدى الأمراء والملوك حجة جديدة على ضعف الأمل فيهم ، ووجوب التحول بالجهود الى أممهم ، فقد شهر به خديو مصر ونفاه ، وعذبه شاه ايران وأهانه وطرده من بلاده على شر حال ، وخيب راجوات الهند رجاءه وأعرضوا عنه مجاملة للسادة المستعمرين ، واعتقله السلطان العثمانى فى قفص من الذهب كما قال عنه بعض المعجبين به من المستشرقين ، ولم يبق أمامهما أحد غير هؤلاء ينوطان به الرجاء ويشدان اليه الرحال ، فمن صيانة الجهد عن الضياع أن يتوقف هذا الجهد من هذا الجانب وينصرف الى ما هو أصلح وأجدى .

وظل الشيخ محمد عبده على هذا الرأى يزداد ايمانا به يوما بعد يوم ، ويضيف اليه من تجاربه مع الأمراء والرؤساء كل يوم ما يعززه تعزيزا لا سبيل فيه الى الشك عنده . وقد كان يقول

لتلاميذه الفقهاء والأدباء من أمثال العالم الدينى السيد رشـيد رضا والشاعر الوطنى حافظ ابراهيم ان السياسة ضيعت علينـا أضعاف ما أفادتنا و « ان السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الاسلام أكبر فائدة وقد عرضت عليه حين كنا فى باريس أن نترك السياسة ونذهب الى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ونعلم ونربى من نختار من التلاميذ على مشربنا ، فلا تمضى عشر سنين الا ويكون عندنا عدد من التلاميـذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الاصـلاح المطلوب ، فينتشر أحسن الانتشار ، فقال : انما أنت مثبط (١) » .



وأراد التلميذ الوفى بعد عودته الى القاهرة واستقرار أستاذه بالآستانة أن يعاود الكرة ويتلطف فى الاشارة الى السيد بما تقضى به الحيطة فى مقره المضطرب بين دسائس الحاشية المتربصين ومكائد الحساد المنافسين وغدرات الوزراء والسلاطين .. فجاءه الرد عنيفا غاية العنف من السيد يقول فيه : انك « تكتب لى ولا تمضى وتعقد الألغاز .. من أعدائى ؟ ومـا الكلاب كثرت أو قلت ؟ .. فكن فيلسوفا يرى العالم ألعوبة ، ولا تكن صبيا هلوعا » .

ثم يقول عن رسالة أخرى : « ان الرسـالة ما وصلت ولا بينت لنا موضعها وجلا منك قوى الله قلبك » .

وقد أمسك الشيخ محمد عبده بعد ذلك عن الكتابة الى السيد فى الآستانة ، لأن الرسائل لا تصل أحيانا ، وما يصل منها فى القليل من الأحايين تراقبه الشرطة وترفع خبره الى المراجع العليا ولا حيلة فى صراحة القول مع ضررها المحقق بالمرسل اليه دون المرسل

---

(١) صفحة ٨٩٤ من تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول لصاحب المنار .

ولا حيلة كذلك في التورية لأن السيد على عادته من الجرأة البالغة يحسبها هلعا صبيانيا ويؤنب الكاتب عليها ذلك التأنيب الحكيم .

ونرى من وفاء البحث أن يتمم هذا الفصل بالنظر في موضع التساؤل من هذه الفترة في علاقة الأستاذين الحكيمين على رأى بعض المؤرخين المعاصرين ، كالأستاذ عبد الرحمن الرافعي فيما تناول به سيرة الأستاذ الامام من تاريخ الثورة العرابية .. فقد كتب الينا أديب علم أننا نكتب سيرة الأستاذ الامام فاستحلفنا ألا ننسى هذه المسألة في موضعها من السيرة وقال : « ومما أرجوه أن تناقشوا ما جاء في كتاب الثورة العرابية تأليف الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بالصفحتين ٥٤٢ و ٥٤٣ وهو :

« ونقطة الضعف في شخصيته ـ أى شخصية الاستاذ الامام هي تخلفه عن الكفاح السياسي واختلافه في هذه الناحية مع أستاذه جمال الدين الأفغاني وقد بدأ انقطاعه عنه منذ عودته الى مصر سنة ١٨٨٩ فترك أستاذه يعاني متاعب الكفاح السياسي وآلامه ومرارته وكان من قبل عضده وساعده الايمن ، وانك لتلمح تراخي الصلات بينهما حتى الصلات الشخصية منذ أن عاد الى مصر حتى وفاة السيد جمال الدين من قراءة منتخبات الاستاذ الامام . فانك لا تجد فيها رسالة واحدة كتبها الى السيد في محنته ومنفاه . بل ان جمال الدين توفي سنة ١٨٩٧ فلا تجد للأستاذ الامام كلمة في رثاء أستاذه الروحي والفلسفي وزميل جهاده في العروة الوثقى . وهذه الناحية هي أثر من آثار الاحتلال في أخلاق الأمة ونفسيتها » .

ولا حاجة الى القول ـ بعد البيان المتقدم ـ بأن هذا النقد أثر من آثار الاسراع في المؤاخذة لغير سبب يوجبها ولا حجة تسندها ، فما كان في الأمر من شيء يوصف بالضعف على معنى من معانيه لأن الضعف انما يكون حذرا من ضياع منفعة أو خوفا من وقوع

ضرر ، ولم يكن فى الكتابة الى السيد محذور على الكاتب يتقيه وانما المحذور كله على السيد أن يصيبه من القوم ما هـو فى غنى عن احتماله ، ويأبى هو أن يسـميه خطرا يتوقاه · ولا نظن المؤرخ الفاضل كان يريد من الأستاذ الامام أن يتلقى بعد كل مراسـلة تقريعا كذلك التقريع يرمى فيه بالوجل والهلع وينهى فيه عن تصوير الخطر ولو بالتلميح اليه · وقد كان جمال الدين رضوان الله عليـه فى دار خلوده يأبى أن يحسب نفسه سـجينا مرغما على البقـاء حيث كان بضيافة السلطان فانه بقى هنالك بعـد أن سـدت فى وجهه مسالك البلاد وسد هـو أمـام نفسه ما كان مفتوحـا بين يديه ، ولو أنه شاء الترحل عن الآستانة لما تعذر عليه ذلك ، بل حدث مرة أنه هم بالترحل منها وانتقل الى مكان تحميه السيطرة الاجنبية ثم لم يلبث أن غادره وعاد الى داره ، تلبية لرجاء السلطان وأنفة له أن يذل أمام أعدائه فى عاصمة ملكه ·

ويستطيع المؤرخ الفاضل أن يعلم لو شاء أن الأستاذ الامام قد أفاض فى ترجمة السيد جمال الدين فى تصديره لترجمة الرد على الدهريين ، ولكن الأستاذ الامام شغل عن كتابة سيرته هـو ــ أي سيرة محمد عبده بقلمه ــ مع الحاجة اليهـا لدفع مفتريات الخصوم عليه · وما أكثر تلك المفتريات عليه فى حياته وبعد مماته ! وان فى بعض ما كتبه منها لتنويها ــ أشرف التنويه ــ بفضل جمال الدين عليه ، ولا يطلب من تلميذ بلغ أوجه من المكانة فى العالم أن يعترف لأستاذ له اعترافا أكرم وأرفع من قول محمد عبده عن جمال الدين : ان ميراثه منه أقدس من ميراثه الأبوى ، لأنه ميراث فى الروح يجمعه بصفوة الرسل والقديسين ·

***

وبعد هذا الاستطراد العـارض فى موضعه نعود فنقول انه لم يقاطع جمال الدين يوم كانت صـحبته له تنفيه نفى الأبد عن

أهله ووطنه ، وقد عاد الى بيروت وهو فى حكم المنفى عن مصر مدى الحياة ، ولكنه خرج منها بأعجوبة من أعاجيب السـياسة تصدق عندنا تجارب الشيخ الحكيم للفضل السـياسى الذى يحسن فيه صاحبه وهو ينوى أن يسىء • فقد توسط له فى العودة الى مصر اثنان هما : الغازى أحمد مختار باشا وكيل السلطان بالقاهرة ، والأميرة نازلى فاضل وريثة البيت المنافس لبيت اسماعيل من فروع الأسرة الخديوية ، ومركزه الاستانة •

ذلك فضل باطنه الذى لا خفاء به أن الرجل أقصى من بيروت بطلب خفى من السلطان العثمانى ، ليأمن عاقبة دعوته الى الاصلاح والحرية فى احدى عواصم الدولة العثمانية والبلاد العربية ، ولولا ذلك ما جاءت الوساطة ـ من كلا طرفيها ـ من هذا الطريق •

مع الثورة العرابية

كان الشيخ محمد عبده ثائرا ولكنه لم يكن عرابيا ، لأنه كان على خلاف مع الزعيم أحمد عرابى فى برنامجه العملى ، ولم يجمع العزم على تأييد العرابيين الا لتوحيد الصفوف فى وجه الاحتلال الاجنبى ، بعد التجاء الخديو توفيق الى الدولة البريطانية .

كان يؤيد الثورة فى أمرين : « أولهما » تنبيه الرأى العام وجمع كلمته للمطالبة برفع المظالم واصلاح نظام الحكم واسناد المناصب الكبرى ووظائف الحكومة عامة الى الوطنيين ، «وثانيهما» وهو أحوج الى الوقت والأناة هو التعويل على انهاض الامة واقامة نهضتها على أسس التربية والتعليم ، واعدادها للحكم النيابى المستقل برغبتها الصادقة وقدرتها على صيانته من عبث الولاة والمتسلطين ، لأنه — كما تقدم — كان سيىء الظن بالنظم التى تأتى من جانب الملوك والأمراء بعد تجربة هذه النظم فى سائر البلاد الشرقية ، ولا فرق عنده بين المجالس النيابية وبين دواوين الحكومة اذا لم تكن للأمة قدرة على حماية مجالسها .

الا أنه كان يخالف زعماء الثورة فى اتباع الخطة التى تؤدى الى الشطط وتفتح الباب للتدخل العسكرى من جانب الدول الاجنبية .

وكان يؤيد الخديو فى سعيه الى الاستقلال عن رقابة الدولتين — انجلترا وفرنسا — ولكنه كان ينكر عليه نفاقه فى اتباع هذه السياسة واستخدامها لتعزيز سلطته والرجوع بسياسة القصر الى مثل ما كانت عليه فى عهد أبيه اسماعيل وعهود أسلافه من قبله .

وكان يؤيد وزارة رياض باشا في برنامج الاصلاح ولا سيما رفع السخرة وتحريم الجلد « أو الكرباج » والتشديد في محاسبة المديرين على سوء المعاملة ، ويؤيده أكبر التأييد في توسيع نطاق التعليم وتشجيع العاملين على نشر الثقافة من علماء هذا البلد أو العلماء الوافدين اليه من الأقطار الشرقية ·

ولكنه كان يأخذ عليه أن شهوة الحكم غلبته على مشيئته فلم يعتزل الوزارة حين وجب اعتزالها ·

وكان يؤيد الشكوى العامة ويشترك فيها بقلمه ولسانه · ولكنه كان يعيب على بعض الشاكين أنهم يمزجون بين الشكوى العامة وبين شكاواهم الصغيرة من قبيل فوات الوظائف والعلاوات ورفض المطالب والشفاعات · وقد كان بعض هؤلاء ينقم على الوزارة خير أعمالها وأجدره بالمؤازرة والثناء : وهو رفع السخرة وتحريم الكرباج ·· لأن مصالحهم في زراعة أرضهم والانتفاع بموارد الرى في جوارهم كانت تقوم على تسخير الفلاحين وتخويفهم بالضرب وسوء المعاملة بموافقة المديرين وأعوانهم ، وقد جلبت الوزارة عليها سخط العلية من أصحاب الأموال بتقرير الضريبة التي تحصل للانفاق على تحسين الصحة العامة وتدبير وسائل العلاج على الاصول الطبية ، ولم تكن أمثال هذه الشكاوى بالقليلة بين أصوات الشكوى التي ترتفع باسم الاصلاح ، ومن ورائها أشباه هذه الاغراض واللبانات·

ولهذه الشوائب التي امتزجت بالحركات العامة في ذلك الحين ، كما تمتزج بها في كل زمن ، لم يتيسر لذلك العقل الناقد أن يختار له حزبا بين الأحزاب يؤيده كل التأييد ويخذل ماعداه كل الخذلان ، ولم يكن متحيزا في ثورته الى فريق دون فريق ، الا حين بدرت بوادر الاحتلال الاجنبي بمشايعة الخديو وحاشيته ووجب أن تتفق الأمة فريقا واحدا على مقاومته · فأقدم على مواجهة الخطر الأكبر ولم يحجم لحظة عن مناصرة ذلك الفريق ·

أما الوجهة التي استقبلها بكل قلبه ومنحها كل وقته ووقف جهوده كلها على العمل لها واقناع غيره بفضلها ، فتلك هي الوجهة التي خلق لها بالفطرة ورجحتها عنده التجربة بعد التجربة ، وهي ايقاظ حمية الرأي العام للمطالبة برفع المظالم واصلاح أداة الحكم ، وانهاض الأمة على أساس قويم من التربية الاجتماعية ونشر التعليم.

وكان قبل استفحال الخطب يلقى زعمـــاء الثورة وأصحاب الرأي فيها ليقنعهم بفضل هذه الخطة ويحذرهم من عواقب الشطط بالدعوة الوطنية الى ما وراء الغاية المأمونة ، وصرح لهم في بعض هذه الأحاديث بما يخشاه من سوء العاقبة كما قال في بيت طلبة عصمت باشا قائد الاسكندرية : «ان هذا الشعب قد يجر الى البلاد احتلالا أجنبيا يستدعي تسجيل اللعنة بسببه الى يوم القيامة» .

وانصرفوا في ذلك اليوم والزعيم أحمد عرابي يقول مبتسما: « أبذل جهدي في ألا أكون مورد هذه اللعنة » .

وقد بسط الاستاذ الامام آراء الزعماء وآراءه يومئذ في تاريخه للثورة العربية ، وسمعنا كثيرا من تفصيلاتها على ألسنة شـهودها الثقات ، ويوافقه تمام الموافقة ما سمعه صديقنا الأســتاذ المــازني ونقله عن والده حيث قال من كتابه عن قصة حياته :

« ... ثم قامت الحركة العرابية وســارت بأسرع مما كان ينتظر ، وكان غرضها تحرير المصريين والتخلص من عناصر الترك والشراكسة المتحكمين المستولين على المناصب في الادارة والجيش - ومضت الى غايتها في جو من الدسائس الاجنبية والاطماع الدولية، فخشي الشيخ محمد عبده العاقبة ، وكان بعيد النظر سديد الرأي فتوقع اذا لج العرابيــون فيما هم فيه ، ولم يتحرزوا أو يتوخوا الاعتدال أن ينتهي الأمر باحتلال الانجليز لمصر ، فكان لهــذا يقاوم العرابيين مقاومة شديدة وينعي عليهم قصر نظرهم وقلة تبصرهم ،

ويبسط فيهم لسانه حتى ضجوا وهددوه بالقتل اذا ظـل يعترض طريقهم ويناوئهم ، وأراد بعض العرابيين من أصدقاء الامام أن يصلح ما بينه وبينهم ، وأنا أعرف هذه القصة لأن الذى حاول اصلاح ذات البين من أقربائى ، ولأن بيت جدى كان هو مكان الاجتماع .

« وتكلم العرابيون ، وتكلم دعاة التوفيق ، ثم تكلم الشـيخ محمد عبده ، فأصر على رأيه أن العرابيين باندفاعهم سيجرون على البلاد الاحتلال الاجنبى ، فأخفقت المساعى للصلح والتوفيق .

« وكان أبى من رجال الازهر وزملاء الشيخ محمد عبده فى الدراسة وتلاميذ السيد جمال الدين ، وان كان لم ينبغ كما نبغوا، فسأل الشيخ محمد عبده : أكنت تلج هذه اللجاجة فى عنادك مع العرابيين لو كان السيد جمال الدين فى مصر ؟ فكان جواب الشيخ محمد عبده هـذه الكلمة المترعة : يا محمد !.. لو كان السـيد جمال الدين هنا لما قامت الحركة العرابية ولا احتاج أحد اليها ، لأن السيد كان يغنى بشـــخصه عن كل ذلك ، وتمثل ببيت من رثاء المتنبى :

كان من نفسه الكبـيرة فى جيـ

ـش وان خيل انه انسـان

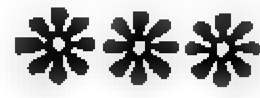
« ولما استفحلت الحركة العرابية وضرب الأسطول الانجليزى الاسكندرية ، انضم الشيخ محمد عبده الى العرابيين ، ووضع يده فى أيديهم ، لأن الواقعة قـد وقعت وكان ما خاف أن يكون ، فلم يسعه الا أن يكون مع قومه ـ ولو كانوا مخطئين ـ على الغريب . وكان يتمثل ببيتى الحماسة :

بذلت لهـم نصحى بمنعرج اللوى

فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد

وهل أنا الا من «غزية» ان غوت
غويت ، وان ترشد غزية أرشد

« والواقع أن السيد جمال الدين كان كما وصـفه تلميذه الأكبر الشيخ محمد : « من نفسه الكبيرة فى جيش » • وهو الذى يرجع اليه الفضل الأول فى قيام الحركة الدستورية فى تركيا ومصر وايران ، وهو الذى أثار نفوس الهنود المسلمين على الاسـتعمار الانجليزى ، وقد خشيه سلطان تركيا وشـاه ايران وخديو مصر والامبراطورية البريطانية » •



ويشتمل تاريخ الأسـتاذ الامام فى الثورة العرابية على أمثلة شتى من أمثلة العظمة بالرأى الأصيل والنظر البعيد والغيرة الصادقة والخلق النبيل ، ولكنه لم يشتمل على موقف من المواقف التى يضرب بها المثل فى سـير العظماء على تقديسهم للواجب أنبل من موقفه الأخير منها ، وهى تواجه خطر الاحتلال الأجنبى وتنساق الى المأزق الوبيل الذى يفض عنها الأنصار ويبعد عنها ذوى المآرب والمخاوف ، وانه لأحصف عقلا وأبعد نظرا من أن تخفى عليه العاقبة ولو على سبيل الترجيح ، اذا حال الأمل الطيب دون العلم بها فى ذلك المأزق علم اليقين •

وأى عاقبة ؟ عاقبة الوقوع فى قبضة الاحتلال الأجنبى نفسه ، وأخطر منه وقوع أعداء الاحتلال فى قبضة الخديو المنتصر المنتقم ، ومعه رؤساء جميع الوزارات الذين عاداهم العرابيون ، وفى طليعتهم أحمد رياض أقربهم الى الأستاذ الامام وأستاذه جمال الدين •

وأنبل من ذلك أنه ثبت على رأيه فى محاربة الاحتلال الأجنبى وخيانة توفيق لوطنـه فى مذكرته التى كتبها أثناء محاكمته وقال فيها :

« هل يقدر أحد أن يشك فى كون جهادنا وطنيا صرفا بعد أن آزره رجال من جميع الاجناس والاديان ، فكان يتألب المسلمون والأقباط والاسرائيليون لنجدته بحماس غريب وبكل ما أوتوه من حول وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والانكليز »

ثم قال عن مؤامرة الخديو لحرق القاهرة انه « شاع فى القاهرة أن الخديو سيسعى بواسطة بعض أتباعه ليحدث شغبا فى نفس القاهرة ، الى حد أن الوزارة احتاطت لمنع الفتنة وبالغت فى ذلك طول مدة قيامها بالأمر ، واستدعى الخديو ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة وطلب اليه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ويحضرهم اليه ، ففعل وبالغ الخديو فى حسن استقبالهم وأكثر لهم من المواعيد ، ثم أوعز الى المدير أن يأمرهم بحتشد ثلاثة آلاف بدوى واحضارهم الى القاهرة بطريق الجيزة ليحدثوا فتنة فى البلد لعدم وجود النظام بينهم ، ولكنه تعذر على المشايخ حشد العدد المطلوب من البدو فحذف هؤلاء من العسكر . ولما فشل مسعاه هذا أرسل تلغرافا رمزيا الى محافظ اسكندرية هذا نصه : قد ضمن عرابى أمر الأمن العام ونشر ذلك فى الصحف وجعل نفسه مسئولا لدى القناصل ، واذا نجح فى ضمانه هذا وثقت به الدول وصغر شأننا . أما الآن وأساطيل الدول فى مياه الاسكندرية وعقول الناس متهيجة فوقوع الخلاف بين الأوربيين وغيرهم أمر محتمل ، فاختر لنفسك اما خدمة عرابى فى ضمانه أو خدمتنا » .

الى أن قال : « وفى يوم هذا الحادث توجهت الى السراى فرأيت موظفيها فى جذل عظيم مما حدث وكانوا يبالغون فى رواية الأخبار ويضحكون من عهد عرابى بالمحافظة على الأمن العام . ومن المعلوم أن موظفى السراى لا يقولون الا ما يسر الخديو ، فاذا كانت الاخبار سارة تكلموا وضحكوا والا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم » .

وهكذا جمع الشيخ السجين فى تقرير واحد بين اتهام السلطتين ، ولم يخطر له أن يدارى احداهما ليأمن شرها ويحتمى بها من الأخرى ، كما فعل كثير من الذين قدموا الى المحكمة العسكرية ، وهم يعلمون أنها خاضعة للسلطة الانجليزية وأن أحكامها تعرض على القصر الخديوى ومجلس النظار لاقرارها ٠

وقد تلقى هذا التقرير محامى العرابيين برودلى صاحب التاريخ المستفيض عن محاكمات الثورة ، وكان الشيخ محمد عبده يعرض عنه لأنه لم يقبل فى بادىء الأمر أن يدافع عنه محام انجليزى ، مع علمه بنظام المحاكم الخاصة وصعوبة الدفاع وفاقا لهذا النظام على غير المختصين من الانجليز ، ثم علم أن شاعر الأحرار (بلنت) صديق القضية الايرلندية والقضية المصرية هو صاحب الرأى فى اختياره فقبل أن يفاتحه بأوجه دفاعه ، وقال المحامى فى ذلك أن الشيخ محمد عبده « لم يتخلص من تأثير الصدمة الناشئة عن توقيفه الا فى أواخر أيامه فى السجن ، وحينئذ أخذ يعاملنا بتلك الثقة التى سعينا لاستحقاقها » ٠

وان هذه الصدمة ــ كما سماها برودلى ــ لهى خير مثال لذلك
١ التفاهم العسير بين عقول الشرقيين والغربيين فى الدوافع النفسية التى تخامرهم ابان الفتن الاجتماعية ، ولعلها سبب من أسباب ارتياب الشيخ محمد عبده فى نية محاميه أو قدرته فان الشيخ قد سئل كما سئل غيره ــ وكان عمله فى الثورة غير عملهم ودواعيه الى المشاركة فيها غير دواعيهم ــ فنفى بطبيعة الحال أكاذيب الشهود الملفقين وتهم الأذناب المسخرين من قبل القصر والحاشية ، ولم يعترف من التهم بغير الواقع الذى وقع منه رأيا وعملا ، وكله ــ كما رأينا ــ أخطر من أن يعد الاعتراف به نكوصا عن التبعة وتنصلا من الجريرة ، فخيل الى برودلى أن موقف الشيخ السجين ــ بين ما نفاه عن نفسه وأنكره من شهادة غيره ــ انما كان ضعفا تبتلى به

النفوس الشرقية فى أمثال هذه الشدائد • وليس أسهل عند هؤلاء الغربيين من مداراة سوء الفهم عندهم بالخلاف المزعوم بين طبائع الشرقيين وطبائع الغربيين •

على أن هذا المحامى نفسه لم يستطع أن يحجب عن عقله عظمة الرجل فى غير ما توهمه من أثر « الصدمة » •• وأشاد بمواهبه الخارقة فى غير موضع من كتابه فقال : «انه ربما كان أعظم الناس موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين •• ولا شك أنه ساعد من قبل كثيرا على جعل الرأى العام عاملا حقيقيا فى الترقى المصرى ولم يكن متهوسا فى الدين ، بل هو من المسلمين القائلين بالتوسع الشديد، وكانت أفكاره السياسية تنطبق على الرأى الجمهورى الحر •• ووطنيته التى لا شائبة للأنانية فيها هى التى حالت دون استياء رفقائه المتحمسين من خطته الدينية علانية • حتى ان عرابى باشا صديقه قال عنه مرة : ان رأى الشيخ عبده أصلح للقبعة منه للعمامة » •

ثم كتب بعد توديعه : « فى مساء اليوم الاول من شهر يونية سنة ١٨٨١ ودعت فى الظلام محمد عبده الذى ذهب أخيرا منفيا عن القطر المصرى مدة ثلاث سنوات •• واذا جاز لمصر أن تسير منفردة أو يكون لها بداءة خير يوما من الايام فانها لا يسهل عليها الاستغناء عن مثل الشيخ محمد عبده العالم المحرر •• » •

ولو أن المحامى كاتب هذه النبوءة أتيح له أن يمد بصره وراء السنوات الثلاث لعلم أن البلاد لم تستغن حقا عن الشيخ محمدعبده، وعلم قبل ذلك أن أمانة الصدق التى عهدها فى «موكله» هى التى حملته على أن ينفى ما نفى ويثبت ما أثبت ولم يحمله على ذلك خوف العقاب • فانه لم ينقطع عن حملته على الاحتلال وعلى الخديو صنيعته فى قلب العاصمة البريطانية ، وهو يعلم أنه ــ بذلك ــ يطيل منفاه أبدا ، وقد طال منفاه فعلا فعاد الى مصر بعد انقضاء موعد النفى بخمس سنوات •

ولسنا فى هــذا الفصل بصدد البـحث عن ظروف الثورة العرابية وتبعات زعمــائها ودعاتها وجرائم خصـــومها وأشياعها المندسين عليها ، ولكننا نستغنى عن ذلك فى هذا المقام بوزن هذه الثورة بميزان الثورات عامة ، وتعود الى طبائع الثورات جميعا فى الشرق والغرب ، فنرى أن الثورة العرابية لم تكن بدعا بينها ، لأنه ما من ثورة حدثت قط الا اشترك فيها الأنصار والخصوم على اختلاف الافكار واختلاف الأمزجة واختلاف النيات واختلاف المظاهر والالوان، ولا يختلط هؤلاء فى هــذا الطوفان المريـج الا اختلطت الاعمــال والتبعات وأفلت الزمام من الايدى واختفى الزمام حينا عن الابصار والبصــائر فلا يدرى من هو القــابض عليه ومن هو المتخلى عنه ، ولا يعرف أين كان مبــدؤه ومنتهــاه بين أيدى الانصار وأيدى الخصوم •

ومن طبائع الثورات أن يخطىء الانسان خطأ لا حيلة له فيه وأن يكون خصمه هو المسئول عن خطئه •• ومن طبائعها أن تكون الثورة كالمطية الجموح تسوق من يركبها ولايسوقها الى غير مجراها، بل من طبائعها أن تنقسم الصواب والخطأ فلا يكون الصواب كله يوما فى جانب ولا يكون الخطأ كله فى جانب ، وهكذا كانت الثورة العرابية بعد اندفاعها ان لم تكن كذلك عند بداءتها وقبل استفحالها، وربما كان من خطأ الشــيخ محمد عبده ــ بمذهبه الســوى فى الاصلاح ــ انه كان كالمهندس الذى حاول أن يسوس مجرى السيل كما يسوس مجرى النيل •• ولكن الفارق بينه وبين الأكثرين من مخالفيه أن خطأه لم ينجم عنه ضرر ، وانه أدرك الأضرار التى تنجم عن أخطائهم وهم غافلون عنهــا ، وانه لم تكن له يد فيهـا ولكنه اضطلع معهم بجميع تبعاتها ولم يتركهم وحدهم ــ حين جد الجد ــ لاحتمال جريرتها •

القضية القومية

انتظم محمد عبده فى سلك الحزب الوطنى منذ نشأة هذا الحزب قبيل عزل الخديو اسماعيل •

وقد تؤدى تسمية تلك الهيئة السياسية بالحزب الى لبس كثير فى أذهان المعاصرين الذين ألفوا نشوء الأحزاب على وضعها الحديث •

فان الحزب الوطنى الذى انتسب اليه معظم المشتركين فى الثورة العرابية لم يكن حزبا يقابل أحزابا أخرى من أبناء البلاد تتعارض فى المبادىء والبرامج على النحو الذى نعهده اليوم فى الاحزاب السياسية ، ولكنه كان فى حقيقته هيئة واحدة شاملة للحركة الوطنية فى جملتها • وانما سمى بالحزب ليقابل جماعة الشراكسة والترك والألبانيين والأرمن الذين كانوا يتبعون الدولة العثمانية وينفردون بولاية الحكم فى الوظائف الكبيرة وأكثر الوظائف الصغيرة •

فالحزب الوطنى على هذا الاعتبار كان هو حزب المصريين الفلاحين أو حزب الأمة المصرية ، ومن أجل هذا كان شعاره « مصر للمصريين » جامعا لمبادئه المتعددة فى كلمتين اثنتين ، أو هو فى الواقع كان مبدأ واحدا يجرى تطبيقه على مختلف المسائل التى كانت تدخل فى نطاق القضية القومية بجميع جوانبها •

كان رفع المظالم عن أبناء البلاد ومحاربة الفساد والاسراف فى دواوين الحكومة هو مبدأ المبادىء فى سياسة الحزب الوطنى

منذ تأليفه قبل نهاية حكم الخديو اسماعيل · وينطوى في هذا المبدأ أن يصير حكم البلاد الى أيدى ابنائها الذين أصابهم الظلم من حكم « العثمانيين » غير المصريين ، وينطوى فى هذا المبدأ ايضا منع التدخل الأجنبي الذى جرت اليه سياسة الاسراف والبذخ أو سياسة الديون فى عهد اسماعيل على الخصوص · وينطوى فيه تنظيم أداة الحكم والتوفيق بين مقاصد الحكام ومقاصد الرعية ·

وكان محمد عبده فلاحا بمولده وتربيته ينتمى الى قرية نشأت فى ظل عهد الاقطاع ، وكان مصابه ومصاب أهله من ظلم الطبقة الحاكمة أشد وقعا فى نفوسهم من مصاب اخوانهم أبناء القرية ، لأنهم كانوا بمنزلتهم الاجتماعيـــة هدفا لأنظار الحـــاكم المتسلط ، وحائلا فى كثير من الأحيان بينه وبين أغراضه من عامة الرعية ، فكان مصابهم بالظلم مضاعفا لأنه مصاب فى الرزق ومصاب فى الكرامة . وكانت ثورته على « الراعى » الجائر ثورة من يشعر فى قرارة نفسه بأنه أهل للمنازعة مع ذلك الراعى الجائر ، وليس قصاراه أنه أهل للخضوع أو للســـخط فى صمت واستسلام ، واستفادت هذه الثورة من التعليم والرياضة الروحية أنها أصبحت عقيدة من عقائد الضمير ولم ترتهن بحدود القرية أو الطبقة ولا بحدود المصلحة الاجتماعية أو السياسية .

وكانت حماسة النخوة سليقة فى الرجل كما أسلفنا ، وهى شيء غير اندفاع التطرف الذى يساور بعض ذوى الآراء ، وأن التبس أمرهما أحيانا على من يحكم عليهما بالمظاهر والأشكال ·

فان تطرف الاندفاع قد يأتى من الخفة والعجلة ، ولكن حماسة النخوة تأتى على الأكثر من شعور عميق وعقيدة متأصلة ، وربما كانت حماسة النخوة عونا لصاحبها على الصبر الطويل ، ولكن خفة التطرف قد يستثيرها الغرض العاجل أو تموت ·

كذلك ينبغى أن نفرق بين الاندفاع والاقدام ، لأنهما قـد

يتلاقيان أحيانا وقد يكون الافتراق بينهما أكثر من اللقاء ، فربما أندفع المندفع الى الفرار كما يندفع الى الاقدام ، ولكن المقدم فى غير اندفاع هو في الحقيقة ثابت حيث كان ، وان خيل الى أناس انه مدفوع الى غير ما أراد .

وتاريخ محمد عبده فى خدمة القضـــية القومية هو تاريخ الاقدام الى أقصى حدوده ، ولكنه لم يكن قط تاريخ الاندفاع مع الخفة والعجلة ، لأن نظرته الى الغرض القريب لم تعجله قط عن النظر الطويل الى الغرض البعيد ، وهو الغرض الدائم وراء جميع الأغراض .

وقد أقدم يوما على الترصد للخديو اسماعيل عند قصر النيل للقضـــاء عليه — أولى من الانتظار به الى أزمة بينه وبين الدول تزيله عن عرشه — ولولا أنه أخطأه فى هذه المرة وسنحت الفرصة للتفاهم مع ولى عهده على تعديل سياسة أبيه بعد عزله ، لزال اسماعيل عن العرش مقتولا فى أغلب الظن ولم يزل معزولا كما أراد جمال الدين وحزبه فى الساعة الأخيرة ، وقد كان التآمر على العزل خطرا لا يقل عن خطر الاقدام على القتل ، وليس لاندفاع التطرف مذهب وراء مذهب الاقدام على هذين الخطرين .

ولما نشبت الثورة العرابية كان حذره من السيطرة الأجنبية أشد من حذر العرابيين وحذر الخديو توفيق ، لأنه لم يخالف العرابيين فى أدوار الثورة الأولى الا خشية الاحتلال الأجنبى الذى يجر على جالبه لعنة الأبد كما قال ، ولم يؤيد الثورة كل التأييد فى مرحلتها الأخيرة الا لأن الخـــديو توفيق جنح الى الدولة المحتلة وحارب جنوده بجنودها .

وفى كل أولئك كان محمد عبده أشد اقداما على الخطر من الجميع : كان أشد منهم اقداما فى معارضة الثورة حين عارضها ، وأشد منهم اقداما فى تأييدها حين أيدها ، وكان أبعد منهم نظرا وأصدق منهم غيرة فى كلتا الحالتين .

ولما وقع المحظور ودخل الانجليز مصر محتلين ، وبارحها محمد عبده منفيا عن وطنه ، كان هذا المنفى أسبق أبناء الوطن الى عاصمة الدولة الانجليزية ليعلن الحرب على الاحتلال فى عقر داره ، وقال لهم في صحافتهم : « اننا نرى أن انتصاركم للحرية انما هو انتصار لما فيه مصلحتكم ، وان عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل ، ولقد قضيتم على عناصر الخير فينا لكى تكون لكم من ذلك حجة للبقاء فى بلادنا » .

وبلغ فى الصراحة معهم مالم يبلغه قائل من بعده حيث يقول لصحيفة البال مال :

« لم لا تغادرون بلادنا فى الحال ؟ لقد علمنا الانجليز شيئا واحدا هو التضامن فى مطالبتكم بالجلاء ... شكونا من الأتراك لأنهم أجانب عن وطننا ، وأردنا لبلادنا اصلاحا وتقدما كتقـــدم الأوربيين فى طريق الحرية . لكننا الآن نعلم أن هنالك ما هو شر من استبداد الحكام ، وشر من ظلم الأتراك ، وليس فى مصر من بلغ به الظلم حدا يرجو معه مساعدتكم . ان لنا اليكم رجاء واحدا ، وهو أن تغادروا بلادنا حالا الى غير رجعة » .

ولما سأله محرر الصحيفة عن الخديو توفيق كانت مشايعتهم هى الجريمة الكبرى التى نعاها عليه فى وجوههم اذ قال : « ان توفيقا أساء الينا أبلغ السوء لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، وانضم أيام الحرب الى أعدائنا ... ولا يمكننا أن نشعر ازاءه بأقل احترام » .

قال هذا وهو لا يبالى أن يظل منفيا عن بلاده أبدا . لأنه لن يعود على غير رضا الخديو صاحب السلطة الشرعية ورضـــا المحتلين أصحاب السلطة الفعلية ، وقد بقى فعلا غير مأذون له بالعودة بعد انقضاء الموعد المحدود لنفيه ، وهو ثلاث سنوات .

وانقضت فترة من هـــذه السنين فى الحملة الســـياسية على الاحتلال بين لندن وباريس ، وكان محمد عبده فى صحبة جمال الدين قد اختار هذه المدينة مركزا لنشاطهما السياسى ، لأنهـــا عاصمة الدولة الفرنسية التى كانت تنافس الدولة البريطانيـــة وتساومها على مشاكل القضية المصرية . فكان من أملهما أثناء الحملة على الاحتلال البريطانى أن تثار القضية كلها فى ميدان السياسة الدولية لمطالبة الانجليز بالجلاء عن مصر . وأن يكون مثار الحملة من باريس بعد مضى السنوات الأولى على دخول الجنود الانجليزية الى قلاع القاهرة والاسكندرية . وبعد صدور الوعود الأولى من وزراء لندن باقتراب موعد الجلاء . ثم انقضت السنوات فى التجارب التى ابتلى بها الحكيمان من معاملة الساسة الغربيين والساسة الشرقيين ، وكان أثرها جميعا شعورا عميقا بخيبة الأمل وضياع الجهد في هذا السبيل . فأما ساسة الغرب فقد كانت قضايا الأمم عندهم صفقات للمساومة وتبادل الغنائم والاتفاق على توزيع المستعمرات الجديدة بعد المستعمرات التى يثيرون قضاياها ... وأما ساسة الشرق فقد كانت مخاوفهم من تحرر شعوبهم كمخاوف الأجنبى من تحرير مستعمراته المغلوبة ، وكان الأجنبى يستعين بهم على توطيد حكمه بين التهـــديد بالخلع والترغيب فى فضلات السلطة من يديه . فخلفت خيبة الأمل فيهم جميعا مرارتها التى تعصف بالأمل لولا قوة اليقين وانصراف العزيمة الى العمل فى غير هذه السبيل . وقد ندرك قسوة أذاها فى نفس الأستاذ الامام من كلماته عن السياسة وسوء أثرها فى نهضـــات التقدم بعد أكثر من عشر سنوات قضاها فى تجارب شتى لما أصابه منها ، فقال فى كتابه عن الاسلام والنصرانية : « ان شئت أن تقول ان السياسة تضطهد الفكر أو العلم أو الدين فأنا معك من الشاهدين. أعوذ بالله من السياسة ومن لفظ السياسة .. ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس ! » .

لقد كان للعزيمة الصادقة عملها أمام هذه الخيبة القاسية .

وكانت هى العزيمة التى لا يشغلهـــا الغرض القريب عن الغرض البعيد ، ولا ييئسها الأمل الضائع أن تصمد للأمل الذى لا يضيع .

ونفس أخرى كانت هذه الخيبة خليقة أن تضربها بضربة الوهن والقنوط فتهجر السياسة وتهجر القضية معها .

ولكنها كانت عزيمة تصدق نفسها اذا كذبتها السياسة الخادعة ... فاستحالت بكل ما فيها من قوة اصرارا على ترك السياســة والاقبال على العمل فى الطريق الذى لا عوج فيــه الى الغاية التى لا ريب فيها ، وقضت على السياسة عندها بهذا الاصرار قبل أن تقضى السياسة عليها .

لا تعويل بعد اليوم على السياسة ولا على الساسة ، وانما التعويل كله على الأمم . ولا معول للامم فى جهادها انفع لهـا وأصدق فى المضى بها الى غايتها من العلم الحى والتربية القويمة .

ولقد كان يقول للمقربين اليه من مريديه : لو كان فى هذه الأمة مائة رجل لما استطاع الانجليز أن يحكموها ، ولما أدركوا منها أربا في حكمهم اياها ، وانما الرجل عنده صاحب الفكر البصير والخلق المكين : صاحب الكفـــاءة الذى ان وجد فى الأمة قادها لا محالة ولم يتمكن أجنبى ذو سطوة أو ثروة أن ينازعه على قيادها .

***

بهذه العزيمة عاد من منفاه وهو ينيف على الأربعين ، ولا بديل له من استكانة اليأس الا أن يقبل بكل ما أوتى من الثبات والأمل على العمل الذى آمن بأنه رسالته الباقيـــة فى الحيـاة ، ووثق من جدوى الاعتماد عليه طوال الزمن ، اذ لا جدوى للاعتماد على السياسة والساسة غير خداع السراب .

ولو أننا ألقينا على لسانه كلاما يقوله فى هداية التعليم كالذى قاله فى ضلال السياسة لخلناه قائما قاعدا يقول : « بارك الله فى العلم والتعليم ، وفى علم وتعلم ، وفى عالم وعليم ومعلوم ، وفى كل حرف من حروف العين واللام والميم ! » .

تقرب من الخديو فلم يكن تقربه اليه ليخدم سياسته . ولكنه أراد أن يقود الخديو الى احياء النهضـة العلمية فى أقـدم الجامعات الشرقية ، وأن يجرى على يديه تطهير الدواوين حيث يتصل الديوان بأعمال الخير والاحسان ، أو يتصل بتربية البيت وصيانة الأسرة وحسن الوصاية على الأزواج والأبناء .

وبعد بضع عشرة سنة لمع فى أفق السياسة آخر بروقها الخلابة فى فضاء القضية القومية ، وعرضت الدولة الفرنسـية سرابها الأخير على الذين استنجدوا بها لانقاذ مصر من مهاوى الاستعمار ، ثم أسفرت مساعى الخفاء عن العلن المكشوف فاذا هو اتفاق بين الدولتين — بريطانيا وفرنسا — على تبادل التصرف المطلق في مصر ومراكش ، تفعل كل منهما ما تشاء بالبلد الذى استولت عليه وتتفقان معا ذلك الاتفاق الذى سموه بالودى لاقناع الدول الأخرى بمثل هذا التفاهم على صفقات الاستعمار .

واطمأنت بريطانيا العظمى الى مكانها بوادى النيل ، وبدأ لها أنها اذا نزلت للمصريين عن سلطانها على الحكومة لم يتأولوا ذلك بالاضطرار اليه خوفا من اثارة قضية مصر فى محيط السياسة الدولية ، ولكنهم يتقبلون منه ما يرضيهم باختيارهم ويرضى الدولة المحتلة باختيارها . فأرسلت صديق العرابيين القـديم — سكوين بلنت — يسأل مفتى الديار رأيه فى أسس الدستور التى يقام عليها بناء الحكومة ونظام الادارة ، فكانت خلاصة جوابه على ما يفهم من بين سطور الصحف التى حرفت هذا الجواب :

أن يكون الدستور مقيدا لسلطة الاحتلال وسلطة الخديو ، وأن يكون اعلانه ضمانا من السلطتين باحترامه ومنع المساس بحقوقه ، وأن يكون للرئيس المصرى حق جدى فى ديوانه فلا يكون عمله فيه عالة على الرؤساء الانجليز ، وأن يكون نظام التعليم اجباريا فى جميع أنحاء البلاد ، وأن تكون للمجلس النيابى حقوق الاشراف على السلطة التنفيذية أو سلطة الوزارة ، فاذا اختلف مجلس النواب ومجلس الوزراء عرض الخلاف على هيئة مشـــتركة من النواب وقضاة محكمة الاستئناف ، وتلتزم الوزارة بحكم هذه الهيئة فلا يكون لولى الأمر من ســـــلطان على الحكم ، الا ما يتقبله الوزراء ويحتملون تبعته فى حدود الدستور والقانون .

كان هذا قبيل وفاة المفتى بسنة واحدة (سنة ١٩٠٤) وكان للاحتلال أجل فى علم الغيب لم ينته قبل نيف وخمسين سنة ، ولم يكن له فى علم الانسان أجل محدود ، ولكنـــه لم يكن أمل الغـد القريب بعد بضع سنوات على كل حال ، ولو أنه كان ـ مع التفاؤل الطامح ـ أمل سنوات عشر أو عشرين لما كان فى الوسع أن تدار الحكومة خلال هذه المدة بالدعوة الى الاضراب وترك الحكم كله بين أيدى المحتلين ، ولو بدأت الدعوة الى الاضراب فى تلك السنة لما نفذت ولا تم الاتفاق عليها قبل انقضاء تلك السنين . فليس تقدير وقوع الجلاء فعلا فى تلك السنة الا تسجيلا بعبارة أخرى لانفراد المحتلين بالولاية على الدولة بمعزل عن أبناء البلاد فى جميع الدواوين .

وقد كان المفتى موظفا يتولى عمله فى خدمة بلاده مع مئات من خيرة أبناء الوطن فى مناصب الوزارة والقضاء والتعليم والبناء والتعمير ، فاذا كان العاملون فى السياسة قادرين على تبليغ أمانتهم بالكتابة فى الصحف والخطابة على المنابر ، فأمانة الموظف الذى يخدم بلاده لا تؤدى فى غير الديوان ، ولا يزال لقاء المستشار

والمفتش والعميد عملا من أعماله المتكررة ان لم تكن من أعماله اليومية، وبخاصـة مستشـار وزارة المال ووزارة التشريع ؛ ولا تؤدى وظيفة واحدة بغير الرجوع الى هاتين الوزارتين .

ولا موجب هنا للموازنة بين من يعدون الأمم للاستقلال بالدعوة السياسية ومن يعدونها للاستقلال بالتربية والتعليم . فان الأمم تستطيع على الدوام أن تعتمد على كلتا الخطتين وأن ترشح لكل منهما من هو أصلح لها وأقدر عليها وأرغب فيها ؛ وليس ثمة من ضرورة توجب عليها أن تختار هذه وحدها أو تلك وحدها ، منفصلتين غير مجتمعتين .

وانما المسألة هى مسألة هذا المصلح القدير على الاصلاح . أى الخطتين يختار ، وأيتهما ترجى منه منفعتها ، ويؤمن فيها على وقته وجهده من الضياع والفوات .

ان هذا المصلح الذى تمت له عدة الاصلاح وقيادة الأمة فى طريق التقدم والحرية قد جرب السياسـة فلم تثمر له ثمـرة يرضاها .

انه آمن بأن عمل السنين فى السياسة والاعتماد على الساسة قد يضـيع ولا يبقى من أثره ما ينفع ، بل قد يبقى من أثره ما يضير ولا تمحو ضيره الأيام والسنون ، ولكن عمل السنين فى تربية الأمة وتعليمها لن يضيع ولن يذهب سدى ، ولن يندم عليه العامل ولا الأمة التى يعمل لها ، قصرت بهـا الطريق أو طالت الى غايتها من التقدم والحرية .

انه ابتلى من السياسة والساسة بتلك الخيبة التى بغضتها اليه وأورثته تلك المرارة « النفسية » التى جعلت كل عمل فيها غصة لا تطاق وأذى لا يحتمل ، ونفرته منها ذلك النفور الذى يصد العزيمة عنها ويدحض الرجاء فيها ، وليس من طبيعة الغيرة

الصادقة أن تمضي الى وجهة تصد عنها أو تخدع النفس عن السعي الذى لا رجاء فيه . فليس له ولا لأحد أن يصرفه عن العمل الذى يرجو جدواه ، ليكرهه على العمل الذى لا يجدى عنده ، وان أجدى كثيرا أو قليلا عند غيره .

وأيا كان رأى التاريخ فى جدوى الخطتين على قضية مصر فلا خلاف فى رجحان كفته على كفة خصومه بميزان الصدق والاخلاص والمروءة الجديرة بأمثاله من دعاة الاصلاح . لأنه آمن بخطته ولم يعطل على أحد خطة يؤثرها ويطمئن الى عقباها . ولكن خصومه قد سوغوا أسوأ ظنونه فى السياسة يوم صدوه عن طريقه ونصروا عليه أعداءه وأعداء رسالته الباقية ، وكان أسوأ ما صنعوه أن يحسبوا عليه حماية القانون لمنصبه اخلالا بالوطنية وهم يحمدون لولى الأمر أن يطأطىء رأسه لراية الاحتلال كى يغنم من المحتلين اغضاءهم عن عبثه بوظائف الحكومة ، وهو لا يرمى بذلك العبث الى شىء غير محاربة العلم واتهام الدين بما هو برىء منه ، اذ يجعله حائلا بين المسلم وبين علوم الحضارة فى القرن العشرين .

فى الأزهر

وقفنا بتاريخ الأزهر الحديث عند أوائل النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وهو يومئـــذ حومة صراع خفى بين طلاب الاصلاح المجددين وبين شيعة الجمود والتقليد من المحــافظين على القديم : اذا تولاه شيخ عصرى ، أو شيخ فتى بالقياس الى شيوخه المعمرين سعى سعيه البطىء الى تنظيم الادارة وترتيب أوقات العمل ومواعيد الامتحانات وشروطها دون مساس بجوهر التعليم من موضـــوعات الدروس وكتب التدريس وأشـــخاص المدرسين ، واذا أحس ولاة الأمر بادرة السخط على هذا النصيب المقتصد من الاصلاح البطىء أعادوا اليه شيخا من المشهورين بالتعصب للقديم ، وأعادوا الأزهر فى الحقيقة الى ذلك الشيخ ليتولى عنهم ستر نياتهم نحو الاصلاح ويدفع عنهم بجموده وتقليده شبهات العدوان على حرمات هذا المعهد العتيق ، بل شبهات العدوان على حرمات الدين ، اذ كان كل تغيير فى المألوف بينهم لا يقل عن سبة الخروج من الدين •

وكانت الحكومة ـ كما تقدم ـ تخشى أن تتعرض لهذه الشبهات فى زمن تكاثرت فيه الشبهات عليهـا من سياستهـا الأجنبية ، وأوشكت هذه السياسة أن تجعلهـا رهينة بالسلطان الأجنبى فى أمور القضـــاء والتشريع وفى أمور « الامتيـــازات الأجنبية » على التعميم ، فلم تكن لها بقية من السمعة الحسنة فى هذا الباب تجازف بتعريضها للثورة عليها من رجال الدين • فى أكبر معاهد الاسلام • فاتبعت مع الأزهر خطة الانتظار وآثرت أن تتلقى

طلب الاصلاح من أهله فتلبيه ، وظلت على هذه الخطة لا تجرؤ على تبديلها الى ما بعد الاحتلال البريطانى واستيلاء المحتلين علانية على دواوين الحكم بدعوى الاصلاح والتنظيم .

عندئذ تحول الموقف كله من جانب السلطة الشرعية أو سلطة الخديو بمعزل عن وزرائه وموظفيه ، فان استئثار المحتلين بدعوى الاصلاح والتنظيم فى دواوين الحكومة جميعا لم يدع له مكانا يعمل فيه منطلق اليدين غير الجامع الأزهر وديوان الأوقاف والمحاكم الشرعية ، وهى الجهات الدينية التى أمسك المحتلون عن التعرض لها الا فيما يتعلق منها بميزانية الدولة كوظائف القضاة الشرعيين وموظفى المحاكم الشرعية ، فأصبح من هم الخديو أن يدفع عنه تهمة العجز عن الاصلاح والتنظيم فيما بين يديه من الدواوين والمعاهد . فان هذا العجز حجة عليه وعلى الحكم الوطنى برمته فى أيدى السلطة الأجنبية ، وبرهان محسوس يرتكن اليه المحتلون — أمام العالم — كلما التمسوا ذلك البرهان المحسوس للحجر عليه وعلى أداة الحكم التى ترتبط بها «المصالح الأجنبية» ودعوى الامتيازات .

ومع هذه الضرورة الملحة على ولى الأمر لم يجرؤ على « اقتحام العقبة » بغير تمهيد يعفيه من تهمة التهجم على حرمة المسجد وتقاليد الدين ، فدبر مع المخلصين من طلاب الاصلاح « حيلة شرعية » للبدء بالاصلاح المطلوب ، واتفقوا على استفتاء شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية فى مسألة العلوم التى يجوز تدريسها بالجامع ولا تعتبر العناية بها فى أماكن العبادة مخالفة للتقاليد الاسلامية ، وكلفوا عالما تونسيا فاضلا — هو الأستاذ محمد بيرم أشهر علماء جامع الزيتونة فى عصره — أن يتوجه بهذا الاستفتاء الى الشيخ محمد الانبابى شيخ الجامع يومذاك (١٣٠٥ هـ ١٨٨٧ م) فكتب اليه بعد تمهيد وجيز :

« ... ما قولكم رضى الله عنكم : هل يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء المعبر عنها بالكيمياء وغيرها من سائر المعارف ، لا سيما ما ينبنى عليه منها من زيادة القوة فى الأمة بما تجارى به الأمم المعاصرين لها في كل ما يشمله الأمر بالاستعداد ؟ بل هل يجب بعض تلك العلوم على طائفة من الأمة بمعنى أن يكون واجبا وجوبا كفائيا على نحو التفصيل الذى ذكره فيها الامام حجه الاسلام الغزالى فى احياء العلوم ونقله علماء الحنفية ايضا واقروه ، واذا كان الحكم فيها كذلك فهل يجوز قراءتها مثل ما تجوز قراءة العلوم الآلية من نحو وغيره الرائجة الآن بالجامع الأزهر وجامع الزيتون والقرويين ... أفيدوا الجواب لازلتم مقصدا لأولى الألباب » .

وقد كان الأستاذ الانبابى يعلم مصدر الاستفتاء فلم يهمله كما أشار عليه بعض أعوانه ، وكتب فى جوابه ما يلى :

« ... يجوز تعلم العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والجغرافية ، لأنه لا تعرض فيها لشىء من الامور الدينية ، بل يجب منها ما تتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وجوبا كفائيا ، كما يجب علم الطب لذلك ـ كما أفاده الغزالى فى مواضع من الاحياء ـ وأن ما زاد عن الواجب من تلك العلوم مما يحصل به زيادة فى القدر الواجب فتعلمه فضيلة ، ولا يدخل فى علم الهيئة الباحث عن أشكال الافلاك والكواكب وسيرها علم التنجيم المسمى بعلم أحكام النجوم وهو الباحث عن الاستدلال بالتشكيلات الفلكية على الحوادث السفلية ، فانه حرام كما قال الغزالى وعلل ذلك بما محصله أنه يخشى من ممارسته نسبة التأثير للكواكب والتعرض للاخبار بالمغيبات ، مع كون الناظر قد يخطىء لخفاء بعض الشروط . وأما الطبيعيات ـ وهى الباحثة عن صفات الأجسام وخواصها

وكيفية استحالتها وتغيرها كما فى الاحياء فى الباب الثانى من كتاب العلم ، فان كان ذلك البحث عن طريق أهل الشرع فلا منع منها كما أفاده العلامة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى فى جزء الفتاوى الجامع للمسائل المنتشرة ، بل لهـا حينئذ أهمية بحسب أهمية ثمرتها ، كالوقوف على خواص المعدن والنبات المحصل للتمكن فى علم الطب ، وكمعرفة عمل الآلات النافعة فى مصلحة العباد ، وان كان على طريقة الفلاسفة فالاشتغال بها حرام لأنه يؤدى للوقوع فى العقـائد المخالفة للشرع كمـا أفاده العلامة المذكور • نعم يظهر تجويزه لكامل القريحة المـمارس للكتاب والسنة للأمن عليه مما ذكرنا قياسا على المنطق المختلط بالفلسفة على ما هو المعتمد فيه من أقوال ثلاثة ثانيها الجواز مطلقـا ونسبه الملوى فى شرح السـلم للجمهور ، وثالثها المنع مطلقا ونسـبه صاحب السلم لابن الصلاح والنووى • قال الملوى : ووافقهما على ذلك كثير من العلماء ، ولماكان الامام النووى ممن يقول فى المنطق بالمنع مطلقا مشى على نظير ذلك فى الطبيعة ، فعـد فى كتاب السير من الروضة من العلوم المحرمة علوم الطبيعيات بدون أن يفصل • لكن حيث يعتمد التفصيل هناك فلنعتمده هنا • اذ لا فرق فى ذلك ، فان مظنـة الضرر والنفع موجودة فى كل منهما •• » الى آخر الجواب ممـا يدل عليه أوله المتقدم •

وبعد أسبوعين من صدور هذه الفتوى من قبل شيخ الازهر ـ الشافعي ـ صدرت الموافقة عليهـا من مفتى الديار المصرية ، وهو حنفي المذهب ، فقـال ان « ما أفاده حضرة الاستاذ شيخ الاسلام موافق لمذهبنا وما استظهروه من أن الخلاف الجارى فى علم المنطق يجرى فى علم الطبيعة أيضا وجيه ، والله سبحانه وتعالى أعلم» •

***

ويستطيع الناظر فى تضاعيف هذه الفتوى أن يلمح منها أنها

تفتح الباب فيما أباحته للتفرقة بين طريقة وطريقة وغاية وغاية ، ولا سيما فى المنطق والطبيعيات ، فلا يشق على المعارض فى تدريس علم منها أن يؤجل تدريسه على الأقل الى أن يثبت خلوص الكتاب المقرر من الشوائب الممنوعة ، وابتعاد المدرس له عن مذهب الفلاسفة أو مذهب المنجمين ، ولا يصعب على المعترض أن يحسب الأنباء عن مواعيد الكسوف والخسوف والقرانات الفلكية المحققة افتياتا على الغيب لجواز الخطأ فيها على الناظر كما جاء فى الفتوى •

وتلك كانت النية منذ صدرت الفتوى اضطرارا بهذا التحفظ والتقييد ، فان الشيخ قد أصدرها وهو ينوى تعطيل برنامج الاصلاح بأمثال هذه الحجج التى لا تعيى أحدا يريدها بعد السير فى خطوات التنفيذ العملية • وقد عاد الشيخ محمد عبده من المنفى واقترح على الشيخ الانبابى هذا تدريس مقدمة ابن خلدون فلم يجبه الى مقترحه وقال « ان العادة لم تجر بذلك •• » ثم سكت حين أراد الشيخ محمد عبده أن يبين له وجه المشابهة بين المقدمة وما يدرس من كتب المتأخرين على عهده ، ولم يرد أن يدخل فى الحديث •

***

لا جرم يكون صدور هذه الفتوى العقيمة هو كل ما تم من «مشروعات» هذا الاصلاح ، فلم تزل حبرا على ورق الى العهد الذى أنشىء فيه للأزهر مجلس خاص لوضع الفتوى فى موضع التنفيذ ، وكان الشيخ محمد عبده عضوا فيه ، وقد عين للأزهر وكيل ذو كفاية وخلق ، له « شخصية قوية » لا يسهل اهمالها ، وهو الشيخ حسونة النواوى من أصدقاء الشيخ محمد عبده وأركان المدرسة الجديدة من بين العلماء المجددين ، وقد اتفقت الآراء على اختياره ليحول دون تعطيل « المشروعات » عند تطبيقها ، اذا صدرت بها القوانين والمراسيم •

مضى بين اتصال الشيخ محمد عبده بالأزهر وصدور تلك

الفتوى نيف وعشرون سنة ، حضر فيها مراحل هـذه الحركة من بداءتها الاولى وهو طالب ومدرس ومشرف على الادارة والتدريس :

وصل الى الأزهر طالبا حوالى سـنة ١٨٦٦ ميلادية فاجتهد لنفسه في البحث عن أساتذته ودروسه ، ثم أغنـاه حضور جمال الدين الى مصر عن المعلمين فيما يحتـاج الى المعلم وأغناه ذكاؤه وصبره عن الكتب المقروءة في حلقات التدريس ، اذ كان يبحث عن الكتاب المفيد حيث أصابه ، فيقرأه لنفسه ويجتني منه خير ما يجنى من الفائدة في زمن وجيز ، يريحه من حضور دروسه على المعلمين « التقليديين » وكثيرا ما يكون الكتاب من غير الكتب المقررة لدراسة الحلقات ٠

وقد مر بنا كيف كان الناشىء محمد عبده يبتلى بالنقيضين على مفترق الطريق في معاهد تعليمه منذ صباه ، ولكن مفترق الطريق هـذا كان في عهـده الاول بالازهر على أبعد ما تكون الشقة بين النقيضين ٠ فقد كان من طرف الجمـود يترامى الى زاوية الجمود السحيقة في كهف الشيخ محمد عليش ، وكان من طرف التجديد يترامى الى غاية مرماه ، حيث تتطامن العقبات والسدود ، في ساحة جمال الدين ، بل في ميدان جمال الدين ٠

وقد كان الشـيخ محمد عليش رجلا صالحا عفيفا عن المطامع الدنيوية التي كانت تستهوى طلاب المظاهر من علماء عصره ، وكان مخلصا صادق النية في كراهة البدع التي يخشى منها على الدين ، ولكنه اخلاص قاده الى التطرف الشديد وأوشك أن يبغض اليه كل تفكير يستقل به طالب العلم ، ولو كان من تفكير حكماء الاسلام ٠

وأبلغـه ابنه يوما أن طالبا بالازهر يحضر على جمال الدين ويقرأ كتب المعتزلة والمتـكلمين ، فحمـل عكازه وذهب مـع ابنه وأصحابه الشبان الى حيث يجلس ذلك الطالب الجرىء ، ودارت بين العالم الكبير والطالب الناشىء مشادة ، أحرى أن تسمى مشاجرة ،

لأنها انتهت الى التماسك بالايدى واعتصام العالم الكبير بعكازه ٠ و لجأت الطالب الناشيء الى اصطحاب عصاه كلما ذهب الى حلقته ٠ ردا لعادية الزملاء المستأنسين بحمـــاية شيخهم ، ان لم يكن ردا لعادية الشيخ الوقور ٠

وتقدم الى امتحان شهادة العالمية وهو بهذه السمعة فى دوائر الجامدين ودوائر المجددين ، فدخل أعضاء اللجنة وهم متعاهدون على اسقاطه كيفما كانت اجابته على أسئلتهم التى قدروا أن تكون معجزة لمثله ، فلم يستطيعوا أن يحرموه بعد العنت والمكابرة ، بل لم يستطيعوا أن يكتفوا بمنحه الدرجة الصغرى وهى شهادة اللجنة من الدرجة الثالثة ، حتى أنقذه منهم بعض الانقاذ رئيس اللجنة ورئيس الجـامع فى ذلك الحين الشيخ « المهدى العباسى » أحد كبار العلماء المناصرين لحركة التجديد وان لم يكن من المحبين لجمال الدين، وأقسم الرجل انه لو عرف درجة فوق الاولى لما استكثرها عليه ، وكادت اللجنة أن تنفض على غير اتفاق ، لولا خشية العـاقبة من مجابهة شيخ الجامع بالتحدى والاجحاف ، فاقترح بعض الاعضاء التوسط بين الدرجتين واتفقوا أخيرا على منحه الدرجة الثـانية ، ثم رفعت هذه الدرجة الى الاولى بعد سنوات ، وكانت سنه فى نحو الثامنة والعشرين حين دخوله الامتحان (١٨٨٧) ٠

وبعد التدريس فى الأزهر نحو سنتين عين أستاذا بدار العلوم (١٨٧٩) وفصل منها بعد أشهر معدودات لغير سبب مذكور فى قرار فصله ، ولكنه كان مفهوما بين المطلعين على سياسة القصر قبيل الثورة العرابية ، فانه كان قد عرف بالدعوة فى دروسه الى المبادىء الخطرة التى أشارت اليها الحكومة فى قرار نفيها للسيد جمال الدين ، وكان أكثر من ذلك تلميذ جمـال الدين الاول ، فكان خطر جمال الدين أهون عليهم من خطر هـذا التلميذ ، وهم يكلون اليه تعليم المعلمين !

أي مكان أسلم — أسلم للحكومة الخديوية — تضـــع فيه المدرس المعزول من وظيفة التدريس للمعلمين ؟

ان السؤال عن المكان المأمون الذى يشغله هذا الفتى الريفى قد أصبح فى تلك الآونة شغلا للدولة تعنى به مع عنايتهـا بكل مكان تتوقع منه الخطر على وجودها ، ولم يمض على هـذا الفتى الريفى فى الثلاثين من عمره سنتان ، أو سنوات ثلاث ، فى الحياة العامة حتى أصبح فى رأى الدولة واحدا من آحاد معدودين يحسب لهم حســابهم عند كل حركة من حركاتهم ، بل كل نية تحسبها الدولة من نياتهم !

نعم • انه فى حالته وبيئته و «مؤهلاته» التقليدية واحد من عدة آلاف لا يعرف لهم اسم ولا يحسب لهم حســاب ، ولكنه فى نفسه ، أو فى هموم نفسه وآمالها ، واحد لا ثانى له من غراره ، وان يكن فى توقع الخطر منه واحدا من بضــعة آحاد معدودين ، خارج الوظائف والدواوين •

ولقد عزل من وظيفة التدريس بدار العلوم وهو عالم من علماء الأزهر ، فاذا كان تعليمه هو الخطر المحذور فهو عائد الى التعليم فى مدرسة أكبر باتساعها وأخطر بقدوتها من دار العلوم ، وهى الجامعة الازهرية ما لم تشغله عنها وظيفة يرضاها • وقد أخذ فى ذلك الحين ينشر مقالاته فى الصحف ويجمع حوله طائفة من قراء أدبه والمعجبين بآرائه ، فاذا خلى بينه وبين الصحافة فمن ذا يعلم العاقبة المنتظرة بعد قليل ؟ وماذا يمنع أن تتيـــح له الظروف لســانا من ألسنة الصحافة السيارة يســتقل به ويملى منه دروسه التى حيل دون املائها بين الجدران فى دار العلوم ؟

ان التحرير عمل يناسبه ، فليكن اذن محررا فى صحيفـــة الحكومة بين سمعها وبصرها ، وليؤخذ عليه سبيل التدريس فى

الأزهر والكتابة فى الصحافة السيارة ، بعمل يعجبه فى ظاهره ويحد من نشاطه المحذور فى باطنه ، وهو تحرير الوقائع المصرية: تحرير الصحيفة التى يدل اسمها عليها ، وهو نشر الوقائع الرسمية ·

لو قال قائل ان هذا الانسان خلقة مجبولة للتعليم ، وان رمق الحياة ورمق التعليم فيها شيء واحد ، لما وصل الى حدود الاغراق الذى تبيحه المبالغة للمبالغ فى مثل هذا المقام ·

فانه عزل من مدرسة التعليم للمعلمين ليلحق بمكان يقال فيه بحق انه آخر مكان ينتظر منه القاء الدروس ، وانه المكان الذى لا يقع فى الظن أن الدروس تلقى منه على الامة وعلى الحكومة ، وهما على أبواب ثورة قلما تجمعهما على وفاق ·

ولكن صحيفة الوقائع الرسمية تحولت على يد هذا المحرر «الرسمى» الى منبر لنشر الدعوة واعلان الشكوى ، واسماع الحكومة ما تريد أن تسمعه وما لا تريد أن يسمع بحال ، وقال الشيخ محمد عبده على صفحاتها كل ما كان قائله لو تكلم فى حلقات الأزهر أو على منصة التدريس بدار العلوم ·

ولا تتسع هذه المناسبة لأكثر من الاشارة الى عناوين بعض المقالات التى نشرها للناس باسم الوقائع الرسمية ، ومنها مقال فى انتقاد التعليم بوزارة المعارف ، ومقال عن التربية فى المدارس والمكاتب الأميرية ، ومقال فى الحملة على الرشوة ، ومقال فى الانحاء على البدع التى تصدر من نظارة الأوقاف ، ومقال عن تأثير التعليم فى العقيدة ، ومقال عن الشورى وآخر عن اختلاف القوانين باختلاف الأمم ، وآخر عن الملكات والعادات ، وآخر عن تعدد الزوجات ، وآخر عن اسراف الفلاح وضرر الديون ، وغيرها وغيرها قرابة أربعين مقالا ، أو أربعين درسا ، فى أمثال هذه الشئون القومية التى يتجه

فيها الخطاب الى الأمة والحكومة ، وتلام فيها كلتاهما بمقدار حقها من الملام ٠

***

ولم يهمل شأن الأزهر وهو يتكلم عن اصلاح التعليم ويتصل برئيس الوزارة بحكم وظيفته في الصحيفة الرسمية ، فكل ماعملته الوزارة الرياضية من أعمال الاصلاح وتنظيم الادارة بالازهر فانما كان على علم منه بمشورته وبفضل وساطته بين الحكومة وعلمائه ٠ ولكن الثورة العرابية شغلت علماء الأزهر يومئذ عن مسائل التعليم والادارة وضمت الكثيرين منهم الى جانب الثائرين في وجه الخديو بعد انضمامه الى السلطة الأجنبية ، وكان الشيخ محمد عبده أحد العلماء الذين كانوا يأخذون العهد والقسم من الثائرين على الاخلاص والأمانة ، وجوزى على ذلك بالنفي الى خارج الديار ثلاث سنوات امتدت الى سبع سنوات ، ولم ينقذه من حكم الموت الا تلك الصلة القديمة التي سبقت له مع الوزارة الرياضية ٠

***

وعاد الى الاتصال بالأزهر على أثر عودته من منفاه ، ولكنه حيل بينه وبين الانقطاع للتدريس فيه باسناد الوظائف المختلفة اليه ، وكانت أول مشاركة له في وظائفه تعيينه عضوا بمجلس ادارته (سنة ١٨٩٤) ثم تعززت مكانته الرسمية بولايته منصب الافتاء بعد ذلك بخمس سنوات ، وكان وجود مثله عضوا بمجلس الادارة كافيا لاخراج الفتوى القديمة ــ فتوى الشيخ الانبابي ــ من حيز القول المهمل الى حيز العمل الفعال ، ولكن قيامه على منصب الافتاء رجع بالفتوى الى صاحبها وأغنى العاملين على الاصلاح داخل الأزهر وخارجه عن مهمة التوفيق بين الوعد والانجاز ، وبين النية والتنفيذ ٠

وقد كان في وسع الشـيخ محمد عبده وأعوانه الثقات أن ينجزوا في ثلاث سنوات ، أو أربع سنوات ، ما استغرق انجازه منهم أكثر من عشر سنين ، وهي المدة التي أشرف فيها الشيخ محمد عبده بشخصه على ادارة الأزهر ، منذ تعيينه عضوا بمجلس الادارة الى استقالته من منصب الافتاء في سنة ١٩٠٥ . ولكنه آثر أن يتمهل اختيارا لتسويغ الانتقال من القديم الى الجديد في نفوس أنصار القديم المتشبثين ببقائه بين الموافقة باللسان والمراوغة في التنفيذ ، واضطر في كثير من الاحيان الى التمهل اضطرارا لتراجع ولى الأمر ــ الخديو عباس الثاني وحاشيته ــ في وعودهم وعدولهم عن العمل على التغيير الصريح الى مراوغة كمراوغة الشيوخ الجامدين بين الموافقة اللسانية والتعويق في التنفيذ ، ولكن دعاة الاصـلاح تمكنوا ــ مع هذه التعويقات ــ من اقامة الأسس التي يصعب على المعارضين أن يهدموها بعد اقامتها، وكان عملهم مدى السنين العشر أعظم مما يتسع له هذا الأمد القصير بالقياس الى القرون المتوالية التي تم تبديلها في خلالها ، بعد الشروع فيه والعدول عنه واستمرار الدعوة اليه أعواما اثر أعوام .

ويطول بنا بيان التشريعات والاجراءات الادارية التي تقضي المراسم الضرورية باستصدارها قبل كل خطوة تخطو في تغيير شيء من القديم واعتماد شيء من الجديد ، ولكن المقـارنة السريعة بين ما كان عليه الازهر في السـنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر وما صار اليه في مطلع هـذا القرن العشرين هي الأثر العملي المحسـوس لجميع تلك التشريعـات والاجراءات في حيز التقرير والتنفيذ .

كانت سيئات الادارة لا تحصى ، وكانت حسناتهـا القليلة تجري ــ اذا جرت ــ عفوا على غير نظام .

كان مشايخ الأزهر يوزعون المرتبات والجرايات على غير قاعدة

مرعية ، حسبما يتجمع عندهم من محاصيل الاوقاف المحبوسة على أتباع المذاهب أو على أبناء الأقاليم ، فربما هبطت مكافأة العالم فى الشهر الى ما دون العشرين قرشا أو ارتفعت الى بضعة جنيهات ، ولا ضمان لعودتها فى السنة التالية اذا تغير الشيوخ واختلف حساب الاوقاف واختلف معه حساب توزيعها بين الشيوخ والمقدمين على الأروقة والأقسام ٠

وكان شأن كساوى التشريفة كشأن المرتبات والجرايات ، يختص بها الشيخ الأكبر من يشاء من أبناء مذهبه أو اقليمه أو خاصة أشياعه ومريديه ، ولا وجه لمراجعته أو الاحتجاج عليه عند هيئة مسموعة الكلمة فى الجامع أو عند ولاة الأمور من الولاة والوزراء ٠

ولا ينتظر فى مثل هذه الحالة أن يجرى عمل المدرسين والطلاب على وتيرة مطردة أو تجرى رقابة التدريس كله على مبدأ معروف ٠ فمن شاء من الأساتذة أو التلاميذ حضر حلقات الدرس ومن شاء منهم غاب عنها ولم يسأل عن حضوره أو غيابه ، وليس للعمل أو للاجازة أو الامتحان موعد مقرر فى سنة من السنين ، فاذا قيد الطالب اسمه بين مستحقى الجراية أو السكن بأروقة الجامع فقد يحسب من طلابه الى أن يجاوز الستين ولا تنقطع جرايته ما دام من المرضى عنهم بين شيعة صاحب الرواق ٠

وكانت العلوم الحديثة محرمة لا تدرس ولا يرضى عن طلابها فى غير الحلقات الازهرية ، وكانت علوم السلف التى تنسب الى الفلاسفة أو المعتزلة قرينة بتهمة الكفر والزندقة ، ومن اشتغل بها معلما أو متعلما فسبيله أن يعتزل الجماعة خفية ٠٠ ولا سلامه له باعتزالهم جهرة على سنة الأقدمين ممن اشتهروا بالاعتزال ٠

وكانت تدبيرات الصحة مهملة ، بل كادت أن تكون ممنوعة ،

لقلة اطمئنـــان العلماء الجامدين الى المواد التى تستخدم للتعقيم والتطعيم ، بل قلة اطمئنانهم الى أقوال الأطباء فى عدوى الجراثيم ، ولولا أن النظافة أدب من آداب الاسلام لما تقبل القائمون على ادارة الجامع عملا من أعمال الوقاية فى أزمنة الوباء ، غير الأمر باغلاق الجامع ووقف الشعائر والدروس في أروقته ، وهـو الأمر الذى يتحرج منه المسئولون ويحتالون له بمختلف الحيل كلما استطاعوا أن يتجنبوه بالاعلان الصريح ٠

وتبدل ذلك كله فى سنوات قلائل ، وأول ما تبدأ منه أمر العناية بالتدبيرات الصحية ، فأنشئت للجامع صيدلية خاصة وعين له طبيب منقطع لعلاج طلابه والكشف عليهم بالمجان ٠

ولم يكن باليسير تنظيم أعمال التدريس بغير تنظيم أوقات العمل والمرتبـات ، اذ لم يكن للأزهر مورد محصـور عند المراجع الرسمية ، يصرف منه على المرتبات الكافية لمدرســيه المعتمدين ، فسعى الشيخ محمد عبده عند الوزارة لتخصيص مبلغ من ميزانية الدولة تنفق منه على الدراسة فى الازهر ، وكانت حجة الشيخ على المستشار المالى ــ الانجليزى ــ الذى كانت له الرقابة على الميزانية أن الأزهر يخرج الموظفين لدواوين الحكومة من القضاة الشرعيين ، فالانفاق عليه واجب حكومى كالانفاق على مدارس الحقوق والشرطة والمعلمين ، وواصل الشيخ سعيه عند ديوان الاوقاف حتى أرصدت فى ميزانيته مبـالغ سنوية للجـــامعة الازهرية ، وكان من فتواه للديوان أن هذا المصرف جائز ، بل مفروض على الديوان ، فى مقدمة مصارفه الخيرية : وأولهـا الصرف على تعليم الدين واعداد الوعاظ والأئمة للمساجد التى تقام فيها الصلوات الجامعة ، فتوافر للأزهر مدد من ميزانية الحـــكومة وميزانية الاوقاف يكفى لتنظيم وظائف التدريس ورفع المرتبات الى مســتواه اللائق بطبقة العلماء ، وأقله فى مبدأ الأمر لا يقل عن اثنى عشر جنيهاً مشاهرة ، عدا الاعانات

المرصدة من بعض الاوقاف الخاصة ، ومنها أوقاف السكن والجراية ٠

وتقرر تدريس العلوم الحديثة مع الترغيب فيهـــا بالمكافأة الحسنة ، والترشيح لوظائف القضاء والتعليم ٠

ان المصاعب التى وجب تذليلهـا لوضع هـذا التغيير موضع التنفيـذ أطول شرحا من وجوه الاصـــلاح بكل ما اقتضاه بحثها وترتيبها والمضى فى تنفيذ قوانينها واجراءاتها ، ولكن القارىء الذى لم يشهد ذلك العهد قد يتمثلها أمامه كلما تذكر الموانع التى كانت تعترض هذا التغيير ، وتذكر القوى الظـاهرة والخفية التى كانت تدعم تلك الموانع وما تستطيع أن تثيره من زوابع القلق والسخط فى أنحاء العـالم الاســـلامى بما رحب ، فضلا عن جوانب الازهر وجوانب المدينـة المصرية ، والقرية المصرية ، التى عرفنـا علاقتها المتأصلة بذلك المسجد العتيق ٠

من تلك الموانع منافع الشيوخ الذين رفعت أيديهم عن موارد الاوقاف ، وامتنع عليهم جاه التصرف بكساوى التشريف ومنازل العلماء فى المجتمع وعند ولاة الأمور ٠

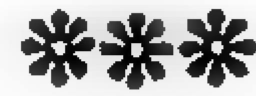
ومن تلك الموانع لبانات المقدمين على الأروقة وأهواؤهم التى انقضى زمانها بانقضاء زمان التحكم فى الجرايات والمساكن والطلاب والعلماء ٠

ومنها جاه العلم الذى ضاع على زمرة « السلفيين » الجامدين بعـد أن حفظوه لأنفسهم دون « الدخـلاء » عليهم من رجال العلوم الدينية والعلوم «الدنيوية» على السواء ٠

ومنها جيوش الطلاب والمتطلعين الى الطلب ممن أحسوا وعورة الطريق بعد اقترابهم من نهايتها الميسرة لهم على «النظام» القديم ، وقد يزيد عليهم فى العدد طلاب «الجراية» والمسكن بغير أمل فى نهاية قط على نظام قديم أو جديد ٠

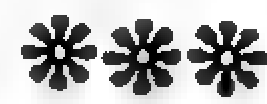
ومنها قوة الجهل المطبق والظن السيء في عقول الدهماء الذين سمعوا من « الأئمة » المصدقين أن القول بدوران الارض كفر براح ، وأن معلم الجغرافية مسخر من أعداء الدين ليعلم أبناء المسلمين أنها كرة مستديرة دوارة في الفضاء ، وأكفر منه من يعلمهم الطبيعيات ... لأن القول بالطبيعة انكار لوجود الله واثبات لوجود المخلوقات بطبيعتها دون وجود الخلاق .

ومنها ، ولعله يجمعها بحذافيرها ، سلطان ولى الأمر اذا أدرك بعد حين أن الاصلاح قد فوت عليه سلطانه وفوت عليه الغنيمة التي كان يجنيها لنفسه ويغدق منها الأجور على خدامه وحواشيه .



ونقول ان مناوأة الامير لحركة الاصلاح الأزهرية تجمع تلك الموانع والعراقيل بحذافيرها اعتبارا بما عهدناه من أساليب الأمراء والملوك في اضطهاد المصلحين من رعاياهم كلما وقع الصدام بين أرباب التيجان ودعاة الاصلاح منذ أقدم العصور ، فان الملوك والأمراء الذين يضيقون ذرعا بدعوات الاصلاح قد جرت عادتهم قديما باستفزاز رعاياهم واستثارة الجهلاء والمغرضين على قادة الرأى فيهم ، لمداراة سلطتهم واخفاء مكيدتهم وتمويه سياستهم على الناس ، كي يتقبلوها منهم كأنها استجابة لرجائهم وتلبية لمطالبهم وغيرة على عقائدهم وشعائرهم ، فيحمدهم الناس على شرورهم وهم أحرى أن يضاعفوا لهم المقت بما أصابوا من أفهامهم وعقائدهم فوق مصابهم في المصالح والأرزاق . وقد كان الملوك والأمراء يخدعون شعوبهم هذه الخديعة وهم وحدهم في بلادهم منفردون بسلطة الحكم وجاه الولاية، فأما الخديو عباس الثاني فقد كانت معه سلطة أخرى في بلاده أقوى منه وأقدر على كبحه والحد من مآربه وأطماعه ، فكانت حاجته الى استثارة الجهلاء باسم الدين تزيد على حاجة أسلافه من أهل بيته وحاجة الأسبقين من زملائه في أساليب الاضطهاد ، وقد

أسف غاية الاسفاف ، وتبذل غاية التبذل فلم يدع وسيلة يدرك بها مأربه لم يتوسل بها غير مبال بما يعقبها من الأثر على سمعته وسمعة وطنه ، بل على سمعة دينه البرىء مما يفتريه عليه وعلى أهله ، ولم يتورع ـ وهو أمير البلاد ـ عن التحريض على اثارة الشعب بين طلاب الأزهر وخدمته وعماله ، ولا عن تسخير الصحف التى تتجر بنهش الأعراض والمساومة على الفضائح والوشايات للافتراء على مخالفيه وهو أعلم الناس بنزاهتهم عما يدعيه . وخلع نقاب الحياء فلم يتورع عن اتهام الاسلام والمسلمين بكراهة العلم الحديث وتصوير العلوم التى أدخلها المفتى الى الأزهر فى صورة الجناية على الدين ، ولم يبال أن يعلنها حربا دينية بين الكفر والاسلام ، اذا تأتى له بذلك أن يقصى الشيخ محمد عبده وكبار الموظفين من أعوانه عن ادارة الأزهر كما يقصيهم عن الافتاء وديوان الاوقاف ، بل تطوع بالوقوف تحت العلم البريطاني لاستعراض جيش الاحتلال ، لعله يضمن بذلك أن يكف يد العميد البريطانى عن معارضته فيما يتعلق من تلك المسألة بالميزانية ونظام الدواوين !



ومن البديهى أن الخديو قد عول على الدسيسة الخفية فى تدبير هذه الحملة الواسعة على المفتى وأعوانه بمجلس الادارة ومجلس الأوقاف الأعلى ، ولكن الدسيسة التى يتآمر عليها عشرات من المغرضين والجامدين والمأجورين لا تكتم عن الناس فى أوانها وان جازت فيها المغالطة أو المكابرة بين أنصارها وخصومها ، الا أن التاريخ قد ينفض يديه من دسائس هذه الفترة جميعا ولا يحتفظ بشىء من أخبارها غير مراسيم الخديو وخطبه المنشورة التى ألقاها فى قصره ، ولا حاجة بالمؤرخ الى بيان للدسيسة كلها أوضح من بيانها .. فانها ناطقة بدعواها الظاهرة عن مكيدتها الخفية ، ودعواها الظاهرة أن تدريس العلوم الحديثة فى الجامعة الازهرية

خطر على الاسلام ، وأن المفتى وأعوانه قد أبعدوا من مناصبهم لأنهم يصرون على تدريس تلك العلوم ٠

قال الخديو فى الاحتفال بخلع الكسوة على الشيخ عبد الرحمن الشربينى شيخ الجامع الجديد :

« ان الجامع الأزهر قد أسس وشـــيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية تنشر علوم الدين الحنيفى فى مصر وجميع الاقطار الاسلامية ٠٠ وأول شىء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائدا فى الازهر الشريف ٠ والشغب بعيدا عنه ، فلا يشـــتغل علماؤه وطلبته الا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقـائد وشغب الافكار ، لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شىء » ٠

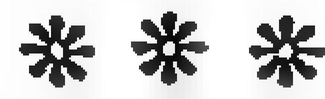
وقد صدرت المراسيم بعد خروج الشيخ محمد عبده باختيار شيخين من الحزب القديم لأكبر المنـــاصب الدينية ، وهما منصب الافتاء ومنصب مشيخة الازهر ، فعين الشيخ عبد القـادر الرافعى مفتيا للديار المصرية وعين الشـــيخ عبد الرحمن الشربينى شيخا للجامع الأزهر ٠ فأما المفتى فقد توفى على أثر تعيينه فلم يؤثر عنه عمل ولا قول فى برنامج التعليم الذى يرتضيه رجال العهد الجديد٠ وأما شيخ الجامع الأزهر فقد صرح برأيه فى حديث نشرته صحيفة الجوانب المصرية (١٣ مارس سنة ١٩٠٥) فقال عن رأيه فى الغرض من انشاء الأزهر :

« ان غرض السلف من تأسيس الأزهر اقامة بيت لله يعبد فيه ويؤخذ فيه شرعه ويؤخذ الدين كمـا تركه لنـا الأئمة الاربعة رضوان الله عليهم ٠ وأما الخدمة التى قام بها الأزهر للدين ولايزال يؤديها فهى حفظ الدين لا غير ، وما ســـوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهر به ولا ينبغى له » ٠

ثم قال عن اصلاح التعليم : « ان الذى حدث من شأنه أن يهدم

معالم التعليم الديني فيه ويحول هذا المسجد العظيم الى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفيء نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية .. واني أسمع منذ سنوات بشيء يسمونه حركة في الأزهر ، أو اصلاح الأزهر ، ولكنني لم أر لهذه الحركة وهذا الاصلاح من نتيجة تذكر سوى انتشار الفوضى في ربوعه » .

ثم قرن بين حركة الاصلاح والسياسة فقال : « اني رأيت الكثيرين من اخواني خدمة العلم في منصب المشيخة فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة وأشدهم فرارا من مظاهر الدنيا الباطلة » .



وهذا هو شرط « الأزهر » الصالح في عرف المشيخة التي اختارها ولي الأمر لتعتدل به من طريق الزيغ والشغب الى طريق الايمان والأمان !

معهد يستبد ولي الأمر بادارته وتعليمه ليستخدم سمعته الدينية في تعزيز سلطانه وتوفير ثروته ، ثم يكل المشيخة فيه الى أناس يريدونه في القرن العشرين مدرسة كبرى لا تعرف شيئا عن علوم « الأعصر » ولا تدري شيئا عن الدنيا والديوان ، لأن كل شيء عن الدنيا والديوان انما هو سياسة تترك لولي الأمر ولا يحسن برجل الدين ان يعرض لها من قريب أو بعيد !

ومن تمام العلم بهذه السياسة التي نعاها الشيخ الصالح على المفتي وأصحابه أن نذكر أنها سياسة في صميم العمل الأزهري ، لأنها سياسة المحاكم الشرعية ومساجد العبادة والتدريس ، وقد كانت من صميم السياسة التي أدخلها المفتي في برنامج الاصلاح بعد ولاية الافتاء ، وعلى أساسها تم الاصلاح اليسير الذي سمحت به الأحوال بعد ذلك بسنوات ، ولكنه لم يسلم قط من

دسائس الخديو وخلفائه في دور التعليم وفي دور التوظيف فقد كان من أصعب الأمور تخريج قضاة يحكمون فى المواريث ويبرمون العقود والمواثيق وينظرون فى مشكلات الأسرة والوصاية على التركات وهم لا يعرفون شيئا عن الحساب والرياضة وعن نظم الادارة وتقاليد الدواوين ، وكان أصعب من ذلك حرمان طلاب الأزهر من وظائف المحاكم الشرعية قضائية وكتابية وهــم ألوف يتخرجون بلا عمل ولا يستعدون بتعليمهم الأول لوظائف التدريس فى المدارس الاميرية أو الأهلية ، وقد كان الخديو أشد المعارضين لانشاء المدرسة الخاصة التى يتخرج منها القضاة الشرعيون ، ولكنه كان لا يبالى أن يعلن الوعد بانشائها على حدة يوم كانت المسألة عنده مسألة الحملة على تدريس العلوم العصرية فى الأزهر ، فقال فى خطابه الذى تقدم ذكره عن تاريخ القضاة الشرعيين : « انه ستنشأ له مدرسة مســتقلة يقصدها كل من يحصل على شهادة العالمية فى الأزهر ويريد التوظف فى القضاء » .

وبهذا الوعد الذى أعلنه وهو ينوى المراوغة فيه خيل اليه أنه يسكت طلاب الأزهر وعلماءه عن تحريم العلوم العصرية وعن تخريج القضاة والموظفين الشرعيين من مدرسة خاصة ، غير الجامعة الأزهرية !

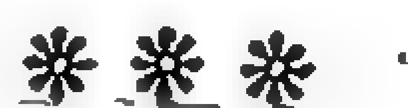
أما اصلاح المساجد فقد كان مشروعا من مشروعات الاصــلاح الكثيرة التى عنى بهــا ذلك الرجل المغضوب عليه ، لأنه لا يترك موضعا للاصلاح بمكان يسند فيه اليه عمل ، ولو كان من أعمال الاستشارة والمراجعة .

كان المفتى بحكم وظيفته عضــــوا فى المجلس الأعلى لديوان الأوقاف ، ومن عملها الاشراف على مساجد العبادة والتعليم فى الاقاليم فكان أول ما نظر فيه انشاء ادارة مستقلة بالديوان تسمى ادارة المساجد وتتخصص لتعيين الأئمة والمدرسين فى مساجد المدن والقرى

التى تتسع لالقاء الدروس على مثال الدروس العصرية بالجامعة الأزهرية ، ولزم من ذلك ان ترصد النفقات لتدبير الوسائل الصحية فى المساجد وما يلحق بها من أماكن الوضوء ، وأن يختار الأئمة من العلماء الأزهريين الذين يصلحون للخطابة والتعليم ونشر التربية العصرية من طريق الوعظ والارشاد ، وأن ترفع مكافآت الأئمة والوعاظ من جنيه واحد أو جنيهين فى الشهر الى المرتب الذى يتناسب طبقة العلماء والمدرسين ، واشتمل التقرير المتقدم الى المجلس الأعلى بديوان الأوقاف على تفاصيل لهذه اللائحة ــ لائحة المساجد ــ تبسط الغاية من هذا المشروع لولاة الأمور ، وهى تزويد البلاد بقوة من قوى التربية الاجتماعية واليقظة الوطنية ، تحقق للأمة مقصدا لا يقل فى أثره الواسع عن أثر المدارس والجامعات .

ولو كتب لهذا المشروع ان ينفذ على الوجه الأمثل لحلق تلك العناية فى مدى سنوات ، ولكنه لم يكد ينتهى الى علم الخديو قبل عرضه على المجلس الأعلى ، حتى تحركت دواليب الدسيسة لاحباطه والتشهير به فى كل مكان ، ولم يكن من السهل أن يجترىء أحد على التشهير بمشروع كهذا المشروع لا يختلف فى نفعه رأيان ، ولكن الحجة التى لا يسندها الرأى قد تسندها حروف المواثيق المطوية فى أضابير الديوان ، وليس فى تلك المواثيق نص على المباخر الصحية ولا على دروس التربية الاجتماعية ، وليس لكل مسجد وقف محبوس عليه يكفى لمرتب الامام العالم وتكاليف الدراسة العامة ، وقد يجوز للناظر على الأوقاف عامة أن يرصد تكاليفها جملة ولا يفرقها أجزاء ينفصل بعضها عن بعض بادارته والاشراف عليه ، ويجوز له أن يتمم النفقة على المسجد بالنفقة على سائر الخيرات التى لم يقيدها الواقفون بوجه من وجوه الانفاق غير وجوه الاحسان ، ولكن الناظر العام على الأوقاف يصنع ذلك اذا كان من همه أن يصنع الخير حيثما وجد السبيل اليه ، ولكنه يقف عند كل حرف من حروف الحجج المطوية

اذا كان من همه غير ذلك أو كان من همه ـ على عكس ذلك ـ أن يغلق الباب دون كل مشروع من هذه المشروعات العامة تتحول اليه مصارف الأوقاف وتخرج بذلك من قبضة يديه ، وقد كان القاضى الأكبر فى القاهرة لذلك الحين يتولى منصبه بالارادة السلطانية من دار الخلافة العثمانية وكان ينفس على المفتى رأيه فى استقلال مصر عن السيادة التركية ، وينقم عليه فوق ذلك مكانته فى البـــلاد الاسلامية وهو فى رأى نفسه أولى بتلك المكانة من مفتى القاهـــرة التابعة لمقر الخلافة فى الآستانة ، فلم يكن أيسر من حمله على الحكم بمخالفة المشروع لشروط النظارة واحتجاجه على تنفيذه بغير اذن من صاحب الولاية الشرعية ، ولم تكن شئون المساجد مما يعرض على الوكالة البريطانية لأنها من صميم المسائل الدينية التى تعهـــدت باجتناب المساس بها فيما أعلنته من سياستها العامة ، ولكن ولى الأمر الشرعى أرســـل اللائحة الى دار الوكالة ، ثم أبلغها احتجـــاج القاضى الأكبر عليها ، وأراد مرة أخرى أن يأباه الدين ويخشى أن يعرضه لاستنكار دار الخلافة وتدخل الوكالة البريطانية ٠٠ !



أما الرجل المغضوب عليه لأنه مصاب بداء الاصلاح ٠٠ فقـــد لاحقه ذلك الداء العضال الى عقر داره بعين شمس ، ففارق الجامعة الأزهرية وهو يفكر فى خطته الأولى التى اقترحها على أستاذه السيد جمال الدين فى مقتبل صباه ، وراح يعد العدة لافتتاح مدرسته الى جوار بيته لتخريج الدعاة ورسل الاصلاح ممن يتقبل دعوته ويؤمن بمقاصده ، وتمت العدة لذلك ، أو كادت ، لو لم تدركه المنية قبل موسم العمل ، فقضى نحبه صيف ذلك العام بعد اعتزاله ادارة الأزهر بثلاثة شهور ٠

مع عباس الثاني

في سيرة محمد عبده شخصان مهمان كان لكل منهما أثر كبير يفرد بالكتابة عنه في تاريخ حيـــاته العملية : همـــا جمال الدين الأفغاني وقد تقدم الكلام على أثر التعاون بينهما في دعوة الاصـــلاح وحركة النهضة ، وعباس حلمي الثاني خديو مصر بعد الاحتـــلال البريطاني ، وسنقصر الكلام عليه في هذا الفصل ملتزمين فيـــه ما يستطاع من الايجاز ٠

كان جمال الدين مثلا للقوة المؤيدة الموجبة ، وكان عبـــاس الثاني مثلا للقوة المعطلة السالبة : أولاهما قوة روحية مستمدة من عظمة الاستاذ وعظمة تلميذه في وقت واحد ، وثانيتهما قوة مادية مستمدة من سلطان المنصب وظروف السياسة ، يكاد الذكاء في صاحبها أن يكون لغوا لا يذكر فيما يعنينا من هذه السيرة ، لأنه لا يقدم ولا يؤخر في مركز الحكم الذي يستعين به الحاكم على المقاومة والتعطيل ، فكل حاكم في مركز عباس الثاني كان مستطيعا أن يصنع ما صنعه في خصومته للأستاذ الامام ٠

* * *

جلس عباس حلمي على الأريكة الخديوية بعد أبيه «محمد توفيق» خديو الثورة العرابية ، وبعد جده اسماعيل الذي عزلته دول الرقابة الثنائية ــ انجلترا وفرنسا ــ بموافقة السلطان العثماني صـــاحب السيادة الشرعية على البلاد ٠

وكان دون الثامنة عشرة حين توفى أبوه ، فوجب أن تفرض عليه الوصاية الى أن يبلغ سن الولاية . وكان السلطان العثمانى هـــو « صاحب الاختصاص » باختيار الوصى أو الأوصياء • ولكن المحتلين تدخلوا فى الأمر واحتالوا على اتقاء هذا الاشراف الفعلى على الدولة المصرية • فحسبوا السنين بالحساب الهجرى رعاية لدين الأمير ودين الخليفة ، وانحلت الازمة على هذا النحو حلا يرضاه الأمير ويبغضه ، لأنه يعفيه من الوصاية ويثبت له غلبة النفوذ البريطانى على شئون السياسة العليا فى بلاده •

جلس على عرشه وهو مقسم النفس بين هذين الشـــعورين ، ولكنهما فى الواقع ينتهيان الى شعور واحد بسطوة الاحتلال وافتياته على حقوقه وحقوق الدولة التى يتلقى أمر التعيين « بفرماناتهـــا الشاهانية » •

وملكته حماسة السن بين الحذر والاندفاع فغلبت فى نفســه الفتية نزعة التحدى على نزعة الحذر ، وواجــه المحتلين بالمعارضـــة التى لم يألفوها من أبيه بعد اعترافه لهم بحماية عرشه ، فأقبل عليه أنصار الحركة الوطنية من المتطرفين والمعتدلين ، وحف به أبناء الجيل الجديد من أنداده فى السن ومن الشبان الذين يكبرونه سنا ولكنهم لم يشهدوا صدمة الاحتلال ولم يحتملوا خيبة الثورة العرابية •

وكان للأمير الشاب رأى صائب فى الثورة العرابية وفى مسلك أبيه معها ومع المحتلين •

كان بطبيعة الحال ينفر من الثوار ويسميهم بالعصاة كما يسميهم جميع أبناء بيته ، ولكنه كان يتقبل العذر من بعضهم لأنه كان لا يبرىء أباه من بعض الخطأ ومن بعض الضعف فى علاج الثورة وعلاج الأزمات الأجنبية ، وكثيرا ما سمع فى بداءة حكمه وهو يسخر من أبيه تلك

السخرية التى عابها عليه لورد كرومر فى كتابه عنه ، ويقول لمحدثيه: سامح الله الوالد الطيب • لو كنت فى مكانه لما فعلت هذا •• أو لو كنت فى مكانه لما سمحت نفسى بذلك !

ورأيه هذا فى أبيه هو الذى أنساه ممالأة الشيخ محمد عبده للثورة فى دورها الأخير ورغبته فى الاطلاع على تاريخ لتلك الثورة يكتبه رجل يعرف أخطاء الثوار ويعرف أخطاء ولى الأمر ، عسى أن يستفيد لنفسه من تجربة الحوادث التى عرضت أباه للثورة وعرضته وعرضت الثوار معه لكارثة الاحتلال •

وفى احدى المقابلات التى لم تكن قليلة بينه وبين الشيخ محمد عبده شكا الأمير للشيخ ما يلقاه من عنت المحتلين وحجرهم عليه وعلى وزرائه ووقوفهم دون ما يرجوه لبلده من الخير والقوة ، فاغتنم الشيخ هذه الفرصة السانحة وذكره بما يستطيعه من أسباب الخير والقوة معا فى المعاهد التى له الولاية عليها ولا ولاية عليها للمحتلين ، وهى معاهد الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، فراقه حديث الشـــيخ وكلفه أن يعود اليه بشرح مستفيض لوجوه الاصلاح المطلوب ،وانتقل برنامج الاصلاح فعلا من تلك الفتوى المهملة — فتوى الشيخ الانبابى — الى العمل الحثيث على تنفيذ مطالب الاصلاح الازهرى فى الادارة والتعليم ، ومضى العاملون فى عملهم الناجح بضع سنوات ، تغيرت فيها سياسة الخديو مع المحتلين ، فلقى منه المصلحون شر ما يلقاه دعاة التقدم من دعاة النكسة والجمود •

***

وتبين بعد الوقعة الكبرى بين عباس الثانى والمحتلين أن النزاع كله فيما بينهم انما كان نزاعا على نفوذ الحكم ولم يكن نزاعا عـــلى حقوق الأمة ولا على مبادىء القضية الوطنية ، وأن عباسا كتوفيق ، واسماعيل من قبله ، ينازعون السيطرة الاجنبية باسم الأمة تارة واسم

الحقوق الدستورية تارة أخرى ولا يعنيهم فى الواقع الا أن يستبدلوا سيطرة فى أيديهم بسيطرة فى أيدى الدول الأجنبية، ومن طلب منهم الحكم النيابى وشجع الأحرار من رعيته على طلبه فانما يتخذ الحكم النيابى حجة على الدولة البريطانية عند شعوبها لأنها تؤمن به فى بلادها ، ويلتمس من وراء ذلك أن يحكم من وراء النواب والوزراء ويستعيد لنفسه كل سلطانه المحدود ، أو يستعيد القليل من الكثير فى مسائل التولية والعزل ومسائل الصرف والمنح على الخصوص ٠

وقد جرب طلاب الدستور أساليب اسماعيل وتوفيق فى هذه المناورات ثم جربوا أساليب عباس بعدهم فتكشف لهم عن ولع بالاستبداد فى عباس لم يتكشف لهم مثله من أبيه وجده ٠ لأنه لم يكد يظفر بقليل من السلطان على عهد سياسة الوفاق بعد عزل لورد كرومر حتى انقلب على شيعته وشيعة الحركة الدستورية ، فساقهم الى السجن واحدا بعد واحد ، ثم ألجأهم الى المنفى باختيارهم فرارا من السجن والمصادرة ٠

ولاح له شبح العزل بعد الوقعة الكبرى بينه وبين المحتلين فقنع بالقليل الميسور ، واستعاض عن وفرة السلطان بوفرة المال يتهافت عليه حيثما وجد السبيل اليه ، بل ظهر للأمة قصارى أمله من المحتلين بتسمية الحزب الذى ينتمى اليه ويرصد صحيفته للدفاع عنه فى جميع أطواره وتقلباته ٠٠ فقد سماه « حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية » ايذانا للمحتلين بالتسليم لهم بدعوى الاصلاح والقناعة منهم بالمبادىء الدستورية دون الدستور الكامل على أساس سلطة الأمة ولم تذكر فى عنوان الحزب كلمة عن الاستقلال ولا عن الحرية الوطنية كأنهما على الأقل مطلب مؤجل الى ما بعد الفراغ من اصلاح الأداة الحكومية الذى ارتهن به المحتلون موعد الجلاء ٠٠ فلا جلاء اذن وفى

الأداة الحكومية خلل يأخذونه ويدعون علي هواهم أنه لا يزال بحـاجة الى الاصلاح •

***

وقد أشرنا الى الوقعة الكبرى التى كانت نقطة التحول فى سياسة الخديو عباس الثانى مع المحتلين ، فنذكر فى هذا السياق أنها هى الحادثة التى اشتهرت بحادثة الحدود واصطدم فيها الخديو بسردار الجيش المصرى ـ الجنرال كتشنر المشـــهور ـ لأنه صرح للسردار بانتقاده لحركات الفرق العســكرية ووجه انتقاده ـ على الأكثر ـ الى الفرق التي يقودها الضباط الانجليز ، فاستقال السردار وطلبت الوكالة البريطانية ترتضيه ، واضطرب الخديو الى استرداد كلماته وتوجيه ثنائه الى الفرق التى أعلن انتقادها عند عرض الجيش على الحدود ، ففعل راغما وهو يعتقد أنه نجا من خطر العزل بقبول هذا الارغام •

حدث هذا فى أوائل سنة ١٨٩٤ •• وقبل نهاية السنة كان الشيخ محمد عبده على اتصال بالخديو يزوره فى قصر عابدين ـ مقر العمل الرسمى ـ تارة ويدعى لزيارته أحيانا فى قصرى القبـــة والمنتزه حيث يقضي الخديو سائر أوقاته فى أعماله غير الرسمية ، وكان يصحبه في مبدأ هذا الاتصال محمد ماهر باشا الذى كان يدعى يومئذ ببطل حادثة الحدود ، لأنه كان وكيلا لنظارة الحربية وكان على نزاع دائم مع السردار حول اختصاص الوكيل والقائد العام فى شئون الجيش وادارة الاستعلامات السرية ، وقد اصطحبه الخديو فى رحلته الى الحدود وشاع بعد ذلك أن الجنرال كتشنر تعمد خلق الأزمة والتهويل فيها لأنه غضب من اصطحاب الخديو لخصمه واعتبره انتصارا له عليه •• فبيت النية على خلق الأزمة التى تزج بالدولة البريطانية فى الخلاف بينه وبين الوكيل والتسليم له بالرأى النافذ فى الجيش وفى ديوان الوزارة •

قال « أحمد شفيق باشا » فى مذكراته وهو من رجال الحاشية الخديوية وكان فى صحبة الخديو أثناء هذه الرحلة : « ترجع حركة الاصلاح الحديثة فى الأزهر الى أواخر سنة ١٨٩٤ . وذلك أن الشيخ محمد عبده لما رأى من عباس جرأته وجهاده للأخذ بناصية الحكم والحد من تدخل الانجليز مال اليه وتقرب منه بواسطة محمد ماهر باشا ، فاستقبله عباس بترحاب وعطف ومال اليه أيضا لما آنسه فيه من صدق الوطنية وأصالة الرأى ، وتقابلا مرارا بصفة غير رسمية فى عابدين والقبة والمنتزه ، وتحدثا فيما يمكن عمله من خدمة الوطن وتحقيق أمانيه ، فاقترح الشيخ عليه أن هناك ثلاث نواح لا تزال بعيدة عن تدخل الانجليز ولا يعارضون الخديو فى العمل لاصلاحها لأنها دينية محضة ، وهى الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، وأشار على سموه أن يبدأ باصلاح الأزهر واتفقا على أن يقدم الشيخ الى سموه مذكرة بما يراه من وجوه الاصلاح ».

وكتب الشيخ محمد عبده المذكرة وانتهى البحث فيها الى تأليف مجلس الادارة من خمسة أعضاء ، ثلاثة منهم هم أكبر علماء المذاهب فى الأزهر وهم : الشيخ سليم البشرى المالكى والشيخ عبد الرحمن الشربينى الشافعى والشيخ يوسف الحنبلى ، والعضوان الآخران هما الشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ محمد عبده من العلماء المعينين لوظائف الحكومة .

ولكن الشيخ عبد الرحمن الشربينى أنكر مبدأ الاصلاح من أساسه ، فاستقال قبل شروع المجلس فى عمله ، ولم يقبل بعد ذلك عملا فى ادارة الأزهر الا بعد اجماع النية على اقصاء الشيخ محمد عبده عن مجلس الادارة والعودة بالأزهر الى منهجه القديم ، فاختاره الخديو لمشيخة الأزهر ـ كما تقدم ـ على هذه النية .

تلك كانت قصة الملتقى التاريخى بين أعظم رجلين فى مصر لذلك الحين :

أعظم رجل فى مصر بعرشه الموروث وولايته الشرعية وحقوقه الرسمية ·

وأعظم رجل فى مصر برجاحة لبه ومتانة خلقه وعلو همته وصدق غيرته على حرية وطنه والنهوض بأمته ·

أراد الأمير بتقريب الشيخ اليه أن يستعين به على تعويض السلطة التى انتزعها الانجليز منه بسلطة فى مجاله المأمون لا تمتد اليها يد الانجليز، وأن يقيم الحجة عليهم فى دعواهم التى يلهجون بها ويتذرعون بها لتسويغ رقابتهم على دواوين الحكومة واطالة أمد الاحتلال ، وهى دعوى الاصلاح ، فان الادارة التى تنقل الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية من الفوضى الى النظام لا تعجز عن اصلاح ديوان من دواوين الحكومة قديم عهد بالنظام « العصرى » مهما يعرض له من عوارض الاختلال ·

وأراد الشيخ بالتقرب الى الأمير أن يسند ولى الأمر فى محنته مع السلطة الأجنبية ، وأن يستفيد من رغبته فى العمل سندا للمصلحين وعونا له على رسالته المرجوة من قديم ، وليس بين يديه — بعد عودته من منفاه — مجال أنفع من هذا المجال من طريق الايمان الصادق والتعليم المفيد ·

***

ولكن الخديو لم ينس حب السلطة الذى ساقه فى الحقيقة الى طريق الاصلاح فى هذا المجال الواسع ، ولم يلبث أن علم أن رجلا كالشيخ محمد عبده جدير أن يعينه فى كل مهمة من مهام هذا العمل الكبير ، الا أن يكون عونا له على تسخير الأزهر ومحاكم

الشرع ومرافق الاوقاف للسلطة التي تفعل ما تشاء ، لأنها خلصت في هذا الجانب من قيود المحتلين •

واشتد طغيان هذه الآفة على نفس الأمير بعد اضطراره الى مصانعة المحتلين ، فانه أراد له مجالا لا يلجأ فيه الى مصانعة أحد من رعاياه المسخرين له من باب أولى ، ولجت به هذه الآفة لجاجها المخيف حين زين له فقدان السلطة أن يتهافت على جمع المال من كل مورد مفتوح بين يديه ، ووجد هذا المورد مفتوحا على مصراعيه في خزائن الاوقاف ووصايا التركات وفي احتكار السيطرة على المحاكم الشرعية التي يتخرج قضاتها من بين يديه •

ولم تمض فترة التمهيد للاصلاح والتنظيم في مجال الدواوين الدينية حتى كان للخديو مسلك آخر مع الشيخ محمد عبده وأعوانه ومريديه • فهو يستبقيه للانتفاع بقدرته وشجاعته ، بل للاحتماء بمكانته الدينية أحيانا في وجه السلطة الأجنبية ، ولكنه يحاذر أن يسلمه زمام التصريف والتدبير في مركز من مراكز الأزهر المستقلة ... فتخطاه في التعيين لمشيخة الأزهر مرتين ، وكان ترشيحه لمنصب الافتاء في الواقع حيلة مستورة لابعاده عن المشيخة ، وهو أجدر بها وأقدر على الاصلاح فيها من كل من تولاها على عهد الخديو عباس ، وهو أعرف برجحانه عليهم من سواه •

وسر آخر بعيد جدا من هذا المجال يرجع اليه هذا المسلك المتبدل من جانب الأمير •

فانه كان يطمح الى الخلافة ويريد أن يستمد من سمعة الأزهر وعلمائه في العالم الاسلامي سندا دينيا يرجحه على أمراء المسلمين الذين ينفسونها على السلاطين العثمانيين ، وكان يرجو من مصانعة المحتلين أحيانا أن يعاونوه بالسند السياسي وأن

يؤيدهم فى المحيط الدولى بين سبفوا الايطالى صديق الاسرة العلويه القديم . ومصلحته فى ترشيح الخليفة المصرى أن تدين له اليمن وشواطىء البحر الأحمر لأنه سيكون الخليفة المطاع . ولا يأبى المحتلون هذه المصلحة للدولة الايطالية ، لأنها دخلت معهم فى المساومة على أملاك الدولة العثمانية واتفقت معهم على نصيبها من المستعمرات : اليمن وأرتريا والصومال ، فضلا عن مصلحة الدولة البريطانية بين مسلمى الهند وغيرهم في قيام الخلافة فى بلد يهيمنون عليه ، ولم يغفل عبد الحميد — باقعة آل عثمان — عن هذه المساعى الخفية ، بل فطن لها واحتجز عنده جمال الدين الأفغانى لكيلا يعود الى القاهرة ويؤيد هذه الحركة بنفوذه ونفوذ تلاميذه من المصريين والشرقيين . وحدث لما قام الخديو عباس بزيارة دار الخلافة للمرة الأولى أنه التقى هناك بجمال الدين فاستدعى هذا اليه على الأثر وسأله : أتريد أن تجعلها عباسية ؟ يريد أنه يتآمر مع الخديو على اسناد الخلافة اليه . فكان جواب السيد : ان الخلافة ليست خاتما فى يدى أضعه فى اصبع من أشاء ، ولم يفقد عباس الأمل فى الخلافة بتأييد جمال الدين أو غير جمال الدين ، ولم يخف عليه أن « محمد عبده » هو زميل جمال الدين فى سمعته العالمية بين المسلمين ، ولكنه علم بعد ذلك موضع الخلاف بين جمال الدين ومحمد عبده فى خطة السياسة ، وان هذه الجهود السياسية حول الخلافة وما شابهها لا تجرى مع برنامج عمله وليست مما يصرفه عن خطة الاصلاح من طريق التربية والتعليم متى وجد السبيل اليها ، فيئس من موافقته على هذا المسعى ، وكاد أن يحسبه عقبة يتخطاها قبل توطين النفس على نجاحه بموافقة سواه .

❊ ❊ ❊

ولا نسهب فى احصاء حوادث الخلاف التى تتابعت بين

الخديو والمفتى واستحكم من أجلها الجفاء فى النهاية بين هذين الرجلين اللذين خلقا للتعاون فى هذا المجال الواسع لو كان للتعاون محل بين الاستبداد والعمل المستقيم ، فان من حوادث تلك السنين سفاسف وصغائر لا جدوى من تعدادها ، ومنها دسائس ومكايد ليس أيسر من المواربة فيها ؛ ولكننا نذكر منها ما يدل على طبيعتها التى يأباها كل اصلاح ، ولا ينتظر من رجل ذى خلق وكرامة أن يغضى عنها أو يترخص بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين الناس ، فى قبولها .

فالخديو كان ينفق من أموال الأوقاف العامة على أوقاف أسرته وعلى مزارعه الخاصة ، فكف يده عن ذلك فصل الحسابين ومراجعة المجلس الأعلى للمصارف والموارد فى « ميزانية الديوان » ... ولجأ الى الحيلة — مع تشديد الرقابة على الميزانية — فاصطنع طريقة الاستبدال لحمل الديوان على اقامة المبانى وتعمير الأرض البور وعرضها بعد ذلك للمبادلة بينها وبين مزارعه التى لا تساويها فى القيمة ولا فى الجودة ، وكان أشهر هذه الصفقات صفقة أرض « مشتهر » وأرض ديوان الأوقاف التى أعدت للبيع فى الجيزة بثمن أرض البناء ، وفرق ما بينهما من الثمن لا يقل عن ثلاثين ألف جنيه ، وظاهر الأمر أنها مبادلة بين مسيو باسمه زرفوداكى اليونانى الذى عرض على الديوان مزرعة مشتهر باسمه وقسم المبانى فى الديوان ، ولسوء حظ الخديو أن موظفا من كبار موظفيه فى القصر كان مندوبا عن ولى الأمر بالمجلس الأعلى فكان رأيه كرأى المفتى فى هذه الصفقة وآراء الخبراء المختصين بتقدير المبادلات ، وثبت من معاينتهم أن هناك نقصا فى تقدير أحد البدلين وزيادة فى تقدير البدل الآخر تبلغ جملتهما خمسين ألف جنيه ، فغضب الخديو على موظفه الكبير وعزله من خدمته لأنه لا يسأل عن سبب عزل الموظفين فى ديوانه ،

ولكنه لم يستطع عزل المفتى لهذا السبب ولا كان فى حدود سلطته القانونية أن يعزله لغير سبب ، فتمحل الأسباب للسخط عليه فى غير مسائل الصفقات التى يتحاشى أن تثار للقيل والقال .

وكادت أوامره فى الأزهر أن تكون الغـــاء تاما لقوانينه التى وضعت لترقية أحواله وصيانة الكرامة الواجبة لعلمائه ومنع العبث بدرجاته العلمية ومراتبه الدينية . فلم تكن كساوى التشريفة لعلمائه بأسعد حظا من الرتب والنياشين التى كانت تبـــاع فى الأسواق بأسعارها المحدودة لكل درجة من درجاتها . سوى أن الرتب والنياشين تباع بالمال وكساوى التشريفة تباع بالخدمات والسعايات فى سوق الدعاية أو سوق المتاجرة باسم الدين ، وان لمن أغرب الخواطر التى خطر للخديو أن يسوم المجلس عليهـــا أن يرسل الى أحد الأعضاء من يقترح عليه الاستقالة ويأمر رئيس المجلس أن يطلب كسوة التشريفة من الدرجة الأولى لامام قصره تمهيدا لتعيينـــــه خلفا للعضو المســـــتقيل ، وبهذا يتطوع المجلس لتحويل هيئته الموقرة الى أداة تجرى أهواء الخديو ولباناته مجرى القوانين وتحوى تبعاتها أمام الناس على الرغم من أنوف المخالفين له من الأعضاء ، ولا يبقى بعد ذلك أعضاء ينتظر منهم الخلاف غير محمد عبده وصاحبه عبد الكريم سلمان . فلما تأخر صدور الطلب من شيخ المجلس بالانعام على امام القصر بالكسوة المطلوبة قال له مؤنبا فى محفل التشريفات : ألم آمرك بتوجيه كسوة التشريفة الى امام معيتى بدلا من الشيخ الذى ينوى أن يستقيل ؟ فتلعثم شيخ الجامع وبادر الشيخ محمد عبده الى الجواب قائلا : ان المجلس انما يعمل بالقانون الذى أصدره سموه ، فاذا بدأ لسموه أن ينقضه ليجرى الانعام بالكساوى العلمية على حسب رغبات سموه الشخصية فهو صاحب الشأن فى اصدار القانون بالنظام الجديد .

وأكبر الظن عندنا أن تفويت المنافع لم يلهب من ضرام الغيظ فى نفس الأمير ما ألهبه هذا الجواب الصريح من مفتى الديار . ومن مفتى الديار هذا ؟ انه عند العالم الاسلامى أكبر مقام دينى علمى فى زمانه ، ولكنه عند الأمير لا يعدو أن يكون فلاحا بين ألوف الألوف من أولئك العبيد الأرقاء الذين خلقوا للسمع والطاعة عند كل أمر وكل سؤال .

واذا صح أن يكون ضرام الغيظ عذرا للمتسلط المستبد المغلوب على استبداده فهذا هو العذر الذى قد يفسر ذلك الاسفاف الذى هبط بالأمير الى الدرك الأسفل فى حقده على ذلك الفلاح الجرىء واستباحة ما لا يستبيحه الكريم ، ولا اللئيم العاقل ، فى الكيد له والسعى الى اجلائه عن مقامه : مقامه فى منصبه ، ومقامه فى أعين الناس بين مشارق الأرض ومغاربها ، ولم يكن ليخفى عليه انه كان أعظم مقام فى بلاد الاسلام .

ولولا الحقد الذى يسلب المرء رشاده لما سمح أمير فى مركزه أن يخطب علانية ليجعل العمل على انهاض المسلمين بالتعليم الصالح زيغا فى العقيدة ومروقا من الدين ، وليسند مشيخة الجامعة الاسلامية الكبرى الى رجل يقول ان تعليم هذا العلم يمحو الدين ويزرى بعلماء المسلمين .

ولولا هذا الحقد لما استباح لنفسه أن يحبط كل عمل لذلك المصلح الكبير حتى العمل الذى جهد فيه جهده طول حياته لابراء المسلمين من داء الخمول وانقاذهم من الأوهام التى تعوقهم عن اللحاق بجيرانهم فى ركب الحضارة لسوء فهم الدين واختلاق الموانع التى يزيفها الجامدون باسم الشرع المظلوم .

فقد كاد المسلمون الاسيويون أن ينعزلوا عن سكان افريقية الجنوبية ويفقدوا وظائفهم وأشغالهم فيها لشيوع تلك

الأوهام بينهم وكثرة المرجفين بالتحريم والتحليل بين أدعياء الدين فيهم ، وقد تعاقبت على تلك البلاد هجرة المسلمين من الهنود والعرب واختلاطهم بأبنائها الأصلاء ، فدخل فى الاسلام طوعا ألوف من الافريقيين السود لما أنسوه من سماحة هذا الدين وسلامته من شوائب المحظورات التى تكثر فى عباداتهم كما تكثر فى عبادات بعض الأوربيين والأسيويين ، ثم حالت هذه الحال زمنا بعد ازدحام بالأوربيين وخضوع أكثرها لحكوماتهم أو جماعات التبشير منهم ، فتحرج المسلمون أنفسهم من مجاراة أولئك الغرباء الطارئين عليهم، وقعدت بهم وساوسهم الدينية عن كفاح الحياة معهم ، تحرجا من مجاراة القوم فى عاداتهم وأزيائهم ، وخسر الاسلام زمنا ما كان يكسبه من سهولته وقلة قيوده فى أحوال المعيشة قبل وفود الأوربيين ، فأعرض عنه أبناء البلاد الأصلاء وهانت مخالفته على طلاب الرزق الذين تضطرهم مطالب العيش الى مشاركة الأوربيين وغير المسلمين الأسيويين فى مرافق أعمالهم ، ومن ذا الذى يقوى على زحام العيش فى بيئة يخشى فيها ان يلبس القبعة وأن يتناول الطعام من العلب المحفوظة وأن يؤدى الصلاة فى مسجد له امام على غير مذهبه بين المذاهب الأربعة ؟

هذه وأمثالها كانت عوائق المعيشـــة ، بل عوائق التدين بالاسلام ، فى معترك الحياة بين المسلمين وجيرانهم من سكان افريقية الجنوبية والشرقية ... وفى هذه وأمثالها كانت أسئلة الاســـتفتاء تتوارد على مفتى الديار المصرية فيجيب عنها وهو يعلم خطر الاجابة التى يجيب بها من يجهل ظروفها وعواقبها ، وكانت احدى هذه الفتاوى تلك الفتوى التى شغلت صحافة مصر ، وصحافة العالم الاسلامى ، عدة أشهر باسم فتوى الترنسفال ، ونتيجتها فى بضعة أسطر ان الشيخ المفتى أباح للمسلم أن يلبس

القبعة وأن يأكل من طعام أهل الكتاب كما ورد في القرآن الكريم، وأن يؤدى الصلاة وراء كل امام يدين بالاسلام .

هذه هى الفتوى وهذه هى ظروفها وعواقبها التى نظر اليها مفتى مصر فى اجابته عنها .

ولم يبح المفتى عادة واحدة كان يحرمها الخديو وحملة الأقلام الذين سخرهم فى الحملة الشعواء على فتوى الترنسفال ، فانهم كانوا جميعا يلبسون القبعات ويأكلون فى المطاعم الأوربية وفى بيوت الأجانب ويغشون الولائم « الرسمية » وغير الرسمية داخل القطر المصرى وخارجه . ومن شهد منهم صلوات الجمع فانما كان يشهدها ومعه مئات من المسلمين من أتباع المذاهب الأربعة ... ولكن الفتوى عمل من أعمال المفتى يجب احباطه والتشهير به وتنفير الناس منه مهما يكن فى ذلك من الضرر بالاسلام والمسلمين . وقد يكون في ذلك اعراض الوطنيين السود عن الاسلام بعد اقبالهم عليه ، وقد يكون فيه تعويق لجهاد المسلمين المهاجرين عن كفاح الحياة فى افريقية الجنوبية مع سائر المهاجرين الذين تعفيهم عقائدهم من تلك القيود ، وقد يكون فيه استخفاف المسلم بتكاليف دينه اذا تقلت عليه فى لبسه ومأكله وعبادته مع أبناء ملته ووطنه ، وقد يكون فيه المساس بسمعة الدين بين أهل الحضارة وتمثيله لهم فى صورة العقبة المتحجرة التى تأبى على المسلم أن يجتمع على معيشة واحدة مع أبناء الحضارة الأوربية ... وقد يكون فيه كل ذلك ، بل كان فيه كل ذلك لو أفلح كيد المضللين كما أرادوه . ولكن ماذا يعنيهم ذلك كله اذا اشتفت صدورهم من الرجل المغضوب عليه وأفسدوا عليه عمله فى خدمة الاسلام والمسلمين أو فى خدمة ما يشاء من مقصد عام ، ماداموا لا يجدون له مقاصد خاصة يفسدونها عليه ؟

الى هذا الحضيض أسفت جماعة الحملة على فتوى الترنسفال ، ولا نظن أن نقل الكثير أو القليل من كلامهم الذى ملئوا به الصحف بضعة أشهر يزيد القارىء علما بمبلغ ذلك الاسفاف ، فان الاتجار باسم الدين لمحاربة الدين هو عنوان عملهم الوضيع ، وانه لعنوان يغنى عن أسوأ ما كتبوه تحته من كذب فاضح وهراء مرذول .

واخس من هذا الكذب وهذا الهراء أن يسبوا عرض الرجل بالتهم التى يعلمون أنهـا باطل مختلق لأنهم هم الذين اختلقوه وروجوه . فقد كان قراء الصحف المصورة لذلك العهد يجهلون الكثير عن صناعة التصوير الشمسى التى يعرفها اليوم عامة القراء ويحسنها بعض هواة التصوير كما يحسنها الخبراء المختصون بتدبير المناظر للصحافة المصورة .. ومن أسرار تلك الصناعة التى كانت مجهولة يومئذ عند عامة القراء أن يلفق المصور رسما واحدا من ثلاثة رسوم أو اربعة متفرقات ، فهذا التلفيق هو الذى توسلوا به الى خداع العامة بصورة للمفتى في حلبة الرقص يخاصر فتاة افرنجية وكلبها يعبث بأطراف جبته ، ولو استطاعوا المبالغة فى رص المحظورات جميعا فى منظر واحد لتمموا هذا المنظر بكأس من الخمر وصفحة من لحم الخنزير ، ولكنهم عجزوا عن جمعها فاكتفوا من المحظورات بمحظور المفتى مع امرأة يغازلها ويراقصها ويصحبها كلبها فى حلبة الرقص على غير المألوف فى مراقص القوم . وخيل اليهم أنها ريبة لا تدفع ودليل من أدلة الاثبات لا يدحض ، ولكن الصورة احيلت على التحقيق القضائى فلم تثبت على امتحان الخبراء ولا على المعالجة بأدوات التحليل والتكبير ، وأدين صاحب الصحيفة التى قبلت أن تنشرها لهم بين صحف الخلاعة التى سخروها لحملتهم ، واسمها « حمارة

منيتى » يغنى عن المزيد فى الدلالة عليها ... والى قصة هذه الصورة يشير اللقانى رحمه الله فى بعض أبياته اذ يقول :

مكيـــدة لفقـوها بصورة مســتعارة
وبروهــــا وكانوا بقبة الاستشــارة
ولطخوا بعـد هــذا بالطين وجـه الحمـارة

ويعنى بالقبة قصر الأمير المعروف ، لأنهم دبروا فيه هذه التلفيقة وكاد سرها أن ينكشف بين أيدى القضاة والمحققين ، لولا ضرورة التستر على مقام الأمير الهدد بهذه الفضيحة .

ودون هذا الحضيض من الابتذال فى حق أمير يهدده الاحتلال فى كرامة عرشه أن يذهب فى مساومة المحتلين الى حد الاعتراف باحتلال بلاده واستعراض الجيش المحتل فى ساحة قصره والوقوف تحت العلم البريطانى يوم الاحتفال بعيد ملك الانجليز ، تزلفا منه الى العميد البريطانى ليغضى عن تصرفه بالوظائف الحكومية التى تحده القوانين عن محاسبة موظفيها بغير ادانة يثبتها التحقيق ، ومنها وظائف المندوبين الحكوميين بمجلس ادارة الأزهر ، ووظيفة الافتاء التى يصدر بها قرار التعيين والعزل من وزارة الحقانية .

وكانت مجلة المنار التى تنشر فتاوى المفتى هى الصحيفة الوحيدة التى انتقدت هذا المسلك المعيب ، فكان الجواب عليها من سماسرة الحملة على فتوى الترنسفال سيلا من الشتائم والمغالطات وتمجيدا لموقف الأمير تحت الراية البريطانية يوشك أن يحسبه فتحا له من فتوح الوطنية والاستقلال ، وعلى هذا النحو كتب كاتبهم فى صحيفة المؤيد يقول « أولا » عن مجلة المنار : « ان صاحبها يملؤها بالاختلاقات الشرعية » ثم يقول :

« لم يدر صاحب جريدة المنار الذى ان خرج عن مدار

بحثه ضل وان دخل فى غيره ذل ان الجناب العالى وقف تحت ذلك العلم بحضرة جلالة الملك ادوارد السابع ملك الانكليز وامبراطور الهند ولم يكن جناب اللورد كرومر فى ذلك الموقف الا صورة من صور الملك التى يمثله بها فى هذا اليوم مائة قائد فوق كرة الأرض ... وينكر صاحب المنار استعراض الجناب العالى لعساكر جيش الاحتلال مشيرا الى اكتفاء المغفور له الخديو السابق بالاشراف عليه من نوافذ القصر ، كأنه لم يدر أن مولانا الخديو الحالى حفظه الله عسكرى النشأة يرتدى فى الأعياد والمواسم والكسوة العسكرية ، وهو عالم بدقائق الحركات الحربية بحيث لو أخذ بيده قيادة جيش جرار لكان من أمهر قادة عصره . وماذا يريد بقوله وقف الجناب العالى تحت العلم الانكيزى فى أول يوم من شهر الصيام ؟ وأى دخل للأيام والأيام اخوة والليالى أخوات ولم يعلم بأن مائة مليون من المسلمين يحيون هذا العام فى ذلك اليوم يوم الاستعراض (١) » .

ولم تشذ عن خدمة الدسائس الخديوية فى هذه الحرب الشائنة بينه وبين المفتى صحيفة واحدة من الصحف التى كانت تنعت نفسها بنعت الوطنية بين متطرفة ومعتدلة أو محافظة على القديم وغالية فى المطالبة بالتجديد .. وبلغ الكتاب أجله واستقال الشيخ محمد عبده من مجلس الادارة وجىء بأعداء العلوم الحديثة شيوخا للجامعة الاسلامية ومدبرين لنظام الادارة والتعليم فيها ، فانتظم المتطرفون والمعتدلون صفا واحدا فى الثناء على أعداء الاصلاح والشماتة بالمفتى المستقيل ، وراح أشد هذه الصحف تطرفا يقول انه تأخر فى الاستقالة لأنه كان من الواجب عليه أن يتخلى عن عمله منذ علم أن « ولى الأمر » متغير عليه .

---

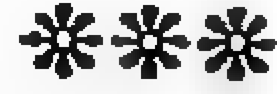
(١) عدد ١١ يناير ١٩٠٥ من صحيفة المؤيد بتوقيع ابراهيم المويلحى .

وليس هؤلاء الصحفيون من الغباء بحيث يجهلون حكم الفضلاء عليهم وحكم التاريخ من بعدهم اذا علم الناس أنهم فى القرن العشرين يستنكرون التعليم الحديث باسم الدين . فنقلوا المسألة بحذافيرها من حرب بين الاصلاح واللصوصية الى حرب بين المفتى والسلطة الشرعية ، وحسبوا عجز الخديو عن فصل الموظف الكبير بغير محاكمة تأديبية دليلا على تأييد الاحتلال الأجنبى لذلك الموظف الكبير ، ومثله فى حماية القانون ونظام الدواوين لهم ألوف الموظفين .

أما المسألة بحذافيرها في وضعها الصحيح فهى أن المفتى لم ينتفع بحقه فى وظيفته لجر منفعة شخصية أو ترويج سياسة بريطانية أو التفريط فى حق من الحقوق الوطنية ، فاذا كان سماسرة القصر يريدون أن يقولوا ان اصلاحه للتعليم وتطهيره للدواوين ونهوضه بأبناء وطنه وأبناء دينه عمل يوافق الاحتلال ولا يوافق الوطنية فذلك هو الخزى الأكبر لمن يفتريه ، لأنه يدمغ الوطنية بميسم الهوان ويدعى للاحتلال فضلا يسقط حجة الوطنى عليه ولا يطمع فى ادعائه بألسنة مأجوريه .

وانما الخيانة للوطن ذلك الجرم المهين الذى أقدم عليه الخديو ودافعوا عنه دفاع المستميت يوم وقف تحت العلم البريطانى ليحيى جيش الاحتلال ، وأقبح منه فى الاجرام أن يقترف هذه الجريمة فى حق وطنه وحق عرشه ليتوسل بها الى حمل الانجليز على الاغضاء عنه حين يتعرض لوظائف الحكومة التى يحميها القانون ، وأقبح من كل هذا ان يكون هم الأمير من التعرض لتلك الوظائف خيانة الأمانة وسلب المال الحرام وتلويث موظفيه الكبار بلوثة الجبن والاختلاس . اما الموظف الذى يعمل فى تلك الوظيفة ما يشرفه ويشرف أبناء وطنه ودينه فلا جناح عليه أن

يحسن ويسىء الأمير وتابعوه ، وانما يسيئون الى أقدس المقدسات من حرمات الحق والفضيلة .

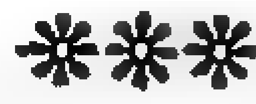


ولسنا فى مقام الموازنة بين وطنية محمد عبده ووطنية عباس الثانى وسماسرة قصره ، فاننا بهذه الموازنة نهبط بقدر الرجل العظيم الذى لا نعرف فى زمانه قدرا أحق من قدره بالتشريف والاكبار ، ولكننا نزيد هذا الشرف بيانا لمن يجهلونه بمثل من أمثلة كثيرة لمواقفه الى جانب الخديو حين يعتدى عليه المحتلون وحين ينظر الخديو حوله فلا يرى له سندا أقدر على حمايته من مكانة الشيخ فى العالم الاسلامى ومن شجاعته التى لا يعنيها اغضاب الانجليز منه ، وهو لا يأمن غضب الأمير عليه .

ونحن فى هذا الكتاب الموجز لا نملك الاسهاب حيث يغنينا الايجاز المفيد ، وحسبنا — على قاعدتنا هذه — حادث واحد هو الحادث الذى استهدف فيه الخديو لأشنع اهانة تلحق بصاحب عرش من العروش فى بلاده ، وهو حادث ليون فهمى الذى أدى الى صدور الأمر من الوكالة البريطانية بتفتيش قصر راس التين بحثا عن ليون فهمى هذا لاتهام الانجليز اياه بقتله في قصره او اخفائه هناك لتقييده ونقله على الرغم منه الى الآستانة ، اجابة لطلب « المابين » او قصر السلطان عبد الحميد .

يومئذ لجأ الأمير الى حمى الشيخ وصائب رأيه ، فلباه ورجاه أولا أن يستوثق من خلو القصر ويخت المحروسة من ذلك الطريد العثمانى ان كان حقا مقبوضا عليه ، ثم أشار عليه بأن يكتب بلاغا الى معتمدى جميع الدول المعترفين باستقلال مصر بأن السلطة المحتلة تعتدى على حرم قصره ، وأن يبلغ المحتلين فى الوقت نفسه أنه يفعل ذلك اذا هم اجترءوا على تنفيذ أمر

التفتيش . فتراجع الانجليز حذرا من اثارة هذه القضية الدولية بطلب من صاحب السلطة الشرعية ، ويقينا بأن المابين العثمانى يؤيد هذا الطلب الذى وجهه الأمير الى الدول بسببه ، ويقينا من الجهة الأخرى بتأييد الرأى المحترم من أبناء البلاد لأميرهم وعلى رأسهم مفتى الديار الذى يهابون اجتماع فتواه الدينية الى جانب الوثائق القانونية ، واعتقادا منهم أن الأمير لا يهددهم هذا التهديد وفى قصره ذلك الطريد الذى يبحثون عنه .



وفى ختام هذا الفصل ننشر بعض الفقرات من خطاب الخديو الى موظفه الكبير أحمد شفيق باشا حين علم انه مشى فى جنازة المفتى مع كبار المشيعين ... فبعد أن سمح أدب العرش لذلك الأمير المسكين أن يقول عن فخر وطنه بعد وفاته — لو كان يعقل — « انها جنازة حارة والميت كلب » مضى يقول :

« يظهر — والله اعلم — أنكم أردتم بالسير وراء نعشه المجاملة بعد الموت ، وهو على ما تعهدونه عدو الله وعدو النبى وعدو الدين وعدو الأمير وعدو العلماء وعدو المسلمين وعدو أهله ، بل وعدو نفسه ، فلم هذه المجاملة ؟ .. (١) » .

ان هذا الانتقال من اخلاق الفلاح محمد عبده الى اخلاق الأمير عباس الثانى مفاجأة شديدة الوقع على النفوس الآدمية التى ينتمى اليها الفلاحون كما ينتمى اليها الأمراء ، ولكنه فى ختام هذا الفصل أصدق من تسويد الصفحات باشتات الوقائع

(١) مذكراتى فى نصف قرن لاحمد شفيق باشا .

والأخبار وصنوف الدسائس والوشايات للدلالة على كنه الخلاف بين الرجلين وعلى طبيعة تلك العداوة المزرية وطبائع خدامها الذين باعوها ضمائرهم فى سوق المنافع أو فيما هو شر من سوق المنافع: سوق الحسد البغيض والغرور الباطل .

وقد ذهب محمد عبده وعباس الثانى الى ذمة التاريخ ولحقت بهما الأسرة الخديوية بقضها وقضيضها ومعها منافعها التى تباع الضمائر من أجلها ، ولكن باعة الضمائر هؤلاء هم أسلاف فى النسب أو أسلاف فى العمل لخلفائهم الذين عاشوا ويعيشون بعدهم الى هذه الأيام ، وحاجتهم الى مداراة انفسهم كحاجة أسلافهم فى زمانهم ، كلما أعيد القول فى قضايا الاصلاح وقضايا الجهاد عادوا الى الستار القديم يتوارون خلفه وأعادوا معاذيرهم تهما للمخلصين وتبديلا لوقائع التاريخ وافتياتا على الوطن والدين ، وسيماهم على وجوه صفحاتهم لا تخفى على الناظرين .

المحسن المعلم

ان الاحسان الى ذوى الحاجات فضيلة من أشرف فضائل العظمة الانسانية وأقربها الى الصفات الالهية ، لأنها قوة فى العظيم تعمل عملها فى اعانة الضعيف ولا تعمل عملها فى اذلاله وارغامه ، على ديدن العظمة التى قد توصف بأنها قوة فرد عظيم ولكنها لا تنسب الى الانسانية ولا تسمو الى مقاربة الصفات الالهية .

وقد كان الاحسان الى المعوزين والضعفاء أول صفة من صفات الأستاذ الامام يعرفها من يعاشرونه فى معيشته ولا تقتصر معرفتهم به على المعرفة بأعماله العامة ، ولكننا — على حبنا للأستاذ الامام من أجل هذه الفضيلة بعينها — نكاد نستصغرها فى كتابة سيرته ، لأن اطعام هذا الجائع واغاثة هذا الملهوف وتلبية الرجاء من ذلك الطالب واسداء المال الميسور الى ذلك الفقير — كل أولئك خير وبر وكرم ، ولكنه — فى النهاية — بر من واحد الى آحاد ، لا يكاد يذكر الى جانب ذلك الخير العميم الذى ترى من أعمال الرجل فى جملتها أنه يغدقه على الدنيا بكل ما أوتى من قدرة وهمة ومضاء ، وأنه يدأب نهاره وليله ولا يكاد يفرغ لنفسه ساعة من النهار والليل وهو يفكر فى ذلك الخير ويعمل لذلك الخير ويسعد ويشقى فى سبيل ذلك الخير ، ولا يقنعه منه أن يختص به محتاجا الى القوت أو مفتقرا الى المعونة أو شاكيا من الظلم ، الا أن يكون خيرا للأمم ، وخيرا للعالمين ، وخيرا لتوفير السعادة الانسانية التى لا يخطر بباله وهو يدأب لها أنه يستثنى منها أحدا من بنى آدم وحواء .

وخصلة أخرى يحسب الناظر الى احسان هذا الرجل أنهـــا

خليقة أن تغض من فضله فى هذه الفضـــيلة العالية ، وتلك هى صدورها منه كما تصدر الدوافع الضرورية التى تملك على الانسان مشيئته ولا تكاد تبقى له مشيئة يملكها بها أو يقاومها فيها ، فان دوافع الاحسان فى نفس هذا العظيم الكريم أشبه شىء بدافع الحنان فى نفس الأب الرحيم ٠ وأى فضل للأب الرحيم فى عطفه على طفله الجائع أو طفله الباكي أو طفله السقيم ؟

ان فضل هذه الفضيلة يستصغر فى هذه السيرة ليبلغ غـاية الكبر الذى تبلغه سجية انسانية ، فقل ان شئت أنه لا فضل لمحمد عبده فى احسانه الا كفضل الأب فى الاحسان الى البنين ، ولكنك اذن تشهد بالفضل الذى لا فضل بعده للرجل الذى تملكه رحمته بجميع الناس كما تملك الأب رحمته ببنيه ٠

كان محمد عبده يحسن الى صاحب الحاجة وهو فى منفـــاه فقير لا مورد له غير مرتبه من عمله ، وكان يحسن الى أصحاب الحاجة وهم من ذرية أعدائه المفترين عليه ، وكان يحسن الى المنقطعين عن الكسب وهو مريض محتاج الى ماله القليل لتدبير علاجه ومعيشته فى مقامه وسفره ، وكان يحسن اليهم وهو فى مرض الموت ، ويموت وفى ودائع سره صدقات للمستعينين به لم يكن يطلع عليها أحدا من أقرب المقربين اليه ٠

روى السيد رشيد رضا مما علمه من أخباره يوم كان منفيـا ببيروت : أن صاحبا له توفى والده وليس عنده ما ينفقه فى تشـييعه فأعطاه كل ما فى حوزته من مال وهو مرتبه الذى قبضه يومئـذ من المدرسة السلطانية ، ولولا أن رجلا فى مصر أحسن اليه مثل ذلك الاحسان قبل نفيه وفى له بدينه وحوله اليه على مصرف بيروت لاضطر الى القرض لينفق بقية الشهر على نفسه وأهله ٠

ولم تكن صحيفة الجوائب المصرية من الصــــحف التى تتطوع

لنشر مآثر المفتي وان لم تكن كذلك من الصحف التي سخرت للحملة عليه ، ولكن صاحبها خليل مطران كان يلقى علماء الأزهر كما يظهر من حديثه مع شيخه ومن الردود في صحيفته ، وكان يعرف بعض شواغلهم وشواغل الأستاذ الامام ، وهو الذي روى بعض مآثره في مقال تأبينه فقال عن بره بأعدائه الثائرين عليه : « ان أنجال المشايخ في الأزهر كانوا يتناولون مرتبات آبائهم بالوراثة فرأى الأستاذ في ذلك غبنا للعلماء لأن هذه المرتبات انما هي وقف عليهم ، فأعاده الأستاذ اليهم وعوض أنجال المشايخ عنها بما كان يجمعه بسعيه في رأس كل شهر من أمواله وأموال محبيه ، ولقد شوهد وهو ساع هذا السعي عقب اعتزاله الأزهر وقيام الشيوخ في وجهه محاربين »

وقد كانت له معونة شهرية لطائفة من الأدباء يأوون اليه ،ومنهم حافظ وامام والكاظمي والشنقيطي العالم اللغوي المشهور ، وهو الذي قال يرثي نفسه ويذكر معونة الامام له في غربته المنقطعة دون القادرين على المعونة في عصره :

تذكرت من يبكي على فلم أجد
سوى كتب تختان بعدى ، أو علمى

وغير الفتى المفتي محمد عبده
صديقي الصدوق الصادق الود والكلم

وكانت توصيته للمطابع ودور النشر من أقوى المشجعات على طبع الكتب القديمة والحديثة التي يعجز الأدباء عن الاستقلال بطبعها ونشرها ويستفيدون من تأليفها أو الوقوف على تصحيحها • لأنه ــ أجزل الله مثوبته ــ كان يتولى توزيعها على معاهد العلم ويرسلها باسمه الى مريديه من سروات الأقاليم وكبار موظفيها • وقد تسلم من حافظ أكثر نسخ البؤساء بعد صدور الجزء الأول ثم أسلم حافظا من ثمنها ما يكفيه سنوات ــ كما قال لنا حافظ ــ لولا أن

رزق السنوات لا يجاوز فى يدى حافظ مدى الشهور ، وهو الذى قال من قصيدته التائية فى رثائه :

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله

فأصبحت أخشى أن تطول حياتى

وصحيفة الصاعقة ـ كماينبىء عنها اسمها ـ ليست من الصحف التى تسخو بالثناء على أحد من الأحياء أو الموتى ، اذ كان مرصدة للهجاء الاجتماعى والنقد اللاذع صادقا أو غير صادق ، وكان صاحبها يلقب بالحطيئة الناثر لأنه كان كالحطيئة الشاعر يهجو نفسه وأقرب الناس اليه ، ولكنه بكى فيه تلك المروءة السخية التى كان هو من العارفين بجدواها ، فرثاه بمقال طويل افتتحه بهذا البيت :

اليوم نامت أعين بك لم تنم

وتسهدت أخرى فعز منامها

ثم قال :

« أما مروءته فليس أقوى دلالة عليها من خروجه قبل أن تخرج الشمس من غمدها وجيبه ممتلىء برقاع امتلأت بحاجات الناس فلا يرجع الى داره الا بعد أن يرجع الدهر عن معاكسة من وضعوا آمالهم فيه .. وكم نظر الله اليه فى جوف الليل وهو يمد يده بالحسنات الى الفقراء والمساكين ويعول أنفسا ماتت بموته اليوم » ؛

ولقد عرفنا نحن أناسا نظروا اليه فى جوف الليل يطرق عليهم الأبواب ويسلمهم ما قدر عليه من عاجل الصدقة ، وهو يقول لهم انه أمانة من جهات الخير يؤديها اليهم ولا يعرفهم بنفسه ، وكنا نسكن على خط المطرية التى كان فيها مسكنه فنسمع أخباره هذه مع أصحاب

البيوت الكريمة التى فقدت عائليها ، فلم يعرفوا أنه هــو ذلك الرسول الذى كان يطرق عليهم أبوابهم تحت جنح الظلام الا بعد أن افتقدوه على أثر وفاته ٠

وقد عهد أهله الى تلميذه الحميم السيد رشيد رضا أن يرتب أوراقه عند سفره الى الأسكندرية فوجد فى محافظ الأوراق صررا من النقود مكتوبا على كل منها اسم من يراد اعطاؤه اياها ٠ وسأله ـ وهو بعد العدة للسفر ـ عن الشاعر الكاظمى فذكر له أنه مدين ، فأسف لأنه لم يخبره بذلك قبل تصرف أخيه فى نفقة السفر ، لأن الكاظمى أحوج اليها ٠

ولو عرفت هذه الصدقات المستورة التى كان يبذلها أو يسعى فيها ويوصلها بيده وأيدى خاصته الى مستحقيها لظهر أنها شــغل حياة كاملة تستغرق العمر ولا تدع فيه فراغا لعمل سواها ، وعجب الناس كيف كان يدبر لها وقتها مع تلك الأعمال الجسام التى كان يضطلع بها ولا تقبل الانابة عنه فى أدائها ٠ ومثل هذا الشغلان بالاحسان فضل نادر فى حياة العظماء الذين كانوا يشغلون بمثـل شواغله ويلقون من المصاعب والعقبات بعض ما كان يلقاه من أعدائه وأعوانه فى أداء رسالته ، ولكنه على هذه الندرة لم يكن بالخاصـة المميزة التى تنطبع بها هذه لنفس بين أقرانها ونظرائها ، وانما يمتاز الرجل فى احسانه بتلك المزية التى انطبعت بها جميع صفاته وجهوده : وهى مزية المعلم المطبوع على التعليم ٠ وما كان التعليم فى مثل هذه الفطرة الا شيئا يعطيه من ذخيرة الفكر والروح ٠

فالشيخ محمد عبده كان رائد « الخدمه الاجتماعيه » فى وطنه قبل أن تعرف فى هذا الوطن وفى غيره « مصالح الخدمة الاجتماعية» التى سميت بعد ذلك بأسماء الوزارات والدواوين ، ولم يكن يقنع بما يسديه من الخير بيده حتى يكون هذا الخير فى مجاله الواسع

عملا عاما للمجتمع يتعود القائمون عليه أن يوطدوا له قواعـده ويتعاونوا على تنظيمه ويتكفلوا له بضمان البقاء بعدهم لمن يخلفهم عليه .

فالاحسان المستور ــ يدا بيد ــ عمل يستطيعه المحسن بينه وبين نفسه ويحمد منه أن يكتمه ولا يعلنه لغيره ، ولكن الاحسان في النكبات العامة لا يتأتى بغير التعميم والتنظيم وضمان الأمانة أو ضمان الدوام في غير الاغاثة الموقوتة التي تنقضي بانقضاء دواعيها ، وهذه هي مواطن الاحسان التي كان محمد عبده يبادرها في ساعتها كلما ألم بالبلاد داع من دواعيها ولا يظهر اسمه للناس الا كان مجرد ذكره ضمانا للثقة والطمأنينة ، وكان توجيه الدعوة باسمه ضمانا للموافقة والاجابة ، ثم يكون اشرافه على التدبير والادارة ضـمانا لانتظام العمل ودوامه .

فمنذ عاد محمد عبده من منفاه لم يتخلف قط عن الغوث العاجل للمستغيث في نكبة من النكبـات التي تصيب هذه البـلاد ويعقد عنها ولاة الأمر والقادرون على الاغاثة بالمال أو السلطان ، وكانت سنته في كل عمل من أعمال الغوث أن يندب له الجماعة من أهـل الكفاية والأمانة بين خاصة صحبه ، وأن ينهض هو بعبء تنظيمه ونشر الدعوة باسمه ، ولم يحدث قط أنه نهض بهذا العبء في عمل من تلك الأعمال الا كان نهوضه به أمانا من الفوضى والاختلال .

تركت حملة السودان في هذا البلد جيشا من الأيتام والأرامل والعاطلين وجرحى الحرب والمنكوبين لا عائل لهم ولا مورد لمعونتهم ، وأمسـكت الحكومة يدها عن كل معونة لهذا الجيش الزاخر لأنهـا اعتذرت بنفاد المال في نفقات الحملة وعجز الخزانة عن ترتيب المعاشات أو التعويضات بين مصارفها المحدودة ، فبادر الشيخ محمد عبده ــ وكان يومئذ قاضيا بمحكمة الاستئناف ــ الى تأليف هيئة خاصة

لحصر ضحايا الحرب وتنظيم المعونة لهم مما يتبرع به المحســـنون وتسهم به خزانة الحكومة وخزانة الأوقاف وغيرها من جهـــات البر والمساعدة ، وجعل قوام اللجنة من رجال القضاء وأهل الثقة من كبار الأغنياء ، وحرص على احاطة هذه الهيئة بالضمانات «الرسمية» لضبط مواردها ومصارفها على نظام الحســـاب المتبع في دواوين الحكومة ، وقامت هذه الهيئة بأمانتها على وجهها الأمثل ، ثم تبعتها الحكومة والجماعات الخيرية في طريقها ، بعد تمهيدها بهذه الفاتحة التي لم يكن لأولئك المنكوبين ــ لولاها ــ من مسألة يلتفت اليها .

واحترقت بلدة ميت غمر في أوائل صيف سنة ١٩٠٢ فبلغ عدد المنكوبين بالحريق أكثر من خمسة آلاف ، لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم ولا بين غنيهم وفقيرهم في الحاجة الى المأوى والطعام ، وقال الأستاذ الامام في وصف الحادث من بيانه الذي نشره على الناس في الصحف : « ليس الحادث بذي الخطب اليسير ، فالمصابون خمسة آلاف وبضع مئين ، منهم الأطفال الذين فقدوا عائليهم ، والتجـــار والصـــناع الذين هلكت آلاتهم ورءوس أموالهم ، ويتعذر عليهم أن يبتدئوا الحياة مرة أخرى الا بمعونة من اخوانهم والا أصبحوا متشردين متلصصين أو سائلين .. »

وقد بذل الأستاذ الامام من معونة الجمعية الخيرية الاســلامية التي كان يرأسها يومئذ كل ما تحتمله مواردها ، وألف لتعمير البلدة واغاثة أهلها جماعة كبيرة تمدها بالمال وتحث الناس على امدادها به في عواصم البلاد وقراها ، وطاف بنفســـــه على بيوت الأمراء والوجهاء وأصحاب الثروة يسألهم النجدة في حينها قبـــل فوات أوانها ، واستخدم كل وسيلة من وسائل الحض والدعوة يقـــدر عليها ، ومنها حث الشعراء على النظم في موضوع هذه النكبة وفي

طليعتهم شاعره حافظ ابراهيم الذى نظم فيها قصيدة قال فى أولها :

سائلوا الليل عنهم والنهارا
كيف باتت نساؤهم والعذارى

أين طوفان صاحب الفلك يروى
هذه النار ، فهى تشكو الأوارا

وقال منها يستنجد بالمنشاوى (باشا) فى سجنه :

أيهذا السجين لا يمنع السجـ
ـن كريما من أن يقيل العثارا

مر بألف لهم وان شئت زدها
وأجرهم كما أجرت النصارى

وهو يشير هنا الى أحمد المنشاوى (باشا) عميد القرشية الذى سجن يومئذ فى قضية لعبت فيها السياسة لعبها ، وكان من مروءته أيام الثورة العرابية أنه آمن الأوربيين الخائفين فى داره ، وسبق فى ترجمة الأستاذ الامام كلام عن صلة لأبيه بهذه الأسرة العريقة فى القرشية . وسنرى فيما يلى أنه كان أحد المحسنين القلائل الذين كان الأستاذ الامام يعتمد عليهم فى انجاز مشروعاته الاجتماعية . وقد جمع من أسرته ومن سائر الأسر الكريمة ألوف الجنيهات ، وذهب بنفسه الى ميت غمر ليشرف مع الهيئة المختارة على انفاقها فى تعمير القرية وتعويض أهلها .

ولقد كان أثر المحسن المعلم فى المؤسسات الباقية أبرز وأثبت من أثره فى هذه المساعدات التى تدعو اليها الحوادث الموقوتة

كحوادث الحرب وحادث الحريق وأشباه هذه الحوادث المرهونة بأوقاتها فأن المؤسسات الخيرية التى نشأت برعايته وهدايته كانت أثبت الجمعيات المصرية وأنفعها وأقدرها على أداء مقاصدها من محاربة الجهل والفاقه ولا تزال أكبر هـــذه الجمعيات فى مصر جمعيتـــان تأسستا بمعاونته وهدايته وعاشت منذ تم تأسيسهما نحو ســتين سنة تعملان وتتقدمان على هداه : احداهما الجمعية الخيرية الاسلامية والأخرى جمعية العروة الوثقى وقد سميت باسم جمعيته التى اشترك فى تأليفها وادارتها على البعد فى منفاه مع السيد جمال الدين ٠ وقد أسهم فى تأسيس الجمعية الخيرية الاسلامية ثم تولى رئاستها ٠ فزادت مواردها وأعمالها ضعفين فى سنوات رئاسته الخمس (من ١٣١٧ الى ١٣٢٢ هجرية) اذ كانت مدارسها أربعا فأصبحت سبعا ، وكان عدد تلاميذها (٣١١) تلميذا فأصبح (٧٦٦) وكانت تملك مائتين وثمانين فدانا فأصبح لها من الارض خمسمائة وثلاثة وثلاثون فدانا غير الموارد الأخرى التى ارتفعت فى جملتها من ٤٤٣٠ جنيهـــا الى ١٠٣٩٥ جنيها ٠ وازدادت ـ تبعا لذلك ـ قدرتها على التعليم بالمجان وترتيب المعونة للمعوزين

ولم يتسع عمر الأستاذ لاتمام المشروعات التى كان يفكر فيهـا ويهيىء الأذهان لاعداد أسبابها وضمان اقامتها ودوامها ، وكان يرجو أن يتسنى له اتمامها فى مدى قريب بعد الفراغ لها من بعض شواغله الأزهرية ، ولكنه فارق الحياة فى السنة التى اعتزل فيها مجلس الادارة الأزهرى بعد شهور من اعتزاله ، ويمكن أن يقال ـ على هذا ـ أنه ما من عمل من أعمال الخدمة الاجتماعية تم بعد وفاته الا كان من مشروعاته التى هيأ لها الأذهان ومهد لها الطريق وبدأ فعلا بالاستعداد لتنفيذها ، ومنها الجامعة المصرية التى كان يعنى بها أن « تقوم على تعلم العلوم وفقـا المناهج الحديثة وتسـهم فى تجديد الحضارة العربية القديمة » وقال عنها فيما نشره الأســتاذ

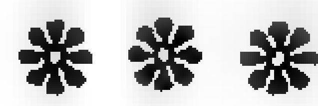
روجرفيل من وصيته بعد وفاته : «اذا نظرنا الى التعليم الذى تنشره الحكومة من حيث قيمته فلا بد أن نلاحظ أنه لا يكاد يقـــدر الا على تعليم رجل محترف بحرفة يكتسب بها عيشه ، ومن المستحيل أن يستطيع هذا التعليم تكوين عالم أو كاتب أو فيلسوف ، فضلا عن تكوين نابغة . وكل ما لدينا من المدارس التى تمثل التعليم العالى فى مصر انما هى مدارس الحقوق والطب والهندسة ، وأما بقية الفروع التى يتكون منها العلم الانسانى فقد ينال منها المصرى صورا سطحية فى المدارس الاعدادية ويكاد يكون من المستحيل أن يتقن منها شيئا وهو فى الغالب مكره على أن يجهلها جهلا دائما ، وذلك شأن علم الاجتماع وفروعه التاريخية والخلقية والاقتصادية ، وذلك شأن الفلسفة القديمــة والحديثة والآداب العربية والأوربية والفنــون الجميلة أيضا - كل ذلك مجهول لا يدرس فى مدرسة مصرية .. فلا ترى فى الطبقة المتعلمة الرجل الباحث ولا المفكر ولا الفيلسوف ولا العالم ولا ترى الرجل ذا العقل الواسع والنفس العالية والشعور الكريم ، ذلك الذى يرى حياته كلها فى مثل أعلى يطمع فيه ويسمو اليه (١) » .

وقد مرض الأستاذ الامام مرض الوفاة فلم يشغله المرض عن اعداد العدة لهذا المشروع الكبير ، وزار صديقه أحمد المنشاوى باشا واستزاره غير مرة للبحث فى وسائل بناء الجامعة وضـــمان الموارد التى ينفق منها عليها ، وخاطب وزارة المالية فى بيع عشرة آلاف فدان من ملك الحكومة يشتريها المحسن السرى ويسجل وقفها على بنـــاء الجامعة ومصاريفها مع ما يربط عليها من الوقوف والأرصـدة المالية ، ولم يتوان ذلك المحسن الوفى فى انجاز هذا العمل بعـد وفاة الأستاذ الامام برا بذكراه وتحقيقا لأمله : « وفى يوم السبت

---

(١) كتاب محمد عبده للدكتور عثمان أمين الاستاذ بجامعة القاهرة .

عاشر شـوال سنة ١٣٢٢ (١٩٠٥) كتب المنشـاوى باشا الى مجلس النظار كتابا يطلب فيه أن تبيعه الحكومة عشرة آلاف فدان معينة ليجعلها وقفا على مدرسة كلية يريد انشاءها فى ضواحى القـاهرة ويوقع عقـد الوقفية فى الوقت الذى فيه الماليـة عقد البيع .. حتى اذا ما انتهت الوسائل قضى الرجل نحبه فى الأسبوع الذى عين فيه موعد العقد .. (١) » .



ويشاء الله أن يبرىء هذه النفس الزكية من كل ملامة يتجنى بها المتجنى عليه فيما اختاره لنفسه من ايثار خطة التعليم والاحسان فى خدمة قومه على خطط خصومه المشغولين بسياسة الصحف والأحزاب . فما كانت لتعوزه — رحمه الله — زيادة لمستزيد فى بغض المكائد السياسية والايمان بفسادها وافسادهـا لكل ما تمتد اليـه من « اختصاصها » كما يقولون وغير اختصاصها ، ولكنه كان يخطو فى عمله خطوة بعد خطوة وكأنه بحاجة الى التذكير الجديد بلؤم تلك السياسة خوفا عليه من نسيانه .. وفى كل خطوة من تلك الخطوات كانت تبرز له الأدلة من هنا وهناك على استقامة خطاه واعوجاج الخطى من جانب خصومه : هنا نفع لا ريب فيه من خطة التعليم والاحسان وهناك ضرر لا ريب فيه من سماسرة السياسة يلاحقه فى أشرف أعماله وأكرم آماله ، فما من مشروع من المشروعات التى ذكرناها فيما تقدم سلم من الوشاية الخفية أو المكابرة الصحفية ولا تذكر المكائد التى

(١) ص ٩٤٧ من الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامام لصاحب المنار .

رصدت له فى مساعيه لطلب الكتب النادرة التى كان يعهد بطبعها الى جماعة أحياء الكتب العربية ، ولا المكائد التى رصدت له فى جمع التبرعات لمنكوبى حرب السودان ، ولكننا ندل على خمسة هذه المكائد بالاشارة الى أغربها وأبعدها عن التصديق : وهى وشاية الوشاة عند الوكالة البريطانية بالجمعية الخيرية الاسلامية لاتهامها بأنهـا تجمع الأموال لاعانة مهدى السودان وتزويده بالذخيرة والسلاح ، واجترائهم فى ذلك على تلفيق الأختام المزورة والبصمات المزيفة التى أقنعت دار الوكالة وأثارت شبهاتها فأمرت بتفتيش مكاتب الجمعيـــة ومراقبة مراكزها ، ولولا تصدى الاستاذ الامام لاحتمال التبعة فى كل ما يثبت على الجمعية من هذه الوشايات واجتهاده لكشف دخائل التزوير فى تلك الوثائق المزيفة لقضى على الجمعية فى مهدها وقضى معهـــا على حسناتها وصدقاتها .

المصلح الفيلسوف

من داب الايمان الدينى في الطبائع القوية ان يقارب بين الروح المثالى والفكر العملى ، على غير المألوف في أكثر المفكرين العمليين من غير المتدينين ، أو غير المؤمنين ايمان اليقين .

فان القيم الأخلاقية العليا والأريحية المثالية خيال يحلم المصلحون المثاليون بتحقيقه فى المستقبل ان صح أنه قابل للتحقيق فى وقت من الأوقات . ولكنه واقع مقرر فى كل وقت عند المصلح المؤمن ، لأنه مقترن بوجود الاله الكامل السرمدى فى كل لمحة من لمحات الزمن ، حاضر بحضوره فى كل مكان ، غير ميئوس من ادراكه بارادة الله وارادة خلقه مع صدق النية واستقامة الطريق على هداه .

وبهذا الايمان يتلاقى فى طبيعة المؤمن القوية هذان الخلقان اللذان يفترقان بين مثالى يخطىء طريق العمل وواقعى يرتاب فى امكان المثل العليا وسداد الأريحية الأخلاقية ، فهما خلقان متفقان تمام الاتفاق فى ضمير المصلح المؤمن بوجود الكمال المطلق فى كل وقت وكل جهة ، وهو وجود الله .

ونحسب أن هذا الاتفاق بين الخلقين هو أصح تفسير لتلك السجية البينة فى طوية مصلحنا العظيم : أمل لا حد له فى الخير وفهم للواقع العملى لا يضل طريقه بين الشعاب المتفرقة فى مسالك الاصلاح .

ولقد تصوف مصلحنا العظيم زمنا فى صباه ولا نخاله ابتعد من طريق المتصوفة الى ختام حياته .

وقد درس حكمة الفلاسفة النظريين كما درس فلسفة المعتزلة وعلماء الكلام ومذاهب الفقهاء من أسرى النصوص ومن أصحاب التأويل .

ولم يكن قط من «أهل الظاهر» الذين يأخذون بالحرف ويدينون بالتقليد .

ولكنه كذلك لم يكن قط من « أهل الباطن » الذين يفهمون « الباطنية » على أنها رفض للظاهر وانقطاع عن الواقع ونبذ للحياة وانصراف عن شواغل المعيشة التى يشتغل بها الأحياء فى دنياهم ، أو يحسبون الباطنية ضربا من « الدروشة » والمسكنة المختارة على مذهب المجاذيب من أبناء الطريق .

انما كان رفضه للظاهر رفضا للقشور وألوان الطلاء ، وكان بحثه عن الباطن بحثا عن حقيقة المعنى الصحيح من وراء اللفظ السقيم .

انما كان رفضه للظاهر المموه بحثا عن الواقع الذى خلص من التمويه ، فهو واقعى عملى فى صميم الواقع الذى يصلح للعمل النافع ، وهو يقترب من وسائل العمل كلما ابتعد من ظاهر الطلاء والتمويه فيما يتداوله الناس من الأباطيل ، وغيره على غير هذه السجية يبتعدون من حياة العمل الواقعية كلما أمعنوا فى البحث عن باطنهم المحجوب أو عن خيالهم البعيد .

فهو مصلح فيلسوف بكل ما شئنا من معانى الاصلاح والفلسفة .

هو مصلح يتصل اصلاحه بالتفكير كما يتصل بالعمل ، وهو

فيلسوف حين تكون الفلسفة حكمة يروض بها الحكيم نفسه على المسلك الذى ينبغى له كما يراه والغاية التى يسعى اليها كما هداه الفكر اليها . وهو فيلسوف حين تكون الفلسفة بحثا عن سر الوجود ورأيا فى كليات الحقائق يحيط بأجزائها ويستعان به على تفسير تلك الأجزاء .

وقد كان يفهم الفلسفة على هذا المعنى فى مستهل حياته العلمية حين كان المفكرون يفسرونها على وجوه مختلفة لا تطابق معناها . وكان يوما بمجلس على مبارك باشا وزير المعارف وفى المجلس من فضلاء المفكرين الدكتور يعقوب صروف محرر المقتطف، وكان بعض الصحف قد سمى كاتبا من كتاب العصر بالفيلسوف على غير حق في رأى الدكتور صروف ، فقال الدكتور : ان الناس قد ابتذلوا هذه الكلمة حتى صاروا يطلقونها على غير أهلها ، وتساءل الحاضرون من يكون الفيلسوف اذن على المعنى الصحيح؟ فقال الدكتور فى رواية الأستاذ رشيد رضا : هو الذى يتقن جميع العلوم ... قال الشيخ محمد عبده : اذن لا يوجد على الأرض فيلسوف . وعاد الدكتور يقول ما معناه : انه لابد أن يتقن علما من العلوم ويلم بسائرها ، فقال الشيخ محمد عبده : ان الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون من المدارس العالية ، وقبلها الثانوية ، على المام بالعلوم ويتقنون بعضها . فما أكثر الفلاسفة بين الأطباء والمهندسين والطلاب بهذا المعنى ! . ثم قال : ان الفيلسوف كما يفهمه هو الذى له رأى ومذهب فى العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه .

وبهذا المعنى الصحيح من معانى الفلسفة يتضح للأستاذ الامام مذهب فلسفى مستقل فى موضوع الفلسفة العامة وهو البحث عن الوجود أو البحث عما وراء الطبيعة على اصطلاح أكثر المحدثين ، وتتضح له مع هذه الفلسفة العامة فلسفة خاصة فى

سائر الاجتماعيات والعقليات : ومنها فلسفة الأدب والفن وفلسفة اللغة والبيان على الاجمال .

أما فلسفته فيما وراء الطبيعة فهى فلسفة متصوف اطلع على آراء الفلاسفة التى دار عليها البحث بين المتكلمين والمعتزلة وفلاسفة المسلمين ، ثم اطلع على أقوال فلاسفة الغرب فى العصور المتأخرة اطلاعا يمكنه من الجمع بينها وبين ما يشبهها من أقوال المتقدمين ، وقلما استحدث فيما بعد الطبيعة شيء من جانب المعاصرين لم يسبقهم اليه الأوائل فى أمهات المسائل ، وان أضاف اليه المعاصرون ما أضافوا من مصطلحات العلم الحديث .

واستقلال الشيخ محمد عبده بالفكر والنظر ، ثم استقلاله بالعمل فى الاصلاح ، يفردانه بمذهبه بين مدارس الفلسفة الاسلامية فلا يتيسر ضمه الى طائفة منها يسمى باسمها وينفصل بذلك عن سائرها .

فهو مع الفلاسفة والمعتزلة فى تحكيم العقل والقياس على المنطق والعلوم الكونية ، ولكنه يخالف راى الفلاسفة فى فهم معنى الوجود ومعنى العلوم بالنسبة الى الحقيقة الالهية ، ويخالف راى المعتزلة فى مجادلاتهم العقيمة حول مسألة الصفات وما تفرع عليها من الكلام عن خلق القرآن .

وهو مع المتصوفة فى رياضتهم النفسية والفكرية ولكنه يرى أن ألهام المتصوف « ذوق وجدانى » لا يجوز له أن يدين به غيره « ولا ينكر أن لهم أذواقا خاصة وعلما وجدانيا ... ولكنه خاص بمن يحصل له لا يصح أن ينقله لغيره بالعبارة ... فان هذا الذوق يحصل للانسان في حالة غير طبيعية ، وكونه خروجا عن الحالة الطبيعية لا يجيز أن يخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية » .

وشبيه بهذا رأى الطب — على قول ابن سينا — فى علاج

من كانوا يعرضون عليه من المصابين بمس الجن أو الأرواح الخفية. فانه كان يعالج الأعراض الجسدية بما يناسبها من الأدوية الجسدية ، ولا شأن له فى علاج الآثار الطبيعية بما كان لها من المؤثرات غير الطبيعية ، أيا كان منشؤها .

وقد يحيط بالفلسفة الالهية فى مذهب الأستاذ الامام من يقرأ تعليقاته على العقائد العضدية ومناقشته فى حاشيته للامام عضد الدين الايجى والامام جلال الدين الدوانى فى شتى المسائل التى تقوم عليها اليوم فلسفة ما وراء الطبيعة عند الفلاسفة المعاصرين . مضافا اليها مسألة الصفات التى لم يطرقها هؤلاء المعاصرون .

وأيسر من هذه الحاشية – لمن لا يقرأ كتب الفلسفة السلفية – رسالته القيمة فى التوحيد ، وتفسيراته للآيات القرآنية من دروسه فى الجامع الأزهر . وفيها بيان جلى لكل مسألة من تلك المسائل التى يقل فيها الجلاء ويكثر فيها الغموض فى كتب الأقدمين .

فاذا اردنا أن نجعل لفلسفة الأستاذ الامام حدا فاصلا بينه وبين مخالفيه من جماعة المعتزلة والمتكلمين والفلاسفة الأقدمين ... فالحد الفاصل هنا هو القدرة على حسم الجدل العقيم بالرجوع الى حكم العقل السليم ، أو هو القدرة العملية على حل المشكلات العقلية ، ولا سيما المشكلات التى لا داعى للاشكال فيها غير الوقوف عند اللجاجة اللفظية والعجز عن تقرير معناها ، أو غير التهالك على الزبد وترك ما ينفع الناس .

واقرب الآراء الى الأستاذ الامام آراء حجة الاسلام أبى حامد الغزالى رضوان الله عليه ، فهو قريب منه فى كل ما ابتعد به الفهم بينه وبين الفلاسفة او المعتزلة أو المتكلمين . وليس بينه وبين حجة الاسلام من خلاف يذكر الا كان – على

الأكثر — من قبيل الاختلاف فى الدرجة دون الجوهر . فان الأستاذ الامام لا يشتد على الفلاسفة اشتداد حجة الاسلام ، ولا يقول بالتكفير حيث يتأتى المخرج المقبول ، ولو ببعض الصعوبة فى التأويل .

ان « الاله » عند أرسطو هو المحرك الأول ... ولا تأتى الحركة منه لأنه أبدى لا أول له ولا آخر ، ولكنها تأتى من الهيولى التى هى المادة فى دور القابلية ، وانما تخرج من القابلية الى الكون بحركتها نحو الكائن الأول شوقا الى الكمال ، وهى فى كل حركة تتخذ لها صورة معينة تجعلها شيئا وتجعلها أقرب الى الكمال بمقدار خلوها من الهيولى وازدياد نصيبها من الصورة المحض التى لا مادة فيها .

أما الاله فى العقيدة الاسلامية كما يبسطها الأستاذ الامام فى كتبه المتقدمة فهو « الوجود الكامل المطلق » وكل ما عداه من المخلوقات فهو وجود ناقص محدود .

وكمال الله لا ينفى ارادة الخلق على قول أرسطو فى الارادة، ولا يقتضى قدم المخلوقات الناقصة المحدودة متفرقة أو متجمعة فيما نسميه العالم أو الكون ، ولا يمنع العقل أن يكون هذا العالم حادثا وأن يكون الله قد أحدثه من العدم بقدرته ، لأن القدرة هى امكان القادر مالا يمكن غيره ، ومعنى قدرة الخالق المطلق أنه يمكنه ما ليس بالممكن بغير قدرته المطلقة ، فلا وجه هنا للاستحالة مع الوجود المطلق الذى ليست له حدود .

وصفات الله التى يقتضيها الكمال واجبة وجوب وجوده على أكمل صفة ، فاذا جاء الشرع بصفات غير مستلزمة عقلا فلا يجوز للفيلسوف أن يرفض صفة من الصفات لا يمنع العقل نسبتها الى الكمال المطلق . ولا معنى للجدل العقيم فى استكناه

هذه الصفات لأن العقل الانسـانى لا ينفذ الى كنه شيء من الأشياء ، فضلا عن كنه الوجود الأوحد الذى ليس له مثيل يقاس عليه .

وللأستاذ الامام فى ذلك رأى كرأى الفيلسوف الألمانى عمانويل كانت فى استحالة العلم بالشيء فى ذاته Nemena ووقوف العلم الانسانى عند الظواهر Phenomenon مع التعبير عن هذا الفارق باصطلاح الأقدمين : وهو الفرق بين الكنه والعوارض ، اذ يقول من رسالة التوحيد عن غاية كمال العقل الانسانى انما هى « الوصول الى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الانسانى حسا كان أو وجدانا أو تعقلا ، ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها وتحصيل كليات لأنواعها والاحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها ، وأما الوصول الى كنه حقيقة ما فمما لا تبلغه قوته ، لأن اكتناه المركبات انما هو باكتناه ما تركبت منه وذلك ينتهى الى البسيط الصرف وهو لا سبيل الى اكتناهه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره » .

وليس قصور الانسان عن استكناه الأشياء فى ذواتها بحائل بينه وبين الاستعانة بعقله على المعرفة الدينية . فانه بهذا العقل يستعين على كل معرفة تعنيه وتنفعه فى مصالحه الدنيوية ، وعلم العقل الانسانى بقصوره يلهمه تفويض الايمان بمسائل الغيب. ومسائل الشرع التى لا يتطلبها العقل على صورة من الصور غير صورتها فى الدين ، كشعائر الفروض واعداد الركعات في صلوات العبادة ومقادير الزكاة وما اليها ، فان العقل يتقبلها لأنها ضرورية على صورة من الصور ، وليس له أن يرفضها على صورة دون صورة .

وبهذه القوة العاقلة فى الانسان يدرك ما يجب فى حق الله

وماليس بالممتنع فى حقه ، كما يدرك ما ينبغى للخلق كله فى جملته، وقصارى القول فيه أن الواجب فى حق الله هو الواجب فى حق الوجود الكامل المطلق ، وأن نهاية القول فى العالم كله أنه وجود مخلوق أو وجود محدود .

وتنجلى طبيعة المصلح العامل فى هذه الفلسفة الالهية التى اطمأن اليها من بين آراء الفلاسفة وعقائد المعتزلة وعلمـــاء الكلام . فلم يكن يعنيه منها أنها فلسفة تحل جميع المشكلات وتفسر جميع الغوامض وتفصل فى جميع القضايا المعلقة بين المفكرين الالهيين ، وانما كان يعنيه منها أنها تبطل الحيرة من اناحية العملية فلا تشغل العقل بما لاداعية للحيرة فيه . لانه على أى الآراء من ناحية الواقع سواء . وما لم يكن البت فيه جوهريا للعلم بحق الله وحق العالم المخلوق فالقيل والقال فيه لجاجة لا تجمل بالعقل وليس لها ضرورة فى عقائد الضمير .

فالوجود المطلق لا يحده الزمان لأنه يخلق الزمان ، ولا موجب اذن للحيرة في قدم العالم أو حدوثه ، لأن الله قادر على أن يخلقه مع الزمان ، ولا داعية لحيرة العقل فى أمر حدوثه وقدمه على هذا الاعتبار .

والذين يقولون ان البعث بالأرواح حتم يوجبون استحالة البعث بالأجسام فى غير استحالة معقولة ، لأن قدرة الله لا يمتنع عليها تبديل الجسد فى ابان الحياة ،ولا داعية للحيرة فى مقادير المادة التى تتألف منها الأجساد الحيوانية جميعا ، لأن الاله الذى خلق المادة ابتداء يخلقها كرة أخرى بما يشاء لها من المقادير .

ومسألة القدر — على أى معنى من معانيه — لا تلغى ارادة الانسان كما ينبغى أن تكون ارادة المخلوق المحدود ولا تبطل الجزاء كما ينبغى لتلك الارادة ، والعلم السابق بالتكليف والعقاب لايقتضى

بطلان الارادة النفسية ، لأن الانسان قد يريد عامدا ما يعلم أنه معاقب عليه • وإذ كان علم الله بعمل الانسان حقيقة فحقيقة مثلها أنه جعل له أرادة على قدر وسعه ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها على أية حال .

واذا بقى من هذه الخلافيات شيء لا تبطل فيه الحيرة فهو الشيء الذى يقضى العقل بالتفويض فيه الى الله . لأن فهمه والتسليم فيه للغيب سواء .

ويخيل الى قارىء الفلسفة حين يراجع أقواله فى العقائد العضدية ورسالة التوحيد أنه فرغ من هذه الأقوال جميعا وهو يقول لنفسه : ان المفيد هو أن نعمل ما لابد من عمله ، فدعونا من اضاعة الوقت والعقل فى تحصيل الحاصل ، دعونا من الخلاف فيما يتساوى فيه طرفا الخلاف ، فان ترك الحيرة أولى من الحيرة التى لا تنتهى الى طائل .

وان مسلكه هذا مع الفلاسفة والمفكرين لقريب جدا من مسلكه مع الساسة والأمراء : الاصلاح بدونهم خير من انتظار الاصلاح معهم على غير جدوى .

***

والواضح من تعليقات الأستاذ الامام على العقائد العضدية أنه تتبع مذاهب الفرق فى أمهات مراجعها ، وأحاط باللباب الجوهرى من أقوال الفلاسفة الاسلاميين ، ولم يفته منها غير المصادر التى ظلت مطوية فى مكتبات الغرب وتخصص فيها البحث بآراء الفيلسوف الأندلسى ابن رشد التى كان فيها على خلاف مع سائر الفلاسفة المشرقيين . وقد كان هذا سبب النزاع على الفلسفة الرشدية بين الأستاذ الامام والأستاذ فرح أنطون صاحب مجلة الجامعة . فان كلا الباحثين كانت تعوزه مراجع الآخر «ولعل

هذه المساجلة — كما قلنا فى رسالتنا عن ابن رشد — تهدينا الى أسباب اتساع الخلف وانفراج مسافته بين المتناقشين فى هذه المسائل وأشباهها ، فان اتساع الخلف بينهم انما يأتى على الأغلب الأعم من اختلاف المراجع التى يعتمدون عليها ، وهذا الذى حدث فى مناقشة الأستاذ الامام والأستاذ فرح أنطون ، فلم يكن أحدهما يعتمد على مراجع الآخر في مسألة من مسائل الفلسفة الرشدية أو الفلسفة الاسلامية على التعميم .. قال الأستاذ الامام : وأما العقل فليس كما تقول الجامعة . فان العقل الأول جوهر مجرد عن المادة ، وهو قول صادر عن الواجب ، وقد صدر عنه الفلك التاسع المسمى عندهم بالفلك الأطلسى ، ونفس ذلك الفلك تدبر حركاته الجزئية . وعقل آخر هو العقل الثانى ، وعن هذا العقل الثانى صدر الفلك الثامن المسمى عندهم بالعقل الفعال أو العقل الفياض ، وعن هذا العقل صدرت المادة العنصرية ، واليه يرجع ما يحدث فى عالمها » .

وهذا كله صحيح بالنسبة الى فلاسفة الاسلام فى المشرق على الجملة ، ولكن ابن رشد كان يعتمد على شرح أرسطو مباشرة ويفسره برأيه لا بآراء الفلاسفة المشرقيين ، ويقول من كتاب تهافت التهافت فى مسألة تعدد العقول : ولسنا نجد لأرسطو ولا لمن شهر من قدماء المشائين هذا القول الذى نسب اليهم ، الا لفرفريوس الصورى صاحب مدخل علم المنطق ، والرجل لم يكن من حذاقهم » .

أما الأستاذ فرح أنطون ، فكان جل اعتماده على تخريجات رينان ولم يتوسع فى الاطلاع على كتاب التهافت وغيره توسع استقصاء ، وقد صرح بذلك حيث قال : لا مناص للكاتب العربى اليوم من أخذ تلك الفلسفة عن الافرنج أنفسهم ، فأخذنا كتابا للمستر مولر عنوانه : فلسفة ابن رشد ومبادئه الدينية ، وكتابا

آخر عنوانه : ابن رشــد وفلسفته ، وهو للفيلسوف رينـان المشهور » .

فقد كانت المصادر اذن مختلفة وكان أكثرها مرويا عن صاحبه مأخوذا من خلاصة كلامه ، ولو توحدت المصادر مع حسن النية لما تباعدت بين المتناظرين فى هذه المسألة ، ولا فى غيرها ، شقة الخلاف » .

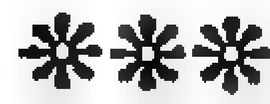
***

فمصادر الأستاذ الامام في مسائل الفلسفة الاسلامية كانت شاملة لمراجعها الوافية من كتب الفلاسفة والمعتزلة والمتصوفة والمتكلمين ، ولكننا لا نعلم عن مصادره التى اعتمد عليها لدراسة الفلسفة الغربية شيئا على التفصيل . وكل ما نعلمه انه كان يطلع عليها فى بعض كتبها بعد تعلمه اللغة الفرنسية ، وأن أقواله عن العقـائد الالهية تدل على علم بآراء الفلاســفة المتأخرين من الأوربيين ، وأغلب الظن عندنا أنه توافق فى التفكير الذى تشابهت فيه الموضوعات الفلسفية قديما وحديثا ، وهى ــ فيما عرضت له ــ من مسائل الخلاف لم تطرق موضوعا لم تسبق اليه فى موضوعات الفلاسفة الاسلاميين .

ولعل من هذا التوافق قوله الذى ارتاح اليه سبنسر حين سأله عن العقيدة الاسلامية فى الاله . فانه ذكر له عقيدة أهل السنة وعقيدة المتصوفة القائلين بوحدة الوجود ثم ذكر له أن بعض المتصوفة الاسلاميين يعتقدون أن الله وجود محض ، وليس بشخص ، فبدا على الفيلسوف الانجليزى أنه ارتاح الى هذه العقيدة ، ويبدو اليوم أنها العقيدة التى يرتاح اليها كبار المفكرين الغربيين ، ومنهم أينشتين صاحب الفلسفة النسبية .

وكذلك يجوز لنا أن نفهم أن الأستاذ الامام نقل عقيدة المتصوفة القائلين بهذا وهو يفرق بين دلالة الشخص Person

ودلالة الذات في عقيدة التوحيد الاسلامية ، لأن الشخص باللغات الأوربية يوحى بالشبه والحد والمثال ، من أصل الكلمة اللاتينية التى أخذت من قناع الوجه المستعار فى التمثيل ، وليس فى كلمة « الذات » ما يوحى بهذا على الحقيقة أو على المجاز ، وانما توحى بأن الذات تحتوى الصفات وتملك ما ينسب اليها من لوازم الكمال .



ولا نجد في كتابات الشيخ محمد عبده أنه أراد أن ينشيء له مذهبا خاصا فى المسائل الالهية كالمذاهب التى تسمى بالنظم فى اصطلاح الفلسفة الحديثة ، ولكننا نجد آراءه كاملة فى كل مسألة من هذه المسائل مبسوطة فى تعليقاته على أقوال الفلاسفة أو المعتزلة أو المتكلمين أو المتصوفة ، يوافق بها كل طائفة من هذه الطوائف أو يخالفها ، مستقلا عنها جميعا بمنهجه الذى امتاز بطابعه الخاص فى الفهم والتحقيق ، وهو طابع الفكرة العقلية العملية ، أو طابع الفكرة الصالحة للتعليم والافادة بالتربية والهداية .

فهو مع الفلاسفة الالهيين فى مسألة الوجود الالهى أو الوجود المطلق ، ولكنه لا يقف بادراكه للقدرة الالهية عند استحالة الخلق من العدم ، لأن الوجود المطلق فى عقيدته ، وتفكيره ، لا يستحيل عليه أن يفيض نعمة الوجود على خلقه ، فليس الخلق من العدم بالمستحيل . بل المستحيل هو العدم نفسه مع وجود الخالق المريد الفعال لما يريد . ولا تكفير عنده لمن قال بقدم العالم وهو يؤمن بأن الله هو الفاعل لما أراده من خلقه . اذ كانت ارادة الله قديمة لا ندرى كنه عملها السرمدى خارج الزمان ، وكان الواجب فى مسألة وجود العالم أن نؤمن بأن له موجداً كما شاء ، فلا يكفر من قال ان الله أوجد العالم في القدم وان يكن مخطئا فى

التفكير . قال فى تعليقاته على العقائد العضدية : « واعلم أنى وان كنت قد برهنت على حدوث العالم ، وحققت الحق فيه ، على حسب ما أدى اليه فكرى ، ووقفنى عليه نظرى ، فلا أقول بأن القائلين بالقدم قد كفروا بمذهبهم هذا وأنكروا به ضروريا من الدين القويم ، وانما أقول أنهم قد اخطأوا فى نظرهم ولم يسددوا مقدمات أفكارهم » .

ثم قال : « ومن المعلوم أن من سلك طريق الاجتهاد ولم يعول على التقليد فى الاعتقاد ، ولم تجب عصمته فهو معرض للخطأ ، ولكن خطأه عند الله واقع موقع القبول ، حيث كانت غايته من سيره ، ومقصده من تمحيص نظره أن يصل الى الحق ويدرك مستقر اليقين » .

وهو مع المعتزلة فى تحكيم العقل والاستهداء به الى هدى الدين ، ولكنه لا يرى رأيهم فى الاستغناء بالعقل وحده ، لأنه يفرق بين مطابقة الدين للعقل وبين الاكتفاء بالعقل فى المسائل النظرية والشرعية ، اذ لا بد من تسليم العقل بنصيب الشرع من الهداية، مادام العقل يعلم أنه لا ينفذ الى كنه الأشياء ، وان العقول الانسانية موكولة الى حكمة الغيب حيث وقف بها مدى التفكير .

وهو مع المتكلمين فى استخدام القضايا المنطقية ، ولكنه يأخذ على غلاتهم ان استخدام المنطق يذهب بهم الى السفسطة أحيانا ، ويدفع بهم الى خلق المشكلات بينهم وبين الفلاسفة أو المعتزلة ، فى غير داع الى الاشكال .

وهو مع المتصوفة ، أو على الأصح مع الحكماء المتصوفين ولا سيما الأخلاقيين ، لأن التصوف عنده رياضة خلقية على هدى الرياضة العقلية ، ولكنه يرى لهذه الرياضة جانبا غير الجانب الحسى من الحياة الدنيوية يسميه « ذوقا » ويحمد من صاحبه

أن يروض عليه ضميره ووجدانه ولا يدين به أحدا من المقيدين بالحياة الطبيعية أو الحياة الحسية ، لأن الأمر فى هذه الحياة لما يستقيم عليه صلاح الجماعة ، ولا محل فيه للذوق الخاص الذى لا تراض عليه طبيعة العموم .

وجماع القول في مذهب الأستاذ الامام انه كان مذهب « المصلح الاسلامى المفكر » الذى أعطى التفكير النظرى كل حقه ولكنه أخذ منه حق العمل على الاصلاح الرشيد المستنير ، واستخلص منه العقيدة الاسلامية خالصة من عقبات الجمود والخرافة التى تصدها عن التقدم وتقعد بها عن مسايرة الزمن والتأهب للحياة بأهبة العقل البصير والضمير الحر والكفاية الخلقية والمادية لمناهضة القوة المستطيلة عليها بسلاح العلم والمال ـ تلك القوة التى أنزلت المسلمين فى العصر الحديث منزلة المغلوبين المستعبدين ، ومن حقهم لو عرفوا دينهم حق معرفته أن يرتفعوا بأنفسهم عن مهانة الخنوع والاستعباد .

وقد كان له في مذهبه هذا تلاميذ مؤمنون بالفكر والعقيدة فى أرجاء العالم الاسلامى من أقصاه فى المشرق الى اقصاه فى المغرب ، وكان أكثر هؤلاء التلاميذ من قادة الفكر المتدينين يقومون بواجبهم المضاعف فى كل بلد اسلامى كما قام به الأستاذ الامام فى وطنه ، فيكافحون الجمود من جهة ويكافحون التفرنج الذميم من الجهة الأخرى ، ويتعرضون فى وقت واحد لعداوة المتألبين عليهم من أنصار الاستعمار والاستبداد وأنصار الجهل المظلم والتعليم الفاسد ، وفئات النفعيين الذين يندسون بين جميع الصفوف ، حيث وجدت المنفعة على كل حساب ، ولو كان حساب الوطن والدين .

على أن تلاميذ « الفيلسوف » محمد عبده كانوا فئة معدودة

تحسب بالآحاد فى كل أمة من أمم العالم الاسلامى ، وكان عليهم أن يعيدوا دعوته بألسنتهم وأقلامهم مرة أخرى حتى تبلغ الى الأسماع والعقول ، وانما انتشرت دعوته الى الاصلاح أوسع انتشارها بين قراء تفسيره للقرآن وفتاواه لطلاب الفتيا الكثيرين ومقالاته وفصوله التى كانت تنشر بتوقيعه أو بغير توقيعه ولاتخفى نسبتها اليه لنشرها فى مجلة « المنار » . وقد أنشأ مسلمو أندونيسية مجلة على مثالها سموها «المنير » تبلغ هذه الدعوة لمن لا يقرءون العربية من أبنـاء الأمة الملاوية ، وتتبع مسلمو الهند دروسه كما توجهوا اليه بالاستفتاء فى كل مشكلة من مشكلاتهم الاجتماعية التى تصطدم عندهم بالعقيدة الدينية ... ولما تسامع المسلمون فى الهند بانقطاع الأستاذ الامام عن ادارة الأزهر وشاع بينهم أنه سيهجر التدريس وقع منهم النبأ موقع الهول الذى لا يحتمل وكتب النواب محسن عميد كلية عليكره ينعى رسالة الاصلاح فى العالم الاسلامى وينحى على الخديو وشيعته من الجامدين أشد الانحاء ويقول انهم « لو كانوا يتوقعون من المستر دنلوب بعد قنوطهم واياسهم من الجامع الأزهر أن يؤسس لهم كليات وجوامع في أرض مصر يكون فيها نشر التعاليم العالية ... لكان فى ذلك بعض التعزية عما قد فاتهم من ذلك فى الجامع الأزهر، ولكن الذى ظهر لنا أنهم لا يتوقعون ذلك من هذه الجهة أيضا ... وعسى أن ينكشف لديهم أن أعضـاء الدولة الذين بأيديهم زمام دولة مصر وملاك أمرها وسلطانها لا يرضون بأن يتاح لهم من التعاليم ما تستنير به قلوبهم وتستضىء به أدمغتهم ويطلعون به على حقوقهم الملية والسياسية » .

وقالت صحيفة الرياض بعد نشر الخبر ومعه خطاب الخديو :

« عجبنا وعجب كل مسلم فى الهند من حكم سموه الذى قضى به فى جمع حافل من العلماء وشدد النكير على حزب المصلحين

وجماعة المخلصين ... فالآن يصدق على من يخرج من الأزهر : ليس له فى الدنيا نصيب وما له فى العلوم الاسلامية من خلاق » .

وكان للنبأ فى البلاد العربية صدى كصداه هذا فى البلاد الاسلامية غير العربية ، وصححت ثورة الخواطر تقدير المصلحين أنفسهم لمدى انتشار الدعوة بين جمهرة المسلمين ومدى النكسة التى أصيبت بها حركة التجديد من جراء تلك الحملة المطبقة عليها من بين صفوف الجامدين وسماسرة الكذب والتشهير ، فوضح لهم بعد الغاشية الأولى أن دعوة الحرية الفكرية أقوى من أن تصدها عن طريقها مكيدة مفتعلة تقوم على التدبير المشترك بين الجمود والباطل ، لأن الجمود ادبار الى الماضى لا محل له فى المستقبل ، والباطل غشاء دخيل لا بد أن ينكشف عن معدنه الأصيل .

وفى مصر كانت مبادىء المصلح الحكيم تسرى سريانها العميق الى العقول الفتية وعقول الكبار من ذوى النيات السليمة، وكانت تستقر على أسسها في الوقت الذى خيل فيه الى المستمعين لضجيج السعاية أن الأمة قد أعرضت عنه بأسماعها وقلوبها ، وأن حملات التشهير قد نالت من سمعته منالا يصرف الناس عن الاكتراث له والمبالاة بعلمه وعمله ، وأملى للمتوهمين فى وهمهم هذا أن الدعوات الفكرية لاتبرزها الحشود الجامعة كما تبرزها دعوات الحوادث السياسية ، فاذا سرت الى العقول متفرقة لم تظهر فى الأمة مجتمعة الا بما يكون لها من النتائج العامة فى الزمن الطويل ، ولكن المصيبة بفقد المفتى بعد اعتزاله ادارة الأزهر هيأت لهذه الدعوة الفكرية حشودها الجامعة التى لم تتهيأ قبل ذلك لدعوة من الدعوات السياسية فى الأمور التى تشغل أذهان الجماهير ، ولم يكن للمفتى الفقيد حزب ذو أداة منتظمة تسخر أعوانه لجمع الجموع وتسيير المواكب ، بل كان صاحب السلطة

الرسمية يعاديه ويغضب على مشيعيه ، وكانت صفة الفقيد الدينية لا تدع مكانا للسلطة الفعلية فى تشييعه والاحتفال بجنازته، وكان الوقت صيفا قائظا والغائبون عن المدن من معتادى الاصطياف خارج القطر وفى قرى الريف أكثر من الحاضرين ، فغلبت الصبغة القومية على كل صبغة رسمية أو تقليدية فى تشييع رفات المفتى الى مقره الأخير من الاسكندرية الى القاهرة ، بل غلبت هذه الصبغة على الصبغة التقليدية التى تعودناها بمصر فى تشييع الجنازات ، اذ كان المفتى فى حياته ينكر هذه المظاهر التقليدية ويعلن النهى عنها ، فكانت موجة الحزن التى غشيت الوف المشيعين على طول الطريق دفعة من أعماق القلوب والضمائر عرفت بها الأمة مبلغ شعورها بعظمة الفقيد الراحل وعظم الخسارة بفقده ، وجاوز الزحام كل ما قدرته الشرطة واتخذت له حيطتها فى المدينتين منذ الصباح الباكر قبل خروج النعش من داره ، فتعطلت حركة الأسواق وأغلقت الدكاكين أبوابها للمشاركة فى موكب الجنازة ، واكتظت الأرصفة بالواقفين والسائرين ، ولم يبق أحد فى العاصمتين من ذوى الفكر والمنزلة لم يشترك فى ذلك الموكب الحافل الذى عمت التعزية فيه وجلت أن تخص عشيرة الفقيد أو ذويه ، ولم يدهش أحد من هذه البادرة القومية بطبيعة الحال ، كما دهش لها النزلاء الأوربيون الذين كانوا يتسمعون أخبار المعارك حول الاصلاح الدينى من بعيد ويحكمون عليها بمقدار ما ينتهى اليهم من لغط الصحافة وأقاويل المرجفين ، فقالت صحيفة الفاردى ألكسندرى « ان توارد الجماهير لتشييع الجنازة يخمد انفاس القائلين بأن المفتى لم يكن محبوبا فى الأمة المصرية (١) » . وقالت صحيفة ليجيبت . « انه مشهد مهيب

---

(١) عدد ١٢ يولية ١٩٠٥ .

من أجل المشاهد واشدها تأثيرا فى النفوس . كان يشتد زحامه بجماهير الناس المصطفين على جوانب الطرق التى مر بها حتى لقد توقفت حركة التجارة فيها ، وكان الناس فى سكون واجلال خلال مرور الجنازة ، يخيل الى الرائى ان جميع سكان القاهرة الوطنيين قد حضروا ليؤدوا آخر فريضة من الاجلال والاعظام لذلك الشيخ الجليل ، وبينهم عدد عظيم من الأوربيين » .

وقد تمحضت هذه البادرة القومية عن معناها العملى الدائم ، ولا يمكن أن يكون لها غير معنى واحد هو الذى شوهد فى واقع الحياة القومية بعد ذلك وبرزت حقيقته فى كل مهمة تتطلب الرجال العاملين من المفكرين المؤمنين بفريضة الاصلاح ورسالة التقدم . فقد شوهد تلاميذ المصلح الكبير على رأس كل حركة جادة من حركات النهضة الوطنية أو الفكرية ، وتلفتت الأمة بعد وفاته تبحث عن القادة العاملين فلم تجد بين المتقدمين للقيادة من هو أقدر على قيادتها وتسديد خطاها وتقرير مطالبها من زمرة الفقيد وخيرة أشياعه وتلاميذه ومريديه ، لا فرق فى ذلك بين شئون الدنيا وشئون الدين ، وحسب القارىء ما يمكن حصره فى الشئون الدينية التى تتصل بالجامع الأزهر ومعاهد التعليم على منهجه ، فلم يكن أظهر بين مشايخه واقطابه من الشيخ محمد شاكر والشيخ مصطفى المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ ابراهيم حمروش والشيخ محمود شلتوت ، وكلهم من مريديه المؤمنين برسالته ، وغيرهم كثيرون مثلهم وأن لم يحضروا كلهم على يديه . أما فى شئون النهضة الوطنية على اختلافها فلا حاجة الى التخصيص باسم واحد من أسمائها أو فرع واحد من فروعها ، فكلها بلا استثناء تقترن باسم — أو أكثر من اسم — بين شيعة الأستاذ الامام ، وقد كانت ثورة مصر الكبرى على الحملة البريطانية

بعد الحرب العالمية الأولى ـ بزعامة سعد زغلول ـ مثالا للأمانة الخلقية والنفسية التى أودعها الأستاذ الامام فى نفوس شيعته وخاصة صحبه ، وأهلتهم في نطاقها الواسع لتلك المهمة الجامعة ، كما أهلتهم لما دونها من المهام المتفرقة فى كل نطاق محدود •

***

وأكبر ما استفاده العقل السليم المستنير من فكرة الأستاذ الامام فى الاصلاح والحرية الانسانية أنه أعاد اليه الثقة بعقيدته فى هذا العصر الحديث ، ورفع من طريقه الى العمل عقبات الجمود والخرافة والتقليد ، لأنه زوده على قواعد دينه بفلسفة الحياة التى يقابل بها فلسفات الغرب المتسلطة عليه من جهة السطوة أو من جهة الايمان بالعقائد والآراء • ولهذا كانت ردوده على فلاسفة الغرب ومفكريه أهم واجدى على المسلم العصرى من ردود المدافعين عن الاسلام على جماعات المبشرين المحترفين ، اذ كانت شبهات المبشرين المحترفين لا تعدو أن تدور حول الشقاشق اللفظية التى تمس الأديان الأخرى أشد من مساسها بالاسلام فى العصر الحاضر أو العصور الماضية ، ولكن شبهات المفكرين على غرار الفيلسوف ارنست رينان والوزير جبرايل هانوتو كانت على غير ذلك الغرار من شبهات المبشرين المحترفين : كانت بحاجة الى الفكر العصرى المؤمن بالدين لمواجهة الأفكار العصرية التى لعلها لا تؤمن بالاسلام ولا بغير الاسلام ، ولكنها تخامر فكرة المسلم كما تخامر ضميره بالأسئلة المعلقة فى انتظار الجواب من ذى ثقة باعتقاده وذى ثقة بتفكيره وذى طوية لا ترتقى اليها الظنون ، وكان الأستاذ الامام مليئا بكل ما يتطلبه العقل المسلم المستنير فى عصره من آيات الثقة وحجج الاقناع ••

كانت ردوده على رينان وهانوتو ردود من يعلم ما قد علموه عن تواريخ الحضارات وخصائص الشعوب وطبائع الأجناس والسلالات ويزيد عليهم بالايمان الثابت والأريحية الانسانية والهمة التى ترفعه

الى مقام الرسالة الروحية ، اذ لا رسالة لأمثال رينان وهانوتو فى عالم العقيدة ولا فى عالم الأصلاح . وقد كان ـ قدس الله روحه ـ أعلى طبقة من مناظريه فى مضمار المناظرة بين المعسكرين المتقابلين ، فكان رينـان وهانوتو يقابلان بين الاســلام والمسيحية ليقابلا بين المسلمين والمسيحيين الأوربيين خاصة ، ويقابلا بعد ذلك بين دعوى الغالب ودعوى المغلوب ولم ينزل الأستاذ الامام الى مضمارهم الا ليدفع عن عقيدة الاســلام دون أن يقدح فى عقيدة المسيحية ، بل كان دفاعه عن الاســلام فى وجه الأوربيين المصطبغـين بالصبغة المسيحية وهم أبعد ما يكونون عن المسيحية السمحة كما يعرفها الأستاذ الامام .. ولم يخرج من ردوده بتنزيه الاسلام وتشويه المسيحية . بل خرج منها جميعا بتنزيه الديانتين واثبات الحقيقة التى يدين بها من يدين بكتاب الاسلام : وهى أن المسيحية ديانة محبوبة لا عداوة بين من يدين بها على أصولها ومن يدين بالاسلام على أصوله ، ولا يحرم على المسلم يوما أن يصاحب أهل الكتاب على سنة أهل الكتاب .

وقد ألهم فضلاء المسيحيين ذلك من وحى فكره ووحى اعتقاده ووحى كلامه فى تفسير القرآن وشرحه للدين فى كل موطن أقام به أو رحل اليه ، فكان أدباء المسيحيين يتسابقون الى دروسه بمساجد بيروت أيام منفاه ، وكان القس الانجليزى اسحاق تايلور يرى أن شرح المسيحية كما يبسطه الأســتاذ الامام يوشك أن يعينه على اقناع الأوربيين بالتوحيد بين الديانتين على الجادة الوسـطى التى يلتقى لديهـا المؤمن بالأناجيل والمؤمن بالقرآن . وعبـر العلامة يعقوب صروف تعبيره الصادق عن شعور فضلاء المسيحيين يوم قال ســاعة دفن الأستاذ الامام لمن حوله من تلاميذه : « انى أسمعكم تقولون فقيد الاسلام والمسلمين ولا تزيدون ، انه فقيد الفكر والعلم حيث كان .. انه فقيدنا أجمعين » .

الفلسفة الاجتماعية :

ومن البديهي أن الفيلسوف المصلح لا يقصر تفكيره على العقليات والالهيات ، أو على فلسفة ما وراء الطبيعة كما تسمى عند المعاصرين ، اذ لا بد له من فلسفة اجتماعية يتبعها في اصلاح المجتمع على مبادئه التي يتوخاها ويتخذها هاديا له الى فضائل المجتمعات المثالية ومواطن عيوبها التي يجتهد اجتهاده في تبديلها أو ازالتها . وهذا هو الواقع في منهج محمد عبده المصلح الفيلسوف . فان فلسفته الاجتماعية مفصلة واضحة من كل ما كتبه في مطولاته ومختصراته بلا استثناء كتابته عن العقليات والالهيات ، ولكننا نستطيع أن نسمي فلسفته الاجتماعية في لبابها فلسفة أخلاقية لا تفرق بحال بين مشاكل الاجتماع ومشاكل الاخلاق ، وليس للاجتماع عنده مشكلة قائمة اذا توفرت العزائم على علاج آفات الخلق في الفرد والجماعة ، وليست عنايته بالناحية الخلقية سهوا عن أثر الشئون المادية أو شئون النظام في آداب المعاملات وآداب النفوس على الاجمال ، لأنه كان يؤمن بأثر الفاقة والثروة معا على ضمائر الناس من الرجال والنساء ، وكان يقول دائما ان العفة ثوب تمزقه الفاقة وان الثروة بغير عمل مفسدة ، وعناصر الكيان الاجتماعي عنده ـ كما عددها في رده على هانوتو سبعة : هي العلم والأدب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح . فليس قيام الكيان الاجتماعي على الأخلاق في رأيه سهوا عن عمل التجارة والصناعة ولا عن عمل النظام العادل في سياسة الناس ، ولكنه كان يعتبر أن الجهل فقر أشد على الناس من فقر المال ، وهو القائل في احدى خطب الجمعية الخيرية : « ان بلادنا ليست بلاد الجوع القتال ولا بلاد البرد القارس المميت ، ولا بلاد الشقاء التي لا ينال الانسان فيها قوت يومه الا بالعذاب الأليم ، بل نحن في بلاد رزقها الله سعة من العيش ومنحها خصوبة وغنى يسهلان على كل عائش

فيها قطع أيام الحياة بالراحة والسعة ، ولكنها ويا للأسف منيت مع ذلك بأشد ضروب الفقر : فقر العقول والتربية » .

وقد قال قبل ذلك فى خطاب المدرسة السلطانية ببيروت : « .. اننا لو نظرنا الى ثروة بلادنا لا نجدها قاصرة عن حاجاتنا ولكن القاصر عن الحاجات هو ادراكنا لاحتياجنا ، فقد نرى الغنى يبذل أموالا جمة فى زخارف زينة لا مقام لها فى نظر العاقل ولا يرى فى بذله هذا مغرما ، ثم اذا دعى الى مساعدة وطنه وملته ودولته يستكثر القليل ويعطي وهو كاره » .

فاذا تحرى النظام العادل توفير أسباب المعيشة الحسنة فالرخاء — وهو غاية ما يبلغه هذا النظام — لا يكفى لاقامة كيان المجتمع ولا لحفظ بقائه من عوامل فنائه ولا من أخطار أعدائه ، ولن يقام للمجتمع كيان بغير المعرفة العملية والتربية الاخلاقية ، ولن يقر له هذا الكيان اذا حرم منهما أحد جنسيه واحدى طبقاته .

ومن أخطر أسباب الضعف التى أصابت المسلمين كما قال فى رده على هانوتو : « ان النساء قد ضرب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن فى دينهن أو دنياهن بستار لا يدرى متى يرفع » . وقد قال فى احدى خطب الجمعية الخيرية الاسلامية : « نحن نتمنى تربية بناتنا ، فان الله تعالى يقول : ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف .. الى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تشرك الرجل والمرأة فى التكاليف الدينية والدنيوية .. وترك البنات يفترسهن الجهل وتستهويهن الغباوة من الجرم العظيم » .

وكان أشد ما ينعاه على من يحسبون أنفسهم من العارفين قولهم : لا شأن لنا بالعامة « فلا يمكن الانسان أن يعمل بمصلحة العامة ما لم يحس برابطة بينه وبينهم »(١) .

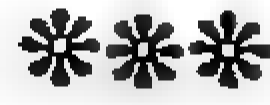
(١) راجع منشآت الاستاذ الامام صفحة ٦٤٩ .

والعلم في رأي الاستاذ الامام سبب من أسباب الثروة والقوة وسبب من أسباب المعرفة الذهنية التي تبصر العقل بأدوات النجاح في أعمال المعيشة ، ولكن التربية الاخلاقيــة شيء آخر غير المعرفة الذهنية • ولا سيما المعرفة التى تتأدى آخر الأمر الى الايمان بالمادة دون غيرها ، وهو ما يسمونه بالفلسفة المادية • وقد لمس الاستاذ الامام آثار هذه الفلسفة المادية فى حضارة الغرب فأشفق من عواقبها على بني الانسان وزادته اعتقــادا بضرورة الدين لصلاح النفوس البشرية وهداية الامــم في حيــاتها الاجتماعية • وأكدت له هذه الضرورة مناقشته للفيلســوف الانجليزى هربرت سبنسر (سنة ١٩٠٣) اذ قال له الفيلســوف الانجليزى : ان الانجليز يرجعون القهقرى فهم الآن دون ما كانوا عليه منذ عشرين ســنة • فسأله الاستاذ الامام : وفيم هذه القهقرى ؟ قال سبنسر انهم « يرجعون القهقرى فى الاخلاق والفضيلة ، وسببه تقدم الافكار المــادية التى أفســـدت أخلاق اللاتين من قبلنا ، ثم سرت الينا عدواها • فهى تفسد أخلاق قومنا وهكذا سائر شعوب أوربة » ثم قال : انه لا أمل له فى صد هــذا التيار « لأنه لابد أن يأخذ مده الى غاية حده فى أوربة • ان الحق عند أهل أوربة الآن للقوة » •

وفارق الأستاذ الامام دار الفيلســـوف وهو يدير فى خاطره كلمة الحق للقوة ويصف أثرها فى نفسه ويحس أنهـــا ما كانت لتحدث لديه هذا الأثر لو جاءت من ثرثارة يهرف بمـــا لا يعرف ثم يدون هذه الخاطرة فى مذكراته :

« هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيرا مما يفيد فى راحة الانسان •• أعجزهم أن يكتشفوا طبيعة الانسان ويعرضوها عليه حتى يعرفها ويعود اليها هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كانت من الحديد اللامع المضيء أفلا يتيسر لهم أن يجلوا ذلك الصدأ الذى غشى الفطرة الانسانية ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها

لمعانها الروحانى ؟ • حار الفيلسوف فى أوربة وأظهر عجزه مع قوة العلم فأين الدواء ؟ الرجـــوع الى الدين • الدين هو الذى كشف الطبيعة الانسانية وعرفها الى أربابها فى كل زمان • لكنهم يعودون فيجهلونها » •



الفلسفة الأدبية :

وربما كانت آراء محمـد عبده ـ المفتى الأكبر ـ فى الفنون الجميلة أقرب الى تعريفنا بسعة الأفق التى امتاز بهـا هذا العقل الراجح من سائر آرائه فى المسائل العقلية والاجتماعية ، فانه كان يكتب قبل ستين سنة ليحبب الفنون الجميلة الى الناس فى الوقت الذى كان الرأى الشـــائع فيه عن النحت والتصـــوير أنهما حرام مستنكر •• وكان المتعلمون العصريون أنفسهم يحتقرون هذه الفنون ولا ينظرون اليها نظرة جدية أو يحسبونها حتى من الكمالات المحتملة فضـــلا عن اللوازم المطلوبة ، وقد خلا الشرق العربى من مدرسة واحدة لهذه الفنون ، وقلت العناية بها فى الصحف السيارة ولم يظهر ـ بعد ـ لها أثر على اللوحة البيضاء يعود الناس أن يحتفلوا برؤيتها ، فكان أكثر ما ينتظر من رجل الدين المتحرر أن يدفع عنها وزر التحريم ويجعلها من المباحات الســائغة لمن يزاولهـــا ، ولكن محمد عبده ـ المفتى ـ كان يكتب يومئذ لينوه بهـــا ويفسر معنى الاقبال عليها بين الغربيين ـ لمن يجهله منا ـ بأنها عندهم كالشعر عندنا وأنها لغة نفسية تفرق فى تعبيراتها بين أدق المعانى الشعرية التى لا تظهر التفرقة بينها من أســـمائها وأوصافها • وفى ذلك يقول من فصل كتبه فى سنة ١٩٠٣ :

« اذا كنت تدرى السبب فى حفظ سلفك للشعر وضبطه فى دواوينه ، والمبالغة فى تحريره ، خصوصا شعر الجاهلية ، وماعنى

الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه ، أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل، فان الرسم ضرب من الشعر الذى يرى ولا يسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يرى .. ان هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الاشخاص فى الشئون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات فى المواقع المتنوعة ، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والاحوال البشرية ، يصورون الانسان أو الحيوان ، فى حال الفرح والرضى، والطمأنينة والتسليم ، وهذه المعانى المدرجة فى هذه الالفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض ، ولكنك تنظر فى رسوم مختلفة ، فتجد الفرق ظاهرا ، باهرا ، يصورونه مثلا فى حالة الجزع والفزع ، والخوف والخشية . والجزع والفزع مختلفان فى المعنى ولم أجمعهما هنا طمعا فى جمع عينين فى سطر واحد ، بل لأنهما مختلفان حقيقة . ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية ، ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع ، وما الهيئة التى يكون عليها الشخص فى هذه الحال أو تلك . وأما اذا نظرت الى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فانك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك ، اذا دعتك نفسك الى تحقيق الاستعارة المصرحة فى قولك : رأيت أسدا — تريد رجلا شجاعا . فانظر الى صورة أبى الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلا أو الرجل أسدا . فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها .. » .

ويعرض بعد ذلك لحكم الشريعة فى تلك الفنون فيقول : « ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام وهى : ما حكم هذه الصور فى الشريعة الاسلامية اذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجثمانية

ــ هل هذا حرام أو جائز ؟ أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟ .
فأقول لك ان الراسم قد رسم والفائدة محققة لانزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال ، أو الصــورة ، قد محى من الأذهان . فاما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعــة واما أن ترفع سؤالا الى المفتى وهو يجيبك مشافهة ، فاذا أوردت عليه حديث : ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون ، أو ما فى معناه مما ورد فى الصحيح فالذى يغلب على ظنى أنه سيقول لك ان الحديث جاء فى أيام الوثنية وكانت الصــور تتخذ فى ذلك العهد لسببين : الأول اللهو والثانى التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين . والأول مما يبغضــه الدين والثانى مما جاء الاسلام لمحوه . والمصور فى الحالين شاغل عن الله أو ممهد للاشراك به . فاذا زال هذان العارضــان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات ، وقد صنع ذلك فى حواشى المصاحف وأوائل السور ولم يمنعه أحد من العلماء . مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضع نزاع ، وأما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذى ذكر ... ولا يمكنك ان تجيب المفتى بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة فانى اظن انه يقول لك : ان لسانك أيضا مظنة الكذب ، فهل يجب ربطه مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب ؟ ... وبالجملة يغلب على ظنى ان الشريعة الاسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق انه لا خطر فيها على الدين ، لا من وجهة العقيدة ولا من وجهة العمل . على أن المسلمين لا يتساءلون الا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها ، والا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ما سماهم بعضهم من الأولياء وهم ممن لا تعرف لهم سيرة ولم يطلع لهم أحد على سريرة ؟ ... وهم يخشونها كخشية الله أو أشد ويطلبون منها

مايخشون أن لا يجيبهم الله فيه ويظنون أنهم أسرع الى اجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى ... لا شك أنهم لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد ، ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الانسان والحيوان ، لتحقيق المعانى العلمية وتمثيل الصور الذهنية ... » .

والمفتى هنا يشير الى «المفتى» بصيغة الضمير للغائب ولا يجزم بفتواه جزم التوكيد ، لأنه كان يكتب تلك الرسائل من أوربة ويوقعها بتوقيعه المستعار كما تعود فى كتابة رسائل الرحلات .

هذا رأيه فى الفنون الجميلة التى لم يشتغل بها ولم يشتغل بها فنان خبير بها فى عصره ، فلا عجب أن يكون رأيه فى فنه الجميل الذى كان هو امام المشتغلين به — وهو فن البلاغة — رأى الرائد الذى يتذوق أسراره فى أشكاله ومعانيه تذوقا سبق به النقاد من خلفائه ، ولا يزال منهم من يقتفى آثاره ولا يدرك مداه(١) .

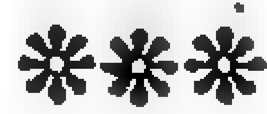
كان محمد عبده الناقد البليغ يوقن أن اللغة مادة البلاغة وجمال التعبير ، وكان من شواغله الكثيرة شاغل واحد لم تشغله عنه مهمة من مهام أعماله المتعددة التى تنوء بالعمل منها كواهل المنقطعين له والمتوفرين عليه . وذلك الشاغل الواحد هو احياء اللغة مادة وعلما ودراسة وكتابة . فكان يعين جماعة احياء الكتب العربية بعلمه ووقته وماله ونفوذه ، وكان ينشر نماذج البلاغة السلفية ويشرحها بقلمه أو ينوه بها فى دروسه وتفسيراته من قبيل نهج البلاغة ومقامات البديع ودلائل الاعجاز وأسرار البلاغة . ومن أهم المراجع اللغوية التى بذل الجهد فى استحضارها وتشجيع الواقفين على طبعها كتاب المخصص لابن سيده ، وهو نوع من المعجمات المبوبة

---

(١) تراجع كلماته المأثورة فى جزء المنشآت من تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده .

على حسب المعاني والاغراض أنفع من أكثر المعجمات التى لا عناية لها بغير جمع المفردات ٠

ومذهب محمد عبده الناقد فى تحصيل مادة اللغة انها تحصيل ملكة وليست بتحصيل قواعد ومصطلحات ، لأن دقائق الفصاحة والبلاغة وبراعة التعبير تحيى الفهم٠وترك الاشتغال بها « موت للحياة العقلية» ٠٠ وكان يقول ان الكلام البليغ سهل على الفطرة ولكنه « صعب على كل عقل تعلم البنانى على السعد » ولا قدرة للأديب على القصد فى التعبير بغير توفير مادته من اللغة ، ولا خير فى المبالغة « فانما يأتى بالمبالغة من كان مجازفا فى رأيه ، والعقل السليم لا يتعدى الصدق » ٠٠ ورأيه فى الشعر البليغ مع جودة اللغة «إنه لا يكون شعرا الا اذا كانت ألفاظه آخذة بجزء من روح الشاعر ٠» والا فهو نظم لابلاغة فيه ٠ وقد كانت توجيهاته لتلاميذه من الشعراء فاتحة اشتغال شعراء عصره بالتعبير عن الحياة الانسانية ــ عامة وخاصة ــ ولولاه لما ظهر كثير من القصائد فى الموضوعات العامة ومنها قصائد كثيرة لحافظ ابراهيم وعبد المحسن الكاظمى ومحمد امام العبد ، وربما أملى على الشاعر ما يقوله حضا لبعض المحسنين بأسمائهم على معونة المنكوبين ، كما فعل فى قصيدة حريق ميت غمر التى نظمها حافظ ابراهيم ٠



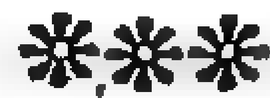
ويصدق على الشيخ محمد عبده الأديب أنه استعاد أطوار الأدب فى كتابته من نهاية عصر التقليد الى الطور الأوسط من عصر التجديد الحديث ٠ ففى كتاباته الأولى كان يلتزم السجع على عادة المتأخرين مع اجتناب اللغو الذى كانوا يخلطونه بمقالاتهم ولا يتحرون فيه معنى مفهوما يقصدون اليه ، ثم تخلص من قيود السجع وترسل فى أسلوبه مع تحرى الفصاحة فى الكلمة وتصحيح

الخطأ المشهور من أخطاء النحو والصرف التى كانت تتخلل الكتابة فى عصره ولا تزال تتخللها فى كتابة المتحرزين من هذه الاخطاء ، لغلبتها الطويلة منذ أزمنة بعيدة على المفردات والتراكيب ، وقد سلم أسلوب الاستاذ الامام منهـا الا القليـل الذى لا يصعب رده الى القاعدة ببعض التـجوز والتأويل ، ولو من قبيل تجويز الخطأ المشـهور • وقد نظم الشعر فى الحوادث التاريخية وفى بعض المناسبات الخاصة ، وعده من النظم الذى يراد للتدوين أو التذكير، ولا يرتضيه شعرا على مذهبه فى فن الشعر بين ألوان الفن الجميل •

ولم يتسع له الوقت لتأليف الكتب فى علومه التى كان يشارك فيها مشاركة وافية كعلوم الدين والفلسفة والبلاغة ، ولكنه فسر القرآن الكريم الى سورة النساء ، وفسر السـور التى كان يحفظها التلاميذ من الجزئين الأولين ، وشرح الفلسفة الاسلامية فى تعليقه على العقائد العضدية ، والمنطق فى شرحه للبصائر النسفية ، وكتب رسالة التوحيد تبسيطا لهذه الفلسفة ، واجتمع من مقالاته فى الرد على هانوتو كتيب صغير، واجتمع من مقالاته عن الاسلام والنصرانية كتاب أكبر منه وأوسع فى بابه ، وله فى الأدب شرح نهج البلاغة ومقامات البديع ، وله فى التصوف رسالة الواردات التى كتبها فى صباه ، ورسالة أخرى فى علم الاجتماع ألفها يوم عمل فى التدريس بدار العلوم ، ولكنها ضاعت ولم يبق من فصولها - أو على الأصح من معـانيها - غير ما أودعه بعض البـحوث فى الوقائع المصرية والأهرام وصـحيفة العروة الوثقى ومجلة المنـار وتقديمه لترجمة رسالة الرد على الدهريين •

ولا يحسب هذا المحصول قليلا من مجهود التأليف فى حياة رجل جم المشاغل والأعباء توفى وهو يناهز الثـامنة والخمسين ، ولكن عظمة هذا العقل الكبير وسعة الآفاق التى كان يجـول فيها بتفكيره وجهوده تصغر هذا المحصول بالقيـاس الى المحصول الذى

كان مستطاعا له مع اليسر وقلة الكلفة لو أنه انقطع للتأليف • فليست هذه المؤلفات ، على وفاء الفلسفى منها فى بابه ، الا كالشعاع القوى الذى ينبثق عن الشمس فيدل على ما احتجب منها ، ولكنه يعطى الناظرين كل ما تعطيه الشموس من ضوء النهار ، تتلقاه النوافذ وتحول دونه الجدران •



ولا نحسب أننا نحيط بذلك الأفق الواسع من شتى نواحيه اذا ختمنا الكلام على المصلح الفيلسوف دون أن نذكر حظه من فنون الرياضة البدنية الى جانب حظه الكبير من رياضات العقل والروح. فقد كان هذا المجاهد الباسل فى ميادين الاصلاح فارسا سباقا فى ميادين الفروسية والرياضة البدنية ، وكان فتيان اقليمه يرحلون اليه لمباراته واكتساب الشهرة بسبقه أو اقتران أسمائهم باسمه ، وظل الى آخر أيامه يركب الجواد أحيانا من بيته بعين شمس الى القاهرة أو من القاهرة الى بيته •• وكان يمتطيه كثيرا فى ذهابه الى الجامع الأزهر ، ويقول لمن يراجعه من أنصار التقاليد أن الفروسية كانت من سمت النبوة ، وان العالم الذى يتوكأ على السند الى اليمين والشمال انما يدرج ـ كما قال فى تقريعه اللاذع ـ على سمت « ستى هانم » وليس هو بسمت علم ولا عمل • وقد شهدناه فى أسوان يحضر على صهوة جواد الى ميدان الرياضة ليشهد مباراة كرة القدم بين مدرستها واحدى المدارس القريبة منها ، فأعجبنا منه رجل الدين المهيب ، يزيده وقارا ولا يخل بوقاره أن يقدس رياضة الأبدان بقداسة الدين ، وفهمنا بهذه الزيارة الصامتة درسا عن الاسلام فى عصر الحركة التى لا تهدأ والحياة التى لاتقبل الجمود والوناء ، انه دين النفس القوية فى الجسد القوى ، لا امام له أحق بالاتباع من هذا الامام •

شخصية ولا شخصية

لوحظ فى كتابة التراجم والسير أن البحث عن أحوال الشخصيات المشهورة يغرى القارىء ــ والكاتب معا ــ بالبحث عن أحوالها « الشخصية » ويشوق المستطلع الى جوانبها الخاصة التى تقابل جوانبها العالية ، أو جوانبها التى اشتهرت فيها أعمالها العامة •

ونلاحظ قديما وحديثا ــ قبل كتابة هذه الصفحات التى نختمها بهذا الفصل ــ أن سيرة محمد عبده كانت احدى السير التى يقع فيها الاستثناء القليل من هذه القاعدة ، فاننا نزداد اكتفاء بأخباره العامة ــ عن أخباره الخاصة ــ كلما توسعنا فى معرفتنا به ومعرفتنا ببواعث أعماله ، كأننا نحس بعد التوسع فى المعرفة بشخصيته انها « شخصية » ولا شخصية ، أو أن أعماله الخاصة هى أعماله العامة بغير حاجز من السر أو العلانية يفصل بينهما ، فكل ما فيها من بواعث «الأنانية» والأثرة فهو فيها جنبا لجنب الى بواعث الانسانية والإيثار •

يشوقنا كلما فهمنا عملا من أعماله أن نراه ونتأمل صورته المشهودة ، كأنما نسائل أنفسنا أى طلعة تكون لهذا الانسان الذى غاب بجمع نفسه وعقله فى الشعور الانسانى حتى كاد أن يخفى بشخصه عن عالم الملامح والقسمات ، لولا أنه شخص عظيم لا يجوز عليه الخفاء •

نتطلع الى رؤيته لنرى كيف تتمثل فيه هذه « الانسانية »

الضافية مطبوعة أمام النظر بطابع انســان واحد ، ولكننا لانبحث كثيرا بعد ذلك عما يعنيه • لأننا علمنا أن شئونه الخاصة لاتنعزل عن شئونه العامة ، وأن قرابته فى داره وجواره هى احدى قراباته العامة ــ قرابته الانسانية ، وليست قرابة آخرى لها حال غير هذه الحال ، ووجود غير هــذا الوجود ، وحجاب يتغير جانبه من هنا عن جانبه من هناك •

رأيت الشيخ محمد عبده مرات معدودة ، ورأيته مرات لاتحصى فى صوره الشمسية التى لا تلتبس احداها بملامح صورة أخرى ، فكانت النظرة الأولى كالنظرة الأخيرة الى تلك الملامح فيما تنم عليه وتشير اليه :

قوة وطيبة متفقتان لا يبين لك أنهما تنازعتا يوما أو تتنازعان• فهو قوى لا ينازعطيبته نية من نياتها ، وهو طيب لا ينازع قوته دافعا من دوافعها ، وهو أقرب الناس سمة بما يرتسم فى أخلادنا من سمات النبوة ، وهى فى طلعتها الانسانية بشر مثلنا ، وان لم نكن نحن بشرا مثلها فيما تتلقاه من وحى الله •

قال عنه تلميذه وصـــديقه وأقرب الناس اليه فى عامة أمره وخاصته صـاحب المنار الســيد محمد رشيد رضـــا تغمدهما الله برضوانه : « انه سليم الفطرة ، قدسى الروح ، كبير النفس وصادف تربية صوفية نقية زهدته فى الشهوات والجاه الدنيوى وأعدته لوراثة هداية النبوة فكان زيته فى زجاجة نفسه صافيا يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار » •

وافتتح ترجمته بعد وفاته بنحو عشرين سنة بقوله عنه : «ان هذا الرجل أكمل من عرفت من البشر دينا وأدبا ونفسا وعقلا وخلقا وعملا وصـــدقا واخلاصا ، وان من مناقبه ما ليس له فيه ند ولا ضريب • وانه لهو السرى الأحوذى العبقرى » •

وقال قبل ذلك : « وانني وايم الحق لم أطلع له على عمل الا الحقيق بلقب المثل الأعلى من ورثة الأنبياء » .

وقال قبل ذلك : « وانني وايم الحق لم أطلع له على عمل ينافي العفة والنزاهة ولا الورع والشرف ولا هفوة تدل على كامن حقد أو حسد ، فهو أكمل من عرفت من البشر ، ومن اطلع على دخائل كثير من المشــــهورين بالعلم والتقوى أو الحكمة والفلسـفة أو تاريخهم الصحيح رأى كثيرا من العجر والبجر . فما قولكم في زعماء السياسة وعشاق الرئاسة » .

وهذا السمت الذي وصفه صاحب المنار بعد الخبرة الطويلة هو السمت الذي كان يبده الناظر اليه من الغرباء عند النظرة الأولى، كما وصــفه هارولد ســـبنسر كاتب حزب الأحرار الانجليزي في صحيفتهم الديلي كرونكل بعد وفاته بأسابيع ، اذ يقول عن لقائه له بدار صديقه عدو الاستعمار ويلفرد سكاوين بلنت :

« هنا أمسك مستر بلنت عن الكلام والتفت فجأة لسماعه وقع حوافر فرس، فقال : ها هو الرجل... فالتفت مثله فاذا أنا بصورة انسان يقول الناظر اليها انها برزت من كتب الأنبياء الأقدمين . شيخ حسن البزة جهير يمتطي فرسا عربيا كميتا جميلا يقبل نحونا على مهل » .

كانت له طلعة وسيمة مهيبة ، تتوقد فيها عينان نفاذتان . على قامة معتدلة لا الى البدانة ولا الى النحول . أبيض اللون الى سمرة ، شائع الشيب في رأسه ولحيته قبل أوان المشيب، وبنيته على ما وصف به شبابه بنية رجل سليم الجسد مكين البنيان ، تعرض في عنفوانه لتسمم سرى الى الدم من دمل لم يعقم، فنجا منه بمعجزة الجسد المكين والدم القوى والعزيمة الصادقة ، وظلت عقابيله تعاوده فيما كان يعتريه من آلام المفاصل حينا بعد حين ، ولم تكن وفاته دون الستين

بمرض من أمراض الهرم العاجل ، ولكنه توفى من أثر سرطان فى الكبد لم يتحقق منه الأطباء قبل استفحال الداء » ٠

هذه هى شخصية محمد عبده لمن تشوقه الشهرة المسموعة الى الرؤية المشهودة ، فاذا تطلع الى الخبر الخاص من سيرته فالذى يعلمه بعد البحث الطويل قليل ، ولكن القليل فيه والكثير يستويان فى التعريف بما يعنينا من تلك العظمة وما يعنيها : شخصية ولا شخصية ، وانسان له «أنانية» تخصه من بين جميع الناس ، ولكنها كأنانية النوع الانسانى كله تحيزت بمكانها فى فرد انسان ٠

توفى عن زوجته اللبنانية السيدة رضا حمادة من آل بيت حمادة ، ولم يعقب من الأبناء الذكور غير ولد واحد توفى فى طفولته، وأعقب أربع بنات كانت احداهن دون سن الزواج عند وفاته ، وتزوج اخواتها بثلاثة أخوة هم الأستاذ محمد يوسف المحامى وشقيقاه الأستاذان عبد اللطيف وعثمان ٠

وكان له عند وفاته ثلاثة أخوة من أبيه ، أصغرهم «حمودة بك» الذى رباه من طفولته وتولى عنه شئونه الخاصة التى لم يفرغ لها طول حياته ، وهو الذى اشترى باسمه أرض الدائرة السنية التى كانت تباع بالتقسيط ، واشترى باسمه خمسة وثلاثين فدانا من صحراء عين شمس كان الفدان منها يباع بعشرة جنيهات ، ثم بيع بعد ذلك بخمسة وأربعين بعد البدء بتعمير الصحراء ، أما مسكن الشيخ محمد عبده بصحراء عين شمس فهو فدان من الأرض الخلاء تركه له المستشرق ويلفرد سكاوين بلنت يوم أمر بالسفر من الديار المصرية، وبنى عليه مسكنا متواضعا هو الذى اشترته وزارة الشئون الاجتماعية لتخليد ذكراه ، ومن ثمنه سدد الورثة ما بقى من أقساط الثمن على الأرض التى اشتراها أخوه فى حياته ، وقد كانت الأسرة تملك نحو أربعين فدانا من أرض البحيرة المثمرة ، فلم يجتمع فى

يديه من ميراثه ومن مرتباته وأثمان مؤلفاته غير ذلك المقدار اليسير من المال الذى يكفى لشراء الفدادين من أرض فى الصحراء أو أرض تباع بالتقسيط ٠

***

وهذا المصلح المحسن الذى لم يفارقه شعور الحاجة قط ليغنى ذوى الحاجات ، لم يخامره الشعور بالحاجة يوما ليطلب الغنى بما تملكه الأيدى ويحفظ فى صكوك المواريث ٠

سنوات فى تاريخ الاستاذ الامام

سنة

١٨٤٩ ولد بقرية محلة نصر .

١٨٥٩ بدأ تعلم القراءة بمنزل والده .

١٨٦٢ تلقى أول دروس التجويد بالمسجد الاحمدى .

١٨٦٤ تلقى اول دروسه العلمية بالمسجد .

١٨٦٥ عاد الى قريته وتزوج .

١٨٦٥ أعاده والده الى المسجد .

١٨٦٥ حضر أول الدروس بالجامع الازهر .

١٨٦٩ لقى السيد جمال الدين .

١٨٧٣ أخذ في الكتابة المنشورة .

١٨٧٥ الف حاشيته على شرح الدوانى .

١٨٧١ نال شهادة العالمية .

١٨٧٨ عين مدرسا بدار العلوم .

١٨٨٠ عين محررا للوقائع المصرية .

١٨٨٢ نفى من مصر لاشتراكه فى الثورة العرابية .

١٨٨٤ سافر من بيروت الى باريس لانشاء مجلة العروة الوثقى مع السيد جمال الدين .

١٨٨٥ عاد الى بيروت واشتغل بالتدريس وترجم رسالة الرد على الدهريين وشرح مقامات البديع ونهج البلاغة .

١٨٨٨ عاد الى مصر وعين قاضيا بالمحاكم الاهلية .

١٨٩١ عين قاضيا بمحكمة الاستئناف .

١٨٩٥ عين عضوا بمجلس ادارة الازهر .

١٨٩٧ الف رسالة التوحيد وشرح البصائر النصيرية .

١٨٩٩ عين مفتيا للديار المصرية ثم عضوا بمجلس الشورى .

١٩٠٠ انتخب رئيسا للجمعية الخيرية الاسلامية .

١٩٠٢ الف كتاب الاسلام والنصرانية .

١٩٠٣ نشر الرد على هانوتو .

١٩٠٥ اعتزل مجلس ادارة الازهر .

١٩٠٥ توفى بالاسكندرية .

فهرس

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٤٢/١٩٧٠

ملتزم التوزيع
في الجمهورية العربية المتحدة وجميع أنحاء العالم
الشركة القومية للتوزيع

مكاتب الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

١ – فرع شريف	٣٦ شارع شريف	تليفون ٤٠٠١٢	القاهرة
٢ – فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣٩	القاهرة
٣ – فرع ميدان عرابي	٥ ميدان عرابي	٤١٣٨٣	القاهرة
٤ – فرع المبتديان	١٣ شارع محمد عز العرب	٣١١٨٧	القاهرة
٥ – فرع الجمهورية	٢٢ شارع الجمهورية	٩١٠٧١٢	القاهرة
٦ – فرع عابدين	١٤ شارع الجمهورية	٩١٤٢٢٣	القاهرة
٧ – فرع الحسين	ميدان الحسين		القاهرة
٨ – فرع الجيزة	١ ميدان الجيزة	٨٩٨٣١١	القاهرة
٩ – فرع أسوان	السوق السياحي	٢٩٣٠	أسوان
١٠ – فرع الإسكندرية	٤٩ ش سعد زغلول	٢٥٩٢٥	الإسكندرية
١١ – فرع طنطا	ميدان الساعة	٢٥٩٤	طنطا
١٢ – فرع المنصورة	ميدان المحطة		المنصورة
١٣ – فرع أسيوط	شارع الجمهورية		أسيوط

مراكز ووكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

١ – مركز توزيع الجزائر	شارع بن مهيدي العربي رقم ١١ مكرر	الجزائر
٢ – مركز توزيع لبنان	شارع دمشق	بيروت
٣ – مركز توزيع العراق	ميدان التحرير	بغداد
٤ – عبد الرحمن الكتاني	شارع ٢٩ أيار – دمشق	سوريا
٥ – الشركة العربية للتوزيع	ص. ب رقم ٤٢٩٨ بيروت	لبنان
٦ – قاسم الرجب	مكتبة المثنى – بغداد	العراق
٧ – رضا العيسى	وكالة التوزيع – عمان	الأردن
٨ – عبد العزيز العيسى	دار التوزيع ص.ب ١٥٧١	الكويت
٩ – وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ – مكتب الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص – ليبيا	بنغازي
١١ – محمد بشير الفرجاني	٥٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ – الشركة الوطنية للتوزيع		تونس
١٣ – وكالة الأهرام	شارع الرشيد	عدن
١٤ – المكتبة الوطنية	المنامة – الخليج العربي	البحرين
١٥ – مكتبة العروبة	ص.ب ٤٢ و ٩٤	الدوحة
١٦ – عبد الله حسين الرستماني	المكتبة الأهلية ص.ب ٢٦١	دبي / عمان
١٧ – المكتبة الحديثة	ص. ب ٢٧	مسقط
١٨ – أحمد سعيد حداد	المكتبة الوطنية ص.ب ٢٥	المكلا
١٩ – مكتبة دار القلم	شارع عبد المغني ميدان التحرير	صنعاء
– علي إبراهيم شمر	ص. ب ٨٢	أسمرة
٢١ – عبد الله قاسم الحراري	ص. ب ١٧١٤	أديس أبابا
٢٢ – مكتبة سمير	ص. ب ٩٣٦	مقديشو
٢٣ – عبد الله هاشم محمد	ص. ب ٨١٥	ممباسا
٢٤ – مكتب توزيع المطبوعات العربية	لندن	لندن
٢٥ – المكتب التجاري الشرقي	٤٠ ش كيمعار ص. ب ٢٥٠٥	سنغافورة
٢٦ – مكتبة مصر		الخرطوم
٢٧ – مكتبة النصر		وادي مدني
٢٨ – زكي جرجس مطلوس	ص. ب رقم ١٥٥	الخرطوم
٢٩ – إبراهيم عبد القيوم	مكتبة القيوم ص.ب ٤٨٠	بور سودان
٣٠ – عوض الله محمود دبورة	مكتبة دبورة ص.ب ٢٤	عطبرة
٣١ – عيسى عبد الله	المكتبة الوطنية ص ٢١٥	وادي مدني
٣٢ – مصطفى صالح	ص.ب ١١	كوستي

أسعار البيع للجمهور في الدول العربية

سوريا ٥٠ قرش سوري – لبنان ٥٠ قرش لبناني – الأردن ٥٠ فلس – العراق ٥٠ فلس – الكويت ٧٠ فلس – السودان ٥٠ مليم – ليبيا ٥٠ مليم – قطر ٧٥ درهم – البحرين ٧٥ فلس – عدن ١٠٠ سنت – أديس أبابا ٥٠ سنت – أسمرة ٥٠ سنت – الجزائر ٨٠ سنتيم

الهيئة العامة للتأليف والنشر

تقدم

الأعمال الكاملة لدستويفسكي

صدر منها

المجلدات الأول والثانى والثالث والرابع والخامس

وصدر منها حديثا

المجلد السادس الثمن ٨٥ قرشا

المجلد السابع الثمن ١٠٠ قرش

نقل هذه المجلدات إلى العربية : الدكتور سامى الدروبى

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

دار الكاتب العربي

